التيسيرُ في فهم التفسيرِ

د. محمود خالد الزهار

المجلد الأول

من سورة الفاتحة إلى سورة النساء

الطبعة الأولى

٢٠٢١م – ١٤٤٣هـ

المحتويات

سورة الفاتحة ٩
سورة البقرة ١٦
سورة آل عمران ٢٤٣
سورة النساء ٣٥٧

أعوذ باللّه السميع العليم من الشيطان الرجيم

﴿بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

إنِ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَأعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، له الحمد كما ينبغي لجلالِ وجههِ وعظيمِ سلطانهِ، عنت الوجوهُ لعظمتهِ وكبريائهِ، وخضعت الخلائقُ لقدرتهِ وسلطانهِ، اللهمّ عزّ جاهُك، وجلّ ثناؤك، وتقدّست أسماؤُك، لك الحمدُ بالإيمان، ولك الحمدُ بالإسلام، ولك الحمدُ بالقرآن. وَأصلّي وأُسلّم على الحبيب محمدٍ وأشهد أَنَّه عَبْدُ اللهُ وَرَسُولُهُ ﷺ وأصلّي على آلهِ وصحبهِ، ومن سار على دربهِ إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنّه مما لا شكّ فيه أنّ الإنسان مخلوقٌ مكرّمٌ بشهادة ربّه ﷻ؛ قال ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ [الإسراء-٧٠]، ومن كرمه ﷻ على بني آدم أنْ علّمهم الكلام، جاء في هذا قول الرحمن: ﴿**عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾ [الرحمن-٤] وأرسل فيهم الرُسل، عليهم السلام؛ ليهدوهم إلى الصراط المستقيم. وبعد:

بدأت رحلتي مع هذا الكتاب الكريم، الكتاب العظيم؛ القرآن، والفرقان، والذكر، والنور، والبيان، والتنزيل. كما جاء وصف القرآن بالهدى، والشفاء، والرحمة، والمبارك، والمبين، والبشرى، والعزيز، والمجيد، والنور، والموعظة، والبشير، والنذير، ومحكم الآيات. وبدأت رحلتي في معرض الإعدادِ لدروسٍ في المسجد مُختصرةٍ؛ لتوضيح بعض القضايا العلمية والطبيّة التي وردت في القرآن الكريم، فأخذني هذا بمرور الوقت إلى تلخيص بعض ما جاء من هذه الظواهر، ثم بدأت بدراسة معاني العديد من الحروف العربية الواردة في القرآن الكريم، التي كرّمها ﷻ؛ فبلغتها جاء القرآن الكريمُ، الذي نزل على الرسول الخاتم ﷺ.

وقد وضعتُ في هذا الكتاب الخط القرآني باللون الأحمر بين قوسين مميزين ﴿ ﴾ وجاء تفسيره باللون الأسود؛ لتسهيل الأمر على القارئ وعندما أستعين بآيات أخرى أضعها بين قوسين ﴿ ﴾ باللون الأسود، وبالرسم القرآني.

لقد اختار اللهُ ﷻ اللغةَ العربية من بين كلِّ لغات الإنسان التي علّمهُ الله تعالى إيّاها من لدن آدم عليه السلام، وحتى اليوم؛ لتكون لغةَ القرآن، وجعلها لغةَ العرب؛ الذين جاء منهم أعظم رسولٍ هو محمدٍ ﷺ، وجاءت كُلُّ أسماء الله ﷻ الحسنى، والبالغُ عددُها تسعة وتسعين بحروف اللغة العربية، بعد استثناء (أل) التعريف؛ لتُدلل على منهج الاختصار لأعظم الأسماء، فإذا كان الاختصار في عدد حروف الأسماء العظيمة إرادة الله ﷻ في اسمه وصفته، واسم رسوله

ﷺ؛ فلا عجب أنْ نعتمد هذا المنهج في فهم الحروف القرآنية في كلّ آيات كتابه، القرآن الكريم؛ لذلك كانت حروفُ اللغةِ العربيةِ هي الأداةَ المناسبةَ لمعرفة هذه المعاني العظيمة؛ ومن هنا كان منهج هذه الدراسة مبنيًا على معرفةِ معنى الحروفِ العربيةِ بوضوح، وكانت المفتاح الصحيح، والأسهل؛ لتحقيق هذه الغايات؛ لقد كانت هذه الحروف العربية وتلك الكلمات دالّة فيما تُقدمهُ من المعاني، ولأنّ معرفة معنى الحرف في موضعٍ معينٍ هو مِفتاحٌ يُسهّل فهم المعنى المقصود، رأيت أنْ أعتمد هذا النهج؛ لتحقيق غاية تيسير فهم القرآن الكريم.

لقد خلا هذا التفسير من الروايات الإسرائيلية، وتجنبت الاستعانة بالأحاديث الضعيفة بقدر الإمكان، واعتمدت من بعد الله ﷻ على إخوةٍ كرامٍ، أهل التخصص بتزويد هذا الكتاب بالأحاديث الصحيحة وقليلٍ من الأحاديث الحسنة.

وقد رجعت في هذه الدراسة إلى توضيح العديد مِنْ الظواهرِ الطبيعية الوارد ذكرها في القرآن الكريم، وعرفها الإنسانُ بصورةٍ كبيرةٍ في مسيرته العلمية؛ والتي كانت دليلًا إضافيًا على عظمةِ القرآن الكريم؛ الكتاب المُبارك، الذي نزل على محمد ﷺ، النبيّ الأُمّي في أُمّةٍ أُميّة، وقدّمتُ منهجًا علميًا واضحًا عن العلاقة بين الجسم والروح، والنفس، كما ذكرت بعض الحقائق العلمية عن المخلوقات من الحشرات والكون، التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، لتبيّن عظمة المخلوق التي هي من عظمةِ الخالق سبحانه وتعالى، كما عُززّت بعض الآيات بآياتٍ أخرى، واعتُمدت بندُ **التكليف**؛ وهو استخلاصٌ لبعض العبر من بعض الآيات، وعلى مستوى السورة بكاملها.

وعرضتُ؛ بحكم مهنتي الطبية لبعض الحقائق العلمية في جسم الإنسان، ووظائف أعضائه؛ التي أكدتْ السياق القرآني ووضّحته، والتي نزلت على النبي محمد ﷺ قبل معرفة الإنسان لهذه الحقائق الطبية بأكثر من ألفٍ وأربعمائة سنة، واستعنتُ بأهل الاختصاص من العلماء الأجلاء في توثيق، وتوضيح معاني كثير من الآيات بالأحاديث الموثقة ذات العلاقة، وعرضتُ أيضًا تصوري عن الحروف المقطعة في أول بعض الصور، مستفيدًا من ترابطها الموقعي والمعنوي حيث كان منهجي هو البحث "على من يعود الضمير" على قاعدة علماء النحو والبلاغة بأنّ الضمائر -في الكلام- الأصل أنْ تعود على متقدّمٍ في اللفظ والرتبة، ولا تعود على متأخرٍ في اللفظ والرتبة، معتمدًا على اجتهادٍ بأنّ الضمير في الفعل يعود على ما سبق من الأسماء. وفي النظرةِ إلى هذا الدين الخاتم، ومسيرةِ البشرية؛ فإنّني أضعُ مقدمةً أراها، والله ﷻ أعلم؛ تُؤكدُ على حقائق أربع:

أولًا: وحدةُ الكون: هي وحدةُ المخلوق، وهي التي حدّد اللهُ ﷻ لها العلاقات، وثباتها بين الكواكب والأجرام، وعلاقة كلّ ذلك بالأرض التي نحيا عليها، بما فيها، وبمن عليها، ويكفي – مثلًا– علاقة الشمس والقمر بالأرض، وغيرها من الكواكب والنجوم، وما يصدر عنها من ضوءٍ، وحرارةٍ، وتحرك الهواء، ودورة الماء الأرضية،... إلخ.

ثانيًا: الإنسان: وهو المخلوق الذي من أجلهِ خلق اللهُ ﷻ الأرض؛ ليعيش عليها؛ قال ﷻ: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا**﴾ [البقرة-٢٩]، وعن الإنسان في القرآن الكريم نرى الحقيقةَ الواضحة؛ أنّ المجتمع الدولي يتكون من شعوبٍ، ومجتمعاتٍ، يُصنّفُ الفاعلُ فيها إلى ثلاثِ كتلٍ رئيسةٍ، جاءت في أولِ ثلاثِ سورٍ من القرآن الكريم، التي تُكون مجموع البشريةِ بعد رسالةِ محمدٍ ﷺ، وهي:

السورة الأولى: وأراها، واللهُ أعلم، خاصّة للأمّة الإسلامية، وتمثلها سورة الفاتحة، والتي هي ركنٌ أساسٌ في الصلاة، فما من صلاةٍ إلّا كانت فيها الفاتحة؛ فهي سورةُ المسلمين، الذين تجاوز عددهم اليوم ملياريْ نسمة، من واقع حوالي سبعة مليارات إنسان تقريبًا.

السورة الثانية: سورةُ البقرة، وهي الثانيةُ في الترتيب، وهي سورةُ بني إسرائيل، يهودُ الماضي، ويهودُ هذا الزمان، ويهودُ القادم من الزمن، بما لهذه الطائفةِ من نفوذٍ كبيرٍ، وسطوةٍ سياسيةٍ كبيرةٍ، وتأثيرٍ على حياةِ الإنسان، وبخاصّة في المجتمعات الغربية الحديثة.

السورة الثالثة: سورةُ آل عمران، وهي سورةُ النصارى وهم القوةُ الطاغيةُ والباغيةُ على الإسلام وعلى المسلمين عبر التاريخ، وخاصّة في التاريخ المعاصر، وهم الذين في تحالفٍ وتعاونٍ وثيقٍ مع اليهودية المُعاصرة.

وأرى أنّ بقية السور تحدثت عن تفاصيل هذه العلاقات بين الكتل البشرية الثلاث، وتاريخ بعض الأممِ السابقة، والتي تُبيّن وتُوضّحُ وتُفصّلُ لأمّةِ محمدٍ ﷺ، وتُحددُ كيف يكونُ أصحابُ الصراط المستقيم، وكيف يتجنبون كيد يهود، ومكر النصارى، ويُبطلون حقدهم وعدوانهم، وتدخل في هؤلاء قوى، مثل: الصين والهند، وغيرها من الشعوب، وهذه تبدأ من الآية رقم (١١٦) من آل عمران حتى الآية رقم (١٨٠).

ثالثًا: وحدةُ الزمن: منذ أنْ خلق الله ﷻ الكون، والزمنُ متصلٌ، لم تتخللهُ فتراتٌ غاب فيها الكونُ العظيم عن وظائفه، إنّه يعمل في منظومةٍ متواصلةٍ، ومتصلةٍ، بمتانةٍ بديعةٍ في وحدةٍ تربطها علاقاتٌ كونيةٌ عظيمة؛ تجعل هذه الكواكب تسير وفق قوانين قدّرها الخالقُ العظيم ﷻ، حتى يوم القيامة، كما أخبر بذلك ﷻ.

رابعًا: وحدانيّة الخالق: إنّ وحدة الكون المخلوق ووحدةِ الزمنِ المتصلِ بهذا النظام البديع؛ سببُهما الخالق الواحد، فلو شارك في الخلق أكثرُ من واحدٍ لاختلفا، وفسدت المخلوقات، وتناقضت، وتصارعت؛ وزالت، وفي هذه الرؤية للكون وخلقه وخالقه، وفي هذا السياق؛ تأتي مُهمةُ التيسير في فهم التفسير.

كان الاقتصار على تفسير الآيات، وبيان معانيها من الحروف التي تكونها، دون دخولٍ في مسائل القراءاتِ، والإعرابِ، والفقه، ونحوها فهذه لها مصادرها.

كما اتبعت منهج سلف الأمّة، رضوان الله تعالى عليهم، في التفسير، وهو تفسير القرآن بالقرآن فما أُجمل في مكانٍ فإنّه قد بُسط في موضعٍ آخرٍ، فإن لم نجد فبالسُنّةِ النبوية فإنّها شارحةٌ للقرآن وموضحةٌ له، عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ كَرِبَ الْكِنْدِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ) (رواه أحمد ١٣٠/٤)، فإنْ لم تجد في السُنّة فمن أقوال الصحابة، فإنّهم أدرى بذلك لِما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اخْتُصّوا بها، ولما لهم من الفهم العميق والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيّما علماؤهم وكبراؤهم كالخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين، فإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السُنّة ولا وجدناه عن الصحابة، نرجع في ذلك إلى أقوال التابعين ما أمكن.

إنّ القرآن الكريم هو أساس علومِ الدين، وفيه من العلوم الأخرى، بعضُها بطريق التصريح، وبعضُها بطريق الإشارة، وبعضُها بالإجمال، وبعضُها بالتفصيل، وإنّ ذلك يحتاج إلى التعمق في الفهم، والاستبصار في حقائقه، ولذلك لا بد من استخراج المعاني ما دامت لَا تُخالفُ صريح المأثور.

- وفي بيان معاني آيات الصفاتِ خصوصًا باتباع ما دلّ عليه القرآن والسُنّة دون تأويل.
- جاء ذكرُ أسباب نزول الآية إنْ وُجِد، وصحّت به الرواية.
- واستعنت من بعد الله ﷻ بكتاب: "**الحاوي في تفسير القرآن الكريم**" للكاتب السيد: عبد الرحمن بن محمد القمّاش، الإصدار الأول ٢٠٠٩م.
- واستعنت أيضًا بكتاب:" **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية مفيدة هامّة**" للمؤلف الشيخ محمود بن عبد الرحيم صافي، وهو من أعلام مدينة حمص السورية، تم نشره في دار الرشيد، مؤسسة الإيمان " ١٩٩٥م- ١٤١٦ هـ".
- لَم أتعرض للخلاف الفقهي إلّا في أضيقِ دائرةٍ، ومسلكي في آيات الأحكام أنْ أذكر الأحكام الثابتة بالقرآن بإجمالٍ؛ مستعينًا بالسُنّة النبويّة أو ما رأيته أقرب إلى النص.

- قد عبّرتُ بلفظِ **التكليف**؛ الذي هو ما ترشد إليه الآية أو السورة عمومًا بما يُعِين على تدبُّرها وتمام الانتفاع بها.
- جاء التقديمُ بين يدي كلِّ سورة ببيان زمانِ نزولها (مَكِّيَّة أو مَدَنِيَّة).
- وتم إغفال الخلافات التفسيرية.
- كان الحرص ما أمكن على نقل تفسير معاني الكلمات تفسيرًا موضوعيًا في القرآن كلّه بحسب ما وردت في سياقها.
- خلا الكتاب من المسائل النحوية والبلاغية والشواهد العربية إلّا ما ندر.
- تم الاستعانة بعلماء في الحديث فجاء ذكرُ الحديث النبوي مُشكلًا، وتخريجهُ، فإنْ كان الحديثُ في الصحيحين أو أحدهما، فأكتفي بالإشارة إليهما والبدء بهما، أمّا إذا كان الحديث في غير الصحيحين، فأخرّجه من مظانهِ من كتب السُّنة.
- تم توضيح العديد من الظواهر الطبيعية الواردة في القرآن الكريم.
- وجاء ذكرٌ مختصرٌ عن صفات بعض المخلوقات الكونية وغيرها التي جاء ذكرها من الحيوانات والحشرات والمخلوقات في الكون، مثل: الأرض، والشمس، والقمر..

وفي الختام: كما في البداية وفي كل حين أسأل الله تعالى أن يرحم أولادي الشهداء خالد وحسام وزوج ابنتي الشهيد أحمد عوض وشهداء الحركة الإسلامية قيادة وافرادًا في فلسطين وفي كل بلد في العالم، وأن يجمعني بهم في صحبة نبينا محمد ﷺ، ودائمًا وأبدًا أشكرَ الله ﷻ أنْ وفقني لهذا، ولم أقل إنّني أحطتُ بكلّ وسائل تيسير فهم التفسير، فهذا ما لا يقوى عليه بشر ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ**﴾ [آل عمران-٧]. ولو أردنا استيفاء معنى آيةٍ واحدةٍ؛ لما استطعنا حصر ما فيها من جليلِ الحكم، وعموم الفوائد، لكنني أزعم بأنني قدمت بعض توضيح مُراد الله ﷻ بأسلوبٍ سهلٍ، معتمدًا على معاني حروف اللغة العربية. فإنْ أخطأت فيما قدّمت؛ فمن عجزي وقصوري، وهكذا الإنسان، على مرّ الزمان، وإنْ أصبتُ، وهو ما أرجوهُ، فالشكر للمنّان وحده، حيث تفضل بالإحسان.

ولا يفُوتني أنْ أؤكد الشكر لكلِّ من ساهم بإخراجِ هذه الدراسة، سائلًا الله ﷻ أنْ يجعل ذلك في ميزان حسناتهم، الذين بجهدهم الكبير أوضحوا وحققوا الأحاديث الشريفة وأخصُّ بالذكر والثناء أساتذة اللغة العربية في الجامعة الإسلامية، الأستاذ الدكتور: محمد علوان، والأستاذ الدكتور: نعمات علوان، أول من قاما بدورٍ عظيمٍ من القراءةِ والإضافاتِ اللُغوية المميزة، كما أخصّ بالشكرِ والدعاءِ والثناءِ علماء الحديث والتفسير، الأستاذ الدكتور: عبد السميع خميس

العرابيد، أستاذ التفسير وعلوم القرآن، في جامعة الأقصى، وأيضًا أخصّ بالشكر والدعاء والثناء الأستاذ الدكتور عدنان محمود الكحلوت، أستاذ الحديث، جامعة الأقصى، والأستاذ الدكتور: صبحي رشيد اليازجي، أستاذ علم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية بغزة فلسطين، كما أخصّ بالدعاء د. نسيم ياسين رئيس رابطة علماء المسلمين وإخوانه الكرام، وأنْ يُثيب من طبع هذا العمل، وساعد في تنسيقه، وكلّ من راجع طباعته، كما أسأل اللهَ ﷻ أنْ يُكافئ زوجتي وأولادي وبناتي على صبرهم، واللهَ أسألُ أنْ ينفعنا بما علّمنا، ويعلّمنا ما ينفعنا، ويزيدنا علمًا، كما أسألهُ أنْ يعمّ النّفعُ المسلمين بهذا الكتاب، وأنْ يُلهمنا جميعًا الرّشاد والسّداد، وأنْ يوفقنا للعمل بكتاب الله ﷻ في كلّ مناحي الحياة، دستورًا، وعقيدةً، ومنهجًا، وسلوكًا، وأنْ يهدينا سواءَ الصراط، صراطِ الله ﷻ، الذي له ما في السموات وما في الأرض. وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وصلِّ اللّهم وسلّم وبارك على نبيّنا محمدٍ وآلهِ، وصحبهِ أجمعين.

د. محمود خالد الزهار

غزة – فلسطين

٢٠٢١م – ١٤٤٣هـ

أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين محمدٍ بن عبد الله الصادق الوعد الأمين، وآلهِ وصحبه والتابعين إلى يوم الدين.

لا شكّ أنّ الاستعاذة بالله تُحصّن قراءة القرآن، الاستعاذة بالله ﷻ من الشيطان الرجيم، وفي تفصيل مرادها، **أعوذ:** بمعنى ألتجئ وأستجير **ب:** حرفُ باء الصلة والاستعانة، **الله** ﷻ من كلّ ذي شرٍ وضررٍ، **من الشيطان:** فهي مشتقةٌ من الشطن، وتُستعمل في معانٍ عدّة؛ منها: مجانبة الحق. وجاء اشتقاقها من شاط؛ أي احترق؛ وهي أيضًا تُطلقُ على كلّ مُتمردٍ من الجنّ والإنس؛ إذا فعلوا فعل الشيطان **الرجيم:** وتعني الملعون، المرجوم بكلِّ سوءٍ، وإهانةٍ، ومذلّةٍ، وبكلّ ما كان عن قهرٍ.

مواطن الاستعاذة: عند قراءة القرآن، وقبل أدعية الاستفتاح، وقبل صلاة الليل، وفي كلِّ ركعةٍ في الصلاة قبل الفاتحة، وعند دخول المساجد، وعند الجماع، وعند الفتن، وعند تعرض الشيطان للإنسان، وعند الغفلة، والخطأ، والنسيان، وعند مواجهة التحريض على الشرّ، والتحريشِ بين النّاس، وعند الغضب، وعند وسوسة الشيطانِ، وعند الفزع من النوم، وعند رؤية ما يُكرهُ في المنام، وعند سماع نُباحِ الكلبِ، وقبل دخول بيت الخلاء؛ لقضاء الحاجة.

سُورَةُ الفَاتِحَة

ترتيبها: 1 — آياتها: 7

سورة الفاتحة من السور كثيرة الأسماء: ولم يثبت في السنة الصحيحة والمأثور من أسمائها إلا فاتحة الكتاب، والسبع المثاني، وأم القرآن، أو أم الكتاب، فلنقتصر على بيان هذه الأسماء الثلاثة.

وهذه السورة مكيّة باتفاق الجمهور، وقد عُدّت السورة الخامسة في ترتيب نزول السور.

وقال كثيرٌ إنّها أول سورة نزلت، والصحيح أنّه نزل قبلها اقرأ باسم ربك، وسورة المدثر ثم الفاتحة، وقيل نزل قبلها أيضًا: نون والقلم، وسورة المزمل، وقال بعضهم هي أول سورة نزلت كاملة، أي غير منجّمة، وعدد آياتها: سبع آيات باتفاق القُرّاء والمفسرين.

فضل سورة الفاتحة: هي أوّل السور، وقد أوجب اللهُ ﷻ قراءتها في كلّ ركعةٍ من الصلاة، على كلّ مسلمٍ ومسلمةٍ، بل إنّ الصلاة من دونها باطلة! وفي الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدِ بنِ المُعَلَّى قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أَلاَ أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ»، فَأَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ قُلْتَ: «لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظمَ

سُورَةٍ مِنَ القُرْآنِ» قَالَ: «الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ»[١].

وقيل إنّها مدنية، وهي أوّل ما تُفتتح به الصلاة، وسُمّيت أمُّ الكتاب، والحمدُ، والشفاءُ، والواقيةُ، والمنجية، والكافيةُ، وأساسُ القرآن، والسبعُ المثاني، والقرآنُ العظيم، والنور، والراقية، والشكر، والدعاء، والكنز. وهي مقسومةٌ بين الله ﷻ والعبد نصفين؛ ففي الحديث: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ[٢].

حكم قراءة الفاتحة في الصلاة: فيها قولان: قال الشافعي شرطًا، ولا تصحُّ الصلاةُ من دونها، وقال الإمام أبو حنيفة: ليس شرطًا؛ لقوله ﷻ: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ**﴾ [المزمل-٢٠]، وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ: رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ[٣].

واختصارًا: هي في الصلاة واجبة؛ وتَبطلُ الصلاةُ دونَها؛ ويؤكد ذلك أحاديثُ متعددة، وأمّا قراءتها للمأموم في الجماعة؛ فهي واجبةٌ في الصلاة السرّية، وأمّا في الجهرية؛ فيُكتفي بقراءة الإمام، لقولهﷺ: إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا[٤]، وقيل لا تجب على المأمومِ في الصلاةِ الجهريةِ والسرّية؛ اعتمادًا على حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ فَقِرَاءَةُ الْإِمَامِ لَهُ قِرَاءَةٌ[٥].

﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾

مواطن البسملة: تجب قراءتُها في بداية قراءة القرآن، وعند الفصل بين السورة والسورة، وتُقال في بداية كلِّ قولٍ وعملٍ؛ لقول النبي ﷺ: كُلُّ كَلَامٍ لاَ يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدُ لِلَّهِ فَهُوَ أَجْذَمُ[٦] وتقال عند الذبيحة: فقد ذَهَبَ جمهورُ العلماء إِلَى أَنَّ التَّسْمِيَةَ وَاجِبَةٌ عِنْدَ الذَّبْحِ، لكن إنْ تركها سهوًا أُبيحت، واستدلوا على الوجوب بقَوْلِهِ ﷻ: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ**﴾ [الأنعام-١٢١] وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ، وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ إِلَى أَنَّ التَّسْمِيَةَ سُنَّةٌ عِنْدَ الذَّبْحِ، واستدلوا بما رواه البخاري أَنَّ جَارِيَةً لِكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ تَرْعَى غَنَمًا لَهُ بِالْجُبَيْلِ الَّذِي بِالسُّوقِ، وَهُوَ بِسَلْعٍ،

---

[١] صحيح البخاري ج ٦ /١٨٧ (٥٠٠٦)

[٢] صحيح مسلم ج٢/٥٥٤ (٨٠٦)

[٣] صحيح البخاري ج١/١٥١ (٧٥٦). صحيح مسلم ج١/٢٩٥ (٣٩٤)

[٤] سنن ابن ماجة ج٢٧٦(٨٤٦) والحديث صححه الإمام مسلم، والألباني، وقد ضعفه أبو داود وغيره قوله وإذا قرأ فأنصتوا.

[٥] الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٢٥/ ١٩٧)

[٦] سنن أبي داود ج٤/٢٦١ (٤٨٤٠) والحديث بأسانيد كلها ضعيفة غير أن مجموعة الطرق وكثرة الشواهد الصحيحة المروية عن الرسول ﷺ يرتقي إلى درجة الحسن لغيره.

فَأُصِيبَتْ شَاةٌ، فَكَسَرَتْ حَجَرًا فَذَبَحَتْهَا بِهِ، فَذَكَرُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَأَمَرَهُمْ بِأَكْلِهَا[1]، وعند الأكل: قال ﷺ: يَا غُلَامُ، سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ[2]، وعند إتيان الزوجة: فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، يَبْلُغُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ»[3].

﴿ب﴾: من المعروف لغةً أنّ حرف باء له معانٍ عديدةٍ؛ أسماء، وأفعال، وصفات؛ نأخذ منها المعاني الآتية: كاسم تعني لبيب، وبمعنى فاعل، وكذلك باء بمعنى يبوء، وإذا أخذناه كصفةٍ فهي تدلُّ على الثبوت والرجوع، وهذه من صفات الله ﷻ الفاعل، الثابت الذي إليه تُرجع الأمور كلّها، حرف الباء هنا: باء الاستعانة، وتعني: أبدأ مستعينًا باسم الله ﷻ، هنا البداية بالفعل، أو باسم الله ﷻ أبدأ، فلكلِّ فعلٍ مصدرُ الفعل هو الفاعل وهو **الله** ﷻ، اسمُ علمٍ على الرّب ﷻ

﴿اسْمِ﴾: والاسم: ما يُعرف به الشيء، ويُستدل به عليه، وهو ما دلّ على معنى في نفسه، غير مقترنٍ بزمنٍ ﴿اللَّهِ﴾: هو الاسم الأعظم، هو الاسم الجامع لمعاني وصفات اللهِ عزّ وجل.

لطيفةٌ لغويةٌ يتكون اسمُ الله ﷻ من ثلاثةِ حروفٍ فقط؛ حرف الألف ﴿أ﴾ وحرف اللام ﴿ل﴾ وهو حرف مكرر، وحرف الهاء ﴿ه﴾ فإذا سأل كافرٌ بدايةً مستخدمًا الحروف الثلاثة فقط **هل له إله**؟ أي هل لله معبود؟ ستكون الإجابة من الحروف نفسها "لا" وعطفًا على هذا فمن هذه الحروف الثلاثة فقط تأتي شهادةُ توحيد الخلق للخالق ﷻ، وهي أعظمُ شهادةٍ ينطقها مخلوقٌ، فإذا أخذنا حرف اللّام "ل" مع حرف الألف (أ) نحصل على لا، وإذا أخذنا حرف الألف ﴿أ﴾ مع حرف ﴿ل﴾ مع حرف ﴿ه﴾ حصلنا على كلمة ﴿إله﴾، وبجمع حرف ألف (أ) مع حرف اللام (**ل**) مكررًا مع حرف الألف ﴿أ﴾ نحصل على ﴿إلّا﴾، وبجمعِ الحروفِ كلّها يكونُ اسم الله ﷻ، وتكون الشهادة هي لا إله إلّا الله فمن ثلاثةِ حروفٍ فقط؛ يكون اسمُ الخالق لهذا الكون، وتكونُ أعظمُ شهادةٍ تشهدها المخلوقات؛ قال ﷻ: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ**﴾ [الحشر-٢٣]، إنّ كل ما جاء بعد اسم الله ﷻ هو صفات ولله الأسماء الحسنى، قال ﷺ: إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ[4].

---

[1] صحيح البخاري (٣/ ٩٩)

[2] صحيح البخاري ج٧/٦٨(٥٣٧٦).

[3] صحيح البخاري (١/ ٤٠)

[4] صحيح البخاري ج٣/١٩٨(٢٧٣٦)، صحيح مسلم ج٤/٢٠٦٣(٢٦٧٧).

وهو اسمٌ لا يُعرف له اشتقاق، اسمٌ جامدٌ: ومنه إله، يأله، إلاهةً، وقيل من وله: أي تجبّر، وقيل ألَهتُ فلانًا، أي سكنت إليه، وقد جاء في هذا المعنى قوله ﷻ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد-٢٨].

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: وهما من أسماء الله ﷻ، مُشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، وهي الزيادة والكبرة، ولفظ رحمن: أشدُّ مبالغة؛ قال ابن جرير: الرحمن لجميع الخلق، قال ﷺ: إنَّ الرَّحِمَ شَجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ اللَّهُ: مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ[1]، وهنا تعني كلمةُ ﴿الرَّحْمَنِ﴾: المُنعمُ بجلائل النعم ﴿الرَّحِيمِ﴾: وهو المُنعم بدقائق النعم، وهو خاصٌ للمؤمنين؛ لقوله ﷻ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب-٤٣] لم يُسمَّ باسمهِ ﷻ بشرٌ، إلّا مسيلمة الكذاب، سمّى نفسه رحمن اليمامة، فألبسهُ اللهُ ﷻ جلباب الكذب، فلا يقال إلّا مسيلمة الكذاب.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢)

﴿أل﴾: هما حرفا تعريفٍ بغرض استغراق جميع أفراد ما بعدها، وهو هنا ﴿الْحَمْدُ﴾: هو الشكرُ وهو ثناءٌ على الله ﷻ؛ بأسمائه، وصفاته الحُسنى، تعني جميع أجناس الحمد، والكمال، وصنوفه لله ﷻ، (اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ كُلُّهُ، إِلَيْكَ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، عَلَانِيَتُهُ وَسِرُّهُ)[2] ﴿لِ﴾: حرف، تخصيص وتمليك، وتفيدُ العلّة والسبب ﴿اللَّهِ﴾: قال ابن جرير: الشكر الخالص لله ﷻ، دون سائر ما يُعبد من دونه، ودون كلّ مخلوقٍ على كلّ نعمه وفضله، وهو ثناءٌ أثنى به اللهُ ﷻ على نفسه، وأمر عباده أنْ يُثنوا عليه، وقال ابن كثير: الحمدُ هو الثناءُ بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، ويكون بالقلب، واللسان، والأركان، أما الشكر: فيكون للصفات المتعدية؛ فهو ثناءٌ خالصٌ له ﷻ دون سائر ما يُعبد من دونه، قال ﷺ: أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الحَمْدُ لِلَّهِ[3]، وقال ﷺ أيضًا: مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، إِلَّا كَانَ الَّذِي أَعْطَى أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ[4] ﴿رَبِّ﴾: تعني كلمةُ الربّ: المُعبود، والمُربي، وهو المنشئ لكل شيء في الكون البديع من حالٍ إلى حالٍ، ومن طورٍ إلى طورٍ إلى حدّ التمام وهو سبحانه وتعالى الخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ؛ أمّا إذا كانت لغير الله ﷻ، فتُستخدم كمضاف مثل ربّ البيت، وربّ العمل ﴿الْعَالَمِينَ﴾: أصلُ الكلمةِ في اللغة هي "**عالم**" من العلامة،

---

[1] صحيح البخاري ج٨/٦(٥٩٨٨).

[2] مسند أحمد ط الرسالة (٣٨/ ٣٧٨)

[3] سنن الترمذي ج٥/٣٩٣(٣٣٨٣) قال الترمذي: إسناده حسن غريب، وقد حسنه الألباني.

[4] سنن ابن ماجة ج٢/١٢٥٠(٣٨٠٥) وقد حسّنهُ الألباني.

وهي الكلمةُ الدالّةُ على وجود خالقٍ أي المُوجد لهذا الكون من غير سابق وجود، والعالمين جمع عالم، وتعني كلَّ موجودٍ في الدنيا والآخرة، والآخرة مشتقة من الآخِر التي في مقابل الأول أو مقابل الواحد من العاقل الإنسان، والجنّ، والملائكة، ولا تُقالُ للدواب، وإذا قرأ العبدُ كان استحضار رعاية الله ﷻ وهدايته، وتولي شئون خلقه، والتربية، وهي تبليغ الشيء إلى كماله تدريجيًا.

التكليف: إنّ الحمد لله ﷻ هو ثناءٌ عليه ﷻ، بأسمائهِ، وصفاتهِ، بما هو أهله، وهو في الدنيا واجبٌ، أمّا في الآخرة، في الجنّة فهو تلذذٌ بالنعيم، وأمّا الشكرُ فهو جُلُّ الثناءِ دون سائر ما يُعبد من دونهِ، أي من غيرِه.

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٣)

جاءت هذه الصفات الربّانية بعد ربِّ العالمين، مالك أمرِ كلِّ المخلوقات من بابِ الترغيب؛ **﴿الرَّحْمَنِ﴾** هي الرحمة المقصورة على اللهِ عزّ وجلّ، ولا يمكن أن يُسمى بإسم الرحمن أيُّ مخلوق **﴿الرَّحِيمِ﴾** فهي صفةٌ يكتسبُها المؤمنون من عبادهِ ﷻ، "**الرحيم**" من صيغ المبالغة، فالرحمةُ هي أصلُ الاسمين، ومنه الرحم الذي يتكون فيه الجنين في بطن الأنثى، الذي يتكفل نمو الجنين بعد طورِ النطفةِ، وهي اتحاد الحيوان المنوي في الذكر والبويضة في الأنثى، إلى مراحل: العلقة، والمضغة، ثم الجنين، ثم طفلًا، يحفظه الرحم من كلّ ضررٍ، ويمُدهُ بكلّ خير؛ من طعامٍ، وشرابٍ، ومناعةٍ، ثم يُخرجه طفلًا يستطيع الرضاعة؛ مُحصّنًا من الأمراض مدةً معّينةً في عملياتٍ حيويّةٍ مُعجزةٍ، إنّ رحم الأنثى الذي هو معجزةٌ في الخلق والوظيفة، بدونَه ما تكوّن إنسانٌ، أو حيوانٌ، الرحم الذي فيه معنى الأمومة والرحمة التي تهدي النفس التائهة؛ قال ﷺ: لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ[1].

التكليف: إنّ تكرار هذين الاسمين ومصدرهما الرحمة يُعطي طمأنينةً للعبد أنّ مالك يوم الدين صاحب العدل المطلق؛ فهو لا يظلم، فقد سبقت رحمتهُ ﷻ كلّ شيء.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٤)

﴿مَالِكِ﴾: بمعنى صاحب، هو القادر الحاكم بما يرى، وتُقرأ مَلِك، ومالك من المُلك، وكلاهما صحيح، قال ﷻ: **﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾** [غافر–١٦]، وقال ﷻ: **﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾** [الفرقان–٢٦] **﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾**: هو يومُ الحساب، يومُ الجزاء، يومُ يدين اللهُ ﷻ الخلق بأعمالهم، إنْ خيرًا بخيرٍ، وإنْ شرًا بعذابٍ، إلّا من عفا الله ﷻ عنه، ولقد جاء حصرُ المُلك هنا ليوم القيامة،

---

[1] صحيح مسلم ج٤/٢١٠٩(٢٧٥٥).

وهذا لا ينفي مُلكَهُ ﷻ لكلِ شيءٍ في الحياة الدنيا، ولكنّ هنا للتخصيص؛ لأنّه لنْ يتصف بوصف الملك أحدٌ يوم القيامة، ولن يدّعي أحدٌ أنّه صاحبُ يوم القيامة سواه، ﷻ، يوم لا يتكلمُ فيه أحدٌ إلّا بإذنه ﷻ.

التكليف: هذه الآية للترهيب بعد ما سبقها من الترغيب؛ ليتمكن القلبُ المؤمنُ من الجمع بين شعور الخوف، وشعور الرجاء.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٥)

﴿إِيَّاكَ﴾: قدّم الله ﷻ الاسم المفعول به إيّاك، وكرّر إيّاك؛ للاهتمام والحصر؛ وتخصيصًا لله ﷻ، وليس لأحدٍ غيره، ولا لشريكٍ معه، **﴿نَعْبُدُ﴾**: هنا نخصُّ الله ﷻ فقط بالعبادة دون غيره بالعبادة وفيها معانٍ مُتعددة، العبادة في اللغة من الذلّة، وما كان عن قهرٍ، فالطريق المُعبّد هو الطريق المُذلل، والعبادة في الشرع: ما يجمعُ كمال الطاعةِ، والمحبةِ، والخضوعِ، والخوف، إنّ الدين: هو التوكل والتبرؤ من الحول والقوة، والعبادة: هي تبرؤٌ من الشرك، هي القصدُ، والاستعانةُ هي الوسيلةُ، إنّ العبادة لله ﷻ شرفٌ عظيمٌ، فقد قال ﷻ: **﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾** [الإسراء-١]، وقال ﷻ: **﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾** [الجن-١٩] **﴿وَ﴾**: أيضًا **﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾**: جاء تقديم العبادة على الاستعانة لأنّ العبد يستعين بمن يستحق العبادة، والاستعانة هي طلب العون والمساعدة لكلّ احتياجات المخلوق من خيرِ من سُئل ﷻ.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦)

﴿اهْدِنَا﴾: بعد الثناء على المُنعم يأتي الطلب، وهذا أكملُ أحوالِ السائل، والهدايةُ هي الإرشاد، والتوفيق، تعني أنّ الله ﷻ عرّف الإنسان ماذا يعمل، وكيف يفوز، والدعاء هنا لتثبيت العبد على طريق الحق والهداية **﴿الصِّرَاطَ﴾**: هو الطريق، والسبيل، والعمل، والقول الواضح، أي هو كُلُّ قولٍ أو عملٍ، إنّ كلَّ عبدٍ مفتقر لهذه الهداية الربانيّة الظاهرة والباطنة؛ فهو يحتاج إلى التوبة من ذنوبٍ قد اقترفها بعلمٍ أو بغير علم، ومفتقرٍ إلى الهداية في كلِّ تفاصيل حياته بحسب ما أراده الله ﷻ، ويحتاجُ إلى الهداية في صورتها الكاملة، والإنسان فقيرٌ إلى كمال الإرادة والقدرة على مواجهة أمورٍ لم يعلمها، وأمورٍ يعلَمُها، وفي كلّ الأحوال إنّ الإنسان مفتقرٌ إلى القُدرة على الثبات على ما يعمل من خير **﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾**: هو أقصر الطرق بين نقطتين، هو أفضلُ الوسائل بين محطتين، بين الحياة والموت، وبين الإيمان والكُفر، وبين الخطيئةِ والتوبةِ، إنّهُ الأمرُ الذي يُحقق الغاية في أقلّ الأوقات، لا اعوجاج فيه، وقيل هو كتابُ الله ﷻ، وقيل هو الإسلام، وقيل هو دين الله ﷻ، وقيل

هو الحقّ، وهذا أشمل؛ لأنَه يشمل الجميع، ومن أجل هذا وغيره يسأل المسلمُ الله ﷻ هذا الأمر في كلّ صلاةٍ؛ لأنّ المُراد هو الثبات، والمُداومةُ على القولِ والعمل.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٧)

﴿صِرَاطَ﴾: طريقَ وسبيل ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿أَنْعَمْتَ﴾: منحت، وتكرّمت، وتفضلت ﴿عَلَيْهِمْ﴾: وهم الذين جاء ذكرُهم في الآية الكريمة: ﴿النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء-٦٩]، ﴿غَيْرِ﴾: حرفُ استثناء بمعنى ليس ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: هم اليهودُ، الذين لم يعملوا بما أمرَ الله ﷻ، وعملوا بما يُغضبهُ؛ فغضب اللهُ ﷻ عليهم، ويشمل هذا النصارى الذين عبدوا مع الله إلهًا آخر، ويشمل الملحدين من أهل الديانات كلّها، والغضبُ هو عدم الرضا ﴿و﴾: أيضًا ﴿لَا﴾: حرفُ نفي، بمعني غير ﴿الضَّالِّينَ﴾: وهم النصارى، الذين نزل فيهم عيسى ﵇، ويدخلُ مع هؤلاء من ناصرهم، وأيّدهم، وأحبّهم، وتعاون معهم؛ قال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة-٥١] وهم الذين بدّلوا العلم الحق، ومن افترائهم أنّ عيسى ابن الله، وليس من عباده، قالوا هو الرّب كما زعموا؛ فكان نصيبُهم التيه، والضياع.

ويُستحب أنْ يُقال: آمين بعد الانتهاء من قراءةِ الفاتحة؛ قيل هي اسم من أسماء الله ﷻ، بالمدّ أو القصر ففيها ضميرٌ للهِ ﷻ بمعنى استجب يا رب، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: قَالَ: إِذَا قَالَ الإِمَامُ: ﴿غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة-٧] فَقُولُوا آمِينَ، فَمَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ المَلاَئِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ[1].

وحضّ اللهُ ﷻ على قراءة سورة الفاتحة، فعن أبي هريرة قال: قد وصفها ﷺ؛ فقال: قَالَ اللهُ ﷻ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة-٢]، قَالَ اللهُ ﷻ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة-٣]، قَالَ اللهُ ﷻ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة-٤]، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي- فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة-٥] قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة-٦،٧] قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ[2].

التكليف: لقد اشتملت سورةُ الفاتحة على أساسين، الأول: الإقرار بربوبية الله ﷻ للإنسان وللمخلوقات في الكون المُسخّر له، والثاني: بسبب ملكه ﷻ للكون وجب على الإنس طاعته.

---

[1] صحيح البخاري ج٦/١٧(٤٤٧٥).

[2] صحيح مسلم ج١/٢٩٦(٣٩٥).

ترتيبها 2 — سُورَةُ البَقَرَة — آياتها 286

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

سميت هذه السورة بهذا الاسم في المروي عن النبي ﷺ وما جرى في كلام السلف؛ ووجه تسميتها أنْ جاءت فيها قصة البقرة التي أمر اللهُ ﷻ بني إسرائيل بذبحها. ولقد أُطلق عليها (سنام القرآن)، و(فسطاط القرآن). وسورة البقرة مدنيّة، وقد عُدّت سورة البقرة السابعة والثمانين في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة المطففين، وقبل آل عمران. وعدد آياتها: مائتان وخمس وثمانون آية عند أهل العدد بالمدينة ومكّة والشام، ومائتان وست وثمانون عند أهل العدد بالكوفة، ومائتان وسبع وثمانون عند أهل العدد بالبصرة.

﴿الم﴾ (١)

اعتمادًا على ما يقوله علماء النحو والبلاغة إنّ الضمائر في الكلام الأصل أنْ تعود على متقدمٍ في اللفظ والرتبة، ولا تعود على متأخرٍ في اللفظ والرتبة، بمعنى ما هو الاسم الذي سبق؟

الحرفين ﴿أل﴾: أرى، والله أعلم، أنّهما حرفان يَدُلّانِ على اسم الله ﷻ، وهما يُشكلانِ ثلاثة حروف من أربعة من عددِ حروفِ اسم الله ﷻ المُكوّن من ثلاثة حروف ا. ل. ه؛ ويؤكد ذلك أنّه جاء في الآية رقم (٢) بعدها مباشرة **﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾** أي "**القرآن**" في تأكيدٍ واضحٍ أنّه كتاب الله ﷻ الذي نزل على محمد ﷺ، وجاء في الآية (٤) **﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾** ويُفهم منها ما أُنزل إليك يا محمد ﷺ من الله ﷻ **﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾** ما نزل من الله ﷻ على من سبق من الرسل، وجاء في الآية (٥) **﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾** وربُهم هو الله ﷻ، وجاء في الآية (٧) **﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾**، وجاء في الآية (٨) **﴿مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾**، وجاء في الآية (٩) **﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾**، وجاء في الآية (١٠) **﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾**.

حرف ﴿م﴾: أرى، والله أعلم، أنّه يعني اسم محمد ﷺ الذي يتكون أيضًا من حروف ثلاثة هي (م، ح، د) وحرف الميم يشكل ٥٠% من عدد حروف اسمه، وما يؤكد هذا ما جاء في الآية (٤) **﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾** والضمير هنا يعود على محمد ﷺ فلم يسبقهُ اسمٌ نزل عليه القرآن الكريم، وجاء في الآية (٦) **﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾**، ولم يسبق ذلك اسم.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢)

﴿ذَلِكَ﴾: اسمُ إشارةٍ للمفرد الأبعد، بينما ذاك للأبعد المتوسط وذا للقريب، الذي جاء في أيدي السفرة البررة؛ يعني هنا ما قال الكسائي إشارةً إلى الرسالة والقرآن، وقيل عمّا في السماء، وقيل

إشارةً إلى اللوح المحفوظ، وقال الطبري إشارةً إلى التوراة والإنجيل، وقيل إنّه ما وُعد به الرسول ﷺ من أنّه سينزل عليه ﴿الْكِتَابُ﴾: هو القرآن، وليس التوراة، ولا الإنجيل بعد تحريفهما، وجاءت تسميةُ القرآن الكريم في سبعة أسماء، هي: الكتاب، والفُرقان، والذكر، والنور، والقرآن، والبيان، والتنزيل، وقد روى الترمذي عن علي بن أبي طالب ﷺ، قال: "أمّا إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: ألا إنّها ستكون فتنة، فقلت ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتابُ الله، فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراطُ المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذا سمعته حتى قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ، من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم؛ جاء اسم الإشارة هنا لتعظيم شأن الكتاب ﴿لَا﴾: حرف نفي، ينفي ما بعده ﴿رَيْبَ﴾: الريبُ في الأصل هو قلق النفس، بمعنى لا تشكّوا في أنّه من عند الله ﷻ مُنزّل على أيدي الأمين من الملائكة، ولا يجبُ ظنّ السوء عند المؤمنين والعقلاء؛ ذلك لأنّه لا يوجد فيه خطأٌ، ولا شكّ ﴿فِيهِ﴾: أي لا أدنى شكٍّ أنّ القرآن الكريم مُنزّلٌ من عند الله ﷻ، وليس فيه خطأٌ واحدٌ ﴿هُدًى﴾: إنّ الهُدي من الهَدْى، وهو من أسماء النهار، المقصود هنا معرفة الحق، وهو عكس الضلال، هو الإيمان الذي وقر في القلب، ولقد بيَّن اللهُ ﷻ في هذه الآية أنّ النفع بالقرآن ﴿ل﴾ حرف تمليك وتخصيص ﴿المتقين﴾ الذين يتجنبون ما حرّم الله ﷻ ليحفظوا أنفسهم من غضبه ﷻ. لقد بيّن الله ﷻ في هذه الآية أنّ المُنتفع بالقرآن هم الذين يعبدون الله ﷻ عبادة تصديقٍ ويقينٍ، وتعني: تجنُّب المعاصي، وأداءَ الحقّ وتوفيته، ورد الأمانة، وعمل الفرائض، والذين خافوا ربّهم، ورجوا رحمته؛ فهو نورٌ وشفاءٌ، جاء في المعنى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت–٤٣] وجاء أيضًا: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة–٢٧٢]؛ فهو من الله ﷻ، ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف–١٨٦]، وجاء أيضًا: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى–٥٢]، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد–٧].

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٣)

﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد الجمع المذكر ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: هم أصحابُ التصديقِ الخالص، الذي يتحقق بثلاثة عناصر: الاعتقاد، والقول، والعمل. والإيمان هو ما وقَرَ في القلب، وصدّقهُ القول، وعملت به الجوارح ﴿بِ﴾: حرفُ باء الصلة والمصاحبة ﴿الْغَيْبِ﴾: وهو كلُّ ما غاب عن وسائل إدراك محمد ﷺ وإدراك النّاس من أمرِ الجنّةِ، وأمرِ النّار، وما جاء في القرآن عن الله ﷻ، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وما لا يُدرك بالحواس، كالسمعِ، والبصرِ، واللمسِ، وما جاء في الحديث الشريف: عَنِ ابْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا أَبُو جُمْعَةَ الْأَنْصَارِيُّ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَنَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ عَاشِرَ عَشَرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ مِنْ أَحَدٍ أَعْظَمُ مِنَّا أَجْرًا، آمَنَّا بِكَ وَاتَّبَعْنَاكَ، قَالَ: «وَمَا يَمْنَعُكُمْ مِنْ ذَلِكَ وَرَسُولُ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، يَأْتِيكُمْ بِالْوَحْيِ مِنَ السَّمَاءِ؟ بَلْ قَوْمٌ يَأْتُونَ مِنْ بَعدِكُمْ يَأْتِيهِمْ كِتَابٌ بَيْنَ لَوْحَيْنِ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ أُولَئِكَ أَعْظَمُ مِنْكُمْ أَجْرًا»[1] ﴿وَ﴾: عطفًا على إيمانهم ﴿يُقِيمُونَ﴾: يجعلونها قائمةً لا يُسقطونها، ولا يهملونها في أيّ وقتٍ؛ يُؤدّون، يُتمّون ﴿الصَّلَاةَ﴾: الصلوات الخمس، وتعني تمام الوضوء، وتمام الركوع، والسجود، والتلاوة والخشوع، والمحافظة على مواقيتها ﴿وَمِمَّا﴾: تعني من بعض، أو جزءٍ من كلِّ الذي ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾: وهبهم ومنحهم الله ﷻ من منافع بدنيّة وماديّة ﴿يُنْفِقُونَ﴾: وتعني الزكاة، وهي التطهير، فهي الزكاة الواجبة، وغير الواجبة، أي الإنفاق على أصحاب الحاجة.

التكليف: من تمام الفوز في الدنيا والآخرة العملُ على تمامِ الاستجابة؛ لتحقيق التقوى، بإقامة الفرائض، ومنها الصلاة، والزكاة، وتمام التصديق بما جاء في القرآن مما لا يُدرك بالحواس، وبما وعد الله ﷻ من الغيب.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٤)

﴿وَالَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: هم المصدقون يقينًا من البشر بما جاء به الرُسل، عليهم السلام، جميعًا؛ لا يُفرّقون بينهم، من العرب والعجم، ومن الإنس، ومن الجنّ، ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصول بالذي ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾: وحيًا وهو القرآن الكريم، والسُنّة النبويّة المشرّفة، ﴿وَمَا﴾: حرفٌ يُفيد هنا الذي من جنس غير العاقل، ﴿أُنْزِلَ مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيدُ هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِكَ﴾: من جنس ما نزل من الكتاب من قبل: مثل التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام، في بني إسرائيل، و الإنجيل الذي نزل على عيسى بن مريم عليه السلام، والزبور وصحف إبراهيم وما نزل على الأنبياء جميعًا ﴿وَبِالْآَخِرَةِ﴾: والآخرة هي التي

[1] خلق أفعال العباد للبخاري ص٨٨. وقال ابن حجر في الفتح ج٧/ ٧: وإسناد هذه الرواية أقوى.

في مقابل الأولى، يؤمنون بيوم القيامة، أي بالبعث والقيامة، والحساب، والجنّة، والنّار ﴿هُمْ﴾: حرف تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، يشمل الجمعَ المذكرَ والمؤنثَ الغائب ﴿يُوقِنُونَ﴾: اليقين هو العلم الحاصل من تفكرٍ وتدبرٍ، المزيلِ للشكّ واضطرابِ النفس المتأكدون تمام التأكيد والمُصدّقون تمام التصديق، بلا أدنى شكٍّ: يعتقدون أنّها حق، وجاء بمعنى الموت لتحقق وقوعه دون شكّ، وصدقُ ما وعد الله ﷻ في الجنّةِ من ثوابٍ وما وعدَ من عقاب النّار.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥)

﴿أُولَئِكَ﴾: اسمُ إشارةٍ للقريب والبعيد، المقصود أصحاب الصفات الإيمانية بالله ﷻ، وبالغيب، وإقامة الصلاة، والإنفاق في أوجه الخير، وتبقي هدايةُ اللهِ ﷻ للمؤمنين في كلّ زمانٍ ومكانٍ ﴿عَلَى هُدًى﴾: بمعنى البيان؛ أي على نورٍ، ورشادٍ، ووضوحٍ، وبصيرة ﴿مِنْ﴾: حرف بيانٍ وتمييزٍ للنوع، وتفيد هنا بداية الغاية، أي المصدر ﴿رَبِّهِمْ﴾: من الله ﷻ، والرب هو المُربي، وهو المنشئ لكلّ شيءٍ في الكون البديع من حالٍ إلى حالٍ إلى حدِّ التمام، مالك أمرهم كلّه، واستقامةً عليه، أي دوام على ما جاءهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ﴾: تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، يشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: الفائزون جاءت من فلح، وفلّاح، وفلاحة؛ وهي تعني كثرة الثمر، فحبةُ القمحِ واحدةٌ تُنتجُ السنابل، ومن صفاتهم: أنهم أدركوا ما طلبوا، أي تحققت آمالُهم، ونجوا من شرّ ما كرهوا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦)

﴿إِنَّ﴾: حرفٌ للتأكيد ونفي الشكّ والإنكار ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿كَفَرُوا﴾: جاء اللفظ القرآني الكُفر هنا بمعنى الكُفر بالله ﷻ، والكُفرُ يعني التغطية والستر، بعنجهيةٍ وتكبرٍ، وكفرهم هو عدم التوحيد، وقيل عن الفلّاح بالكافر لأنّه يخفي الحبّ في التراب عند الزراعة، جاء في قوله ﷻ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد-٣٢]، وبمعنى الجحود في قوله ﷻ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة-٨٩]، وبمعنى الكُفر بالنعمة في قوله ﷻ ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة-١٥٢]، و في قوله ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء-١٩]، وبمعنى البراءة هي التحصين مما يُكره، في قوله ﷻ ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم-٢٢]، وجاءت أيضًا في قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا

اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت-٢٥] **﴿سَوَاءٌ﴾**: جاء اللفظ "**سواءٌ**" هنا بمعنى تفسير قراءته، واللفظ يفيد التسوية بين الأمرين في النتيجة، وهي عدم الإيمان؛ لأنّ الاستفهام خرج عن معناه الحقيقي؛ ليُفيد هنا معنى التسوية؛ أي إذا فسّرت لهم القرآن، أو لم تُفسره؛ فالنتيجةُ واحدةٌ، **﴿عَلَيْهِمْ﴾**: على الكفّار، **﴿أَ﴾**: حرفُ استفهامٍ بغرض الاستنكارِ والتعجب **﴿أَنْذَرْتَهُمْ﴾**: حذّرتهم، وخوّفتهم، **﴿أَمْ﴾**: حرفٌ يفيد الاستنكار والتوبيخ، **﴿لَمْ﴾**: حرفُ جزمٍ ينفي الفعل المضارع، **﴿تُنْذِرْهُمْ﴾**: تنصحهم، وتوضح لهم، **﴿لَا﴾**: حرف نفي، **﴿يُؤْمِنُونَ﴾**: سيظلُّ الكافرون على كُفرهم؛ إنّ الكفّار لنْ يؤمنوا إذا أنذرتهم وخوفتهم، أو لم تنذرهم؛ سيبقون على كُفرهم كما أخبرنا الله ﷻ بقوله **﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** [يس-١٠].

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧)

﴿خَتَمَ﴾: طَبَعَ؛ فالتصق من دونِ فِكاكٍ بإرادة، وقد طبع **﴿اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾**: بسبب الذنوب والجبروت والطغيان؛ لقد التصقت الذنوب بالقلب من كلّ جوانبه؛ حتى أتت عليه، قال الرسول ﷺ: إنَّ المؤمنَ إذا أذنَبَ ذنبًا كانت نُكتةٌ سَوداءُ في قلبِهِ، فإن تابَ ونزعَ واستغفرَ صُقِلَ منها، وإن زادَ زادَتْ حتَّى يغلف قلبُه، فذلكَ الرَّانُ[1]، وهو ما جاء في الآية الكريمة: **﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** [المطففين-١٤]، وخصّص اللهُ تعالى ذكر قلوبهم؛ لأنّها مركز الإدراك **﴿وَ﴾**: أيضًا طبع الله ﷻ، **﴿عَلَى سَمْعِهِمْ﴾**: كأنّه وضع في آذانهم ما أغلقها؛ فهم لا يسمعون، جاء في العديد من الآيات تقديم السمع على البصر؛ لأنّ حاسّة السمع أنفعُ من حاسّة البصر، ونعمةُ العقل أعظمُ من الجميع **﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾**: وكأنّ غطاءً سميكًا وُضع على أعينهم؛ فتعطلت أجهزةُ الرؤية؛ وهي من أهم وسائل الإدراك، **﴿غِشَاوَةٌ﴾**: غطاءٌ وهو كل ما يحجُب الرؤية والمشاهدة، لمّا تعطل السمع والبصر، وهما منافذ الهداية إلى القلب؛ طبع اللهُ ﷻ على القلب؛ لعدم وصول المعلومة الصادقة من مصادرها الرئيسة **﴿وَ﴾**: عطفًا على ما سبق **﴿لَهُمْ﴾**: تخصيصًا **﴿عَذَابٌ﴾**: ما يُسبب الآلام الشديدة، والضرر، وكلّ ما يكرهه الإنسان، **﴿عَظِيمٌ﴾**: شديدُ الإيلامِ والوجع.

التكليف: جاء قول الله ﷻ على **سمعهم** وعلى **أبصارهم**، وهي أدوات الوعي والإدراك للقلب الذي هو مركز الوعي؛ للتأكيد الربّاني القطعي.

---

(١) سنن ابن ماجة ج٢/١٤١٨(٤٢٤٤) قال الألباني: إسناده حسن.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨)

﴿وَمِنَ﴾: بعض ﴿النَّاسِ﴾: كلمة النّاس عمومًا تُفيد بني آدم، المؤمن منهم والكافر، هذا صنفٌ من بني آدم، هم المنافقون في عموم البشر، قال ابن عبّاس: نسي آدمُ عهد الله فسُمّي إنسانًا؛ لأُنسه بربّه ﷻ ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس بني آدم، ﴿يَقُولُ آمَنَّا﴾: اعتقدنا يقينًا لقد جاءت الكلمات بلفظ يقول آمنّا ليفيد أنّه مُجرد قولٍ باللسان لا أثر له في القلوب، وإنّما هم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ﴿بِاللَّهِ﴾: هذا قولُهم بألسنتهم، نؤمن بالله ﷻ، ﴿وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، يوم القيامة ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿هُمْ﴾: حرف تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب ﴿بِ﴾: حرف باء المصاحبة ﴿مُؤْمِنِينَ﴾: جاء النفيُ مؤكدًا بحرف الباء؛ يشهد اللهُ ﷻ على كذبهم، ونفاقهم؛ حيثُ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم؛ فهؤلاء هم المُكذّبون يقينًا.

التكليف: إنّ النفاق أنواع؛ منها: نفاقٌ في صُلب العقيدة، وهو غيابُ أركان الإيمان في النفس، ويتمثلُ هذا في هجر العبادات، ونفاقٌ في المعاملات والسلوك، وهو الكذب في أمور الدنيا.

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩)

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾: أي يُظهرون ما لا يُبطنون، مثل تأديةِ نوعٍ من الطاعات التي يُؤديها المؤمنون وهو النفاق ﴿وَالَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: المؤمنين حقًّا ﴿وَمَا﴾: حرفُ نفي ﴿يَخْدَعُونَ﴾: لا يخدعون أحدًا ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ، أي لا أحد ينخدُعُ غير ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾: لا أحد غيرهم؛ لأنّ الله ﷻ مُطّلعٌ على قلوبهم، يعلم سرّهم ونجواهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: لا يدرون ولا يدركون بحواسهم الحقيقة.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (١٠)

﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾: وهي مراكزُ الوعي والإدراك ﴿مَرَضٌ﴾: هو المعاصي، الشكُّ، والنفاق، هو مرضُ الكفر وإنكار العقيدة، وليس مرض الجسد، الذي زيّنه الشيطان في قلوبهم، ومن أعراض هذا المرض: ممارسةُ الشرّ؛ جاء لفظُ المرض هنا بمعنى الشكّ، للإشعار بأنّه تمكن منها تمكنًا شديدًا كما يتمكن الظرفُ من المظروف فيه، وأيضًا في قوله ﷻ **﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾** [التوبة-١٢٥]، وجاء بمعنى الفُجور في قوله ﷻ **﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾** [الأحزاب-٦٠]، وبمعنى الجراح في قوله ﷻ **﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾** [النساء-٤٣]، وفي قوله **﴿يَا أَيُّهَا**

الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة-٦]، وبمعنى المرض نفسه في قوله ﷻ ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة-١٨٤]، وقوله أيضًا ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة-٩١] جاء أيضًا: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة-١٢٥] ﴿فَـ﴾: حرفٌ يُفيدُ السبب والتتابع السريع ﴿زَادَهُمُ﴾: كبّر وكثّر ﴿اللَّهُ﴾: ﷻ لهم أيضًا ﴿مَرَضًا﴾: وهو الكذب، الذي هو مصدرُ كلّ خطيئة ﴿وَلَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: شديدُ الوجع ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصول بمعنى الذي، بسبب أنّهم ﴿كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾: ما اقترفوه من الكذب، إنّ حُكم التعامل معهم: عدم قتلهم؛ حتى لا يُقال إنّ محمدًا يقتلُ أصحابه؛ ولأنّهم يشهدون بالله ﷻ في الظاهر.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١)

﴿وَإِذَا﴾: أداةُ عطفِ ما بعدها على ما قبلها ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾: إذا نصحهم مؤمنٌ فقال ﴿لَا﴾: حرف نهيٍ وهي تُحرّم عليهم الفعل ﴿تُفْسِدُوا﴾: الفسادُ هو تحويلُ منفعةِ الشيءِ إلى مضرّة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: تُغيروا طبيعة الذين يسكنون في الأرض، إنّ الفساد هنا يعني ارتكابَ المعاصي، وإبطانَ الكفر، وتضييعَ الفرائض، والكذب على المؤمنين، وكلّ ما حرّم الله تعالى ﴿قَالُوا إِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ وتخصيصٍ ﴿نَحْنُ﴾: ضميرٌ يُفيد جمعًا من النّاس من المُخبرين عن أنفسهم ﴿مُصْلِحُونَ﴾: بمعنى مُطيعون؛ فيدّعي الكفّارُ أنّهم يقصدون الإصلاح في النّاس، وأنّهم مُطيعون لله ﷻ.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢)

﴿أَلَا﴾: حرفٌ غيرُ عاملٍ؛ يُفيدُ التنبيه واللّوم، والعتاب؛ أي ﴿إِنَّهُمْ هُمُ﴾: هم بالتأكيد وتحديدًا؛ بلا لُبسٍ ﴿الْمُفْسِدُونَ﴾: وقد جاء الفساد هنا بمعنى المعاصي في قوله ﷻ ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف-٥٦] ﴿وَلَٰكِن﴾: حرفُ استدراكٍ ﴿لَّا﴾: حرف نفي ﴿يَشْعُرُونَ﴾: بجهلهم لا يدركون حقيقة الفساد، كونه فسادًا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣)

﴿وَإِذَا﴾: أداةُ شرطٍ ﴿قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾: إذا نصحهم أحدٌ أنْ يُصدّقوا بيقينٍ راسخٍ بالله ﷻ، وملائكتهِ، وكتبهِ، ورسلهِ، والقيامة ﴿كَمَا﴾: حال، مثل ﴿آمَنَ النَّاسُ﴾: مؤمنو أهل التوراة خاصّة، والصحيح أنّ المقصود بها هو من آمن بالرسولِ، وصدَق في إيمانه. وهي تُفيد عموم البشر الكافرين والمؤمنين ﴿قَالُوا﴾: سألوا ﴿أَ﴾: حرفُ استفهامٍ بغرض الاستنكار ﴿نُؤْمِنُ﴾: نُصدّقُ بقلوبنا وجوارحنا ﴿كَمَا﴾: مثلما ﴿آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾: والسفيهُ هو ضعيفُ العقل؛ الذي لا يُحسن التصرف والتدبر. لقد رفض الكفّارُ؛ وبرروا كفرهم أنّ هؤلاء الذين تدّعون إيمانهم، هم جهلةُ الرأي، قليلو المعرفة بالمصالح والمضار، ولذلك جاء قوله ﷻ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء–٥]، مثلهم كمثل الأطفال ﴿أَلَا﴾: حرفٌ يُفيدُ التنبيه، يؤكدُ الله ﷻ ﴿إِنَّهُمْ﴾: بالتأكيد والتحديد ﴿هُمُ﴾: للجمعُ للمذكر الغائب ﴿السُّفَهَاءُ﴾: الذين اتهموا المؤمنين بالسفه، فهذا من تمامِ جهلِ المنافقين، هو عدم معرفتهم أنّهم هم السفهاء ﴿وَلَكِنْ﴾: حرفُ استدراكٍ ﴿لَا﴾: حرفُ نفي ﴿يَعْلَمُونَ﴾: لا يُدركون الحقائق، ولا يعرفون الصواب من الخطأ.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٤)

﴿وَإِذَا﴾: أداةُ ربطِ ما بعدها بما قبلها ﴿لَقُوا﴾: قابلوا ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿آمَنُوا﴾: المؤمنين ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾: يكذبون، ويدّعون الإيمان، تُقيةً؛ ونفاقًا ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾: أيضًا إذا انفردوا بأنفسهم، وانصرفوا ﴿إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾: إنّ لفظ "**الشيطان**" يُطلق على كلِّ بعيدٍ عن الخير، قريبٍ من الشرِّ؛ يُفسدُ ولا يُصلح، ويُطلق على الإنس والجنّ، فإذا قابلوا رؤساءهم في الكُفر، وسادتهم، وكبراءهم في الشركِ من أحبارِ اليهود، ومن المنافقين ومن المشركين ﴿قَالُوا إِنَّا﴾: ضمير للجمع المتكلم الحاضر، نحن بالتأكيد ﴿مَعَكُمْ﴾: نحن على دينكم؛ نُؤيدُكم، وننصرُكم، ونُساعدُكم. ويظهرون انحيازهم للكفّار صراحةً ﴿إِنَّمَا﴾: حرفُ توكيدٍ حصريّ؛ تُفيدُ التحديد والتخصيص ﴿نَحْنُ﴾: ضميرٌ يُفيد جمعًا من النّاس من المُخبرين عن أنفسهم ﴿مُسْتَهْزِئُونَ﴾: نحن نسخرُ، ونكذبُ على المؤمنين، وهؤلاء، كما في كلّ جيلٍ، يعدّون الكذب نوعًا من الذكاء.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٥)

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾: يُصيبُهم اللهُ ﷻ بنقمةٍ، وغضبٍ في الدنيا، وعذابٍ أليمٍ يوم القيامة، وهذا من صُنوف توبيخهم ولومهم، ومعاملتهم بالمثل؛ باستهزائهم بالمؤمنين ﴿وَ﴾: عطفًا على استهزائهم بالمؤمنين ﴿يَمُدُّهُمْ﴾: يُملي لهم الله تعالى، ويزيدُهم، ويُمهلُهُم إلى يوم القيامة ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾: في مجاوزتهم حدودَ اللهِ ﷻ، وغلوّهم في معاداةِ الرسول ﷺ ومعادةِ المؤمنين، وإصرارهم على الكفر ﴿يَعْمَهُونَ﴾: العمه خاصّ بالقلب بمعنى طمس البصيرة، أمّا العمى فهو خاصٌ بالبصر؛ هم بذلك ضالّون، مُترددون، مُحتارون، فهم كأعمى البصر، أصابهم أيضًا عمى القلب، قال ﷻ: ﴿إنها لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج-٤٦].

التكليف: ضرورة الإيمان بأنّ الله ﷻ يمدُّ للكافرين عقابًا لهم؛ تأكيدًا لمصيرهم إلى النّار، وخذلاهم في الدنيا مهما طال العُمر.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٦)

﴿أُولَئِكَ﴾: اسمُ إشارةٍ للقريب والبعيد، هؤلاء المنافقون ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿اشْتَرَوُا﴾: أي استبدلوا، وهو شراءٌ مجازي؛ لأنّ الشراء الحقيقي هو استبدالُ سلعةٍ بنقودٍ، أو سلعة بسلعةٍ، والأمران من الفائدة، بينما هنا اعتمدوا منهج ﴿الضَّلَالَةَ﴾: وهو الكُفر ﴿بِالْهُدَى﴾: بدلًا من الإيمان، آمنوا، ثم كفروا، باعوا ثوابَ الإيمان بعذابِ الكفر ﴿فَمَا﴾: حرف نفي ﴿رَبِحَتْ﴾: هو الزيادة الحاصلة من البيع، وقيل الربح، هو الطائرُ، وقيل هو الشجر ﴿تِجَارَتُهُمْ﴾: هم الذين بدّلوا الهُدى والإيمان بثمن الضلال، فخسرت تجارتهم مع الله ﷻ؛ فخرجوا من الهُدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى التفرق، ومن الأمن الذي هو طمأنينة النفس إلى الخوف، ومن السُّنّة إلى البدعة، ومن مصير أهل الجنّة إلى مصير أهل النّار ﴿وَمَا﴾: عطفًا على كفرهم ينفي الله تعالى أنّهم ﴿كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: لم يهتدوا إلى الطريق الحق.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٧)

﴿مَثَلُهُمْ﴾: يصفُ اللهُ ﷻ حالهم ﴿كَ﴾: حرف يفيد مثل وحال ﴿مَثَلِ﴾: كحالِ وصفاتِ ﴿الَّذِي﴾: اسمٌ موصولٌ للمذكر المفرد ﴿اسْتَوْقَدَ﴾: جاءت بصيغة المفرد، بمعنى طلب وسعى أنْ يُشعل ﴿نَارًا﴾: ليهتدي بها في طريقه المُظلمُ، يُسمّى هذا "المثل الناري" للذي يريد أنْ يكتسب نورًا، فلمّا ضاع الإيمان انطفأ النورُ؛ فأصبح لا يرى. جاء في الآية أنّ الفاعل هو فردٌ طلب وعمل على أنْ يُشعل ﴿نَارًا فَلَمَّا﴾: حرفٌ يُفيدُ التتابع والسبب ﴿أَضَاءَتْ﴾: أنارت ﴿مَا﴾: حرفٌ يفيد

المصدر بمعنى الذي ﴿حَوْلَهُ﴾: يعمّ الإيمان كما يعمّ النورُ المحيط ﴿ذَهَبَ﴾: مضى وأخذَ، ومحا، وأزال ﴿اللَّهُ بِ﴾: حرف الباء التعدية هو النقل من حال إلى حال ﴿نُورِهِمْ﴾: جاءت هنا بصيغة الجمع، هو الإيمان الذي يُنير القلب، هو طريق الهدى، كما يُنير الضوءُ للجسد طريق الدنيا، فالشرّ قد يبدأُ بالفرد؛ وينتهي الضررُ على الجماعة ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿تَرَكَهُمْ﴾: حرمهم وأهملهم عمدًا ﴿فِي ظُلُمَاتٍ﴾: والظلمات هنا هي انطفاء نور الهدى في القلب؛ بفعل المعاصي، تُحيط الظلماتُ بهم من كلِّ جانبٍ، كالذي في البحر، جاء اللفظُ "**ظلمات**" بالجمع دليلًا على درجة الضلال الكبرى ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُبْصِرُونَ﴾: كالعمي، فاقدي البصر والبصيرة، هذا من فصيح الكلام، وأبلغ في الأثر، وهذه دعوةٌ لكلِّ إنسانٍ؛ فقد يكون في دعوته هُدى أُممٍ، أو في ضلاله ضلالُ أمم، وهذه من الأمثال القرآنية الصريحة.

التكليف: إنّ إتباع تعاليم الخالق ﷻ، يقودُ إلى الصواب؛ ونعم الفائدة، وأمّا الكُفرُ والنفاق؛ فطريقهما الضياع؛ كالأعمى يسير بلا هدى، كمثل الذي أضاء بنارٍ؛ فانطفأت؛ فذهب النور، وبقي الجمر، مضى وأخذ، ومحا، وأزال، والمتأمل في الآية يجد أنّ الحقّ جلّ في علاه لم يقل ذهب اللهُ بنارهم كما بدأ، إنّما قال بنورهم؛ وذلك لأنّ النّار مكونةٌ من عنصرين؛ الأول الإضاءة والإشراق؛ وهو عنصرُ النفع للإنسان، والثاني عُنصر العذاب والإحراق وهو المُتبقي للكافرين، إذا نزع اللهُ ﷻ الأول؛ لتحرق قلوبهم في الدنيا قبل الآخرة، ومن جهةٍ ثانيةٍ: قال بنورهم، ولم يقل بضوئهم؛ لأنّ الذهاب بالنور، وهو الأصل؛ لا يُبقي أيَّ أثرٍ للإنارةِ والضوء بعده.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٨)

وصفت الآيةُ السابقةُ حالَ الكافرين بالعمى وهنا وصفٌ آخرٌ، بمصيبةٍ كُبرى، مثلهم كمثل ﴿صُمٌّ﴾: هم الذين لا يسمعون، ويُضافُ هنا على انعدام البصر، انعدام السمع، وهنا حالٌ آخر؛ فهم ﴿بُكْمٌ﴾: انعدام الكلام، هم خرسٌ لا ينطقون، أخرسهم اللهُ ﷻ، وأيضًا هم في حالٍ آخر، فهم ﴿عُمْيٌ﴾: لا يرون، وبذلك فقدوا القنوات الإدراكية المُوصلة لهداية القلب؛ فأُغلقت أدواتُ الإدراك والعقل، بذلك فقدوا نعم الله ﷻ عليهم، السمع، والبصر والكلام ﴿فَ﴾: لهذا السبب ﴿هُمْ﴾: حرف يفيد الجمع المذكر والمؤنث الغائب، تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، تشمل هنا الجمع المؤنث الغائب أيضًا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَرْجِعُونَ﴾: لا رجعةَ لهم عن طريق النّار؛ لا توبةَ، ولا إنابة، والعياذ بالله ﷻ.

التكليف: وجوبُ الشُكرِ على نعم الله ﷻ على الإنسان: الرؤية، والسمع، والكلام، والعقل، وغيرها من وسائل الإدراك، فيتكلمُ الإنسان بما أدرك، فإذا تعطلت أدواتُ إدراكهِ كان كالأبكم، وإذا تكلم لم يستفد أحدٌ من كلامه.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آَذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١٩)

﴿أَوْ﴾: حرفُ عطفٍ هنا يُفيدُ التسوية **﴿كَ﴾**: بمعنى مثل أو حال **﴿صَيِّبٍ﴾**: هو المطرُ النازلُ، أو السحاب المُحمّلُ بالبخار قبل نزوله **﴿مِنَ﴾**: حرفُ جرٍ يُفيدُ ابتداء الغاية المكانية، أي المصدر الأول **﴿السَّمَاءِ﴾**: هي كلُّ ما علا الأرض وأحاط بها؛ لكونها بيضاويّة الشكل، والصَّيب هو المطر، أو السحاب الذي يحمل الماء، وهذا مثلٌ مائي بمعنى اضرب لهم يا محمد ﷺ هذا المثل المائي، أو اضرب لهم المثل الثاني **﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾**: كالسحاب المُحمّلِ ببخار الماءِ الكثيف، والمقصود بالظلمات هي الشكوك، والكُفر، والنفاق **﴿وَ﴾**: أيضًا **﴿رَعْدٌ﴾**: الرعدُ هو الصوتُ الذي يُسبب الخوف، ويُزعج القلوب والمشاعر **﴿وَبَرْقٌ﴾**: إنّ البرق والرعد حادثان مُتلازمان، يتكون البرقُ من تصادمِ غيمتينِ مُختلفتينِ في الشحنةِ الكهربائية، الشحنةِ السالبةِ والشحنةِ المُوجبة؛ تنتج عن هذا التصادم شرارةٌ هائلةٌ، تُعرف بالبرق، وهو النورُ الذي يُضيء، ثم ينطفئ بسرعةٍ، كالإيمان في قلوب المنافقين، ويأتي بعد البرق صوتٌ مرعبٌ؛ بسبب هذا التصادم، يُعرف بالرعد **﴿يَجْعَلُونَ﴾**: يضعون **﴿أَصَابِعَهُمْ﴾**: ولم يقل ﷻ أطراف أنامل أصبعين فقط، هذا من نوع المجاز المُرسل؛ أطلق اللهُ ﷻ لفظ كلّ الأصبع، وليس الأنملة، وهي طرف الأصبع، وذلك دليلًا على شدّةِ الرُعبِ التي يُعانون منها **﴿فِي آَذَانِهِمْ مِنَ﴾**: حرفُ جرٍ يُفيد بداية الغاية المكانيّة **﴿الصَّوَاعِقِ﴾**: والصاعقةِ هي التي تنتج من التفريغ الكهربائي للعواصف الرعدية؛ فترتفع درجةُ الحرارةِ إلى خمسةِ أضعافِ حرارة الشمس؛ أي حوالي خمسة عشر مليون درجة مئوية **﴿حَذَرَ﴾**: خوفًا من **﴿الْمَوْتِ﴾**: هو قيامُ الملائكةِ المُكلّفين بنزعِ الروحِ من النفس، تقبض الملائكةُ الروح، وتُخرجها من الجسد كاملةً، دون تفريط، وهنا تموت نفس الإنسان بنزع الروح منها، جاء اللفظ النزع، وهو تخليصُ شيءٍ من شيءٍ بالقوّة، وهذا كنايةٌ عن شدّة ما يعانون **﴿وَ﴾**: عطفًا على هذا فاعلموا أنّ **﴿اللَّهُ مُحِيطٌ﴾**: يُطوّق الله ﷻ الكافرين من كلّ جانبٍ، ويسدُّ عليهم كلَّ زاويةٍ، وكلَّ طُرقِ نجاتهم، فلا مفرّ، ولا نجاة لهم **﴿بِ﴾**: حرف باء الصلة والمصاحبة **﴿الْكَافِرِينَ﴾**: هذا تحقيقٌ ربّانيّ على كُفر هؤلاء المجرمين، من الله ﷻ الذي لا تخفى عليه خافية ﷻ.

التكليف: في المثل المائي جاء ذكر السحاب الكثيف، والرعد، والبرق الذي يُبشّر بنزول الماء رغم الرُعب، والخوف الذي يحدثه، ولكنّه أحدث الأمل وذهب: مضى وأخذ، ومحا، وأزال ولم ينزل الماء.

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٠)

﴿يَكَادُ﴾: يُوشكُ **﴿الْبَرْقُ﴾**: من شدّته **﴿يَخْطَفُ﴾**: يستلب أو يُذهب بسرعة كبيرة **﴿أَبْصَارَهُمْ﴾**: بعيونهم التي يبصرون بها **﴿كُلَّمَا﴾**: كلمةٌ مكونّةٌ من كل وما التي هي مصدرية الظرف، وهي تُفيد التكرار هنا، والتعميم في مواطن أخرى **﴿أَضَاءَ﴾**: ذهب بالظلام **﴿لَهُمْ﴾**: تخصيصًا **﴿مَشَوْا فِيهِ﴾**: جاء لفظُ المشي في القرآن على أربعة أوجه؛ هنا بمعنى السير، في قوله ﷻ **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾** [الملك–١٥]، والمعنى في كلِّ حالٍ بدا لهم من الإيمان شيء استأنسوا؛ فساروا في حياتهم مطمئنين **﴿وَإِذَا﴾**: أداةُ ربطِ ما بعدها على ما قبلها **﴿أَظْلَمَ﴾**: أعتم **﴿عَلَيْهِمْ﴾**: إذا غشيتهم العتمةُ والظُّلماتُ **﴿قَامُوا﴾**: وإذا سادت الشكوكُ؛ وأظلمت قلوبُهم؛ فأصبحوا حائرين، وقفوا، وثبتوا، ولم يتحركوا؛ حيارى تائهين، وخاصّة في يوم القيامة، ومن النّاس من يُعطى النور، ثم ينطفئ؛ فيسير ويتوقف، ومنهم من ينطفئُ النور فيه، فيتوقف تمامًا، مصداقًا لقوله ﷻ: **﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾** [الحديد–١٣]، أمّا المؤمن فينالُ الفوز من ربّه ويكون في نورٍ؛ فيقضي حياته مطمئنًا، جاء في المعنى: **﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾** [الحديد–١٢] **﴿وَلَوْ﴾**: حرفٌ يفيد الامتناع **﴿شَاءَ﴾**: أراد **﴿اللَّهُ لَ﴾**: حرف علّة وسبب **﴿ذَهَبَ﴾**: مضى وأخذ، ومحا، وأزال **﴿بِسَمْعِهِمْ﴾**: لو أراد ﷻ؛ لذهب وأخذ، ومحا، وأزال سمعهم؛ تأكيدًا لفقدانهم السمع **﴿وَ﴾**: أيضًا لذهب ﷻ بوظيفة عيونهم **﴿أَبْصَارِهِمْ﴾**: وفقدوا البصر؛ فبقوا في الظلام، بلا حراكٍ؛ عقابًا لهم على نُكرانهم الحق **﴿إِنَّ﴾**: حرفٌ للتأكيد ونفيُ الشكِّ والإنكار **﴿اللَّهَ عَلَى كُلِّ﴾**: تفيد العموم **﴿شَيْءٍ﴾**: جاءت بصيغة نكرة لتؤكد العموم، **﴿قَدِيرٌ﴾**: قادر على تحقيق ما أراد في كلّ شيء.

التكليف: كأنّ المثلُ يقول: إنّ الغيث هو القرآن، والصواعق هي الزواجر التي تُخيف، وضوءُ البرقِ هو ظُهور الحق، وجعل الأصابع في الآذان تعبيرًا عن الإعراض عن سماع الحق، والله ﷻ أعلم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه كل سامعٍ من البشر لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿النَّاسُ﴾: هذا أمرٌ من الله ﷻ إلى عموم بني آدم، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ﴿اعْبُدُوا﴾: أطيعوا بعمل ما أمر، وانتهوا عما نهى عنه ﴿رَبَّكُمُ﴾: والربُّ هو المُربي، وهو المنشئ لكل شيءٍ في الكون العظيم من طورٍ إلى طورٍ إلى حدِّ التمام، هو سبحانه الخالقُ والمالكُ والمتصرفُ في كلّ أمركم ﴿الَّذِي﴾: اسمٌ موصولٌ؛ يعود على الله ﷻ، الفرد، الصمد، الواحد، الأحد ﴿خَلَقَكُمْ﴾: أوجدكم من غيرِ سابقِ وجودٍ؛ خلق أباكم آدم، عليه السلام من ترابٍ، ثم خلقكم من نُطفةٍ، وما كان هذا ليكون لولا الله ﷻ ﴿وَ﴾: أيضًا خلق ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد المع المذكر ويشمل هنا الإناث ﴿مِنْ﴾: حرف بيانٍ وتمييزٍ للنوع، ويُفيدُ ابتداء الغاية الزمانيّة، أي المصدر الأول ﴿قَبْلِكُمْ﴾: وهو ﷻ الذي خلق من كان قبلكم من البشر من بعد آدم ﵇، وخلق الأمم التي تلت ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: تُفيدُ الإشفاق؛ لأنّها من الله ﷻ، فإنْ كانت من عند البشر فهي تُفيد الترجي ﴿تَتَّقُونَ﴾: والتقوى هي أنْ يعمل العبادُ بينهم وبين المعاصي حاجزًا؛ حتى يحفظوا أنفسهم من عذابه ﷻ.

التكليف: عن ابن مسعود قال: سألت النبيﷺ: أيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»[1]. وسيدنا علي ﵁، يُعرّف التقوى بالخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢)

﴿الَّذِي﴾: هو في اللغة يعني اسمٌ موصولٌ بالمفرد المذكر؛ والمقصود هنا الله ﷻ ﴿جَعَلَ﴾: خلق الله ﷻ وأوجد ﴿لَكُمُ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿الْأَرْضَ﴾: مساحتها الشاسعة، وهيأها للإنسان؛ وسهّل حرثها والزراعة فيها، وحفرَ الآبار، وجريان الأنّهار، واستخلاص المعادن، والبترول، وغيرها ﴿فِرَاشًا﴾: بسطها ومهّدها، وكما جعل تُربتها صالحةً للعيش عليها واستثمارها، جعلها سهلةً للسير عليها، والتنقل فيها ﴿وَ﴾: أيضًا جعل ﴿السَّمَاءَ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض، وأحاط بها لكونها بيضاويّة الشكل ﴿بِنَاءً﴾: نظامًا مُحكمَ الخلق، ثابتَ العلاقات والأداء ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ﴾: حرفُ جرٍ يُفيدُ ابتداء الغاية المكانيّة؛ وهي هنا ﴿السَّمَاءِ﴾: السحاب الذي يعلو الأرض ﴿مَاءً﴾: خلق الله ﷻ البحار، وجعل مساحتها (٧٩) % من مساحة الأرض، بينما اليابسة تمثل (٢١)

---

[1] صحيح البخاري ج٦/١٨(٤٤٧٧).

% من مساحتها الكليّةِ التي تبلغ (٥١٠) مليون كيلومترًا مربعًا، وأوجد ظاهرةَ تبخّرِ الماء، وأوحى للهواء حمل البخار، وسيّر السحاب من مكانٍ لآخرٍ. لا شكّ أنّ الماء هو سيدُ المُذيبات في الكيمياء كلّها، وهو البيئةُ الكبيرةُ للتفاعلات الكيميائية، وهو أصلُ الحياة للإنسانِ، والنباتِ، والحيوانِ، وهو من أسبابِ قوةِ البنيانِ الحديث، الذي تُستخدم فيه مواد كالإسمنت مثلًا، وقد ورد ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيدُ السبب ﴿أَخْرَجَ بِهِ﴾: بسبب توفر الماء نبتت الثمار كُلّها من الأرض، التي وضع فيها كلّ العناصر اللازمة لنمو الشجرة، وخروج الثمرة ﴿مِنَ﴾: حرفُ جرٍ يُفيدُ بعض أو جزء ﴿الثَّمَرَاتِ﴾: أنواع الثمار من الشجرِ، والخضرِ، والفاكهةِ، وغيرها ﴿رِزْقًا﴾: خيرًا ومنفعةً؛ كرمًا منه، وتفضُّلًا عليكم ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿فَلَا﴾: أداة نهيٍ تفيد طلب عدم الفعل ﴿تَجْعَلُوا﴾: لا تتخذوا ﴿لِلَّهِ﴾: خصيصًا له ﷻ ﴿أَنْدَادًا﴾: والندُّ هو الكُفءُ والمثيلُ، هم الشركاءُ؛ إنّ الشرك أنْ تجعل مع الله ﷻ آخرين في الصفات، وفي الأفعال، وفي الإقرار له ﷻ بالربوبية، إنّ الله ﷻ الخالق البارئ، فهو ربّ؛ مالكُ الخلق، قال ﷺ: وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: بِالْجَمَاعَةِ، وَالسَّمْعِ، وَالطَّاعَةِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ، فَهُوَ مِنْ جُثَاءِ جَهَنَّمَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنْ صَامَ، وَإِنْ صَلَّى؟ قَالَ: وَإِنْ صَامَ، وَإِنْ صَلَّى، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، فَادْعُوا الْمُسْلِمِينَ بِأَسْمَائِهِمْ بِمَا سَمَّاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ[1] ﴿وَأَنْتُمْ﴾: تحديدًا ﴿تَعْلَمُونَ﴾: وأنتم تدركون أنّه لا خالق، ولا رازق، ولا مُحيي، ولا مُميت؛ إلّا الله ﷻ.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣)

﴿وَ﴾ عطفًا على ما سبق ﴿إِنْ﴾: حرفُ شرط ﴿كُنْتُمْ﴾: أيّها النّاس ﴿فِي رَيْبٍ﴾: تعيشون حالةَ الشّك ﴿مِمَّا﴾: من جزءٍ أو بعضٍ الذي ﴿نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾: هو القرآن الكريم الذي أنزلناه وحيًا على عبدنا محمدٍ ﷺ ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع السريع ﴿أْتُوا﴾: أحضروا، هاتوا ﴿بِسُورَةٍ مِنْ﴾: حرفٌ يفيد بداية الغاية المكانيّة، بعض ﴿مِثْلِهِ﴾: حرفٌ يفيد التشبيه بمعنى من مثل ما جاء في التوراة، والإنجيل، والكتب السماوية السابقة والقرآن ﴿وَادْعُوا﴾: نادوا واجمعوا؛ جاء لفظ دعاء في القرآن الكريم على ستةِ أوجهٍ؛ جاء هنا بمعنى الاستغاثة والاستعانة بمن تشاؤون ﴿شُهَدَاءَكُمْ﴾: آلهتكم أو أنصاركم ﴿مِنْ﴾: حرف بيانٍ وتمييزٍ للنوع، وتفيد هنا بداية الغاية، أي

---

[1] مسند الإمام أحمد ٢٨/٤٠٦(١٧١٧٠) والحديث صححه شعيب الأرناؤوط.

المصدر ﴿دُونِ﴾: غير ﴿اللَّهِ﴾: من الذين تعبدون غير الله ﷻ ﴿إِنْ﴾: حرفُ شرطٍ ﴿كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: إذا كنتم تُصدّقون أنّ هؤلاء هم آلهتكم؛ فاستعينوا بهم لينفعوكم في الدنيا وفي الآخرة.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢٤)

﴿فَإِنْ﴾: حرفُ شرطٍ؛ وتأكيدُ الفعل ﴿لَمْ﴾: حرفُ جزمٍ ينفي ﴿تَفْعَلُوا﴾: تُحققوا الدعوة ﴿وَ﴾: عطفًا على هذه الحقيقة ﴿لَنْ﴾: حرفُ نفي ﴿تَفْعَلُوا﴾: لن تعني أبدًا لن تفعلوا، ولن تقدروا أبدًا أنْ تأتوا بمثله؛ لما فيه من المُعجزات في المجالات التالية: **أولًا**: اللفظ والمعنى: قال ﷻ: ﴿**الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾ [هود–١]، ومواصفات هذه الآية: حقٌ، وعدلٌ، وصدقٌ، وهدى، ثانيًا: الغيب: إخبارٌ عن أحداثِ الماضي، التي وقعت ولم يُخبر سواهُ ﷻ عنها، وكلُّه صحيح ثالثًا: الترهيب: قال ﷻ: ﴿**فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ**﴾ [العنكبوت–٤٠] **رابعًا**: الوعظ: ﴿**أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ**﴾ [الشعراء–٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧]، خامسًا: الترغيب: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ**﴾ [السجدة–١٧]، سادسًا: الأحكامُ والأوامرُ والنواهي: يأمرهم الله ﷻ بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴿**وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾ [الأعراف–١٥٧]، سابعًا: المآل المصير: جاءت في هذه الآيةِ نفسها، ﴿فَـ﴾: حرفٌ يفيد الاستثناء ويفيد السبب بهدف ترتيب وتنفيذ الأمر بسرعة ﴿اتَّقُوا﴾: تجنبوا، واحذروا، واحفظوا أنفسكم من ﴿النَّارَ﴾: من نارِ جهنّم، جاء لفظُ "**النّار**" في القرآن الكريم على ثلاثةِ أوجه، هنا بمعنى النّار الحارقة، وجاءت بالمعنى نفسه في قوله ﷻ ﴿**النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ**﴾ [البروج–٥] تُوقد من حجارةٍ في النّار من كبريتٍ أسود مُنتنٍ، هل هي البترول؟ أمْ هي حجارةُ الأصنام والأنداد؟ أمْ تُوقدُ بأجساد المُستحقين للعذاب بالنّار؟ الله أعلم ﴿الَّتِي﴾: اسمٌ موصولٌ للمؤنثِ المفردِ ﴿وَقُودُهَا﴾: التي يُشعلها ويُسعّرها ﴿النَّاسُ﴾: أجسادُ عموم البشر من بني آدم ﴿وَ﴾: أيضًا تُسعّرُها ﴿الْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ﴾: جُهزت، ورصدت، وهُيّئت ﴿لِ﴾: حرف تخصيصٍ ﴿الْكَافِرِينَ﴾: الذين أنكروا وغطوا حقيقة الخالق الله ﷻ، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقيامة، فعن ابن مسعود قال، قال رسول ﷺ: اشْتَكَتِ النَّارُ إلى رَبِّها، فقالَتْ: يا رَبِّ أكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فأذِنَ لها بنَفَسَيْنِ نَفَسٍ في الشِّتاءِ ونَفَسٍ في الصَّيْفِ[1].

التكليف: لقد فشل الخلق على مدى الأجيال أنْ يأتوا بسورةٍ من مثلِ سورةٍ من القرآن.

---

[1] صحيح البخاري ج٤/١٢٠(٣٢٦٠).

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥)

من نهج القرآن: ما يُعرف بالمثاني فإذا ذُكر الكُفرُ في الآيات التي سبقت، كان الإيمانُ عكسه، وإذا ذُكر حالُ التُعساء، جاء ذِكرُ حالِ السعداء، أمّا النظير: فهو التشابهُ في المعنى؛ فبعد توعّدِ اللهِ ﷻ الكافرين؛ كانت البُشرى للمؤمنين ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿بَشِّرِ﴾: أخبر بما يسرُّ ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿آَمَنُوا﴾: من الرجال والنساء، صدّقُوا يقينًا وتسليمًا باللهِ وملائكتِه، وكُتبِهِ، ورسلهِ، والقيامة ﴿وَ﴾: أيضًا إنّ الإيمان وحدهُ لا يكفي، فلا بد من اقترانه بأنْ ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: أخبر اللهُ ﷻ المؤمنين الذين أتبعوا إيمانهم بعملِ الصالحات، بما يسُرّهم، ويُسعدُهم ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد ونفي الإنكار ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿جَنَّاتٍ﴾: وليست جنّة واحدة ﴿تَجْرِي مِنْ﴾: حرفُ جرّ يُفيد ابتداء الغاية المكانيّة، أي المصدر المكانيّ الأول ﴿تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: في الآية مجازٌ عقليٌ، وهو إسنادُ الفعل أو ما في معناه إلى غيرِ فاعلهِ الحقيقي؛ حيث أُسند فعل الجري إلى الأنهار، والذي يجري حقيقةً هو الماءُ الموجودُ في الأنهار ﴿كُلَّمَا﴾: حرفٌ يُفيدُ التكرار، والتعميم ﴿رُزِقُوا﴾: جاءهم المزيدُ من رزقِ اللهِ ﷻ ﴿مِنْ﴾: حرفُ بيانٍ وتمييزٍ للنوع، وتفيد هنا جزءًا أو بعضَ جزء ﴿ثَمَرَةٍ﴾: كُلّما أكلوا نوعًا من الثمار ﴿رِزْقًا﴾: عطاءً من الله ﷻ ﴿قَالُوا هَذَا﴾: اسمٌ موصولٌ هنا للفرد الواحد القريب، الأحد، الفرد، الصمد، ﷻ ﴿الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ﴾: حرفٌ يُفيدُ بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلُ﴾: تعني أنّ هذا مثلُ الذي عرفناه في الدنيا، وقيل مثل الذي رأيناه بالأمس في الجنّة، وقيل هذه الثمار كلّها متشابهة في الجنّة مع ما عرفناه في الدنيا، والله ﷻ أعلم ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾: أي في اللونِ والمنظرِ وحده، ولكن الطعم مختلف ﴿وَلَهُمْ﴾: يملكون ﴿فِيهَا﴾: في الجنّة ﴿أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾: بمعنى نظيفةٌ من القذارة والأذى، ومطهّرةٌ من الحيض، والغائطِ، والبولِ، والإفراز النخامي، ومُطهّرةٌ من الأذى، والإثم ﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾: في نعيمٍ دائمٍ؛ بلا نهايةٍ، وبلا انقطاع.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦)

أسباب النزول: عندما ضرب اللهُ ﷻ الأمثلةَ السابقة، قال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة–١٧]، وقال أيضًا: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة–١٩]، قال المنافقون: اللهُ أعلى

وأجلّ أنْ يضرب هذه الأمثلة؛ فنزلت الآية مختومة: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر–٦٣]، وعندما ذُكر العنكبوتُ، والذبابُ في القرآن؛ قال المُنافقون والمشركون: ما بال الذباب والعنكبوت يُذكران؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ﴾: حرفٌ للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾: والحياء هو الخجلُ المشروع، والاستحياء بمعنى الحياء، لا يستنكف، بمعنى لا يخشى ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يَضْرِبَ﴾: يذكر ﴿مَثَلًا مَا﴾: هنا للتقليل ﴿بَعُوضَةً﴾: ولقد جاءت العلومُ الحديثةُ لتؤكد معجزات ما نزل في القرآن الكريم قبل أكثر من (١٤٤) عامًا، جاء ذكر البعوضة في هذه الآية، حيثُ يوجدُ أكثر من ثلاثةِ آلافِ نوعٍ من البعوض لكلٍّ منها أماكن بيئية مفضلةٌ، ولكلِّ بعوضةٍ عينان، كلُّ واحدةٍ منها على شكلِ خليةِ النحل، وللبعوضة فمٌ فيه (٤٨) سنًّا، ولها ستةُ أرجلٍ، وجناحان، وفي صدرها ثلاثةُ قلوب، قلبٌ مركزيّ، وقلب لكلّ جناح، وتملكُ الحشرةُ جهازَ استشعارٍ بمستقبلاتٍ حراريةٍ هي التي تُحدد الأجسام أمامها، وليس عن طريق العيون، ولديها جهازُ تخديرٍ موضعي؛ حتى لا يشعر الإنسان أو الحيوان بها قبل أنْ تغرز خرطومها في جلده، وللبعوضة القدرةُ على استشعارِ درجةِ الحرارة من (١) إلى (١٠٠٠) من درجة حرارة الإنسان، ويملكُ جسدُها جهازَ تحليل الدم، الذي يمنع تجلطه؛ حتى يُشفط بسهولةٍ، والبعوضة هي التي تختار نوع الدم الذي تمتصه، وفي خرطومها ستُّ سكاكين، أربع منها تسبب جرح جلدِ الفريسة، والخامسُ والسادسُ للامتصاص، وفي أرجلها مخالب تقف بها على سطحٍ خشنٍ، ولها محاجن تُمكنها من الوقوفِ على السطح الأملس، ومن مخاطر البعوض أنّه ينقلُ أمراض الملاريا، والحُمّى الصفراء، ومرضَ الفيل وغيرها ﴿فَمَا﴾: حرفُ عطفٍ يُفيدُ خبرًا ﴿فَوْقَهَا﴾: فيها معانٍ عدّة: جاءت هنا بمعنى: دون البعوضة؛ أقلُّ في الصغر والحقارة، وجاء أيضًا بمعنى ما هو أكبر منها، وجاءت في قوله ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة–٢١٢] بمعنى فوق رؤوسهم، وكذلك في قوله ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر–١٦]، وجاءت في قوله ﷻ ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب–١٠] بمعنى المكان، أعلى الوادي، وفي قوله ﷻ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح–١٠] جاءت بمعنى أفضل، وفي قوله ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ

﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء-١١] جاءت هنا بمعنى الأكثر عن عائشة، رضي اللهُ عنها، قال ﷺ: ما مِن مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً، فَما فَوْقَهَا إلَّا كُتِبَتْ له بهَا دَرَجَةٌ، ومُحِيَتْ عنْه بهَا خَطِيئَةٌ[1]، وقال السلف: إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي؛ لأنّ الله ﷻ قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت-٤٣] ﴿فَأَمَّا﴾: حرفُ تفضيلٍ وتوكيدٍ بمعنى أي ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿آمَنُوا فَ﴾: حرفٌ يُفيدُ السبب ﴿يَعْلَمُونَ﴾: يُدركون حقًّا ﴿أَنَّهُ﴾: القرآن الكريم ﴿الْحَقُّ﴾: جاء لفظ الحق في القرآن على أحد عشر وجهًا؛ هنا بمعنى كتاب الله من عنده ﷻ، أي هو كلامُ الرحمن، وأنّ المثل المضروب هو من عند الله ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ﴾ [المدثر-٣١] لا تناقض في الحقائق، والحقُ مستقلٌ عن الزمانِ، وعن المكانِ؛ فهو حقٌ في كلّ وقتٍ، وعلى أيّ مكانٍ ﴿مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد ابتداء الغاية، أي المصدر الأول ﴿رَبِّهِمْ﴾: مالكُ أمرهم كلّه ﴿وَأَمَّا﴾: حرفُ تفضيلٍ وتوكيدٍ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فَ﴾: حرفٌ يُفيدُ السبب ﴿يَقُولُونَ مَاذَا﴾: أداة استفهام ﴿أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا﴾: اسمٌ موصولٌ للمفرد القريب ﴿مَثَلًا يُضِلُّ﴾: من الضلال، والتيه، وعدم الاهتداء، وهي عكسُ الهدى، والفئةُ التي تضلُّ هي فئةُ المنافقين ﴿بِهِ كَثِيرًا﴾: بالقرآن الكريم وفيه الأمثال ﴿وَ﴾: حرف عطف بمعنى أيضًا ﴿يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾: يهديهم سُبلَهُم، ويزيدُ إيمانهم, ويُعرّفه لهم ﴿وَمَا﴾: حرفُ نفي ﴿يُضِلُّ بِهِ﴾: لا يعرفه الكافرون؛ فيزدادون تيهًا عن الحق؛ ويزدادون كُفرًا ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطع ﴿الْفَاسِقِينَ﴾: الخارجين عن الحدود، وفي الدين هم الخارجون عن الطاعة، والفاسق في اللغة: كالفأرةِ التي تخرجُ من جحرها؛ فتُسمى فويسقة، ويقال فسقت الرطبة؛ فخرجت من قشرتها، الفاسقُ في الدين: يشمل الكافر, والعاصي، والمقصود بهم في هذه الآية الكافرون.

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٢٧)

﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿يَنْقُضُونَ﴾: يهدمون، يلغون العهد، بعدما أعطوا موثقًا ﴿عَهْدَ اللَّهِ﴾: ويشملُ العهد: طاعةَ أوامرِ الله ﷻ وعبادته، والانتهاء عما نهاهم، وحرّمه

---

[1] صحيح مسلم: ج٤/١٩٩١(٢٥٧٢).

عليهم، والعهد الذي أخذه عليهم يوم أخرجهم من ظهر أبيهم آدم ، والفئات المقصودة هي: الكُفّار، والمنافقون، وكُفّار أهل الكتاب ﴿مِنْ﴾: حرف بيانٍ وتمييزٍ للنوع ﴿بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾: أو الذين نقضوا عهدهم؛ الذي نزل في التوراة حول معرفتهم برسالة محمد ﷺ، وأهلُ الكفرِ، والشركِ، والنفاقِ جميعًا، في كلّ العصور ﴿وَ﴾: حرف عطف بمعنى أيضًا ﴿يَقْطَعُونَ﴾: يمنعون تواصل ﴿مَا﴾: بمعنى الذي ﴿أَمَرَ اللَّهُ بِهِ﴾: شرّعه لعباده ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يُوصَلَ﴾: والمقصود هو العموم؛ الذين يقطعون صلة الأرحام، والقرابة ﴿وَيُفْسِدُونَ﴾: وعطفًا على ما جاء يتم إتلاف الشيء وإعطاب وتعطيل دوره ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: عموم الأرض، التي تبلغ مساحتها حوالي (٥١٠) مليون كيلومترًا مربعًا، بما وبمن عليها ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارةً للبعيدِ والقريب ﴿هُمُ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع الغائب المذكر والمؤنث وهي للتخصيص ﴿الْخَاسِرُونَ﴾: هؤلاء المذكورون هم الذين يخسرون الجزاء يوم القيامة، جاء في ذلك: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد–٢٥]؛ هم الكافرون، والمنافقون الذين يخسرون رحمة الله ﷻ، وقد يكون المقصود ذنوب المؤمنين، الذين تُنتقص حُظُوظُهم بالمعصية، كما يخسرُ الرجلُ في تجارته، أي كما يُنقصُ من رأس المال؛ واللهُ ﷻ أعلم.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨)

﴿كَيْفَ﴾: حرفُ استفهامٍ خرج عن معناه الحقيقي؛ لإفادة معنى بلاغي؛ وهو التعجب، والإنكار التوبيخي ﴿تَكْفُرُونَ﴾: تُغطون وتُنكرون ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ﴾: كيف تُغطّون وتسترون وتُنكرون حقيقة الخالق، المُتصرفِ في عباده، تنكرون وجوده، ولا تعبدونه؟ ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ هنا تفيد الحال ﴿كُنْتُمْ﴾: في ظهور آبائكم، وحرف الواو هنا يفيد الحال ﴿أَمْوَاتًا﴾: جاء لفظُ الموت على ثلاثةِ وجوهٍ؛ جاء هنا بمعنى النُطفة التي لم تُخلّق، ولم تُصوّر، وكذلك جاءت بالمعنى نفسه في قوله **﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾** [غافر–١١] وجاء اللفظُ بمعنى قحطُ الأرض في قوله **﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** [الأعراف–٥٧] وجاء بمعنى الضلال عن التوحيد في قوله **﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [الأنعام–١٢٢]، وقوله أيضًا **﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾** [فاطر–٢٢] ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيدُ السبب ﴿أَحْيَاكُمْ﴾: أي كنتم عدمًا فأحياكم

الحياة الأولى، كنتم نطفةً، ثم مُضغةً، جاء في المعنى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور-٣٥]، أو كنتم تُرابًا ميتًا، فخلقكم من ترابٍ ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيدُ التتابع الزمني غير السريع ﴿يُمِيتُكُمْ﴾: موتةُ الحقّ، هي موتُ الجسد، وخروج الروح ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾: يبعثكم ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾: إلى الله ﷻ ﴿تُرْجَعُونَ﴾: تُبعثون يوم القيامة.

التكليف: إنّ من بيده القدرةُ على إماتة الحيّ وإحياء الميّت فهو الربّ؛ المُستحق بالعبادة الخالصة.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٩)

﴿هُوَ﴾: هنا يعني الله ﷻ، أمّا في اللغة فهو ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للغائب المفرد المذكر ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾: أوجد من غيرِ سابقِ وجودٍ ﴿لَكُمْ﴾: لصالحكم تخصيصًا ﴿مَا﴾: مصدر موصول بمعنى الذي من جنس غير العاقل ﴿فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: يذكر الله ﷻ دليلًا: وهو خلق الأرض، وما فيها، وما عليها ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيدُ التتابع الزمني البطيء، مع التراخي، أنّه بعد خلق الأرض ﴿اسْتَوَى﴾: العلو والارتفاع بالقصد، بالهيئةِ التي يعرفها وحدَهُ ﷻ ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾: كلمة "**إلى**" تفيد القصد إلى السماء، ولو جاءت "**على**" فهي تفيد العلو والارتفاع ﴿ف﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿سَوَّاهُنَّ﴾: خلقهن، وأتمهنّ وأحكمهن، حرف الهاء يعود على السماء ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾: خلق اللهُ ﷻ السموات السبع، والدليل استشهاد الجمهور بقول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت-٩]، ولقد نقل ابن جرير عن قتادة: أنّ السماء خُلقت قبل الأرض، واستدل بقوله ﷻ: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات-٣٠، ٣١]، يقول العلماءُ اليوم: من المعلوم أنّ الأرض هي جزءٌ من النظام الشمسي، الذي كان فيما مضى عبارةً عن سحابةٍ من الغُبار، والصخورِ، والغازِ، كانت السحابةُ تتكون من عنصري الهيدروجين والهليوم، ثم حدث انفجارٌ في السديم الشمسي؛ ممّا أدّى إلى حدوثِ دورانٍ زاوٍ، وبفعلهِ بدأت هذه السحابة بالإسراع بشكلٍ متناوبٍ إلى أنْ استقرت، وكان معظمُ هذه الكتلة يتركز في منتصفها، وأدى الدورانُ ومقاومةُ الجاذبيةِ إلى تسخينٍ هائلٍ في المركز ونتيجة لعدم القدرة على نقل الطاقة بعيدًا فقد حدث انصهار نووي للهليوم والهيدروجين، وكان هذا أول اشتعالٍ لنجم الشمس، وانقسمت الأجسام خارج الشمس؛ لتتشكل المجموعاتُ، والتي تنتج عن تصادم شظاياها من الكواكب، ومنها كوكب الأرض؛ وهذا ما أكدهُ العلمُ الحديث ﴿وَهُوَ﴾: هنا يعني اللهُ ﷻ، أمّا في اللّغة فهو ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للغائب

المفرد المذكر ﴿بِ﴾: حرفُ باء التوكيد ﴿كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة نكرة، والنكرة تُفيدُ هنا عموم الخلق ﴿عَلِيمٌ﴾: واسعٌ شاملُ العلم.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٠)

﴿وَإِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن بالتأكيد ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾: والربُّ هو المالك والمُربي، هو المنشئُ للشيء حالًا فحالًا إلى حدِّ التمام، مالك أمر الخلق كلّه ﴿لِ﴾: حرف للتبليغ ﴿الْمَلَائِكَةِ﴾: يمنُّ الله ﷻ على بني آدم؛ بأنّه ذكر اسمهم في الملأ الأعلى قبل خلقهم، أي يا محمد ﷺ اذكر، واقصص على النّاس هذا التكريم يوم قال اللهُ ﷻ للملائكة ﴿إِنِّي﴾: أنا بالتأكيد ﴿جَاعِلٌ﴾: خالقٌ ومُحققٌ ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: أقوامًا، يخلفُ بعضُهم بعضًا، من آدم ﵇ ومنه كانت حوّاء، ومن هذه الآية استدلّ العلماءُ على وجوب منصب الخليفة؛ من أجلِ الفصلِ في الخلافات، ونصرةِ المظلوم، وإقامةِ الحدود، ومنعِ الفاحشة، وحتى تُقام الخلافة في الرعية؛ فيها أشكال: بالنص، أي البيعة المنطوقة، أو بالإيماء إليه، والإشارة إليه، أو استخلاف الخليفة من يخلفه من بعده، مثال: أبو بكر وعمر، رضي الله ﷻ عنهما، أو اجتماعُ أهلِ الحلِّ والعقد، وفي إجماعِ جماعةٍ من الصالحين، أو مُبايعةِ واحدٍ منهم له، والتزام الجمهور، أو الإجماع، قال ﷻ: **﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾** [النمل–٦٢]، وهنا نفهم معنى الخلفاء الراشدين، أي يخلفُ أحدُهم الآخرَ، والآخرةُ هي التي في مقابلِ الأولى ﴿قَالُوا﴾: هم الملائكة ﴿أَ﴾: بدخول حرفُ الألف على الفعل هنا تعني التعجب المجرد والاسترشاد لمعرفة الحكمة البالغة ﴿تَجْعَلُ فِيهَا﴾: ليس اعتراضًا من الملائكة على الخالق، وليس على وجه الحسد؛ ولكنّهم علموا منه ﷻ بما سيفعل الإنسان، حيث كان هذا استفسارًا لمعرفة الحكمةِ من خلقهم ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يُفْسِدُ فِيهَا﴾: الذي لا يُطبّق شرع الله ﷻ، وهم الذين سيفسدون في الأرض ﴿وَ﴾: حرف عطف بمعنى أيضًا، يكون فيها مَنْ ﴿يَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾: أي يُسيلُ الدم من أجساد البشر؛ عُدوانًا، وظُلمًا ﴿وَنَحْنُ﴾: الملائكة ﴿نُسَبِّحُ﴾: ننزهك عن النواقص وعن كلّ لفظٍ وسوءٍ ﴿بِ﴾: حرف الباء السببية ﴿حَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: جاءت كلمةُ "**لك**" لتقوية المعنى؛ بسبب هذا نُمجّدك ونؤدي واجب الطاعة تسبيحًا، وحمدًا، وتنزيهًا، قال قتادة وابن عباس: المقصود الصلاة، وكذلك تعني التعظيم والتطهير، وقيل نُطهّر ذكرك مما يقولون، ويقال عن الأرض المقدسة أي المُطهّرة، وقد سُئل رسول الله ﷺ: أيُّ الكَلَامِ

أَفْضَلُ؟ قالَ: ما اصْطَفَى اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ، أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ[1]، ورُوي: أنّ رسول الله ﷺ ليلة الإسراء قال: سَمِعْتُ تَسْبِيحًا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى مَعَ تَسْبِيحٍ كَثِيرٍ، سَبَّحَتِ السَّمَاوَاتُ الْعُلَى مِنْ ذِي الْمَهَابَةِ مُشْفِقَاتٍ لِذِي الْعُلَى بِمَا عَلَا: سُبْحَانَ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى ﷻ[2]، ومن الواضح أنّه ﷻ أخبر الملائكة عن طبيعة هذا المخلوق الجديد، تكوين الجسد من لحمٍ، وعظمٍ، ودمٍ، وأنّ الموت يأتي بسفك الدماء، وأنّ طبيعتهم من التراب، غير طبيعة الملائكة ﴿قَالَ﴾: اللهُ ﷻ ﴿إِنِّي﴾: أنا بكلِّ تأكيد ﴿أَعْلَمُ مَا﴾: الذي ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾: وفي تفسيرها وجوه عدة: لم يُخبرهم ﷻ عن إرسال الأنبياء والرسل، ولا أخبرهم عن وجود الصديقين، والشهداء، والصالحين، والعبّاد، والزّهاد، والأولياء، والأبرار، والمقربين، والعلماء العاملين، والخاشعين وغيرهم من بني البشر، أو أنّ هناك حكمةً من خلقهم، لا يعلمونها، فلم يُفصِّلْها لهم ﷻ، أو أنّ حالهم ليس كما وصفوا كاملًا؛ لأنّ إبليس بينهم، أو الطلب أنْ يسكنوا الأرض بدلًا من بني آدم، وهنا تعني ﴿أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: أنّ بقاءكم في السماء أصلحُ لكم.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١)

﴿وَعَلَّمَ﴾: يخبر اللهُ ﷻ أنّه هو مصدر علم ﴿آدَمَ﴾: عليه السلام، هو أبو البشر، سماهُ اللهُ ﷻ آدم لأنّه من أديم الأرض وقيل لسمرة لونه، والله أعلم ﴿الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾: أسماء ولده، فردًا، فردًا، وعلّمه أسماء الدواب، حمار، جمل، سماء، أرض، سهل، بحر، خيل، واسم كلّ طير، يبيّن ﷻ شرف آدم عليه السلام، وهو فضلُ علمِ ما لم يُعلّمْهُ الله ﷻ الملائكةَ، فما هي هذه المعلومات؟ جاء هذا الفضل الكبير لآدم عليه السلام بعد سجود الملائكة له ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني على التراخي، أي بعد ذلك ﴿عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾: إمّا أنّه ﷻ عرض الأسماء لجميع المخلوقات على الملائكة، أو أنّه عرض أصحاب الأسماء عليهم؛ والله ﷻ أعلم ﴿فَ﴾: حرف استئناء بهدف ترتيب الأمر بالسرعة الممكنة ﴿قَالَ﴾: الله ﷻ ﴿أَنْبِئُونِي﴾: أمر الله ﷻ الملائكة أنْ يذكروا أسماء هذه المخلوقات ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾: اسم إشارة للجمع، والهاء تفيد التنبيه ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: إنّ الله ﷻ ما خلق خلقًا إلّا كان الملائكةُ أعلم من آدم؛ فطلب منهم أنْ أخبروني بأسماء هؤلاء، إنْ كنتم أكرم من آدم وقيل: هل تُصدّقون عندما تقولون أنّ بني آدم سيسفكون الدماء ويُفسدون في الأرض.

---

[1] صحيح مسلم ج٤/٢٠٩٣(٢٧٣١).

[2] تسمية ما انتهى إلينا من الرواة عن سعيد بن منصور لأبي نعيم ص: ٣٦-٣٧. وإسناده صححه أبو نعيم الأصبهاني ووافقه المحقق للكتاب د. عبد الله الجديع.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٢)

﴿قَالُوا﴾: كان ردُّ الملائكة ﴿سُبْحَانَكَ﴾: نُقدسك، ونُنزهك عن السوء والنواقص ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿عِلْمَ لَنَا﴾: لا نعلم تخصيصًا ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع، لا نعلم إلّا ﴿مَا﴾: الذي من جنس غير العاقل ﴿عَلَّمْتَنَا﴾: أخبرتنا وكلّه صدق، وعدل ﴿إِنَّكَ﴾: أنت سبحانك بالتأكيد ﴿أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾: لا أحد يُحيطُ بعلمك إلّا بإرادتك سبحانك ولا نتعلم شيئًا إلّا ما علمتنا إيّاه، يا صاحب العلم الذي لا يعلمه سواك، وأنت ﴿الْحَكِيمُ﴾: المُشتملُ على الحكم، صاحبُ الصواب المحكم، والحق، لا خلل فيه، وفي كلِّ أمرٍ.

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٣٣)

﴿قَالَ﴾: الله ﷻ ﴿يَا﴾: حرفُ نداءٍ للقريبِ والبعيد ﴿آدَمُ﴾: هو أبو البشر ﴿أَنْبِئْهُمْ﴾: أخبرهم ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾: أسماءِ المخلوقات التي تعلمها آدمُ ﵇ ﴿فَلَمَّا﴾: ظرفٌ هنا بمعنى عندما ﴿أَنْبَأَهُمْ﴾: أخبرهم ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾: عندما أخبر آدمُ ﵇، الملائكة بالمُسميات ﴿قَالَ﴾: الله ﷻ ﴿أَلَمْ﴾: أداةُ استفهامٍ تُفيد الاستنكار ﴿أَقُلْ﴾: في السابق ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا يا ملائكتي ﴿إِنِّي﴾: أنا بالتأكيد ﴿أَعْلَمُ غَيْبَ﴾: أعلمُ كلّ ما خفي عن أصحاب وسائل الإدراك في ﴿السَّمَوَاتِ﴾: كلّ ما علا الأرض، وأحاط بها ﴿وَ﴾: حرف عطف بمعنى أيضًا، أعلم الذي في ﴿الْأَرْضِ﴾: كل ما فيهما ﴿وَأَعْلَمُ مَا﴾: الذي ﴿تُبْدُونَ﴾: ما تُظهرون من شئون حياتكم ﴿وَمَا﴾: الذي من جنس غير العاقل ﴿كُنْتُمْ﴾: من قبل ﴿تَكْتُمُونَ﴾: ما لا تُبدون، أو ما لا تقُولون، وصيغة الجمع ما تبدون وما كنتم تكتمون؛ تعني قولَ شخصٍ واحدٍ أو جماعةٍ؛ لاستمرار، الحديث وتكراره في النّاس مثل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات–٤] إنّ الذي نادى هو شخصٌ واحدٌ من بني تميم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٤)

﴿وَإِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن ﴿قُلْنَا﴾: أمرَ اللهُ ﷻ ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا﴾: طبيعة السجود: كان السجودُ طاعةً لأمر الله ﷻ، قال اسجدوا فسجدوا، وقيل إنّ السجدة ﴿لِآدَمَ﴾ كانت تكريمًا له فهي تحيةٌ، وسلامٌ، وإكرامٌ، كمثال قوله ﷻ عن يوسف ﵇: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف–١٠٠] ربّما كان السجودُ مشروعًا في الأمم السابقة، ونُسخ من ملّةِ الإسلام ﴿فَ﴾: حرف استثنائي بهدف ترتيب الأمر بسرعةِ التنفيذ ﴿سَجَدُوا إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع، الكلُّ سجد باستثناء

﴿إِبْلِيسَ﴾: قال سعيد بن المسيب: كان إبليس رئيسَ الملائكة في السماء الدنيا، وقال ابن جرير عن الحسن: ما كان إبليسُ من الملائكة طرفةَ عين، وإنّه أصلُ الجنِّ، كما كان آدم ﷺ أصل الإنس، وقال شهر بن حوشب: كان إبليسُ من الجنّ الذين طردتهم الملائكة، فأسره بعضُ الملائكة؛ فذهب إلى السماء. رواه ابن جرير، وعن سعد بن مسعود: كانت الملائكةُ تُقاتل الجن، فُسبي إبليس، وكان صغيرًا، فكان مع الملائكة؛ يتعبد معهم، فلما أُمروا بالسجود لآدم؛ سجدوا، فأبى إبليس: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف-٥٠] ﴿أَبَى﴾: رفض ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾: تعالى بنفسه؛ فقد حسد إبليس آدم ﷺ على ما نالهُ من كرامةٍ من الله ﷻ؛ فرفض السجود وأصيب بمصيبة الكبر؛ قال ﷺ: لا يدخُلُ الجنَّةَ مَن كان في قلبِه مِثقالُ حبَّةٍ مِن خَرْدلٍ مِن كِبْرٍ[1]

﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿كَانَ﴾: صار ﴿مِنَ﴾: حرف يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿الْكَافِرِينَ﴾: مثلما قال ﷻ: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود-٤٣]، وقوله ﷻ: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة-٣٥] رغم أنّ إبليس يؤمن أنّ الله خالق السموات، وخالق الأرض، وهو ﷻ الرازق إلى آخر الصفات؛ إلّا أنّه دخل في زُمرةِ الكافرين بعدم السجود لآدم؛ نخلص من هذا أنّه لا قليل من الإثم.

التكليف: لمّا تكبّر إبليسُ عن طاعةِ اللهِ ﷻ فأبلس، أي آيس من كلّ خير، من دخول الجنّة ومسخه شيطانًا والله ﷻ أعلم.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٥)

﴿وَقُلْنَا﴾: والقائل هو اللهُ ﷻ، جاءت بصيغةِ الجمعِ؛ للتعظيم ﴿يَا﴾: حرفُ نداءٍ للقريب والبعيد ﴿آدَمُ﴾ هو أبو البشر خلقهُ اللهُ ﷻ من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض، وخلق زوجته حوّاء، عليها السلام، من ضلعه، وأسكنهما الأرض ﴿اسْكُنْ﴾: جاء لفظ "**السكن**" في القرآن الكريم على أربعة أوجه؛ هنا بمعنى النزول للإقامة، وكذلك جاءت بالمعنى نفسه في قوله ﷻ ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم-١٤]، وجاءت بمعنى القرار، والهدوء، والاستقرار في قوله ﷻ **فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** [الأنعام-٩٦]، وقوله أيضًا ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر-٦١]، وبمعنى الاستئناس في قوله ﷻ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا

---

[1] سنن الترمذي ج٤/٣٦٠(١٩٩٨) وقال: حديث حسن صحيح.

فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف-١٨٩]، وفي قوله أيضًا ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر-٦]، وبمعنى الطمأنينة في قوله ﷻ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة-١٠٣]، وأيضًا في قوله ﷻ ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح-١٨] ﴿أَنْتَ﴾: يا آدم ﴿وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾: أيضًا تسكن معك زوجتك، حواء: عليها السلام، قيل إنّها خُلقت قبل دخول آدم ﷺ الجنّة، وقال ابن عباس وعددٌ من الصحابة: أنّ حوّاء خُلقت بعد دخول آدم الجنّة؛ والله أعلم، وقيل: أخْرَجَ اللهُ ﷻ إبليس من الجنّة وأسكن آدم ﷺ، فكان يمشى فيها وحيدًا، ليس له زوجة يسكن إليها، فنام، واستيقظ وعند رأسه امرأةٌ قاعدة، خلقها الله ﷻ من ضلعه، فسألها من أنت؟ قالت امرأة، قال ولم خُلقت؟ قالت: لتسكن إليّ، وسألته الملائكة وهم ينظرون: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء، قالوا ولم حواء؟ قال: إنها خلقت من شيء حيّ ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿كُلَا﴾: فعلُ أمرٍ أ يأكلا ﴿مِنْهَا﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد ابتداء الغاية المكانيّة ﴿رَغَدًا﴾: الطعام الوفير، الطيب، بلا تعب، وهنا يبرزُ سؤالٌ: أين الجنّة؟ والأرجحُ أنّها في السماء، وقال المعتزلة، والقدرية: في الأرض والله أعلم ﴿حَيْثُ﴾ حرف مبني على الضم يدل على الزمان والمكان ﴿شِئْتُمَا﴾: أردت أنت وزوجك ﴿وَلَا﴾: حرفُ نهيٍ وتحريمٍ ﴿تَقْرَبَا﴾: تقتربا بغرض الأكل من ﴿هَذِهِ﴾: اسم إشارة للمؤنث المفرد ﴿الشَّجَرَةَ﴾: هذا اختبار لآدم، وحواء؛ فالأمر عدم الأكل من هذه الشجرة، وعن نوع الشجرة؛ قال ابن عباس: الكرم؛ أي العنب، وقال اليهود: هي الحنطة أي الحبوب، وقال ابن جرير عن ابن عباس: هي السُنبلة، وقال ابن جرير بسنده: هي الزيتونة، وقال سفيان الثوري عن أبي مالك: هي النخلة، وقال ابن جرير عن مجاهد: هي التينة ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد هنا التعليل ﴿تَكُونَا﴾: تصيرا ﴿مِنَ﴾: بعض، ﴿الظَّالِمِينَ﴾: الذين ظلموا أنفسهم بالعصيان.

التكليف: نهى اللهُ ﷻ عن شجرةٍ دون غيرها، لا نعلم ما هي، إذا علمنا لا تزيد المنفعة، وإنْ لم نعلم لا يُضرنا.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٣٦)

﴿فَـ﴾: حرف استثناء بهدف ترتيب الأمر بالسرعة الممكنة ﴿أَزَلَّهُمَا﴾: هناك قراءتان متواترتان؛ الأولى: قرأ حمزة (فأزالهما) بألفٍ بعد الزاي وتخفيف اللام، وهي بمعنى التنحية؛ أي نحّاهما، وأبعدهما عنها، وعليه يكون مجازًا مُرسلًا علاقته السببية، أطلق السبب، وهو الزلل، وأراد التنحية وهي المُسبب عن السبب، وهذا ما يُميّز ويظهر المجاز في القراءات القرآنية بلاغيًا؛ إذ إنّ كلّ قراءةٍ تُعطي معنى بلاغيًا خلاف الآخر، والثانية: قرأ الباقون (فأزلّهما) بالحذف والتشديد، وهي من الزلل بمعنى حملهما على الخطأ، يقال: زلّت قدمه؛ أي أخطأت، وهذا يلحق بالرأي؛ فهي مجازٌ لغويٌ في استعمال الكلمة في غير ما وُضعت له، وأزلهما تأتي هنا بمعنى: أوقعهما إبليس اللعين في المعصية ﴿الشَّيْطَانُ﴾: معناها كلُّ عاتٍ متمردٍ، وتعني هنا إبليس لعنه اللهُ ﷻ ﴿عَنْهَا﴾: الضميرُ عائدٌ على الجنّة، وهذا الأقرب، أو عائدٌ على الشجرة ﴿فَـ﴾: حرف يفيد السبب وسرعة التنفيذ ﴿أَخْرَجَهُمَا﴾: أنزلهما؛ بسبب غواية الشيطان لهما ﴿مِمَّا﴾: حرفٌ يُفيدُ بعضًا أو جزءًا ﴿كَانَا فِيهِ﴾: أنزلهما من الجنّة إلى الأرض، فهي ليست دار إقامةٍ لمن يُخالف أمر الله ﷻ، ولا يجوز للأنبياء ارتكاب الكبائر ولا الصغائر؛ لأنّهم القدوة لغيرهم، وقد يكون النزول من حال الستر باللباس إلى حال التعرّي، أو من المقام الواسع، ومن الرزق الوافر، ومن الراحة الأبدية، إلى ما دونها، أمّا طبيعة الخروج؛ فقد يكون أنّه مُنع من دخول الجنّة، قد تكون الوسوسة خارج الجنّة؛ والله أعلم ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿قُلْنَا﴾: جاءت بصيغة الجمع لأهمية الحدث ﴿اهْبِطُوا﴾: تعني النزول والانخفاض ﴿بَعْضُكُمْ﴾: عددٌ منكم ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿بَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: تأسست العداوةُ بمقياس التمايز، هي الطاعةُ، بين منْ يُطيع الله ﷻ ومنْ يعصيه ﴿وَلَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: تُحدّد النزول من الجنّة إلى الأرض، التي فيها ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: مكانُ الإقامةِ الدائم والاستقرار ﴿وَمَتَاعٌ﴾: جاءت كلمةُ متاع في القرآن الكريم هنا بمعنى عيشة آدم وحواء عليهما السلام، يتمتعان برغدِ العيشِ في الأرض، وجاءت بمعنى منافع كما في قوله ﷻ ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ [المائدة–٩٦]، وفي قوله أيضًا ﴿**نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ**﴾ [الواقعة–٧٣]، وجاءت بمعنى المتعة المطلقة في قوله ﷻ ﴿**وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾ [البقرة–٢٤١]، وجاءت بمعنى الثروات، مثل: المعادن كالحديد، والرصاص في قوله ﷻ ﴿**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ**

الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد – ١٧] **﴿إِلَى حِينٍ﴾**: وقتٍ محددٍ معلومٍ عند الله ﷻ.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣٧)

﴿فَ﴾: حرف الفاء حرف استثناء بهدف سبب وترتيب الأمر بالسرعة الممكنة **﴿تَلَقَّى﴾**: استقبل برضى وقبول **﴿آدَمُ مِنْ﴾**: حرفُ جرٍ يفيد هنا ابتداء غاية التلقي **﴿رَبِّهِ﴾**: هو المنشئ للكون من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام، هو مالك الأمر كلّه **﴿كَلِمَاتٍ﴾**: جاءت بمعنى التكليفات بالأقوال والأعمال، ألهمهُ الله ﷻ أنْ يقول كلمات: **﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾** [الأعراف–٢٣]؛ وهذه الأقرب، وقيل: قال آدم: أرأيت يا ربّ إنْ تبت وأصلحت؟ قال الله ﷻ: إذن أُدخلك الجنّة، وقيل إنّها: اللهم لا إله إلّا أنت سبحانك، وبحمدك، ربّ إنّي ظلمت نفسي، فاغفر لي، إنّك خير الغافرين، وقيل إنها: اللهم لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك، إنّي ظلمت نفسي فارحمني، إنّك خير الراحمين **﴿فَ﴾**: حرف استثناء يفيد هنا الجواب **﴿تَابَ عَلَيْهِ﴾**: قبلَ اللهُ ﷻ توبته **﴿إِنَّهُ﴾**: بالتأكيد **﴿هُوَ﴾**: الله ﷻ، وهو في اللغة ضمير منفصل مرفوع للغائب المفرد المذكر **﴿التَّوَّابُ﴾**: الذي ألهم آدم كيف يتوب وعندما قالها؛ قبلها الله ﷻ **﴿الرَّحِيمُ﴾**: واسعُ الرحمة بالتائبين.

التكليف: كلُّها كلماتُ اعتذارٍ في توبة المُتكبرين؛ رأس المعاصي، ومنبت كلِّ خطيئةٍ.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٨)

﴿قُلْنَا﴾: هنا جاءت نون العظمة، والقائلُ هو اللهُ ﷻ **﴿اهْبِطُوا﴾**: أنزلوا، وهم: آدم، وحواء، وإبليس، وربّما ذريّة آدم ﷺ **﴿مِنْهَا﴾**: حرفُ جرٍ يُفيدُ هنا ابتداء غاية الهبوط **﴿جَمِيعًا﴾**: كلُّكم بلا استثناء **﴿فَإِمَّا﴾**: حرفُ عطفٍ يفيد الشك **﴿يَأْتِيَنَّكُمْ﴾**: أُرسل إليكم، أو يجيئكم **﴿مِنِّي﴾**: من الله ﷻ **﴿هُدًى﴾**: جاء لفظ هدى هنا بمعنى رسلٌ، وكتبٌ وكذلك جاءت بالمعنى نفسه في قوله ﷻ **﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾** [طه–١٢٣]، والمقصود بالهُدى: قال أبو العالية: هم الأنبياء، والرسل، والبينات، وقال ابن حيان: رسالةُ محمدٍ ﷺ، وهذا الأقرب، قال الحسن: القرآن **﴿فَمَنْ﴾**: اسم استفهام استثنائي يفيد هنا مَنْ **﴿تَبِعَ﴾**: الذي أقبل، وقبل، وطبّق **﴿هُدَايَ﴾**: أوامري، التي تهدي إلى الإيمان **﴿فَلَا﴾**: أداة نهي تفيد طلب عدم الفعل **﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾**: لا يخافون من الآخرة

﴿وَلَا﴾: حرفُ نفي ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع الغائب المذكر والمؤنث وهي للتخصيص ﴿يَحْزَنُونَ﴾: على ما فاتهم من أمرِ الدنيا.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٩)

﴿وَالَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿كَفَرُوا﴾: من اعتمدوا التغطية، والإنكار للحق ﷻ ﴿وَكَذَّبُوا﴾: وعطفًا على كفرهم افتروا الكذب ﴿بِ﴾: باء السببية ﴿آيَاتِنَا﴾: الرسالات، أو الأنبياء، أو الكتبِ المُنزّلة ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ﴾ والصحبةُ هي الملازمةُ التي تستلزم الدوام والامتلاك؛ فهم من الذين امتلكوا ﴿النَّارِ﴾: فلا يغادرونها ﴿هُمْ﴾: حرف تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، تشمل هنا الجميع الغائب ﴿فِيهَا﴾: في النّار ﴿خَالِدُونَ﴾: لا يموتون، دائمون في النّار أبدًا؛ حالة لا تنفك.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (٤٠)

﴿يَا﴾: حرفُ نداءٍ للقريب والبعيد ﴿بَنِي﴾: أبناء ﴿إِسْرَائِيلَ﴾: هو النبي يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام؛ هنا يُخاطبُ اللهُ ﷻ اليهود؛ ويذكّرهم بأبيهم؛ علّ ذلك يُرطّب قلوبَهم، وهو منهجٌ قرآنيٌ، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء-٤]، وقد ذُكر في عمدةِ التفاسير: لقد أراد اللهُ ﷻ أنْ يذكرهم بأبيهم: كونوا مثل أبيكم إسرائيل في اتباع الحق ﴿اذْكُرُوا﴾: تذكروا وتكلموا عن ﴿نِعْمَتِيَ﴾: الخيرات، وما تتنعمون وتستمتعون بنعم الله تعالى الوفيرة ﴿الَّتِي أَنْعَمْتُ﴾: التي تفضلتُ بها ﴿عَلَيْكُمْ﴾: حيثُ جعلتُ فيكم الأنبياء والرسل، وأنزلتُ عليكم الكتاب، ونجيتُكم من فرعون ومن العبودية، وفجّرت لكم الحجر؛ ليخرج منه الماء، وأنزلت عليكم المنّ والسلوى، وقد قال ذلك موسى عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة-٢٠]، وكان هذا في زمانهم ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أَوْفُوا﴾: حققوا، وأكملوا، وأتموا ﴿بِعَهْدِي﴾: بأمري أكملوا أركان الإيمان بي، وبرسلي، والعمل بشريعتي؛ فإنْ وفيّتم بعهدي ﴿أُوفِ﴾: أُحقق بالكامل ﴿بِعَهْدِكُمْ﴾: أُحقق لكم عهدي الذي جاء بنزول محمد ﷺ وهو من بني إسماعيل: سيأتي نبيٌ عظيمٌ يطيعهُ العالم: أي أُنجز لكم وعدي حتى تصدقوه وتتبعوه؛ فإنْ أطعتموه؛ غفرت لكم ذنوبكم، ورفعت عنكم الآصار، والأغلال التي جَلَبتها عليكم ذُنُوبُكم ﴿وَإِيَّايَ﴾: حالها حال حرف كاف المخاطب بمعنى كما ترهبونني وتخافونني ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب وبدون تأخير

﴿ارْهَبُونِ﴾: الرهبة هي الخشية، والخوف، بمعنى خافوا أنْ أُنزل بكم ما أنزلت فيمن قبلكم من العذاب.

التكليف: هذا نموذجٌ قرآنيٌ، هو انتقالٌ من الترغيب إلى الترهيب؛ وهو أسلوبُ دعوةٍ معتمدٍ.

﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ (٤١)

﴿وَ﴾: أيضًا ﴿آَمِنُوا بِمَا﴾: اسمٌ موصول، بالذي ﴿أَنْزَلْتُ﴾: آمنوا بالقرآن الكريم، الذي نزل على محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا﴾: للذي حدث في الماضي؛ أي حين أنزلت الذي ﴿مَعَكُمْ﴾: وهي التوراة والإنجيل، حيث تجدون محمدًا ﷺ مكتوبًا عندهم في كتبهم ﴿وَلَا﴾: حرفُ نهيٍ وتحريم ﴿تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾: حرف باء الصلة، قيل الكفر بالقرآن، وكذلك قيل أولُ كافرٍ بالرسول ﷺ؛ والحديث عن اليهود؛ لأنّهم أولُ من خاطبهم النبي ﷺ ﴿وَلَا﴾: أيضًا هنا نهي أن ﴿تَشْتَرُوا﴾: بمعنى البيع أيضًا ﴿بِآَيَاتِي﴾: حرف الباء يفيد السبب، لا تستبدلوا أوامري ونواهيَّ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: هو أخذ مقابل، والمقصود هنا: هو الدنيا بما فيها من شهواتٍ، ورئاسةٍ مؤقتةٍ لبعض النّاس؛ بكتمِ وإخفاءِ حقيقة الإسلام، قال ﷺ: من تعلَّمَ عِلمًا مِمَّا يبتَغى بِهِ وجه اللَّهِ لا يَتعلَّمهُ إلَّا ليُصيبَ بِهِ عَرضًا منَ الدُّنيا، لم يجِد غرفَ الجنَّةِ يومَ القيامةِ[1] وقد قال جمهورُ العلماء: أي يأخذ الإنسانُ ثمن العلم، إنْ لم يكنْ له مصدرُ رزقٍ آخرٍ؛ أي يأخذ العالمُ أجر علمه الذي تعلمه، والذي يُعلّمه للنّاس ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿إِيَّايَ﴾: يُخبرُ الحقُ ﷻ عن نفسه ﴿فَ﴾: حرف استئناء يفيد هنا السبب وسرعة التنفيذ ﴿اتَّقُونِ﴾: أنِ اعملوا بطاعة الله ﷻ؛ رجاء رحمته، على نورٍ، واتركوا معصيته، على نورٍ من الله ﷻ، تخافون عقابه؛ وهنا وعيدٌ من الله ﷻ للذين يكتمون الحق، وقد قيلت في اليهود، وتسري في غيرهم.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤٢)

﴿وَلَا﴾: ناهية للذي بعدها ﴿تَلْبِسُوا﴾: جاء اللفظُ القرآني "**اللباس**" على أربعةِ أوجهٍ، هنا بمعنى الخلط، وجاءت بمعنى السكن من السكينة والهدوء في قوله ﷻ **﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾** [البقرة-١٨٧]، وجاءت بمعنى لبس الثياب في قوله ﷻ **﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾** [الأعراف-٢٦]، وبمعنى العمل الصالح في قوله ﷻ **﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ**

---

[1] سنن أبي داود ج٣/٣٢٣(٣٦٦٤) والحديث قال الأرناؤوط: إسناده صحيح لغيره، وصححه الألباني.

﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف-٢٦]، والتلبيسُ يعني: خلط الحقّ بالباطلِ، والصدقِ بالكذبِ، أي لا تلبسوا بدع اليهودية والنصرانية بالإسلام، ولا ﴿تَكْتُمُوا﴾: والكتم: هنا يعني منع المعرفة عن النّاس، أي تُخفوا وتمنعوا الكلام ﴿الْحَقَّ﴾: الصدق الذي يقول بمجيء رسول الله ﷺ مكتوبٌ عندكم ﴿وَأَنْتُمْ﴾: تحديدًا ﴿تَعْلَمُونَ﴾: وأنتم مُتأكدون من حقيقةِ بعثةِ محمدٍ ﷺ، وتعلمون العقاب الذي يكون بكتمانِ الحقّ، والبيان: هو عكس الكتمان.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٤٣)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق، كان الأمر لليهود: ﴿أَقِيمُوا﴾: أدّوا ﴿الصَّلَاةَ﴾: على الوضع المطلوب مع النبي محمد ﷺ ﴿وَآتُوا﴾: ادفعوا ﴿الزَّكَاةَ﴾: جمعَ اللهُ ﷻ بين الصلاةِ والزكاةِ، وأمرهم أنْ يؤتوا الزكاة، أي يدفعوها إلى محمدٍ ﷺ ﴿وَارْكَعُوا﴾: أي صلّوا مع المصلين، وهي مجازٌ مرسلٌ علاقته الجزئية، أطلق الركوع وهو جزءٌ من الصلاة، وأراد الصلاة كلّها، ولأنّ الركوع هو أقوى وأوضحُ علاماتِ الصلاة؛ يُعرف المُصلّي من خلالها أنّه يُصلي ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾: وأمرهم ﷻ أنْ يركعوا مع الراكعين، أي تأدية الصلاة مع أُمّة محمد ﷺ بأن كونوا معهم ومنهم.

ملاحظة: الركوعُ لغةً يعني الانحناء؛ وكلُّ ساجدٍ مُنحنٍ، فالركوعُ والسجود تعني الخضوع، والركوع يُحققُ الغايتين.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٤٤)

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾: سؤال إنكاري توبيخي، وهو ما يلحق بالأفعال دائمًا، وهذا خلافُ الإنكار، التكذيب الذي يلحق بالأقوال، أي توبيخٌ من الله ﷻ لليهود، ما أقبح أنْ تطلبوا من ﴿النَّاسَ﴾: عموم بني آدم أنْ يفعلوا ﴿بِ﴾: حرفُ باء المصاحبة والصلة ﴿الْبِرِّ﴾: وهو الخير، وهو التوسع في الخير الجامع، وأداءُ الطاعات ﴿وَ﴾: عطفًا على كفركم ﴿تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾: ولا تفعلوا ذلك كأنّكم نسيتموه؛ فتحرموا أنفسكم الأجر، ولم تأمروا النّاس بدخول الإسلام، وامتنعتم عن الدخول فيه، وكان اليهود إذا جاءهم منْ يسأل عن مسألةٍ ليس فيها حقٌ أو رشوةٌ أمروه بالحق، إنّ الأمر بالمعروف وفعلهُ واجبٌ لا يسقط أحدُهما بترك الآخر، وقد قال ﷺ: مثلُ العالِمُ الَّذي يُعلِّمُ النَّاسَ الخيرَ ولا يعملُ بهِ كمثلِ السِّراجِ يُضيءُ للنَّاسِ ويُحرِقُ نفسَهُ[1]، وقال رسول الله ﷺ: أتيتُ ليلَةَ أُسْرِيَ بي علَى رِجالٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُم بمقاريضَ من نارٍ قلْتُ مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جبريلُ قال

---

[1] الزهد لأبي داود ص٣٢٦ والحديث صححه المحقق، والألباني في صحيح الجامع.

هؤلاءِ خطباءُ أمتِكَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ الناسَ بالبرِّ وينسونَ أَنْفُسَهُمْ وهم يَتْلُونَ الْكِتابَ أفَلَا يعقِلونَ؟[1] رواه أحمد، وقال ﷺ أيضًا: فيُلقَى في النَّارِ، فتَندَلِقُ به أقْتابُه، فيدورُ بها في النَّارِ كما يدورُ الحِمارُ برَحاهُ، فيُطِيفُ به أهلُ النَّارِ، فيقولون: يا فلانُ، ما أصابَكَ؟ ألَم تكُنْ تأمُرُنا بالمعروفِ وتَنهانا عنِ المنكَرِ؟ فيقولُ: كنتُ آمُرُكم بالمعروفِ ولا آتِيه، وأنهاكم عنِ المنكَرِ وآتِيهِ[2] وقال ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف-٢]، وقال ﷻ: ﴿**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ**﴾ [هود-٨٨] ﴿**وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ**﴾: تقرؤون ما نزل على نبيّكم صدقًا وعدلًا ﴿**الْكِتَابَ**﴾: التوراة الذي جاء من عند الله ﷻ ﴿**أَفَلَا**﴾: حرفُ استفهامٍ خرج عن معناه الحقيقي؛ ليُفيد معنى الأمر ﴿**تَعْقِلُونَ**﴾: وهو طلب الفعل على سبيل الاستعلاء والإلزام، بمعنى: اعقلوا. وغالبًا يُخاطَب بها المُنكرون، والكفرةُ، والمجرمون، خلافًا للأمر المباشر بصيغةٍ يُخاطب بها الموحدون، والمؤمنون، والمسلمون.

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٤٥)

﴿**وَاسْتَعِينُوا**﴾: تعني الطلب، اطلبوا أيضًا عون الله ﷻ في كلِّ شيءٍ ﴿**بِ**﴾: حرف باء الاستعانة ﴿**الصَّبْرِ**﴾: على الفرائض، والصبرُ هو الكفُّ عن المعاصي، وقال عمر بن الخطاب ﷺ: الصبرُ عند المصيبة، والصبر عن محارم الله ﷻ ﴿**وَالصَّلَاةِ**﴾: وأيضًا استعينوا بالصلاة، وهي من أكبر العون على الثبات في الأمر ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾ [العنكبوت-٤٥]، ﴿**وَإِنَّهَا**﴾: حرف تأكيد، ونفي الشك، وهي أيضًا ﴿**لَ**﴾: حرف علّة وسبب ﴿**كَبِيرَةٌ**﴾: أي أنّ الصيام والصلاة ثقيلة، صعبةٌ وشاقّةٌ ﴿**إِلَّا**﴾: حرف استثناء منقطع بينه وبين ما سبقه ﴿**عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾: باستثناء الخاضعين بالطاعة، المتواضعين، الخائفين من سطوةِ اللهِ ﷻ، المُصدقين بوعدهِ ووعيده ﷻ.

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (٤٦)

هذه تكملةٌ لسلوك الخاشعين ﴿**الَّذِينَ**﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿**يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ**﴾: المُتأكدون المُتيقنون، قال مجاهد: كلُّ ظنٍ يأتي في القرآن فهو يقين ﴿**مُلَاقُوا**﴾: مقابلو، بمعنى اللقاء، وهو العودة من القبر إلى البعث إلى الحساب بعد الوقوف بين يدي الله ﷻ ﴿**رَبِّهِمْ**﴾: والربُّ هو المُربي، وهو المنشئ للكون من حالٍ إلى حالٍ إلى حدِّ التمام، أيّ أنّهم سيُحشرون إليه ﷻ يوم

---

[1] مسند أحمد ٢٤٤/١٩(١٢٢١١) قال شعيب الأرناؤوط: الحديث صحيح وهذا الإسناد ضعيف بسبب علي بن زيد بن جدعان: ضعيف رواه عن أنس. قلت: للحديث متابعة بإسناد صحيح. رواه أبو يعلي في مسنده ج١٨٠/٧(٤١٦٠) بإسناده عن مالك بن دينار عن أنس بنحوه.

[2] صحيح البخاري ج١٢١/٤(٣٢٦٧)، وصحيح مسلم ج٢٢٩٠/٤(٢٩٨٩).

القيامة ﴿وَ﴾: عطفًا على إيمانهم ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرفٌ يُفيد التوكيد ﴿إِلَيْهِ﴾: إلى الله ﷻ ﴿رَاجِعُونَ﴾: يوقنون بالبعث، والجزاء.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧)

﴿يَا﴾: حرف نداءٍ للجمع المتوسط، ليس البعيد ﴿بَنِي﴾: أحفاد وأبناء ﴿إِسْرَائِيلَ﴾: هو يعقوب بن أسحق بن إبراهيم عليهم السلام ﴿اذْكُرُوا﴾: ذكر استحضار واستشعار ﴿نِعْمَتِيَ﴾: فضل الله ﷻ ونعمهُ التي شملت إرسال الرسل إليكم، وشملت إنزال الكُتب من الله تعالى فيكم ﴿الَّتِي﴾: اسمٌ موصولٌ للمفرد المؤنث ﴿أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾: وهبتكم الحالةَ الحسنةَ من الخلق والرزق والتمتع المشروع ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أَنِّي﴾: أنا الله بالتأكيد ﴿فَضَّلْتُكُمْ﴾: بنوعٍ من الفضلِ، وليس تفضيلًا مُطلقًا، تفضيلكم على أهل زمانكم بالنبوّة، والمُلك، وكان هذا بسبب طاعتهم لنبيهم موسى ﷺ، في حال صلاحهم واستقامتهم أو من باب أنّ نعم الآباء تعمُّ الأبناء؛ لكونهم منهم، ولأنّ شرف الأصول يسري إلى الفروع ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: لا تعني كلّ البشرِ وكان الفضل على من كان في ذلك الزمان، فإنّ لكلّ زمانٍ عالمٌ، وعُلماءٌ، وكان إبراهيم ﷺ، قبلهم وهو أفضلَ من كلّ أنبيائهم، وكان محمدٌ ﷺ بعدهم وهو أفضلُ الجميع، وكانت أُمّة محمد ﷺ أفضلَ من جميع الأمم؛ لقوله ﷻ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران-١١٠] قال ﷺ: أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً. أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ[1].

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (٤٨)

بعد تذكير بني إسرائيل بنعم الله ﷻ عليهم جاء التحذيرُ من غضبهِ عليهم يوم القيامة ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿اتَّقُوا﴾: والتقوى هي العمل بطاعةِ اللهِ ﷻ على نورٍ؛ رجاء رحمته، وترك معصيته، وخوف عقابه ﴿يَوْمًا﴾: يوم القيامة ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تَجْزِي﴾: يوم لا تقبل ولا تنفع ﴿نَفْسٌ﴾: والنفس هي جوهر الإنسان، قال ابن القيّم في كتاب الروح: قالت فرقةٌ من أهل الحديث والفقه والتصوف: الروح غير النفس، وقوامُ حياةِ النفسِ بالروح. والحقيقةُ التي أراها: يتكون الإنسانُ من الجسد: الذي هو مجموع الأعضاء: الجهاز الهيكلي من العظام، ومن العضلات، والجهاز التنفسي، والجهاز الهضمي، والجهاز العصبي، والجهاز التناسلي والجهاز البولي وغيرها، ويتكون الإنسانُ أيضًا من الروح: التي هي مصدرُ وسبب الحياة، التي إذا خرجت؛ مات الجسد بكلّ أعضائه، والعنصر الثالث هو "**النفس**": التي هي جوهرُ الإنسان،

---

[1] مسند أحمد ج٣٣/٢١٩(٢٠٠١٥) قال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

هي الذات، هي التي تُعذّب في القبر يوم القيامة، أو تُنعم، والله ﷻ أعلم، وهي التي تُحاسب يوم القيامة، وهي التي تؤمنُ، أو تكفرُ، أو تنافقُ، بدليل ما جاء: **ونفسٍ وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها** ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍ يُفيدُ البدل ﴿نَفْسٍ﴾: جوهر إنسانٍ آخرٍ، والآخر والآخرة التي في مقابل الأولى أو مقابل الواحد ﴿شَيْئًا﴾: أيًّا من الذنوب، جاء في المعنى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام–١٦٤]، وجاء أيضًا ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس–٣٧]، وجاء أيضًا: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان–٣٣]؛ لا تقضي ولا تؤدي نفسٌ جزاءَ نفسٍ أخرى ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾: غيرُ مسموحٍ التدخلُ وطلبُ الرحمةِ من الآخرين، جاء في المعنى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر–٤٨]، وقال أهلُ النّار، وعرفوا: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾: العدلُ: هو الفداء، فديةٌ من قريبٍ، أو صاحبٍ؛ جاء العدل في اللغة بمعنى البدل، قال ﷻ: ﴿الْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ [الحديد–١٥]، وقال ﷻ أيضًا: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ [الأنعام–٧٠] ﴿وَلَا هُمْ﴾: تحديدًا ﴿يُنْصَرُونَ﴾: لا يُنقذهم ولا يُنجيهم أحدٌ، لا ينصرُهم أحدٌ، ولقد جاءت آياتٌ بالمعنى نفسه: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق–١٠]، وكذلك قوله ﷻ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ * مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات–٢٤، ٢٦].

التكليف: لا تُقبل الفداء من الإنسان الكافر ولا تُقبلُ شفاعةٌ لنفسٍ كافرة.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٤٩)

﴿وَإِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت في الماضي ويؤكد التحقق، هنا بمعنى ما مضى من الزمن ﴿نَجَّيْنَاكُمْ﴾: أنقذناكم يا بني إسرائيل جاءت بصيغةِ الجمع؛ لعظمِ النجاة ﴿مِنْ﴾: حرفُ بيانٍ وتمييزٍ للنوع، وتُفيدُ هنا بداية الغاية، أي المصدر ﴿آلِ﴾: جماعةِ، وأقاربِ، وأعوانِ ﴿فِرْعَوْنَ﴾: اسمُ علمٍ على كلّ ملكٍ كافرٍ لمصر من العماليق، وهنا بمعنى أتباع فرعون، أما لفظ قيصر: فهو اسمُ علمٍ على كلّ ملكٍ كافرٍ للروم في الشام، ولفظ كسرى: فيطلق على كلّ ملكٍ للفرس. كان فرعونُ مصر في زمن موسى عليه السلام يُدعى الوليد بن مصعب بن الريان، وكنيته أبو مُرّة، أصلهُ فارسي من اصطخر ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: يُكلفونكم، يذيقونكم، يُلزمونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾: أشدّ وأصعب الضرر وأشدّ العذاب، وجاءت كلمةُ سوءٍ في القرآن الكريم على تسعة أوجه، جاءت هنا بمعنى الشدّة؛ أي أشدّ العذاب، وجاءت كلمةُ سوءٍ بمعنى عقر الدابة في قوله

ﷻ ﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود–٦٤]، وجاءت بمعنى الزنا في قوله ﷻ ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف–٢٥]، وفي قوله ﷻ أيضًا ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم–٢٨]، وجاءت بمعنى مرض البرص في قوله ﷻ ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه–٢٢]، وهي فقدان الجلد للمواد التي تعطيه اللون الطبيعي فيكون له لمعةٌ غير طبيعية: وجاءت بمعنى الشرك في قوله ﷻ ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل–٢٨]، وجاء بمعنى السبِّ والشتم في قوله ﷻ ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء–١٧]، وجاءت بمعنى الضُرّ في قوله ﷻ ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف–١٨٨]، وجاءت بمعنى القتل والهزيمة في قوله ﷻ ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران–١٧٤]، حيث رأى فرعون رؤيةً أخافته، رأى نارًا تخرج من بيت المقدس تدخل بيوت الأقباط إلّا بيوت بني إسرائيل، وكان تفسيرها أنّ على فرعون أنْ يتخلص من بني إسرائيل، ﴿يُذَبِّحُونَ﴾: والذبحُ هو شقُّ الحلقِ في العنق، وقطع الأوعية الدموية التي تُوصل الدم للمخ فيموت ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾: فيموت كلُّ مولودٍ ذكرٍ من بني إسرائيل ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾: يُبقون على حياة ﴿نِسَاءَكُمْ﴾: الإناث أحياءً لخدمتهم ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ﴾: اسم إشارة للبعيد، في كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ، في قتلكم واستعباد نسائكم ﴿بَلَاءٌ﴾: نقمةٌ وشدّةٌ وكربٌ ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾: والربُّ هو المُربي، وهو المنشئُ للشيء من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام، أي من مالك أمركم جميعًا ﴿عَظِيمٌ﴾: شديدُ الإيلام والعذاب.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (٥٠)

﴿وَإِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن؛ يُفيد الذكرى يوم ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ﴾: حرف باء السببية، والمعنى هنا هو لكم، وقد يكون المعنى بكم، أي بدخولكم ﴿الْبَحْرَ﴾: أذكروا يوم شققنا لكم البحر الذي يفصل بين مصر وسيناء ما يسمى اليوم بالبحر الأحمر ﴿فَـ﴾: حرفٌ، الفاء حرف استثناء بهدف ترتيب الأمر بالسرعة الممكنة، أي دونَ

تأخير ﴿أَنْجَيْنَاكُمْ﴾: سرتم وعبرتم فيه آمنين، وكان خلفكم منْ يُريد قتلكم، وهم ﴿وَ﴾: عطفًا على فرق البحر ﴿أَغْرَقْنَا﴾: جاءت بصيغة الجمع؛ لعظم الحدث ﴿آلَ﴾: أهل وأعوان وأنصار وجنود ﴿فِرْعَوْنَ﴾: ملك مصر، وقيادته، وجيشه، ما إنْ نزل فرعونُ وجنودُه قاع البحر؛ حتى أطبق عليهم الموج؛ فأغرقهم أجمعين ﴿وَأَنْتُمْ﴾: تحديدًا ﴿تَنْظُرُونَ﴾: كنتم تُشاهدون غرق أعدائكم، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ فَرَأَى اليَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟»، قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ هَذَا يَوْمٌ نجّا اللَّهُ ﷻ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَى، قَالَ: «فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ»، فَصَامَهُ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ[1].

التكليف: ضرورة استحضار قدرة الله ﷻ في كلّ الحالات التي ليست في حسابات البشر.

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٥١)

﴿وَإِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن ﴿وَاعَدْنَا مُوسَى﴾: واذكروا يوم أمر اللهُ ﷻ موسى عليه السلام، وهو في طور سيناء، وقد واعده الله ﷻ؛ عندها غاب موسى عن قومه ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾: ذهب موسى عليه السلام، لأربعين يومٍ لميقاتِ ربّه، بعد نجاتهم ﴿ثُمَّ﴾: تفيد بعد ذلك على التراخي الزمني، وليس فورًا ﴿اتَّخَذْتُمُ﴾: اعتمدتم، ورضيتم به؛ أي جعلتم من العجل إلهًا وعبدتم ﴿الْعِجْلَ﴾: الذي صنعهُ السامري ومن الروايات الإسرائيلية: بعد أنْ عبدتم العجل المصنوع من الذهب المسروق، ومن جريمة السامري الذي قبض بيده جزءًا من ترابٍ إصابةُ فرس جبريل عليه السلام، حيث قال: ﴿**فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي**﴾ [طه-٩٦] ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، ويُفيد هنا ابتداء الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِهِ﴾: من بعد ذهاب موسى عليه السلام، للقاء ربّه ﷻ ﴿وَأَنْتُمْ﴾: تحديدًا ﴿ظَالِمُونَ﴾: ظلمتم أنفسكم بالشرك بالله ﷻ؛ بعبادتكم العجل؛ فأورثكم ذلك غضبَ الله ﷻ؛ يوم عبدتم ما لا يستحق العبادة.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٥٢)

﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني مع التراخي ﴿عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾: سامحناكم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، يُفيد هنا ابتداء الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ ذَلِكَ﴾: في كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ، من بعد ارتكابكم خطيئةَ عبادة العجل، وعفونا عنكم ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: إذا جاءت من البشر فهي تفيد طمعٌ ورجاءٌ، ولأنّها جاءت هنا من الله ﷻ؛ فتعني الإشفاق ﴿تَشْكُرُونَ﴾: تحمدون الله ﷻ؛ بحسنِ العبادة، وتمام الطاعة له، وتؤمنون لرسوله ﷺ.

---

[1] صحيح البخاري ج٤/٤٤(٢٠٠٤).

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٥٣)

﴿وَإِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن ﴿آتَيْنَا﴾: واذكروا حيث أنزلنا من السماء وحيًا على ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾: أنزلنا التوراة على موسى عليه السلام ﴿وَ﴾: أيضًا أنزلنا ﴿الْفُرْقَانَ﴾: الشرع الذي يفرق بين الحق والباطل، بين الهدى والضلال، وقد جاء الفرقان في القرآن على ثلاثةِ أوجهٍ، هنا بمعنى النصر، وجاء بمعنى القرآن في قوله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان-١]، وجاء بمعنى المخرج في قوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة-١٨٥]، وقوله أيضًا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال-٢٩] ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: وهي إنْ كانت من عند البشر فهي طمعٌ ورجاءٌ، وإن جاءت من عند الله تعالى كما هي هنا فهي إشفاقٌ حتى ﴿تَهْتَدُونَ﴾: لمعرفة ما الذي تعملونه، والممنوع، والمُحرّم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٤)

﴿وَإِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِ﴾: حرف تخصيص ﴿قَوْمِهِ﴾: أهله وعشيرته ﴿يَا قَوْمِ﴾: يا أهلي وعشيرتي وأقاربي؛ تودّدًا؛ وتقرّبًا ﴿إِنَّكُمْ﴾: أنتم بالتأكيد ﴿ظَلَمْتُمْ﴾: ارتكبتم جُرمًا في حقّ ﴿أَنفُسَكُمْ﴾: ذاتكم تستحقون عليه العقاب ﴿بِاتِّخَاذِكُمُ﴾: باعتمادكم وجعْلِكم ﴿الْعِجْلَ﴾: هو ذكر البقر إلهًا تعبدونه من دونِ الله تعالى، وقلتم: هذا إلهُكم، وإلهُ موسى ﴿فَ﴾: حرفُ الفاء حرف استثناء وسبب بهدف ترتيب الأمر بالسرعة الممكنة ﴿تُوبُوا﴾: أقلعوا واستغفروا وعودوا ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾: الذي أوجدكم من غير سابقِ وجودٍ، المُبدع من عدمٍ، الذي خلقكم من التراب والطين؛ لتكونوا بشرًا ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾: قيل ليقتل البريءُ من عبادة العجل المُخطئَ منكم؛ وتعددت الروايات: قال ابن جرير عن ابن عباس، والسدي، وابن اسحق: إنّ ملخّص وجوهر الحادثة كالآتي، مع اختلافٍ طفيفٍ في الروايات: ذهب موسى عليه السلام، وكان معهُ سبعُون رجلًا لميقات ربّه، ولمّا رجع عليه السلام، وجد قومه يعبدون العجل، أمر النبيُ عليه السلام، الذين عبدوا العجل أنْ يجلسوا فجلسوا، وأمر الذين لم يعبدوا العجل أنْ يحملوا الخناجر، وأخذوا يقتلون الذين كفروا، وقد أصابتهم ظُلمةٌ؛ فكان كلُّ من عبد العجل

وكانت له توبة؛ مات شهيدًا، وقيل إنّه قُتل منهم سبعون ألفًا، ودعا موسى عليه السلام ربّه للبقية الباقية، وأمرهم أنْ يُلقوا السلاح؛ فتاب اللهُ تعالى على من بقي؛ مُكفّرًا عنه ذنبه، أي تاب على الذين قَتَلوا، والذين قُتِلوا، وفي رواية أخرى: قال ابن إسحاق: لما رجع موسى إلى قومه وأحرق العجل وذراه في اليّم؛ خرج إلى ربّه بمن اختار من قومه؛ فأخذتهم الصاعقةُ، ثم بعثهم سبحانه وتعالى ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ اسم إشارة للبعيد، في كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ تعالى ﴿خَيْرٌ﴾: أكثرُ نفعًا وفائدةً ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿عِنْدَ﴾: ظرفٌ يدلُّ على زمانٍ ومكانٍ ﴿بَارِئِكُمْ﴾: الذي لا تحدّ حدود ولا تمنعه سدود المنشئُ من غيرِ سابقِ وجودٍ ﴿فَتَابَ﴾: عفا وصفح ﴿عَلَيْكُمْ إِنَّهُ﴾: هو الله تعالى بالتأكيد ﴿هُوَ﴾: ال،مقصود هو الله تعالى، أمّا في اللغة فيعني ضميرًا منفصلًا مرفوع للغائب المفرد المذكر ﴿التَّوَّابُ﴾: الذي يقبل التوبة ﴿الرَّحِيمُ﴾: خصّهم اللهُ تعالى بعد العقوبة برحمته سبحانه وتعالى.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (٥٥)

﴿وَإِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن، يُفيد الذكر، بمعنى اذكروا سابقًا الذي ﴿قُلْتُمْ﴾: قال الربيع بن أنس: هم السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام، الذين سمعوا كلامًا؛ فقالوا: ﴿يَا﴾: حرف نداء هنا للقريب ﴿مُوسَىٰ لَنْ﴾: حرف نفي ﴿نُؤْمِنَ لَكَ﴾: لنْ نُصدقك فيما تدّعي ﴿حَتَّىٰ﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ نصدقك إلّا بشرط أنْ ﴿نَرَى﴾: نشاهد ﴿اللَّهَ جَهْرَةً﴾: أي نراه رؤيا العين الواضحة، وقد سمعوا صوتًا؛ فصُعقوا، أي ماتوا من الصعقة، ﴿فَ﴾: حرف سبب بهدف ترتيب الأمر بالسرعة الممكنة ﴿أَخَذَتْكُمُ﴾: أصابتكم بقوةٍ؛ فقتلتكم، وذهبت بكم ﴿الصَّاعِقَةُ﴾: وهي حالةُ تفريغٍ كهربائيٍ للعواصف الرعدية فترتفع درجة الحرارة إلى (١٥) مليون درجة مئوية علمًا بأنّ حرارة الجسم هي (٣٧) درجة مئوية ودرجة غليان الماء هي(١٠٠) درجة مئوية؛ والحرارة العالية تُسبب الموت حتمًا، انظر [البقرة-١٩] وقال ابن أنس: الصاعقة: هي الرجفةُ والزلزال ﴿وَأَنْتُمْ﴾: تحديدًا ﴿تَنْظُرُونَ﴾: كنتم تُشاهدون عيانًا، ترون الحقيقة كاملة.

القصة: كان هذا بعد عودة موسى عليه السلام إلى قومه، وقد علم بعبادتهم للعجل، فخاطب أخاه هارون، وخاطب السامري، وحرّق العجل، ورمى رماده في اليمّ، واختار موسى عليه السلام، سبعين رجلًا؛ وطالبهم بالتوبة، والصيام، وتطهير الثياب والنفس، وطلبوا أنْ يسمعوا كلام الله تعالى؛ فاقترب موسى عليه السلام، من الجبل؛ فوقع غمامٌ على الجبل، حتى تغشّاه تمامًا، وطلب موسى عليه السلام،

منهم أنْ يقتربوا، كان كلّما كلّمه اللهُ ﷻ، وقع على جبهتهِ نورٌ ساطعٌ، لا يستطيع أحدٌ من البشر أنْ ينظر إليه دون حجاب، دخلوا الغمام، ووقعوا سُجّدًا، وكلّم اللهُ ﷻ موسى ﵇، وانكشف الغمام؛ فأقبل موسى عليهم، فقالوا: لنْ نؤمن لك حتى نرى الله جهرة؛ فأخذتهم الرّجفة؛ فماتوا جميعًا، أخذ موسى ﵇، يناشد ربّه: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ [الأعراف–١٥٥]، وقال كيف أرجع إلى قومي وقد هلكَ كلُّ من معي؟ منْ سيُصدقني؟ إنّا هدنا إليك، إنّا تُبنا إليك؟

التكليف: إن جبلّتهم ال يهود العاصية في كلّ ما شاهدوا من آيات الله ﷻ لم تقنعهم، ولم يؤمنوا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٥٦)

﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيدُ أنّه بعد ذلك مع تراخي الزمن، ليس فورًا **﴿بَعَثْنَاكُمْ﴾**: ردّ اللهُ ﷻ عليهم أرواحهم **﴿مِنْ﴾**: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية زمانية **﴿بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾**: طلب موسى ﵇، من ربّه ﷻ قبول توبة بني إسرائيل من عبادة العجل، فقال له ﷻ: لا إلّا أنْ يقتلوا أنفسهم، **﴿لَعَلَّكُمْ﴾**: حرفٌ يُفيد الطمع إذا كانت من الخلق، وتفيد هنا الإشفاق؛ لأنّها جاءت من الله ﷻ **﴿تَشْكُرُونَ﴾**: شكرُ المؤمنين لله ﷻ على نعمهِ وعطائه.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٥٧)

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ﴾: والمشهدُ هنا في تيهِ بني إسرائيل، بعث اللهُ ﷻ عليهم السحاب؛ جاء بصيغة الجمع؛ لعظم الحدث؛ ليُظلّهم من حرارة الشمس **﴿الْغَمَامَ﴾**: جمع غمامة، وهي التي تغُمُّ السماء؛ أي تسترها، وهي السحاب الأبيض؛ التي تحجب عنهم الشمس، وقيل ليس هذا بالغمام الذي جاء في قوله ﷻ: **﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾** [البقرة–٢١٠]؛ لأنّ هذا الغمام جاء فيه الملائكةُ يوم بدرٍ **﴿وَ﴾**: أيضًا **﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾**: هي مادةٌ صمغيةٌ حلوةٌ كالعسل، قال السدي: كان المنّ يسقطُ على شجرةِ الزنجبيل، وقال قتادة: ينزل عليهم محلّ سكناهم سقوط الثلج، أشدَّ بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، يسقطُ من طلوعِ الفجرِ إلى طلوعِ الشمسِ، يأخذ منه الرجلُ ما يكفيه، وقال عبد الرحمن بن أسلم: هو العسل، وقيل: إمّا شرابًا، وإمّا طعامًا، إذا أكلوه وحده كان طعامًا، وإذا خلطوه بالماء كان شرابًا، وإذا مُزج مع غيره صار نوعًا آخرًا **﴿وَالسَّلْوَى﴾**: قال ابن عباس: هو طائرٌ يُشبهُ السّمان، وقال قتادة: طيرٌ يأتي مع الريح الجنوبي، ولقد كان الرجلُ يأخذ ما يكفي يومه، فما

ذبحهُ زيادةً عن اليوم يفسد، إلّا اليوم السادس؛ ما يُجمعُ يُؤخذُ لليوم السادس، أمّا اليوم السابع؛ فيوم عبادة، وضرب موسى عليه السلام الحجر؛ فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا للأسباط الذين سألوا: أين الظل؟ فظلّل عليهم الغمام، وسألوا: أين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطولُ معهم، ولا يبلى لهم ثوب، وقال ابن عباس: خلق اللهُ لهم في التيه ثيابًا لا تخرق، ولا تدرن، أي لا تتسخ ﴿كُلُوا مِنْ﴾: جزءًا أو بعضًا ﴿طَيِّبَاتِ مَا﴾: الذي من غير العاقل ﴿رَزَقْنَاكُمْ﴾: أمرٌ بأكلٍ كلّهُ مُباحٌ، ﴿وَمَا﴾: أيضًا هنا نفي ﴿ظَلَمُونَا﴾: كان ظُلمهم بعد هذا الفضل؛ أنْ خالفوا، وكفروا، وهذا لا يُضرُّ الله سبحانه وتعالى شيئًا ﴿وَلَكِنْ﴾: حرفُ عطفٍ واستدراكٍ ﴿كَانُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: جوهر وجودهم ﴿يَظْلِمُونَ﴾: مقارنةً مع أتباع محمد ﷺ، الذين كانت صفاتهم الصبرَ، والثباتَ، وعدم التعنّت؛ ففي عام تبوك كان الحرُّ الشديدُ، والجهدُ، والجوعُ، سألوا رسولهم محمدًا ﷺ أنْ يُكثر طعامهم، فجاءَ بقدرِ مبركِ الشاةِ، وأمرهم، فملؤوا كلّ وعاءٍ معهم من الطعام، ولمّا احتاجوا إلى الماء دعا محمد ﷺ ربّه سبحانه وتعالى؛ فجاءتهم سحابةٌ فأمطرت، فشربوا وسقوا الإبل، وملؤوا أسقيتهم، والحمد لله ربّ العالمين.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٨)

﴿وَ﴾: اذكروا أيضًا ﴿إِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن ﴿قُلْنَا﴾: واذكروا يا بني إسرائيل يوم أمركم اللهُ سبحانه وتعالى أنْ ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ﴾: بعد رحيل بني إسرائيل من مصر، أمرهم الله سبحانه وتعالى دخول الأرض المقدّسة؛ أرض فلسطين، وكان فيها العماليق الكفرة؛ فرفض أصحابُ موسى عليه السلام، الدخول؛ فتركهم اللهُ سبحانه وتعالى فيه؛ فكان التيه ﴿الْقَرْيَةَ﴾: بيت المقدس جاء في المعنى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا﴾ [المائدة-٢١] ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيدُ السبب وبدون تأخير ﴿كُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾: هو الطعام الهانئ الوفير؛ الذي يأتي بلا عناء ﴿وَ﴾: عطفًا على ما جاء ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾: راكعين ساجدين؛ شُكرًا على نعمة الفتح، أو رُكّعًا بمعنى الخضوع، ولكنّهم دخلوا المدينة رافعين رؤوسهم؛ مُعاندين ما أمرهم اللهُ سبحانه وتعالى ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: أيضًا اسألوا الله سبحانه وتعالى أنْ يحُط عنكم خطاياكم؛ فخالفوا القول والعمل، لو قالوا وفعلوا ما أمرهم اللهُ سبحانه وتعالى به لكفّر عنهم خطاياهم ﴿نَغْفِرْ﴾: نُسامح، ونُزيل، ونتجاوز ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿خَطَايَاكُمْ﴾: ما ارتكبتم من جرائم وآثام ﴿وَسَنَزِيدُ﴾: وأيضًا سوف نُكثرُ عطاءنا ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾: الذين عبدوا الله سبحانه وتعالى؛ كأنّهم يرونه؛ أي عبدوه حق عبادته.

التكليف: كانت أوامرُ اللهِ ﷻ لنبيّه إسرائيل عليه السلام، هي حالَ أصحابِ محمدٍ ﷺ في لحظات الانتصار، يوم دخل مكّة فاتحًا؛ كانت رأسهُ خاضعةً لله ﷻ، تكادُ تُلامسُ راحلته.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٥٩)

﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب، وفي تتابعٍ سريعٍ ﴿بَدَّلَ﴾: غيّر ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿ظَلَمُوا﴾: عصوْا ﴿قَوْلًا﴾: قال ﷺ: قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سُجّدًا، وقولوا حطّة، روى البخاري بسنده عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿ادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة-٥٨] فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ[١]، وقال ابن عباس: رُكّعًا من بابٍ صغيرٍ، فدخلوا من قبل أستاهم، وقالوا: حنطةٌ في شعيرةٍ، يشهد الله ﷻ أنّهم لم يفعلوا ما أُمروا به ﴿غَيْرَ﴾: اسم استثناء ﴿الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾: غير ما أمرهم به الله ﷻ ﴿فَ﴾: حرفٌ الفاء هنا للجواب بهدف ترتيب الأمر بالسرعة الممكنة ﴿أَنْزَلْنَا﴾: أصابهم اللهُ ﷻ من فوقهم ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: ظلموا أنفسهم بنزول العذاب؛ لأنّهم لم يطيعوا الله ﷻ ﴿رِجْزًا﴾: قال ابن عباس: الرجزُ في كتاب اللهِ هو العذاب، وقال أبو العالية: هو الغضب، وقال سعيد بن جبير: هو الطاعون. وأمّا إذا جاء اللفظُ بالرجس فهو عذابٌ فيه عفونةٌ ونتنٌ وقذارةٌ، ﴿مِنَ﴾: حرفُ جرّ يُفيدُ ابتداء الغاية المكانيّة، وهي هنا ﴿السَّمَاءِ﴾: هي كلّ ما علا الأرض وأحاط بها ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصول، بمعنى الذي ﴿كَانُوا﴾: في السابق ﴿يَفْسُقُونَ﴾: يخرجون عن حدود المسموح.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٦٠)

﴿وَ﴾: اذكروا أيضًا ﴿إِذِ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن يفيد التحقق ويستحق التذكر، يوم ﴿اسْتَسْقَى﴾: طلب السقية، أراد الحصول على الماء ﴿مُوسَى لِ﴾: حرف اللام هنا للتعليل ﴿قَوْمِهِ﴾: طلب موسى عليه السلام من ربّه ماءً لكلّ سبطٍ بلا عناءٍ، أو نزاعٍ ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الاستجابة السريعة ﴿قُلْنَا﴾: جاءت بصيغة الجمع؛ لعظم الحدث ﴿اضْرِبْ بِ﴾: حرف باء الاستعانة ﴿عَصَاكَ الْحَجَرَ﴾: قال اللهُ ﷻ لموسى عليه السلام، اضرب الصخرة الصغيرة، قال ابن عباس: كان الحجرُ مُربّعًا، في كلّ ناحيةٍ ثلاثة عيون، وقال قتادة: كان حجرًا طوريًّا من الطور يحملونه معهم، إذا ضربه موسى أخرج الماء منه، وقيل هو الحجرُ

---

[١] صحيح البخاري (٤/ ١٥٦)

الذي وضع عليه موسى ﷺ ثوبه عندما اغتسل؛ فأخبرهُ جبريلُ ﷺ أنْ يرفع هذا الحجر؛ لأنّ فيه قدرة، وله فيه معجزة؛ فحمله موسى ﷺ، وقال الزمخشري: يُحتمل أنْ تكون اللام للجنس، أي للحجر، وبالتالي إذا ضرب موسى أيّ حجرٍ سيخرج منه الماء؛ وهذا أبلغُ في المعجزة ﴿فَ﴾: حرفٌ الفاء هنا علة وسبب بهدف ترتيب الأمر بالسرعة الممكنة ﴿انْفَجَرَتْ﴾: تدفقت بصورةٍ كبيرةٍ ﴿مِنْهُ﴾: حرفُ جرّ يُفيد ابتداء الغاية المكانيّة، وهي هنا من البئر ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾: قال ابن عباس: كان ذلك في التيه، ضرب لهم موسى ﷺ الحجر، فخرجت منه اثنتا عشرة عينًا من الماء ﴿قَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿عَلِمَ﴾: عَرَف وأدرك ﴿كُلُّ﴾: تفيد العموم ﴿أُنَاسٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة لتؤكد وتفيد عموم كلّ سبطٍ ﴿مَشْرَبَهُمْ﴾: لكلّ سبطٍ منهم عينٌ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا﴾: حرفُ تحريمٍ ﴿تَعْثَوْا﴾: تُفسدوا لا تسعوا ﴿فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: متمادين في إتلاف كل ما هو صالح فيها.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٦١)

﴿وَإِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن ﴿قُلْتُمْ يَا﴾: حرفُ نداءٍ هنا للقريب، وهو ﴿مُوسَى لَنْ﴾: حرفُ نفي ﴿نَصْبِرَ﴾: نستمر ﴿عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾: كان اليهودُ يعيشون قبل ذلك على الأطعمة الدنيئة؛ فأرادوا التحسين ﴿فَ﴾: حرف تعليل بصيغة الأمر ﴿ادْعُ﴾: سلْ أو اطلب ﴿لَنَا رَبَّكَ﴾: وفي قولهم قلّةُ أدبٍ، لم يقولوا ربّنا؛ بل قالوا ربّك ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾: تخصيصًا ﴿مِمَّا﴾: من الذي ﴿تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾: يُريدون الطعام النباتي، الأقل قيمةٍ غذائيةٍ من الطعام الآخر، وهو الطيور ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية المكانية، وهي ﴿بَقْلِهَا﴾: حيث كان اليهود يعيشون في السابق على البقول، مثل العدس، والبصل، والفوم وهي الحنطة، والبقول؛ والبقلُ هو كلُّ نباتٍ بلا ساقٍ، ولما جاءهم فضلُ اللهِ ﷻ من المنِّ والسلوى؛ ضجروا منه؛ لأنّه طعامٌ واحدٌ لا يتغيّر ﴿وَ﴾: أيضًا طلبوا ﴿قِثَّائِهَا﴾: وتضم (٧٥٠) نوعًا من الشمّام، والخيار، والقرع، واليقطين ﴿وَفُومِهَا﴾: قال ابن عباس: هو الثوم، وقال آخرون: الحنطة، والذي يُصنع منه الخُبز كالقمح، والشعير، والذرة، والحمّص، وقال ابن جرير: هي الحنطةُ بلسان بني هاشم، وقال البخاري: هي الحبوب التي تُؤكل ﴿وَعَدَسِهَا﴾: وهو نوع من البقول ﴿وَبَصَلِهَا﴾: نوعٌ من النباتاتِ ذاتِ الروائحِ غيرِ المقبولة، بسبب احتوائها

على زيوتٍ طيّارةٍ من جنس الثوم ﴿قَالَ﴾: موسى عليه السلام ﴿أَ﴾: حرفُ استفهامٍ بغرض الإنكار التوبيخي ﴿تَسْتَبْدِلُونَ﴾: تطلبون شيئًا بدل شيء ﴿الَّذِي﴾: اسم موصولٌ للمفرد المذكر ﴿هُوَ﴾: في اللغة فيعني ضمير منفصل مرفوع للغائب المفرد المذكر ﴿أَدْنَى﴾: أقلّ قيمة ونفعًا ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾: تقريعٌ، وتوبيخٌ على سؤالهم: تريدون غذاءً أقلّ قيمة؛ مما هو أفضل لكم ﴿اهْبِطُوا﴾: انزلوا، وفيها تحقيرٌ ﴿مِصْرًا﴾: مصرًا جاءت منونًا مصروفًا، ويقول ابن عباس في تعريف مصرًا هي أيّ مكان، أيّ مصرٍ من الأمصار، وهي أيّ منطقةٍ من المناطق، أيّ بلدٍ تدخلونه ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿مَا﴾ الذي ﴿سَأَلْتُمْ﴾: ادخلوا أيّ منطقةٍ، ستجدون فيها الذي تريدونه من الطعام الرديء، ومن الواضح أنّ الله تعالى لم يستجب لبطرهم ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿ضُرِبَتْ﴾: فُرضت ووضعت ﴿عَلَيْهِمُ﴾: وألزمهم اللهُ تعالى بها شرعًا وقدرًا ﴿الذِّلَّةُ﴾: ما كان عن قهرٍ، هي الصَغار والهَوان، فكلُّ من وجدهم، استذلهم؛ وأهانهم، وصاروا هم في أنفسهم أذلاء، وأنّ الله تعالى أذلّهم بالآخرين، وقد عاش اليهودُ الذلّ تحت أقدام الشعوب، كما كان المجوس يأخذون منهم الجزية، وكما سجّل التاريخُ في القرن التاسع عشر مائة حالة طرد لهم من أوروبا وحدها ﴿وَ﴾: أيضًا ضُربت وفُرضت عليهم ﴿الْمَسْكَنَةُ﴾: هي الفاقةُ، والحاجةُ، والفقرُ، ومن هنا سعى اليهودُ في تاريخهم إلى العمل كأقنان ملوكٍ وخُدّامِ أمراء؛ ليجنوا المال، هذه تجربتُهم التاريخية حتى يومنا هذا ﴿وَبَاءُو﴾: رجعوا واحتملوا مثل باء فلان بذنبه، جاء في المعنى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة-٢٩]، أنْ يحمل إثم الذنبين، ويرجع بهما جميعًا ﴿بِ﴾: حرفُ باء المُجاوزة ﴿غَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾: استحقوا الغضب الرباني، ورجعوا به وحملوه، ولازمهم في حالةِ اليُسر، وحالةِ العُسر ﴿ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر اللهُ تعالى عنها ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل، ونفي الإنكار ﴿كَانُوا﴾: فيما سبق ولا يزالون ﴿يَكْفُرُونَ﴾: يغطّون ويحجبون ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: يُنكرون آيات الله تعالى، ويمنعون النّاس من الالتزام بها استكبارًا ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾: قال ابن كثير أنّه نزل فيهم (١٢٤ ألف) نبي ورسول؛ قتلوا نصفهم ﴿بِغَيْرِ﴾: اسم استثناء يفيد ﴿الْحَقِّ﴾: هذه ظاهرةٌ ذات تداعياتٍ متتاليةٍ: بعد الاستكبار جاءت التغطيةُ عليه، ثم أهانوا الأنبياء والرسل، ثم قتلوهم بغير الحق، قال ﷺ: أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ، أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا، وَإِمَامُ ضَلَالَةٍ، وَمُمَثِّلٌ مِنَ الْمُمَثِّلِينَ[1] ﴿ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر اللهُ تعالى عنها ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصولٌ بالذي ﴿عَصَوْا﴾: من العصيان؛ وهو عدم الطاعة، والتمرد ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾: الاعتداء هو العمل الذي يتجاوز المسموح به شرعًا.

---

[1] مسند أحمد ج٦/٤١٣(٣٨٦٨)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن، والحديث صححه الدار قطني موقوفًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢)

جاء في هذه الآية الكريمة الحديث عن أربعِ فرقٍ من النّاس ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشكّ والإنكار ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿آمَنُوا﴾: جاء في أسباب نزول الآية: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ سَلْمَانَ الْفَارِسِيَّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ, بَيْنَا هُوَ يُحَدِّثُ النَّبِيَّ ﷺ إِذْ ذَكَرَهُ أَصْحَابَهُ, فَأَخْبَرَهُ خَبَرَهُمْ فَقَالَ: كَانُوا يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَشْهَدُونَ أَنَّكَ سَتُبْعَثُ نَبِيًّا، فَلَمَّا فَرَغَ سَلْمَانُ مِنْ ثَنَائِهِ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا سَلْمَانُ هُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى سَلْمَانَ, وَكَانَ قَدْ قَالَ لَهُ سَلْمَانُ: لَوْ أَدْرَكُوكَ صَدَّقُوكَ وَاتَّبَعُوكَ , فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فَكَانَ إِيمَانُ الْيَهُودِ أَنَّهُ مَنْ تَمَسَّكَ بِالتَّوْرَاةِ وَسُنَّةِ مُوسَى حَتَّى جَاءَ عِيسَى، فَلَمَّا جَاءَ عِيسَى عليه السلام كَانَ مَنْ تَمَسَّكَ بِالتَّوْرَاةِ وَأَخَذَ سُنَّةَ مُوسَى وَلَمْ يَدَعْهُمَا وَلَمْ يَتْبَعْ عِيسَى كَانَ هَالِكًا، وَإِيمَانُ النَّصَارَى مَنْ تَمَسَّكَ بِالْإِنْجِيلِ مِنْهُمْ وَشَرَائِعِ عِيسَى كَانَ مُؤْمِنًا مَقْبُولًا مِنْهُ, حَتَّى جَاءَ مُحَمَّدٌ ﷺ فَمَنْ لَمْ يَتْبَعْ مُحَمَّدًا مِنْهُمْ وَيَدَعْ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ سُنَنِ عِيسَى وَالْإِنْجِيلِ كَانَ هَالِكًا، ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾: أيضًا الذين هم من الهوادة، أي المودّة، وقيل التهود، وهي التوبة جاء: إنّا هدنا إليك، أي تبنا إليك، أو بسبب نسبتهم إلى يهودا أكبر أبناء يعقوب عليه السلام ﴿وَالنَّصَارَى﴾: هم أصحاب عيسى عليه السلام، ومناصروه، والذين ناصر بعضُهم بعضًا، ويُسمون أيضًا أنصار فقد قال عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران-٥٢]، وقيل لأنّهم نزلوا أرضًا اسمها ناصرة، قال قتادة، وابن عباس: من آمن أي المؤمنون الذين اتبعوا الإسلام دين محمد ﷺ، هم أمّةُ محمد، سُموا مؤمنين؛ لكثرة إيمانهم، وشدّةِ يقينهم، وإيمانهم بكلّ الأنبياء، والغيب كلّه ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾: الخارجين عن عبادةِ ربّهم، هم عبدةُ الملائكةِ أو عبدةُ الكواكب، قال مجاهد: قومٌ من المجوس، واليهود، والنصارى ليس لهم دين، وقال أبو العالية، والضحاك: هم فرقةٌ من أهل الكتاب، يقرؤون الزبور، وقال أبو جعفر الرازي: هم قومٌ يعبدون الملائكة، ويقرؤون الزبور، ويصلّون للقبلة، وقال وهبُ بن منبه: قومٌ يعرفون الله ﷻ وحده، لا شريعة لهم، ولم يكفروا، وقال عبد الرحمن بن زيد: هم أهلُ دينٍ من الأديان، كانوا في جزيرة الموصل يقولون لا إله إلّا الله، ليس لهم كتابٌ ولا نبيّ، وتأتي هذه الآية بعدها؛ لتُبيّن الجزاء الحسن للمؤمنين من أقوامٍ سلفت ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿آمَنَ بِاللَّهِ﴾: أيقن أنّ اللهَ ﷻ ربّهُ ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: آمن بيوم القيامة حقًّا، وعمل لهذا اليوم ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: أدّى فرائض الله

ﷻ، وأحسن معاملة الخلق ﴿فَـ﴾: حرف الفاء هنا يفيد جواب الشرط ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿أَجْرُهُمْ﴾: ثوابُهم ﴿عِنْدَ﴾: ظرفُ زمانٍ وظرفُ مكانٍ ﴿رَبِّهِمْ﴾: والربُّ هو المُربي، وهو المنشئ لكلّ شيءٍ من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام، هو المالك صاحب الثواب الحسن؛ محفوظًا لهم يوم القيامة ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: أمَّنهم اللهُ ﷻ من كلِّ شرٍ في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع الغائب المذكر والمؤنث ﴿يَحْزَنُونَ﴾: حصنّهم اللهُ ﷻ من حُزن الدنيا؛ بالصبرِ والسكينة.

التكليف: الأرجح أنّ الصابئين هم قومٌ ليسوا من النصارى، ولا من اليهود، ولا من المجوس، ولا من المشركين، هم أصحابُ فطرةٍ، ليس لهم دينٌ مقررٌ؛ لذلك كان المشركون يقولون لمن أسلم أنّه صابئ، والله ﷻ أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٦٣)

﴿وَإِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن، اذكروا يا بني إسرائيل عندما ﴿أَخَذْنَا﴾: جاء الأخذُ بصيغة الجمع؛ لعظم التكليف في هذا الحدث ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾: يُذكّر اللهُ ﷻ بني إسرائيل ما أخذ عليهم من عهود: الإيمان بالله ﷻ وحده، واتباع الرسل، والعمل بما جاء في التوراة ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿رَفَعْنَا﴾: جاء الرفعُ بصيغةِ الجمع؛ لعظم الحدث ﴿فَوْقَكُمُ﴾: بمعنى فوق الرؤوس، والأجساد ﴿الطُّورَ﴾: هو الجبل، جاء في المعنى: **﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾** [الأعراف-١٧١].

وملخصُ القصة: أنّه بعد ما أخذ اللهُ ﷻ ميثاقهم، رفع فوقهم الجبل ليأخذوا الأمر بقوّةٍ، ويسمعون، ويُطيعون، ويلتزمون، قال السدي: رفض بنو إسرائيل السجود؛ فرفع اللهُ ﷻ الجبل فوقهم، وأمرهُ بالسقوط عليهم، ونظروا إليه وقد غشيهم؛ فخرّوا سُجدًا؛ فسجدوا على شقّ الوجه، ورفعوا الشق الآخر لينظروا؛ فنزلت رحمةُ الله ﷻ عليهم؛ فقالوا: والله ما سجدة أحبُّ إلى اللهِ من سجدةٍ كشف بها العذاب عنهم وهم يسجدون ﴿خُذُوا﴾: تسلموا واقبلوا وارضوا ﴿مَا﴾: الذي من جنس غير العاقل ﴿آتَيْنَاكُمْ﴾: وهي التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾: حرف باء الاستعلاء، بجدٍ وطاعةٍ ويقينٍ ثابتٍ لا يتغير، والعمل بما فيها، ولقد جاء اللفظ القرآني بقوةٍ بمعانٍ عدّةٍ؛ فهنا يُقصد الجد، والمواظبة، وجاء بمعنى البطش كما في قوله ﷻ **﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾** [محمد-١٣]، وفي قوله أيضًا **﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ**

﴿قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص-٧٦]، وبمعنى الشدّة، كما جاء ذكرها بمعنى السلاح في قوله ﷻ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف-٩٥]؛ بمعنى القوة البدنية ﴿وَ﴾: عطفًا على ما جاءكم ﴿اذْكُرُوا﴾: أيضًا اعتبروا واتعظوا ﴿مَا﴾: الذي ﴿فِيهِ﴾: الذكر هو الحفظ، اقرؤوا واعملوا به ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: تفيد التوقع؛ لأنّها من النّاس ﴿تَتَّقُونَ﴾: تخافون الله ﷻ بصدقٍ.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٦٤)

يُخبر اللهُ ﷻ ماذا فعل بنو إسرائيل بعد أخذ الميثاق العظيم: ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد ما مضى من الزمن على التراخي والتباعد الزمني ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: بعد ذلك تركوه، وابتعدوا عنه، ونقضوه ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر الله ﷻ عنها، رفع اللهُ ﷻ عنهم الغضب ﴿فَلَوْلَا﴾: حرفٌ يحضُّ على الفعل؛ يُفيد التخصيص، أو الدلالة على فعلٍ؛ لوجود غيره وهو ﴿فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾: تعني أنّهُ ﷻ تاب عليهم مرّةً أخرى، وأرسل إليهم الأنبياء والمرسلين ﴿لَ﴾: حرفٌ واقعٌ في جوابِ لولا، بمعنى علّة وسبب ﴿كُنْتُمْ﴾: صرتم وأصبحتم ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: خسرتم الدنيا والآخرة؛ بسبب نقض الميثاق.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (٦٥)

﴿وَلَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿عَلِمْتُمُ﴾: من ميثاق الله ﷻ الذي أخذهُ على بني إسرائيل؛ ألّا يصطادوا يوم السبت ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿اعْتَدَوْا مِنْكُمْ﴾: الذين احتالوا وتحايلوا من بني إسرائيل؛ فوضعوا الشباك ﴿فِي السَّبْتِ﴾: قبل يوم السبت، حيث كان السمكُ يكثرُ يوم السبت، وكانت إرادةُ اللهِ ﷻ لاختبار بني إسرائيل؛ فوقعت الحيتان في الشباك يوم السبت، وأخذوها بالليل ﴿فَ﴾: حرف جواب بهدف ترتيب الأمر بالسرعةِ الممكنة ﴿قُلْنَا﴾: أمرٌ ربّاني ﴿لَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾: قال ابن عباس: مسخهم اللهُ ﷻ في صورة القردة، التي تُشبه الإنسان، ولقد كانت أعمالهم مشابهةً للحقّ في الظاهر، ومخالفةً للحق في الباطن؛ فأصبحوا قرودًا، تُشبه الإنسان في الظاهر، وليسوا بالبشر؛ فكان الجزاءُ من جنس العمل، وقيل مُسخت قلوبُهم ولم تُمسخ صورهم، وقال السدى: القرية التي فيها العقاب هي إيله، وقال ابن عباس: مسخهم قردةً، لا يحيون في الأرض إلّا ثلاثة أيام، ولم يأكلوا، ولم يشربوا، ولم ينسلوا، مسخهم في صورة قردةٍ، والقصة مذكورة في سورة الأعراف بتفاصيلٍ أكثر ﴿خَاسِئِينَ﴾: أذلّةً، صاغرين، مطرودين من رحمةِ الله ﷻ، ولقد جاءت

الآياتُ توضح ذلك، فقد قال بعضهم لبعض: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، فرد بعضهم: ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف–١٦٤]، وانقسمت القريةُ بجدارٍ بينهما، كلُّ جهةٍ تخرج من بابٍ خاصٍ، ولم يخرج أحدٌ من العاصين من بابهم، فنظر الطائعون من فوق السور؛ فوجودهم قرودًا يقفزُ بعضُهم على بعضٍ؛ ففتحوا لهم الباب، وتركوهم ينتشرون في الأرض، هل كانت طبيعةُ المسخ معنويةً أم صوريةً؟ اللهُ ﷻ أعلم.

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٦٦)

﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾: الضميرُ عائدٌ على القرية، والمُراد أهلُ القرية ﴿نَكَالًا﴾: عقوبةً ذات عبرة، كما قال ﷻ في فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات–٢٥] ﴿لِمَا﴾: حرفٌ يُفيد حدوث شيءٍ في الماضي، بمعنى حين، للذي ﴿بَيْنَ يَدَيْهَا﴾: في المستقبل ﴿و﴾: أيضًا ﴿مَا﴾: أيضًا: الذي من غير العاقل ﴿خَلْفَهَا﴾: في الماضي عبرةً للقريةِ وما حولها من القُرى، جاء في المعنى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف–٢٧] ﴿وَمَوْعِظَةً﴾: عبرةً لمن بقي من النّاس من بني إسرائيل، أو للمكان: أي للأرض، وهي الأقوى مع ما حولها؛ أي للقرية وما حولها، أو للزمان: أي تكون للشعوب من بعدهم عبرةً وموعظةً ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الْمُتَّقِينَ﴾: الذين يعبدون الله ﷻ بيقينٍ راسخٍ، والذين جاؤوا من بعدهم إلى يوم القيامة، أو أُمّة محمد ﷺولقد ذكر ابن تيمية ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ؛ فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللَّهِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ[1].

التكليف: لقد خصّ اللهُ ﷻ المتقين بالموعظة لأنهم أكثرُ من ينتفع بها؛ لأنّهم أصحابُ قلوبٍ حيّةٍ.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٦٧)

القصة: قصةُ بقرة بني إسرائيل من القصص التي تحدث عنها القرآن الكريم، إذ كان لأحدِ الرجالِ الصالحين من بني إسرائيل بقرة، كان يُربيها ويرعاها ويُحافظ عليها كي تظلّ من بعده لابنه، وكان يذهب بها إلى المروج الخضراء كي ترعى ويدعو الله قائلًا: اللهم إني استودعتها لابني حتى يكبر، ولم مات الرجلُ بقيت هذه البقرة من بعده لابنه اليتيم، وبقي يرعى البقرة كما كان يرعاها أبوه من قبله، وقد كان في بني إسرائيل رجلٌ يملك مالًا كثيرًا، ويُعدّ من وجوه بني إسرائيل، أعطاهُ اللهُ المال والغنى، وكان له ابنٌ وحيد، ورث كلّ شيءٍ عن أبيه، فحسده أبناء

---

[1] إبطال الحيل لابن بطة ص٤٦ والحديث صححه الترمذي، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إسناده قوي.

عمومته على هذا المال؛ لأنّه لم يكنْ لديهم مثله، فتجمعوا عليه وقتلوه، وأشاعوا أنّ قومًا آخرين هم الذين قتلوه، وراحوا يُطالبونهم بدمه، وعند وقوع هذه المشكلة الكبيرة لم يجد القومُ أيّ ملجأٍ لهم إلّا أنْ يذهبوا إلى موسى ﷷ، كي يحتكموا إليه، فسألهم موسى عن الأمر، فأمرهم أنْ يأتوا ببقرةٍ ويضربوا الميت بلسانها، فيحيا ويُخبر بمن قتله.

جاءت هذه القصة بأسلوبٍ يأخذُ بمجامع القلوب، ويُحرّكُ الفكر في النظر إليها تحريكًا، ﴿وَإِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن ﴿قَالَ مُوسَى لِ﴾: حرف تخصيص ﴿قَوْمِهِ﴾: الذين ذهبوا من عشيرته وقبيلته؛ ليعرفوا من القاتل ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾: وهذا يُوجبُ التنفيذ ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَذْبَحُوا﴾: هو شقُّ الحلقِ في العنق، وقطعُ الأوعيةِ الدمويةِ التي تُوصل الدم للمخ؛ فيموت ﴿بَقَرَةً﴾: فالأمر ربّانّي، وليس رأي بشر؛ ولكنّهم اعترضوا، ولو أنّهم لم يعترضوا؛ لأجزأ عنهم أقلُّ بقرة، ولكنّهم شدّدوا؛ فشدّد اللهُ ﷻ عليهم، حيث وجدوا بقرةً وحيدةً عند رجلٍ: قال والله لا أبيعها إلّا بملء جلدها ذهبًا، اشتروها؛ وضربوا القتيل بجزءٍ منها؛ فقام، وأشار إلى قاتله، وهو ابن أخيه، ثم مال ميتًا، فلم يرث القاتلُ شيئًا، وقيل إنّه كان عند الرجل الثري فتاةٌ جميلةٌ هي ابنته، وكان ابنُ أخيه فقيرًا، طلب الزواج من ابنة عمّه، فرفض أبوها؛ فخطط القاتل لقتل عمّه، والزواج من بنت عمّه، وقيل جاء تُجّارٌ إلى مجتمعِ الأسباطِ اليهود بتجارةٍ، طلب القاتلُ من عمّه أنْ يصاحبهُ إلى التجّار القادمين، فهذا يُشجعهم على التعامل معه، وبالقرب من مكان التُجّار قتل الرجلُ عمّه، ثم رجع إلى أهله، وفي الصباح أخذ يبحث مع النّاس عن عمّه، حتى وجدوه بالقرب من التُجار، وأخذ يبكي، ويصرخُ، ويحثو التُراب على رأسه، وقال التجار: نحن على استعدادٍ لدفع الدية، ولكننا نستحي أنْ نُعيّر في ذلك، ذهبوا إلى موسى ﷷ يسألوه ماذا يفعلون؟ قال لهم موسى ﷷ: اذبحوا بقرة؛ فقالوا نحن نسألُك عن جريمةِ قتلٍ، وتقول لنا اذبحوا بقرة؟ ﴿قَالُوا أَ﴾: حرفُ استفهام بغرض الإنكار، ومن المعلوم أنّ البقر من الحيوانات الثدييات المُجترة، التي تعيد ما في معدتها من طعام ليُمضغ مضغًا كاملًا، ﴿تَتَّخِذُنَا﴾: تجعل منّا ﴿هُزُوًا﴾: سخريةً؟ ﴿قَالَ﴾: لهم موسى ﷷ: ﴿أَعُوذُ﴾: ألتجئ وأحتمي أنأى بنفسي أن أكون ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿أَكُونَ مِنَ﴾: بعض ﴿الْجَاهِلِينَ﴾: من الذين يهزؤون من النّاس ولا يحكمون بالعدل، ومن المعلوم أنّ البقر تُستخدم لأغراضٍ عديدةٍ منها جرُّ المحراث، وتدويرُ الطواحين والسواقي، ويُستخدم حليبُها شرابًا وطعامًا، ويؤكلُ لحمُها، وتجرُّ العربات والمحاريث،

ويستخدم جلدُها في صناعاتٍ عديدة كالأحذية، والحقائب، وغيرها، وصغيرُها من الذكور يُعرف بالعجل.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ (٦٨)

﴿قَالُوا﴾: قومُ موسى عليه السلام **﴿ادْعُ﴾**: جاء لفظ أدع هنا بمعنى اسأل **﴿لَنَا﴾**: تخصيصًا **﴿رَبَّكَ﴾**: تعني كلمةُ الرب: المُعبود، والمُربي، وهو المنشئ لكلّ شيء في الكون من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام، وهو سبحانه الخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ، وهو مالك أمرك كلَه، ولم يقولوا ربنا؛ من فرط قلّةِ إيمانهم **﴿يُبَيِّنْ﴾**: يُوضح ويُظهر **﴿لَنَا﴾**: تخصيصًا **﴿مَا هِيَ﴾**: صفاتها المطلوبة **﴿قَالَ﴾**: موسى عليه السلام **﴿إِنَّهُ﴾**: إنّ الله سبحانه وتعالى **﴿يَقُولُ إِنَّهَا﴾**: هي بالتأكيد **﴿بَقَرَةٌ لَا﴾**: حرف نفي **﴿فَارِضٌ﴾**: ليست كبيرة العمر، هرمة **﴿وَلَا﴾**: ليست **﴿بِكْرٌ﴾**: وليست صغيرة، بل هي **﴿عَوَانٌ﴾**: متوسطةُ العُمر **﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾**: كل ما سبق من الأمور التي أخبر الله سبحانه وتعالى عنها وبيّن الصغيرةِ وبين الكبيرةِ الهرمة **﴿فَـ﴾**: حرفٌ يُفيدُ الأمر **﴿افْعَلُوا﴾**: نفذوا **﴿مَا﴾**: الذي **﴿تُؤْمَرُونَ﴾**: ما قلته لكم بسرعة.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ (٦٩)

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا﴾: تخصيصًا **﴿رَبَّكَ﴾**: سلْ ربّك مرّة أخرى، والآخر والآخرة هي التي في مقابل الأولى أو مقابل الواحد **﴿يُبَيِّنْ﴾**: يُوضح **﴿لَنَا﴾**: تخصيصًا **﴿مَا لَوْنُهَا﴾**: ما هو لون البقرة المطلوبة **﴿قَالَ﴾**: موسى عليه السلام **﴿إِنَّهُ﴾**: هو اللهُ سبحانه وتعالى بالتأكيد **﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ﴾**: ناصعٌ، شديدة الصُفرة، واضحٌ بصورة كبيرة **﴿لَوْنُهَا﴾**: أصفرُ صافٍ واضح **﴿تَسُرُّ﴾**: تُعجب، وتدخل البهجة والفرح على **﴿النَّاظِرِينَ﴾**: من يراها.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (٧٠)

﴿قَالُوا﴾: من مطالبهم التعجيزية **﴿ادْعُ﴾**: اطلب **﴿لَنَا﴾**: تخصيصًا **﴿رَبَّكَ يُبَيِّنْ﴾**: يُظهر عيانًا **﴿لَنَا مَا هِيَ﴾**: مواصفات البقرة؛ قد شدّدوا في السؤال على أنفسهم؛ فشدّد اللهُ سبحانه وتعالى عليهم في صفات البقرة، بعد التشديدِ في عمرِ البقرةِ في الآية السابقة، قالوا **﴿إِنَّ﴾**: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار **﴿الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾**: من كثرةِ البقرِ، أرادوا من الله سبحانه وتعالى أنْ يُميّزها **﴿وَ﴾**: عطفًا

على هذا ﴿إِنَّا﴾: نحن بالتأكيد ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿شَاء﴾: أراد ﴿اللَّهُ﴾: إذا بيّنها اللهُ لنا سنكون ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿مُهْتَدُونَ﴾: سنعرفها ونصل إليها.

التكليف: عن عكرمة يبلغ به النبي: لولا أنّ بني إسرائيل قالوا: ﴿**وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ**﴾ لما أُعطوا، ولكن استثنوا(١).

﴿**قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ**﴾ (٧١)

﴿قَالَ﴾: موسى عليه السلام ﴿إِنَّهُ﴾: هو بالتأكيد ﴿يَقُولُ﴾: القائلُ هو الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّهَا﴾: هي البقرةُ بالتأكيد ﴿بَقَرَةٌ لَا﴾: حرف نفي ﴿ذَلُولٌ﴾: ليست مذلّلةً، ليست مُروّضةً للحرث؛ أي لا تعمل للزراعة ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾: لا تقلب الأرض للزراعة فيها ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾: ليست مُعدّةً للسقي، لا في جلب الماء من الساقية ولا لغيرها من الأعمال، وجاء اللفظ القرآني الحرث بمعنى الثواب في قوله سبحانه وتعالى ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ**﴾ [الشورى-٢٠]، وتأتي بمعنى إتيان الزوجات في قوله سبحانه وتعالى ﴿**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [البقرة-٢٢٣] ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾: بل هي مُكرّمةٌ، سليمةٌ صحيحةٌ لا عيب فيها ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿شِيَةَ فِيهَا﴾: وكلمةُ الشيّة مأخوذةٌ من وشي الثوب إذا اتسخ على لونين، ولهذا يُقال عن النمّام بالواشي؛ لأنّه لوّن الكلام بألوانٍ من كذبه. فهي ذات لونٍ واحدٍ، لا بُقع ألوانٍ أخرى فيها، ولا علامات ﴿قَالُوا﴾: هم المجادلون من اليهود من بني إسرائيل ﴿الْآنَ جِئْتَ بِ﴾: حرف باء للصلة والمصاحبة ﴿الْحَقِّ﴾: الآن بيّنْتَ لنا الصحيح ﴿فَ﴾: حرفٌ، الفاء هنا للجواب بهدف ترتيب الأمر بالسرعة الممكنة ﴿ذَبَحُوهَا﴾: والذبح هو شقُّ الحلق في العنق، وقطع الأوعية الدموية التي تصل الدم للمخ فيموت ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾، والفعلُ هو ما يحدث لمرّةٍ واحدةٍ فقط، ولم يقل سبحانه وتعالى يعمل؛ لأنّ العمل يستلزم الدوام. يقول ابن عباس: لم يرغبوا في ذبحها؛ خوفًا من افتضاح الأمر، أو ربّما بسبب ثمنها.

التكليف: لقد لازمت اليهودَ هذه الجدليات، ومنهج التشديد في كلِّ نقاشٍ، حتى اليوم؛ فتراهم يُسهبون في التفاصيل، وإذا اتفقوا ليس لهم الرغبة في الالتزام.

﴿**وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ (٧٢)

---

(١) سنن سعيد بن منصور ج٢/٥٦٥(١٩٣) وإسناده ضعيف مرسل رفعه عكرمة للنبي صلى الله عليه وسلم.

﴿وَإِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن ﴿قَتَلْتُمْ﴾: هنا أسند اللهُ ﷻ القتلَ إلى جميعهم، مع أنّ القاتل بعضُهم؛ ليؤكد أنّ الأمّة في مجموعِها وتكافلِها كالشخص الواحد ﴿نَفْسًا﴾: اذكروا يوم قتلكم لنفسٍ بريئةٍ ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيدُ هنا السبب ﴿ادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾: تدافعتم، وتخاصمتم، واختلفتم في معرفة القاتل ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ﴾: مُظهرٌ وكاشفٌ ﴿مَا﴾: الذي ﴿كُنْتُمْ﴾: في الماضي ﴿تَكْتُمُونَ﴾: سيُظهرُ اللهُ ﷻ ما تكتمون، والكتم منع خروج الشأن، أو إخراجه بصعوبة، وما كنتم، ولا زلتم تخفون في أنفسهم.

التكليف: عن مجاهد، عن أبي حاتم، سَمِعْتُ الْمُسَيِّبَ بْنَ رَافِعٍ قَالَ: مَا مِنْ رَجُلٍ يَعْمَلُ حَسَنَةً فِي سَبْعَةِ أَبْيَاتٍ إِلّا أَظْهَرَهَا اللهُ قَالَ: وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ كِتَابُ اللهِ ﷻ: **﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾**[1].

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٧٣)

﴿فَ﴾: حرفٌ الفاء يفيد هنا ترتيب الأمر بالسرعة الممكنة ﴿قُلْنَا﴾: قول الله ﷻ، عندما أمر موسى عليه السلام، أنْ يقول لهم ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾: أي اضربوا جُثة المقتول بجزءٍ من أعضاء هذه البقرة، ولم يُحدد الحقُّ ﷻ أيّ جزءٍ؛ لأنّ المُعجزة ستحدث، وليس هناك فائدة في تعيين الجزء، فهذه إرادةُ الله ﷻ ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر اللُه ﷻ عنها ﴿يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾: ما أنْ ضربوه حتى قام الرجل حيًّا، ﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الاستئناف ﴿يُرِيكُمْ﴾: يُظهرها ويجعلكم تشاهدون ﴿آيَاتِهِ﴾: العلاماتِ والبراهينِ القاطعة ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ولأنّها جاءت من الله ﷻ فتعني التحقق بإذن الله ﷻ ﴿تَعْقِلُونَ﴾: تدركون الحق فيكون قرارُكم صائبًا، حكيمًا، عاقلًا. هذه آيةٌ تؤكدُ كيف يُحيي اللهُ ﷻ الموتى بقدرته ﷻ؛ حيث كان الهدفُ إعطاء حجّةٍ مقنعةٍ لهم ولغيرهم عن البعث بعد الموت، وأيضًا فضّ الخصومةِ في بني إسرائيل وكسر عنادهم.

التكليف: جاءت خمس مواطن لإحياء الموتى في سورة البقرة: قصة البقرة، ثم بعثناكم من بعد موتكم، والذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، ثم قصة الذي مرّ على قريةٍ وهي خاويةٌ على عروشها، ثم قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام: فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك، ثم اجعل على كلّ جبلٍ منهن جزءًا، ومن المعروف أنْ الموت هو خروج الروح أولًا يعقبه تلف الجسد، بينما القتل هو إتلاف الجسد أولًا؛ يعقبهُ خروج الروح.

---

[1] الجامع لشعب الإيمان للبيهقي ج٩/٢١٠(٦٥٤٦).

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٧٤)

﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيدُ التتابع الزمني مع التراخي، وليس فورًا ﴿قَسَتْ﴾: اشتدت قسوةً، وغلظةً، وجحودًا ﴿قُلُوبُكُمْ﴾: وهي مراكزُ الوعي، والإدراك، والإيمان، والكفر ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ ذَلِكَ﴾: بعد كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر الله ﷻ عنها، بعد نزول الآيات البيّنات على صدق الدعوة، والرسالة، والمعجزات بمرور الزمن، وكان أولى بقلوبهم أنْ تخشع، وتخضع، ولكنّها صارت ﴿فَ﴾: حرف جواب يُفيدُ السبب ﴿هِيَ﴾: ضميرُ رفعٍ منفصلٍ يُفيد المفردَ المؤنث ﴿كَ﴾: حال ومثل ﴿الْحِجَارَةِ﴾: التي لا تلين ﴿أَوْ﴾: هنا لا تفيد الشك، قد تعني كالحجارة وأشدّ قسوة، أو يكون معناها **(بل)** فهي أشدُّ قسوةٍ، قال ابن جرير: بعضُها كالحجارةِ قسوة، وبعضُها أشدُّ قسوةٍ من الحجارة، وهنا يأتي السؤال: ما الذي يزيد القلب قسوة؟ والإجابة: عدم ذكر الله ﷻ، فعن عبد الله بن عمر قال: قال ﷺ: لَا تُكْثِرُوا الكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّ كَثْرَةَ الكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ القَلْبُ القَاسِي[1] وعن أنس بن مالك: قال ﷺ أربعٌ من الشقاء: جمودُ العين، وقسوةُ القلب، وطولُ الأمل، والحرصُ على الدنيا[2]. ﴿أَشَدُّ﴾: أكثر ﴿قَسْوَةً﴾: شدّة مثل الحديد فكانت الحجارةُ ألين من قلوبهم بعد كلّ مُعجزة، لأنّ الحجارة تتشقق ﴿وَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿مِنَ﴾: حرفُ جرّ يُفيد ابتداء الغاية المكانيّة، وهي هنا ﴿الْحِجَارَةِ لَمَا﴾: حرفٌ يُفيد حدث في الماضي، بمعنى حين ﴿يَتَفَجَّرُ﴾: يتفتحُ بسعةٍ وكثرةٍ، وتباعدٍ بقوّةٍ وتناثرٍ ﴿مِنْهُ﴾: من الحجارة، حرفُ جرٍ يُفيد هنا ابتداء الغاية المكانيّة ﴿الْأَنْهَارُ﴾: ومن المعلوم أنّ مخازن المياه الجوفية فوقها طبقةٌ صخريةٌ قويةٌ أو أكثر، فما أنْ تتشقق من تلقاء نفسها، أو بالحفر؛ يخرج الماء، وتسير العيون الجارية وهذا تفسير ﴿وَ﴾: حرفٌ يفيد هنا الاستئناف ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ﴾: للذي عن بعضه يتباعد قليلًا؛ ولكنّهُ يتجاور بشقوق ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾: بسبب هذه الشقوق وتباعد الحواف تتدفق المياه الجوفية ﴿وَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾: تتصدع رؤوس الجبال وأجسامها ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الكلّية ﴿خَشْيَةِ اللَّهِ﴾: خوفًا من إرادة ﷻ، وبسبب تسبيحها وقد جاء: ﴿وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا

---

[1] سنن الترمذي ج٤/٦٠٧(٢٤١١) وقال حديث غريب، ضعفه الألباني.

[2] مسند البزار ٨٧/١٣

تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء-٤٤]. **﴿وَ﴾**: حرفٌ يُفيد هنا الحال **﴿مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ﴾**: لا يغيب عنه شيء **﴿عَمَّا﴾**: عن أي شيء **﴿تَعْمَلُونَ﴾** تقولون وترتكبون من معاصٍ.

التكليف: إنّ الحق جلّ وعلا شبّه قسوة قلوبِ اليهود بقسوةِ الحجارة، وهذا ما أجمع عليه علماء البلاغة، وليست قلوب اليهود من الحجارة، ثم ذكر وبيّن نوع الحجارة: الجوفية، والجبليّة، وهي أقوى وأصلب أنواع الحجارة، والتي لا يمكن كسرها بسهولة، وبيّن ﷻ أنّ هذه الحجارة، رغم قسوتها، إلّا أنّها طاوعت الإنسان؛ فحقق مراده؛ فجّر الآبار بكسر الصخور الجوفية، وحصل على الماء، وشقّ الأنفاق في الجبال، وحقق مُرادهُ وطاوعته؛ إلّا قلوب اليهود؛ فإنّها لم تستجب، ولم تُطع أمر ربّها، ولهذا كانت قلوبُهم في قسوتها أشدُّ من قسوةِ هذه الحجارة، كما وصفهم ربُّ العزّةِ جلّ جلاله، وكذلك يمكن التطرق إلى أنّ الله ﷻ قد خلق صفات الكائنات، وهو ﷻ يُغيرها كيف ووقت يشاء، وتسبح لله ﷻ السماوات السبع ومن فيهن، قال ﷻ: **﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾** [الرحمن-٦]، وقال ﷺ: أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّه[١] وقال أيضًا ﷺ: إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ[٢].

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥)

يوجهُ اللهُ ﷻ القول للمؤمنين في كلِّ زمانٍ من بعد بني إسرائيل: **﴿أَ﴾**: حرفُ استفهامٍ بغرض الإنكار **﴿فَ﴾**: حرفٌ يفيد هنا السبب بهدف ترتيب الأمر بالسرعة الممكنة **﴿تَطْمَعُونَ﴾**: هل يطمع المؤمنون من أهل الكتاب وخاصّة اليهود **﴿أَنْ﴾**: حرفُ تأكيد الفعل **﴿يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾**: أنْ يُطيعوكم تحديدًا في دينكم، هؤلاء اليهود أبناءُ الذين شهدوا من الآيات والمعجزات، ثم تحجرت قلوبهم بعد هذه الأدلّة **﴿وَقَدْ﴾**: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق **﴿كَانَ﴾**: في الماضي ولا يزالون **﴿فَرِيقٌ﴾**: جماعةٌ **﴿مِنْهُمْ﴾**: جزءٌ أو بعضُهم **﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾**: التوراة في عهد آبائهم، والقرآن من بعد ذلك، وكلّهُ من مشكاةٍ واحدةٍ تأتيهم آيات الله ﷻ على الرسل، والآخر والآخرة التي في مقابل الأولى أو مقابل الواحد الذي نزل على محمد ﷺ **﴿ثُمَّ﴾**: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني مع التباعد والتراخي **﴿يُحَرِّفُونَهُ﴾**: يتأوّلونه، ويُغيرونه، ويُفسرونه على غير حقيقتِهِ ويُبدلونه، ويغيّرون المُرادَ منه، ولقد جاء لفظ "**كلام**" في القرآن الكريم على خمسة أوجه؛ جاءت هنا بمعنى كلامٌ من غير وحي، وجاءت بمعنى كلامُ الله ﷻ وحيًا

---

[١] صحيح البخاري ج٢/١٢٥(١٤٨١).

[٢] صحيح مسلم ج٤/١٧٨٢(٢٢٧٧).

في قوله ﷻ ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة–٦]، وقوله ﷻ أيضًا ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح–١٥]، وبمعنى علمُ الله وعجائبه في قوله ﷻ ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف–١٠٩]، وقوله ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان–٢٧]، وجاءت بمعنى كلام المخلوقين عند الموت غير المسموح للمؤمنين في قوله ﷻ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون–٩٩]، وجاء بمعنى آخر الكلام بالإيمان من الكُفّار عند معاينة العذاب في قوله ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء–١٢، ١٣، ١٤]، وقوله ﷻ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر–٨٤] ﴿مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانية ﴿بَعْدِ مَا﴾: الذي ﴿عَقَلُوهُ﴾: بعد أنْ فهموه جيدًا، ثم خالفوه، ولقد حرّف اليهودُ التوراة التي نزلت عليهم، فجعلوا فيها الحلالَ حرامًا، والعكس، وعمدوا إلى ما جاء في كتابهم عن صفاتِ محمدٍ ﷺ؛ فحرّفوه، وغيروا معانيه، عن عمدٍ ﴿وَهُمْ﴾: بالتأكيد تخصيصًا ﴿يَعْلَمُونَ﴾: يعرفون المعنى الحقيقي، ويتعمدون تحريفه.

التكليف: هذه صفةٌ لازمت اليهود في تاريخهم، يقول الله ﷻ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [المائدة–١٣] هذا ما نراه اليوم في اتفاقاتهم مع غيرهم.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٦)

﴿وَإِذَا﴾: أداةُ عطفِ ما يليها على ما قبلها ﴿لَقُوا﴾: قابلوا ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: بعض المسلمين الذين آمنوا ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾: قالوا إنّ صاحبكم رسول الله، ولكنّه إليكم خاصّة، وبعد هذه الحادثة تراجع بعضُهم؛ فقالوا لبعض: لا تقولوا لهم هذا؛ فقد كنتم تتفضلون على العرب قبل أنْ يكون هذا منهم، وهذا معنى: يعلمون أنّ محمدًا رسول الله إلى النّاس كافّة، ويعلمون أنّهم بهذا الكذب يُذنبون ﴿وَإِذَا خَلَا﴾: انفرد ﴿بَعْضُهُمْ﴾: جزء منهم ﴿إِلَى﴾

﴿بَعْضٍ﴾: التقى بعضُهم بعضًا، بعيدًا عن الأعين ﴿قَالُوا﴾: مستنكرين ﴿أَ﴾: حرفُ استفهامٍ ﴿تُحَدِّثُونَهُمْ﴾: تخبرونهم ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصول، بالذي ﴿فَتَحَ﴾: حكم به بينكم، أو قصّه ﴿اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: لماذا تقولون لهم بما فضّلكم اللهُ ﷻ عليهم من قبل ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يُحَاجُّوكُمْ بِهِ﴾: يجعلونهُ حُجّةً عليكم ﴿عِنْدَ﴾: ظرفُ زمانٍ وظرفُ مكان ﴿رَبِّكُمْ﴾: هو سبحانه المُعبود، والمُربي، وهو المنشئُ لكلِ شيءٍ من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام، وهو الخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ؛ حتى لا يقيموا عليكم الحُجّة على اعترافاتكم لهم بصدق نبيّهم ﴿أَفَلَا﴾: حرف استفسارٍ واستنكارٍ ﴿تَعْقِلُونَ﴾: إنّ ما تفعلونه غيرُ معقول.

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٧)

﴿أَوَلَا﴾: حرف نفي بمعنى ليس ﴿يَعْلَمُونَ﴾: هل هم لا يعتقدون ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد ونفي الإنكار ﴿اللَّهَ يَعْلَمُ﴾: علم يقين ﴿مَا﴾: الذي ﴿يُسِرُّونَ﴾: يعلم ﷻ ما يُخفون من الأقوال، قال الضحّاك: هم المنافقون من اليهود، كانوا إذا لقوا أصحاب رسول الله ﷺ؛ قالوا آمنّا، وقال السدي: هم ناسٌ من اليهود آمنوا، ثم نافقوا ﴿وَمَا﴾: الذي ﴿يُعْلِنُونَ﴾: كانوا يدخلون المدينة للتجسس على محمد ﷺ، وإذا عادوا إلى أهلهم عادوا إلى الكفر، قالوا نحن نكفر بمحمدٍ؛ لذلك منعهم الرسول ﷺ من الدخول إلى المدينة، وهذا مكتوبٌ عندهم في كُتبهم، علِم اللهُ ﷻ بما يقولون، وبما يكتمون؛ فأخبر المسلمين بذلك.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٧٨)

﴿وَمِنْهُمْ﴾: أيضًا من اليهود ﴿أُمِّيُّونَ﴾: والمفرد هو الأميّ هو الذي لا يُحسن الكتابة، وبالتالي لا يعلمون؛ لأنّهم لا يقرؤون، وهذا كان في وصف محمد ﷺ؛ لأنّه لا يقرأ، قال ﷺ: إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لا نَكْتُبُ ولا نَحْسُبُ، الشَّهْرُ هَكَذا وهَكَذا وهَكَذا وعَقَدَ الإبْهامَ في الثَّالِثَةِ والشَّهْرُ هَكَذا، وهَكَذا، وهَكَذا[1]. وقال ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا﴾ [الجمعة–٢]، وقال ابن جرير أنّ كلمة أميّ: نسبت العرب من لا يكتبُ ولا يخطُ من الرجال إلى أمّه والدته التي في جهلٍ بالكتاب دون أبيه ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَعْلَمُونَ﴾: لم يصلهم العلمُ، أو علموا ولمْ يفهموا ﴿الْكِتَابَ﴾: ما جاء من عند الله ﷻ على رسلهم ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطع ﴿أَمَانِيَّ﴾: قال ابن عباس: القولُ الكذبِ باللسان، وقال مجاهد: هم أناسٌ من اليهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئًا، ويتكلمون بالظنِ، كانت أمنياتُهم فتمنّوها؛ إنّ التمني هنا هو قولُ واختلاقُ الكذب،

---

[1] صحيح مسلم ج٢/٧٦١(١٠٨٠).

قال عثمان ﵁: ما تغنيت ولا تمنيت، يقصد ما اختلق كذبًا ولا تحرّض باطلًا، والتمني قد تعني تلاوة، مُستشهدين بالقول في الآية الكريمة: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج–٥٢] ﴿وَإِنْ هُمْ﴾: اليهود ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ يقطع ما قبله عمّا بعده ﴿يَظُنُّونَ﴾: يكذبون.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (٧٩)

﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿وَيْلٌ﴾: هي للتحذير والتهديد فيها أقوال: تعني الهلاك والدمار، على مستوى الفردِ، والجماعةِ، والدولةِ، وهذه بشرى للمؤمنين، وقال ابن عباس: الويلُ المشقّة من العذاب، وقال الخليل: شدّة الشرّ، وقال سيبويه: ويلٌ لمن وقع في الهلكة، ويحٌ لمن أشرف عليها، وقال الأصمعي: الويلُ تَفجُّعٌ، والويحُ تَرَحُّمٌ، وفي تفاصيل القصة: ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد الجميع ﴿يَكْتُبُونَ﴾: زورًا، وبهتانًا من عندهم ﴿الْكِتَابَ﴾: كتب بعضُ اليهود كتابًا ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿أَيْدِيهِمْ﴾: من تأليفهم؛ يُسطّرون ويبيعونه للعرب، ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني البطيء ﴿يَقُولُونَ﴾: يدّعون ﴿هَذَا﴾: اسم إشارة للمفرد المذكر القريب ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية، وهي مصدره ﴿عِنْدِ اللَّهِ﴾: مُنزّل من الله ﷻ ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا﴾: ليأخذوا ثمنه ﴿قَلِيلًا﴾: جاء لفظ "**قليل**" في القرآن الكريم على ستةِ أوجهٍ، هنا بمعنى يسير، لأنّه مهما كثُر فهو قليلٌ بالنسبة إلى ما استوجبوا من العذاب وجاء بمعنى رياء وسمعة في قوله ﷻ **﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾** [الأحزاب–١٨]، وقوله **﴿أيضًا إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾** [النساء–١٤٢]، وجاء بمعنى لا شيء في قوله ﷻ **﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾** [الأعراف–١٠]، وقوله أيضًا **﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾** [البقرة–٨٨]، وقوله ﷻ **﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾** [الملك–٢٣]، وبمعنى قليل في كثير في قوله ﷻ **﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾** [الشعراء–٥٤]، وقوله أيضًا **﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾** [النساء–٦٦]، وقال عكرمة عن ابن عباس: إنّ المقصود هم أحبارُ اليهود، وهؤلاء صنفٌ من اليهود يكذبون، ويدعُون إلى الضلال ويفترون، على الله ﷻ؛ ليأكلوا أموال النّاس بالباطل ﴿فَوَيْلٌ﴾: الهلاكُ والدمارُ ﴿لَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿مِمَّا﴾: من الذي ﴿كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: كتبوه

كذبًا وافتراءً ﴿وَوَيْلٌ﴾: الهلاك والدمار ﴿لَهُمْ﴾: تحديدًا وتخصيصًا ﴿مِمَّا﴾: من بعض أو جزء الذي ﴿يَكْسِبُونَ﴾: الفوائد الزائلة.

التكليف: قال الزهري عن ابن عباس: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيءٍ، وكتابُ اللهِ الذي أنزل على نبيّه أحدُ أخبار الله، تقرؤونه غضًّا لم يشب، لم يهرم، أو لم تَشُبهُ شائبةٌ، وقد أخبركم اللهُ ﷻ أنّ أهل الكتاب قد بدّلوا كتاب الله، وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا هو من عند الله، ليشتروا به ثمنًا قليلًا، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله ما رأينا منهم أحدًا قط سألكم عن الذي أُنزل عليكم، فويلٌ لهم ممّا كتبت أيديهم، العذاب عليهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون من العذاب، والهلاك، وممّا كسبوا من مال.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٠)

﴿وَقَالُوا﴾: هم اليهود ﴿لَنْ﴾: حرف نفي ﴿تَمَسَّنَا﴾: تُصيبُنا في العمق منّا ﴿النَّارُ﴾: لن نُعذّب يوم القيامة ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾: عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: زعم اليهود أنّ عمر هذه الدنيا هو سبعة آلاف سنة، وأنّ عذابهم سيكون يومًا في النّار عن كلّ ألف سنة، فسيكون عذابهم سبعة أيام فقط، وقال قتادة: لقد قالوا لنْ تمسّهم النّارُ إلّا أربعين ليلة، وهي مدةُ عبادتهم للعجل، والحقيقة: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ» فَجُمِعُوا لَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَبُوكُمْ؟»، قَالُوا: فُلاَنٌ، فَقَالَ: «كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلاَنٌ»، قَالُوا: صَدَقْتَ، قَالَ: «فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا، فَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟»، قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اخْسَئُوا فِيهَا، وَاللَّهِ لاَ نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا»، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ، قَالَ: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟»، قَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ(١)، وغيرهم ﴿قُلْ﴾: يا محمد لليهود ﴿أَ﴾: حرف استفهام بغرض إنكار تكذيبي؛ لأنّه لحق بالأقوال، وهو خلافُ الإنكار التوبيخي الذي يلحق بالأفعال ﴿اتَّخَذْتُمْ﴾: اعتمدتم ﴿عِنْدَ﴾: ظرفُ زمانٍ ومكانٍ ﴿اللَّهِ﴾: هل عاهدتهم الله ﴿عَهْدًا﴾: وعدًا منه ﷻ ألّا يعذّبكم كما تقولون ﴿فَلَنْ﴾: حرف نفي

(١) صحيح البخاري ج٤/٩٩(٣١٦٩).

﴿يُخْلِفَ﴾: ينقض أو يُغيّر ﴿اللَّهُ عَهْدَهُ﴾: كما تدعون أنّه لنْ يُدخلكم النّار، وقد نفى اللهُ ﷻ هذا الكلام، ولذلك جاءت ﴿أَمْ﴾: حرفٌ يفيد طلب التعيين ﴿تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ﴾: الكذب افتراءً ﴿مَا﴾: الذي ﴿لَا﴾: حرفُ نفي ﴿تَعْلَمُونَ﴾: تدركون حقيقته.

﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨١)

﴿بَلَى﴾: حرف للتصديق بمعنى نعم، حقًا ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿كَسَبَ﴾: أي من عمل ﴿سَيِّئَةً﴾: قال ابن عباس: من عمل مثل أعمال اليهود، وكفر بمثل ما كفروا، سيُحيطُ به كفُره، فما له من حسنةٍ، وقال الحسن: السيئةُ الكبيرةُ من الكبائر ﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الحال ﴿أَحَاطَتْ بِهِ﴾: أحدقت به، واستولت عليه ﴿خَطِيئَتُهُ﴾: قال الحسن: أي أحاط به كُفره، وقال الأعمش: هو الذي يموت على خطيئته قبل أنْ يتوب، وعن سهل بن سعد قال رسول الله ﷺ: إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ[1] ﴿فَ﴾: حرفٌ الفاء هنا يفيد السبب ﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للقريب والبعيد ﴿أَصْحَابُ﴾: المرافقون من غير مغادرة، الدائمون مقامًا في ﴿النَّارِ﴾: جهنّم ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع الغائب المذكر والمؤنث بشخوصهم تحديدًا ﴿فِيهَا﴾: في النّار ﴿خَالِدُونَ﴾: مقيمون أبدًا.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨٢)

﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الحال العطف بمعنى أيضًا ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿آمَنُوا﴾: تصديقًا بالله ﷻ، ورسوله؛ اعتقادًا، ويقينًا، إنّ الإيمان وحده لا يكفي، فلا بد من اقترانه بأن ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: أيضًا طبّقوا ما هو مشروع من معاملاتٍ وعباداتٍ ﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارةٍ للقريب والبعيد ﴿أَصْحَابُ﴾: الملازمون أبدًا ﴿الْجَنَّةِ﴾: الذين سيدخلون الجنّة دخول المالكين لها ﴿هُمْ﴾: تخصيصٌ، وتحديدٌ، وتأكيدٌ، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب ﴿فِيهَا﴾: في الجنّة ﴿خَالِدُونَ﴾: لا يخرجون منها أبدًا.

التكليف: إنّ ثواب الخير دائمٌ مقيمٌ على أهله أبدًا لا انقطاع له، وعقابُ الشرِّ دائمٌ على أهله لا انقطاع له.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٨٣)

---

[1] مسند أحمد ج٣٧/٤٦٧(٢٢٨٠٩). قال شعيب الأرناؤوط إسناده صحيح رجال ثقات، رجال الشيخين.

﴿وَإِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَ﴾: هو عهدٌ مؤكدٌ باليمين ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: يُذكِّرُ اللهُ ﷻ كيف كلّف أبناء يعقوب ؏ بأوامره، وذكّرهم بميثاقهم الذي أعطوه ﴿لَا﴾: حرف تحريم ﴿تَعْبُدُونَ﴾: تتبعون وتطيعون ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿اللَّهَ﴾: أعلى حقوق الله ﷻ وأعظمها هي طاعته ﷻ في أوامره ونواهيه، وهي عبادةُ الله ﷻ، وعدم الشرك به ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ﴾: أيضاً يشمل الأب والأم، وما علا من الأجداد والجدّات ﴿إِحْسَانًا﴾: ثم يأتي من بعد ذلك حقوق الخلق، وأولها حق الوالدين، حيث قرن اللهُ ﷻ عبادته بالإحسان للوالدين، جاء في المعنى: أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان-١٤]، وجاء أيضًا: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء-٢٣]، وجاء أيضًا: وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء-٢٦]، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ؓ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الصَّلاَةُ عَلَى مِيقَاتِهَا»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[(١)]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ؟ قَالَ: أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أَبُوكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ[(٢)]. ﴿وَذِي الْقُرْبَى﴾: أيضًا المقربين بالنسب ﴿وَالْيَتَامَى﴾: الصغار الذين فقدوا الآباء؛ فانقطعت عنهم وسائلُ العيش الكريم ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾: الذين لا يجدون ما يُنفقون على أنفسهم وأهليهم ﴿وَقُولُوا لِ﴾: حرف اللام هنا للتخصيص ﴿النَّاسِ﴾: عموم بني آدم ﴿حُسْنًا﴾: أخلاقُ الحلم، والعفو، والصفح، وقد جاء اللفظُ القرآني حُسنًا على ثلاثةِ أوجهٍ، هنا بمعنى الحق، وجاء بالمعنى نفسه هذا في قوله ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه-٨٦]، وجاء بمعنى محتسبًا في قوله ﷻ ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة-٢٤٥]، وقوله أيضًا ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد-١١]، وقوله ﷻ ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن-١٧]، وجاء بمعنى الجنّة في قوله ﷻ ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص-٦١]، عن أبي ذر قال: قال ﷺ: لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ[(٣)]. ﴿وَأَقِيمُوا

---

(١) صحيح البخاري (٢٧٨٢).
(٢) صحيح مسلم (٢٥٤٨).
(٣) صحيح مسلم ج٤/٢٠٢٦(٢٦٢٦).

﴿الصَّلَاةَ﴾: أدّوها على الوجه الصحيح ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾: أمرَ اللهُ ﷻ اليهود الجمع بين الفعل والقول من الإحسان، ولكنْ كيف تعامل اليهود مع هذه الأوامر؟ ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني مع التراخي ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: تركتم، وانصرفتم، وابتعدتم ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ، يقطع بين أمرين ﴿قَلِيلًا﴾: قلّة ﴿مِنْكُمْ﴾: من بني إسرائيل ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾: لم يقولوا، ولم يفعلوا الحُسنى، وابتعدوا عن الحق.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٨٤)

﴿وَإِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن حين ﴿أَخَذْنَا﴾: أخذ اللهُ ﷻ منكم ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾: عهدكم، لازمٌ عليكم، ومؤكدٌ في التوراة، بحيث ﴿لَا﴾: هنا ناهية، تعني محرّمٌ عليكم ﴿تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾: تُريقون دماءَ بعضَكم بعضًا ﴿وَلَا﴾: ومحرّم عليكم أيضًا ﴿تُخْرِجُونَ﴾: تطرُدون من البيوت والأرض ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾: إخوانكم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية المكانيّة وهي ﴿دِيَارِكُمْ﴾: لا تطردوا اليهود، بيد اليهود من بيوتهم، ومزارعهم؛ فكيف طبّق يهود المدينة هذه الأوامر في زمنِ محمدٍ ﷺ؟ لقد كان اليهود في المدينة منقسمين إلى ثلاث قبائل: بني قينقاع، وبني النضير حلفاء الخزرج، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس، وفي المعارك، كان اليهوديُ يقتلُ عدوّه من العرب، ومن اليهود، ولقد نهبوا أموالَ بعض، وأخرجوا بعضهم من ديارهم؛ فارتكبوا معصية ربّهم، ولقد كان الأنصار في الجاهلية يعبدون الأصنام، وكانت بين الطرفين حروبٌ طويلةٌ ﴿ثُمَّ﴾: بعد مدّة مع التباعد والتراخي الزمني ﴿أَقْرَرْتُمْ﴾: وافقتم، وأعطيتم عهدًا ﴿وَأَنْتُمْ﴾: تحديدًا ﴿تَشْهَدُونَ﴾: أنتم شهداءُ على صحةِ العهد.

التكليف: إنّ تعاليم الله ﷻ واحدة؛ وأهلُ الملّةِ الواحدةِ بمنزلةِ النفسِ الواحدة.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٨٥)

﴿ثُمَّ﴾: بعد ذلك مع التباعد الزمني ﴿أَنْتُمْ﴾: تحديدًا ﴿هَؤُلَاءِ﴾: إشارةٍ للجمع البعيد، وهم هنا اليهود أصحابُ العهد، أنتم الذين أعطيتم العهد، وليس غيركم ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾: بتحالفكم مع عبدةِ الأصنام، تقتلون اليهود الآخرين، جاء اللفظ القرآني النفس على خمسةِ وجوه؛ هنا بمعنى

بعضكم بعضًا، وجاءت بمعنى القلوب كما في قوله ﷻ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم-٢٣]، و في قوله أيضًا ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف-٥٣]، وقوله ﷻ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق-١٦]، وقوله ﷻ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء-٢٥]، وجاءت بمعنى جوهر الإنسان بعينه في قوله ﷻ ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة-٣٢]، وقوله ﷻ ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة-٤٥]، وجاءت بمعنى جوهر في قوله ﷻ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام-٩٣]، و قوله ﷻ ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر-٤٢]، وجاءت بمعنى أهل دينكم في قوله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء-٢٩]، وجاءت بمعنى جنسكم في قوله ﷻ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة-١٢٨]، وقد جاءت في التوراة تعاليمُ واضحةٌ، ووردت بالمعنى نفسه في هذه الآية: لا يقتلُ اليهوديُّ اليهودي، ولا يُخرجهُ من ديارِه، وفدية اليهودي لليهودي لإنقاذه؛ فكيف طبّقوا هذه الأوامر؟ ﴿وَتُخْرِجُونَ﴾: أيضًا تطردون ﴿فَرِيقًا﴾: جماعةً ﴿مِنْكُمْ مِنْ﴾: حرفُ جرّ يُفيد ابتداء الغاية المكانية وهي ﴿دِيَارِهِمْ﴾: تطردونهم وتهجّرونهم من بيوتهم وأوطانهم ﴿تَظَاهَرُونَ﴾: تستقوون، تستعينون ﴿عَلَيْهِمْ﴾: على أبناء دينكم بعُبّادِ الأصنام ﴿بِ﴾: حرف باء المصاحبة والصلة ﴿الْإِثْمِ﴾: هو الذنب والعمل الذي لا يحلّ؛ الذي يستحق العقوبة عليه ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾: الاعتداء عليهم ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿يَأْتُوكُمْ﴾: يصلوا إليكم ﴿أُسَارَىٰ﴾:

جمع أسير؛ وهو من يُؤْخَذُ على سبيل القهر فيُشدُّ بالإسار؛ فيصيروا مأسورين ﴿تُفَادُوهُمْ﴾: عندما تنتهي الحروب يدفع الفريق المهزوم فدية الأسرى، عملا بحكم التوراة، وقد قال ﷻ ﴿وَهُوَ﴾: في اللغة يعني ضمير منفصل مرفوع للغائب المفرد المذكر ﴿مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾: كلُّ ما فعلوه من طردهم من دارهم، وقتلهم، وأخذ الفدية بهذه الطريقة كلّهُ حرام ﴿أَ﴾: حرف إنكار بغرض التوبيخ ﴿فَتُؤْمِنُونَ بِ﴾: حرف باء المقابلة والعوض ﴿بَعْضِ الْكِتَابِ﴾: هل تُطبقون بعض ما جاء في التوراة من وجوب الفدية للأسير ﴿وَتَكْفُرُونَ﴾: تخفون وتحجبون ﴿بِبَعْضٍ﴾: تنكرون وتخفون بعضًا، وهي حرام عليكم، وتخرجون بعضكم من ديارهم ﴿فَمَا﴾: حرف يفيد الخبر ﴿جَزَاءُ﴾: عقاب الله ﷻ ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَفْعَلُ ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمورِ التي أخبر اللهُ ﷻ عنها ﴿مِنْكُمْ﴾: حرفُ جرٍّ يفيد ابتداء الغاية المكانية، أي المصدر ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿خِزْيٌ﴾: عارٌ ونقيصةٌ ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: كتم اليهود صفات النبي ﷺ، ومبعثهُ، ومخرجهُ من دارِهِ وهجرتِهِ، وكلّ ما نزل فيه ﷺ في كتابهم، ولما افتضح أمرهم؛ كان خزيًا لهم في الدنيا؛ هذا جزاءُ الإيمان ببعضٍ والكفرِ ببعضِ ما جاءهم من اللهِ ﷻ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ﴾: يُرجعون إلى الله ﷻ، يوم الحساب يوم لا تخفى خافية ﴿يُرَدُّونَ﴾: يُرجعون، يخرجون من قبورهم ﴿إِلَى أَشَدِّ﴾: ينالون الأقسى، والأصعب، والأكثر وجعًا من صنوف ﴿الْعَذَابِ وَمَا﴾: حرف نفي ﴿اللَّهُ بِ﴾: حرف باء الظرفية ﴿غَافِلٍ﴾: لا يغيب عنه ﷻ شيء ﴿عَمَّا﴾: عن أي شيء، من الذي ﴿تَعْمَلُونَ﴾: تفترون من جرائم؛ لأنّ رُسلَهُ تسجل عليكم، ويوم القيامة تعرضون على الله ﷻ، لا تخفى منكم خافية.

ولمّا كانت مخالفةُ التوراة: بقتل اليهودي لليهودي، ويتحالف بعضهم مع أهل الشرك من الأوس والخزرج وبني النضير، وقد حُرّمَ عليهم في التوراة سفك دمائهم وافترض عليهم فيها فداء أسراهم، فكانوا فريقين: طائفةٌ منهم، بنو قينقاع وإنّهم حلفاء الخزرج، والنضير، وقريظة وإنّهم حلفاءُ الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حربٌ خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كلُّ واحدٍ من الفريقين حلفاءَهُ على إخوانه، حتى يتسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم. والأوس والخزرج أهل شرك، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم، تصديقًا لما في التوراة، وأخذًا به؛ بعضهم من بعض، يفتدي بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس، ويفتدي النضيرُ وقريظةُ ما كان في أيدي الخزرج منهم، ويطلبون ما أصابوا من دمائهم وقتلى من قتلوا منهم فيما بينهم، مظاهرةً لأهل الشرك عليهم.

التكليف: ولمّا جاء الإسلام واضحًا، كان ذلك سببًا في دخول الأوس والخزرج الإسلام؛ لأنّ اليهود لا يؤتمنون على عقيدةٍ، ولا يُطبقون ما فيها، ولا هم أمناء على نقلها؛ لذلك لم يصدقوهم فيما كتموه عن صفات الرسول محمد ﷺ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآَخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (٨٦)

﴿أُولَئِكَ﴾: إشارةً للقريب والبعيد **﴿الَّذِينَ﴾**: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع اليهود الذين **﴿اشْتَرَوُا﴾**: استبدلوا **﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾**: ومصالحهم في حياتهم على الأرض، **﴿بِالْآَخِرَةِ﴾** وفضّلوها على الآخرة ونعيمها وثوابها، والشراء هنا على سبيل الاستعارة التصريحية؛ لأنّه شبّه استبدالهم الحياة الدنيا بالآخرة، بالشراء بجامع الاستبدال في كلٍ؛ لأنّ الشراء الحقيقي هو أخذُ شيءٍ مرغوبٍ فيه، وهو السلعة، وترك شيءٍ مرغوبٍ عنه وهو النقود، وهكذا اليهودُ أخذوا الحياةَ الدنيا وهي المرغوب فيها، وتركوا الآخرةَ وهي المرغوب عنها، وهذا هو الاستبدال حِسيٌّ في الشراء الحقيقي، ومعني في الشراء المجازي **﴿فَلَا﴾**: أداة نهيٍ تفيد هنا طلب عدم الفعل **﴿يُخَفَّفُ﴾**: تخفّض درجة الوجع **﴿عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾**: لا يُفتّرُ عنهم العذاب ساعةً واحدةً **﴿وَلَا﴾**: أيضًا نفي **﴿هُمْ﴾**: حرف تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب **﴿يُنْصَرُونَ﴾**: ليس لهم من مُنقذٍ، ولا ناصرٍ، مما هم فيه من عذابٍ سرمديّ، ولا يجيرهم منه أحدٌ.

﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (٨٧)

﴿وَلَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق **﴿آَتَيْنَا﴾**: أعطينا وكلّفنا **﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾**: هي التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام **﴿وَ﴾**: حرفٌ يُفيد هنا الاستئناف **﴿قَفَّيْنَا﴾**: اتبعنا، أردفنا، وجاءت من القفا وهو الظهر؛ أي الرقبة، وظهر العنق، أي ظهر الجسد، جاء بالمعنى نفسه قوله ﷻ: **﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾** [المؤمنون– ٤٤] **﴿مِنْ﴾**: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانية **﴿بَعْدِهِ﴾**: بعد موته عليه السلام **﴿بِ﴾**: حرف باء بالاستعانة **﴿الرُّسُلِ﴾**: تتابع الرسل، وكان آخرهم عيسى بن مريم عليه السلام **﴿وَآَتَيْنَا﴾**: أيضًا أنزلنا وحيًا على **﴿عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ﴾**: جاء الاسم عيسى معرّبًا لأنه أخفُّ من اسم يسوع ويشوع. يُؤكدُ القرآنُ الكريمُ على أنَّ عيسى عليه السلام، المعجزة العظيمة، التي تدحض أكاذيب بني إسرائيل والنصارى **﴿الْبَيِّنَاتِ﴾**: البراهين التي تُخالف التوراة في بعض الأحكام، والدالّة على صدقه، ومن هذه المعجزات: إحياءُ الموتى، وخلقُ الطيرِ من الطين، وشفاءُ المرضى، والإخبارُ عن الغيب

﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾: قوّيناهُ وعزّزناه أيضًا ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: حرف باء الاستعانة، هو المُطهّر، عزّز اللهُ ﷻ عيسى بن مريم بالمَلَك جبريل ﵇، وفي الحديث عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَضَعُ لِحَسَّانَ مِنْبَرًا فِي المَسْجِدِ يَقُومُ عَلَيْهِ قَائِمًا يُفَاخِرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ قَالَتْ: يُنَافِحُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ حَسَّانَ بِرُوحِ القُدُسِ مَا يُفَاخِرُ، أَوْ يُنَافِحُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»[1]، وفي بعض الروايات أنّ رسول الله ﷺ قال: اهْجُهُمْ – أَوْ هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ[2]. وفي شعر حسان جاء: وَجِبْرِيلٌ رَسُولُ اللهِ فِينَا... وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ[3]، ولروح القدس معاني أخرى منها: قال السدى: القدس البركة، وقال القرطبي: هو الله ﷻ، وروحه جبريل، وقال ابن عباس: هو الطُهر، وقيل الروح المقدسة؛ أي روح منه، وقيل سبب تسميتها بذلك؛ أنّه لم تضمه الأرحام والطمث، وقيل الإنجيل، كما جاء في القرآن: ﴿رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى-٥٢] ﴿أَ﴾: حرفُ استفهامٍ يُفيد هنا الإنكار التوبيخي ﴿فَـ﴾: حرف سبب للاستئناف ﴿كُلَّمَا﴾: تفيد التعميم والتكرار ﴿جَاءَكُمْ﴾: بعثنا لكم ﴿رَسُولٌ﴾: جاءكم رسولٌ صادقٌ ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصول، هنا بالمنهج الذي ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تَهْوَى﴾: ترغب وتميل إليه ﴿أَنْفُسُكُمُ﴾: بما لا يوافق أطماعكم، ورغباتكم، والنفس هي جوهر الإنسان التي تحبُ، وهي التي تكرهُ ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾: تعاليتم عن الطاعة، وطالبتم ونشدتم التعالي عن التصديق ﴿فَفَرِيقًا﴾: جماعةً منكم، والفريق هو الجماعة الصغيرة التي هي جزءٌ من جماعةٍ كبيرةٍ ذات مواصفات مشتركة ﴿كَذَّبْتُمْ﴾: بسبب ذلك ودون تفكر كذّبوا كثيرًا من أنبيائهم ﴿وَفَرِيقًا﴾: جماعةً أخرى ﴿تَقْتُلُونَ﴾: بعد التكذيب قتلوا كثيرًا منهم، وقد كذبوا بالنبي محمد ﷺ؛ وحاولوا قتلهُ بالسُمّ والسحرِ، وفي الآية لطيفة؛ حيث نلاحظ أنّ الحق جلّ وعلا ذكر القتل بصيغة المضارع؛ التي تُفيد تجدد الحدث والاستمرارية، وهي: ما يفيد بأنّ الله ﷻ أراد أنْ يُبيّن لنا أنَّ سفك دماء المسلمين صفةٌ متجذرةٌ في اليهود لا تفارقهم.

التكليف: بهذه الكلمات ينعتُ اللهُ ﷻ بني إسرائيل بصفاتهم: العتو، والتكبر، والعناد، والمخالفة، والاستكبار على الأنبياء، واتباع الهوى، وهي خصالٌ لازمتهم حتى اليوم، وما احتلالهم لفلسطين وسيطرتهم على حُكام الغرب الصليبي والعرب الخائنين إلّا نموذج مُتجدد.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨)

---

[1] سنن الترمذي ج٥/١٣٨(٢٨٤٦). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

[2] صحيح البخاري ج٤/١١٢(٣٢١٣).

[3] صحيح مسلم ج٤/١٩٣٥(٢٤٩٠).

﴿وَقَالُوا﴾: ليبرر اليهود موقفهم؛ احتجّوا، وقالوا ﴿قُلُوبُنَا﴾: إنّ قلوبنَا، مركز الإدراك والفهم والتعقل ﴿غُلْفٌ﴾: بمعنى حولها غلافٌ سميكٌ لا يخترقهُ أيُّ شيءٍ من الموعظة، وقيل في أكنّةٍ، وقيل لا تفقه، ومطبوعٌ عليها، وقيل عليها غشاوة، وقيل إنّ القلب الأغلف؛ هو القلب المغضوب عليه؛ وهو قلبُ الكافر ﴿بَلْ﴾: حرف ينفي ما قبله؛ ويؤكد ما بعده ﴿لَعَنَهُمُ﴾: غضب عليهم ﴿اللَّهُ﴾: وباعدهم عن رحمته ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة والمصاحبة ﴿كُفْرِهِمْ﴾: بسبب إخفاء الحق وإنكاره ومحاربة أهله؛ أبعدهم الله ﷻ وطردهم من كلّ خيرٍ ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿قَلِيلًا مَا﴾: بمعنى الذي، وقيل زائدة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: جاء لفظ قليل هنا بمعنى لا شيء، وكذا في قوله ﷻ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف-١٠]، وقوله أيضًا ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك-٢٣]، ومعنى هذه الآية أنّه لا يؤمن منهم إلّا قليل، ويقصد بذلك شخص فرد أو أفراد، وقيل إنّ إيمانهم قليل، وقيل هم بالجميع كافرون.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٨٩)

﴿وَلَمَّا﴾: حرفٌ يُفيد تأكيد الفعل؛ بمعنى حينما ﴿جَاءَهُمْ﴾: نزل عليهم ﴿كِتَابٌ مِنْ﴾: حرف جرّ يفيد ابتداء الغاية المكانيّة، وهي المصدر ﴿عِنْدِ اللَّهِ﴾: لما أرسل الله ﷻ القرآن الكريم على رسوله محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا﴾: يُحقق للذي بالتأكيد ﴿مَعَهُمْ﴾: مؤكدًا على ما نزل عليهم من آياتٍ في التوراة ﴿وَكَانُوا مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد ابتداء الغاية الزمانيّة، الذي كان ﴿قَبْلُ﴾: أي قبل أنْ ينزل القرآن الكريم ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾: يطلبون الفتح أي النصر على الكفّار بمجيء هذا النبي، يقتلون معهُ كفّار قريش، كما قُتلت عاد وإرم ﴿عَلَى الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: وكانوا يقولون سنعينُ النبيَّ على أهلِ مكّة والقرى حولها، وكانوا يستنصرون بمحمدٍ ﷺ على الأوس والخزرج، وقد قال لهم معاذُ بن جبل: يا معشر يهود: اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمدٍ ﷺ ونحن أهلُ شركٍ وتخبروننا بأنّهُ مبعوث، وقال ابن عباس: كانوا سينتصرون بمحمدٍ على أهل الكتاب ﴿فَلَمَّا﴾: حرفٌ يُفيد التتابع والسبب ﴿جَاءَهُمْ مَا﴾: الذي ﴿عَرَفُوا﴾: من قبل، وهي التوراة ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾: لم يؤمنوا بالقرآن الكريم، وأخفوا الحقيقة، وحسدوا الرسول ﷺ؛ وهنا كُفرٌ وجحودٌ ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب أي بسبب كفرهم فإنّ ﴿لَعْنَةُ﴾: الغضبُ والعذابُ من ﴿اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾: على اليهود، ومن هنا يجوز وصف اليهود بالكافرين.

التكليف: ليس لليهود عهدٌ مع ربِّهم، ولا مع أنبيائهم، ولا مع المسلمين، ولا مع العالم أجمع.

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٩٠)

﴿بِئْسَمَا﴾: فعلٌ جامدٌ للذمِّ، بمعنى سوءٌ، وشرٌّ، وذكر المساوئ وهو عكس المدح من الله ﷻ لليهود؛ على تبديل ما علموا، وبعدما تأكدوا من صدقه **﴿اشْتَرَوْا﴾**: باعوا **﴿بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾**: من أجله **﴿أَنْ﴾**: حرف تأكيد الفعل **﴿يَكْفُرُوا بِمَا﴾**: اسمٌ موصول، بالذي **﴿أَنْزَلَ اللَّهُ﴾**: وهو مخالفةُ رسالة محمد ﷺ، وحقيقة القرآن الكريم **﴿بَغْيًا﴾**: جاء لفظ "**البغي**" في القرآن الكريم على أربعة أوجه، هنا بمعنى الظلم، وكذلك في قوله ﷻ **﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف-٣٣] **﴿أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ﴾**: وحيًا **﴿مِنْ﴾**: حرف جرٍّ يفيد هنا بيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية، أي المصدر **﴿فَضْلِهِ﴾**: كرمه وجوده **﴿عَلَى مَنْ﴾**: الذي من جنس العاقل **﴿يَشَاءُ مِنْ﴾**: حرفُ جرّ يُفيد بعض **﴿عِبَادِهِ فَ﴾**: حرف الفاء يفيد السبب **﴿بَاءُو﴾**: استحقوا، استوجبوا على أنفسهم بسرعة **﴿بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾**: حرف الباء يفيد السبب، تراكم الغضبِ بعضهُ فوق بعضٍ، فاستقروا وعاشوا في هذا الغضب؛ بسبب كفرهم بالإنجيل وبعيسى عليه السلام، وكفرهم بمحمدٍ ﷺ، قال السدى، وابن عباس: الغضبُ الأوّلُ يوم العجل، والغضبُ الثاني حين كفروا بمحمدٍ ﷺ **﴿وَ﴾**: عطفًا على ما فعلوا وقالوا **﴿لِلْكَافِرِينَ﴾**: لهم تخصيصًا يشهد اللهُ ﷻ فيهم أنّهم كفّار، وعقابهم **﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾**: كان الكفر بسبب البغي، والحسد؛ قال ﷻ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾** [غافر-٦٠]، صاغرين، حقيرين، ذليلين.

التكليف: قال ﷺ: يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَمْثَالَ الذَّرِّ، فِي صُوَرِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ، يُقَالُ لَهُ: بُولَسُ، فَتَعْلُوَهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ، عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ[١].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٩١)

﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا أيضًا **﴿إِذَا﴾**: ظرفٌ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها **﴿قِيلَ لَهُمْ﴾**: تحديدًا، إذا طلب مسلمٌ من اليهود، وأمثالهم من أهل

---

[١] مسند أحمد ج١١/٢٦٠(٦٦٧٧) قال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

الكتاب أنْ ﴿آَمِنُوا﴾: صدّقوا تصديقًا صحيحًا ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصول، بالذي ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: وهو القرآن الكريم، آخر ما نزل من الله ﷻ على محمدٍ ﷺ ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾: فقط نؤمن بالذي نزل على اليهود والنصارى؛ أي التوراة والإنجيل ﴿وَيَكْفُرُونَ﴾: أيضًا يُخفون، ويُنكرون ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصول، بالذي ﴿وَرَاءَهُ﴾: بمعنى غيره، هو القرآن الكريم، الذي نزل بعد كُتبهم، والتي حرّفوها ﴿وَهُوَ﴾: في اللغة يعني ضمير منفصل مرفوع للغائب المفرد المذكر؛ وهنا يشهد الله ﷻ أنّ القرآن الكريم هو ﴿الْحَقُّ﴾: هو الحكم المطابق للواقع ووصف به القرآن لاشتماله على الأحكام المطابقة للواقع ﴿مُصَدِّقًا لِمَا﴾: حرفٌ يُفيد بالذي حدث في الماضي، بالذي ﴿مَعَهُمْ﴾: همْ يعلمون أنّ القرآنَ الكريم يُصدّق ما نزل عليهم من قبل؛ قال ﷻ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة–١٤٦] ﴿قُلْ﴾: أمرٌ بالقول ﴿فَلِمَ﴾: حرفُ استفهام؛ بمعنى لماذا؟ ﴿تَقْتُلُونَ﴾: جاء الفعل المضارع بدلالاته، مع أنّ القتل حصل في الماضي، بقصد استحضار الحالة الفظيعة التي صنعوها وتشير أيضًا إلى استعدادهم للقتل مستقبلًا ﴿أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾: جاءت بصيغة المضارع؛ لأنّها قضيةٌ مستمرةٌ حتى بعد انقطاع الأنبياء؛ فهم أعداءُ المؤمنين الذين يتبعون أي نبيّ، وخاصّة خاتم الرسل محمد ﷺ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلُ﴾: أي لماذا قتلتم كثيرًا من الأنبياء، وهم الذين جاؤوا بتصديق التوراة التي معكم، وهي غيرُ منسوخةٍ، وتعلمون صدقهم؟ ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ﴾ تدّعون أنّكم ﴿مُؤْمِنِينَ﴾: بالله ﷻ، وكتبه، ورسله.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٩٢)

﴿وَلَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿جَاءَكُمْ مُوسَى﴾: يُذكّر القرآن الكريم اليهود لعنهم الله ﷻ، أنَّ الله ﷻ أرسل إليهم موسى عليه السلام ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة والمصاحبة ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: هي الآياتِ، والأدلّةِ، والبراهينِ القاطعةِ على صدق موسى عليه السلام، وهي: الطوفان، والجراد، والقُمّل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، وفرق البحر، وظلّ الغمام، والمَن، والسلوى، وفلق الحجر اثنتي عشرة عينًا، وغيرها ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التراخي والتباعد الزمني ﴿اتَّخَذْتُمُ﴾: جعلتم معبودكم ﴿الْعِجْلَ﴾: بعد ذلك عبدتم العجل، واتخذتموه إلهًا، وأطعتموه ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِهِ﴾: الضمير يعود على موسى عليه السلام: أي من بعد أنْ ذهب موسى لميقات ربّه، جاء في المعنى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ [الأعراف–١٤٨] ﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الحال للجمع بين

متعاطفين، هنا بين بيّنات موسى ﷺ، وبين اتخاذ العجل معبودًا ﴿أَنْتُمْ﴾: تحديدًا ﴿ظَالِمُونَ﴾: لقد ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل معبودًا.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٣)

﴿وَإِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن ﴿أَخَذْنَا﴾: واذكروا أيها اليهود حين أعطيتم ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾: عهدكم المؤيَّد بالإيمان بموسى ﷺ ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾: يوم رفع اللهُ ﷻ الجبل فوق رؤوسكم؛ تخويفًا لكم، وأمركم أنْ ﴿خُذُوا﴾: طبقوا بإيمان ﴿مَا﴾: الذي ﴿آتَيْنَاكُمْ﴾: هي تعاليم التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾: حرف باء السبب، كان عليكم بعد الإيمان التطبيق بجدٍ واجتهادٍ، وقد ذُكرت القصة في سورة [البقرة-٦٣]؛ حيث عدّد اللهُ ﷻ لهم جرائمهم ومخالفتهم لعهدهم الميثاق عندما قبلوه ثم خالفوه ﴿وَاسْمَعُوا﴾: أيضًا عليكم سماع وقبولٍ للتطبيق؛ وإلّا أنزلنا عليكم الجبل ﴿قَالُوا﴾: هم اليهود ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾: سمعنا بآذاننا، وعصينا بقلوبنا؛ فلم نفعل ما جئت به ﴿وَأُشْرِبُوا﴾: بمعنى تسرّب الماءُ إلى الشيء، مثل شرب الماء الذي يدخل الجسم، وينتشر في كلِّ الخلايا ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِ﴾: حرف "ب" السبب ﴿كُفْرِهِمْ﴾: تعمقت، وتعزّزت عبادةُ العجل، قال قتادة: أحبّوهُ إلى درجةِ أنّهُ خلُص إلى قلوبهم، وقال ﷺ: حبُّك الشيء يُعمي ويُصم[1]: يجعلك أعمى عن عيوب المحبوب، أصمّ عن سماعها حتى لا تبصر قبيح فعله لا تسمعُ فيه نهي ناصحٍ، بل ترى القبيح منه حسنًا، وتسمع منه الخنا قولًا جميلًا. عن عليّ ﷺ قال: فَعَمَدَ مُوسَى إِلَى الْعِجْلِ فَوَضَعَ عَلَيْهِ الْمَبَارِدَ فَبَرَدَهُ بِهَا وَهُوَ عَلَى شِفِّ نَهَرٍ، فَمَا شَرِبَ أَحَدٌ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ مِمَّنْ كَانَ يَعْبُدُ ذَلِكَ الْعِجْلَ إِلَّا اصْفَرَّ وَجْهُهُ مِثْلَ الذَّهَبِ، فَقَالُوا لِمُوسَى: مَا تَوْبَتُنَا؟ قَالَ يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا. فَأَخَذُوا السَّكَاكِينَ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَقْتُلُ أَبَاهُ وَأَخَاهُ وَلَا يُبَالِي مَنْ قَتَلَ حَتَّى قُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى مُرْهُمْ فَلْيَرْفَعُوا أَيْدِيَهُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لِمَنْ قُتِلَ وَتُبْتُ عَلَى مَنْ بَقِيَ[2] ﴿بِئْسَمَا﴾: فعلٌ جامدٌ للذمِّ وهو ذكر المساوئ وهو عكس المدح ﴿يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾: ذمّ اللهُ ﷻ ما أمرهم كُفرُهم، وما اعتمده اليهودُ في قديم الزمن وحديثه؛ بكفرهم بآيات الله ﷻ، ومخالفةِ الأنبياء، وكفرهم بمحمدٍ ﷺ، وهذا أشدُّ الذنوب وأكبرها ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: ينفي اللهُ ﷻ عنهم الإيمان، فاللهُ ﷻ يعلمُ ما في أنفسهم.

---

[1] سنن أبي داود ج٤٤٨/٧(٥١٣٠) بإسناده عن أبي الدرداء مرفوعًا. قال شعيب الأرناؤوط: صحيح موقوفًا، وهذا إسناد ضعيف. وقد رواه البيهقي في الجامع لشعب الإيمان ج١٩٦/٢(٤٠٨) بإسناده موقوفًا على أبي الدرداء.

[2] المستدرك على الصحيحين للحاكم ج٤١١/٢-٤١٢(٣٤٣٤) وقال صحيح على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي.

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآَخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤)

﴿قُلْ﴾: أمرٌ ربّانيّ يا محمد ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كَانَتْ لَكُمُ﴾: يا أيّها اليهود إذا ضمنتم أنّكم أصحابُ ﴿الدَّارُ الْآَخِرَةُ﴾: الجنّة يوم القيامة في مقابل الدار الأولى وهي النشأة ﴿عِنْدَ﴾: ظرف زمان وظرف مكان ﴿اللَّهِ خَالِصَةً﴾: لا يدخلها غيرُكم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ هنا لبيانِ وتمييزِ النوع، وتفيد هنا بداية الغاية المكانية ﴿دُونِ﴾: غير ﴿النَّاسِ﴾: من عموم البشر ﴿فَـ﴾: حرف رابط لجواب الشرط ﴿تَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: ادعو الله ﷻ أنْ يُميت الكاذبين، اسألوا الله ﷻ الموت، قال ابن عباس: لو تمنى اليهودُ الموتَ لماتوا، ولو تمنّوا الموت لشرق أحدُهم بريقه، أي اختنق من ريقه، ومات، وعن عبد الله ابن عباس: قال ﷺ: وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ، لَمَاتُوا، وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ مَالًا وَلَا أَهْلًا[1] ولقد زعم اليهودُ أنّهم أبناءُ اللهِ وأحباؤه قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة-١١١]، وقد دعاهم المسلمون إلى المباهلة، يكون: الدعاء على أكذب الطائفتين، منهم أو من المسلمين، فنكلوا وامتنعوا، كان كلُّ واحدٍ منهم يعلم أنّهم ظالمون، وفي قصّةٍ أخرى: دعا رسولُ الله ﷺ وفد نجران من النصارى بعد أنْ أقام الحُجّةَ عليهم في المُناظرة، فقال ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران-٦١]، وأخذ الكفّارُ يقول بعضُهم لبعضٍ: والله لئن باهلتم هذا النبي لا يبقى منكم عينٌ تطرُف، فعند ذلك جنحوا للسلم ودفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، اعترفوا في هذه الحادثة في لحظة الخوف بهذا النبي ﷺ. **التكليف:** كانت المُباهلةُ بالموت على الكاذبين لأنّهم يعرفون أنّهم إذا ماتوا على ضلالهم؛ فقدوا الحياة التي هي أغلى شيءٍ عندهم، وأنّهم يعلمون سوء المآل بعد الموت.

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٩٥)

﴿وَلَنْ﴾: حرفُ نفيٍ، لا ﴿يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾: لن يتمنوا الموت نهائيًا طوال حياتهم ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصول، بمعنى الذي ﴿قَدَّمَتْ﴾: ما ارتكبوا في الحياة الدنيا من كفرٍ، وتكذيبٍ، لرسلهم، ولرسالة محمد ﷺ، وتحريفِ كُتبهم، وبسبب جرائمهم ضدّ النّاس أجمعين ﴿أَيْدِيهِمْ﴾: فعلت جوارحُهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: لا يغيب عنه شيءٌ خافيًا أو ظاهرًا ﴿بِـ﴾: باء المصاحبة والصلة ﴿الظَّالِمِينَ﴾: هم الكافرون من اليهود وغيرهم، وبالرغم من كفرهم وضلالهم؛ إلّا أنّهم يعلمون أنّ محمدًا ﷺ

---

[1] مسند أحمد ج٤/٩٩(٢٢٢٥) قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

على حقٍ، وأنّهم على باطلٍ، وهم يُدركون أنّهم إذا تمنّوا الموت، ستكون الاستجابة؛ لأنّ وعد اللهُ ﷻ حق؛ فهم أحرصُ النّاسِ على حياةٍ، فالدنيا رأسُ مالهم، وهم على قناعةٍ أنّهم إذا ماتوا؛ فمصيرُهم إلى النّار، وهم أكثرُ من يعرف ما قدمت أيديهم من كفرٍ وظلمٍ لأنفسهم، ولذلك شهد اللهُ ﷻ وسجلّهُ عليهم.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦)

﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الحال في صفاتهم ﴿لَ﴾: حرف سبب ﴿تَجِدَنَّهُمْ﴾: بكل تأكيد أيّها النبي ستجد اليهود ﴿أَحْرَصَ النَّاسِ﴾: أشّد النَاسِ حرصًا ﴿عَلَى حَيَاةٍ﴾: جاءت بصيغةِ النكرة؛ التي تُفيد التحقير، أيّ حياةٍ؛ دنيئةٍ، حقيرةٍ، قذرةٍ، المهم ألّا يُصابوا بأذى، وهي تُفيد حرصهم الشديد على طول العمر؛ لعلمهم بسوء المآل، وبئس المصير بعد الموت؛ لأنّ الدنيا سجن المؤمن، وجنّة الكافر ﴿وَمِنَ﴾: وأيضًا بعض ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿أَشْرَكُوا﴾: هؤلاء الذين لا يؤمنون بنبيٍّ، ولا ببعثٍ، ولا نشورٍ، ولا حسابٍ ﴿يَوَدّ﴾: يرغب بشدّة ﴿أَحَدُهُمْ﴾: كلُ واحدٍ منهم ﴿لَوْ﴾: حرف يفيد الاستحالة ﴿يُعَمَّرُ﴾: أنْ يطولُ عمرهُ في الدنيا ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾: أطول مدّة ممكنة، وإنْ عاش وطال عمره ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿هُوَ﴾: في اللغة يعني ضمير منفصل مرفوع للغائب المفرد المذكر ﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾: إنّ طول العُمر لنْ يُبعده، ولنْ يُنجيه ولو قليلًا ﴿مِنَ﴾: جزءِ أو بعض ﴿الْعَذَابِ﴾: من عقاب الله ﷻ له؛ عذابًا في نار جهنّم خالدًا فيها ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يُعَمَّرَ﴾: مهما عمّر ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: والعمل يستلزم الدوام ولم يقل يفعل؛ لأنّ الفعل يحدث مرةً واحدةً، إنّ الله ﷻ يعلم طبيعة اليهود والنصارى والمنافقين علم الخالق لمخلوقاته، علمًا صادقًا؛ بما عملوا في الدنيا.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٩٧)

﴿قُلْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ لمحمدٍ ﷺ أنْ يقول ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿كَانَ﴾: من اليهود ﴿عَدُوًّا لِ﴾: حرف يفيد التخصيص ﴿جِبْرِيل﴾: فليمت غيظًا وقهرًا، إنّه المَلَكَ الكريم، الذي ينزل من السماء بأمر ربّه على محمدٍ ﷺ ﴿فَ﴾:حرف يفيد السبب ﴿إِنَّهُ﴾: حرفٌ يفيد تأكيد الفعل، أي جبريل ﵇ ﴿نَزَّلَهُ﴾: نزل بالقرآن وحيًّا من الله ﷻ ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾: مركز الوعي والإدراك ﴿بِإِذْنِ﴾: حرف "ب" هنا يفيد الاستعانة؛ بمعنى أمرِ وإرادة ﴿اللَّهِ﴾: إلى محمدٍ ﷺ ﴿مُصَدِّقًا﴾: مُحقًا ﴿لِمَا﴾: للذي ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: مؤكدًا على صدق الكُتب وصحتها، التي نزلت من قبل مثل

التوراة، والإنجيل ﴿وَهُدًى﴾: يدُلُّ، ويُرشدُ، ويقودُ إلى الصواب والرشاد؛ وإلى كلِّ خيرٍ للمؤمنين ﴿وَبُشْرَى﴾: ما يسرّ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: يحملُ البُشرى للمؤمنين بالجنّة تخصيصًا.

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٩٨)

يقول الطبري رحمه الله: إنّ العلماء أجمعوا بالتأويل أنّ هذه الآية نزلت جوابًا لليهود، إذ زعموا أنّ جبريل عدوّ لهم، وأنّ ميكائيل وليّ لهم، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: أَقْبَلَتْ يَهُودُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ، فَإِنْ أَنْبَأْتَنَا بِهِنَّ، عَرَفْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَاتَّبَعْنَاكَ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ مَا أَخَذَ إِسْرَائِيلُ عَلَى بَنِيهِ، إِذْ قَالُوا: اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ، قَالَ: هَاتُوا قَالُوا: أَخْبِرْنَا عَنْ عَلَامَةِ النَّبِيِّ، قَالَ: تَنَامُ عَيْنَاهُ، وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ قَالُوا: أَخْبِرْنَا كَيْفَ تُؤَنِّثُ الْمَرْأَةُ، وَكَيْفَ تُذْكِرُ؟ قَالَ: يَلْتَقِي الْمَاءَانِ، فَإِذَا عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَتْ، وَإِذَا عَلَا مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ آنَثَتْ قَالُوا: أَخْبِرْنَا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟ قَالَ: كَانَ يَشْتَكِي عِرْقَ النَّسَا، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلَائِمُهُ إِلا أَلْبَانَ كَذَا وَكَذَا - قَالَ أَبِي: قَالَ بَعْضُهُمْ: يَعْنِي الْإِبِلَ - فَحَرَّمَ لُحُومَهَا، قَالُوا: صَدَقْتَ، قَالُوا: أَخْبِرْنَا مَا هَذَا الرَّعْدُ؟ قَالَ: مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ بِيَدِهِ - أَوْ فِي يَدِهِ - مِخْرَاقٌ مِنْ نَارٍ، يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ، يَسُوقُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللهُ قَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ؟ قَالَ: صَوْتُهُ قَالُوا: صَدَقْتَ، إِنَّمَا بَقِيَتْ وَاحِدَةٌ وَهِيَ الَّتِي نُبَايِعُكَ إِنْ أَخْبَرْتَنَا بِهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلا لَهُ مَلَكٌ يَأْتِيهِ بِالْخَبَرِ، فَأَخْبِرْنَا مَنْ صَاحِبُكَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ عليه السلام، قَالُوا: جِبْرِيلُ ذَاكَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْحَرْبِ وَالْقِتَالِ وَالْعَذَابِ عَدُوُّنَا، لَوْ قُلْتَ: مِيكَائِيلَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالرَّحْمَةِ وَالنَّبَاتِ وَالْقَطْرِ، لَكَانَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ [البقرة-٩٧] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ[1]. ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس بني آدم ﴿كَانَ﴾: ولا يزال ﴿عَدُوًّا﴾: حرفُ تخصيص إذا كانت العداوةُ للهِ ﷻ فهي الكفرُ به ﷻ؛ ومخالفةً لأوامره ونواهيه، وإذا كانت للملائكةِ فهي إنكارُ فضلهم ووصفهم بما ينافي عصمتهم، وإذا كانت لرسل الله عليهم السلام، فهي التكذيبُ بهم؛ وتقصد إلحاق الأذى بهم ﴿لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾: جاء ذكر الملكين الكريمين عليهما السلام؛ دليل شرفهما وعلوّ مكانتهما عليهما السلام، تخصيصًا ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿اللَّهَ عَدُوٌّ﴾: ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الكَافِرِينَ﴾: قال ﷻ إن الله ذكر اسمه ﷻ، ولم يقل إنّه؛ بالضمير، وهذا يؤكد شدّة عداوته ﷻ للكافرين.

---

[1] مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/٢٨٥(٢٤٨٣) وقال شعيب الأرنؤوط وآخرون: حديث حسن دونَ قصة الرعد، فقد تفرد بها بُكيرُ بنُ شهاب، وهو لم يرو عنه سوى اثنين، وقال أبو حاتم: شيخ، وقال الذهبي في الميزان: عراقي صدوق، سوى قصة الرعد، فهي منكرة، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين غيرَ عبد الله بن الوليد العجلي، فقد روى له الترمذي والنسائي، وهو ثقة.

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: بَلَغَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلاَمٍ مَقْدَمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ المَدِينَةَ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلاَثٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ قَالَ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَى أَخْوَالِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «خَبَّرَنِي بِهِنَّ آنِفًا جِبْرِيلُ» قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ذَاكَ عَدُوُّ اليَهُودِ مِنَ المَلاَئِكَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى المَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَأَمَّا الشَّبَهُ فِي الوَلَدِ: فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشِيَ المَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاؤُهَا كَانَ الشَّبَهُ لَهَا قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ، إِنْ عَلِمُوا بِإِسْلاَمِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ بَهَتُونِي عِنْدَكَ، فَجَاءَتِ اليَهُودُ وَدَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ البَيْتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ» قَالُوا أَعْلَمُنَا، وَابْنُ أَعْلَمِنَا، وَأَخْيَرُنَا، وَابْنُ أَخْيَرِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ» قَالُوا: أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالُوا: شَرُّنَا، وَابْنُ شَرِّنَا، وَوَقَعُوا فِيهِ[1]، وقيل أيضًا في أسباب نزول الآية: كانت مناظرةٌ بين اليهود، وبين عمر بن الخطاب ﷺ في أمر النبي ﷺ، قال عمرُ بن الخطاب ﷺ: كُنْتُ أَشْهَدُ الْيَهُودَ يَوْمَ مَدَارِسِهِمْ فَأَعْجَبُ مِنَ التَّوْرَاةِ كَيْفَ تُصَدِّقُ الْقُرْآنَ، وَمِنَ الْقُرْآنِ كَيْفَ يُصَدِّقُ التَّوْرَاةَ، فَبَيْنَمَا أَنَا عِنْدَهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ قَالُوا: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، مَا مِنْ أَصْحَابِكَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْكَ، قُلْتُ: وَلِمَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: لِأَنَّكَ تَغْشَانَا وَتَأْتِينَا، فَقُلْتُ: إِنِّي آتِيكُمْ فَأَعْجَبُ مِنَ الْقُرْآنِ كَيْفَ يُصَدِّقُ التَّوْرَاةَ، وَمِنَ التَّوْرَاةِ كَيْفَ تُصَدِّقُ الْقُرْآنَ، قَالُوا: وَمَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ذَاكَ صَاحِبُكُمْ فَالْحَقْ بِهِ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ: «نَشَدْتُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَمَا اسْتَرْعَاكُمْ مِنْ حَقِّهِ وَمَا اسْتَوْدَعَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ» ؟ قَالَ: فَسَكَتُوا، فَقَالَ لَهُمْ عَالِمُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ: إِنَّهُ قَدْ غَلَّظَ عَلَيْكُمْ فَأَجِيبُوهُ، قَالُوا: فَأَنْتَ عَالِمُنَا وَكَبِيرُنَا فَأَجِبْهُ أَنْتَ، قَالَ: أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا بِمَا نَشَدْتَنَا فَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، قُلْتُ: وَيْحَكُمْ إِذًا هَلَكْتُمْ، قَالُوا: إِنَّا لَمْ نَهْلِكْ، قُلْتُ: كَيْفَ ذَلِكَ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَلَا تَتَّبِعُونَهُ وَلَا تُصَدِّقُونَهُ؟ قَالُوا: إِنَّ لَنَا عَدُوًّا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَسِلْمًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَإِنَّهُ قُرِنَ بِنُبُوَّتِهِ عَدُوُّنَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، قُلْتُ: وَمَنْ عَدُوُّكُمْ وَمَنْ سِلْمُكُمْ؟ قَالُوا: عَدُوُّنَا جِبْرِيلُ وَسِلْمُنَا مِيكَائِيلُ، ثُمَّ قَالُوا: إِنَّ جِبْرَائِيلَ مَلَكُ الْفَظَاظَةِ وَالْغِلْظَةِ وَالْإِعْسَارِ وَالتَّشْدِيدِ وَالْعَذَابِ وَنَحْوِ هَذَا، وَإِنَّ مِيكَائِيلَ مَلَكُ الرَّحْمَةِ وَالرَّأْفَةِ وَالتَّخْفِيفِ وَنَحْوِ هَذَا، قَالَ: قُلْتُ: وَمَا مَنْزِلَتُهُمَا مِنْ رَبِّهِمَا عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالُوا: أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِهِ وَالْآخَرُ عَنْ يَسَارِهِ، قَالَ: قُلْتُ: فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّهُمَا وَالَّذِي بَيْنَهُمَا لَعَدُوٌّ

---

[1] صحيح البخاري ٤/١٣٢(٣٣٢٩).

لِمَنْ عَادَاهُمَا وَسِلْمٌ لِمَنْ سَالَمَهُمَا، وَمَا يَنْبَغِي لِجَبْرَائِيلَ أَنْ يُسَالِمَ عَدُوَّ مِيكَائِيلَ، وَمَا يَنْبَغِي لِمِيكَائِيلَ أَنْ يُسَالِمَ عَدُوَّ جَبْرَائِيلَ، قَالَ: ثُمَّ قُمْتُ فَاتَّبَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَلَحِقْتُهُ وَهُوَ خَارِجٌ مِنْ خَوْخَةٍ لِبَنِي فُلَانٍ، فَقَالَ: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلَا أُقْرِئُكَ آيَاتٍ نَزَلْنَ قَبْلُ» ؟ فَقَرَأَ عَلَيَّ: ﴿**مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [البقرة-٩٧] حَتَّى قَرَأَ الْآيَاتِ[1]. إنّ الذين عادوا الله وملائكته؛ أي أنكروا، وكفروا، وعصوا الله، واتخذوا الملائكة أعداءً، وبخاصة جبريل وميكائيل؛ فوظيفة جبرائيل هي الهُدى؛ فقد كُلّف بالنزول على الأنبياء، أمّا وظيفة ميكائيل فهي الرزق؛ فهو مُوكلٌ بالنبات والغيث، أما وظيفة إسرافيل فهي النفخ في الصور يوم القيامة، وقد دعا الرسول ﷺ: في قيام الليل: «اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[2].

التكليف: إن جبريل عليه السلام، هو الروحُ الأمين، نزل بالذكر على قلبِ محمدٍ ﷺ بإذن الله ﷻ، ومن عادى رسولًا فقد عادى جميع الرسل، ومن آمن فعليه أنْ يُؤمن بجميع الرُسل، من الملائكة والبشر، ومن عادى جبريل فإنّه عادى الله، وأنّ جبرائيل لا ينزل من تلقاء نفسه، إنّما ينزل بأمر الله ﷻ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ[3].

﴿**وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ**﴾ **(٩٩)**

﴿**وَلَقَدْ**﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿**أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ**﴾: جاء اللفظ بصيغة الجمع لاسم الله ﷻ؛ ليُدلّل على عظم ما أنزل من ﴿**آيَاتٍ**﴾: أدلّة وبراهين وعلامات ﴿**بَيِّنَاتٍ**﴾: واضحاتٍ، آياتٍ دالّةٍ على صدق نبوةِ محمدٍ ﷺ، كشفت أسرار اليهود، وأخبرت عمّا أخفى آباؤهم الأولون عن شعبهم من دلائل النبوة، وكشفت ما حرّفوه وما بدّلوه، ﴿**وَمَا**﴾: حرف نفي ﴿**يَكْفُرُ بِهَا**﴾: ما يُنكرها ﴿**إِلَّا**﴾: حرف استثناء منقطع ﴿**الْفَاسِقُونَ**﴾: الذين خرجوا من دين الله ﷻ، أصل الفسوق هو من حبّة الرطب التي تنضج وتتفسخ قشرتها بسبب ضغط اللب على

---

[1] تاريخ المدينة لابن شبة /٢/٤٩(١٤٦٨) وقال أحمد شاكر بتحقيقه لتفسير الطبري ٢/٣٨٢ (وهذا مرسل أيضا... الشعبي: هو عامر بن شراحيل الهمداني، إمام جليل الشأن، من كبار التابعين. ولكنه لم يدرك عمر، كما قال ابن كثير. فإنه ولد سنة ١٩، أو سنة ٢٠). انظر الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي حكم عليها الحافظ ابن كثير في تفسيره (ص:٤٤). وانظر أنيس الساري تخريج أحاديث فتح الباري /٢/١٣٩٥. قال ابن يَعقوب البصارة: هو مرسل رواته ثقات وقال الحافظ: هذا حديث مرسل صحيح الإسناد، وقال البوصيري: رواه إسحاق بن راهويه مُرسلا بسند صحيح مختصر الإتحاف ٨/ ٣٥٠.

[2] صحيح مسلم /١/٥٣٤(٧٧٠).

[3] صحيح البخاري /٨/١٠٥(٦٥٠٢).

القشرة فيقال فسقت الرطبة؛ فاستعير المعنى من الناحية العقدية ليشير إلى الإنسان الذي يخرج عن أمر ربّه ﷻ..

﴿أَو كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٠)

﴿أَو﴾: حرفُ عطفٍ يُفيد التسوية بين أمرين ﴿كُلَّمَا﴾: حرفٌ يُفيد التكرار والتعميم في كلّ حالٍ أو حادثة ﴿عَاهَدُوا﴾: قطع اليهود ﴿عَهْدًا﴾: قطعوا على أنفسهم عهدًا، ومنه الإيمان بما أخبرت به التوراة من صدق نبوة محمد ﷺ ﴿نَبَذَهُ﴾: تعني الطرح والإلقاء، ويسمى اليتيم واللقيط منبوذًا: مهملًا ومتروكًا، وسمي النبيذ: لأنّه يتمّ ترك التمر والزبيب في الماء حتى يخمر، ولقد أعقب نقض اليهود عهود الرسل، عليهم السلام؛ التكذيب بكلِّ مبعوثٍ إليهم، وللنّاس كافّة، وقد كان في كتبهم صفات الأنبياء وأخبارهم ويشهد بذلك القرآن الكريم ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف-١٥٧] ﴿فَرِيقٌ﴾: مجموعة ﴿مِنْهُمْ﴾: بعضهم ﴿بَلْ﴾: حرف عطف بمعنى لكن ينفي ما قبله؛ ويؤكد ما بعده للإثبات ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾: غالبيةُ القوم، وغالبيةُ الأمم ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: إنّهم يكفرون بالله ﷻ، ورسله، وكُتبه، واليوم الآخر.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١)

﴿وَلَمَّا﴾: اسمُ توكيد ﴿جَاءَهُمْ﴾: بُعث في اليهود ﴿رَسُولٌ مِنْ﴾: حرف جرّ يُفيد ابتداء الغاية المكانية، أي المصدر ﴿عِنْدِ﴾: ظرفُ زمانٍ وظرفُ مكانٍ ﴿اللَّهِ مُصَدِّقٌ﴾: متوافقٌ، ومؤكدًا ﴿لِمَا مَعَهُمْ﴾: لما وجدوه في التوراة ﴿نَبَذَ﴾: ترك وتجاهل ورفض وأهمل وأبعد ﴿فَرِيقٌ مِنَ﴾: بعض أو جزء ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: وهم اليهود(١)، ونتيجة نبذهم كُتبَهم، ونقضهم ميثاقهم، وادعائهم عدم علمهم بها؛ أقبلوا على تعلّم السحر، واتبعوا السحرة، وحاولوا الكيد لرسول الله ﷺ، لحديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سُحِرَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا يَفْعَلُهُ, حَتَّى كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ دَعَا, وَدَعَا ثُمَّ قَالَ: أَشَعَرْتِ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيمَا فِيهِ شِفَائِي؟ أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ, فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلآخَرِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ؟ قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ, قَالَ: فِيمَا ذَا؟ قَالَ: فِي مُشُطٍ وَمُشَاقَةٍ وَجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ، قَالَ فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ لِعَائِشَةَ حِينَ رَجَعَ: نَخْلُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ، فَقُلْتُ:

(١) انظر تفسير سورة [البقرة-١٠٠].

اسْتَخْرَجْتَهُ؟ فَقَالَ: لا أَمَّا أَنَا فَقَدْ شَفَانِ اللَّهُ وَخَشِيتُ أَنْ يُثِيرَ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا, ثُمَّ دُفِنَتْ الْبِئْرُ[1] ﴿كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ﴾: خلف؛ تفيد الإنكار ﴿ظُهُورِهِمْ﴾: نبذوا التوراة أهملوها وأخفوها، جاء لفظ "**ظهر**" ومشتقاته في القرآن الكريم على ثمانية أوجه، هنا بمعنى التجاهل ﴿كَأَنَّهُمْ﴾: الكاف حرفٌ يُفيد التشبيه ويفيد الشك والتقريب ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَعْلَمُونَ﴾: لا يعرفون، ولا يُدركون، لقد كانوا يعلمون في كتابهم، ولكنّهم كتموه وجحدوه.

التكليف: هل كان نبذُ الكتاب المقصود به نبذ كتابهم؟ وهو التوراة، أمْ كان النبذُ للقرآن الكريم؟ أم للكتابين؟ والراجح أنّه كان للكتابين، والله أعلم.

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٢)

﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الاستئناف ﴿اتَّبَعُوا﴾: هم اليهود؛ ساروا على منهج ﴿مَا﴾: الذي من جنس غير العاقل ﴿تَتْلُوا﴾: تروي ﴿الشَّيَاطِينُ﴾: تقرأ أو تكذب الشياطينُ من السحر، انقادوا وعملوا بما تقوله لهم الشياطين ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾: على عهد سليمان عليه السلام. إِنَّ الشَّيَاطِينَ كَانُوا يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ، وَكَانَ أَحَدُهُمْ يَجِيءُ بِكَلِمَةِ حَقٍّ قَدْ سَمِعَهَا النَّاسُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا سَبْعِينَ كِذْبَةً، فَيُشْرِبَهَا قُلُوبَ النَّاسِ، فَأَطْلَعَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ فَأَخَذَهَا فَدَفَنَهَا تَحْتَ الْكُرْسِيِّ، فَلَمَّا مَاتَ سُلَيْمَانُ قَامَ شَيْطَانٌ بِالطَّرِيقِ، فَقَالَ: أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى كَنْزِ سُلَيْمَانَ الَّذِي لاَ كَنْزَ لأَحَدٍ مِثْلُ كَنْزِهِ الْمُمْتَنِعِ؟ قَالُوا: نَعَمْ فَأَخْرَجُوهُ فَإِذَا هُوَ سِحْرٌ فَتَنَاسَخَتْهَا الأُمَمُ فَبَقَايَاهَا مِمَّا يَتَحَدَّثُ بِهِ أَهْلُ الْعِرَاقِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عُذْرَ سُلَيْمَانَ، فَقَالَ: **﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾**[2]، ﴿وَمَا﴾: أيضاً نفي ﴿كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾: ما غطّى، وما حجب سليمانُ عليه السلام، الحقائق الإيمانية ﴿وَلَكِنَّ﴾: حرف استدراك ﴿الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾: وأدان ﷻ اليهود وعلماءَهم لأنّهم كانوا ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾: والسحرُ ما هو لطيفٌ وخفيّ لم يظهر سببُه، يقول ابن عباس: لم يُنزّل الله ﷻ على الملكين السحر[3]، المعنى يكون ما كفر سليمانُ ولا أنزل اللهُ السحر على الملكين، ولكنّ الشياطين كفروا ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾: يُعلّمون

---

[1] صحيح البخاري /٤/١٢٢(٣٢٦٨)

[2] المستدرك للحاكم – دار المعرفة (٢/ ٢٦٥)

[3] تفسير السمرقندي في بحر العلوم/ ١/٧٩.

النّاسَ السحر ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾: حرف باء الظرفية، قيل هما ملكان نزلا في بابل يُعلمان السحر كنوعٍ من اختبار النّاس؛ لأنّ اليهود زعموا أنّ الذي نزل من السحر على سليمان عليه السلام بواسطة جبريل وميكائيل ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ﴾: جنس العاقل ﴿أَحَدٍ حَتَّى﴾: حرفٌ يُفيد سبب ما سبقها ﴿يَقُولَا إِنَّمَا﴾: حرفُ تحديد ﴿نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾: ابتلاءٌ واختبارٌ ﴿فَلَا﴾: أداة نهي تفيد طلب عدم الفعل ﴿تَكْفُرْ﴾: اختلف العلماءُ في هذا، والأرجح أنّ الفتنة هي الابتلاء، كانوا يطلبون ألّا يكفر أحدٌ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَالْحَسَنِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ أَتَى كَاهِنًا، أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ[1].

حكم شرعي: قال النووي في شرح مسلم: عملُ السحر حرامٌ وهو من الكبائر بالإجماع قال: وقد يكون كفرًا وقد لا يكون كفرًا بل معصية كبيرة فإنْ كان فيه قولٌ أو فعلٌ يقتضي الكفر كفر وإلّا فلا، وقال مالك: الساحرُ كافرٌ يُقتل بالسحر ولا يُستتاب ولا تُقبل توبته بل يتحتم قتله، وبقول مالك قال أحمد بن حنبل وهو مروي عن جماعة من الصحابة والتابعين، وقد استدلوا بحديث جُنْدُبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ»[2] فدلّ ذلك على أنّ الساحر يجب قتلهُ ولا يُستتاب؛ لأنّ فساده عظيم، ولأنّه يختفي في الغالب بسحره فيدعي التوبة ولكن لا يصدقُ فيها؛ لأن سحره يخفى على كثير من النّاس؛ ولأنّ مضرته عظيمة فوجب قتله حماية للمجتمع من فساده وضرره، وإنْ كان صادقًا في التوبة فأمره إلى الله يقبل الله توبته. قال الإمام أحمد –رحمه الله–: ثبت قتل الساحر بغير استتابة عن ثلاثة من أصحاب النبي يعني: عمر بن الخطاب، وابنته حفصة، وجندب الخير الأزدي.

والخلاصة: أنّ هذا هو الصواب، أنّ الساحر إذا ثبت سحرهُ وهكذا الساحرة كلًا منهما يُقتل من دون استتابة، حسمًا لمادة خطره وضرره، وعملًا بما قضى الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

أنواع السحر: السحرُ أنواع عدّة؛ قال أبو عبد الله الرازي: إنّ أنواع السحر ثمانية:

---

[1] مسند الإمام أحمد /١٥/٣٣١ (٩٥٣٦) وقال شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، وآخرون حديث حسن، رجاله ثقات رجال الصحيح، لكن خلاس –وهو ابن عمرو الهجري– لم يسمع من أبي هريرة. وعوف: هو ابن أبي جميلة الأعرابي.

[2] سنن الترمذي / ٤/٦٠(١٤٦٠) قال ابو عيسى هذا حديث لا نعرفه إلا مرفوعا من هذا الوجه و إسمعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث و إسماعيل بن مسلم العبدي البصري قال وكيع هو ثقة ويروي عن الحسن أيضا والصحيح عن جندب موقوف والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم وهو قول مالك بن أنس وقال الشافعي إنما يقتل الساحر إذا كان يعمل في سحره ما يبلغ به الكفر فإذا عمل عملا دون الكفر فلم نر عليه قتلا وحكم عليه الألباني: ضعيف، وأخرجه الحاكم في المستدرك/ ٤/٣٦٠(٨٠٧٣) هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الإِسْنَادِ وَإِنَّ كَانَ الشَّيْخَانِ تَرَكَا حَدِيثَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُسْلِمٍ فَإِنَّهُ غَرِيبٌ صَحِيحٌ وَلَهُ شَاهِدٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا جَمِيعًا فِي ضِدِّ هَذَا.

سحرُ الكذّابين: الذين عبدوا الكواكب السبع السيارة، واعتقدوا أنّها التي تُدبر أمر العالم، وتأتي بالخير والشرّ، وفيهم بعث اللهُ ﷻ إبراهيم عليه السلام.

وسحرُ أصحاب الأوهام: كالذي يعيش على جسرٍ ممدودٍ على الأرض، ولا يمشي عليه إذا كان فوق نهر، وفي هذا سحر العين، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا»[1] ومعناه أنّ الأشياء كلها بقدر الله ﷻ، ولا تقع إلّا على حسب ما قدرها الله ﷻ وسبق بها علمُه فلا يقع ضررُ العين ولا غيره من الخير والشر إلّا بقدر الله ﷻ وفيه صحةُ أمر العين وإنّها قوية الضرر. وسحر الاستعانة بالأرواح الأرضية، وهم الجنّ: منهم مؤمنون ومنهم كُفّار، وهم الشياطين. وسحرُ التخيلات: وهنا البصر قد يخطئ، ويشتغلُ بشيءٍ مُعينٍ دون غيرهِ.

وسحر الشعوذة: حيث يُظهر المشعوذُ للنّاس عمل شيءٍ يُذهلهم، ثم يعمل شيئًا آخر؛ فيبدو أنّهُ يعمل أعمالًا خارقة، وهذا النوعُ الذي استخدمه سحرةُ فرعون، قال ﷻ: ﴿**فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ**﴾ [الأعراف-١١٦]، وكذلك قوله ﷻ: ﴿**يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى**﴾ [طه-٦٦]، وهي في الحقيقة لا تتحرك.

- وسحر الأعمال العجيبة: بحيث تُركّب آلاتٌ مع بعضها على نسبٍ هندسية، وقد قال بعضُهم إنّ سحرة فرعون حشوا الحبال والعصي بالزئبق؛ فصارت تتلوى بسبب ثقل وزن ما فيها من معدنٍ، فبدت أنّها تتحرك. ولكن ولم يصل النّاسُ في عهد فرعون إلى اكتشاف الزئبق.
- وسحرُ الاستعانة بخواص الأدوية: كاستخدام المغناطيس.
- وسحرُ تعلق القلب: حيث يدّعى الساحرُ أنّه عرف اسم الله الأعظم، وأنّ الجنّ يُطيعونه، ويقولون عن الساحر أنّه من أولياءِ اللهِ الصالحين، أو من أهل الحظوة، وينطلي ذلك على ضعيف الإيمان؛ فيتعلق بالساحر، وزبائن هذا النوع هم من أصحاب القلوب الضعيفة.

حكم من يتعلم السحر: فإنّ تعلّم السحر وتعليمه حرام، قال الإمام ابن قدامة: (لا نعلم فيه خلافًا بين أهل العلم) وإنْ لم يُعمل به. وإنّما حدث الخلاف في تكفيره:

فعند الحنفية: أنّه إنْ اعتقد أنّ الشياطين تفعل له ما يشاء كفر، وإنْ اعتقد أنّه تخييل لم يكفر. وقال الشافعي: إنْ اعتقد ما يوجب الكفر مثل التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنّها تفعل ما يلتمسه منها، أو اعتقد حِلَّ السحر كُفِّر، لأن القرآن نطق بتحريمه، وثبت بالنقل المتواتر،

---

[1] صحيح مسلم /١٧١٩/٤(٢١٨٨).

والإجماع عليه، وإن لم يعتقد ذلك فسّق ولم يكفَّر. وقال الحنابلة والمالكية: يكفَّر الساحرُ بتعلمه السحر وفعله، سواءً اعتقد تحريمه أو إباحته.

﴿فَ﴾: حرف جواب ﴿يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾: حرفٌ يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿مَا﴾: الذي من جنس غير العاقل ﴿يُفَرِّقُونَ بِهِ﴾: بالسحر ﴿بَيْنَ الْمَرْءِ﴾: الرجل ﴿وَزَوْجِهِ﴾: زوجته، عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ[1]، ﴿وَمَا﴾: حرفُ نفيٍ ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع الغائب المذكر والمؤنث هنا يخص الشياطين تحديدًا ﴿بِضَارِّينَ بِهِ﴾: حرف "ب" هنا يفيد هنا بسبب السحر ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾: واحدٍ من البشر ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿بِ﴾: حرف باء الاستعانة ﴿إِذْنِ اللَّهِ﴾: قال سفيان الثوري: إذن اللهِ، أي قدّر اللهُ ﷻ، وقال الحسن البصري: بمعنى إرادة الله؛ فإنْ شاء اللهُ سلّطهم عليه، ومن لم يشأ له لم يسلطهم عليه ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا﴾: الذي ﴿يَضُرُّهُمْ﴾: يسبب لهم السوء والشر والضرر ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يَنْفَعُهُمْ﴾: الضررُ هنا في الدين، ولا أيُّ نفعٍ ماديٍ يوازي هذا الضرر ﴿وَلَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿عَلِمُوا﴾: أيقنوا، أي اليهود ﴿لَمَنِ﴾: للذي ﴿اشْتَرَاهُ﴾: الذين اعتمدوا السحر بدل الإيمان، وبدل طاعة الرسول ﷺ ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿لَهُ﴾: لمن آمن بالسحر ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾: جاء لفظ الآخرة في القرآن الكريم على خمسة أوجه، وجاء هنا بمعنى الجنّة، وكذلك في قوله ﷻ ﴿وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف-٣٥]، وبقوله أيضا ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص-٨٣]، وبقوله ﷻ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى-٢٠]، وبقوله أيضًا ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر-٩] ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا جزءًا أو بعضًا ﴿خَلَاقٍ﴾: من نصيب ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لَ﴾: حرف توكيد وسببٍ ﴿بِئْسَ﴾: فعلٌ جامدٌ للذّمِ، وهو ذكر المساوئ وهو عكس المدح ﴿مَا﴾: الذي ﴿شَرَوْا﴾: باعوا ﴿بِهِ﴾

[1] صحيح مسلم /٤/٢١٦٧(٢٨١٣)

﴿أَنْفُسَهُمْ﴾: إنّ أسوأ البديل هو السحر بدل الإيمان ﴿لَوْ﴾: حرفٌ يُفيد الاستحالة ﴿كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: فائدة ما يُوعظون به باتباعه ﷺ.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٣)

﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يفيد الاستحالة ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿آَمَنُوا﴾: بالله ﷻ ورسله ﴿وَاتَّقَوْا﴾: تجنبوا المحارم؛ وأهمها السحر ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾: ثوابٌ وجزاءٌ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ يفيد ابتداء الغاية، هنا في المصدر ﴿عِنْدِ﴾: ظرفُ زمانٍ وظرفُ مكانٍ ﴿اللَّهِ﴾: ثواب الله ﷻ ﴿خَيْرٌ﴾: كل ما ينفعهم من الحسن والأفضل ﴿لَوْ﴾: يفيد المستحيل أنّهم ﴿كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: الحقيقة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٠٤)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿آَمَنُوا﴾: خطابٌ من اللهِ ﷻ للمؤمنين، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود ﷺ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَارْعَهَا سَمْعَكَ؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ[1]. ﴿لَا﴾: حرف نهي يحرّم ﴿تَقُولُوا﴾: مُحرّمٌ عليكم القول ﴿رَاعِنَا﴾: تقالُ في اللغة بمعنى أمهلنا حتى نعي ما تقول. نهى اللهُ جلّ في علاه أنْ يقول راعنا وذلك لسببين، الأول: قالوها من باب التقليل والتصغير من شأن الرسول ﷺ بالمدّ عن النطق راعينا؛ أي أجيرًا عندنا، والثاني: قالوا وقصدوا بها الرعونة، عند النطق راعنًا؛ أي: أرعن، وهذه إساءةٌ للرسول ﷺ ﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الاستئناف ﴿قُولُوا انْظُرْنَا﴾: خاطب الحقُّ جلّ وعلا خلقه بأنْ تُستبدل كلمةٌ مكان كلمةٍ وهي أنظرنا التي لا تؤدي إساءةً للرسول ﷺ، ولذلك قال بعدها ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أيضًا أطيعوا الله ﷻ في ترك خطاب النبي ﷺ بذلك اللفظ، وخاطبوه بما أُمرتم به أنظرنا، انتظرنا حتى نفهم منك ما تقول واصبر علينا ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: تخصيصًا لمن يُحرّف الكلمةَ عن معناها؛ بقصد الإساءة؛ لأنّهُ كافرٌ، فقد كانوا يقولون: السَّام عليكم. أي الموت لكم بدلًا من السلام. عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ اليَهُودَ، دَخَلُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ، فَلَعَنْتُهُمْ، فَقَالَ: «مَا لَكِ» قُلْتُ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «فَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ»[2].

التكليف: نهى الله ﷻ المسلمين عن التشبه بالكافرين بالقول، والعمل، واللباس، والأعياد، والعبادة، ونهى المؤمنين أنْ يقولوا لنبيّهم ﷺ راعنا؛ ونهى التشبه باليهود والنصارى.

---

[1] الزهد لأحمد بن حنبل (١/ ٢٩٢)

[2] صحيح البخاري (٤/ ٤٤)

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (١٠٥)

﴿مَا﴾: حرفُ نفي يُفيد هنا شدّة عداوة الكُفار للمسلمين حيث لا يودون نزول الخير عليهم ﴿يَوَدُّ﴾: يحب؛ بمعنى لا يرغب ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا مِنْ﴾: بعضهم من الذين كفروا، وبعض منهم بقوا على إيمانهم ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: من اليهود والنصارى ﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الحال ﴿لَا﴾: لا يرغب أحدٌ من ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾: من أمثال الشيوعيين، والعلمانيين، ومن على شاكلتهم ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾: أنْ يأتيكم من الله ﷻ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية ﴿خَيْرٍ﴾: ولو قليل، جاءت كلمةُ الخير في القرآن على ثمانية أوجه، هنا بمعنى الإسلام، وكذلك في قوله ﷻ ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ [ق-٢٥] ﴿مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد ابتداء الغاية، هنا من مصدر الخير ﴿رَبِّكُمْ﴾: والربُّ هو المنشئ للكون من حالٍ إلى حالٍ، وهو المربي إلى حدّ التمام؛ فهو ﷻ مالك أمركم كلّه ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ﴾: يُحددُ ويختارُ ﴿بِرَحْمَتِهِ﴾: بعطفه ﴿مَنْ﴾: الذي من بني آدم ﴿يَشَاءُ﴾: يريد ويختار ﴿وَاللَّهُ ذُو﴾: صاحب ﴿الْفَضْلِ﴾: الزيادة في الخير ﴿الْعَظِيمِ﴾: البالغ في الكثرة.

التكليف: هذه من آيات المفاصلة، وهي غايةٌ في الأهمية في هذا الزمان، الذي اختلطت فيه المفاهيم تحت شعاراتٍ كاذبةٍ، مثل الوحدة الوطنية، والسلم الاجتماعي، والمشروع الوطني، والشرعية الدولية وغيرها.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٦)

﴿مَا﴾: حرفُ نفي ﴿نَنْسَخْ﴾: معنى "**النسخ**" لغةً: نسخُ الكتاب؛ بمعنى نقله من نسخةٍ إلى أخرى، وهنا يأتي معنى نسخ الحكم إلى غيره، نسخ الحكم، أو نسخ الخط، والنسخ شرعًا يعني: رفع الحكم بدليلٍ شرعيٍ آخرٍ، قال ابن عباس: معناها ما نُبدّل من آيةٍ، وقال مجاهد: ما نمحو، وقيل ما ننقل من حكمِ آيةٍ إلى غيره؛ فنبدّله ونغيّره، مثل تحويل الحلالِ حرامًا، أو الحرام حلالًا، والمباحِ محظورًا، والمحظورِ مباحًا، لا يكون ذلك إلّا في الأمر، والنهي، والحظر، والإطلاق، والمنع، والإباحة، وهدفُ النسخ هو نقل الإنسان إلى الحالةِ الأكمل، علمًا أنّه لا ناسخ ولا منسوخ في الأخبار؛ لأنّها وقائع: فقد نقلها الرسول ﷺ صادقًا، وأنّ الأحكام الثابتة صالحة لكلّ زمانٍ، ومكانٍ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعضًا أو جزءًا ﴿آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾: تُقرأ بقراءتين، نُنسها من النسيان؛ الذي هو ضدّ الذكر أي نمحُها من القلوب، فالنسيان

بمعنى الذهاب من الذاكرة وهو مروي عن قتادة. وقيل: من النسيان بمعنى الترك على حدّ قوله ﷻ: ﴿**نَسُواْ الله فَنَسِيَهُمْ**﴾[التوبة-٦٧] أي تركوا أمره فتركهم في العذاب، وهو مرويّ عن ابن عباس. وحكى الأزهري: نُنْسها: أي نأمرُ بتركها، يقال: أنسيتُه الشيء أي أمرتُ بتركه، ونسيتُه تركته، وأمّا قراءة (نَنْسَأها) بالهمز، فهو من النسأ بمعنى التأخير، ومنه قوله ﷻ: ﴿**إِنَّمَا النسيء زِيَادَةٌ فِي الكفر**﴾ [التوبة-٣٧] ومنه سمي بيع التأخير إلى الأجل نسيئة.

قال الألوسي: وقرئ (ننسأها) وأصلُها من نسأ بمعنى أخّر، والمعنى نؤخرها في اللوح المحفوظ فلا ننزلها، أو نُبعدها عن الذهن بحيث لا يتذكر معناها ولا لفظها، وهو معنى: نُنْسها فتّتحد القراءتان ﴿**نَأْتِ**﴾: نشرّع ﴿**بِخَيْرٍ**﴾: أكثر نفعًا ﴿**مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾: أي خيرِ الحُكمِ في مصلحة المكلّفين، قال ابن عباس: خيرٌ لكم في المنفعة وأرفقُ بكم، وقال السدي: نأتي بخيرٍ من الذي نسخناه، أو مثل الذي تركناه، وبعد الحديث عن النسخ تأتي الكلمات التي تؤكد على المعاني التالية: إنّ الله ﷻ هو المُتصرف في عباده، وفي كلِّ الخلق، له الأمرُ كلُّه، هو ﷻ الذي يُحلُّ لهم ما يشاء، ويُحرّمُ ما يشاء، يُشرّعُ وينسخ، ﷻ، يختبرُ عباده بالنسخ، فالطاعة كلّ الطاعة، وهنا ردٌّ على ادعاءات اليهود أنّه لا يوجد نسخٌ في أحكام التوراة؛ فلقد جاء النسخ في كتب الله ﷻ الأولى وفي الشرائع الماضية، والأمثلة: أحلّ الله ﷻ لآدم ﷺ زواج أبنائه من بناته، ثم حرّم ذلك، وأحلّ الله ﷻ لـ نوحٍ ﷺ أكل لحوم جميع الحيوانات، ثم نُسخ حلالُ بعضها، وكان نكاحُ الأختين مُباحًا للنبي يعقوب وبنيه، ثم حُرّم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها، وأمر اللهُ ﷻ إبراهيم ﷺ بذبح ولده، ثم نسخهُ قبل الفعل ﴿**أَلَمْ**﴾: أداةُ استفهامٍ؛ بهدف الإنكار التوبيخي ﴿**تَعْلَمْ**﴾: ألم تتيقن ﴿**أَنَّ**﴾: حرفُ تأكيد ونفي الإنكار؛ إنّ النسخ من مقدور الله ﷻ، وإنّ إنكاره إنكارٌ للقدرة الربانيّة ﴿**اللَّهَ عَلَى كُلِّ**﴾ تفيد العموم ﴿**شَيْءٍ**﴾: الأشياء جاءت بصيغة النكرة لتؤكد عموم المخلوقات ﴿**قَدِيرٌ**﴾: يفعل ما يشاء.

التكليف: حِكمةُ النسخِ متعددةٌ؛ منها: التخفيف والتيسير، ومراعاة مصالح العباد، والتطور في التشريع، وتهيئة المكلفين بالاستعداد لقبول التحوّل، وتوصيف الإخبار بالشكر وللوصول إلى الحالة الأكمل.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٠٧)

﴿**أَلَمْ**﴾: أداةُ استفهام، ولأنّ الاستفهام خرج عن معناه الحقيقي؛ لأنّه من الله ﷻ، والله وسع كلّ شيءٍ علمًا، فهو يفيد هنا التقرير والتثبيت؛ لأنّ أداةَ الهمزةِ دخلت على نفي لم وبدخولها على

النفي أفادت الإنكار، والإنكار نفي، فلما دخل النفي على نفيٍ مثلهِ أفاد الإثبات، ولذلك يقولون نفي النفي إثبات ﴿تَعْلَمْ﴾: قد علمت أيها النبي ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ لَه﴾: حرف تخصيص وتمليك ﴿مُلْكُ﴾: هو المالك الحق ﴿السَّمَوَاتِ﴾: كلُّ ما علا الأرض وأحاط بها ﴿وَ﴾: أيضًا له ملك ﴿الْأَرْضِ﴾: وما فيهن؛ يحكم كيف شاء، وبما يريد؛ يُحلُّ ويحرّمُ ما يشاء ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿لَكُمْ﴾: ليس لكم على الإطلاق ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: غير الله ﷻ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعض ﴿وَلِيٍّ﴾: حبيب ومؤيد ونصير ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿نَصِيرٍ﴾: مُعينٌ، وناصرٌ، ومؤيدٌ.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (١٠٨)

﴿أَمْ﴾: حرفُ استفهامٍ بمعنى هل، ولكنّها هنا بمعنى بل، وهي تُفيد الإنكار والتوبيخ ﴿تُرِيدُونَ﴾: الغرض منها الاستنكار؛ بمعنى ليس من شأنكم، ولا بإرادتكم ﴿أَنْ﴾: حرف توكيد القول ﴿تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾: أيّها المؤمنون بمحمدٍ ﷺ تسألونه من بابِ التعنت والاعتراض، ولقد سألوا أنْ يروا الله ﷻ جهرةً، فَسَأَلَتْ قُرَيْشٌ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُ الصَّفَا ذَهَبًا، قَالَ: «نَعَمْ، وَهُوَ لَكُمْ كَمَائِدَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنْ كَفَرْتُمْ». فَأَبَوْا وَرَجَعُوا[1]، ﴿كَمَا﴾: مثلما ﴿سُئِلَ مُوسَى﴾: من اليهود ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، ويُفيد هنا ابتداء الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلُ﴾: قبل بعثة محمدٍ ﷺ عندما جاءهم برسالة الله، وآياته ﷻ، ولقد نهى اللهُ ﷻ رسوله ﷺ عن مسائل قبل نزولها؛ خشية أنْ تُحرّم، وقيل عدم السؤال عن التفاصيل، أو قبل أنْ تحدث؛ قال ﷻ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ [المائدة–١٠١]، وقالﷺ: إِنَّ أَعْظَمَ المُسْلِمِينَ جُرْمًا، مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ[2]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[3]، وعَنِ المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ: عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ، وَوَأْدَ البَنَاتِ، وَمَنَعَ وَهَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ المَالِ[4]، وعَنْ

---

[1] تفسير الطبري /٢/ ٤١٠. وقال صاحب كتاب موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين/١/٢١٤ وأخرج الطبري بسنده الصحيح.

[2] صحيح البخاري /٩/٩٥(٧٢٨٩).

[3] صحيح البخاري /٩/٩٤(٧٢٨٨)

[4] صحيح البخاري /٩/٩٥(٧٢٩٢). وصحيح مسلم /٣/١٣٤١(٥٩٣)

أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا»، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ، ثُمَّ قَالَ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»[1]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا رَأَيْتُ قَوْمًا خَيْرًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَا سَأَلُوهُ إِلَّا عَنْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ مَسْأَلَةً حَتَّى قُبِضَ ﷺ كُلُّهُنَّ فِي الْقُرْآنِ ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ**﴾ [البقرة-٢٢٢] ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ**﴾ [البقرة-٢١٧]، ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى**﴾ [البقرة-٢٢٠] قَالَ: مَا كَانُوا يَسْأَلُونَ إِلَّا عَمَّا يَنْفَعُهُمْ[2]. ﴿**وَمَنْ**﴾: أيضاً الذي من جنس العاقل ﴿**يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ**﴾: الذي خرج عن الطريق السليم إلى الجهل والضلال ﴿**بِ**﴾: حرف باء السببية ﴿**الْإِيمَانِ**﴾: التصديق الكامل باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ واليوم الآخرِ والقضاءِ والقدر، أو من يتبدل الشدّة بالرخاء ﴿**فَقَدْ**﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿**ضَلَّ**﴾: تاه وبعُد عن الصواب ﴿**سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾: قصد الطريق ووسطه، والسواء هنا بمعنى العدل، وقد جاء اللفظ في ستّةِ أوجهٍ، بمعنى وسط الجحيم في قوله ﷻ ﴿**فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ**﴾ [الصافات-٥٥]، وجاء بمعنى الأمر الواضح في قوله ﷻ ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾ [الأنفال-٥٨]، وجاء بمعنى الشرع في قوله ﷻ ﴿**وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا**﴾ [النساء-٨٩]، وجاء بمعنى الحج في قوله ﷻ ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الحج-٢٥]، والقصد في قوله ﷻ ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾ [المائدة-٧٧]، وبمعنى تفسير قراءته ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [البقرة-٦].

التكليف: إنّ فضل هذا الدين العظيم أنّه لا يُكلّفُ نفسًا إلّا وُسعها، ومن فضل الله ﷻ على المسلمين، كفّارات الذنوب: الصلوات الخمس من الجمعة إلى الجمعة كفاراتٌ لما بينهن، فعَنْ

[1] صحيح مسلم /٢/٩٧٥(١٣٣٧)

[2] جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٠٦٢)

أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»[1]، ومن همّ بسيئةٍ فلم يعملها لم تُكتب عليه، وإنْ عملها كُتبت سيئةً واحدةً، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنةً، وإنْ عملها كتبت بعشر أمثالها، ولا يهلك على الله إلّا هالك، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»[2].

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٩)

﴿وَدَّ﴾: أراد، وتمنى، ورغب **﴿كَثِيرٌ﴾**: عددٌ كبير **﴿مِنْ﴾**: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية المكانيّة، ابتداء المصدر **﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾**: من اليهود والنصارى، وكان الدافع: الحقد، والحسد، والعداوة، ولقد قيل إنّها نزلت في حُييّ بن أخطب، وأبي ياسر بن أخطب، وقيل أيضًا نزلت في كعب بن الأشرف هو يهودي، كان شاعرًا يذمّ النبي ﷺ **﴿لَوْ﴾**: حرفٌ يُفيد الاستحالة **﴿يَرُدُّونَكُمْ﴾**: يرجعونكم بالتأكيد **﴿مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ﴾** أنْ كنتم مسلمين **﴿كُفَّارًا﴾**: برغم الأدلّة والبيّنة والآيات؛ لتكفروا، وتخفوا حقيقة الإيمان، والسبب هو **﴿حَسَدًا﴾**: لم يجهلوا الحقائق والأدلّة، ولكنّه الحسدُ والجحودُ؛ فكان التوبيخ الربّاني لهم **﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾**: كفرهم من أنفسهم، وليس لغياب الأدلّة **﴿مِنْ﴾**: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة **﴿بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾**: ظهر صدقُهُ **﴿لَهُمُ﴾**: تخصيصًا **﴿الْحَقُّ﴾**: حتى بعد أنْ وجدوا محمدًا مكتوبًا في كُتبهم، وما نزل عليه **﴿فَ﴾**: حرف يفيد الأمر والسبب **﴿اعْفُوا﴾**: سامحوا **﴿وَاصْفَحُوا﴾**: كان الأمر أولًا والله أعلم في الآية: **﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾** [آل عمران-١٨٦]، ثم نُسخ ذلك بالآيات **﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾** [التوبة-٢٩] **﴿حَتَّى﴾**: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ نصدقك

---
[1] صحيح مسلم (١/ ٢٠٩)

[2] صحيح البخاري (٨/ ١٠٣)

إلّا بشرط أنْ ﴿يَأْتِيَ﴾: يحلّ ويحدثَ أمر ﴿اللَّهُ بِ﴾: حرف باء التوكيد ﴿أَمْرِهِ﴾: الأمرُ هنا نسخ الصفح عن المشركين بآية السيف، جاءت كلمةُ الأمر في القرآن الكريم على ثلاثة عشر وجهًا، هنا بمعنى قتلُ بني قريظة، وجلاءُ بني النضير ﴿إِنَّ﴾: حرفٌ للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ عَلَى كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة؛ لتؤكد العموم ﴿قَدِيرٌ﴾: قادرٌ بصورة مطلقة. ومن الواضح أنّه لنْ يكفّ اليهودُ والنصارى وعملاؤهم عن حرف المسلمين عن دينهم بكلّ الوسائل.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١٠)

﴿وَأَقِيمُوا﴾: أمرٌ ربّانيّ واجبُ الأداء ﴿الصَّلَاةَ﴾: على الوجه الذي علّمكم رسول الله ﷺ ﴿وَآتُوا﴾: ادفعوا إلى مستحقيها من أموالكم ﴿الزَّكَاةَ﴾: ليس فيها غلّ: أنفقوا من أموالكم لمَنْ يستحق من المسلمين ﴿وَمَا﴾: الذي ﴿تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾: كلُّ عملٍ صالحٍ تعملونه في حياتكم، وتقدمونه قبل مماتكم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعض ﴿خَيْرٍ﴾: هو كلّ عمل خيرٍ حثّ عليه الإسلام ﴿تَجِدُوهُ﴾: تجدوا ثوابه وأجره ﴿عِنْدَ﴾: ظرف زمان وظرف مكان ﴿اللَّهِ﴾: عند ربّكم يوم الحساب ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ بِمَا﴾: اسمٌ موصول، بالذي ﴿تَعْمَلُونَ﴾: مكتوبًا في صحائف، معروضة على الله ﷻ يوم القيامة، ويوم يقوم الأشهاد؛ فالله جلّ جلالُه لا يغفل عن عملِ عاملٍ، ولا يُضيع أجره، خيرًا أو شرًا ﴿بَصِيرٌ﴾: هي تصريفُ مُبصر، كما صُرّفت كلمةُ مبدعٍ إلى بديع، وكما صُرفت مؤلمٌ إلى أليم؛ لتفيد معنى أبلغ وأشدّ، واللهُ ﷻ أعلم.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١١١)

﴿وَقَالُوا﴾: اليهود والنصارى هذا الادعاء ﴿لَنْ﴾: حرفُ نفيٍ قاطع ﴿يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾: كلُّ طائفةٍ منهم ادعت أنّها أهل الجنّة فقط ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناءٍ منقطعٍ ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس البشر ﴿كَانَ هُودًا﴾: وهود هي جمع هائد أي المُتبع للديانة اليهودية ﴿أَوْ﴾: حرفٌ يفيد هنا التقسيم والتسوية ﴿نَصَارَى﴾: قالوا لن يدخلها إلّا أهلُ ملّتهم من اليهود والنصارى، ولقد كذّبهم اللهُ ﷻ؛ إنّ المُذنبين من أمّةِ محمدٍ ﷺ سيدخلون النّار لأيامٍ قليلةٍ، ثم يذهبون إلى الجنّة، وهنا اعترافٌ ضمنيٌ بخطاياهم ﴿تِلْكَ﴾: اسم إشارةٍ للمفرد المذكر البعيد، ما قالوه هي ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾: شهواتهم، وهي أمانيٌّ، ورغباتٌ باطلةٌ، تمنوّها على الله ﷻ بغير الحق ﴿قُلْ﴾: الخطاب إلى محمدٍ ﷺ

﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾: البرهانُ هو بيان الحُجّة، والبرهانُ يؤكدُ الأدلّة، وهو الذي يقتضي الصدق أبدًا، أي ما هي حُجّتُكم، ما هو دليلُكم ﴿إِنْ﴾: حرف شرط، يفيد التأكيد ﴿كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: هنا إدانةٌ من الله ﷻ أنّهم غير صادقين.

﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١١٢)

﴿بَلَى﴾: حرفُ جوابٍ وتصديقٍ ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس ابن آدم ﴿أَسْلَمَ﴾: آمن بالله ﷻ وملائكته، وكتبه، ورسله، وأخلص العمل لله ﷻ وحده، ﴿وَجْهَهُ﴾: متوجهًا إليه ﷻ ﴿لِلَّهِ وَ﴾: حرف الواو هنا حرف حال، كونه ﴿هُوَ﴾: في اللغة يعني ضميراً منفصلاً مرفوعاً للغائبِ المفردِ المُذكر ﴿مُحْسِنٌ﴾: مصلحٌ نفسه، وصانعُ الخيرِ والإحسان ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد الجواب ﴿لَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾: والجائزة هنا: الأجرُ عند الله ﷻ يُعطيه في الدنيا، أو يوم القيامة ﴿وَلَا﴾: حرفُ نفي ﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: إنّ لهم الأمنَ من الخوف المنظور، وغير المنظور، ومن المحذور، ولا خوف عليهم من المستقبل، الأمنُ الذي هو طمأنينةُ النفسِ، وزوالُ الخوف ﴿وَلَا هُمْ﴾: تحديدًا ﴿يَحْزَنُونَ﴾: لا يتأسفون على ما فات ومضى، وما تركوا، أو فقدوا، ويعززُ ذلك قوله ﷻ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف-١١٠]، ومن شروط قبول العمل: أنْ يكون خالصًا لله ﷻ وحده؛ أي القصد الصحيح، وأنْ يكون صوابًا موافقًا للشريعة، عن عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[١]، وإذا لم يُخلص القصد: قد يكون العملُ في ظاهره في إطار الشريعة، ولكنّ النيّة والقصد غير خالصة لله ﷻ، فالعمل مردودٌ على صاحبه، وهذه أعمالُ المنافقين والمُرائين.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١١٣)

سبب النزول: قال محمد بن إسحق عن ابن عباس: لما قدم أهلُ نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبارُ يهود، فتنازعوا أمام الرسول ﷺ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾: قال اليهودي رافع بن حرملة إلى النصارى ﴿لَيْسَتِ﴾: فعل ماضٍ ناقص يُفيد النفي ﴿النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾: قال ما أنتم على شيءٍ من الدين، أو الإيمان، وكَفَرَ بعيسى ﷺ، وبالإنجيل، وقال لنْ تدخلوا الجنّة

---

[١] صحيح مسلم /١٣٤٣/٣(١٧١٨)

﴿وَ﴾: أيضًا ﴿قَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ﴾: فعل ماضٍ ناقص يُفيد النفي ﴿الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾: قال رجلٌ من النصارى لليهود: ما أنتم على شيءٍ، وجحدَ بنبوّةِ موسى، وقال لنْ تدخلوا الجنّة ﴿وهُمْ﴾: تحديدًا ﴿يَتْلُونَ﴾: يقرؤون ﴿الْكِتَابَ﴾: الجميع من اليهود ومن النصارى يدّعون صحةَ كتابهم الذي حرّفوه ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل كلّ ما سبق من الأمورِ التي أخبر اللهُ ﷻ عنها ﴿قَالَ﴾: في السابق ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَعْلَمُونَ﴾: الجاهلون ﴿مِثْلَ﴾: مشابهًا ﴿قَوْلِهِمْ﴾: قد يكون المقصود بالذين لا يعلمون هم اليهود والنصارى في هذه المناظرة، أو هي أممٌ كانت قبل التوراة والإنجيل، وقال السدى: هم العرب عندما قالوا لمحمدٍ ﷺ: ليس محمد على شيءٍ، وقال ابن جرير: هي عامّةٌ تصلُح للجميع، وليس هناك دليلٌ على تخصيص، والأولَى التعميم على الجميع؛ والله ﷻ أعلم ﴿فَـ﴾: حرفُ الفاء حرف جواب تكون جوبًا نحو قوله ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾: يجمعُ اللهُ ﷻ بينهم يوم القيامة، ويفصلُ بقضائه العادل ﴿فِيمَا﴾: في الذي ﴿كَانُوا فِيهِ﴾: في الحياة الدنيا ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ يتنازعون فيه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١٤)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿مَنْ﴾: حرفُ استفهامٍ للعاقل أفاد هنا النفي ﴿أَظْلَمُ﴾: أي الأكثر ظُلمًا ﴿مِمَّنْ﴾: من الذي ﴿مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾: قال قتادة: أولئك النصارى أعداءُ الله ﷻ؛ بسبب كُرههم لليهود، أعانوا بني نصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس، وقال: أبو يزيد: هم المشركون الذين منعوا الرسول ﷺ من دخول مكّة يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ حَتَّى نَحَرَ هَدْيَهُ بِذِي طُوًى وَهَادَنَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: مَا كَانَ أَحَدٌ يَرُدُّ عَنْ هَذَا الْبَيْتِ. وَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى قَاتِلَ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ فِيهِ فَمَا يَصُدُّهُ، وَقَالُوا: لَا يَدْخُلُ عَلَيْنَا مَنْ قَتَلَ آبَاءَنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَفِينَا بَاقٍ وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾[1]، فقالوا: لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باقٍ ﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الاستئناف ﴿سَعَى﴾: أصلُ السعي هو المشي؛ ومنه المشي بين الصفا والمروة، وهو يُطلق على التسبب مطلقًا؛ فيقال سعى فلانٌ في مصلحتك، أو سعى لهدفٍ بين النّاس؛ الذي فَعَلَ بجدٍ واجتهادٍ ﴿فِي خَرَابِهَا﴾: أيضًا في القولين السابقين: قال ابن عباس: قريش التي منعت الرسول ﷺ عن الكعبة، ورغم أنّ قريشًا ما خرّبت الكعبة،

---

[1] تفسير الطبري /٢/٤٤٤. وجاء في كتاب وقال محقق كتاب العجاب في بيان الأسباب لابن حجر عبد الحكيم محمد الأنيس: وفي النقل شيء من التصرف (١/ ٣٦١). ورجح الطبري القول الأول وهو اختيار ابن كثير. واستبعد ابن جرير هذا القول، واحتج بأن قريشًا لم تسعَ في خراب الكعبة، ورجح القول الأوّل. انظر تفسير ابن كثير ت مجموعة (٢/ ٢٥) التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون (١/ ٣٧٢) العجاب في بيان الأسباب (١/ ٣٦١) الحديث ضعيف.

ولكن كان منعُ الرسول أعظمَ من الخراب، وقال ابن جرير: هم الروم؛ لأنّهم ساعدوا على خراب بيت المقدس، ليس بزخرفتها وبنائها فقط، إنّما عمارتُها بذكرِ اللهِ ﷻ فيها، وإقامةِ شرعهِ ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارةً للقريبِ والبعيدِ ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿كَانَ لَهُمْ﴾: لا يجوز ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يَدْخُلُوهَا إِلَّا﴾: حرفٌ يفيد الاستثناء ﴿خَائِفِينَ﴾: فيها أقوال: تعنى الطلب من المسلمين ألا يُمكّنوا الكفّار من دخولها بعد أنْ يقدروا عليهم، إلّا تحت شروط الهدنة والجزية، وكان بعد فتح مكّة أنْ أمرَ ﷺ قائلًا: «أَلاَ لاَ يَحُجُّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ، وَلاَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ»[1]، ولا يدخلون المساجد إلّا وهم خائفون من بطش المؤمنين بهم، وهذه بشارة للمؤمنين من الله ﷻ أنهُ سيُظهرهم على المسجد الحرام، وسائرِ المساجد، وسيُذلُّ المشركين، فلا يدخل أحدُهم مسجدًا إلّا وهو خائفٌ، وقد تحقق ذلك، ولم يبق في جزيرة العرب دينان، وبقى أنْ يتم إجلاء اليهود وأعوانهم من الصليبيين عن فلسطين؛ لتشريف أكناف بيت المقدس في معركة وعد الآخرة إنْ شاء اللهُ ﷻ ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾: هكذا تحقق لهم ذلّ وصغار وخزي الدنيا، فكما صدّوا المسلمين عن المسجد الحرام؛ فقدوا وجودهم في كلِّ المنطقة ﴿وَلَهُمْ﴾: أيضًا تخصيصًا وتمليكًا ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾: يوم القيامة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: عقابُ يوم القيامة على ما اقترفوه في المسجد الحرام من: نصب الأصنام حوله، ودعاء غير الله ﷻ عنده، والطواف فيه عرايا، وإذا كان المقصود المسجد الأقصى كما قال: كعب الأحبار؛ فمعناه أنّ النصارى لمّا استولوا على المسجد الأقصى خرّبوه، وإذا قرأنا الآية ومن أظلم ممن منع مساجد الله فكانت بشارةً له، فلا يدخل الأقصى نصرانيٌ إلّا خائفًا أو مُتسللًا.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١١٥)

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ﴾: أيضًا له ﷻ مُلك ﴿الْمَغْرِبُ﴾: لله ﷻ مُلكُ الكون، المشرق والمغرب وما بينهما؛ فقد كان الرسول ﷺ يتجه في صلاته نحو بيت المقدس ستةَ عشر أو سبعةَ عشر شهرًا، ثم جاء الأمرُ من الله ﷻ أنْ يتجه نحو الكعبة في صلاته ﴿فَأَيْنَمَا﴾: تتكون من أين وما؛ بمعنى في أيّ وضعٍ كنتم، أو بمعني ما من مكان ﴿تُوَلُّوا﴾: تُوجهون وجوهكم في الصلاة ﴿فَثَمَّ﴾: حرفٌ يُفيد المكان والجهة التي رضي بها ﷻ وأمركم بها ﴿وَجْهُ اللَّهِ﴾: وكان هذا أوّل ما نُسخ من القرآن القبلة، كانت صلاة النبي ﷺ وهو في المدينةِ نحو بيت المقدس تُفرح اليهود، وكان النبيُّ يدعو وينظر إلى السماء؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾، إلى قوله ﷻ: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[البقرة-١٤٤]، هنا ارتاب اليهود، وجاء تسجيل القرآن لقولهم:

---

[1] صحيح البخاري /٦/٦٥(٤٦٥٧).

﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة–١٤٢]: قال عكرمة عن ابن عباس: قبلةُ الله ﷻ أينما توجهت شرقًا أو غربًا، وفي هذا إذنٌ للمتطوع حيث ما توجه من شرقٍ أو غربٍ في سفره، عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﵄، أَنَّهُ «كَانَ يُصَلِّي عَلَى رَاحِلَتِهِ وَهُوَ مُسَافِرٌ حَيْثُ تَوَجَّهَتْ رَاحِلَتُهُ، وَيُخْبِرُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ»[(١)]، وقال مجاهد: حيثما كنتم فلكم قبلةٌ تستقبلونها وهي الكعبة، الكعبة، وقال آخرون: أُنزلت هذه الآية قبل أنْ يُفرض التوجه إلى الكعبة، ثم نُسخ هذا الأمرُ بغرض التوجه إلى الكعبة، وقيل نزلت هذه الآية في قومٍ عميت عليهم القبلة؛ فلم يعرفوا شطرها، كما صلى الرسول ﷺ وأصحابهُ في ليلةٍ مُظلمةٍ، فلمّا أصبحوا عرفوا أنّهم كانوا يُصلّون لغير القبلة؛ فأنزل الله ﷻ الآية، وقال ابن جرير: أينما تولوا وجوهكم في دعائكم لي فهنالك وجهي أستجب لكم، وقال مجاهد: نزلت ادعوني أستجب لكم قالوا إلى أين؟ فنزلت الآية ﴿إِنَّ﴾: حرفٌ للتأكيد ونفي الشكّ والإنكار ﴿اللَّهَ وَاسِعٌ﴾: واسع الذات، واسع العلم، واسع الرحمة، واسع الفضل والجود، واسع المغفرة.. غير حصور، ولا رزقه محدود، ولا يتعداه شيء ﴿عَلِيمٌ﴾: العالم بكل شيء.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ (١١٦)

﴿وَقَالُوا﴾: هم النصارى خاصّةً واليهودُ، ومشركو العرب أيضًا الذين قالوا ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾: قال النصارى عيسى ابن الله، وقال كفّارُ العرب الملائكة أبناء الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾: ﷻ، وتقدس، وتنزه أنْ يتخذ ولدًا ﴿بَلْ﴾: حرفٌ ينفي ما قبله؛ ويؤكد ما بعده ﴿لَهُ﴾: حرف اللّام يفيد التمليك ﴿مَا﴾: كلّ الذي هو من جنسِ غيرِ العاقل ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾: هي كلّ ما علا الأرض، وأحاط بها؛ لكونها بيضاويّة الشكل ﴿وَالْأَرْضِ﴾: هذا مُلك الله ﷻ: السموات، والأرض، ومنْ وما فيهن، ﷻ هو المتصرفُ، هو خالقُها من غير سابقِ مثال، هو رازقُهم، ومُسخّرهم، ومُسيّرهم، ومُصّرفهم كيف يشاء؛ هم عبيدٌ له، لا صاحبة له ولا ولد؛ فالولد يتولّد من شيئين مُتناسبين ذكر وأنثى، إنسان، أو حيوان، أو نبات، وليس لله ﷻ نظير، ولا مشارك في عظمته، ولا صاحبة له: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: قَالَ اللَّهُ: «كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَزَعَمَ أَنِّي لاَ أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا»[(٢)]، عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، قَالَ:

---

(١) مسند أبي داود الطيالسي (٣/ ٣٦٦)

(٢) صحيح البخاري /٦/١٨٠(٤٩٧٤).

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ، يَدَّعُونَ لَهُ الوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»[1]، ﴿كُلٌّ﴾: جميع المخلوقاتُ تُطيع، تعني طاعة المؤمن في الدنيا والآخرة باتباع الأوامر، وطاعةُ الكافر في سجود ظلّه ﴿لَهُ﴾: لله ﷻ ﴿قَانِتُونَ﴾: جاء معنى اللفظ قانتون على وجهين، هنا بمعنى الخضوع والإقرار بالعبودية، وجاء بالمعنى نفسه في قوله ﷻ ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم-٢٦]، وجاء بمعنى الطاعة في قوله ﷻ ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة-٢٣٨]، وجاءت بالمعنى نفسه أيضًا في قوله ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب-٣٥]؛ أي مُقرّون له بالعبودية، مُطيعون يوم القيامة، بمعنى طاعةُ الكلّ، شرعي وقدري؛ قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد-١٥]. والمعنى الثاني يعني الدعاء في الصلاة.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١١٧)

﴿بَدِيعُ﴾: الذي أبدع، وفي اللغة المبدعُ: هو المُنشئ والمُحدثُ ما لا يسبقهُ إلى إنشاءٍ مثله، أو أحدثهُ غيرُه، أي أوجد من غيرِ سابقِ مثالٍ، خلقًا مُتقنًا، وفي لغةِ العصر هو المُخترع، والبدعة: شيءٌ محدثٌ ﴿السَّمَوَاتِ﴾: هي كلّ ما علا الأرض، وأحاط بها ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿الْأَرْضِ﴾: خلق الله ﷻ السموات والأرض على غير مثالٍ سابقٍ؛ خلقًا مُتقنًا ﴿وَإِذَا﴾: أداةُ ربطٍ بين ما بعدها بما قبلها ﴿قَضَى﴾: إذا شاء اللهُ وقدّر، وقرّر ﴿أَمْرًا﴾: شيئًا أراده؛ ﴿فَإِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ مُركبة تُفيد التحديد والتخصيص ﴿يَقُولُ لَهُ﴾ يقول له؛ أي يأمر الله ﷻ هذا الشيء ﴿كُنْ﴾: كلمةٌ من حرفين؛ تشهد على قدرةِ اللهِ وعظمتهِ وسلطانهِ ﷻ، تعنى يقول مرّةً واحدةً ﴿فَ﴾: حرفُ الفاء هنا بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ ﴿يَكُونُ﴾: يتحقق وفق ما أراده ﷻ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (١١٨)

﴿وَ﴾: أيضًا ﴿قَالَ الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَعْلَمُونَ﴾: من هم؟ قال ابن عباس: قال رافعُ بن حرملة لرسول الله ﷺ: يا محمد إنْ كنت رسول الله كما

---

[1] صحيح البخاري /٩/١١٥(٧٣٧٨).

تقول؛ فقل لله يُكلمنا حتى نسمع كلامه، وقال مجاهد: إنّ هذا قول النصارى، وقال قتادة، والسدي: هذا قولُ كُفّار العرب ﴿لَوْلَا﴾: حرفُ تخصيص؛ بمعنى هلّا ﴿يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾: لِمَ لا يُكلمنا اللهُ مباشرة ﴿أَوْ﴾: حرفٌ يساوي بين متعاطفين اثنين الأول هنا كلام الله لهم والثاني ﴿تَأْتِينَا آيَةٌ﴾: إشارةٌ أو علامةٌ خاصةٌ لهم ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل هذا، كلّ ما سبق من الأمورِ التي أخبر اللهُ ﷻ عنها ﴿قَالَ الَّذِينَ مِنْ﴾: حرفُ جرّ يُفيد ابتداء الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾: وقيل هم: اليهودُ والنصارى، وقيل هم كفّارُ العرب وهذا أقرب؛ لأنّه جاء في الآيات ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: تشابهت قلوبُ كفّار العرب مع قلوب اليهود والنصارى في الكفرِ، والعنادِ، والعتوِ ﴿قَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿بَيَّنَّا﴾: أوضحنا وأظهرنا ﴿الْآيَاتِ﴾: البراهين الصادقة ﴿لِقَوْمٍ﴾: جماعةٍ من النّاس من أصلٍ واحدٍ، أو أصحابِ مذهبٍ واحدٍ، وقد أوضح اللهُ ﷻ الدلالات، وبيّن الآيات بلا حاجةٍ إلى أسئلةٍ ﴿يُوقِنُونَ﴾: اليقين هو: التأكد، والاطمئنان، والتسليم، والاقتناع.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (١١٩)

سبب النزول: عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ، فَقَالَ: أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب-٤٥]، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ، وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا[١].

﴿إِنَّا﴾: ضميرٌ للجمع الحاضر المتكلم هو الله ﷻ، وجاءت بصيغة الجمع؛ لتعظيم الفعل ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾: بعثناك ﴿بِ﴾: حرف "ب" الصلة والمصاحبة ﴿الْحَقِّ﴾: يا محمد بأمرٍ عظيم، رسالتك حق، وقولك حق، ووعدنا حق، ﴿بَشِيرًا﴾: جاءت الصيغة على وزن فعيل لتفيد المبالغة في فعل البشارة تُبشّر أهل الجنّة بالجنّة، بما يسرّهم ويفرحهم ﴿وَنَذِيرًا﴾: والمبالغة في فعل النذارة؛ لأهل النّار بالنّار ﴿وَلَا﴾: عطفًا على ما جاء لنْ ﴿تُسْأَلُ﴾: تُحاسب أو تُعاقب ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرّ بمعنى على ﴿أَصْحَابِ﴾: الملازمين في ﴿الْجَحِيمِ﴾: لا نسألك عن كفرِ من كفرَ بك، لا محاسبة لك على كُفرهم، بمعنى لنْ نسألك عن الكافرين؛ فإنّما عليك البلاغُ، وعلينا الحساب.

---

[١] صحيح البخاري /٣/٦٦(٢١٢٥).

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٢٠)

﴿وَلَنْ﴾: حرف نفي ﴿تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾: لن يقبلك اليهودُ والنصارى أبدًا بما بعثناك به يا محمد ﷺ ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ نصدقك إلَّا بشرط أنْ ﴿تَتَّبِعَ﴾: تترك دينك، وتعتمد ﴿مِلَّتَهُمْ﴾: والمقصود ملل الكفر؛ فلكل كافرٍ منهم ملّةٍ واحدةٍ، تكون يهوديًا، أو نصرانيًا، وأفردها على الكفر؛ لأنّ الكفر متعدد؛ فليسوا على واحدة، وهذا يستدعي: دع طلب ما يرضيهم، وأطلب رضا الله ﷻ في دعوتهم إلى ما بعثك الله ﷻ به ﴿قُلْ إِنَّ﴾: يؤكد الحق ﷻ ﴿هُدَى اللَّهِ﴾: جاء لفظ هدى هنا بمعنى الدين المستقيم، الصحيح، الشامل ﴿هُوَ الْهُدَى﴾: فقط لا شيء غيره يهدي للتي هي أقوم ﴿وَلَئِنِ﴾: حرفُ شرط ﴿اتَّبَعْتَ﴾: أي سلكت سبيلهم، واعتمدت ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾: يُوضحُ اللهُ ﷻ بأنّ الذي هم عليه ليس دين الله ﷻ، بل رغباتُهم وأهواؤُهم ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ﴾: جزء أو بعض ﴿الْعِلْمِ﴾: بعدما جاءك من الحقّ والصدقِ الواضح؛ أي الدين الخاتم، ومن القرآن والسُّنة ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿لَكَ﴾: لنْ يكون لك تخصيصًا ﴿مِنَ﴾: حرفُ جرِّ يُفيد ابتداء الغاية، هنا المقصود هو المصدر هو ﴿اللَّهِ مِنْ﴾: بعض ﴿وَلِيٍّ﴾: المؤيدُ، والمناصرُ، والحبيب ﴿وَلَا﴾: حرفُ نفي ﴿نَصِيرٍ﴾: جاء ذكرُ الوليُّ هنا والمعنى المراد من الآية هو: تهديدٌ، ووعيدٌ شديدٌ للفرد، والأمّة؛ إذا اتبعوا سبيل اليهود والنصارى.

التكليف: لا يتوارث المسلمون والكُفّار، وكلّ يرث قرينه، سواءً كان من أهل دينه أم لا، إنّهم كُلهم ملّةٌ واحدةٌ.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٢١)

﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿آتَيْنَاهُمُ﴾: أنزلنا إليهم ﴿الْكِتَابَ﴾: قال قتادة: هم اليهود وكتابُهم التوراة، والنصارى وكتابهم الإنجيل، وقال سعيد عن قتادة: هم أصحابُ رسول الله ﷺ ﴿يَتْلُونَهُ﴾: يقرؤونه ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾: واتباع تطبيق ما جاء فيه، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة-١٢١] قَالَ: «يُحِلُّونَ حَلَالَهُ، وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ، وَلَا يُحَرِّفُونَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ»[١]، وقال الحسن البصري: العملُ بأحكامه، يؤمنون بالمتشابه فيه، يتركون ما أُشكل عليهم لله ﷻ، وقال عبد الله بن

---

[١] المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٢٩٢) هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ

مسعود: يتبعونه حقّ إتباعه، وعَنْ أَبِي مُوسَى، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ كَائِنٌ لَكُمْ أَجْرًا، وَكَائِنٌ لَكُمْ ذِكْرًا، وَكَائِنٌ عَلَيْكُمْ وِزْرًا، اتَّبِعُوا الْقُرْآنَ وَلَا يَتَّبِعْكُمُ الْقُرْآنُ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعِ الْقُرْآنَ، يَهْبِطْ بِهِ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمَنِ اتَّبَعَهُ الْقُرْآنُ يَزُخُّ فِي قَفَاهُ، فَيَقْذِفُهُ فِي جَهَنَّمَ»[1]، عَنْ حُذَيْفَةَ، أَنَّهُ صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَكَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ»، وَفِي سُجُودِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»، وَمَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ فَسَأَلَ، وَلَا بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا تَعَوَّذَ[2] ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارةَ للقريب وللبعيد ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾: هذا خبرٌ للذين اتبعوا بحقٍ تعاليم الكُتب السماوية السابقة، التي نزلت على الأنبياء السابقين، والذين آمنوا بما أُنزل على محمدٍ ﷺ، ويعزّز ذلك ما جاء في قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف-١٥٧] ﴿وَمَنْ﴾: الذي من جنس البشر العاقلين ﴿يَكْفُرْ بِهِ﴾: يُنكر، ويُخفي، ويُغطي ما جاء في كُتبهم عن محمدٍ ﷺ ﴿فَـ﴾: حرف الفاء هنا للعلّة والسبب ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: إشارةً للجمع الخاسرين لدنياهم وآخرتهم يوم القيامة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[3].

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٢)

﴿يَا﴾: حرفُ نداءٍ للقريبِ والبعيد ﴿بَنِي﴾: أبناء، وأحفاد ﴿إِسْرَائِيلَ﴾: هو النبيّ يعقوب ؏؛ هو العبدُ الصالحُ، يُخاطبُ اللهُ ﷻ اليهود ويذكرهم بأبيهم؛ علّ ذلك يُرطّب قلوبَهم، وهو منهجٌ قرآنيّ، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء-٤]، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ حَضَرَتْ عِصَابَةٌ مِنَ الْيَهُودِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا يَا أَبَا الْقَاسِمِ حَدِّثْنَا عَنْ خِلَالٍ نَسْأَلُكَ عَنْهَا لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ فَكَانَ فِيمَا سَأَلُوهُ أَيُّ الطَّعَامِ حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قَالَ فَأَنْشُدُكُمْ بِاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ ؏، مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا، وَطَالَ سَقَمُهُ، فَنَذَرَ لِلَّهِ نَذْرًا لَئِنْ شَفَاهُ اللهُ ﷻ مِنْ سَقَمِهِ، لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ، وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمَانُ الْإِبِلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا؟ قَالُوا: اللهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: اللهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ[4]، أراد اللهُ ﷻ أن يُذكرّهم بأبيهم: كونوا مثل

---

[1] سنن الدارمي (٤/ ٢٠٩٦)

[2] مسند أحمد مخرجا (٣٨/ ٣٦٩)

[3] صحيح مسلم /١/١٣٤(١٥٣).

[4] تفسير ابن كثير/١/٢٤١. وأخرجه أحمد في مسنده بزيادة وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح /٣/١٢٣(٢٤٧١). وجاء في التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون (١/ ٢١٤) إسناده لا بأس به.

أبيكم إسرائيل في اتباع الحق ﴿اذْكُرُوا﴾: تذكروا، وتكلموا عن ﴿نِعْمَتِيَ﴾: النعم الوفيرة ﴿الَّتِي﴾: اسمٌ موصولٌ للمفرد المؤنث ﴿أَنْعَمْتُ﴾: التي تفضلت بها ﴿عَلَيْكُمْ﴾: حيثُ جعلتُ فيكم الأنبياء والرسل، وأنزلت عليكم الكتاب، ونجيتكم من فرعون ومن العبودية، وفجّرت لكم الحَجَرَ؛ ليخرج منه الماء، وأنزلت عليكم المنّ والسلوى، وقد قال ذلك موسى عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة-٢٠]، وكان هذا في زمانهم ﴿وَأَنِّي﴾: تأكيد من الله سبحانه وتعالى أيضًا بالتأكيد ﴿فَضَّلْتُكُمْ﴾: أفضليةُ الاختيارِ بالرسالةِ والنبوّة في فترةٍ زمنيّةٍ محددةٍ ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: بقية الخلق من البشر في عهدكم.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (١٢٣)

﴿وَاتَّقُوا﴾: عطفًا على هذا التحذير تجنبوا واحموا أنفسكم ﴿يَوْمًا﴾: من عذاب يوم القيامة، والله أعلم ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تَجْزِي﴾: تُؤدي ﴿نَفْسٌ﴾: كلُّ نفسٍ بما كسبت رهينة، لا ينفع أحدٌ أحدًا ﴿عَنْ﴾: حرف يفيد هنا الاستعلاء بمعنى على ﴿نَفْسٍ﴾: ذاتِ الإنسانِ وجوهره ﴿شَيْئًا﴾: جاءت بصيغة النكرة؛ لتؤكد على عموم النفوس ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾: لا يقبل اللهُ سبحانه وتعالى منها فديةً ﴿وَلَا﴾: وأيضاً نفي ﴿تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾: والشفاعةُ هي طلبُ النّاس من الأنبياءِ بأنْ يُخفف اللهُ سبحانه وتعالى عنهم العذاب ﴿وَلَا هُمْ﴾: تحديدًا ﴿يُنْصَرُونَ﴾: النصرُ يومَها هو دخولُ الجنّة، والخسارة هي دخول النّار.

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٢٤)

﴿وَإِذِ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن؛ فاذكر يوم ﴿ابْتَلَى﴾: أُختبر ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾: ويُلفظ أبرهم بالسريانية والعبرية؛ وتعني الأبّ الرحيم ﴿رَبُّهُ﴾: مالك أمره كلّه، وهو الفاعل، وهو الله سبحانه وتعالى، واذكر يوم اختبر اللهُ سبحانه وتعالى عبده إبراهيم ﴿بِ﴾: باء الاستعانة ﴿كَلِمَاتٍ﴾: هي الأوامر والنواهي المُكلّف بتطبيقها، وتعليمها النّاس ﴿فَ﴾: حرفٌ، الفاء السببية بهدف ترتيب الأمر؛ ويفيد سرعة التنفيذ ﴿أَتَمَّهُنَّ﴾: نفذهنّ كلهنّ تنفيذًا كاملًا، شهدَ له بذلك سبحانه وتعالى، طبقهن كاملات، فمن أتمهنّ كلهنّ كُتبت له براءة ﴿قَالَ﴾: الله سبحانه وتعالى ﴿إِنِّي﴾: أنا الله بالتأكيد ﴿جَاعِلُكَ﴾: مُرسلك ﴿لِلنَّاسِ﴾: تخصيص عموم بني آدم ﴿إِمَامًا﴾: قدوةً وقائدًا في الخير.

جاء لفظ الإمام في القرآن الكريم على خمسة أوجه؛ هنا، وفي قوله سبحانه وتعالى ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان-٧٤] بمعنى القائد في

الخير، وعن الكلمات المُكلف بها سيدنا إبراهيم ﷺ: قال ابن عباس: المناسك، والطهارة، وفي طهارة الرأس خمسة أوجه: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق شعر الرأس، ولطهارة الجسد خمسة أوجه: تقليم الأظافر، وحلق العانة، والختان؛ لفائدته الطبية؛ فالأطباء يعلمون أنّه تتكون مادةٌ دهنيةٌ تُسمى سمجما، إذا بقيت مدّةً طويلةً؛ فإنّها تُسبب السرطان في العضو. ويأمرُهم إمامُهم نتفِ الإبط، وغسلِ محل الغائطِ والبولِ بالماء. قال ﷺ: الْفِطْرَةُ خَمْسٌ: الْخِتَانُ وَالِاسْتِحْدَادُ وَقَصُّ الشَّارِبِ وَتَقْلِيمُ الأَظْفَارِ وَنَتْفُ الآبَاطِ[1]. وعنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ، وَالسِّوَاكُ، وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ، وَقَصُّ الْأَظْفَارِ، وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ، وَنَتْفُ الْإِبِطِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ قَالَ زَكَرِيَّا: قَالَ مُصْعَبٌ: وَنَسِيتُ الْعَاشِرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمَضْمَضَةَ زَادَ قُتَيْبَةُ، قَالَ وَكِيعٌ: انْتِقَاصُ الْمَاءِ: يَعْنِي الِاسْتِنْجَاءَ[2]، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَوْلُهُ: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ**﴾ [البقرة-١٢٤] قَالَ: «مَنَاسِكُ الْحَجِّ»[3]، وفي الآية كلامٌ كثيرٌ في المراد بالكلمات، ﴿**قَالَ**﴾: إبراهيم ﷺ ﴿**وَمِنْ**﴾: بعض ﴿**ذُرِّيَّتِي**﴾: سأل إبراهيمُ ﷺ الإمامةَ لذريّتِهِ من بعده؛ فأخبرهُ اللهُ ﷻ: أنّهُ سيكون من ذريته الإمامة، ولقد أُجيب طلبهُ في الآية: ﴿**وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ**﴾ [العنكبوت-٢٧] ﴿**قَالَ**﴾: اللهُ ﷻ ﴿**لَا**﴾: حرف نفي ﴿**يَنَالُ**﴾: يجني ثواب ﴿**عَهْدِي**﴾: ما وعد الله ﷻ ﴿**الظَّالِمِينَ**﴾: قال مجاهد: لا يكون إمامٌ ظالمٌ يُقتدى به، وقال قتادة: لا ينال عهدُ الله الظالمين في الآخرة؛ لأنّه نالها في الدنيا، وقال الربيع بن أنس: بعضُهم ظالمٌ، مستندًا على الآية: ﴿**وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ**﴾ [الصافات-١١٣]، وقال السدي: العهد هو النبوة.

التكليف: من نتائج بناء المسجد كانت النتيجة الأولى وهي: جاعلك للناس إمامًا، ولذلك فإنّ الظالم لا يصلُح أنْ يكون خليفةً، ولا حاكمًا، ولا مُفتيًا، ولا شاهدًا، ولا راويًا.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (١٢٥)

﴿**وَإِذْ**﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن؛ يستحق التذكر ﴿**جَعَلْنَا**﴾: خصّصنا ﴿**الْبَيْتَ**﴾: إشارة إلى أنّه كان بيتًا لله ﷻ قبل أنْ يعهد اللهُ ﷻ إلى إبراهيم وإسماعيل بتطهيره من الأوثان التي عبدها العابدون فيه، فقدّر اللهُ ﷻ للبيت الحرام، الذي في

---

[1] صحيح البخاري /٧/٢٠٦(٥٨٩١).

[2] صحيح مسلم (١/ ٢٢٣)

[3] المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٦١٠) هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ

مكّةَ المُكرمة أنْ يكون ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾: قال ابن عباس: يثوب النّاس إليه، ثم يرجعون، وقال ابن أبي لُبابة: لا ينصرف عنه وهو يرى أنّه قضى منه وطرًا؛ أي لا يكتفي، وقال سعيد بن جبير: يجمع المؤمنين ﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الحال ﴿أَمْنًا﴾: أمانًا للنّاس حيث يُتخطف النّاس من حوله، وهذا البيت شرفٌ للذي بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿وَ﴾:عطفٌ على هذا ﴿اتَّخِذُوا﴾: أنْ يعتمدوا ﴿مِنْ﴾: تفيد هنا بداية الغاية المكانية ﴿مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾: قيل هو المقام، وقال ابن عباس: هو الحرم كُلّه، وقيل هو الحجُّ كُلّهُ منى، ورمي الجمرات، والطواف بين الصفا والمروة، وقيل الحَجَر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم حتى غسلت رأسه، قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا مَقَامُ خَلِيلِ رَبِّنَا ﷻ، قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: أَفَلَا نَتَّخِذُهُ مُصَلًّى؟ قَالَ: فَنَزَلَتْ ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة–١٢٥]، أمّا بالنسبة لمكانه اليوم: فهو بجوار الباب، ولقد أمر الله ﷻ بالصلاة فيه عند الفراغ من الطواف ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾: أمرنا إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾: والبيت هو عند البشر هو مأوى الإنسان بالليل والنهار، ولكنّهُ هنا لتطهير البيت من الشرك، ومن الأذى والنجس، وقول الزور، والأوثان والرجس، وقد جاء لفظ الطهور في القرآن الكريم على عشرة أوجه؛ هنا بمعنى من الشرك، و طهارة القلب في قوله ﷻ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة–٢٣٢] ويُطهّر البيت بلا إله إلّا الله، والبناء الخالص لله ﷻ وحده، لا شريك له ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾: تخصيصًا الذين يطوفون حول البيت، أو الذين يأتونه من الغرباء ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾: المُقيمين فيه، ويدخل في ذلك الجالسون فيه والنائمون فيه ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾: أيضًا المصلين. وهنا يتبادر سؤال: **من بنى الكعبة؟** قال القرطبي: بنته الملائكةُ قبل آدم عليه السلام، وقال عطاءٌ وسعيدُ بن المسيب: بناهُ آدم عليه السلام، وقيل: بناه شيثُ عليه السلام، وكان من أهل الكتاب.

التكليف: من نتائج بناء المساجد بعد الإمامة تأتي حالة الأمن؛ الذي هو طمأنينةُ النفس، وزوالُ الخوف، لذا فإنّ تطهير المساجد حكمٌ عامٌ في كلّ زمانٍ ومكانٍ.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٢٦)

﴿وَإِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن، يستحق التذكر، يوم ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾: عليه السلام أبو الأنبياء ﴿رَبِّ﴾: تقربًا وتحببًا إلى الله ﷻ؛ مناجيًا بأنّك المالك، الرازق،

الوهاب ﴿اجْعَلْ هَذَا﴾: اسم إشارة للمفرد المذكر القريب، وتفيد الإشارة والتنبيه ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾: وقد حدث أنْ صارت مكّة المُكرمة مكانًا آمنًا بعد بناء الكعبة، واستقرارِ أهله فيه، وبعد مولد إسحق ﵇، الذي هو أصغر سنًّا من إسماعيل ﵇ بثلاث عشرة سنة، حيث جاء: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَلِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم-٣٩] ﴿وَارْزُقْ﴾: عطفًا على هذا الذي فعله إبراهيم عليه السلام زد وضاعف الخير ﴿أَهْلَهُ﴾: سُكانه ﴿مِنَ﴾: جزء أو بعض ﴿الثَّمَرَاتِ مَنْ﴾: الذي من جنس بني آدم ﴿آمَنَ﴾: المؤمنين ﴿مِنْهُمْ بِ﴾: حرفُ باء الصلة ﴿اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: الدعاء هنا للمؤمنين فقط بالرزق ﴿قَالَ﴾: الله ﷻ ﴿وَمَنْ﴾: الذي من البشر ﴿كَفَرَ﴾: غطّى وأنكر الإيمان ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿أُمَتِّعُهُ﴾: أجعلهُ يتنعمُ ﴿قَلِيلًا﴾: قال مجاهد وعكرمة: هذا قول الله ﷻ؛ ردًّا على دعاء إبراهيم ﵇ ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني البطيء ﴿أَضْطَرُّهُ﴾: أدفعه، وأسوقه في حياته الدنيا، ويكون مصيرهُ مُجبرًا، ومُكرهًا ﴿إِلَى عَذَابِ النَّارِ﴾: جهنّم؛ قال ابن عباس: كان إبراهيم ﵇، يحجر الدعاء إلّا للمؤمنين، ومن نتائج بناء المساجد بعد تحقق الإمامة، والأمن الذي هو طمأنينة النفس وزوال الخوف؛ يأتي الرزق ﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الحال ﴿بِئْسَ﴾: فعل جامد للذمّ من سوءٌ، وهو ذكر المساوئ وهو عكس المدح ﴿الْمَصِيرُ﴾: المآل والخاتمة وهي غضب الله ﷻ وجهنّم.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧)

﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الاستئناف ﴿إِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن ﴿يَرْفَعُ﴾: يُعلي وذِكْر رفع إبراهيم ﵇ للقواعد يدلُّ على أنّها موجودة قبله، وإنّما عمله الكشف عنها ورفعها والبناء عليها ﴿إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾: جمع قاعدة، وهي السارية، وأساس البناء، ولقد كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الاثنان يرفعان لبناء الكعبة ويدعوان ﴿مِنَ﴾: حرفُ جرّ يُفيد ابتداء الغاية المكانيّة، وهي هنا ﴿الْبَيْتِ﴾: الكعبة المُشرّفة. وعن قصة سيدنا إبراهيم في الكعبة؛ يروي البخاري بسنده عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ المِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ البَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى المَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لاَ يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ

عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ البَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: رَبِّ ﴿**إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ**﴾ [إبراهيم–٣٧] حَتَّى بَلَغَ ﴿**يَشْكُرُونَ**﴾ [إبراهيم–٣٧] وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ المَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ المَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتِ الوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ المَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا» فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى المَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ صَهٍ – تُرِيدُ نَفْسَهَا – ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ، أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ، حَتَّى ظَهَرَ المَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ المَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ، أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ المَاءِ، لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا المَلَكُ: لاَ تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ، يَبْنِي هَذَا الغُلاَمُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ البَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ، أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ، مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهَذَا الوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا، قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ المَاءِ، فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لاَ حَقَّ لَكُمْ فِي المَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الإِنْسَ» فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الغُلاَمُ وَتَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عليه السلام، وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ

بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، وَيَقُولُ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتِ اللَّحْمُ، قَالَ فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتِ المَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالمَاءِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ». قَالَ: فَهُمَا لاَ يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الهَيْئَةِ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ، قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ، قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي وَأَنْتِ العَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الوَالِدُ بِالوَلَدِ وَالوَلَدُ بِالوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ البِنَاءُ، جَاءَ بِهَذَا الحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولاَنِ: ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**﴾ [البقرة–١٢٧]، قَالَ: فَجَعَلاَ يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ البَيْتِ وَهُمَا يَقُولاَنِ: ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**﴾ [البقرة–١٢٧][١]. ﴿**وَإِسْمَاعِيلُ**﴾: أيضًا يرفع ويناول وينقل، وهما يقولان ﴿**رَبَّنَا**﴾: يا مالك أمرنا كلّه ﴿**تَقَبَّلْ**﴾: اجعل لعملنا قبولًا وثوابًا ﴿**مِنَّا إِنَّكَ**﴾: فأنت بكلّ تأكيد ﴿**أَنتَ السَّمِيعُ**﴾: لا يغيب عن سماعك شيءٌ ﴿**الْعَلِيمُ**﴾: بكلِّ شؤونِ خلقهِ، وهناك روايةٌ أنْ إبراهيم، وزوجه، وإسماعيل جاؤوا من الشام، ومعهم جبريل عليه السلام يقودهم إلى المكان؛ حتى بدؤوا البناء.

وأمّا عن مشاركة سيدنا محمد ﷺ في بناء الكعبة: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إسحاق بن يسار: فلما بلغ رسول ﷺ خَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً اجتمعت قريش لبناء الكعبة وكانوا يَهُمُّونَ بِذَلِكَ لِيَسْقِفُوهَا وَيَهَابُونَ هَدْمَهَا. وَإِنَّمَا كَانَتْ رَضْمًا فَوْقَ الْقَامَةِ. فَأَرَادُوا رَفْعَهَا وَتَسْقِيفَهَا وَذَلِكَ أَنَّ نَفَرًا سَرَقُوا كَنْزَ الْكَعْبَةِ، وَإِنَّمَا كَانَ فِي بِئْرٍ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ. وَكَانَ الَّذِي وجد عنده الكنز دويك مَوْلًى لِبَنِي مُلَيْحٍ

---

[١] صحيح البخاري /١٤٢/٤(٣٣٦٤).

بْنِ عَمْرِو بْنِ خُزَاعَةَ. فَقَطَعَتْ قُرَيْشٌ يَدَهُ وَتَزْعُمُ قُرَيْشٌ أَنَّ الَّذِينَ سَرَقُوهُ وَضَعُوهُ عِنْدَ دُوَيْكٍ. وَكَانَ الْبَحْرُ قَدْ رَمَى بِسَفِينَةٍ إِلَى جُدَّةَ لِرَجُلٍ مِنْ تُجَّارِ الرُّومِ. فَتَحَطَّمَتْ. فَأَخَذُوا خَشَبَهَا فَأَعَدُّوهُ لِتَسْقِيفِهَا. قَالَ الْأُمَوِيُّ: كَانَتْ هَذِهِ السَّفِينَةُ لِقَيْصَرَ مَلِكِ الرُّومِ تَحْمِلُ آلَاتِ الْبِنَاءِ مِنَ الرُّخَامِ وَالْخَشَبِ وَالْحَدِيدِ سَرَّحَهَا قَيْصَرُ مَعَ بَاقُومَ الرُّومِيِّ إِلَى الْكَنِيسَةِ الَّتِي أَحْرَقَهَا الْفُرْسُ لِلْحَبَشَةِ فَلَمَّا بَلَغَتْ مَرْسَاهَا مِنْ جُدَّةَ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهَا رِيحًا فَحَطَّمَتْهَا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ بِمَكَّةَ رَجُلٌ قِبْطِيٌّ نَجَّارٌ فَتَهَيَّأَ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ بَعْض مَا يُصْلِحُهَا. وَكَانَتْ حَيَّةٌ تَخْرُجُ مِنْ بِئْرِ الْكَعْبَةِ التي كانت تطرح فيها ما يهدى اليها كل يوم. فتشرف عَلَى جِدَارِ الْكَعْبَةِ وَكَانَتْ مِمَّا يَهَابُونَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَا يَدْنُو مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا احْزَأَلَّتْ وَكَشَّتْ وَفَتَحَتْ فَاهَا، فَكَانُوا يَهَابُونَهَا، فَبَيْنَمَا هِيَ يَوْمًا تُشْرِفُ عَلَى جِدَارِ الْكَعْبَةِ كَمَا كَانَتْ تَصْنَعُ، بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهَا طَائِرًا فَاخْتَطَفَهَا فَذَهَبَ بِهَا. فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّا لَنَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ ﷻ قَدْ رَضِيَ مَا أَرَدْنَا، عِنْدَنَا عَامِلٌ رَقِيقٌ وَعِنْدَنَا خَشَبٌ وَقَدْ كَفَانَا اللَّهُ الْحَيَّةَ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ لِهَدْمِهَا وبنيانها قام أبو وهب عمرو بن عائد بْنِ عَبْدِ بْنِ عِمْرَانَ بْنِ مَخْزُومٍ- وَقَالَ ابن هشام عائد بْنُ عِمْرَانَ بْنِ مَخْزُومٍ- فَتَنَاوَلَ مِنَ الْكَعْبَةِ حَجَرًا فَوَثَبَ مِنْ يَدِهِ حَتَّى رَجَعَ إِلَى مَوْضِعِهِ. فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ لَا تُدْخِلُوا فِي بُنْيَانِهَا مِنْ كَسْبِكُمْ إِلَّا طَيِّبًا. لَا يَدْخُلُ فِيهَا مَهْرُ بَغِيٍّ وَلَا بَيْعُ رِبًا، وَلَا مَظْلَمَةُ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ[1].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي بَعْضُ مَنْ يَرْوِي الْحَدِيثَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ مِمَّنْ كَانَ يَهْدِمُهَا أَدْخَلَ عَتَلَةً بَيْنَ حَجَرَيْنِ مِنْهَا لِيَقْلَعَ بِهَا أَحَدَهُمَا، فَلَمَّا تَحَرَّكَ الْحَجَرُ انتفضت مَكَّةُ بِأَسْرِهَا. فَانْتَهَوْا عَنْ ذَلِكَ الْأَسَاسِ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ إِنَّ الْقَبَائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ جَمَعَتِ الْحِجَارَةَ لِبِنَائِهَا، كُلُّ قَبِيلَةٍ تَجْمَعُ عَلَى حِدَةٍ، ثُمَّ بَنَوْهَا حَتَّى بلغ البناء مَوْضِعَ الرُّكْنِ فَاخْتَصَمُوا فِيهِ، كُلُّ قَبِيلَةٍ تُرِيدُ أَنْ تَرْفَعَهُ إِلَى مَوْضِعِهِ، دُونَ الْأُخْرَى، حَتَّى تحاوروا أو تحالفوا، وَأَعَدُّوا لِلْقِتَالِ فَقَرَّبَتْ بَنُو عَبْدِ الدَّارِ جَفْنَةً مَمْلُوءَةً دَمًا، ثُمَّ تَعَاقَدُوا هُمْ وَبَنُو عَدِيِّ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ عَلَى الْمَوْتِ، وَأَدْخَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي ذَلِكَ الدَّمِ فِي تِلْكَ الْجَفْنَةِ، فَسُمُّوا لَعَقَةَ الدَّمِ. فَمَكَثَتْ قُرَيْشٌ عَلَى ذَلِكَ أَرْبَعَ لَيَالٍ أَوْ خَمْسًا ثُمَّ إِنَّهُمُ اجْتَمَعُوا فِي الْمَسْجِدِ فَتَشَاوَرُوا وَتَنَاصَفُوا، فَزَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ الرِّوَايَةِ أَنَّ أَبَا أُمَيَّةَ بْنَ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عمرو بْنِ مَخْزُومٍ، وَكَانَ عَامَئِذٍ أَسَنَّ قُرَيْشٍ كُلِّهَا قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ فِيمَا تَخْتَلِفُونَ فِيهِ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ هَذَا الْمَسْجِدِ يَقْضِي بَيْنَكُمْ فِيهِ، فَفَعَلُوا، فَكَانَ أول داخل

---

[1] البداية والنهاية ط الفكر (٢/ ٣٠١).

دخل رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: هَذَا الْأَمِينُ رَضِينَا، هَذَا مُحَمَّدٌ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَلُمُّوا إِلَيَّ ثَوْبًا فأُتي بِهِ، وَأَخَذَ الرُّكْنَ فَوَضَعَهُ فِيهِ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ، ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ وَضَعَهُ هُوَ بِيَدِهِ ﷺ، ثُمَّ بَنَى عَلَيْهِ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُسَمِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْأَمِينَ[١]، وكان ارتفاع الكعبة على عهد النبي ﷺ (١٨) ذراعًا، وهو الطرف العلوي في الإنسان أو الأمامي في الدواب، وأولُ من كساها بالديباج هو الحجاجُ بن يوسف الثقفي. وقد احترقت الكعبة في أوّل إمارةِ عبد الله بن الزبير بعد سنتين، وقد هَدَمَ ابْنُ الزُّبَيْرِ الْكَعْبَةَ لَمَّا احْتَرَقَتْ، وَبَنَاهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا محمد. عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: «يَا عَائِشَةُ، لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ لَأَمَرْتُ بِالْبَيْتِ، فَهُدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ، وَأَلْزَقْتُهُ بِالأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ، بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ»، فَذَلِكَ الَّذِي حَمَلَ ابْنَ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَلَى هَدْمِهِ، قَالَ يَزِيدُ: وَشَهِدْتُ ابْنَ الزُّبَيْرِ حِينَ هَدَمَهُ، وَبَنَاهُ، وَأَدْخَلَ فِيهِ مِنَ الحِجْرِ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ حِجَارَةً، كَأَسْنِمَةِ الإِبِلِ، قَالَ جَرِيرٌ: فَقُلْتُ لَهُ: أَيْنَ مَوْضِعُهُ؟ قَالَ: أُرِيكَهُ الآنَ، فَدَخَلْتُ مَعَهُ الحِجْرَ، فَأَشَارَ إِلَى مَكَانٍ، فَقَالَ: هَا هُنَا، قَالَ جَرِيرٌ: فَحَزَرْتُ مِنَ الحِجْرِ سِتَّةَ أَذْرُعٍ أَوْ نَحْوَهَا[٢]، فَلَمَّا قُتِلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ وَوُلِّيَ الْحَجَّاجُ عَلَى مَكَّةَ أَعَادَ الْبَيْتَ عَلَى مَا كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَنَقَضَ حَائِطَهُ مِنْ جِهَةِ الْحِجْرِ فَصَغَّرَهُ، وَأَخْرَجَ مِنْهُ الْحِجْرَ، وَأَخَذَ مَا فَضَلَ مِنَ الْحِجَارَةِ، فَدَكَّهَا فِي أَرْضِ الْبَيْتِ، فَعَلَا بَابُهُ، وسد الباب الغربي[٣].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُخَرِّبُ الكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الحَبَشَةِ»[٤]، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَيُحَجَّنَّ الْبَيْتُ وَلَيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ[٥].

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢٨)

﴿رَبَّنَا﴾: يا من تملك أمرنا كلّه ﴿وَاجْعَلْنَا﴾: أيضًا سخّرنا ووفقنا أنْ نكون ﴿مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾: منقادين، مُستسلمين لأمرك ﴿وَمِنْ﴾: حرفٌ يفيد بعض ﴿ذُرِّيَّتِنَا﴾: واجعل من نسلنا، قال ابن

---

[١] البداية والنهاية ط إحياء التراث (٢/ ٣٧١).
[٢] صحيح البخاري (٢/ ١٤٧).
[٣] تاريخ الإسلام ط التوفيقية (٥/ ٣٠).
[٤] صحيح البخاري (٢/ ١٤٨).
[٥] صحيح البخاري/٢/١٤٩(١٥٩٣).

جرير: اجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك في طاعتك أحدًا سواك، ولا في العبادة غيرك ﴿أُمَّةً﴾: جماعةً كبيرةً ﴿مُسْلِمَةً لَكَ﴾: لا تقتصر على العرب؛ فاليوم يبلغ عدد المسلمين أكثر من مليارين من واقع حوالي سبعة مليارات نسمة، عددُ سكان العالم، وقال ابن جرير: وهو الرأي الأصوب: العرب وغيرهم؛ قال ﷺ ﴿وَأَرِنَا﴾: عطفًا على تعلمنا وأرشدنا كيف نؤدي ﴿مَنَاسِكَنَا﴾: نُقيم عبادتك على الوجه الذي تريد، ﴿وَتُبْ﴾: وعطفًا على عبادتنا اغفر وسامح ﴿عَلَيْنَا﴾: لنا، وتجاوز عن سيئاتنا، وتقصيرنا ﴿إِنَّكَ﴾: أنت سبحانك بالتأكيد ﴿أَنْتَ﴾: تحديدًا وتخصيصًا ﴿التَّوَّابُ﴾: لا أحد يقبلُ التوبةَ مثلك ﴿الرَّحِيمُ﴾: واسعُ الرحمة بعبادك.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٢٩)

﴿رَبَّنَا﴾: يا مالك أمرنا كلّه ﴿وَابْعَثْ﴾: أيضًا أرسل ﴿فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾: لتمام الدعوة، كانت دعوة إبراهيم ﷺ لأهل الحرم أنْ يكون الرسولُ منهم، من ذرّية إبراهيم ﷺ، وقد جاءت بعثةُ محمدٍ ﷺ استجابةً لهذه الدعوة بقدر الله ﷻ السابق، إلى الأميّين والأعجميين من الإنس ومن الجنّ، وعن بشارة عيسى قال الله ﷻ: **﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾** [الصف-٦]، عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ السُّلَمِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِنِّي عِنْدَ اللهِ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِ ذَلِكَ، دَعْوَةِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبِشَارَةِ عِيسَى قَوْمَهُ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ، وَكَذَلِكَ تَرَى أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ[١]، وعَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»[٢]. ﴿يَتْلُو﴾: يقرأ ويوضح ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾: الأدلّة والبراهين على صدق دعوتك ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾: أيضًا يُفسّرُ لهم ﴿الْكِتَابَ﴾: القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: أيضًا السُنّة النبوية المشرفة، وفهم الدين ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: يُنقي نُفوسَهم من المعاصي، ويُصحح عبادتهم ﴿إِنَّكَ﴾: أنت بالتأكيد ﴿أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾: الذي لا يغلبه أحدٌ، ولا يُعجزهُ شيءٌ، والقادرُ على كلِّ شيءٍ ﴿الْحَكِيمُ﴾: الذي شرّع الحِكم والمُحكم الذي لا خلل فيه من الأقوال والأفعال بالعدل.

---

[١] مسند أحمد ط الرسالة (٢٨/ ٣٩٥).

[٢] صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٣).

التكليف: هذا يعني استقرار دين محمد ﷺ، وثبوته في بلاد الشام، وبذلك تكون الشام في آخر الزمان معقلًا للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى بن مريم عليه السلام، في دمشق بالمنارة الشرقية، البيضاء منها، عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، قَالَ: فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ[1].

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣٠)

﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الحال **﴿مَنْ﴾**: الذي من جنس العاقل **﴿يَرْغَبُ﴾**: الذي يترك، ويزهد، ويهجر، ويبتعد **﴿عَنْ﴾**: حرفُ جرّ يفيد المجاوزة **﴿مِلَّةِ﴾**: دين **﴿إِبْرَاهِيمَ﴾**: ملّة التوحيد **﴿إِلَّا﴾**: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ **﴿مَنْ﴾**: الذي من جنش العاقل وهم البشر **﴿سَفِهَ﴾**: جهل وحقّر، وأذلّ؛ فبذلك ظلم **﴿نَفْسَهُ﴾**: أصاب ذاته وجوهره بسوء تقديره، وتدبيره، وبترك الحق وباتباع الضلال، وترك طريق إبراهيم عليه السلام، وملّته، وأشرك، فظلم نفسه، جاء في المعنى: **﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾** [لقمان-١٣]، وجاء أيضًا: **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾** [النحل-١٢٠]، واليهود هم الراغبون عن ملّة إبراهيم؛ فقد ابتدعوا، وخالفوا سُنّة إبراهيم عليه السلام، وملّته، وادّعوا أنّه يهوديٌّ أو نصرانيٌّ، وهو الذي ذكره القرآن قائلًا: **﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [الأنعام-٧٨، ٧٩] **﴿وَلَقَدِ﴾**: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق **﴿اصْطَفَيْنَاهُ﴾**: جاء لفظ الاصطفاء بصيغة الجمع لعظم الفعل، فقد اختاره الله ﷻ لشأنٍ عظيمٍ **﴿فِي الدُّنْيَا﴾**: ليكون نبيًّا، وأبًا للأنبياء؛ فكان له أجرهُ وأجرُ من اتبعه، واتبع الأنبياء من بعده **﴿وَإِنَّهُ﴾**: للتأكيد هو إبراهيم عليه السلام **﴿فِي الْآخِرَةِ﴾**: يوم القيامة **﴿لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾**: وعدٌ من الله ﷻ لإبراهيم عليه السلام، أنّه تخصيصًا من الفائزين فيها.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣١)

﴿إِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن **﴿قَالَ لَهُ﴾**: قيل لإبراهيم عليه السلام، والقائل هو **﴿رَبُّهُ﴾**: هو ﷻ الثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ، أي اذكروا أنّ الله ﷻ قال لإبراهيم **﴿أَسْلِمْ﴾**: أخلص العبادة، وتشهد الآيات القرآنية على إسلام إبراهيم عليه السلام لربِّ العالمين، ويردُّ إبراهيم عليه السلام، على الكُفّار والمشركين المخالفين لملّته، **﴿قَالَ﴾**: إبراهيم

---

[1] صحيح مسلم (١/ ١٣٧).

﴿أَسْلَمْتُ﴾: استسلمت لله ﷻ خالصًا مؤمنًا ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: كلِّ المخلوقاتِ من الإنسِ، والجنِّ، والملائكةِ، والكواكبِ، والنجومِ، وهو الذي لم يدعُ مع الله ﷻ أحدًا، وتبرأ من كلّ معبودٍ، وخالف قومه وحتى والده، قال ﷻ: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُون، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام-٧٨]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف-٢٦]، وجاء أيضًا: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة-١١٤]، ويشهد الله ﷻ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل-١٢٠]، هذا هو الإسلام لربِّ العالمين، يشهد به الله ﷻ لإبراهيم في القرآن الكريم.

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٢)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق، أيضًا ﴿وَصَّى بِهَا﴾: وصّى إبراهيم عليه السلام، ووصيته، هي الملّةُ الواجبةُ ﴿بَنِيهِ﴾: أبناءه، قيل والله أعلم أنّه في عهد إبراهيم عليه السلام وسارة، جاء يعقوبُ مولودًا لإسحاق ﴿و﴾: أيضًا أمر بها ﴿يَعْقُوبُ﴾: قال ﷻ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء-٧٢]، وهذا يعني أنّه هو باني مسجد بيت المقدس، فعن أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ أَوَّلَ؟ قَالَ: «المَسْجِدُ الحَرَامُ» قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ «المَسْجِدُ الأَقْصَى» قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ بَعْدُ فَصَلِّهْ، فَإِنَّ الفَضْلَ فِيهِ»[1]، ﴿يا﴾ حرف نداء للقريب والبعيد ﴿بَنِيَّ﴾: أولادي وأحفادي ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ اصْطَفَى﴾: اختار وارتضى ﴿لَكُمُ﴾: تخصيصا ﴿الدِّينَ﴾: الإسلام ﴿فَلَا﴾: أداة نهي تفيد طلب عدم الفعل ﴿تَمُوتُنَّ﴾: لا تصلوا إلى نهاية عمركم ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: تعني أحسنوا العمل في الدنيا حتى تموتوا على ما كنتم عليه، وتُبعثوا على ما مات عليه، توصيةُ الوالدِ وصيةُ خير.

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٣)

﴿أَمْ﴾: هل، حرفُ استنكارٍ وتوبيخٍ ﴿كُنْتُمْ﴾: أيّها المُشركون من العرب أبناء إسماعيل، وهم الكُفّار من بني إسرائيل ﴿شُهَدَاءَ﴾: شاهدتم وتشهدون ﴿إِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى حين ﴿حَضَرَ﴾: جاء وقت ﴿يَعْقُوبَ﴾: إذ جاء النبي إسرائيل ﴿الْمَوْتُ﴾: وقت موته،

---

[1] صحيح البخاري /٤/١٤٥(٣٣٦٦).

الذين قالوا: إنّ يعقوب وصّى بها أبناءه فقط، وقد يكون هذا الأغلب ﴿إِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوكيد ﴿قَالَ لِبَنِيهِ﴾: لأولاده ﴿مَا﴾: حرف استفهام ﴿تَعْبُدُونَ﴾: تُطيعون ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا ابتداء الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِي﴾: الذي تطيعون بعد أنْ أموت؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ﴾: نُطيع ونتّبع ﴿إِلَهَكَ﴾: الذي تعبدهُ أنت وهو الله ﷻ ﴿وَإِلَه﴾: ومعبود ﴿آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾: وهو الله ﷻ، ربّ جدّك إبراهيم وربّ أبيك إسحق، وربّ عمك إسماعيل وربّ الكون ﴿إِلَهًا﴾: معبودًا ﴿وَاحِدًا﴾: نوحّده بالألوهية لا شريك له ﴿وَنَحْنُ لَهُ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿مُسْلِمُونَ﴾: مُطيعون، خاضعون. إنّ الإسلام هو ملّة الأنبياء جميعًا، وإنْ تنوعت الشرائعُ والمناهجُ، جاء في المعنى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء-٢٥].

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٤)

﴿تِلْكَ﴾: اسم إشارة يشير هنا إلى سيدنا إبراهيم وأولاده وأتباعه ﴿أُمَّةٌ﴾: من الذين جاء ذكرهم، ومنهم نسل يعقوب عليه السلام، جاءت كلمة "**أُمّة**" في القرآن في معاني تسعةٍ، هنا بمعنى عُصبة، وكذلك بالمعنى نفسه في قوله ﷻ ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف-١٥٩] ﴿قَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد ﴿خَلَتْ﴾: مضت، ذهبت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾: الاسم هنا يعود على إبراهيم عليه السلام، ومن تبعه من ذريته والناس، ما اكتسبوا من ثواب الإيمان والأعمال الصالحة ﴿وَلَكُمْ مَا﴾: الاسم هنا يعود على اليهود أصحاب الكفر والمعاصي ﴿كَسَبْتُمْ﴾: لا ينفعكم انتسابكم للسلف الماضين من آبائكم، ومن الأنبياء والصالحين ﴿وَلَا﴾: أيضاً نفي ﴿تُسْأَلُونَ﴾: تُحاسبون ﴿عَمَّا﴾: عن أي شيء ﴿كَانُوا﴾: في السابق ﴿يَعْمَلُونَ﴾: من خيرٍ أومن شرٍّ، إذا لم تفعلوا خيرًا ينفعكم؛ فإنّ لآبائكم ثوابَ أو عقابَ عملِهم الذي عملوا، ولكم جزاءُ أعمالكم التي عملتم.

التكليف: حال اليهود في الماضي يقول من أبطأ به عملُه، لم يُسرع به نسبهُ.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٥)

﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿قَالُوا﴾: اليهود ﴿كُونُوا هُودًا﴾: اعتنقوا عقيدة اليهود ﴿أَوْ﴾: حرفٌ يُفيد التقسيم والتسوية بين شيئين متعاطفين، وهنا تفيد التفصيل ﴿نَصَارَى﴾: المسيحيين ﴿تَهْتَدُوا﴾: وقالت اليهود لمحمدٍ ﷺ وأصحابه من المؤمنين: كونوا هودًا فقط تهتدوا؛ وقالت النصارى لهم: كونوا نصارى فقط تهتدوا؛ فأنزل الله ﷻ الآية، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صُورِيَا

الْأَعْوَرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَا الْهُدَى إِلَّا مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، فَاتَّبِعْنَا يَا مُحَمَّدُ تَهْتَدِ. وَقَالَتِ النَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ[1]، ﴿قُلْ﴾: أمرٌ من اللهِ ﷻ واجبٌ ﴿بَلْ﴾: حرف ينفي ما قبله؛ ويؤكد ما بعده ﴿مِلَّةَ﴾: دين ﴿إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾: الحنيف الذي لا يرجع عن دينه الإسلام، دين الفطرة، ومعنى الحنيف: أي المستقيم، دين المُخلص، المُؤمن بالرسل كلِّهم من أولهم إلى أخرهم ﴿وَمَا﴾: أيضاً نفي ﴿كَانَ﴾: من جماعةٍ أو عصبةٍ ﴿مِنَ﴾: بعض أو كل ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾: الذين عبدوا مع الله ﷻ آلهةً أُخرى.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٦)

﴿قُولُوا﴾: أمرٌ ربّانِيٌّ بالقول ﴿آمَنَّا﴾: اعتقدنا يقينًا وتصديقًا بالجوارح ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ وَ﴾: عطفًا على هذا آمنا ﴿مَا﴾: الذي ﴿أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾: أمرَ اللهُ عباده المؤمنين بالإيمان بما أُنزل على محمدٍ ﷺ مُفصّلًا، ومُوضّحًا، وشارحًا ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾: وأمرهم ﷻ بالإيمان بما نزل على ﴿الْأَسْبَاطِ﴾: هم أبناءُ يعقوب ﷺ، كانوا اثني عشر رجلًا، كلُّ واحدٍ منهم له عددٌ كبيرٌ من النسل، إنّ لفظ أمّة تسمى سبط، وأمرهم الله ﷻ ألّا يُفرّقوا بين الأنبياء بالإيمان؛ أي لا يؤمنوا ببعضٍ ويكفروا ببعضٍ، وقال البخاري: كان أهلُ الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال لهم رسول الله ﷺ: لاَ تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ﴾ [البقرة-١٣٦] الآيَةَ[2]، ومعنى السَبَط: هو الشجر أي كثير، والسبْط: هو التتابع؛ هو الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصلٍ واحدٍ، قال ابن عباس: كلُّ الأنبياءِ من بني إسرائيل إلّا عشرة: نوح، وهود، وصالح، وشعيب، وإبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وإسماعيل، ومحمد، عليهم الصلاة والسلام، ﴿وَمَا﴾: أيضًا آمنوا بالذي ﴿أُوتِيَ﴾: نزل من الله ﷻ على ﴿مُوسَى وَعِيسَى وَمَا﴾: بمعنى الذي ﴿وَأُوتِيَ﴾: أُعطي ﴿النَّبِيُّونَ مِنْ﴾: حرف جرّ يفيد ابتداء الغاية؛ وهي هنا من الله ﷻ ﴿رَبِّهِمْ﴾: مالك أمرهم كلّه ﴿لَا﴾: حرف تحريم ﴿نُفَرِّقُ﴾: نفصل أو نميّز ولا نفاضل ﴿بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾: كأنبياء ﴿وَنَحْنُ﴾: ضميرٌ يُفيد الجمع ﴿لَهُ﴾: لله ﷻ ﴿مُسْلِمُونَ﴾: مستسلمون.

---

[1] تفسير الطبري /٢/٥٨٩. وقال أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين: إسناده حسن في الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور (١/ ٢٤٤). وحسن إسناده الأستاذ عصام الحميدان في تحقيقه لـ أسباب النزول للواحدي ص٤٤.

[2] صحيح البخاري /٦/٢٠(٤٤٨٥).

﴿فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣٧)

﴿فَإِنْ﴾: حرف شرط بمعنى إذا ﴿آَمَنُوا﴾: آمن اليهود والنصارى وآخرون ﴿بِ﴾: حرف الباء هنا يفيد المقابلة ﴿مِثْلِ مَا﴾: الذي ﴿آَمَنْتُمْ بِهِ﴾: مثل إيمان أتباع محمد ﷺ ﴿فَقَدِ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿اهْتَدَوْا﴾: وصلوا إلى الطريق المستقيم الذي أراده الله ﷻ ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَوَلَّوْا﴾: إذا رفضوا وكفروا وابتعدوا ﴿فَإِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ تُفيد التحديد والتخصيص ﴿هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾: جاء لفظ شقاق في القرآن الكريم على ثلاثةِ وجوه؛ هنا بمعنى الضلالِ، والتيهِ، والضياع، وكذا في قوله ﷻ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة-١٧٦] ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد هنا الجواب ﴿سَ﴾: حرف تأكيد الفعل في المستقبل ﴿يَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾: سوف يكفيك شرّهم؛ فيكفّ عنك كيدهم، ويحفظُك من مكرهم ﴿وَهُوَ﴾: الله ﷻ ﴿السَّمِيعُ﴾: يسمعُ كلّ شيءٍ ﴿الْعَلِيمُ﴾: بكلّ شيءٍ.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ (١٣٨)

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾: هي دين الله ﷻ وتعني تطهير الله لعباده من الذنوب، وقد جاءت هنا؛ لإبطال مُعتقد النصارى؛ لأنّ الصبغ عندهم بمعناه الحقيقي إذ كانوا يصبغون الماء باللون الأصفر، ويُسمى ماء المعمودية؛ يستخدمونه لتطهير المذنب منهم بغمسه فيه، فلمّا جاء الإسلام أبطل هذه العقيدة الفاسدة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا: يَا مُوسَى هَلْ يَصْبُغُ رَبُّكَ؟ قَالَ: اتَّقُوا اللَّهَ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا مُوسَى سَأَلُوكَ هَلْ يَصْبُغُ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: نَعَمْ. أَصْبَغُ الأَلْوَانَ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ وَالأَسْوَدَ، وَالأَلْوَانُ كُلُّهَا فِي صِبْغَتِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: صِبْغَةَ اللَّهِ ومن أحسن من الله صبغة[1]، ﴿وَمَنْ﴾: حرفُ استفهامٍ عن العاقل ﴿أَحْسَنُ﴾: لا أحد أحسن ﴿مِنَ﴾: حرفُ جرّ يُفيد ابتداء الغاية، وهي هنا المصدر، اللّهِ تعالى ﴿صِبْغَةً﴾: هو دين الله ﷻ، الذي فطر النّاس عليه ﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الحال؛ أي إنّ الله ﷻ صبغنا بالإيمان، صبغةً ليست كصبغتكم للماء باللون الأصفر، وطهّرنا من الذنوب تطهيرًا؛ ليس كتطهيركم أنتم، وعليه تكون هذه من المشاكل التقديرية؛ إذ توجد كلمةٌ مقدرةٌ في الكلام وهي صبغنا، وتحمل المعنى الحقيقي للصبغ،

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم /١/٢٤٥(١٣١٤). وانظر المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يُخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما للمقدسي /١٠/١١١. وقال ابن كثير: كَذَا وَقَعَ فِي رِوَايَة اِبْن مَرْدَوَيْهِ مَرْفُوعًا وَهُوَ فِي رِوَايَة اِبْن أَبِي حَاتِم مَوْقُوف وَهُوَ أَشْبَه إِنْ صَحَّ إِسْنَاده وَاَللَّه أَعْلَم تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٥).

والمذكورة صبغة الله، التي تحمل المعنى المجازي نفسه؛ وهو التطهير، وهذا من المُحسّنات البلاغية ﴿نَحْنُ لَهُ﴾: إننا لله ﷻ تخصيصًا ﴿عَابِدُونَ﴾: مُطيعون، مُنفذون لأوامره ﷻ.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (١٣٩)

﴿قُلْ﴾: أمرٌ ربّانيّ يا محمد ﷺ سلهم اسألهم مستنكرًا ﴿أَ﴾: حرفُ استفهامٍ يفيد الإنكار التوبيخي ﴿تُحَاجُّونَنَا﴾: هل تُناظروننا، هل تُجادلُوننا يا أهل الكتاب في توحيد الله ﷻ في الذي نزل على محمد ﷺ ﴿فِي اللَّهِ﴾: في الإخلاصِ والانقيادِ وإتباعِ أوامره؛ لأنّ دينكم أسبق ﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الاستئناف ﴿هُوَ﴾: الله ﷻ وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر ﴿رَبُّنَا﴾: هو المُربي وهو المنشئ لكل شيءٍ في الكون من حالٍ إلى حالُ؛ إلى حدِّ التمام، مالك أمرنا كلّه ﴿وربُّكُمْ﴾: وهو الله ﷻ؛ المالك المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الألوهية ﴿ولَنَا﴾: تخصيصًا ﴿أَعْمَالُنَا﴾: هنا نتبرأ من أعمال المشركين والاعتزاز بأعمال المؤمنين، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ وأنتم براءٌ من أعمالنا وعليكم وزر أعمالكم ﴿وَنَحْنُ﴾: ضميرٌ يُفيد الجمع المتحدث ﴿لَهُ﴾: تخصيصًا ﴿مُخْلِصُونَ﴾: صادقون في عبادتنا، وطاعتنا لله ﷻ.

التكليف: لا بد من تمايز البرامج على مستوى النفس، والفكر، والاعتقاد، ومستوى العمل، وهو ما تحاولُ بعضُ قوى الشرك طمسهُ تحت مُسمياتِ الوحدةِ الوطنية.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٠)

﴿أَمْ﴾: استفهام بمعنى هل ﴿تَقُولُونَ﴾: تدّعون يا أهل الكتاب اليهود والنصارى ﴿إِنَّ﴾: حرفٌ للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾: والأنبياء من أبناء يعقوب ﴿كَانُوا هُودًا أَوْ﴾: حرفُ عطفٍ يُفيد التسويةَ بين متعاطفين ﴿نَصَارَى﴾: يُنكر اللهُ ﷻ على اليهود ادعاءاتهم أنّ إبراهيم عليه السلام، ومن تبعه من الأنبياء والأسباط كانوا على ملّة اليهود، أو على ملّة النصارى ﴿قُلْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ بسؤال ﴿أَ﴾: حرفُ استفهامٍ إنكاري تكذيبي ﴿أَنْتُمْ أَعْلَمُ﴾: أكثرُ علمًا ﴿أَمِ اللَّهُ﴾: هل أنتم أكثرُ علمًا من الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ [آل عمران-٦٧] ﴿وَمَنْ﴾: حرف استفهام عن العاقل ﴿أَظْلَمُ﴾: ليس هناك من هو أظلمُ ﴿مِمَّنْ﴾: من الذي من جنس البشر ﴿كَتَمَ﴾: أخفى، وأنكر بشدّة ﴿شَهَادَةً﴾: كان اليهود والنصارى يقرؤون في كتاب الله ﷻ الذي جاءهم أنّ الدين هو الإسلام، وأنّ محمدًا رسول الله، وأنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب

والأسباط؛ كانوا بريئين من اليهودية والنصرانية، لكنّهم كتموا هذه الشهادة؛ فجاءهم التهديد الربّانيّ الشديد ﴿عِنْدَهُ﴾: ظرف مكان ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: فاللهُ مُحيطٌ بعملهم؛ وسيحاسبُهم عليه ﴿وَمَا﴾: غطفًا على إيماننا فإننا ننفي أنّ ﴿اللَّهُ﴾: ليس الله ﷻ ﴿بِ﴾: حرف باء التوكيد ﴿غَافِلٍ عَمَّا﴾: عن الذي ﴿تَعْمَلُونَ﴾: لا يغيبُ عنه، ولا ينسى، وسيُجازي ويُحاسب؛ فهذا تهديدٌ، ووعيدٌ من الله ﷻ للذين كتموا الشهادة.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤١)

﴿تِلْكَ﴾: إشارةٌ للبعيد المؤنث ﴿أُمَّةٌ﴾: جماعةٌ من جنسٍ واحدٍ، أو أصحابُ عقيدةٍ واحدةٍ ﴿قَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿خَلَتْ﴾: أي مضت في الدهر ﴿لَهَا﴾: تمليكًا وتخصيصًا ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَسَبَتْ﴾: لها جزاء أعمالها خيرًا أو غير ذلك ﴿وَلَكُمْ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾: ولكم جزاء أعمالكم؛ الكلُّ ماضٍ إلى ربّه بما عمل ﴿وَ﴾: حرف عطف بمعنى أيضًا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تُسْأَلُونَ﴾: لا تُحاسبون، ولا يُغني عنكم انتسابكم إليهم بشرط عدم اتباعهم ﴿عَمَّا﴾: عن أيّ شيء ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: بما عملوا من كفرٍ أو إلحادٍ. والحقيقة هي أنّ من كفر بنبيّ واحدٍ؛ فقد كفر بسائر الرسل، وخاصّة محمد ﷺ.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٤٢)

أسباب النزول: صلّى رسول الله ﷺ في اتجاهِ بيتِ المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر، وكان يريدُ أنْ تكون قبلته الكعبة، عَنِ البَرَاءِ ﷺ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ البَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى، أَوْ صَلَّاهَا، صَلاَةَ العَصْرِ وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ» فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ صَلَّى مَعَهُ فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ المَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ، قَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ، لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ البَيْتِ، وَكَانَ الَّذِي مَاتَ عَلَى القِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ قِبَلَ البَيْتِ رِجَالٌ قُتِلُوا، لَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة-١٤٣][1].

﴿سَ﴾: حرفُ توكيد القول وتأكيد الفعل في المستقبل ﴿يَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾: سوف يقول أصحابُ العقول الضعيفة؛ الجاهلون وهم مشركو العرب، وقيل المنافقون، ومَنْ على شاكلتهم، وكفّار قريش وقيل اليهود وأحبارُهم، جاءت بلفظ سيقول وليس قال؛ لأنّ السفه ظاهرةٌ متكررةٌ في كلّ زمانٍ ومكانٍ ﴿مِنَ﴾: حرفُ جرّ يُفيد ابتداء الغاية، وهي هنا المصدر وهم ﴿النَّاسِ﴾: عموم

[1] صحيح البخاري /١/١٧(٤٠).

البشر ﴿مَا﴾: حرفُ استفهام ﴿وَلَّاهُمْ﴾: جعل تغيير وجهتهم ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرّ يفيدُ المجاوزة ﴿قِبْلَتِهِمُ﴾: وهي اتجاه بيت المقدس في فلسطين التي كانوا يتجهون إليها ﴿الَّتِي﴾: اسم موصول بالمفرد المؤنث ﴿كَانُوا﴾: في السابق ﴿عَلَيْهَا﴾: صرفهم عن القبلة التي كانوا يستقبلونها في صلاتهم؛ حيث كان اليهودُ قد فرحوا بسبب أنّ محمدًا ﷺ يستقبل بيت المقدس؛ التي يعدونها قِبلتهم، حتى جاء الأمرُ كما يُحبّ النبي ﷺ ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة-١٤٤]، ﴿قُلْ﴾: أمرٌ ربّانيّ بالقول ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ﴾: الأرض والملكوت التي من خلفها تشرق الشمس ﴿وَالْمَغْرِبُ﴾: أيضاً له تعالى الأرض والملكوت التي خلفها تغرُب وتغيبُ الشمسُ، وهذا دالٌّ على أنّ الكون المرئي لهؤلاء النّاس في ذلك الزمان كلّه لله ﷻ ﴿يَهْدِي﴾: يُيسّرُ أمر الهداية والرشاد ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾: من أراد ﷻ، يهدي الإنسان الذي هو جنس العاقل ﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾: إلى طريقٍ، ومنهج؛ المقصود الدين ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾: الذي لا عوج فيه، والأقرب إلى تحقيق الغاية، في أقصر طريقٍ، وأقلّ وقتٍ.

التكليف: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قال النَّبِيُّ ﷺ بحق أهل الكتاب: إِنَّهُمْ لَا يَحْسُدُونَا عَلَى شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُونَا عَلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ الَّتِي هَدَانَا اللهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى الْقِبْلَةِ الَّتِي هَدَانَا اللهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الْإِمَامِ: آمِينَ[1].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤٣)

﴿وَكَذَلِكَ﴾: مثل كلّ ما سبق من الأمورِ التي أخبر اللهُ ﷻ عنها ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾: قدّرناكم وارتضيناكم أيّها المسلمون أنْ تكونوا ﴿أُمَّةً﴾: تنتسبون إلى دينٍ واحدٍ، وقومياتٍ متعددة ﴿وَسَطًا﴾: عُدولًا بين الأمم جميعًا في العبادات، والمعاملات، والعقائد؛ فلستم مُنحازين لأممٍ سابقةٍ، فالخيارُ الأجوَد، والعدلُ هو الأوسط، وقد كان رسول الله ﷺ وسطًا في قومه؛ وهو خيارهم، وخيار الأمم هم أشرفهم نسبًا، وأصحابُ أفضلِ المناهج، وأوضحِ المذاهب؛ كما أراد الله ﷻ أنْ تكونوا بلا تطرفٍ، أو غلوٍ، أو تفريطٍ، أو انحيازٍ ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿تَكُونُوا﴾: تصيروا ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾: وهذه تعنى شهداءَ الرسل خاصّة، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَأَكْثَرُ مِنْ

---

[1] مسند أحمد /٤١/٤٨١(٢٥٠٢٩). وقال شعيب الأرنؤوط وآخرون: حديث صحيح.

ذَلِكَ، فَيُدْعَى قَوْمُهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَكُمْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا. فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَيُدْعَى مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا قَوْمَهُ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُقَالُ: وَمَا عِلْمُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جَاءَنَا نَبِيُّنَا، فَأَخْبَرَنَا: أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾ [البقرة-١٤٣] يَقُولُ: عَدْلًا، ﴿**لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ [البقرة-١٤٣][1]، ﴿**وَيَكُونَ**﴾: أيضاً يصير ﴿**الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾: ثم أشهد عليكم شهادةَ حقٍ وعدلٍ ﴿**وَمَا**﴾: حرف نفي، أيضاً ﴿**جَعَلْنَا**﴾: قدّرنا ﴿**الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا**﴾: وهي بيت المقدس ﴿**إِلَّا**﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ ﴿**لِ**﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿**نَعْلَمَ**﴾: نكون على علمِ معرفةِ وقوعٍ، وهو ﷻ أعلم ﴿**مَنْ**﴾: الذي من جنس العاقل ﴿**يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ**﴾: مِنْ الذي ﴿**يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ**﴾: لمعرفةِ علمِ وقوعِ حالِ مَنْ يتبع، ويطيع، ويستقبل، القبلة مع الرسول ﷺ حيثما توجه، ونميزهم عمّن ينقلب على عقبيه، أي يرتدّ عن دينهِ ﴿**وَإِنْ**﴾: تفيد التأكيد ﴿**كَانَتْ لَكَبِيرَةً**﴾: كان هذا الحدث، وهو تغييرُ القبلةِ من بيت المقدسِ إلى الكعبةِ عظميًا وكبيرًا على النفوس ﴿**إِلَّا**﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ؛ للتمييز بين موقفين من البشر ﴿**عَلَى الَّذِينَ**﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿**هَدَى اللَّهُ**﴾: إلّا المُصدّقين برسالة محمدٍ ﷺ الذين يؤمنون أنّ الله ﷻ يفعل ما يشاء ولهُ الحكمةُ التامّةُ والحُجّةُ البالغةُ، وجاء في المعنى آيات أوضحت ذلك: ﴿**وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾ [التوبة-١٢٤، ١٢٥] ﴿**وَمَا**﴾: حرفُ نفي ﴿**كَانَ اللَّهُ لِ**﴾: حرفُ علّةٍ وسببٍ ﴿**يُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾: المقصود هنا يذهب ينتهي أجرُ الصلاةِ للذين كانوا متجهين نحو بيت المقدس، وقال الحسن البصري: لن يُضيّع اللهُ ﷻ محمدًا ﷺ إذا انصرفوا ﴿**إِنَّ**﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿**اللَّهَ بِ**﴾: حرف باء الصلة ﴿**النَّاسِ**﴾: عموم بني آدم ﴿**لَرَءُوفٌ**﴾: عطوف ﴿**رَحِيمٌ**﴾: لا يُكلّفهم إلّا وسعهم، ولا يُضيع ثواب عملهم.

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٤)

﴿**قَدْ**﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿**نَرَى**﴾: قد رأينا يا محمد ﴿**تَقَلُّبَ**﴾: تغيّر ﴿**وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ**﴾: تحوّل وجهك ونظرك إلى السماء؛ انتظارًا للوحي بشأن

---

[1] مسند أحمد /١٨/١١٢(١١٥٥٨). تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين

القبلة؛ فقد كان ﷺ يُحبُّ قبلة إبراهيم عليه السلام؛ وهي الكعبة؛ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَوَّلُ مَا نُسِخَ مِنَ الْقُرْآنِ فِيمَا ذُكِرَ لَنَا شَأْنُ الْقِبْلَةِ، قَالَ اللَّهُ: ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ [البقرة-١١٥] فَاسْتَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَتَرَكَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا**﴾ [البقرة-١٤٢] يَعْنُونَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَنَسَخَتْهَا، وَصَرَفَهُ اللَّهُ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾ [البقرة-١٥٠][1]، ولقد هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، وكان اليهود يُمثّلون أغلبية سكانها، وعندما أمر اللهُ ﷻ نبيّهُ ﷺ استقبال بيت المقدس؛ فرح اليهود، فكان ﷺ يدعو الله ﷻ وينظر إلى السماء؛ فنزلت الآية ﴿**فَـ**﴾: حرف تعليل، هنا كانت استجابةً عاجلةً ﴿**لَـ**﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿**نوَلِّيَنَّكَ**﴾: النون الثانية هنا للتأكيد، نجعلك تولّي وجهك نحو ﴿**قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَـ**﴾: لهذا السبب ﴿**وَلِّ**﴾: وجّه ﴿**وَجْهَكَ**﴾: مُقدمة الجسم كلّه ﴿**شَطْرَ**﴾: تلقاء، أي جهة ﴿**الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾: وهي الكعبة المُشرّفة، إلى المسجد الحرام، في مكّة المكرّمة ﴿**وَحَيْثُ**﴾: أيضًا في كلّ ظرفٍ وحال يدُلّ على الزمان والمكان ﴿**مَا**﴾: حرفٌ يُفيد مصدر ﴿**كُنْتُمْ فَـ**﴾: حرف يفيد السبب ﴿**وَلُّوا**﴾: وجهوا ﴿**وُجُوهَكُمْ**﴾: المقصود مقدمة جسد الإنسان كلّه ﴿**شَطْرَهُ**﴾: وهو توجيهٌ ربّاني لكلّ المسلمين؛ أنْ تكون قبلتهم في صلاتهم الكعبة فالرسول ﷺ هنا يُخبر أنّ دين الله ﷻ سيصلُ مشارق الأرض ومغاربها، وكان في المدينة، وهو أمرٌ لكلّ مسلمٍ في أيّ مكان، من جميع جهات الأرض شرقًا، وغربًا، شمالًا، وجنوبًا، لا يُستثنى من ذلك سوى: النافلة في حال السفر، وفي القتال بالسيف المسايفة؛ فيصلّيها حيثما توجه جسده، وقلبهُ متوجهٌ إلى الكعبة، ومن لا يعرف جهة القبلة يُصلي على كلّ حالٍ باجتهاده ﴿**وَإِنَّ**﴾: تقرير صدق وعدل ﴿**الَّذِينَ**﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿**أُوتُوا**﴾: أُعطوا ﴿**الْكِتَابَ**﴾: هم اليهود الذين أنكروا استقبال المسلمين للكعبة وانصرافهم عن بيت المقدس ﴿**لَـ**﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿**يَعْلَمُونَ**﴾: هم بالتأكيد يعلمون في كُتبهم وعن أنبيائهم ﴿**أَنَّهُ**﴾: مِنْ صفات الرسول ﷺ، وصفاتِ أمّتهِ، وما خصّهُ اللهُ ﷻ من الشريعة الكاملة ﴿**الْحَقُّ مِنْ**﴾: حرفُ جرّ يُفيد ابتداء الغاية، وهي هنا المصدر ﴿**رَبِّهِمْ**﴾: مالكِ أمرهم إنّ الحق والصدق هو أمرُ الله ﷻ ﴿**وَمَا**﴾: حرف نفي ﴿**اللَّهُ بِغَافِلٍ**﴾: ليس مُنصرفًا، أي الذي لا يعلم ﴿**عَمَّا**﴾: عن الذي ﴿**يَعْمَلُونَ**﴾: عندما يكتمون الحقيقة، ويحسُدون، ويكفرون، ويعاندون؛ فجاء هذا الوعيدُ.

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٢٩٤) «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ بِهَذِهِ السِّيَاقَةِ».

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٥)

﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الحال ﴿لَئِنْ﴾: حرف شرط يتبع ما بعده ﴿أَتَيْتَ﴾: مهما قدّمت وجئت من أدلّةٍ ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿أُوتُوا﴾: أُعطوا ﴿الْكِتَابَ﴾: فإنّ عناد اليهود لنْ يسمح لهم بإتباع قبلتك، ويؤكد ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس-٩٦، ٩٧] ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿كُلِّ﴾: جميع ﴿آيَةٍ﴾: بكلّ دليلٍ وبيّنةٍ ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿تَبِعُوا﴾: انقادوا وتوجهوا إلى ﴿قِبْلَتَكَ وَمَا﴾: أيضاً نفي ﴿أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾: تشديدٌ على الرسول ﷺ ألّا يتبع قبلتهم، فكما هم مُتمسكون بأهوائهم؛ فعليه التمسكُ بأمر الله ﷻ وطاعته ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿بَعْضُهُمْ﴾: جزءٌ من اليهود وجزءٍ من النصارى ﴿بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾: ستبقى الفُرقة والخلاف بينهم ﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا التخيير ﴿لَئِنِ﴾: حرف شرط ﴿اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾: سلكت سبيل رغباتهم أيضًا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانية ﴿بَعْدِ مَا﴾: الذي ﴿جَاءَكَ مِنَ﴾: جزءِ أو بعض ﴿الْعِلْمِ﴾: هنا تبيان عاقبةِ من يتّبع اليهود بعدما عرف الآيات الآمرة بطاعة الله ﷻ، ولزوم أوامره، ومخالفة اليهود والنصارى، وإنْ فعلت ﴿إِنَّكَ﴾: ستكون عندنا بالتأكيد ﴿إِذًا﴾: حرفُ توكيد يفيد هنا جواب وجزاء ﴿لَ﴾: حرف تأكيد ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: القوم الذين ظلموا أنفسهم؛ الذين اتبعوا أهواء اليهود وأمثالهم، وخالفوا أوامر الله ﷻ؛ وهذا تخويفٌ واضحٌ.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٤٦)

﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ، وهم هنا خاصّةُ علماء اليهود والنصارى مَنْ ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾: التوراة والإنجيل ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾: يعرفون صحة بعثةِ محمدٍ ﷺ ﴿كَمَا﴾: مثلما ﴿يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾: يعرف أحدُهم أولاده، وهذا مثلٌ عربيٌّ معروف، وقيل: يعرفونه كما يعرف الرجل ابنه من وسط أبناء النّاس كلّهم ﴿وَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿فَرِيقًا﴾: جماعةً ﴿مِنْهُمْ﴾: من الحاسدين ﴿لَ﴾: حرف تأكيد ﴿يَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾: إنّ اليهود يُخفون على النّاس ما جاء في كُتبهم من صفةِ محمدٍ ﷺ ﴿وَهُمْ﴾: أيضاً اليهود تحديدًا ﴿يَعْلَمُونَ﴾: وهم مُتأكدون، ومتثبتون؛ ومع هذا يُنكرون.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١٤٧)

﴿الْحَقُّ﴾: ما نزل على محمدٍ، هو بصفاته ﷺ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا المصدر الذي لا يحدّه زمان ولا مكان ﴿رَبِّكَ﴾: هو المُربي، وهو المنشئ للكون ومن فيه من حالٍ إلى حالٍ إلى حدِّ التمام، هو مالكُ الأمر كلّه؛ يريدون هنا معرفة ما نزل عليك يا محمد ﷺ وهو من الله ﷻ، مالك أمرك كلّه، وليس افتراء بشر، أي بعد أنْ تسمع هذا الأمر الربّانيّ ﴿فَلَا﴾: أداةُ نهي وطلبُ عدم الفعل ﴿تَكُونَنَّ﴾: تصير بالتأكيد ﴿مِنَ﴾: بعض ﴿الْمُمْتَرِينَ﴾: نهى اللهُ ﷻ أنْ يكون المسلمُ من المُجادلين المُتشككين.

التكليف: إنّ هذا الدين ليس مجال جدل، ولا وجهات نظر؛ لأنّ هذا من عند الله ﷻ، والخطاب هنا هو للنبي ﷺ ولكلِّ مسلم.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٤٨)

﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الحال ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿كُلٍّ﴾: واحدٍ من أهل الأديان، اليهود، والنصارى، وكلّ أمّةٍ من الأمم ﴿وِجْهَةٌ﴾: قبلةٌ بمعنى الدين والملّة ﴿هُوَ﴾: وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر ﴿مُوَلِّيهَا﴾: مُعتمدُها ومُتبعُها وموجهُها ﴿فَـ﴾: حرف يفيد السبب، وبدون تأخير ﴿اسْتَبِقُوا﴾: سارعوا في نيل ﴿الْخَيْرَاتِ﴾: اطلبوا وانشدوا وتسابقوا في فعل ما ينفعكم، والطيبات التي أُمرتم بها في دينكم لأنّكم ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾: في أيّ مكان تكونون فيه ﴿يَأْتِ﴾: في يوم القيامة يُحضرُكم يجيءُ ﴿بِكُمُ﴾: حرف باء الغاية ﴿اللَّهُ جَمِيعًا﴾: إنَّه قادرٌ ﷻ على جمعكم جميعًا من الأرض، وإنْ تفرقت أجسادُكم وأبدانكم ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ عَلَى كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة؛ لتؤكد العموم ﴿قَدِيرٌ﴾: لا يُعجزه شيءٌ.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٩)

﴿وَمِنْ حَيْثُ﴾: حرفٌ يدلُّ هنا على المكان والزمان ﴿خَرَجْتَ﴾: من أيّ مكانٍ على وجه الأرض كنت يا محمد ﷺ ومن معك؛ وأردت الصلاة ﴿فَـ﴾: لهذا السبب، ومن غير تأخير ﴿وَلِّ﴾: وجّه، اتجه بـ ﴿وَجْهَكَ﴾: بوجهك، كنايةً عن الجسد كلّه ﴿شَطْرَ﴾: جهة أو ناحية ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: بمكّة المكرّمة، هذا أولُ ناسخٍ في الإسلام، وكانت رغبة الرسول ﷺ التوجه إلى قبلةِ إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِنَّهُ﴾: هذا تأكيدٌ ربّانيّ أنّ هذا هو ﴿لَلْحَقُّ مِنْ﴾: حرفُ جرّ يُفيد ابتداء الغاية وهنا المصدر ﴿رَبِّكَ﴾: الجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ، وهذا

هو الحق الذي أوحى إليك ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿اللَّه﴾: ﷻ ﴿بِغَافِلٍ﴾: لا يدري ﴿عَمَّا﴾: عن الذي ﴿تَعْمَلُونَ﴾: إنّ الله ﷻ مُطلّعٌ على سرائركم، وأفعالكم، ويجازيكم عليها.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْ كُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٠)

﴿وَمِنْ حَيْثُ﴾: ظرفٌ يدلُّ على الزمان والمكان ﴿خَرَجْتَ﴾: من أيّ مكانٍ وصلتم إليه أيّها المسلمون، وأردتم الصلاة ﴿فَـ﴾: حرفٌ يُفيدُ السبب ﴿وَلِّ﴾: استقبل ﴿وَجْهَكَ﴾: مقدمةَ جسدك ﴿شَطْرَ﴾: جهةَ ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: الكعبة المُشرّفة ﴿وَحَيْثُ﴾: ظرفٌ يُدلُّ على المكان ﴿مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا﴾: استقبلوا ﴿وُجُوهَكُمْ﴾: مقدمة أجسادكم ﴿شَطْرَهُ﴾: جهة المسجد الحرام مكّة المكرّمة ﴿لِئَلَّا﴾: حرفُ جرٍ بمعنى كيلا ﴿يَكُونَ لِ﴾: حرف تخصيص ﴿النَّاسِ﴾: عمومُ البشر من ولدِ آدم ﷺ ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾: كان أهلُ الكتاب يعلمون أنّه سيكون توجّه المسلمين للكعبة، كان مكتوبًا في كُتبهم، وكانوا يحتجّون على المسلمين بأنّهم يتجهون إلى بيت المقدس، وهذا ما يتفق مع دين اليهود، وكانوا يقولون اشتاق محمدٌ إلى بيت أبيه ودين قومه، وكانوا يقولون وهو يتجه إلى بيت المقدس أنّه سيرجع إلى ديننا اليهودية ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطع، جاءت هنا بمعنى واو العطف ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾: وهم كُفّارُ قريشٍ كانوا يقولون: هذا الرجلُ على دين إبراهيم؛ بتوجهه إلى بيت المقدس، لقد أراد اللهُ ﷻ لمحمدٍ ﷺ أنْ يتوجه إلى بيت المقدس لحكمةٍ، فأطاعه النبيّ؛ وامتثلَ لأمره، فالرسول ﷺ مطيعٌ لله ﷻ في كلِّ حال ﴿فَلَا﴾: أداة نهي تفيد طلب عدم الفعل ﴿تَخْشَوْهُمْ﴾: لا تخافوا شبهةَ الظلم ﴿وَاخْشَوْنِي﴾: وخافوا الله ﷻ وحده ﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الاستئناف ﴿لِ﴾: لام العلّة والسبب ﴿أُتِمَّ﴾: أُكمل ﴿نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾: عَطَفَ نعمةَ اللهِ ﷻ على المسلمين بسرعةِ التوجه للكعبة؛ لتكتمل الشريعة من جميع وجوهها ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾: يعني طمعًا منكم وإشفاقًا من الله ﷻ ﴿تَهْتَدُونَ﴾: أي تصلون إلى الحقيقة، وتثبتُون على الهدى الذي ضلّت عنه الأمم، هذا تخصيصُ فضلِ اللهِ ﷻ على هذه الأُمّةِ، شرفٌ لها وفضلٌ.

التكليف: طاعةُ اللهِ واجبةٌ في كلّ الأحوال، رضي بها الكُفّار أم لم يرضوا.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥١)

﴿كَمَا﴾: مثلما ﴿أَرْسَلْنَا فِيكُمْ﴾: مثلما أنعمنا عليكم وبعثنا إليكم ﴿رَسُولًا مِنْكُمْ﴾: من أنفسكم، عربياً، من أصولكم، وبلغتكم ﴿يَتْلُو﴾: يقرأ، ويشرح، ويوضّح ﴿عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾: آيات الله ﷻ، القرآن الكريم، ويعلّمكم الآيات، بيّنات، واضحات ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾: يُطهركم من رذائل العادات، ودنسِ الكُفر، وفعلِ الجاهلية ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾: يُعلمكم ويُفهّمكم مقاصد القرآن الكريم، وأحكامه ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: ويعلمكم السُنّة النبوية المُشّرفة وهو ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا﴾: الذي ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿تَكُونُوا﴾: في السابق ﴿تَعْلَمُونَ﴾: كانوا في الجاهلية يُسفّهون بأقوالهم القُرّاء، فأصبحوا ببركة الله ﷻ الأولياء، وسجايا العلماء، من أكثر النّاس علمًا، وأخلصُهم قلوبًا، وأصدقُهم لغةً؛ يتعلمون أمور الدنيا والدين.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (١٥٢)

﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا جواب الشرط ﴿اذْكُرُونِي﴾: اذكروا الله ﷻ؛ إذ أرسل فيكم رسولًا منكم؛ يُعلمكم؛ ويُطهركم؛ فأطيعوني، واعملوا بما جئت به، لقد جاء اللفظ القرآني "**الذكر**" على ستة عشر وجهًا؛ جاء هنا بمعنى الطاعة والعمل، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ مُوسَى عليه السلام قَالَ: يَا رَبِّ، قَدْ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ كَثِيرًا فَدُلَّنِي أَنْ أَشْكُرَكَ كَثِيرًا قَالَ: اذْكُرْنِي كَثِيرًا فَإِذَا ذَكَرْتَنِي كَثِيرًا فَقَدْ شَكَرْتَنِي كَثِيرًا، وَإِذَا نَسِيتَنِي فَقَدْ كَفَرْتَنِي(١)، والكُفرُ هنا؛ كُفرُ النعمة؛ أي إنكارُ فضل الله ﷻ عليهم ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾: وقال الحسن البصري: إنّ الله يذكرُ من يذكره، ويزيدُ من يشكره، ويُعذّبُ من يكفُره، وجاء في معنى الذكر: أنْ يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى, ويُشكر فلا يُكفر، وقال الحسن البصري: اذكروني فيما فرضت عليكم، اذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي، اذكروني بطاعتي، أذكركم بمغفرتي وبرحمتي، وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً(٢)، ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا، وأيضاً ﴿اشْكُرُوا لِي﴾: تخصيصًا لله ﷻ ﴿وَلَا﴾: حرفُ نهيٍ وتحريمٍ ﴿تَكْفُرُونِ﴾: أمر الله ﷻ بشكره، وعدم إخفاء وتغطية هذه الحقائق، ووعد على شكره بمزيدٍ من الخير، جاء في المعنى: **﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾** [إبراهيم-٧].

التكليف: إنّ ذكر الله ﷻ في كلّ الأحوال مغنمٌ عظيمٌ.

---

(١) شعب الإيمان /٢/١٨٣(٦٩٩).

(٢) صحيح البخاري (٩/ ١٢١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٣)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات، البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿آَمَنُوا﴾: نداءٌ للذين آمنوا بالله ﷻ ﴿اسْتَعِينُوا﴾: تعني طلب العون ﴿بِ﴾: حرف باء الاستعانة ﴿الصَّبْرِ﴾: اطلبوا العون من الله ﷻ؛ بالصبر، فبعد أنْ أمر اللهُ ﷻ المؤمنين بالشكر؛ أمرَ بالاستعانة بالصبر، فإنْ أصابت العبدَ نعمةٌ شكر، فكانت خيرًا له، وإنْ أصابت العبدَ نقمةٌ صَبَرَ فكان خيرًا له ﴿وَالصَّلَاةِ﴾: أيضاً طلب العون من الله ﷻ بعد الصبر من خلال الصلاة؛ أي دعوة الله ﷻ الاستعانة بأفضل ما يُستعانُ به على تحملِ المصائب. عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ، صَلَّى»[1]. والصبرُ: هو اعتراف العبد بما أصابه من الله ﷻ، ورجاءُ ثوابه منه ﷻ. والصبر أنواع: الصبر على ترك المحارم وكلّ إثم، وهذه تلعب الشهوات فيها بقوة، والصبر على فعل الطاعات والقربات، وهذه أكثر ثوابًا وهو المقصود، والصبر على المصائب والنوائب والاستغفار من العيوب، وهؤلاء يدخلون الجنّة بغيرِ حسابٍ ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ مَعَ﴾: مُؤيدٌ، وناصرٌ، ومُعزٌ ﴿الصَّابِرِينَ﴾: يقفُ اللهُ ﷻ معهم؛ فيُعينهم على تحمل المصاعب، ويكتبُ لهم الأجر، ويُدخلهم الجنّة بغير حساب.

التكليف: من هذه الآيةِ الكريمةِ نعلم أنّ الصبرَ والصلاةَ هما جناحا علاج المصائب.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١٥٤)

﴿وَ﴾: عطفًا على تعليمات الآية السابقة، أيضًا ﴿لَا﴾: حرف نهي عمّا يليه ﴿تَقُولُوا﴾: تحريم القول ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يُقْتَلُ﴾: يستشهد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: الذي قُتل في الجهاد، وهو الذي آمن بالله ﷻ، وصدّق بكلّ ما جاء منّه ﷻ، وأطاعه، وأدّى الفروض، ورفع رايته، ونصر دعوته، وأحبّ أولياءه؛ لرفع كلمة الله فوق كلّ شيءٍ ﴿أَمْوَاتٌ﴾: لا تقولوا إنَّ موتهم كموت غيرهم من البشر ﴿بَلْ﴾: حرف ينفي ما قبله؛ ويُؤكد ما بعده، هم بالتأكيد ﴿أَحْيَاءٌ﴾: لا تُدركون حياتهم؛ فهم في البرزخ، عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ،

---

[1] سنن أبي داود /٢/٣٥(١٣١٩). وحكم عليه الألباني: حسن. وقال أيضا: صحيح (انظر سنن أبي داود /١/٥٠٧).

فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا[1]. وعن كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ كَانَ يُحَدِّثُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيْرٌ يَعْلَقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَرْجِعَهُ اللهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ[2]. ﴿وَلَكِنْ﴾: حرف عطف واستدراك ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تَشْعُرُونَ﴾: لا تعرفون، ولن تعرفوا.

التكليف: هنا دلالةٌ على عموم فضل الله ﷻ على المؤمنين، مع تخصيصِ الشهداء بالذكر؛ تشريفًا وتكريمًا.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٥)

﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الحال ﴿لَ﴾: حرف تخصيص ﴿نَبْلُوَنَّكُمْ﴾: الابتلاء هو الاختبار والامتحان، وملخص الغاية في هذه الآية في قوله ﷻ: **﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾** [محمد-٣١]، وأدواتُ الابتلاء تتمثل في: السراء: أي ما يسُرُ العبد وما يريده وما يتمناه، والضراء: أي الخوف، أو الجوع، أو نقص الأموال، أو الموت، أو نقص الثمرات ﴿بِشَيْءٍ﴾: يفيد ببعض الأشياء ﴿مِنَ﴾: بعض ﴿الْخَوْفِ﴾: بقليلٍ من خشيةِ الأعداء، أو أمور الإنسان العاديّة ﴿وَالْجُوعِ﴾: أيضًا ببعض أي قلّة الطعام ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾: لضياعها، أو صعوبة الحصول عليها ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾: أيضاً موت النّاس، بسبب الحروب، أو المجاعات، أو الأوبئة، أو الشهادة في سبيل الله ﷻ ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾: أيضاً قحط الأرض، أو تلف الزرع ﴿و﴾: عطفاً على ما سبق ﴿بَشِّرِ﴾: أخبر بما يسرّ ويفرح ﴿الصَّابِرِينَ﴾ الذين صبروا بما يسُرُّهم ويُسعدهم في الدّنيا، ويرفعُ هذه المصائب عنهم، ويدخلهم الجنّة في الآخرة.

التكليف: من صبر حاز ثواب الصبر، وبشّر الصابرين، ومن لم يصبر فما فاز بشيء.

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦)

﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿إِذَا﴾: حرفُ ظرفٍ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿أَصَابَتْهُمْ﴾: ألمّت بهم ﴿مُصِيبَةٌ﴾: بالمصائب فيما جاء في الآية السابقة الخوف، والجوع، ونقص الأموال والثمرات والأنفس ﴿قَالُوا﴾: بإيمان ويقين ﴿إِنَّا﴾: ضمير للجمع الحاضر المتكلم، وجاءت بصيغة الجمع؛ للتعظيم

---

[1] صحيح مسلم /٦/٣٨(٤٩١٩).

[2] مسند أحمد /٣/٤٥٥(١٥٨١٦). تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

﴿لِلَّهِ﴾: عبيد الله ومن ملكه ﷻ، يتصرف فينا بحكمته كيف أراد ونؤمن ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ﴾: إلى الله ﷻ ﴿رَاجِعُونَ﴾: عائدون إليه ﷻ يوم القيامة، يوم يعوّضنا الله ﷻ بكرمه عمّا فقدنا في الدنيا، عن أُمِّ سَلَمَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة-١٥٦]، اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا، قَالَتْ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَخْلَفَ اللهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ، رَسُولَ اللهِ ﷺ(1).

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (١٥٧)

﴿أُولَئِكَ﴾: إشارةً للقريبِ والبعيد، هم المسترجعون ﴿عَلَيْهِمْ﴾: لهم ﴿صَلَوَاتٌ﴾: الثناء والمدح الربّاني لهم، فصلاةُ اللهِ ﷻ على البشر رحمة ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾: تعني كلمةُ الرّب: المُعبود، والمُربي، وهو الخالق المنشئ لكلِّ شيءٍ في الكون من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام، وهو تعالى المالك، والعاطي، وصاحب كثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ ﴿وَ﴾:أيضًا ﴿رَحْمَةٌ﴾: وهذه إضافية؛ أفرد اللهُ ﷻ لها بعد الصلوات رحمةً خاصةً، وَقَالَ عُمَرُ ﷺ: نِعْمَ العِدْلاَنِ، وَنِعْمَ العِلاَوَةُ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ، وَأُولَئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ﴾ [البقرة-١٥٧] وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الخَاشِعِينَ﴾ [البقرة-٤٥](2) ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ﴾: تحديدًا ﴿الْمُهْتَدُونَ﴾: هذه هي العلاوة، وهي التي توضع بين العدلين، هي زيادةٌ في الحمل فقد أُعطوا ثوابهم في الصلوات من ربّهم والرحمة، والزيادة هي شهادة الله ﷻ: هم المهتدون.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٨)

سبب النزول: كان النّاسُ في الجاهلية يطوفون بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام أمسك المسلمون عن الطواف؛ فأنزل الله ﷻ الآية، فعَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَ: قُلْتُ: أَرَأَيْتِ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة-١٥٨] قَالَ: فَقُلْتُ: فَوَاللهِ مَا عَلَى أَحَدٍ جُنَاحٌ أَنْ لَا يَتَطَوَّفَ بِهِمَا، قَالَ: فَقَالَتْ عَائِشَةُ: بِئْسَمَا قُلْتَ يَا ابْنَ أُخْتِي، إِنَّهَا لَوْ كَانَتْ عَلَى مَا أَوَّلْتَهَا عَلَيْهِ، كَانَتْ: فَلَا جُنَاحَ

---

(1) صحيح مسلم ٦٣٢/٢/(٩١٨).

(2) صحيح البخاري (٢/ ٨٣).

عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا، وَلَكِنَّهَا إِنَّمَا أُنْزِلَتْ أَنَّ الْأَنْصَارَ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسْلِمُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَ عِنْدَ الْمُشَلَّلِ، وَكَانَ مَنْ أَهَلَّ لَهَا تَحَرَّجَ أَنْ يَطَّوَّفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَسَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطَّوَّفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ**﴾ [البقرة-١٥٨]، إِلَى قَوْلِهِ، ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾ [البقرة-١٥٨] قَالَتْ عَائِشَةُ: ثُمَّ قَدْ سَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ الطَّوَافَ بِهِمَا، فَلَيْسَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَدَعَ الطَّوَافَ بِهِمَا[1]، ﴿**إِنَّ**﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿**الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ**﴾: جبل الصفا وجبل المروة؛ وهما بالقرب من الكعبة ﴿**مِنْ**﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعض أو جزء ﴿**شَعَائِرِ اللَّهِ**﴾: من معالمِ الشريعةِ الظاهرةِ في الحج ﴿**فَمَنْ**﴾: الذي من جنس العاقل ﴿**حَجَّ الْبَيْتَ**﴾: من نوى الحج ﴿**أَوِ**﴾: حرف عطف يفيد التسوية بين متعاطفين ﴿**اعْتَمَرَ**﴾: نوى العمرة ﴿**فَلَا**﴾: أداةُ نهي تُفيد طلب عدم الفعل ﴿**جُنَاحَ**﴾: لا إثم ﴿**عَلَيْهِ أَنْ**﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿**يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾: وهذا يزيل شعور بعض المسلمين أنّ السعي بينهما أمرٌ من الجاهلية، والأصلُ هو أنّ هاجر أم إسماعيل، عليهما السلام، سعت بين الصفا والمروة؛ متذللةً خاشعةً لله ﷻ؛ ففرّج الله ﷻ، كُربتها، وآنس غربتها، وعلى الساعي استشعار هذه المشاعر ﴿**وَمَنْ**﴾: عطفًا على ما سبق فإن الذي من جنس العاقل ﴿**تَطَوَّعَ خَيْرًا**﴾: وفيها أقوال: من زاد في طوافه، ثمانية أو تسعة أشواط، أو ذهب إلى حجّة تطوّع، أو عمرة تطوّعٍ، وقيل: هو قولٌ عامٌ يشمل كلّ العبادات ﴿**فَإِنَّ**﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿**اللَّهَ شَاكِرٌ**﴾: يقبلها الله ﷻ، ويُثيبُ على قليل وكثير ﴿**عَلِيمٌ**﴾: يعلم قدر الجزاء، فلا يبخس أحدًا ثوابَه، جاء في المعنى: ﴿**لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء-٤٠].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (١٥٩)

﴿**إِنَّ**﴾: حرف للتأكيد ونفي الشكّ والإنكار ﴿**الَّذِينَ**﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿**يَكْتُمُونَ**﴾: الذين يُخفون بقوة وتصميم ﴿**مَا**﴾: الذي ﴿**أَنْزَلْنَا**﴾: الذي مصدرهُ الله ﷻ مُنزلًا ﴿**مِنَ**﴾: بعض وجنس ﴿**الْبَيِّنَاتِ**﴾: من الآيات والأدلّة ﴿**وَ**﴾: أيضًا يكتمون ﴿**الْهُدَى**﴾: الذي أظهره الله ﷻ، والمقصود به هنا: هو أمرُ محمد؛ فقد كتم أهلُ الكتاب أمرَ محمدٍ ﷺ؛ كرسولٍ من عند ربّه ﴿**مِنْ**﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿**بَعْدِ مَا**﴾:

---

[1] مسند أحمد ط الرسالة (٤٢/ ٤٨).

الذي ﴿بَيَّنَّاهُ﴾: وضّحناهُ ﴿لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾: أُخبر اليهود والنصارى والذين نزلت لهم كتبٌ من الله، وهذا وعيدٌ شديدٌ أنْ يكتم إنسانٌ ما جاءت به الرسل من ربّهم؛ فيحرمون البشر من نفع القلوب، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»[1]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: اتَّقُوا الحَدِيثَ عَنِّي إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وقال هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ[2]، وجاء أيضًا: عن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرِثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ، أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[3]، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانِ فِي الْبَحْرِ»[4].
﴿أُولَئِكَ﴾: إشارةً للقريب والبعيد ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾: هؤلاء الذين يطردُهم اللهُ ﷻ من رحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ﴾: ويدعو عليهم ﴿اللَّاعِنُونَ﴾: الذين يحقُّ لهم أنْ يلعنوا وهم الملائكةُ، والأنبياءُ، والمؤمنون، وأهلُ الإيمان، بالطرد من رحمته ﷻ.

التكليف: عندما يجتمع الحشدُ العظيمُ من اللاعنين على مخلوقٍ؛ فمصيره الخسارة الكبرى.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٠)

﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ، هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل اللهُ ﷻ ويستثنى ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿تَابُوا﴾: رجعوا عمّا كتموا من الحق ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أَصْلَحُوا﴾: أعمالهم الظاهرة التي فسدت وأفسدت ﴿وَبَيَّنُوا﴾: وأيضًا قالوا ما كتموا، وأظهروا ما أخفوا عندهم من الحق ﴿فَـ﴾: حرفٌ يُفيدُ الجواب ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارة للقريب والبعيد ﴿أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾: أقبل رجوعهم لطاعتي ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ﴾: عطفاً على ما جاء اعلموا أنّني الذي يتوب كثيرًا على التائب ﴿الرَّحِيمُ﴾: الذي يرحم الجميع من التائبين.

التكليف: إنّ باب التوبة مفتوح للكافر، والمبتدع، وكاتم العلم، إنّ مصير الذين ماتوا قبل التوبة هو اللّعنة إلى يوم القيامة، ثم تصيبهم اللّعنة وهم في النّار.

---

[1] سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٢٩)، وصححه الألباني.
[2] سنن الترمذي ت بشار (٥/ ٤٩).
[3] مسند أحمد مخرجا (٣٦/ ٤٦).
[4] سنن ابن ماجه /١/٨٧(٢٣٩). [حكم الألباني]: صحيح.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٦١)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: غطوا وكتموا دعوة الإيمان ﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الحال ﴿مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: أدركهم الموتُ وهم على كفرهم ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارةً للقريب والبعيد ﴿عَلَيْهِمْ﴾: ستصيبهم ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾: يطردهم الله ﷻ من رحمته ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾: وعليهم دعاءُ الملائكة باللّعنة ﴿وَالنَّاسِ﴾: يلعنُهم بنو آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾: وعليهم دعاء النّاس بالطرد من رحمة الله ﷻ.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (١٦٢)

﴿خَالِدِينَ﴾: مُلازمين دائمين أبدًا ﴿فِيهَا﴾: للعنة الله ﷻ ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُخَفَّفُ﴾: لا يُنقص ما هم فيه من عذاب، ولو لساعةٍ واحدةٍ ﴿وَلَا هُمْ﴾: تحديدًا ﴿يُنْظَرُونَ﴾: ولا يُؤجل العذاب عنهم ساعة واحدة، قال أبو العالية، وقتادة: إنّ الكافر يُوقَف يوم القيامة فيلعنه الله ﷻ، ثم تلعنه الملائكة، ثم يلعنهُ النّاس أجمعون.

التكليف: يجوز لعن الكافر المُعيّن المُجاهر.

﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٣)

﴿وَ﴾: أيضًا عليكم أن توقنوا أنّ ﴿إِلَهُكُمْ﴾: هو الله ﷻ المعبود ﴿إِلَهٌ﴾: معبودٌ ﴿وَاحِدٌ﴾: الذي يُخبرُ عن تفردِهِ بالألوهية ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿إِلَهَ إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿هُوَ﴾: لا شريك له، ولا عديل له، قال ﷺ: هو اسمُ اللهِ الأعظم في هذه الآية، وفي قوله ﷻ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران-٢] وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر ﴿الرَّحْمَنُ﴾: من الرحمةِ لجميعِ الخلق ﴿الرَّحِيمُ﴾: خاصّةً بعباده المؤمنين، وهي أشدُّ في المعنى؛ فهي صيغةُ مبالغةٍ؛ تُفيد الرحمةَ الكبيرة.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٦٤)

أسباب النزول: بعد نزول الآية ﴿وإلهكم إِلَه وَاحِدٌ لَّا إله إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة-١٦٣]، قال كُفّار قريش: كيف يسع النّاس إله واحد؟! فليأتنا بآيةٍ تُفيد ذلك؛ فأنزل الله ﷻ هذه الآية؛ ليؤكد على أنّه إلهٌ واحدٌ، ولو كانوا آلهة لاختلفوا ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿فِي خَلْقِ﴾: إيجادِ شيءٍ من غيرِ سابقِ وجودٍ ﴿السَّمَوَاتِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض، وأحاط بها؛ هذا الكون الشاسع في ارتفاعه، واتساعه، وكواكبه السيّارة، وفي الدوران في أفلاكها

﴿وَالْأَرْضِ﴾: وأيضًا الأرض وبمن عليها وما فيها وما عليها من بديع الخلق، وتكوينها، وارتفاعها، وانخفاضها، والجبال، والبحار، والعمران، والصحراء؛ كان هذا الخلق البديع توطئةً لما سيأتي في الآية رقم ١٦٨ من الأكل من منتجات الزراعة ﴿وَاخْتِلَافِ﴾: أيضًا تعاقب ﴿اللَّيْلِ وَ﴾: أيضًا تعاقب ﴿النَّهَارِ﴾: نشوء ظاهرة الليل والنّهار، الدالّة عمليًا على حركةِ القمرِ حول الأرض، وحركة الأرض حول الشمس، وما ينشأ عنها من ليلٍ ونهارٍ، وهذا التتابع البديع السلس، يأتي ليلٌ يخلفهُ نهارٌ، ثم ليلٌ لا يتأخر لحظةً عن موعده، جاء في المعنى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس-٤٠]، حيث يقصر ليلٌ ويطولُ نهارٌ، وتتغير الحالة ﴿وَ﴾: أيضًا حرفٌ يُفيد هنا الحال ﴿الْفُلْكِ﴾: السفن الكبيرة والصغيرة ﴿الَّتِي تَجْرِي﴾: تطفو وتتحرك بسهولة ﴿فِي الْبَحْرِ﴾: بناءً على ظاهرة الطفو، حيث إنّ مسمارًا من حديدٍ صغيرَ الحجمِ يغرق؛ بينما تطفو السفن العملاقة؛ التي تنقل الإنسان والمتاع من مكان إلى أخر ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصول، بالذي ﴿يَنفَعُ النَّاسَ﴾: إضافةً إلى منافع البحر من ماءٍ، وملحٍ، وأسماكٍ، ولؤلؤٍ ﴿وَمَا﴾: الذي ﴿أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ﴾: بعض أو جزء ﴿السَّمَاءِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض وأحاط بها لكونها بيضاويّة الشكل ﴿مِن مَّاءٍ فَـ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿أَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: إنّ التفكر في ظاهرة المطر الذي يعتمد على التبخر، ثم التجمع في السماء، ثم الانتقال بالريح، ثم النزول في مكانٍ دون آخر؛ فتنبتُ المزروعات والأشجار، وتتحولُ من حالةِ السكونِ إلى الحركة، جاء في المعنى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس-٣٣] ثم دعوةٌ إلى دراسةِ حياةِ كلّ من دبَّ على الأرض من المخلوقات منها الصغير، ومنها الكبير، واختلاف المخلوقات في الشكل واللون والمنفعة، وكيف يعرف ﷻ ماذا تفعل هذه وتلك، جاء أيضًا: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود-٦] ﴿الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا﴾ ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿بَثَّ﴾: فرّق وباعد ﴿فِيهَا﴾: في الأرض ﴿مِن كُلِّ﴾: تفيد العموم من جنس ﴿دَابَّةٍ﴾: كل ما يدبُّ على الأرض، يمشي من إنسانٍ وحيوانٍ وطيورٍ وممالكِ النحلِ والنملِ والحشراتِ وغيرها ﴿وَ﴾: أيضًا دعوةٌ إلى التأمل في ظاهرة ﴿تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾: ولقد جاء اللفظ القرآني التصريف على خمسة أوجه؛ هنا بمعنى التنويع، فتارةً تأتي بالرحمة، وتارةً تأتي بالعذاب، تارةً تجمع الغيث، وتارةً تبعثره، وتصرفه، مرّةً من الجنوب ومرّةً من الشمال، وخلاصةُ القول: إنّ هذه مواضيع كبيرة جدًا، كلّ ظاهرةٍ منها علمٌ غزيرٌ، وعميقٌ، استطاع العلماءُ معرفته، ولا يزال كثيرٌ منها غائبًا، وإنّ هذه دعوة يُقدّرُ الله ﷻ

فيها: هذا المخلوق المُكرّم، ويأمره أنْ يتفكر بعقله وعمله؛ ليصل إلى الحقيقة بقناعة، وقد جاء ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران- ١٨٠]، وفي هذه الآية جاءت الآيات ﴿وَ﴾: أيضًا في ظاهرة ﴿السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ﴾: المأمور من الله ﷻ ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: الذي كان ماءً على الأرض البحار، فتحول إلى بخارٍ تحمله الريح. ﴿لَآيَاتٍ﴾: أدلّة وشواهد وبراهين ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿قَوْمٍ﴾: هم جماعةٌ من البشر من أصلٍ واحدٍ، أو أصحاب مذهبٍ واحدٍ ﴿يَعْقِلُونَ﴾: يُدركون ما يسمعون وما يُشاهدون.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (١٦٥)

﴿وَمِنَ﴾: بعض ﴿النَّاسِ﴾: صنفٍ من البشر، أبناء آدم ﵇ ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَتَّخِذُ﴾: يلجأ إلى، ويعتمد على ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: غيره ﷻ ﴿أَنْدَادًا﴾: جمع ند وهو المثلُ والنظير والمقصود هنا هم الشركاء من دون الله ﷻ الذين يعبدونهم ويتقربون إليهم أمثالًا، ونظراءَ ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾: يُطيعُونهم، ويعبدونهم، ﴿كَ﴾: حرف يفيد مثل ﴿حُبِّ اللَّهِ﴾ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»[1]، ﴿وَالَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿آمَنُوا أَشَدُّ﴾: أكثر وأثبت ﴿حُبًّا لِ﴾: حرف تخصيص ﴿اللَّهِ﴾: أمّا المؤمنون بسبب معرفتهم عظمة الله ﷻ، وفضلَه، وتوقيرَهم، وتوحيدَهم بقناعةٍ وتفكرٍ وتدبرٍ يعبدونه وحده، ويتوكلون عليه، ويلجأ هؤلاء في جميع أمورهم إليه ﷻ ﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يُفيد الاستحالة ﴿يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: لو عاين الظالمون؛ أي إذا شاهدوا ﴿إِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن، وهو أيضًا عذاب الآخرة الذي جاء بفعل الماضي؛ لأنّه سيقعُ لا محالة ﴿يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾: يعاينون ويشاهدون يوم القيامة؛ ليعلموا ويتأكدوا ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: الحُكمُ له وحده، وأنّ جميع الأشياء تحت قهره، وغلبته، وسلطانه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ﴾: قوي مؤلم ﴿الْعَذَابِ﴾: ما يسبب الألم والوجع لو علموا ما سوف يرونه من خسارة، وما سيحل بهم من العذاب الشديد على شركهم وكفرهم؛ لانتهوا من الضلال.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (١٦٦)

﴿إِذْ﴾: حرفُ ظرفٍ يدلُّ على التوقيت، هنا بمعنى ما مضى من الزمن وجاءت للتوكيد ﴿تَبَرَّأَ﴾: تنصّل وتخلّى ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿اتُّبِعُوا﴾: تبرأت الملائكة من الذين

---

[1] صحيح البخاري /٦/١٨(٤٤٧٧).

زعموا أنّهم عبدوهم في الحياة الدنيا ﴿مِنَ﴾: بعض أو جزء ﴿الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾: من الكفّار والمنافقين، حيث تقول الملائكة بشهادة الله ﷻ: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص-٦٣]، ويقولون أيضًا بشهادته ﷻ: ﴿قَالُواْ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُون﴾ [سبأ-٤١]، والجنُّ أيضًا تتبرأ منهم، وتتنصل من عبادتهم بشهادة الله ﷻ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف-٦]، وقال ﷻ: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم-٨٢] ﴿وَرَأَوُا﴾: شاهدوا بأعينهم ﴿الْعَذَابَ وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿تَقَطَّعَتْ﴾: انفصمت ﴿بِهِمُ﴾: تحديدًا ﴿الْأَسْبَابُ﴾: انقطعت بهم الحيلُ وأسبابُ النجاة، ولم يجدوا عن النّار مصرفًا، قال ابن عباس: الأسباب هي المودّة، وجاءت كلمةُ الأسباب في القرآن على أربعة وجوه؛ تعنى هنا في الأرض، حيث كانوا يتجمعون في بيوت الكفر، وكذلك جاءت في قوله ﷻ ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف-٨٥]، وجاءت بمعنى **أبواب السماء** في قوله ﷻ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَاب *أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر-٣٦، ٣٧]، وأيضًا في قوله ﷻ ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ [ص-١٠]؛ وجاءت بمعنى **العلم** في قوله ﷻ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف-٨٤]، وجاءت بمعنى **الحيل** في قوله ﷻ ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج-١٥].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (١٦٧)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿اتَّبَعُوا﴾: الذين عبدوا غير الله ﷻ ﴿لَوْ﴾: حرفٌ يُفيد التمني، وهي تعني الاستحالة ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد ونفي الإنكار ﴿لَنَا﴾: نملك تخصيصًا ﴿كَرَّةً﴾: ليت لنا عودةً، لو عدنا مرّة أخرى للدنيا ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد العلّة والسبب ﴿نَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾: أي بسرعة نتبرأ من الذين عبدناهم من الجن، أو الإنس، أو غيرهم، بل نوحّد الله ﷻ، وهم كاذبون ﴿كَمَا﴾: مثلما ﴿تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمورِ التي أخبر اللهُ ﷻ عنها بهدف أن ﴿يُرِيهِمُ اللَّهُ﴾: يجعلهم ﷻ يُشاهدون ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾: يُطلعهم اللهُ ﷻ على عاقبة طاعتهم للكافرين وهي ﴿حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾: مجموعة من أشد أنواع المشاعر من الندم والأحزان الكبيرة؛ لذهاب واضمحلال ثواب أعمالهم، ويؤكدُ الحق ذلك بقوله ﷻ: ﴿وَقَدِمْنَا

إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان-٢٣]، وقال ﷻ: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم-١٨] ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿هُمْ﴾: تخصيصٌ، وتحديدٌ، وتأكيدٌ، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب ﴿بِ﴾: حرف باء السبب ﴿خَارِجِينَ﴾: تحديدًا لنْ يخرج الكفارُ ﴿مِنَ النَّارِ﴾: هنا الخلود الأبدي في جهنّم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٦٨)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿النَّاسُ﴾: عموم بني آدم، بعد تقرير عبودية النّاس لله ﷻ، والاعتراف بفضله على الخلق، على عموم البشر ﴿كُلُوا﴾: يقول لهم ﷻ تناولوا طعامكم ﴿مِمَّا﴾: بعض الذي ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: إنّ الرزق من الأرض لجميع الخلق؛ بشرط أنّ يكون ﴿حَلَالًا﴾: الحلال هو ما لا ينطبق عليه الحرام وهو ما أذن اللهُ ﷻ فيه، يؤكل بحسب شرع الله ﷻ وأوامره ﴿طَيِّبًا﴾: الطاهر غير النجس ولا مستقذر ولا تعافهُ النفس، تقبلهُ النفسُ وتستطيبهُ، غير ضارٍ للعقل أو للجسد ﴿وَلَا﴾: حرف نهي تفيد التحريم ﴿تَتَّبِعُوا﴾: لا تسلكوا ﴿خُطُوَاتِ﴾: طُرق، ووسائل، ومسالك المعاصي ﴿الشَّيْطَانِ﴾: التي تُضلُّ النّاس، مثلما حدّدها الكفّار بتحريم البحيرة، والسائبة، والوصيلة وغيرها، عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ[١]، فإنّ كلّ معصيةٍ لله ﷻ هي من خطوات الشيطان، كلُّ من حرّم على نفسه حلالًا؛ فهو عملٌ من خطوات الشيطان، وفي فضل المال الحلال: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: تُلِيَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة-١٦٨] فَقَامَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الْحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ عَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنَ السُّحْتِ وَالرِّبَا فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ»[٢]، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ﴾:

---

[١] صحيح مسلم /٤/٢١٩(٢٨٦٥).

[٢] المعجم الأوسط /٦/٣١٠(٦٤٩٥). وقال علي بن نايف الشحود: ضعيف. انظر: في ظلال القرآن /١/٣٦٥.

واضحُ وظاهرُ العداوة، هو بالتأكيد ﴿عَدُوٌّ﴾: حاقدٌ يريد لكم السوء، قال ﷻ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر-٦] ﴿مُبِينٌ﴾: واضح مكشوف ومعروف لكم.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٦٩)

﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ تُفيد التأكيد ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾: المقصود الشيطان عدوكم، الذي يطلب منكم أنْ تعملوا أمرًا ﴿بِالسُّوءِ﴾: الأفعال السيئة المحرّمة التي تسبب الضرر والشر ﴿وَ﴾: أيضًا يأمركم بعمل ﴿الْفَحْشَاءِ﴾: فحش القول، وفُحش العمل، مثل الزنا ونحوه ﴿وَأَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَقُولُوا﴾: تفتروا ﴿عَلَى اللَّهِ مَا﴾: الذي من جنس غير العاقل ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تَعْلَمُونَ﴾: هو القول بغير علم، ويدخل في ذلك الكافر والمبتدع وهذا أغلظ الفحش.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧٠)

سبب النزول: دعا الرسول ﷺ اليهود للإيمان به، واتّباعه ﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الحال ﴿إِذَا﴾: أداةُ ربطٍ بين ما بعدها بما قبلها، وهو حرفُ ظرفٍ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط ﴿قِيلَ لَهُمُ﴾: للكفرة والمشركين ﴿اتَّبِعُوا﴾: أطيعوا وآمنوا ﴿مَا﴾: الذي ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: على رسوله ﷺ من أوامر، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل ﴿قَالُوا بَلْ﴾: حرفُ عطفٍ يعني لكن ﴿نَتَّبِعُ مَا﴾: الذي ﴿أَلْفَيْنَا﴾: وجدنا وهي تستعمل للشيء المحسوس والمشاهد، كما جاء **ألفيا سيدها لدى الباب** [يوسف-٢٥] ﴿عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾: ما يعبد آباؤنا وأجدادُنا وهي عبادة الأصنام والأنداد ﴿أَوَلَو﴾: حرفٌ يُفيد استحالةَ حدوثِ الفعل ﴿كَانَ﴾: في السابق والحالي ﴿آبَاؤُهُمْ﴾: الذين يتخذونهم قدوة، ويتّبعون آثارهم ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾: لا يفهمون، أي شيء؛ فالجهل طاغ على قلوبهم، وهم طائفةٌ من اليهود ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾: لا يصلون إلى الحقيقة؛ لأنّ قلوبهم غُلف؛ لا يخترقها الإيمان.

التكليف: يوجد فرقٌ بين ألفى بمعنى وجد الشيء المحسوس والمشاهد أمّا وجد فهي أشمل تأتي قلبيةً وغير قلبية.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٧١)

﴿ومَثَلُ﴾: حال ﴿الَّذِينَ﴾ اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا كَمَثَلِ﴾: حالُ الذين هم في الضلالِ والجهلِ كحالِ ﴿الَّذِي﴾: اسمٌ موصولٌ للفرد المذكّر ﴿يَنْعِقُ﴾: الراعي أو القائد الذي ينادي على أتباعه؛ كما يُنادي الرجلُ على الدواب السارحة، ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصول، بالذي

﴿لا﴾: حرف نفي ﴿يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً﴾: الدعاء هو طلب القريب كدعاء المؤمن ربّه يا رب ﴿وَنِدَاءً﴾ وأيضاً النداء، هو طلب البعيد كالآذان للصلاة. هؤلاء المجرمون لهم قلوب لا تفقه ما يقول، هي تسمع ولا تعقل، تسمع الدعاء ولا تفهم كأنّهم ﴿صُمٌّ﴾: لا يسمعون ﴿بُكْمٌ﴾: خرست ألسنتُهم عن النطق ﴿عُمْيٌ﴾: يرون ولا يدركون الحقيقة، قال ابن عباس: أي أنّهم مثل الأصنام التي لا تسمع، ولا تعقل ﴿فَـ﴾: لهذا السبب ﴿هُمْ﴾: حرف تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَعْقِلُونَ﴾: لا يفهمون؛ ولا يميزون لأنّهم فقدوا وسائل الإدراك؛ فما نفعهم ما سمعوا، وما شاهدوا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١٧٢)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿آمَنُوا﴾: هذا توجيه من الله ﷻ للمؤمنين ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ﴾: يجب أنْ يكون طعامُكم من الرزق الحلال، إنّ أكل الطيب أمرٌ ربّاني، وهو سببُ قبول الدعاء والعبادة، وقد أمرَ اللهُ ﷻ الرُسل، عليهم السلام، بأكل الطيب، جاء في المعنى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [المؤمنون-٥١] ﴿مَا﴾: الذي من جنس غير العاقل ﴿رَزَقْنَاكُمْ﴾: ما أعطاهُ اللهُ ﷻ لكم ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾: عطفًا على ما سبق من فضل الله ﷻ عليكم شكر الله ﷻ ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ﴾: في الماضي وما زلتم ﴿إِيَّاهُ﴾: الله ﷻ ﴿تَعْبُدُونَ﴾: تُطيعون بحبٍ، وتشكرون بحقٍ، ولا تُشركوا معه أحدًا.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٧٣)

﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ تُفيدُ التأكيد ﴿حَرَّمَ﴾: منعكم عنه، وجعله حرامًا ﴿عَلَيْكُمُ﴾: إنّ الذي حرّم اللهُ ﷻ عليكم أكْلَهُ من الأطعمة ﴿الْمَيْتَةَ﴾: التي تموت رغمًا عنها، مثل التي ماتت منخنقة، أو موقوذة، أو متردية، أو نطيحة، أو التي قتلها السبع الوحش، ويُستثنى من ذلك: السمك الميت، أي ميتة البحر، جاء في المعنى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ [المائدة-٩٦] ﴿وَ﴾: أيضًا حُرّم عليكم ﴿الدَّمَ﴾: المسفوح السائل ﴿وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾: أيضاً مكونات الخنزير وليس اللحم فقط ﴿وَمَا﴾: الذي ﴿أُهِلَّ﴾: أوقف وخُصّص وأُريدَ ﴿بِهِ لِغَيْرِ﴾: حرفُ استثناء بمعنى إلّا ﴿اللَّهِ﴾: الذي ذُكر عليه عند ذبحه غير اسم الله ﷻ ﴿فَمَنِ﴾: اسم استفهام استثنائي يفيد هنا ﴿اضْطُرَّ﴾: في حالة الضرورة؛ أي أُكره على ذلك ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾: لا يطلب الأكل الحرام للاستمتاع

﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿عَادٍ﴾: الذي لا يشبع الذي، أكَلَ الميتة دونَ مجاوزةِ حدِّ الضرورة؛ الذي يحفظ الحياة، وفي المقابل فإنّ من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النّار، وأكلُ الميتة للمضطر غُرمًا لا رخصة، كإفطار المريض، بحيث لا تزيد عن ثلاث لقم، وجديرٌ بالملاحظة أنّ البغي والعدوان قد يكون معصيةً لله ﷻ، وهنا لا رخصةَ له حتى إذا كان مُضطرًا، شرط الخشية من الله ﷻ، ثم الاضطرار ﴿فَلَا﴾: أداةُ نهي تُفيد طلب عدم الفعل ﴿إِثْمَ﴾: لا ذنب ﴿عَلَيْهِ﴾: ولا عقوبة فيما فعل، الأكل ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ غَفُورٌ﴾: واسعُ، عظيمُ السماح ﴿رَحِيمٌ﴾: كثيرُ الرحمة بالمؤمنين وبعباده.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٤)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشكّ والإنكار ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿يَكْتُمُونَ﴾: هم اليهودُ والنصارى، الذين كتموا؛ وأخفوا صفة محمدٍ ﷺ في كُتبهم ﴿مَا﴾: الذي ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ﴾: بعض ﴿الْكِتَابِ﴾: بهدف الإبقاء على مكاسبهم من هدايا العرب، ورئاسة الأمم ﴿وَ﴾: أيضًا الذين ﴿يَشْتَرُونَ﴾: يتكسبون ﴿بِهِ﴾: بكتمان حقيقة محمدٍ ﷺ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: يبيعون دين الله ﷻ الحق بثمنٍ رخيص، هو عَرَضَ الحياةِ الدّنيا ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارةً للقريب والبعيد ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ ﴿النَّارَ﴾: يأكلون من شدة الجوع ما يكون سببًا في دخولهم النّار يوم القيامة، جاء في آية أخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء-١٠]، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الَّذِي يَشْرَبُ فِي إِنَاءِ الفِضَّةِ إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ»[1]، ﴿وَلَا﴾: حرفُ نفي ﴿يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: يُحرمون من كلامِ الله ﷻ لهم؛ فكلامُ الله ﷻ للخلق تكريمٌ عظيمٌ يوم القيامة بما يُحبّون سماعه؛ لا يُكلمُ الكافرين بسبب غضبه عليهم، وإذا كلّمهم سوف يسمعون ما يسوؤهم ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾: لا يمدحهم أو يُثني عليهم، ولا يُطهّرهم من آثامهم ﴿وَلَهُمْ﴾: نصيبهم تخصيصًا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: بل لهم عذاب شديد الوجع.

---

[1] صحيح البخاري /١١٣/٧(٥٦٣٤).

التكليف: عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مِرَارًا، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ»[1].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ (١٧٥)

﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للقريب والبعيد، زمانًا ومكانًا، الذين كتموا العلم النافع للنّاس **﴿الَّذِينَ﴾**: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن **﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾**: استعاضوا عن الهدى بأنْ بدّلوا ما جاء في كُتبهم عن بعثةِ وصفاتِ محمدٍ ﷺ، بالأكاذيب، والإنكار، والتزييف **﴿وَ﴾**: أيضًا استبدلوا **﴿الْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾**: اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب **﴿فَمَا﴾**: حرفٌ يُفيد الخبر، كانت عاقبتهم السريعة **﴿أَصْبَرَ هُمْ عَلَى النَّارِ﴾**: يُخبر الله ﷻ أنّ هؤلاء في عذابٍ شديدٍ في الآخرة، يتعجب من رآهم من صبرهم على ذلك النكال، وما أدومهم على المعاصي في الحياة الدنيا التي تُفضي إلى النّار.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (١٧٦)

﴿ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمورِ التي أخبر اللهُ ﷻ عنها إشارةً للبعيد، وهو الجزاء الذي كان بسبب كتمان العلم الذي يهدي **﴿بِأَنَّ﴾**: حرف تأكيد الفعل، ونفي الإنكار والشكّ **﴿اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾**: ما نزل من جنس الكتاب على الأنبياء، وعلى أنبياء اليهود، والقرآن الكريم على محمد ﷺ، وطالبهم بنشر الحق الذي جاء فيه؛ فكذّبوا، وكتموا، وخاصّة الرسالة الخاتم على محمد ﷺ **﴿بِالْحَقِّ﴾**: صدقًا وعدلًا **﴿وَإِنَّ﴾**: بالتأكيد **﴿الَّذِينَ﴾**: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ **﴿اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾**: الذين تفرقوا عن جنس الكتاب الذي وجدوا فيه العلم والهدى، فآمنوا ببعضٍ، وكفروا ببعضٍ **﴿لَ﴾**: حرف تأكيد **﴿فِي شِقَاقٍ﴾**: خلافٍ ونزاعٍ بعيدٍ عن الحق، جاء اللفظ القرآني شقاق على ثلاثة أوجه؛ فجاء بمعنى الضلال، وجاء بمعنى العداوة في قوله ﷻ **﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾** [الأنفال-١٣]، وفي قوله أيضا **﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾** [هود-٨٩]، وبمعنى **خلاف** في قوله ﷻ **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾** [النساء-٣٥] وقوله أيضًا **﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾** [النساء-

---

[1] صحيح مسلم /١٠٢/١(١٠٧).

١١٥]، وجاءت أيضًا في قوله ﷻ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص-٢] ﴿بَعِيدٍ﴾: أي هم في خلافٍ شديدٍ في الدنيا، وهم في الآخرة في عذابٍ كبيرٍ وعظيمٍ.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١٧٧)

﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقص يفيد النفي ﴿الْبِرَّ﴾: التقوى التي تؤدي إلى التوسع في الطاعات وأعمال الخير ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تُوَلُّوا﴾: تتجهوا ﴿وُجُوهَكُمْ﴾: أي مقدمة أجسادكم ﴿قِبَلَ﴾: جهة ﴿الْمَشْرِقِ وَ﴾: أيضًا جهة ﴿الْمَغْرِبِ﴾: تختلفون فيه على المشرق أو المغرب في الصلاة، لقد أمر اللهُ ﷻ بضرورة معرفة الفرائض، والعمل بها، حيث كان اليهود ينظرون إلى القبلةِ قبل المغرب، وكانت النصارى تُقبل قبل المشرق ﴿وَلَكِنَّ﴾: حرف استدراك ﴿الْبِرَّ مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿آمَنَ﴾: اعتقد يقينًا ﴿بِ﴾: حرف باء المصاحبة والصلة ﴿اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: آمن بأنّ بعد الموت بعثًا، وقيامةً، وثوابًا، وعقابًا، وجنّةً أبدية، ونارًا أبديّةً ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾: وهم رُسل الله ﷻ للنّاس، خلقهم وأرسلهم إلى الأنبياء؛ لتحقيق غايته ﷻ ﴿وَالْكِتَابِ﴾: أيضاً جنسِ الكُتبِ التي نزلت من الله ﷻ على ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ أيضًا الأنبياء؛ الذين أرسلهم الله ﷻ، حتى خُتمت بالقرآن الكريم، الذي انتهى إليه كلّ خبرٍ، ونُسخ به كلُّ ما سواه من كتب ﴿وَآتَى﴾: أعطي وأنفق من ﴿الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾: وهو يُحبُّ المال، وهو يُحبُّ العطاء، عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الغِنَى، وَلاَ تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، قُلْتَ لِفُلاَنٍ كَذَا، وَلِفُلاَنٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلاَنٍ»(١)، وجاءت "على" هنا للمصاحبة ﴿ذَوِي﴾: أصحاب الأسماء والصفات ﴿الْقُرْبَى﴾: أقارب الرجل هم أولى النّاس بالصدقات ﴿وَالْيَتَامَى﴾: أيضًا أعطى الذين مات آباؤهم ولا مصدر كسبٍ لهم، وصغارُ السنّ، الذين لم يبلغوا الحلم، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ، وَلَا صُمَاتَ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ»(٢)، ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾: أيضًا الذين لا يجدون ما يكفيهم في طعامهم، وكسوتهم، وسكنهم، وتعليمهم ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾: أيضاً أعطى المسافر الذي نفدت أمواله؛ فيُعطى ما يوصله إلى

---

(١) صحيح البخاري /٢/١١٠(١٤١٩).

(٢) سنن أبي داود (٣/ ١١٥)، وصححه الألباني(انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٧/ ٥٤٧).

بلده، وأيضًا الذي يريد سفرًا في طاعة، وكذلك الضيف الذي ينزل ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾: أيضًا الذين يطلبون من الزكاة والصدقات، وإنْ جاء على فرسٍ ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾: أيضًا في التحريرِ من العبودية، هم المكاتبون، الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم الديون كالدّيات ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾: عطفاً على إيمانه أدّى الصلاة على وجهها الصحيح الوقت، والركوع، والسجود، والخشوع ﴿وَآتَى﴾: عطفاً على إيمانه أنفق ﴿الزَّكَاةَ﴾: زكاة المال من باب التطوع والبر والصلة، حتى ما هو فوق الزكاة؛ فإنّ في المالِ حقًّا سوى الزكاة ﴿وَالْمُوفُونَ﴾: أيضاً الذين يحققون دفع ما عليهم ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿عَهْدِهِمْ إِذَا﴾: أداةُ ربطٍ بين ما بعدها بما قبلها ﴿عَاهَدُوا﴾: الذين يُوفون بعهد الله ﷻ، ولا يُنقضون الميثاق، الذين يُنفّذون ما وعدوا وتعاهدوا عليه، وعكس ذلك النفاق، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ[1]، ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾: أيضاً في حالات الفقر، والمرضِ، والألمِ لأيّ سببٍ، وجاءت بالمعنى نفسه في قوله ﷻ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام-٤٢]، وجاءت بمعنى **العذاب** في قوله ﷻ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر-٨٤]، وبمعنى القتال في قوله ﷻ ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء-٨٤]، وفي قوله أيضًا ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل-٣٣] ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: أيضًا في حالةِ المرضِ والسقمِ ﴿وَحِينَ﴾: في حال ﴿الْبَأْسِ﴾: وقتِ مقابلةِ الأعداء، وقت القتال، وهنا يمدحُ اللهُ ﷻ الصبر في هذه الحالةِ الصعبةِ ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارةً للقريب والبعيد ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿صَدَقُوا﴾: الذين هذه صفاتهم، هم الذين صدقوا في إيمانهم؛ فقد حققّوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال ﴿وَأُولَئِكَ﴾: عطفاً على ما سبق وفي إشارةً للقريب والبعيد ﴿هُمُ﴾: حرف تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب ﴿الْمُتَّقُونَ﴾: الذين اتقوا المحارم.

التكليف: لقد تضمنت هذه الآيةُ الكريمة قواعد الشرع وأمّهات الأحكام، وأركان الإيمان، وقواعد الإسلام، الصلاة، والزكاة، والجهاد، والصبر، والوفاء، والتقوى، والإنفاق العام والخاص. جاءت هذه السورة لتُردَّ على الذين اختلفوا على جهةِ القبلةِ من اليهود وبعض المسلمين؛ فكان الأمرُ هو الطاعةُ الخالصةُ لله ﷻ.

---

[1] صحيح البخاري /١/١٦(٣٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٨)

أسباب النزول: عن ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ القِصَاصُ، وَلَمْ تَكُنْ فِيهِمُ الدِّيَةُ». فَقَالَ اللَّهُ ﷻ لِهَذِهِ الأُمَّةِ: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى الحُرُّ بِالحُرِّ وَالعَبْدُ بِالعَبْدِ، وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى، فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ**﴾ [البقرة–١٧٨] «فَالعَفْوُ أَنْ يَقْبَلَ الدِّيَةَ فِي العَمْدِ» ﴿**فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**﴾ [البقرة–١٧٨] «يَتَّبِعُ بِالْمَعْرُوفِ وَيُؤَدِّي بِإِحْسَانٍ» ﴿**ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ**﴾ [البقرة–١٧٨] «مِمَّا كُتِبَ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [البقرة–١٧٨] «قَتَلَ بَعْدَ قَبُولِ الدِّيَةِ»[1]، كان القضاء والاتفاق بين اليهود من بني قريظة وبني النضير كالآتي: إذا قتل أحدٌ من بني النضير واحدًا من بني قريظة لا يُقتل، ولكن فديته تكون مئة وسق أي مكيال من التمر، وإذا قتل شخصٌ من بني قريظة شخصًا من بني النضير يُقتل، وإذا دفع الفدية تكون بمائتي وسق من التمر، ضعف دية الذي من قريظة، كان هذا ظُلمًا، وليس من شريعتهم.

﴿**يَا أَيُّهَا**﴾: كلمةُ نداءٍ لتنبيهِ السامعِ لما سيأتي؛ وبيانِ الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، من البشر، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿**الَّذِينَ**﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿**آمَنُوا**﴾: بأركان الإيمان ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ**﴾: جاء اللفظ القرآني "**كُتب**" على أربعةِ أوجهٍ، هنا بمعنى فُرض، وقيل إنّها هنا بمعنى إخبار عمّا كُتب في اللوح المحفوظ وسبق به القضاء، جاء في قوله ﷻ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة–١٨٣] وقوله ﷻ ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة–٢١٦]، وجاء بمعنى **حكم وقضاء** كما في قوله ﷻ ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [المجادلة–٢١]، و في قوله ﷻ ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [التوبة–٥١]، وجاء بمعنى **جعل** في قوله ﷻ ﴿**لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا**

---

[1] صحيح البخاري (٦/ ٢٣).

إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة–٢٢]، وجاءت أيضًا في قوله ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران–٥٣]، وفي قوله أيضًا ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة–٨٣]، وجاء بمعنى أمر في قوله ﷻ ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة– ٢١] ﴿الْقِصَاصُ﴾: أخذُ الحق عقابًا ﴿فِي الْقَتْلَى﴾: وهذه من أعظم حقوق الإنسان في التشريعات ﴿الْحُرُّ﴾: غير العبد ﴿بِـ﴾: حرف باء المقابلة بمعنى المساواة في الحكم ﴿الْحُرِّ وَ﴾: أيضًا ﴿الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾: دون حساباتٍ للعائلة أو القبيلة، كان قبل الإسلام إذا حدث قتالٌ بين قبيلتين يُقتل فيها الرجل بالمرأة ويُقتلُ فيها الحرُّ بمقتلِ العبد؛ فجاء الإسلام ليرسّخ المعادلات الآتية، وفيها آراء واجتهادات وإجماع، فهل يُقتل الحرُّ بالعبد: اختلف العلماءُ في هذه المسألة، فمنهم من رأى أنّ الحرّ يُقتلُ بالعبد وهو قول الحنفية وجماعةٍ من السلف، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، ومنهم من رأى أنّ العبد لا يُكافئ الحر، ومن ثم فلا يقتل به لنقصه عن رتبته، وليس في هذا تنقيص لآدمية العبد ولا استخفافٌ بحقّه، ولكنّه لما كان مملوكًا لم يكن مكافئًا للحرّ، فلا يلزم في قتلهِ إلّا الدية على هذا القول، عَنْ سَمُرَةَ، ولم يَسمعهُ منه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ، وَمَنْ جَدَعَ عَبْدَهُ جَدَعْنَاهُ[1]، وعلى رأي الجمهور: لا يُقتلُ الحرُّ بالعبدِ؛ لأنّ العبد سلعة، فإنْ قُتل خطأً لم تجب فيه ديّة، وإنّما تجب فيه قيمته؛ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ. يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ يَرُدُّ مُشِدُّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ، وَمُتَسَرِّيهِمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ، وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ»[2]، وفي مذهبِ الأئمة الأربعة: تقتلُ الجماعةُ بالواحد، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ قَتَلَ نَفَرًا خَمْسَةً أَوْ سَبْعَةً بِرَجُلٍ وَاحِدٍ قَتَلُوهُ قَتْلَ غِيلَةٍ, وَقَالَ عُمَرُ: لَوْ تَمَالأَ عَلَيْهِ أَهْلُ صَنْعَاءَ لَقَتَلْتُهُمْ جَمِيعًا[3]، ويقول الإمام أحمد: لا تُقتل الجماعة بالواحد، ولا تقتل النفس إلّا بنفس واحدة، ﴿فَمَنْ﴾: اسمٌ موصولٌ بمعنى الذي ﴿عُفِيَ لَهُ﴾: ترك ولي المقتول المالَ للقائل ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتعني هنا بداية الغاية المكانيّة وهو ﴿أَخِيهِ شَيْءٌ﴾: جاء ذكر الأخ هنا؛ للتذكير بأخوّةِ المسلمين لبعضهم، ﴿فَـ﴾: بسبب هذا ﴿اتِّبَاعٌ بِـ﴾: حرف باء الصلة ﴿الْمَعْرُوفِ﴾: على الطالب: وهو ولي الدم

---

[1] سنن ابن ماجة /٢/٨٨٨(٢٦٦٣). [حكم الألباني]: ضعيف.

[2] سنن أبي داود (٣/ ٨٠)، وصححه الألباني.

[3] الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣٧/ ٢٨٧).

إتباع المعروف إذا قبل الدية ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿أَدَاءٌ﴾: دفع ﴿إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾: أنْ يدفع القاتلُ الدية المطلوبة بغير ضررٍ وأنْ يُحسن ﴿ذَٰلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمورِ التي أخبر اللهُ ﷻ عنها ﴿تَخْفِيفٌ مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيدُ ابتداء الغاية، وهي هنا تعني المصدر ﴿رَبِّكُمْ﴾: المُعبود، والمُربي، وهو المنشئ للشيء من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام والخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: تشريعُ الدية في القتل العمد تخفيفًا ورحمة، بدلًا من القتل المحتوم على الأمم السابقة، فقد كان في بني إسرائيل القصاص في القتلى، ولم يكن فيهم العفو على هذه الأمّة ولم تحلّ لأحدٍ قبلهم ﴿فَمَنِ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمورِ التي أخبر اللهُ ﷻ عنها المقصود هنا القتلُ بعد أخذ الدية، أو بعد قبولها ﴿فَلَهُ﴾: للقاتل تخصيصًا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: له من الله ﷻ عذابٌ شديدٌ.

التكليف: لقد جاء كلّ ما في شريعةِ الإسلامِ رحمةً، وتخفيفًا، وحفاظًا، على حقوق الإنسان.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٩)

﴿وَ﴾: عطفًا على هذا الشرع ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا في شرع الله ﷻ الذي شرّعه لكم ﴿فِي الْقِصَاصِ﴾: وهو قتلُ القاتل، وهي حكمة عظيمةٌ، ووسيلةٌ رادعةٌ؛ لحفظ الأرواح، وبذلك تستمر حياة الإنسان، وقد كانوا يقولون: القتل أنفى للقاتل، فكانت عبارةُ القرآن الكريم: أفصحُ، وأبلغُ، وأوجز ﴿حَيَاةٌ﴾: جاءت كلمة حياة هنا بمعنى البقاء، وهي تفيدُ التعظيم؛ انظر[البقرة–٢٨] ﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿أُولِي﴾: أصحاب ﴿الْأَلْبَابِ﴾: العقول، أصحاب الفهم، العاقلون ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: حرفٌ يُفيد الرجاء إذا جاء من البشر، ويُفيدُ التحقق إذا جاء من اللهِ ﷻ ﴿تَتَّقُونَ﴾: والتقوى هي جماع الخيرات والبركات، تسبق كل عملٍ، وتقترن بكلّ عملٍ ويختمُ بها كلّ عمل، حتى تلتزمون بتفادي ما حرّم الله ﷻ، ولا ترتكبون الآثام، إنّ التقوى اسمٌ جامعٌ، يعني فعل الطاعات، وترك المُنكرات.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١٨٠)

كانت الآيةُ وصيّةً من الله ﷻ للوالدين والأقربين حتى نزلت آيةُ المواريث، وقد نسخت آية الفرائض هذه الوصية، فجاءت واجبةً وليست منّةً من المُوصي، ﴿كُتِبَ﴾: فَرض اللهُ ﷻ، ﴿عَلَيْكُمْ إِذَا﴾: أداةُ ربطِ ما بعدها بما قبلها ﴿حَضَرَ أَحَدَكُمُ﴾: إذا ظهرت علامات ﴿الْمَوْتُ﴾ لواحدٍ منكم ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَرَكَ خَيْرًا﴾: المال، والعقار، وغيره، ولقد جاءت كلمة خيرًا

هنا بمعنى المال، وكذلك في قوله ﷻ ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة-٢١٥]، قال ﷺ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ[1]، ﴿الْوَصِيَّةُ﴾: أنْ يُوصي المتوفى قبل وفاته بشيءٍ من ماله لأشخاصٍ بعينهم ﴿لِ﴾: حرفُ تمليكٍ وتخصيصٍ، وقد نُسِخ وجوبها بآية المواريث ﴿الْوَالِدَيْنِ﴾: الأمّ والأب ﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾: أيضاً كان مسموحًا أنْ يُوصي الشخصُ للوالدين، ولذي القرابة بما لا يزيد عن ثلث المال، وكان ذلك قبل نزول آية المواريث، ولقد نسختها الآية الكريمة: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء-٧]، وهناك من قال إنّها غير منسوخة، ولكنّها مُفسّرة، أي تفسّر آية المواريث ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: الرفق والإحسان، مثل أنْ يُوصي لأقاربه بما لا يُجحف بحق ورثته ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾: الذين يعبدون الله ﷻ كأنهم يرونه، أصحاب العبادة والطاعة والبعيدون عن الذنوب، وأصحاب الخشية والخوف من الله ﷻ.

التكليف: لقد عظّم الله ﷻ شأن الوصية، وعلى العبدِ أنْ يعمل بذلك، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ، يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ»[2].

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٨١)

﴿فَمَنْ﴾: اسمٌ موصولٌ بمعنى الذي ﴿بَدَّلَهُ﴾: إذا بدّل إنسانٌ الوصيةَ، وحرّفها، فغيّر حُكمها زيادةً أو نقصًا، ويدخل في ذلك الكتمان ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾: بعد أنْ سمعه وعلمه؛ وتيقن من الوصية ﴿فَإِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ مُركبة، تُفيد التحديد والتخصيص ﴿إِثْمُهُ﴾: ذنبُهُ ﴿عَلَى الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿يُبَدِّلُونَهُ﴾: يغيرون حقيقته، يقعُ أجرُ الميت على الله ﷻ، ويقع الإثمُ على الذين بدلوه ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: لقد اطّلع الله ﷻ إطلاع المُستمع العليم، على ما أوصى به الميت.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٨٢)

﴿فَمَنْ﴾: استفهام عن العاقل وهو هنا اسم موصولٌ بمعنى الذي ﴿خَافَ﴾: جاء لفظ "**الخوف**" في القرآن الكريم على أربعةِ أوجه؛ هنا بمعنى العلم، وقيل بمعنى الظنّ أو التوقع. وجاء في

---

[1] سنن أبي داود /٣/١١٤(٢٨٧٠). [حكم الألباني]: حسن صحيح، سنن الترمذي ت بشار (٣/ ٥٠٥)، وقال: حديث حسن صحيح.

[2] صحيح البخاري /٤/٢(٢٧٣٨).

قوله ﷻ ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء-١٢٨]، وجاء بمعنى الخوف من العذاب في قوله ﷻ ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران-١٧٠]، وبمعنى القتال في قوله ﷻ ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب-١٩]، وبمعنى القتل في قوله ﷻ ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء-٨٣] ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية المكانيّة، وهي المصدر هنا ﴿مُوصٍ جَنَفًا﴾: هو الميلِ عن الحق، والجنف هو الخطأ، والجهل، كلّ أنواعِ الخطأ، كزيادةِ حُصّةِ وارثٍ بالواسطة، أو بوسائل الحيل، مثل أنْ يُوصي لابن ابنته حتى تزيد حصتها، أو بسبب جهله ﴿أَوْ﴾: حرفُ عطفٍ يُفيدُ التسوية في الحكم، أو التخيير ﴿إِثْمًا﴾: جاء لفظ "إثم" على خمسة أوجه، ومعناه هنا الخطأ عمدًا، وجاء بمعنى الزنا في قوله ﷻ ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام-١٢٠]، وبمعنى الذنب في قوله ﷻ ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة-٢٠٣]، وفي قوله ﴿أيضًا وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء-٢٠]، وبمعنى المعصية في قوله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة-٢، ٣]، و

قوله أيضا قُلْ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف-٣٣]

﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيدُ السبب وتنفيذ الأمر دونَ تأخير ﴿أَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾: وهنا على المُوصي أنْ يُعدّل الوصيّة؛ حتى تنسجم مع المقصود على الوجه الشرعي، هذا التعديل ليس من التبديل، عن ابنِ عباسٍ قال: الجَنَفُ في الوَصيّةِ والإضرارُ فيها مِنَ الكَبائرِ[1]. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً، فَإِذَا أَوْصَى حَافَ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً، فَيَعْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وأقرئوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء-١٣، ١٤][2]، ﴿فَلَا﴾: أداة نهيٍ تفيد طلب عدم الفعل ﴿إِثْمَ﴾: ذنب ﴿عَلَيْهِ إِنّ﴾: حرفُ تأكيد ﴿اللَّهَ غَفُورٌ﴾: مسامحٌ ﴿رَحِيمٌ﴾: عظيمُ الرحمةِ بعباده.

التكليف: هذه الآياتُ توضحُ أنّ شريعة الإسلام قامت على العدل والتيسير.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: للمؤمنين باللهِ ﷻ، وملائكته، ورسلهِ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾: فُرض عليكم واجب التنفيذ ﴿الصِّيَامُ﴾: الإمساك عن الطعام، والشراب، والوقاع؛ بنيّةٍ خالصةٍ للهِ ﷻ، ومن فوائد الصيام: تزكيةٌ للنفسِ، وطهارتها، وتنقيتها من الأخلاق الرذيلة، قال ﷺ: « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»[3]، والصومُ هو الامتناع عن سلوك الجوارح ﴿كَمَا﴾: مثلما ﴿كُتِبَ﴾: فُرض ﴿عَلَى الَّذِينَ مِنْ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية الزمانيّة، من بعض الذين كانوا من البشر ﴿قَبْلِكُمْ﴾: فرض اللهُ ﷻ الصيام على الأمم التي سبقت رسالة محمدٍ ﷺ منذُ عهد نوحٍ ﷺ أوّل الأنبياء، وهم أهلُ الكتاب ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: هنا التقوى بمعنى الترجي، لأنّها من البشر، وإذا جاءت من عند الله

---

[1] السنن الكبرى للبيهقي /٦/٢٧١(١٢٩٦٣). هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ مَوْقُوفٌ. {ت} وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْنُ عُيَيْنَةَ وَغَيْرُهُ عَنْ دَاوُدَ مَوْقُوفًا وَرُوِىَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ مَرْفُوعًا وَرَفْعُهُ ضَعِيفٌ.

[2] سنن ابن ماجه /٢/٩٠٢(٢٧٠٤). قال الشيخ الألباني: ضعيف.

[3] صحيح البخاري /٧/٣(٥٠٦٥).

ﷻ فتفيد التحقق، ولقد نسختها الآية الكريمة: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة-١٨٧].

﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٤)

﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾: كان الصيامُ ثلاثة أيامٍ في الشهر في عهد نوح ﵇، حتى نُسخ هذا بصيام شهر رمضان، وهي أيامٌ قليلةٌ ﴿فَمَنْ﴾: اسمٌ موصولٌ بمعنى الذي ﴿كَانَ مِنْكُمْ﴾: من المسلمين ﴿مَرِيضًا أَوْ﴾: حرفُ تسويةٍ بين مُتعاطفين، هنا بين المرض و ﴿عَلَى سَفَرٍ﴾: كان مسافرًا ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا جواب الشرط ﴿عِدَّةٌ﴾: عددٌ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿أَيَّامٍ﴾: تُساوي عدد الأيام التي أفطرت فيها؛ بسبب السفر ﴿أُخَرَ﴾: في أيّ شهرٍ بعد رمضان ﴿وَعَلَى الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾: يستطيعون تأديته، كان الرجلُ السليمُ المُقيمُ مُخيّرٌ بين الصيام وبين الإطعام، إنْ شاء صام، وإنْ شاء أفطر، بحيث يُطعم عن كلِّ يومٍ مسكينًا، والأمرُ نفسُهُ بالنسبة للمرأة، ولقد نسختها الآية الكريمة: **فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٨٥)**

﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾: إذا أطعمتم أكثر من مسكينٍ عن اليوم الواحد، وإنْ صام فهو أفضل، وهذه الآية نُسخت بما بعدها ﴿فَهُوَ﴾: وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائبِ المفردِ المذكر ﴿خَيْرٌ لَهُ﴾: أكثرُ فائدةً وأفضلُ ثوابًا ﴿وَأَنْ﴾: حرف يفيد التحقق ﴿تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. تدركون حقيقة ما أمر به الله ﷻ.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٨٥)

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي﴾: اسمٌ موصولٌ للفرد المذكر، والمقصود هنا الشهر ﴿أُنْزِلَ فِيهِ﴾: نزل وحيًا خلاله ﴿الْقُرْآنُ﴾: نزل القرآنُ جُملةً واحدةً إلى بيت العزّة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان، في ليلة القدر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر-١]، ثم نزل بعد ذلك مفرّقًا

بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ، أُنزل على مواقع النجوم ترتيلًا في الشهور والأيام، حيث يمدحُ اللهُ ﷻ شهر رمضان لنزول القرآن العظيم فيه، وأيضًا نزلت بقية الكتب السماوية، قال رسول الله ﷺ: أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِسِتٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَالْإِنْجِيلُ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الْفُرْقَانُ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ[١].

﴿هُدًى﴾: هذا مدحٌ للقرآن لأنّه يهدي القلوب التي آمنت وصدّقت به ﴿لِ﴾: حرفُ تخصيص ﴿النَّاسِ﴾: بني آدم ﴿وَبَيِّنَاتٍ﴾: براهينَ، وحججًا واضحةً ﴿مِنَ﴾: حرفُ جرّ يُفيدُ ابتداء الغاية ﴿الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾: الذي يفرّقُ بين الحق والباطل، وبين الحرام والحلال ﴿فَمَنْ﴾: فالذي من جنس العاقل ﴿شَهِدَ﴾: حضر ﴿مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿لْ﴾: حرف لام أمر ﴿يَصُمْهُ﴾: هذا أمرٌ من الله ﷻ لمنْ أدرك رمضان وهو في وطنه معافى؛ فعليه أنْ يصوم، بذلك نُسخت الآية السابقة ﴿وَمَنْ﴾: أيضاً الذي من جنس البشر ﴿كَانَ مَرِيضًا﴾: لا يستطيع الإنسان الصوم وهو مريضٌ؛ لأنّ الصوم يزيدُ من مرضهِ، أو يُؤخرُ شفاءه ﴿أَوْ﴾: حرفُ عطفٍ يُفيدُ التسوية بين متعاطفين ﴿عَلَى سَفَرٍ﴾: لمسافاتٍ طويلة ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿عِدَّةٌ مِنْ﴾: بعض ﴿أَيَّامٍ أُخَرَ﴾: هذا ترخيصٌ بإفطارِ المريضِ والمسافر ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾: إذ رخّص اللهُ ﷻ لكم الفطر في المرض، والسفر، ويوجد هنا قضايا عدّة:

الأولى: قالت جماعةٌ إنّهُ منْ كان مُقيمًا في أولّ رمضانٍ ثم سافر أثناء الشهر فليس له إفطار مُستدلين فمن شهد منكم الشهر، وهذا مخالفٌ لسيرةِ الرسول ﷺ، فقد خرج في غزوةِ الفتحِ ثم أفطر، وأمرَ النّاس بالفطر.

والثانية: بعضُ الصحابة والتابعين قالوا بوجوب الإفطار في السفر، والصحيح أنّ الأمر على التخيير، وهذا ما فعله الصحابةُ في صحبة الرسول ﷺ.

والثالثة والرابعة: قال الشافعي: الصيامُ في السفر أفضل **و**قال آخرون الإفطارُ أفضلُ، أخذًا بالرخصة؛ أي هما سواء، إنْ شاء أفطر، أو إنْ شاء صام.

﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يُرِيدُ﴾: يشاء ﴿بِكُمُ﴾: لكم، يُصيبكم ﴿الْعُسْرَ﴾: التصعيب والمشقةَ، وعن كيفية القضاء: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ هل بالتتابع أمْ بالتفريق؟ فيها قولان: التتابعُ أفضل؛ لأنّ القضاء يُحاكَى بمثل الأداء، والقول الثاني: إنّه لا يجب التتابع، إنْ شاء فرّق، وإنْ شاء تابع، وهو قول الجمهور ﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الاستئناف ﴿لِتُكْمِلُوا﴾: حرف اللّام هنا يفيد العلّة

---

[١] مسند أحمد /٢٨/١٩١(١٦٨٤). وقال شعيب الأرنؤوط: حديث ضعيف.

والسبب؛ تستوفوا، والإكمال على مراحل منفصلة بينما الإتمامُ مرحلة مستمرة حتى ينتهي ﴿الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾: تحمدوه ﴿عَلَى مَا﴾: الذي ﴿هَدَاكُمْ﴾: لتذكروا اللهَ ﷻ عند انقضاء العبادة، هنا جاءت السُنّةُ باستحباب التسبيح، والتحميد، والتكبير بعد الصلوات المكتوبة، وهنا مشروعية التكبير في عيد الفطر ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾: حرفٌ يُفيد التوقع من البشر، هو طمعٌ، وإشفاقٌ إذا جاء على لسان النّاس، أمّا إذا جاء من الله ﷻ فهو يفيد التحقق ﴿تَشْكُرُونَ﴾: إذا حققتم الطاعةَ، فأنتم من الشاكرين.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦)

﴿وَإِذَا﴾: وهنا أيضًا ربطٍ بين ما بعدها بما قبلها ﴿سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾: في الاستجابة لدعائكم، أَنَّ أَعْرَابِيًّا، قَالَ: أَقَرِيبٌ رَبُّنَا فَنُنَاجِيهِ، أَمْ بَعِيدٌ فَنُنَادِيهِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ **﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾** [البقرة-١٨٦][1]، عنْ عَطَاءٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتِ **﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾** [غافر-٦٠] قَالَ الْمُسْلِمُونَ: لَوْ نَعْلَمُ أَيَّ سَاعَةٍ؟ فَنَزَلَتْ **﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾** [البقرة-١٨٦][2]، ﴿فَـ﴾: حرفُ عطف يفيد الترتيب للأمر؛ ويفيد سرعة الإجابة ﴿إِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾: قريبٌ منهم؛ أسمع دعاءهم، عن أبي هُرَيْرَةَ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: قَالَ اللَّهُ ﷻ: أَنَا مَعَ عَبْدِي حَيْثُمَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ[3]، جاء في المعنى: **﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾** [النحل-١٢٨]، عَنْ سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ»[4]، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ، وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: اللهُ أَكْثَرُ[5].

﴿فَـ﴾: حرف هنا يفيد الأمر بمعنى هذا السبب ﴿لْ﴾: حرف أمر ﴿يَسْتَجِيبُوا لِي﴾: يُطبقوا ويُطيعوا وينقادوا لي ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾: يثبتوا على إيمانهم بي؛ لا يرفعون أصواتهم، ولا يوسّطون

---

[1] العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني /٢/٥٣٥(١٨٨). وقال أحمد شاكر: هذا الحديث ضعيف جدًا، منهار الإسناد بكل حال. (تفسير الطبري جامع البيان ت شاكر (٣/ ٤٨٠).

[2] الدعاء للطبراني (ص:٢٥).

[3] صحيح البخاري /٩/١٨٧(٤٣).

[4] سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٥٥٦)، وصححه الألباني.

[5] مسند أحمد /١٧/٢١٣(١١١٣٣). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده جيد.

أحدًا بيني وبينهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: تعني الإشفاق؛ لأنّها من الله ﷻ لعبده ﴿يَرْشُدُونَ﴾: الرشدُ هو معرفةُ الحقيقة، والاهتداء إلى سُبلها.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (١٨٧)

﴿أُحِلَّ﴾: حلالٌ ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾: في ليالي أيام الصيام ﴿الرَّفَثُ﴾: الجماع ﴿إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ﴾: ضمير للمؤنث الجماعة ﴿لِبَاسٌ﴾: سكنٌ لكم، وسترٌ، وعفاف ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ﴾: سكن ﴿لَهُنَّ﴾: والمعنى هنا السكن، والسكينة، والاطمئنان، والعفاف، وعدم النظر إلى نساء الآخرين ﴿عَلِمَ﴾: يعلم ﴿اللَّهُ أَنَّكُمْ﴾: أنتم تأكيدًا ونفيًا للشك ﴿كُنْتُمْ﴾: في الماضي ﴿تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾: جاء لفظ خيانة في القرآن الكريم ومنها تختانون على خمسة أوجه؛ جاء هنا بمعنى ارتكاب ذنب؛ حيث جامع رجلٌ امرأته في شهر رمضان، وجاء بمعنى إفشاء أسرار المسلمين لليهود، وأعداء الإسلام في قوله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال-٢٧]؛ كما فعل أبو لبابة عندما قال لليهود ألّا ينزلوا على حُكمِ الرسول ﷺ، وجاءت بمعنى التلصص بالبصر في قوله ﷻ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر-١٩]، وجاءت بمعنى خيانة الأمانة التي عنده في قوله ﷻ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء-١٠٥]، وجاءت بمعنى الخلاف في الدين في قوله ﷻ ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء-١٠٧]، وقوله أيضًا ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال-٧١]، وقوله أيضًا ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم-١٠]، وجاءت بمعنى الزنا في قوله ﷻ ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف-٥٢] ﴿فَ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب الأمر ﴿تَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا﴾: غَفَرَ وسامحَ ﴿عَنْكُمْ﴾: رحمكم وخفّف عنكم ﴿فَ﴾: لهذا السبب وبدون تأخير ﴿الْآنَ﴾: لهذا السبب وبعد نزول هذه الآية ﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾: أتمّوا الجماع ﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الاستئناف ﴿ابْتَغُوا﴾: ارغبوا، وحقّق

﴿مَا﴾: الذي ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: تخصيصًا من حمل النساء؛ ومجيء الولد، وقيل الجماع، وقيل الرخصةُ التي كتبها اللهُ ﷻ لكم، وهي أعمُّ، واستعفاف الرجال عن نساء الآخرين ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾: عطفاً على ما سبق مسموحٌ لكم بعد الإفطار الأكل والشرب ﴿حَتَّى﴾: حرفٌ يُفيدُ انتهاء الغاية، كانت حالةُ صيامٍ قبل الأكل إلى أنْ ﴿يَتَبَيَّنَ﴾: يظهر بوضوح ﴿لَكُمُ﴾: تحديدًا ﴿الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد ابتداء الغاية الزمانيّة، وهي هنا ﴿الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ﴾: حرفٌ يفيد التمييز ﴿الْفَجْرِ﴾: والمقصود هنا ظهور بياض النّهار من سوادِ الليل، واستخدم القرآن الكريم هنا لفظ سواد الضوء أي غيابه ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني البطيء ﴿أَتِمُّوا﴾: أكملوا ﴿الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾: تعني أنْ يكون الإفطار عند غروب الشمس، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لاَ يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الفِطْرَ»[1]، وقد نهى الرسول ﷺ عن الوصل؛ أي وصلِ صيامِ يومٍ بآخر؛ لا يأكلُ بينهما شيئًا، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لاَ تُوَاصِلُوا» قَالُوا: إِنَّكَ تُوَاصِلُ، قَالَ: «لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنْكُمْ إِنِّي أُطْعَمُ، وَأُسْقَى، أَوْ إِنِّي أَبِيتُ أُطْعَمُ وَأُسْقَى»[2]، والوصال المسموح به: استمرار الصيام إلى السحر، ﴿وَلَا﴾: أداةُ نهيٍ، وهو طلبُ الكفّ عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، وهو النهي؛ الذي يُفيد التحريم ﴿تُبَاشِرُوهُنَّ﴾: مُحرّمٌ على المسلمِ مباشرةُ أي مُجامعة النساء في رمضان، وغير رمضان، ليلًا أو نهارًا ﴿وَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الحال ﴿أَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾: حتى يقضي الرجل اعتكافه، حتى وإنْ خرج من المسجد، وذهب إلى منزله لحاجةٍ ضروريةٍ كالأكل ودخول الحمام، ولا يُقبّل زوجته، ولا يشتغل بشيءٍ غير الاعتكاف، ولا يزورُ مريضًا، بل يسألُ عنه وهو مارٌّ في الشارع، وهي من الأحكام المنسوخة؛ إذ أباح اللهُ ﷻ مباشرةَ النساءِ في ليلِ رمضان ﴿تِلْكَ﴾: إشارةً للبعيد المؤنث ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾: هذه أحكامُ وفرائضُ الصيام؛ الحلالُ والحرامُ، رُخصهُ، وعزائمه، وقيل المقصود المباشرة في الاعتكاف ﴿فَلَا﴾: أداة نهيٍ تفيد طلب عدم الفعل ﴿تَقْرَبُوهَا﴾: لا تُقدّموا لها، لا تتعدوها، أو تتجاوزوها ﴿كَذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمورِ التي أخبر اللهُ ﷻ عنها ﴿يُبَيِّنُ﴾: يُوضحُ ﴿اللَّهُ آيَاتِهِ﴾: البراهين الواضحة ﴿لِلنَّاسِ﴾: لعمومِ المسلمين، ولغيرهم شريعةَ الصيام ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: حرفٌ يفيد التوقع عند البشر، والتحقق إذا جاء من الله ﷻ ﴿يَتَّقُونَ﴾: يعرفون فيهتدون، ويُطيعون، ويتجنبون الوقوع في الخطأ.

---

[1] صحيح البخاري (٣/ ٣٦)(١٩٥٧).

[2] صحيح البخاري (٣/ ٣٧).

التكليف: كان التكليف في بداية الدعوة أشدّ؛ للتربية والتمحيص، ثم خفّف اللهُ ﷻ عنهم؛ وفي هذا منهجٌ تربوي.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٨)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق، أيضًا ﴿لَا﴾: نافية، وهي هنا تُحرّم ما بعدها ﴿تَأْكُلُوا﴾: تستولوا على ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾: وممتلكاتكم التي ﴿بَيْنَكُمْ بِ﴾: حرف باء المجاوزة ﴿الْبَاطِلِ﴾: المعنى في اللغة هو الذاهب الزائل وهو خلاف الحق. هو الرجل الكذّاب عليه مالٌ، وليس عليه بيّنة أو دليل وهو يعرف أنّ هذا المال ليس ماله، ويُخاصم في القضاء، وهو يعرف أنّه آثمٌ، ولقد جاء معنى الباطل في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه؛ جاءت بمعنى الكذب في قوله ﷻ **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾** [غافر-٧٨]، وجاء بمعنى فساد العمل؛ أي حبط العمل؛ في قوله ﷻ **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾** [البقرة-٢٦٤].

قاعدةٌ فقهيةٌ في هذا السياق: أنّ حُكم القاضي لا يغيّر في الأمر شيئًا، قال ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلاَ يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»[1]، وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، أَخْبَرَتْهَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ سَمِعَ خُصُومَةً بِبَابِ حُجْرَتِهِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ فَأَقْضِي لَهُ بِذَلِكَ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ لِيَتْرُكْهَا»[2] ﴿وَ﴾: أيضًا مُحرّمٌ عليكم أنْ ﴿تُدْلُوا﴾: من التدليةِ، وهي نزولُ الشيء من أعلى إلى أسفلَ، والحاكمُ في نظر النّاس هو في مكانةٍ عاليةٍ مرموقةٍ، فإذا قَبِلت يدهُ أخذَ الرشوة، فهي يدٌ سفلى، وإنْ كان في مكانةٍ عاليةٍ في نظر النّاس ﴿بِهَا﴾: هي الرشوة ﴿إِلَى الْحُكَّامِ﴾: المسئولين ﴿لِ﴾: حرفٌ يُفيد السبب والعلّة ﴿تَأْكُلُوا فَرِيقًا﴾: جزءًا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان

---

[1] صحيح البخاري /٩/٢٥(٦٩٦٧).

[2] صحيح البخاري (٩/ ٧٢).

وتمييز النوع، وتفيد هنا بعض ﴿أَمْوَالِ﴾: ممتلكات ﴿النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾: هو الذنب والعمل الذي لا يحلّ؛ الذي يستحق العقوبة عليه، أن تعطوهم المال بهدف أكلِ أموال النّاس بالباطل ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: عطفاً على ما سبق كنتم مُتأكدين أنها ليست أموالكم.

التكليف: لا تُخاصم وأنت تعلم أنّك آثمٌ، وللحاكم أجرُهُ، وعلى المحتالِ وزرهُ.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٨٩)

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾: يستفسر بعضُ المسلمين من الرسول ﷺ ﴿عَنِ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيدُ الاتصال والارتباط والتعلق ﴿الْأَهِلَّةِ﴾: هي جمع هلال، هو القمر في بداية ظهوره في الأيام الثلاثة الأولى من كلّ شهرٍ ﴿قُلْ هِيَ﴾: وهي الدورةُ القمرية، وهذه معروفةٌ اليوم عند علماء الفلك، وقيل عن **أسباب نزولها:** أن النّاس سألت عن الأهلّة؛ فنزلت الآية، ولقد سُئل الرسول ﷺ لماذا خُلقت الأهلة؟ والغاية من الأهلّة هي معرفتهم الحلال في دينهم في الإفطار، وشهر الصيام، قل يا محمد ﷺ أنّها ﴿مَوَاقِيتُ﴾: مواعيد ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿النَّاسِ﴾: عموم بني آدم ﴿وَ﴾: أيضًا مواقيت ﴿الْحَجِّ﴾: أيضاً بغرضِ معرفةِ أشهرِ وأيّامِ الحجّ، وعدّةِ النساءِ، وتمامِ الحول للزكاة، وأوقاتِ المعاملات، وآجالِ الديون والديّات ﴿وَلَيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقص يفيد النفي ﴿الْبِرُّ﴾: إنّ المقصود هو كلُّ أوجهِ الخيرِ ﴿بِ﴾: حرف باء التوكيد ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَأْتُوا﴾: تدخلوا ﴿الْبُيُوتَ مِنْ﴾: حرفُ جرّ يفيد ابتداء الغاية المكانية ﴿ظُهُورِهَا﴾: قيل في أسباب نزولها: عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: سَمِعْتُ البَرَاءَ ﷺ، يَقُولُ: «نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا، كَانَتِ الأَنْصَارُ إِذَا حَجُّوا فَجَاءُوا، لَمْ يَدْخُلُوا مِنْ قِبَلِ أَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ، وَلَكِنْ مِنْ ظُهُورِهَا، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَدَخَلَ مِنْ قِبَلِ بَابِهِ، فَكَأَنَّهُ عُيِّرَ بِذَلِكَ، فَنَزَلَتْ»: **﴿وَلَيْسَ البِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا، وَلَكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقَى، وَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾** [البقرة-١٨٩][1] ﴿وَلَكِنَّ﴾: أيضاً هنا حرفُ عطفٍ واستدراكٍ ﴿الْبِرَّ﴾: صنوف الخير ﴿مَنِ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿اتَّقَى﴾: ولكنّ الخير من خاف الله ﷻ في الظاهرِ والباطنِ ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا وللاستئناف ادخلوا ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾: أي لا تتسوروا البيوت، بالدخول من فوقها ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: العمل ببصيرةٍ، طاعةً لله، رجاءَ رحمته، والانتهاءَ عن المعاصي؛ خوفًا من عذابه ﷻ، واتقاء غضبه، جاءت كلمةُ التقوى في القرآن الكريم على خمسة وجوه؛ هنا بمعنى الطاعة وعدم العصيان، وجاءت بمعنى الخشية في قوله ﷻ **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا**

---

[1] صحيح البخاري (٣/ ٨).

زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء–١]، وفي قوله أيضا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج–١]، وفي قوله ﷻ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء–١٠٦]، وجاءت بمعنى العبادة في قوله ﷻ ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُون﴾ [النحل–٢] وفي قوله ﷻ ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل–٥٢]، وجاءت بمعنى التوحيد في قوله ﷻ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء–١٣١]، وفي قوله ﷻ [الحجرات–١٣]، وجاءت بمعنى الخلاص في قوله ﷻ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج–٣٢] ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: هي هنا من البشر؛ فتفيد التوقع والترجي، وأنتم تطمعون وتُشفقون على أنفسكم أيّها النّاس ﴿تُفْلِحُونَ﴾: تفوزون يوم القيامة حيثُ الجزاءُ على التمامِ، والكمالِ، والنجاةِ مما ترهبون.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١٩٠)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق بعد تشريع جزءٍ من حياة المسلم يضيف اللهُ ﷻ تشريعًا جديدًا ﴿قَاتِلُوا﴾: شرّع الله ﷻ القتال ﴿فِي سَبِيلِ﴾: من أجلِ نصرةِ ﴿اللَّهِ﴾: لرفع راية لا إله إلاّ الله بقتال ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿يُقَاتِلُونَكُمْ﴾: هذه أوّلُ آيةٍ نزلت في القتال في المدينة، فكان الرسولُ ﷺ يقاتل من يقاتله، ويكفّ عمّن كفّ عنّه، حتى نزلت براءة ﴿وَلَا﴾: أيضاً هنا نهي وتُحريم أنْ ﴿تَعْتَدُوا﴾: لا تتجاوزوا حدود الله ﷻ، ولا تمثلوا في القتل، وهو قتل الطفل والصبية والنُسّاك، والنساء، وكبار السن، أو تمثّلوا بالقتلى وغير ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾: إنّ الله ﷻ يكرهُ المتجاوزين لحدود الشرع والأحكام؛ وهذا أيضًا منع الغلو، ولقد قيل إنّها منسوخةٌ بقوله ﷻ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة–٥]، وقيل إنّ الذين يقاتلونكم: ليست تخصيصًا ولكنْ هي لإثارةٍ وإغراءٍ ضدّ أعداء الإسلام، بمعنى: أي كما يقتلوكم فاقتلوهم، وقال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة–٣٦].

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (١٩١)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿اقْتُلُوهُمْ﴾: هذا أمرٌ من الله ﷻ بقتل المشركين ﴿حَيْثُ﴾: ظرفٌ يدلُّ على الزمان والمكان ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾: وجدتموهم فيه ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ﴾: من المكان الذي احتلوه

منكم، مثل احتلال اليهود لفلسطين ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿حَيْثُ﴾: ظرفٌ يدلُّ على الزمانِ والمكانِ ﴿أَخْرَجُوكُمْ﴾: من الأرض التي أخرجوكم منها؛ فإخراج اليهود من كلِّ شبرٍ من أرض المسلمين المُحتلة؛ هو أمرٌ ربّانيّ وخاصّة من فلسطين ﴿و﴾: حرفٌ يُفيد الحال ﴿الْفِتْنَةُ﴾: هي الشركُ بالله ﷻ، وصدّ المسلمين عن سبيل الله ﷻ، وعدم رجوعهم إلى الله ﷻ ﴿أَشَدُّ﴾: أقسى وأكثرُ ضررًا ﴿مِنَ الْقَتْلِ﴾: أعظمُ جُرمًا من قتل النفس ﴿وَلَا﴾: وعطفاً على ما سبق محرّم عليكم أنْ ﴿تُقَاتِلُوهُمْ﴾: لا تبدؤوا بقتالهم ﴿عِنْدَ﴾: اسم مكان، في ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: الحرم الشريف، قال ﷺ: إنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلاَ يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلاَ يَعْضُدَ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُولُوا لَهُ: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ، وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ[1]، كما كان هذا رخصةً لرسول الله ﷺ يومَ فتح مكّة ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ نقاتلهم إلّا بشرط أنْ ﴿يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾: هنا مشروعيةُ القتال عند المسجد الحرام إذا بدأ الأعداء القتال فيه، ولقد نسختها الآية الكريمة: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ [١٩٣]، ﴿فَإِنْ﴾: حرفُ تأكيدِ الفعل ﴿قَاتَلُوكُمْ﴾: بدؤكم القتال ﴿فَ﴾: حرفٌ استثنائي بمعنى سبب، ويفيد سرعة التنفيذ ﴿اقْتُلُوهُمْ﴾: فيحلُّ لكم القتال والقتل؛ دفعًا للمعتدين ﴿كَذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمورِ التي أخبر اللهُ ﷻ عنها ﴿جَزَاءُ﴾: عقابُ ﴿الْكَافِرِينَ﴾: هذا الجزاء؛ هو قتلهم؛ عقابًا للذين اعتدوا.

﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٩٢)

﴿فَإِنِ﴾: حرف شرط ﴿انْتَهَوْا﴾: إذا تركوا القتال في الحرم، وأنابوا إلى الإسلام، وتابوا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُور﴾: يغفر لهم، ويسامحهم حتى وإنْ قتلوا مسلمين في الحرم ﴿رَحِيمٌ﴾: إنّ رحمة الله ﷻ وسعت كلَّ تائبٍ.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٩٣)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾: هذا تشريع مقاتلة الكافرين ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ نصدقك إلّا بشرط أنْ، يُشرّع اللهُ ﷻ هنا قتال كلِّ من يقاتل المسلمين، وهم الكفّار، واليهود، والنصارى، وغيرهم من المعتدين، إلى أنْ ينتهوا عن القتال،

---

[1] صحيح البخاري ٣/١٤(١٨٣٢).

جاء لفظ حتى في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه؛ هنا بمعنى وقتٍ لشيءٍ يكون، أي للحالةِ التي قبلها، وجاءت بمعنى إلى حين في قوله ﷻ ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الصافات-١٧٨]، وفي قوله أيضًا ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الذاريات-٤٣]، وجاءت بمعنى عندما في قوله ﷻ ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف-١١٠] ﴿لَا﴾: حرفُ نفي ﴿تَكُونَ﴾: تصير ﴿فِتْنَةٌ﴾: تنتشر الفتنُ عن دين الله ﷻ، الشركُ، والصدُّ عن سبيل الله ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ﴾: الإسلام ﴿لِلَّهِ﴾: يكون دينُ الله ﷻ هو الظاهر، العالي على سائر الأديان، عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»[1]، ﴿فَإِنِ﴾: حرفٌ يفيدُ الشرط ﴿انْتَهَوْا﴾: أسرعوا في الكفّ عن الشرك بالله ﷻ، وكفّوا عن قتال المؤمنين ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ وحثٍ على عدم الفعل وهو ﴿عُدْوَانَ﴾: حرامٌ قتالهم أو الاعتداء عليهم ﴿إِلَّا﴾: باستثناء أنْ يكون قتالُكم ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾: الذين يأبون أنْ يقولوا لا إله إلّا الله.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٩٤)

سبب النزول: سار رسولُ الله ﷺ إلى الكعبة في ذي الحجّة، من العام السادس للهجرة، ومنعه الكُفّار، وعُقد صُلحُ الحديبية؛ فدخلها، وقيل إنّ الرسولَ لمْ يُحارب في الشهر الحرام إلّا إذا أُعتدي عليه، فإذا جاء الشهر الحرام كفّ عن الغزو حتى ينقضي الشهر، تُعد هذه السورة من التشريع المتجددِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، ولكلِّ أمّةٍ، وهو حقُّ الدفاع عن النّفس، وهي من حقوق الإنسان الثابتة ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾: هو الشهرُ الذي مكّن اللهُ ﷻ فيه محمدًا ﷺ من دخول الحرم، وأداءِ العمرة فيه، في السنة السابعة للهجرة ﴿بِ﴾: حرف باء الظرفية ﴿الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾: عوضًا عن الشهر الحرام الذي صدّ فيه الكفّارُ الرسول ﷺ والمسلمين عن الحرم في العام السادس للهجرة ﴿وَ﴾: عطفًا أيضًا على ما سبق أيقنوا أنّ ﴿الْحُرُمَاتُ﴾: ما يجبُ المحافظة عليه ﴿قِصَاصٌ﴾: لمّا كان رسول الله ﷺ ومعه (١٤٠٠) في الحديبية، وبلغهُ أنْ رسوله عثمان بن عفان قد قُتل، فتجهز للحرب، غزوٌ بغزوٍ، فلمّا علم أنّ عثمان رضي اللهُ ﷻ عنه لم يُقتل، كفّ عن القتال، وجنح إلى المسالمة والمصالحة ﴿فَمَنِ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: بدأكم بالقتال عدوانًا ﴿فَ﴾: لهذا السبب ومن دونِ تأخيرٍ ﴿اعْتَدُوا عَلَيْهِ بِ﴾: حرفُ باء المقابلة

---
[1] صحيح مسلم (٣/ ١٥١٣)(١٩٠٤).

﴿مِثْلِ﴾: مقابل أو مكافئ ﴿مَا﴾: الذي من جنس غير العاقل وهو ﴿اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾: هذا أمرٌ بالعدل حتى مع المشركين، نقاتل من بدأ بالقتال، جاء: **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾** [النحل-١٢٦]، وقال ﷻ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى-٤٠] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: خافوا غضب اللهِ ﷻ إنْ تجاوزتم حدوده في القتال، إنّهُ أمرٌ بطاعة اللهِ ﷻ في كلّ الأحوال ﴿وَاعْلَمُوا﴾: علم يقين وتصديق ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾: وإخبارٌ بأنّ الله ﷻ مع المتقين، ينصرهم في الدارين.

التكليف: العدلُ سمة الإسلام حتى في الحروب.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿أَنْفِقُوا﴾: ادفعوا من أموالكم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: يحثُّ الله ﷻ على الإنفاق في طاعة الله ﷻ ﴿وَلَا﴾: أيضًا هنا أمرُ تحريمٍ ﴿تُلْقُوا﴾: توردوا ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿أَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾: أي لا تبذروا الأموال، وتُهلكوها في غير طاعة الله ﷻ، وفي غير الجهاد في سبيله، ولقد جاءت الآية الكريمة لتعالج البُخل، وقيل أنّها قيلت فيمن ييأسُ من عفو اللهِ ﷻ إذا أذنب، ويظنُّ أنّ الله ﷻ لنْ يغفر له، وقيل نزلت فيمن يخرجُ في سبيلِ اللهِ بغير نفقةٍ؛ فتنقطع بهم السُبل، وقيل في معنى "**التَّهْلُكَةِ**" أي لا تلقوا أنفسكم إلى الهلاك؛ بترك الجهاد، وعدم الإنفاق في سبيل الله ﷻ، وقيل موتُ الرجلِ من الجوع، والعطش، أو المشي الطويل، أو الانتحار ﴿وَأَحْسِنُوا﴾: وعطفاً على ما سبق أطيعوا الله ﷻ، أعلى مقامات الطاعة؛ أي عبادة الله كأنك تراه ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ يُحِبُّ﴾: إنّ حبَّ اللهِ ﷻ مغنمٌ عظيمٌ ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾: الذين عبدوا الله ﷻ كأنّهم يرونه.

التكليف: هنا أمرٌ من اللهِ ﷻ للإنفاق في سبيله، في كلّ الوجوه، للقُربات، والطاعات، وخاصّة في القتال؛ فيقوى المسلمون. إنّ ترك هذا التكليف الربّانّي؛ هو هلاكٌ ودمارٌ للفرد والأمّة.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١٩٦)

ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة أحكامَ الصيام، ثم أعقبَ ذلك بآيات الجهاد، وجاءت هذه الآية لتبيّن مناسك الحجّ والعُمرة ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿أَتِمُّوا﴾: أكملوا مناسك ﴿الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾: هي الزيارةُ في موعد الحج ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿اللَّهِ﴾: أمرٌ من الله ﷻ بإكمال مناسك الحج؛ أي إكمال أفعالها بعد الشروع فيها؛ مُبتغين رضا الله ﷻ ﴿فَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿أُحْصِرْتُمْ﴾: من الحصار، أي مُنعتم من الوصول إلى البيت الحرام، أو مُنعتم من إتمام المناسك، وقيل إنْ تُحرم من منطقة عائلتك لا تريد إلّا الحجّ والعُمرة، وليس لتجارةٍ أو حاجةٍ من الدنيا؛ أنْ تخرج لله ﷻ لا لغيره، وقيل إتمامُها جميعًا من الميقات، وقيل إتمامها أنْ تفصل بين الواحدةِ عن الأخرى، وأنْ تعتمر في غير أشهرِ الحجّ مستدلين بقوله ﷻ: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة–١٩٧]، وقد اعتمر رسولُ اللهِ ﷺ أربع عُمرٍ لما ثبُت عن أنسٍ رضى الله عنه كلّهن في ذي القعدة إلّا التي مع حجته، وقال ﷺ: فَإِنَّ عُمْرَةً فِي رَمَضَانَ تَقْضِي حَجَّةً أَوْ حَجَّةً مَعِي»[١]، ومن أحرم بنيّة الحجِّ والعمرةِ فليس له أنْ يحلّ حتى يُتمهما، وهنا ملاحظة: فقد جمع رسول الله ﷺ في إحرامهِ بحجٍّ وعمرةٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَإِنَّ الْعُمْرَةَ قَدْ دَخَلَتْ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٢]، وقال ابن عباس: لا حصرٍ إلّا حصرَ العدو، فأمّا من أصابهُ مرضٌ أو وجعٌ أو ضلالٌ تاه عن الطريق فليس عليه شيء ﴿فَمَا﴾: حرفٌ يفيد خبرًا ﴿اسْتَيْسَرَ﴾: الأيسر أي الأسهل والأخف؛ هو الشاة ﴿مِنَ الْهَدْيِ﴾: عمومًا من بهيمة الأنعام: الذكر أو الأنثى، والأنواع الأربعة: الإبل، البقر، المعز، الضأن، يعني ثمانية أنواع، وهذا مذهبُ الأئمة الأربعة، عَنْ جَابِرٍ ﵁، قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَشْتَرِكَ فِي الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ، كُلُّ سَبْعَةٍ مِنَّا فِي بَدَنَةٍ[٣]، وقال ابن عباس: لا حصرَ إلّا حصرَ العدو، فأمّا من أصابه مرضٌ أو وجعٌ أو ضلالٌ تاه عن الطريق فليس عليه شيء وقال ابن عباس: على قدرك، وقال ﴿وَلَا﴾: حرف تحريم ﴿تَحْلِقُوا﴾: تقصّوا شعر ﴿رُءُوسَكُمْ حَتَّى﴾: حرفٌ يُفيدُ سبب الجملة التي بعدها ﴿يَبْلُغَ﴾: يصل ﴿الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾: هنا حكمٌ: في حالةِ الأمن الذي هو طمأنينة النفس وزوالُ الخوف، والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق حتى يبلغ الهديُ محلّه، ويفرغ النّاس من أفعالِ الحجِّ والعمرةِ إنْ كان قارنًا أو فعل أحدهما إنْ كان مفردًا أو متمتعًا: ذبيحةً من الشاة، و**الأسباب**: حمل كعب بن عجرة والقمل يتناثر من رأسه وينزل على وجهه، قال رسول الله ﷺ: «مَا كُنْتُ أُرَى الوَجَعَ بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى – أَوْ مَا كُنْتُ أُرَى الجَهْدَ بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى – تَجِدُ شَاةً؟» فَقُلْتُ: لاَ، فَقَالَ: «فَصُمْ

---

[١] صحيح البخاري /١٩/٣(١٨٦٣).

[٢] صحيح مسلم /٩١١/٢(١٢٤١).

[٣] صحيح مسلم (٢/ ٨٨٢).

ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ»[1]، وهنا يُطرح سؤال: أيهما أفضل: صيامٌ، أو صدقةٌ، أو نسكٌ؟ والجواب: إذا كانت تعني أيّ واحدةٍ منهم مقبولة؛ لأنّها اختيار الأئمة الأربعة مع أنْ يُخيّر الإنسان في أيّهم: إنْ شاء صام: فهذا ما بدأت به الآية، وهي ثلاثةُ أيامٍ في أي مكان، وإنْ شاء تصدّق، بثلاثة ملء صاعٍ للواحد على ستة مساكين حيث شاء، وإنْ شاء ذبح شاةً وتصدق بها على الفقراء في مكّة، والذبح هو شق الحلق وقطع الأوعية الدموية في العنق التي تصل الدم للمخ فيموت وهناك اجتهادات في المكان الذي تُقدم فيه الفدية ﴿فَمَنْ﴾: اسمٌ موصولٌ بمعنى الذي للعاقل ﴿كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ﴾: حرفُ تسويةٍ في الحكم ﴿بِهِ أَذًى﴾: مرض ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا جزءًا أو بعضًا ﴿رَأْسِهِ﴾: أو إصابة ﴿فَـ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب الأمر يفيد سرعة تنفيذ ﴿فِدْيَةٌ﴾: عوض ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا جزءًا من الشهر أو بعض أيام، وهي الغاية الزمانيّة ﴿صِيَامٍ أَوْ﴾: حرف تسوية بين متعاطفين ﴿صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾: ذبيحة شاة لله ﷻ ﴿فَإِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿أَمِنْتُمْ﴾: إذا تمكنتم من أداء المناسك ﴿فَمَنْ﴾: الذي من البشر ﴿تَمَتَّعَ بِـ﴾: حرف باء السببية ﴿الْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾: والتمتع نوعان: الأول: التمتع الخاص: هو للذي أحرم بالعمرة أولًا، فلما فرغ منها أحرم بالحج، والثاني: التمتع العام: يشمل القسمين، الذي أحرم بعمرةٍ وحجٍ ﴿فَمَا﴾: حرفُ عطفٍ يفيد الخبر ﴿اسْتَيْسَرَ﴾: ما أمكن الحصول عليه، أي ما يقدر عليه من البقر أو الغنم ﴿مِنَ﴾: بعض، يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿الْهَدْيِ﴾: من هَدْيِ التمتع، وأقلّ ذلك شاة، وله أنْ يذبح بقرة ﴿فَمَنْ لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَجِدْ﴾: لم يتمكن من توفيره ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾: الذي لا يجد هديًا؛ عليه صيام ثلاثة أيام في أيام المناسك: الأَوْلَى أنْ يصومها قبل يوم عرفة في العشر، أو حين يُحرم، وهناك من أجازها في شوال، ولقد أجاز الشعبي صيامها يومين قبل عرفة، وصيام يوم عرفة، وأجازها بعضُهم عن قولِ عائشةٍ، رضي اللهُ عنها، في أيّام التشريق فقط لمنْ لمْ يجد هديًا ﴿وَ﴾: أيضًا صيام ﴿سَبْعَةٍ﴾: أيام ﴿إِذَا﴾: حرفُ ظرفٍ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿رَجَعْتُمْ﴾: فيها قولان: الأول: إذا رجعتم إلى رحالكم، والثاني: إذا رجعتم إلى بيوتكم ﴿تِلْكَ﴾: اسمُ إشارةٍ للبعيد المؤنث ﴿عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾: والإكمال على مراحل منفصلة بينما الإتمامُ مرحلة مستمرة حتى ينتهي، أي تُجزئ عن الهدي، وقيل هكذا تكتمل الأيامُ العشر ﴿ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق ذكره التي

---

[1] صحيح البخاري /٣/١٠(١٨١٦).

أخبر الله ﷻ عنها ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿مَنْ﴾: العاقل الذي ﴿لَمْ﴾: حرف جزم ينفي المضارع ﴿يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي﴾: من سكان ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: أي ليس من الذين هم أهلُ الحرم، فلا مُتعة لهم ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾: أطيعوه ﷻ فيما أمركم، بقناعةٍ ورجاء الثواب، وانتهوا عن النواهي بقناعةٍ؛ خوفًا من العذاب ﴿وَاعْلَمُوا﴾: وعطفًا على بلوغ مرتبة التقوى اعلموا علم يقين ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: يخوّف اللهُ ﷻ الذين يخالفون أمره.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٧)

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ﴾: تفيد جمع القلّة؛ لأنّ عدد شهور الحج أربعة ﴿مَعْلُومَاتٌ﴾: الإحرامُ للحج في أشهر الحج اعتمادًا على أنّ الحجّ أشهرٌ معلومات، وهي شوال، وذو القعدة، وذو الحجة كاملًا كلّ شهر؛ فتكون العمرةُ في بقية ذي الحجّة، ويجوزُ الإحرامُ في كلّ الأشهر للعمرة ﴿فَمَنْ فَرَضَ﴾: قال ابن جرير بإجماعٍ: أوجبُ، وقرر، وقام بالإحرام ﴿فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾: ونوى الحج، وقال ابن عباس، وعطاء: أحرم بنيّةٍ حجٍ وعمرةٍ ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿رَفَثَ﴾: وهو الجماع، والدليل: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة–١٨٧]، وأيضًا مقدمات الجماع مثل التقبيل، والحديث به أمام النساء، وخاصّة القول الفاحش، والخُلاصةُ: لا مباشرة الجماع ولا التكلم به ﴿وَلَا﴾: حرفُ نهيٍ وتحريم ﴿فُسُوقَ﴾: وفيها أقوال: هو جميع المعاصي، وقيل خروجُ الأمرِ عن ضوابطهِ، وقيل: السبابُ ويؤكد ذلك ما روي: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[(١)]، وقال: ابن جرير: كلّ ما نُهي عنه في الحرم مثل قتل الصيد، وحلق الشعر، وقلم الأظافر ونحو ذلك، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَجَّ هَذَا البَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[(٢)]، ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾: أيضًا ممنوع الجدال، جاء لفظ جدال على وجهين في القرآن الكريم؛ الأولُ هنا بمعنى المراء، وجاء بمعنى الخصومة في قوله ﷻ ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد–١٣]، وفي قوله ﷻ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود–٧٤]؛ أي إغضاب الآخرين، والسباب، والعداوات، ﴿وَمَا﴾: ما الشرطية تفيد الذي من غير جنس غير العاقل ﴿تَفْعَلُوا مِنْ﴾: جزءِ أو بعض ﴿خَيْرٍ﴾: بعد أنْ

(١) صحيح البخاري /١٩/١(٤٨).
(٢) صحيح البخاري /١١/٣(١٨١٩).

نهى ﷻ عن القبح؛ حثّ على الخير؛ وهو كلُّ ما ينفعُ الإنسان والآخرين، ويُرضي الله ﷻ ﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا﴾: هي الاستعداد بالطعام والشراب والركوبة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ أَهْلُ اليَمَنِ يَحُجُّونَ وَلاَ يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ المُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة-١٩٧][(١)]، ﴿فَإِنَّ﴾: بالتأكيد ﴿خَيْرَ﴾: الأنفع، والأفضل، والمقبول من ﴿الزَّادِ﴾: ما يستعين به الإنسان ليومه ومستقبله وخاصة يوم القيامة ﴿التَّقْوَى﴾: بعد الأمر بالتزود بزاد السفر في الدنيا أرشدهم ﷻ إلى زاد الآخرة، وهذا منهجٌ قرآنيٌ، فعندما أمرَ ﷻ باللباس المادي، تحدث عن اللباس المعنوي، وهي الطاعة والتقوى، جاء في المعنى ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف-٢٦]، و"**التقوى**": هي عملٌ بالطاعات بوعيٍ وإيمانٍ، ورجاءِ الثواب، ونهي عن المعاصي بوعي وإدراك، وخشية من العذاب ﴿وَاتَّقُونِ﴾: عطفًا على ما حققتم من التقوى ﴿يَا﴾: حرفُ نداءٍ للقريب والبعيد ﴿أُولِي﴾: أصحاب ﴿الْأَلْبَابِ﴾: أمرٌ ربّاني بخوفِ أصحابِ الفهم من عذابِ اللهِ ﷻ، الذي يعرفهُ أصحابُ العقول السليمة.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ (١٩٨)

أسباب النزول: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضى اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كَانَتْ عُكَاظٌ وَمَجَنَّةُ وَذُو الْمَجَازِ أَسْوَاقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَلَمَّا كَانَ الإِسْلاَمُ تَأَثَّمُوا مِنَ التِّجَارَةِ فِيهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ[(٢)]، كما أنّ بعضهم كانوا في الحجّ ومعهم تجارة؛ فسألوا الرسول ﷺ حكم ذلك؛ فنزلت الآية ﴿لَيْسَ﴾: فعلٌ ماضٍ ناقصٌ يُفيد النفي ﴿عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾: إثمٌ أو حرجٌ إنّكم لا ترتكبون ذنبًا ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَبْتَغُوا﴾: تطلبوا ﴿فَضْلًا مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد ابتداء الغاية هنا من المصدر ﴿رَبِّكُمْ﴾: تعني كلمةُ الرب: المُعبود، والمُربي، وهو المنشئُ لكلّ شيء في الكون من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام، وهو ﷻ الخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ؛ وتنالون رزقًا ومكسبًا حلالًا من التجارة أثناء الحج ﴿فَـ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب الأمر ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿أَفَضْتُمْ﴾: نزلتم، وذهبتم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا ابتداء الغاية الزمانيّة والمكانيّة،

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ١٣٣).
(٢) صحيح البخاري /٣/٨١(٢٠٩٨).

هي هنا مِنْ عرفات إلى المزدلفة، في اليوم التاسع ليلةِ العاشر من ذي الحجّة إلى ﴿عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾: اسمُ علمٍ مؤنث؛ لأنّهُ في الأصل جمعٌ كمسلمات ومؤمنات؛ فإنّ الوقوف بعرفات عمدةُ أفعالِ الحج، وعرفات هي المشعر الحرام، وهي المشعر الأقصى، قَالَ رَسُولُ اللهِﷺ: الحَجُّ عَرَفَاتٌ، الحَجُّ عَرَفَاتٌ، الحَجُّ عَرَفَاتٌ، أَيَّامُ مِنًى ثَلَاثٌ ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة–٢٠٣] وَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الفَجْرُ فَقَدْ أَدْرَكَ الحَجَّ[١]، وهناك بعضُ المناسك المرتبطة بيوم عرفة؛ منها: الوقوف بعرفة حتى تغيب الشمس ثم تتحرك الوفودُ إلى المزدلفة؛ فَيُصلَّى فيها المغرب والعشاء، بأذانٍ واحدٍ، وإقامتين من دون تسبيحٍ بينهما، جمع تأخير، والبقاء فيها حتى الفجر، يُصلى بأذانٍ وإقامة، قال ﷺ: كُلُّ عَرَفَاتٍ مَوْقِفٌ، وَارْفَعُوا عَنْ بَطْنِ عُرَنَةَ، وَكُلُّ مُزْدَلِفَةَ مَوْقِفٌ، وَارْفَعُوا عَنْ مُحَسِّرٍ، وَكُلُّ فِجَاجِ مِنًى مَنْحَرٌ، وَكُلُّ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ذَبْحٌ[٢]، ﴿وَاذْكُرُوهُ﴾: ذكر الله ﷻ ﴿كَمَا﴾: مثل وحال ﴿هَدَاكُمْ﴾: اذكروا كلّ ما أنعم اللهُ ﷻ عليكم من البيانِ، والهدايةِ، والإرشادِ إلى مشاعر الحج، بدايةً من هداية أبينا إبراهيم الخليل ﵇ ﴿وَإِن﴾: حرفُ شرط ﴿كُنتُم مِّن﴾: حرفُ جرٍ يُفيد ابتداء الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِهِ﴾: والضمير أي قبل القرآن، وقيل قبل الرسول ﷺ، وكلُّ ذلك مُتقاربٌ، ومُتكاملٌ، ومتلازمٌ، وصحيح، والله أعلم ﴿لَ﴾: حرف تخصيص ﴿مِنَ﴾: بعض، يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿الضَّالِّينَ﴾: التائهين عن الحقِ والصواب.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٩٩)

﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني مع التراخي ﴿أَفِيضُوا﴾: ادفعوا، وهو النزول من المزدلفة إلى مِنَى؛ لرمي الجمرات، وهنا تمايز مناسك الحجِّ عن مواقف الذين من قبل، كانت قريشُ وسائرُ العرب يقفون بعرفات؛ فجاء الإسلام ليخالف الكفّار في اثنتين، الأولى: الوقوف بعرفة حتى المغرب، حيث كان الكُفّارُ يُفيضون في منتصف النّهار، والثانية: بعد الوقوف تأتي الإفاضة إلى المزدلفة ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا ابتداء الغاية الزمانيّة والمكانيّة ﴿حَيْثُ﴾: ظرفٌ يدلُّ على الزمان والمكان ﴿أَفَاضَ﴾: نزل ﴿النَّاسُ﴾: بمعنى أهلُ مكّة خاصّة ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿اسْتَغْفِرُوا﴾: طلب المغفرة من ﴿اللَّهَ﴾: وهذه سُنّة كل العبادات بعد انقضائها، ولقد روى البخاري بسنده عن رسول الله ﷺ قوله: سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ

---

[١] سنن الترمذي /٥/٦٤(٢٩٧٥). وقال الإمام الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وحكم عليه أيضًا الألباني: صحيح (سنن الترمذي /٥/ ٢١٤).

[٢] مسند أحمد /٢٧/٣١٦(١٦٧٥١). قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف.

مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ قَالَ: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»[1]، ﴿إِنَّ﴾: حرفٌ للتأكيد ونفي الشكّ والإنكار ﴿اللَّهَ غَفُورٌ﴾: مُسامحٌ ﴿رَحِيمٌ﴾: واسعُ الرحمة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ (٢٠٠)

﴿فَ﴾: حرفٌ استئنائي بهدف ترتيب الأمر ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿قَضَيْتُمْ﴾: انتهيتم من مناسك الحج، ولقد جاء اللفظ القرآني "قضى" على عشرة أوجه؛ هنا بمعنى فرغ كما في قوله ﷻ **﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾** [النساء-١٠٣]، وفي قوله أيضًا **﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** [الجمعة-١٠] ﴿مَنَاسِكَكُمْ﴾: عباداتكم ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَ﴾: حرف الكاف بمعنى حال ومثل ﴿ذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾: جاء المعنى هنا في الذكر باللسان، وهو الثناء، والفخر، والاعتزاز، والالتزام؛ أي الهجوا بذكر الله ﷻ كما يذكر الصبي الأب والأم، وكان الرجل في الجاهلية يقف يمدح أباه فيقول: أبي يُطعم الطعام، ويحملُ الديّات، ويفعلُ، ويفعلُ ﴿أَوْ﴾: هنا لتحقيق المماثلة، ليست للتشكيك قطعًا، بمعنى إمّا أو، بل هنا لتحقيق المطلوب ﴿أَشَدَّ﴾: أكثرُ تأكيدًا واعتقادًا ﴿ذِكْرًا﴾: حمدًا وشكرًا أو أزيّد منّه ﴿فَمِنَ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد ابتداء الغاية الزمانيّة والمكانيّة وهي هنا ﴿النَّاسِ مَنْ﴾: الذي من جنس بني آدم ﴿يَقُولُ رَبَّنَا﴾: هو المُربي، وهو إنشاء الشيء حالًا فحالًا إلى حدِّ التمام، هو المربي، هو مالك أمرِ الخلقِ كلّه ﴿آتِنَا﴾: أعطنا وامنحنا ﴿فِي الدُّنْيَا﴾: ونحن أحياءٌ على الأرض، كلّ أشكالِ الرزق ﴿وَمَا﴾: ليس ﴿لَهُ﴾: تحديدًا ﴿فِي الْآخِرَةِ مِنْ﴾: بعض أو جزء ﴿خَلَاقٍ﴾: ليس له نصيبٌ أو حظٌّ يوم القيامة، ولقد كان النّاس في الجاهلية يقولون: اللهم اجعلهُ عامَ غيثٍ، وعامَ خصبٍ، وعام ولادة حسن، ولا يذكرون من أمرِ الآخرةِ شيئًا.

التكليف: ذمّ اللهُ ﷻ الذين يذكرون الدنيا؛ ولا يربطونها بالآخرة، ومدح اللهُ ﷻ الذين يسألون خير الدنيا، وخير الآخرة؛ فالله كريمٌ يطلب منك أنْ تطلب أكثر.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢٠١)

---

[1] صحيح البخاري /٨/٦٧(٦٣٠٦).

﴿وَ﴾: أيضًا ﴿مِنْهُمْ﴾: فريقٌ من النّاس مؤمنٌ باللهِ ﷻ واليومِ الآخر ﴿يَقُولُ﴾: داعيًا الله ﷻ ﴿رَبَّنَا﴾: هو الخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ ﴿آتِنَا﴾: ارزقنا وأعطنا ﴿فِي الدُّنْيَا﴾: من خير ما في الدنيا وهي ﴿حَسَنَةً﴾: هي كلُّ المطلوب في الدنيا: العافية، والدار الواسعة، والزوجة الصالحة، والرزق الحلال الواسع، والعلمُ النافع، والعملُ الصالح، والمركبُ ألهني، والثناءُ الجميل ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾: ثواب في يوم القيامة ﴿حَسَنَةً﴾: وكلَّ المطلوب في الآخرة أعلى درجات الجنّة، والنجاةَ من النّار، وقيل: من أُعطي قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وجسدًا صابرًا، فقد أوتي في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً، ولقد جمعت هذه الآيةُ الخير كلّه؛ خير الدنيا، وخير الآخرة، وصرفت كلّ شرٍّ ﴿وَقِنَا﴾: عطفًا على دعائنا الصادق وعملنا المقبول؛ احفظنا واحمنا، من ﴿عَذَابَ﴾: ما يسبب الألم وهو الوجع الشديد ﴿النَّارِ﴾: جهنّم والعياذُ بالله ﷻ.

التكليف: عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»[1].

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢٠٢)

﴿أُولَئِكَ﴾: إشارةٌ للقريب والبعيد، هؤلاء الذين يدعون ربّهم بخير الدنيا وخير الآخرة ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿نَصِيبٌ﴾: حظٌّ وجزءٌ ﴿مِمَّا﴾: بعض أو جزء من الذي ﴿كَسَبُوا﴾: من ثوابٍ عظيمٍ، هو عملهم الصالح في الدنيا ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا اعلموا أنّ ﴿اللَّهُ سَرِيعُ﴾: ﷻ يُعجّل ﴿الْحِسَابِ﴾: الأجر والثواب على كلِّ عملٍ، وهنا يُخبرُ الحقُّ ﷻ أنّ لهذا الصنف من النّاس المؤمنين نصيبًا ممّا قالوا وعملوا، وأنّ الله ﷻ يُسرّع لعباده الجزاء في الدنيا، أو يؤجله للآخرة، أو يجمع الجزاء في الدنيا والآخرة، وهذه الآية تُقدّمُ سرعة الجزاء، واللهُ ﷻ أعلم.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٠٣)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ﴾: لا يزال الحديث في الحج، والذكر هو التكبير والتهليل ﴿فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾: أيام التشريق، وهي أربعةُ أيام: يوم النحر، وثلاثة بعده؛ الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر من ذي الحجّة، وقيل: أيام العشر، وهذه أيّامُ أكلٍ وشربٍ، وذكرٍ لله ﷻ، ولا صوم فيها ﴿فَمَنْ﴾: بمعنى الذي ﴿تَعَجَّلَ﴾: أسرع ولم يتمهل ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾: هذه تدلُّ على أنّها أربعة أيّام، الثلاثة الأخيرة بعد النّحر، وقت الأضحية من يوم النّحر إلى

---

[1] صحيح البخاري /٦/٢٨(٤٥٢٢).

آخر أيّام التشريق ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿إِثْمَ عَلَيْهِ﴾: جاء لفظ إثم في القرآن الكريم على خمسة أوجه؛ وجاء هنا بمعنى لا ذنب عليه، ﴿وَ﴾: حرف يفيد الحال ﴿مَنْ﴾: للبالغ العاقل ﴿تَأَخَّرَ فَلَا﴾: حرف تخصيصٍ وحثٍّ على الفعل ﴿إِثْمَ﴾: ذنب ﴿عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾: تخصيصاً للذين ابتعدوا عن الذنوب، أصحاب الطاعات والعبادة، والذين يخشون الله ﷻ ﴿وَاتَّقُوا﴾: والتقوى الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل ﴿اللَّهَ﴾: وهذه أوامر النبي ﷺ لمنْ عاد إلى وطنه بعد اجتماعهم في المشاعر والمواقف ﴿وَاعْلَمُوا﴾: علم اليقين ﴿أَنَّكُمْ﴾: بالتأكيد ﴿إِلَيْهِ﴾: إلى الله ﷻ ﴿تُحْشَرُونَ﴾: هنا تذكيرُ النّاس بحساب الآخرة، الذي يجمع ما قدمّه الإنسان من صلاةٍ، وصيامٍ، وحجٍ، وزكاةٍ؛ وغيرها؛ ليثيبهُ الله ﷻ عليها.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (٢٠٤)

أسباب النزول: قيل نزلت في رجلٍ اسمهُ الأخنس بن شريق الثقفي، جاء للرسول ﷺ يُظهر الإسلام، ويُبطنُ غير ذلك، وقال ابن عباس: نزلت في نفرٍ من المنافقين؛ تكلّموا في حقّ خُبيب، وقيل إنّها جاءت في المنافقين عامّة، وهي الأرجح ﴿وَ﴾: حرف عطف بمعنى أيضًا ﴿مِنَ﴾: بعض ﴿النَّاسِ﴾: بني آدم ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل، البشر ﴿يُعْجِبُكَ﴾: يطيب لك ﴿قَوْلُهُ﴾: هو المُنافقُ، الذي يُظهر ما لا يُبطن، هو صاحبُ لسانٍ؛ يُحسن المنطق ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: في شئون الحياة؛ حتى يظنُّ السامع أنّهُ ناصحٌ صادقٌ ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا﴾: الذي ﴿فِي قَلْبِهِ﴾: هؤلاء الذين يستخفون من النّاس ولا يستخفون من الله ﷻ؛ أي يُشهدون الله ﷻ وهم كاذبون، يضمرون الكفر، ويكرهون المسلمين، جاء في المعنى: ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم–٩٧] ﴿وَهُوَ﴾: وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر ﴿أَلَدُّ﴾: الألدّ في اللغةِ هو الأعوج، صاحب أشدُّ ﴿الْخِصَامِ﴾: هكذا المنافق يفترى ويفجر، قال ﷺ: أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ[١]. وقال ﷺ أيضًا: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ»[٢].

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (٢٠٥)

---

[١] صحيح البخاري /١/١٥(٣٤).

[٢] صحيح البخاري /٣/١٣١(٢٤٥٧).

﴿وَإِذَا﴾: أداةُ شرطٍ وعطفِ ما بعدها على ما قبلها ﴿تَوَلَّى﴾: غادرَ تجمّع المسلمين، وابتعد عنهم ﴿سَعَى﴾: تعني المشي الحثيث ويُطلق على الكسب والعمل، وقيل هنا الباذل جهدًا في نشر المعاصي، والسعي هو القصد، قيل نزلت في فرعون: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ [النازعات-٢٢، ٢٣]، وقال ﷻ: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة-٩] تعني: اقصدوا الصلاة ﴿فِي الْأَرْضِ لِ﴾: حرف علةً وسبب ﴿يُفْسِدَ فِيهَا﴾: يُتلف ويُهلك ﴿وَ﴾: حرفٌ يفيد هنا الاستئناف ﴿يُهْلِكَ﴾: جاءت هنا بمعنى الفساد، وجاءت بمعنى العذاب في قوله ﷻ ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف-٥٩]، وجاءت بمعنى الموت في قوله ﷻ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف-٨٥]، وجاءت بمعنى ضلّت عنّي حُجّتي في قوله ﷻ ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة-٢٩] ﴿الْحَرْثَ﴾: نمو الزرع، والثمرات ﴿و﴾: أيضًا يهلك ﴿النَّسْلَ﴾: من نتاج الحيوانات التي هي ثروة الإنسان ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا يجب العلم أنّ ﴿اللَّهُ لَا﴾: حرف نفي ﴿يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾: إنّ الله ﷻ لا يُحب من هذه صفاته وأفعاله.

التكليف: تُحددُ هذه الآيةُ الكريمةُ صفات المُنافق، الذي هو أعوجُ القول، سيءُ الفعل: كلامُه كذب، واعتقادهُ الفساد؛ وهو إتلافُ كلّ ما على الأرض، ووجود المنافقين خسارةٌ في الزرع، وضياعُ الثروات.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (٢٠٦)

﴿وَإِذَا﴾: أيضاً هنا ربطُ ما بعدها بما قبلها ﴿قِيلَ لَهُ﴾: وُعِظَ الفاجر في قوله وعمله؛ ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ أنْ يبتعد عن الذنوب؛ ويطيع الله ﷻ ويخشاه، ويرجع للحق ﴿أَخَذَتْهُ﴾: تحكمت فيه ﴿الْعِزَّةُ﴾: الأنفةُ، والحميةُ، والبُغضُ ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿الْإِثْمِ﴾: هو الذنب والعمل الذي لا يحلّ؛ الذي يستحق العقوبة عليه، هنا ما حملته عزّتهُ على فعلٍ ما يُعاقَب عليه ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد الجواب ﴿حَسْبُهُ﴾: تكفيه ﴿جَهَنَّمُ﴾: النّار عقوبته، ﴿وَلَبِئْسَ﴾: فعل جامد للذمّ، وهو ذكر المساوئ وهو عكس المدح ﴿الْمِهَادُ﴾: أسوأ فراش، وهي النّار.

التكليف: من وسائل معرفة المنافق؛ انظر كيف يتصرف بعد النصيحة قولًا وعملًا.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠٧)

بعد ذكر صفات المنافقين الذميمة؛ جاءت صفات المؤمنين الحميدة ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق فإن ﴿مِنَ﴾: بعض، وتفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿النَّاسِ﴾: صنفٌ مؤمنٌ ﴿مَنْ﴾: جنس العاقل الذي ﴿يَشْرِي﴾: بمعنى يبيع ﴿نَفْسَهُ﴾: أي يُسخّرها في طاعةِ اللهِ ﷻ، وفي العبادات، وحُسن

المعاملات، والجهاد في سبيل الله ﷻ ﴿ابْتِغَاءَ﴾: رغبةً صادقةً في ﴿مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾: لنيل رضا اللهِ ﷻ ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ﴾: عظيمُ العطف ﴿بِالْعِبَادِ﴾: نزلت الآية في صُهيب الرومي عندما أسلم في مكّة، عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ وَخَرَجَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ ؓ، وَكُنْتُ قَدْ هَمَمْتُ بِالْخُرُوجِ مَعَهُ فَصَدَّنِي فِتْيَانٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فَجَعَلْتُ لَيْلَتِي تِلْكَ أَقُومُ وَلَا أَقْعُدُ، فَقَالُوا: قَدْ شَغَلَهُ اللَّهُ عَنْكُمْ بِبَطْنِهِ وَلَمْ أَكُنْ شَاكِيًا، فَقَامُوا فَلَحِقَنِي مِنْهُمْ نَاسٌ بَعْدَمَا سِرْتُ بَرِيدًا لِيَرُدُّونِي، فَقُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أُعْطِيَكُمْ أَوَاقِيَّ مِنْ ذَهَبٍ وَتُخَلُّونَ سَبِيلِي، وَتَفُونَ لِي فَتَبِعْتُهُمْ إِلَى مَكَّةَ؟ فَقُلْتُ لَهُمُ: احْفِرُوا تَحْتَ أُسْكُفَّةِ الْبَابِ فَإِنَّ تَحْتَهَا الْأَوَاقَ، وَاذْهَبُوا إِلَى فُلَانَةَ فَخُذُوا الْحُلَّتَيْنِ، وَخَرَجْتُ حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَتَحَوَّلَ مِنْهَا، يَعْنِي قُبَاءَ، فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: «يَا أَبَا يَحْيَى، رَبِحَ الْبَيْعُ» ثَلَاثًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا سَبَقَنِي إِلَيْكَ أَحَدٌ، وَمَا أَخْبَرَكَ إِلَّا جِبْرِيلُ ؈[1]، والأغلب يعد الآية عامّةً في كلّ مجاهدٍ في سبيل الله؛ ودليلهم: **﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾**[التوبة- ١١١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٠٨)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿آمَنُوا﴾: إنّ الحديث هنا إلى المؤمنين بالله ﷻ وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر ﴿ادْخُلُوا﴾: أمرٌ من الله ﷻ أنْ يعتنقوا ﴿فِي السِّلْمِ﴾: ادخلوا في دين الإسلام ﴿كَافَّةً﴾: أنْ يطبّقوا أصول الإسلام جميعًا؛ جميع الأوامر، وأنْ ينتهوا عن جميع المُحرّمات، وقيل هو ﷻ يقصد المسلمين كافّة ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿لَا﴾: حرفٌ يُحرّم عليكم أنْ ﴿تَتَّبِعُوا﴾: تُطيعوا وتسلكوا ﴿خُطُوَاتِ﴾: سُبلِ، وطرقِ، وأوامرِ ﴿الشَّيْطَانِ﴾: بسبب ﴿إِنَّهُ﴾: هو بالتأكيد ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾: عدوٌ واضحُ العداء.

﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٠٩)

﴿فَإِنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿زَلَلْتُمْ﴾: إذا مِلتُم، وضللتم عن الحق، وابتعدتم عنه، يقال زلّت الأقدام: أي تاهت ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد ابتداء الغاية الزمانيّة هنا ﴿بَعْدِ

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم /٣/ ٤٥٢(٥٧٠٦) وقال الحاكم: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ» وفي التعليق من تلخيص الذهبي: صحيح.

﴿مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾: بعد أنْ اتضحت لكم الحقائق، وقامت عليكم الحُجّة ﴿فَـ﴾: لهذا السبب ﴿اعْلَمُوا أَنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ عَزِيزٌ﴾: تأكدوا أنّه لنْ يهرب من الله ﷻ أحدٌ، ولا يغلبهُ غالبٌ، ولا يُوقف انتقامهُ أحدٌ ﴿حَكِيمٌ﴾: يفعل الشيء على أصوله، وفق مشيئته ﷻ، قال أبو قتادة: عزيزٌ في نقمته، حكيمٌ في أمره، وقال ابن إسحق: العزيزُ في نصره ممن كفر به إذا شاء، الحكيمُ في عذُرِهِ وحُجّته إلى عباده.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٢١٠)

﴿هَلْ﴾: حرفُ استفهامٍ غرضهُ الأمر ﴿يَنْظُرُونَ﴾: بمعنى ينتظرون والمقصود يوم القيامة، جاء الاستفهام ليُفيد النفي ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يَأْتِيَهُمُ﴾: يحلُّ بهم من ﴿اللَّهُ﴾: يوم القيامة في مقامٍ يليقُ بجلال وجههِ وعظيمِ سلطانهِ، ليس في موقعهِ أحدٌ غيره ﷻ ﴿فِي ظُلَلٍ﴾: ما يُظلل الإنسان من فوقه ﴿مِنَ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد ابتداء الغاية المكانية هنا ﴿الْغَمَامِ﴾: من السحاب الأبيض الرقيق ﴿وَ﴾: أيضًا تأتي ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾: محيطةٌ به ﷻ من كلّ جانب ﴿وَ﴾: عطفًا على ما جاء ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾: هذا يوم القضاء الربّاني؛ يوم يجزي كلّ عاملٍ بعمله، خيرًا بخير، وشرًا بعذابٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَهْتَمُّونَ لِذَلِكَ – وَقَالَ ابْنُ عُبَيْدٍ: فَيُلْهَمُونَ لِذَلِكَ؛ فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، قَالَ: فَيَأْتُونَ آدَمَ ﷺ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ آدَمُ، أَبُو الْخَلْقِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ، قَالَ: فَيَأْتُونَ نُوحًا ﷺ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ ﷺ الَّذِي اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلًا، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا مُوسَى ﷺ، الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ، قَالَ: فَيَأْتُونَ مُوسَى ؑ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا عِيسَى رُوحَ اللهِ وَكَلِمَتَهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَى رُوحَ اللهِ وَكَلِمَتَهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدًا قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَيَأْتُونِي فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، فَإِذَا أَنَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، قُلْ تُسْمَعْ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ رَبِّي، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ، وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَقَعُ

سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ يَا مُحَمَّدُ، قُلْ تُسْمَعْ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُخْرِجَهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ – قَالَ: فَلَا أَدْرِي فِي الثَّالِثَةِ أَوْ فِي الرَّابِعَةِ، قَالَ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ، أَيْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ. قَالَ ابْنُ عُبَيْدٍ فِي رِوَايَتِهِ: قَالَ قَتَادَةُ: «أَيْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ»[1]، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ﴾: تعود ﴿الْأُمُورُ﴾: كلُّ الأعمال؛ فيُحاسبُ عليها بما تستحق.

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢١١)

﴿سَلْ﴾: اسأل يا محمد ﷺ ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: دعوةٌ ربّانيةٌ إلى سؤال أبناء وذريّة يعقوب عليه السلام، عن آيات الله ﷻ الكبيرة والعديدة ﴿كَمْ﴾: تفيد الكثرة ﴿آتَيْنَاهُمْ﴾: أنزلنا على رسلهم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعض ﴿آيَةٍ﴾: دليلٍ وبرهانٍ، وهو بيان الحُجّة ﴿بَيِّنَةٍ﴾: من الأدلّةِ والبراهينِ الواضحة؛ لإقامة الحُجّة القاطعة على اليهود: ومنها عصا موسى عليه السلام، وفلق البحر، وتفجير الحجر لإخراج الماء، وتظليلِ الغمامِ في الحرّ، وإنزالِ المنّ والسلوى ﴿وَمَنْ﴾: أيضاً الذي من جنس العاقل ﴿يُبَدِّلْ﴾: يغيّر ﴿نِعْمَةَ﴾: والمقصود هنا الإسلام، أكبرُ نعمةٍ في الدارين، مع كلّ هذا بدلوا فضل ﴿اللَّهِ﴾: عليهم كُفرًا، قيل إنّ الآية نزلت في قريش: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾** [إبراهيم–٢٨، ٢٩] ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا ابتداء الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾: وصلهُ علمُها ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: هذا حدثَ لهم عبر تاريخهم الطويل، حيث طُردوا من أوروبا، أكثرِ من مائة مرّة، وما ينتظرهم في معركة وعدِ الآخرة أكبر.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢١٢)

﴿زُيِّنَ﴾: حُسّن وجُمّل ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿كَفَرُوا﴾: في كلّ زمانٍ وفي كلِّ مكانٍ من كلّ الأمم في ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾: زيّن لهم الشيطانُ منع الأموالِ عن أصحابها، وهتكَ الأعراضِ، وتعطيلَ العباداتِ، ومحاربةَ المؤمنين ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾: يستهزئون ﴿مِنَ﴾: بعض ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أعرضوا عن المؤمنين من الرجال

---

[1] صحيح مسلم (١/ ١٨٠).

والنساء، واتخذوهم مادّة للسخرية على ما أنفقوا في رضا الله ﷻ، وتطبيق أوامره ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق فإنّ ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: هم المؤمنون، أرفعُ منزلة من الكفّار في المحشرِ والمنشرِ، والميسرةِ والمأوى، فاستقروا في الدرجات العليا، وكان خلودُ الكفّارِ في الدركات السفلى، أسفل سافلين ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ﴾: يهب ويمنح ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل الذي ﴿يَشَاءُ بِغَيْرِ﴾: حرفُ استثناء بمعنى إلّا ﴿حِسَابٍ﴾: يعطي ﷻ العطاء الجزيل، بلا محاسبةٍ أو حصرٍ، ولا نهايةٍ ولا تعدادٍ في الدنيا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ اللَّهُ: أَنْفِقْ يَا ابْنَ آدَمَ أُنْفِقْ عَلَيْكَ[1]، وعن أبي هريرة ؓ قال ﷺ: أَنْفِقْ بِلالُ, وَلا تَخَافَنَّ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلالًا[2]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ-٣٩]، وفي الصحيحين: وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا[3]. وقَالَ ﷺ: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟[4]، وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ، وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ[5]، وعَنْ مُطَرِّفٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، قَالَ: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟[6].

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢١٣)

﴿كَانَ﴾: في الماضي ﴿النَّاسُ﴾: جاء لفظ الناس في القرآن الكريم على تسعة أوجه؛ هنا بمعنى أهلُ سفينةِ نوحٍ، وعهد آدم عليهما السلام ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: من أصلٍ بشريّ واحدٍ، أو كانوا على ملّةٍ واحدةٍ، وعن ابن عباس قال: كان بين آدم، ونوح، عليهما السلام، عشرة قرون، ألف سنة كلُّهم على شريعةٍ من الحق؛ وهذا الأصح، وقال العوفي عن ابن عباس: كانوا كُفّارًا؛ عبدوا

---

[1] صحيح البخاري /٦٢/٧(٥٣٥٢).
[2] مسند أبي يعلى الموصلي /٤٢٩/١٠(٦٠٤٠). قال حسين سليم أسد: إسناده جيد.
[3] صحيح البخاري /١١٥/٢(١٤٤٢).
[4] صحيح مسلم /٢٢٧٣/٤(٢٩٥٨).
[5] مسند أحمد /٤٨٠/٤٠(٢٤٤١٩). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.
[6] صحيح مسلم (٤/ ٢٢٧٣).

الأصنام ﴿فَ﴾: لهذا السبب ﴿بَعَثَ﴾: أرسل ﴿اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ﴾: يُخبرونهم بما يسُرّهم ﴿وَ﴾: أيضًا أرسلهم، عليهم السلام، ﴿مُنْذِرِينَ﴾: عندما اختلف النّاسُ حول الحقِّ والباطلِ، والحرامِ والحلالِ، بعث اللهُ ﷻ الأنبياء، وكان أولُهم نوح عليه السلام ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾: أيضاً بعث إليهم من السماء جنس الكتاب، مثل التوراة، والإنجيل، وغيرها ﴿بِ﴾: حرف باء المصاحبة والصلة ﴿الْحَقِّ﴾: تعاليم العدلِ، والحق، والإيمان، والتصديق ﴿لِ﴾: حرف علّة وسبب ﴿يَحْكُمَ﴾: يقضي ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾: بني آدم ﴿فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾: ليكون دستور حياتهم، يُوحّدُ رؤيتهم، ويزيلُ خلافاتهم ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿اخْتَلَفَ فِيهِ﴾: في الكتاب الذي نزل ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿أُوتُوهُ﴾: أي الذين جاءهم وهم اليهود ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾: الأدلّةُ واضحةُ، وأقيمت عليهم الحُجةُ ﴿بَغْيًا﴾: بمعنى لم يختلفوا إلّا للبغي، أي للظلم والعدوان الذي صار من طباعهم؛ لكثرة ممارساتهم له، وبسبب الحسد الذي ملأ قلوبهم ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظُلمًا إنّ الظلم هو المرض، هو سبب بغي بعضهم على بعض؛ وظلم بعضهم بعضًا، وقد كانت الأوامرُ واضحةً ﴿فَ﴾: حرفٌ استئنائي؛ يفيد السبب؛ بهدف ترتيب الأمر؛ ويفيد سرعة التنفيذ ﴿هَدَى﴾: دلّ على الصواب ﴿اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: بما أرسلهُ من رسلٍ، وما أنزل من كتاب؛ فهدى أممًا ﴿لِمَا﴾: للذي ﴿اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ﴾: جزء أو بعض ﴿الْحَقِّ بِ﴾: حرف باء السببية ﴿إِذْنِهِ﴾: بعلمه، وبما هداهم له بأمرِ اللهِ ﷻ هدى المؤمنين إلى الصلح الذي هو الحقُّ بأمره وإرادته، وهو لأُمّةِ محمدٍ بعد الذين اختلفوا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَاخْتَلَفُوا، فَهَدَانَا اللهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، هَدَانَا اللهُ لَهُ، قَالَ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فَالْيَوْمَ لَنَا، وَغَدًا لِلْيَهُودِ، وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى[1]، وقيل ﴿**اخْتَلَفُوا فِيهِ**﴾: اتخذ اليهود يوم السبت، واتخذ النصارى يوم الأحد، فهدى الله أُمّة محمد ﷺ ليوم الجمعة وقيل: اختلفوا في القبلة؛ فاستقبلت النصارى المشرق، واستقبل اليهود بيت المقدس، فهدى الله أُمّة محمد ﷺ للقبلة، واختلفوا في الصلاة؛ فمنهم من يركعُ ولا يسجد، ومنهم من يسجدُ ولا يركع، ومنهم من يُصلّي وهو يمشي، فهدى اللهُ أُمّةَ محمدٍ ﷺ للحق، واختلفوا في إبراهيم عليه السلام؛ فقال اليهود كان يهوديًا، وقالت النصارى كان نصرانيًا، وجعلهُ اللهُ حنيفًا مسلمًا، واختلفوا في عيسى عليه السلام؛ فكذّبه اليهود، واتهموا أمّه ببهتانٍ عظيمٍ، وجعلت النصارى من عيسى إلهًا وولدًا، وجعله

---

[1] صحيح مسلم /٢/٥٨٥(٨٥٥).

الله روحه وكلمته، فهدى الله أمّة محمد ﷺ للحق ﴿و﴾: عطفًا على ما سبق فاعلموا أنّ ﴿اللَّهُ يَهْدِي﴾: يدلُّ ويُرشدُ ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس بني آدم ﴿يَشَاءُ﴾: أراد الله ﷻ من الخلق ﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾: طريقٍ ومنهجٍ ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾: هو الحكمةُ والحُجّةُ البالغة، عن أَبِي سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺيَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: «اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[١].

التكليف: قولُ الدعاء المأثور: اللَّهُمَّ أَرِنَا الْحَقَّ حَقًّا وألهمنا اتباعه، وَأَرِنَا الْبَاطِلَ بَاطِلًا، وَأَلْهِمْنَا اجْتِنَابَهُ، ولا تجعله ملتبسًا علينا؛ فنضل، واجعلنا للمتقين إمامًا.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٢١٤)

﴿أَمْ﴾: هل ﴿حَسِبْتُمْ﴾: هل تأكدتم، أو ظننتم ﴿أَنْ﴾: حرفٌ يُفيد التصور، بمعنى هل تتصورون بالتأكيد ﴿تَدْخُلُوا﴾: يكون مصيركم يوم القيامة ﴿الْجَنَّةَ﴾: قبل الاختبار، والابتلاء، والامتحان ﴿وَلَمَّا﴾: اسمُ توكيد، وتأتي في حال النفي ﴿يَأْتِكُمْ﴾: يصل إليكم خبر ﴿مَثَلُ﴾: جاء اللفظ "**مثل**" في القرآن الكريم على أربعة أوجه؛ هنا بمعنى السُنن، وجاء بمعنى العبرة في قوله ﷻ **﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾** [الزخرف-٥٦، ٥٩] وفي قوله أيضًا **﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾** [الزخرف-٥٦، ٥٩]، وبمعنى العذاب كما في قوله ﷻ **﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾** [الفرقان-٣٩]، وقوله أيضا **﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾** [إبراهيم-٤٥]، وبمعنى التشبيه في قوله ﷻ **﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾** [الحشر-٢١]، وقوله أيضًا **﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [النحل-٧٥]، وقوله أيضًا **﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا**

---

[١] صحيح مسلم /١/٥٣٤(٧٧٠).

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح-٢٩] ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿خَلَوْا﴾: الذين مضوا من المؤمنين ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِكُمْ﴾: كما فُعل بالأمم السابقة لكم ﴿مَسَّتْهُمُ﴾: أصابتهُم في عمقِ كيانهم، لم تلامسهم فقط، بل أصابتهم في داخلهم ﴿الْبَأْسَاءُ﴾: الفقر ﴿وَالضَّرَّاءُ﴾: أيضاً أصابهم السقم والمرض ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿زُلْزِلُوا﴾: خافوا من الأعداء خوفًا شديدًا، كانوا في امتحانٍ عظيمٍ، عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ»[(١)]، ولقد حدث هذا الاختبار يوم الأحزاب، فقال القرآن فيهم ﴿حَتَّى﴾: جاء اللفظ القرآني "**حتى**" على ثلاثةِ أوجه؛ هو حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي لنْ نصدقك إلَّا بشرط أنْ، هنا بمعنى قرابة؛ أي على وشك أنْ ﴿يَقُولَ الرَّسُولُ وَ﴾: أيضًا يقول ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾: قال الصحابة: ﴿مَتَى﴾: سؤالٌ عن الوقتِ؛ يفيد الاستبطاء ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾: يستعجلون نصر الله ﷻ لهم؛ بسبب الكرب الذي هم فيه، فيأتيهم الوعدُ الرّبانيُّ على لسانِ رسولِ اللهِ ﷺ ﴿أَلَا﴾: حرف تنبيه؛ يعني انتبهوا أيّها المؤمنون ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾. يتحقق بعد زمنٍ وجيز.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢١٥)

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾: يسألُ أصحابُ محمد ﷺ رسولهم ﴿مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾: يسألون عن نفقة التطوع مِنْ أموالهم المتنوعة ﴿قُلْ﴾: لهم يا محمد ﴿مَا﴾: إنّ الذي ﴿أَنْفَقْتُمْ مِنْ﴾: جزء أو بعض ﴿خَيْرٍ﴾: المال الحلال وأوجه ذلك: ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا الأمر ﴿لِلْوَالِدَيْنِ﴾: تخصيصاً الأب، والأم، والجدّ، والجدّة ﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾: أيضاً الأقارب كالعمِّ، والخالِ، والأخِ، والأختِ، وأولادِهم، وبناتِهم ﴿وَالْيَتَامَى﴾: أيضاً الذين مات عائلُهم ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾: هم أيضًا جمع مسكين، وهم المحتاجون الفقراء ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: أيضاً المسافر الذي انقطع به السفر عن أهله؛ وليس معه مال ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ﴾: جزء أو بعض ﴿خَيْرٍ﴾: الخير هنا بمعنى نفقة المال ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ

---

(١) صحيح البخاري /٤/٢٠١(٣٦١٢).

﴿بِهِ عَلِيمٌ﴾: اللهُ ﷻ يعلمهُ ويجزي على ذلك بأحسن منه، فهو لا يظلمُ مثقالَ ذرّةٍ، ولا يضيعُ أجرَ المُحسنين. والأقربون أولى بالمعروف.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢١٦)

تُعد هذه الآية الكريمة من القصص المُرسلة في القرآن الكريم ﴿كُتِبَ﴾: فُرِض ﴿عَلَيْكُمُ﴾: أيّها المسلمون في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ﴿الْقِتَالُ﴾: هو وجوبٌ الجهادِ في سبيل الله ﷻ على المسلمين، الغازي منهم والقاعد؛ ليصدّوا شرّ الأعداء، ووجوبُ على القاعد: إذا استعانوا به يُعين، وإذا استغاثوا به يغيث، وإذا استنفروا نفر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»[1]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»[2]. وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا»[3]، والحكم: إذا لم يَطلبهُ المسلمون قعد ﴿وَهُوَ﴾: وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر، هنا القتال ﴿كُرْهٌ لَكُمْ﴾: شديدٌ على الجسد، شاقٌ على الأنفس، فالمصير إمّا القتل، أو الجرح، أو الرحيل ﴿وَعَسَى﴾: فعلٌ جامدٌ يُفيدُ الترجي عند البشر ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾: يعني فوائد الجهاد والقتال: يعقبهُ النصرُ، والفوزُ، وتحريرُ البلاد، وأخذُ أموال الأعداء، وأسرُ أولادهم ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ﴾: يُسبب السوء والضرر ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا هذا حكمٌ عامٌ في أمور المسلمين، ومن ذلك القعود عن القتال، عندما يستولي العدوُ على أرض المسلمين ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا﴾: حرف نفي ﴿تَعْلَمُونَ﴾: يعلم عاقبة الأمور، ويختارُ لكم الخير في كلّ الأحوال.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢١٧)

سبب النزول: عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: لَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ بَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشٍ فِي رَكْبٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَكَتَبَ مَعَهُ كِتَابًا فَدَفَعَهُ إِلَيْهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَسِيرَ لَيْلَتَيْنِ ثُمَّ

---

[1] صحيح مسلم (٣/ ١٥١٧).
[2] سنن أبي داود /٣/١٠(٢٥٠٢). قال الألباني: إسناده صحيح.
[3] صحيح البخاري /٤/١٥(٢٧٨٣).

يَقْرَأَ الْكِتَابَ فَيَتْبَعَ مَا فِيهِ، فَلَمَّا سَارَ لَيْلَتَيْنِ فَتَحَ الْكِتَابَ فَإِذَا فِيهِ: «أَنِ امْضِ حَتَّى تَبْلُغَ نَخْلَةَ»، فَلَمَّا قَرَأَهُ قَالَ: سَمْعًا وَطَاعَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُرِيدُ الْمَوْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلْيَمْضِ، فَإِنِّي مَاضٍ عَلَى مَا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَمَضَى وَمَضَى مَعَهُ أَصْحَابُهُ وَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَمَضَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ وَبَقِيَّةُ أَصْحَابِهِ حَتَّى نَزَلَ بِنَخْلَةَ، فَمَرَّتْ بِهِ عِيرٌ لِقُرَيْشٍ تَحْمِلُ زَبِيبًا وَأَدَمًا وَتِجَارَةً مِنْ تِجَارَةِ قُرَيْشٍ فِيهَا عَمْرُو بْنُ الْحَضْرَمِيِّ. فَلَمَّا رَآهُمُ الْقَوْمُ هَابُوهُمْ وَقَدْ نَزَلُوا قَرِيبًا مِنْهُمْ، فَأَشْرَفَ لَهُمْ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ وَكَانَ قَدْ حَلَقَ رَأْسَهُ، فَلَمَّا رَأَوْهُ أَمِنُوا وَقَالُوا: عُمَّارٌ لَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ، وَتَشَاوَرَ الْقَوْمُ فِيهِمْ، وَذَلِكَ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ رَجَبٍ فَقَالَ الْقَوْمُ: وَاللَّهِ لَئِنْ تَرَكْتُمُ الْقَوْمَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَيَدْخُلَنَّ الْحَرَمَ، فَلَيَمْتَنِعَنَّ مِنْكُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ لَتَقْتُلَنَّهُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، فَتَرَدَّدَ الْقَوْمُ وَهَابُوا الْإِقْدَامَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ شَجَّعُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَأَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِ مَنْ قَدِرُوا عَلَيْهِ مِنْهُمْ، وَأَخْذِ مَا مَعَهُمْ، فَرَمَى وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ عَمْرَو بْنَ الْحَضْرَمِيِّ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ، وَاسْتَأْسَرَ عُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَالْحَكَمُ بْنُ كَيْسَانَ، وَأَفْلَتَ الْقَوْمَ نَوْفَلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فَأَعْجَزَهُمْ، وَأَقْبَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ وَأَصْحَابُهُ بِالْعِيرِ وَبِالْأَسِيرَيْنِ حَتَّى قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ. فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ قَالَ: «مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ» فَوَقَفَ الْعِيرَ وَالْأَسِيرَيْنِ، وَأَبَى أَنْ يَأْخُذَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سُقِطَ فِي أَيْدِي الْقَوْمِ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا، وَعَنَّفَهُمْ إِخْوَانُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا صَنَعُوا، وَقَالَتْ قُرَيْشٌ: قَدِ اسْتَحَلَّ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَسَفَكُوا فِيهِ الدَّمَ، وَأَخَذُوا فِيهِ الْأَمْوَالَ، وَأَسَرُوا فِيهِ الرِّجَالَ، فَلَمَّا أَكْثَرَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾** [البقرة-٢١٧][(١)].

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾: يا محمد ﷺ **﴿عَنِ﴾**: حرفُ جرٍّ يُفيد الاتصالِ، والارتباطِ، والتعلق **﴿الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾**: الذي حرّم الله تعالى فيه القتال، هل **﴿قِتَالٍ فِيهِ قُلْ﴾**: أمرٌ بالقول **﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾**: إذا كان فيه مستكبرٌ، وصاحبُ وزرٍ كبيرٍ، ولقد نسختها الآية (٥) من سورة التوبة: **﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** **﴿وَصَدٌّ﴾**: أيضًا منع **﴿عَنْ﴾**: حرفُ جرٍّ يُفيد المجاوزة **﴿سَبِيلِ﴾**: دين ومنهج وتعاليم **﴿اللَّهِ﴾**: لقد أحلّ الكفّارُ القتال فيه، **﴿وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾** وأيضاً ما صنعوا كان أكبر من القتل في الشهر الحرام، بالكفر، والصدّ عن سبيل الله

---

(١) تاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٤٧٢) والحديث أخرجه ابن إسحاق في السيرة النبوية، وابن شبة في تاريخ المدينة، وإسناده مرسل من رواية الزهري مرسلًا، والقصة مشهورة في كتب السيرة النبوية.

ﷻ ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾: حين طَرَدَ الكفّارُ عُمّار المساجد منها، وهذا ﴿أَكْبَرُ﴾: أكثر جُرمًا ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾: في حكم الله ﷻ إذا كانت لهم القدرة ﴿وَ﴾: حرفٌ يفيد هنا الخال ﴿الْفِتْنَةُ﴾: هي صرفُ المسلمين عن دينهم؛ ليكونوا كفّارًا؛ بالضغط والإرهاب ﴿أَكْبَرُ﴾: أعظم جُرمًا ﴿مِنَ الْقَتْلِ﴾: وهنا يبرزُ حكمٌ شرعي: فإذا بغى شخصٌ أو قبيلةٌ أو حاكمٌ ليصرف المسلمين عن دينهم؛ وجب قتالهُ؛ لأنّ الفتنة أشدُّ ضررًا، وأكثرُ خطورة من القتل ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾: عطفاً على ما سبق سيظلّ هؤلاء ﴿يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى﴾: من الحروف الناصبة التي تأتي سببًا للجملة التي قبلها، جاءت هنا بمعنى "كي" ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾: تتصرفوا وتبتعدوا وتنقلبوا ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍ يُفيد المجاوزة ﴿دِينِكُمْ﴾: فتصيروا مثلهم كفّارًا؛ هنا يُخبرُ العليم الخبير أنّه لنْ يكُفُّ الكفّارُ عن القتال، والقتل للمسلمين؛ بهدف صرف المسلمين عن دينهم ﴿إِنِ﴾: حرف شرط، بمعنى إذا ﴿اسْتَطَاعُوا﴾: كانت لهم الغلبةُ والقدرةُ، وبعد نزول هذه الآية جرى تبادل أسرى، اثنين من الكفّار باثنين من المسلمين، وأسلم أحدُ الكفّار واسمه الحكم بن كيسان والآخرُ مات كافرًا، هنا طلب عبد الله بن جحش وأصحابهُ غزوةً؛ طمعًا في الأجر، وهاجروا وجاهدوا ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق فإنّ ﴿مَنْ﴾: الذي من بني آدم، من المسلمين ﴿يَرْتَدِدْ﴾: يصبحُ كافرًا بعد إسلامه ﴿مِنْكُمْ﴾: من المسلمين ﴿عَنْ﴾: حرف جرّ يُفيد هنا المجاوزة والتعليل ﴿دِينِهِ﴾: عن الإسلام ﴿فَ﴾: حرفٌ استثنائي يفيد السبب ﴿يَمُتْ﴾: يُدركهُ الموتُ ﴿وَهُوَ﴾: ضمير رفع للمفرد المذكر ﴿كَافِرٌ﴾: هنا جريمةٌ كبرى: شخصٌ عرف قيمة الإسلام، ثم رجع إلى الكفر ﴿فَأُولَئِكَ﴾: اسمُ إشارةٍ للجماعةِ القريبِ والبعيد ﴿حَبِطَتْ﴾: فسدت، وبطلت، وانتفخت؛ انتفاخ مرض ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾: الأعمالُ الصالحةُ، وليس زيادة قوةٍ، أو متانة؛ وبالتالي فسدت ﴿فِي الدُّنْيَا وَ﴾: أيضًا فسد ثواب أعمالهم في ﴿الْآخِرَةِ﴾: فما مصيرهم في الآخرة هم ﴿وَأُولَئِكَ﴾: إشارة للجمع القريب والبعيد ﴿أَصْحَابُ﴾: ملازمون دائمون في ﴿النَّارِ هُمْ﴾: تحديدًا ﴿فِيهَا﴾: في النار ﴿خَالِدُونَ﴾: لا يفارقونها أبدًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢١٨)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿آَمَنُوا﴾: إيمان تصديقٍ وتسليمٍ ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾: أيضًا الذين تركوا أرضهم، وممتلكاتهم، وعشيرتهم في سبيل الله ﷻ ﴿وَجَاهَدُوا﴾: قاتلوا وتحملوا تبعات جهادهم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: نزلت في عبد الله بن جحش وصحبه، الذين نزلت فيهم الآية السابقة، فأخبر الحقُّ ﷻ هنا عن أعظم الأجر،

وشهد لهم ﴿أُولَئِكَ﴾: اسمُ إشارةٍ للجمع القريب والبعيد، بصدق نيّتهم لأنّهم ﴿يَرْجُونَ﴾: الرجاءُ هو ترقب الخير مع تغليب ظن حصوله، بمعنى الطمع الحسن في ﴿رَحْمَةَ اللَّهِ﴾: لأنّهم يؤمنون ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق، فاعلموا أنّ ﴿اللَّهُ غَفُورٌ﴾: واسع المغفرة ﴿رَحِيمٌ﴾: واسع الرحمة.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١٩)

أسباب النزول: هذه أيةٌ تُمهّد لتحريم الخمر، وهي أوّلُ أيةٍ نزلت في الخمر، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، أَنَّهُ قَالَ: «اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الخَمْرِ بَيَانَ شِفَاءٍ»، فَنَزَلَتِ الَّتِي فِي البَقَرَةِ: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ**﴾ [البقرة-٢١٩]، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الخَمْرِ بَيَانَ شِفَاءٍ»، فَنَزَلَتِ الَّتِي فِي النِّسَاءِ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى**﴾ [النساء-٤٣]، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ بَيِّنَ لَنَا فِي الخَمْرِ بَيَانَ شِفَاءٍ»، فَنَزَلَتِ الَّتِي فِي المَائِدَةِ: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ**﴾ [المائدة-٩١] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**﴾ [المائدة-٩١] فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: «انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا»[١].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد الاتصال، والارتباط، والتعلق ﴿الْخَمْرِ﴾: كلمة الخمر من الخمار الذي يُغطي؛ لأن الخمر تُبطلُ وتشوّشُ العقل؛ فيَخفي الحقائق، يسأل المسلمون عن حكم الشرع في الخمر، وهو كلُّ ما يذهبُ بوظيفةِ العقلِ من الوعي، والإدراكِ، والفهمِ الصحيح ﴿وَ﴾: أيضًا يسألونك يا محمد ﷺ عن ﴿الْمَيْسِرِ﴾: وهو القمار الذي فيه الربح الناتج عن المنافسة من دون عملٍ أو جهدٍ ﴿قُلْ﴾: أخبرهم يا محمد ﷺ ﴿فِيهِمَا﴾: في الخمر والقمار ﴿إِثْمٌ﴾: هو كلُّ محرّمٍ عند الله ﷻ ﴿كَبِيرٌ وَ﴾: أيضًا فيهما مضارٌ ومفاسدٌ في الدين، فيه صرفُ النّاس عن عبادتهم، وأكلُ المال الحرام، والعداوة بين النّاس، وذهابٌ بالعقل، وتفككُ الأسرة ﴿وَمَنَافِعُ﴾: أيضًا فيهما فوائد ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿النَّاسِ﴾: والمنافع في شأن الدنيا، حيث قيل إنّها تزيد الهضم، وتُخرج الفضلات، وفيها لذةُّ الشربِ عند بعضهم، وفوائد بيعها، والانتفاع بثمنها ﴿وَ﴾: حرفٌ يفيد الحال، وعطفًا على ذلك فاعلموا أنّ ﴿إِثْمُهُمَا﴾: الذنب الذي تحدثانه ﴿أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾: إنّ الأضرار التي تُصيب العقل والمجتمع المسلم وغيره، والضرر في الدين أكبر من مكاسب المال ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ﴾: أخبرهم حكمًا شرعيًا بالقول ﴿الْعَفْوَ﴾: الإنفاق يكون مما يزيد عن حاجةِ الأهلِ، اليسير من كلِّ شيءٍ، وقيل

---

[١] سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٢٥٣).

من أفضلِ مالكٍ وأطيبه، وهذا هو الأفضل، وقيل هو الإنفاق على النفس ثم على الولد، ثم على ذي القربى، وهكذا، وجاء اللفظ القرآني العفو على ثلاثة وجوه هنا بمعنى ما يزيد، وكذلك في قوله ﷻ ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ [الأعراف-١٩٩]، وجاء بمعنى الترك في قوله ﷻ ﴿**وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [البقرة-٢٣٧] ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾: مثل كلّ ما سبق ذكرهُ التي أخبر الله ﷻ عنها ﴿**يُبَيِّنُ**﴾: يُظهرُ، ويُوضحُ، ويشرح ﴿**اللَّهُ لَكُمُ**﴾: تخصيصًا ﴿**الْآيَاتِ**﴾: الحكم والبراهين ﴿**لَعَلَّكُمْ**﴾: هي من الله ﷻ فتعني التحقق وهي طمعٌ وإشفاقٌ من البشر ﴿**تَتَفَكَّرُونَ**﴾: تُدركون الفائدة والضرر.

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٢٠)

﴿**فِي الدُّنْيَا**﴾: مدة الحياة على الأرض ﴿**وَالْآخِرَةِ**﴾: بعد الممات؛ هذه الآيةُ موصولةٌ بما سبقتها، حيث يُبيّنُ اللهُ ﷻ فيها الآياتَ للنّاس؛ لعلّهم يتفكرون في الدنيا والآخرة، في موضوعين: الأحكامِ التي تضبط شأنَ الحياةِ، واضحةً، مفصّلة؛ والتي تقود إلى نتائج في الآخرة؛ ومنها الوعد والوعيد؛ للتفكر والتدبر في زوال الدنيا وفنائها، وإقبالِ الآخرة وبقائها ﴿**وَ**﴾: عطفًا على ما سبق أيضًا ﴿**يَسْأَلُونَكَ**﴾: يطلبون حُكمًا شرعيًا ﴿**عَنِ**﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد الاتصال، والارتباط، والتعلق ﴿**الْيَتَامَىٰ**﴾: الذين فقدوا عائلهم، هذه واحدةٌ من الآيات التي تُحدد حقوق الإنسان، حيث تميزت حقوق الإنسان في القرآن الكريم بالأمور العظيمة التالية:

أولًا: أنّ الذي أوجد الإنسان، هو الله ﷻ؛ وهو الذي يُشرّع، وليس أيّ شخصٍ، أو جماعةٍ، أو دولةٍ، لأنّ الذي أوجد المخلوق هو الأقدرُ، والأعرفُ، والأولى بتشريع تعاليم خلقه.

ثانيًا: شرط الإلزام؛ لأنّها جزءٌ من العقيدة، وليست وجهة نظر.

ثالثًا: هي الأسبق؛ فعمر الإسلام أكثر من (١٤٨٠) سنة هجرية، وعمرُ وثيقة حقوق الإنسان منذ عام (١٢١٥) ميلادي؛ أي بعد الإسلام.

ورابعًا: هي في التشريع الإنساني توصيات، وهي في الإسلام مُلزمةٌ وواجبةٌ.

وخامسًا: هي متوازنةٌ في الإسلام، وعادلةٌ، لا إفراط ولا تفريط في التطبيق. ولمّا نزلت آيات: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾ [النساء-١٠]، جاء حكمُ عزل كلّ من عنده يتيم، عزل طعام اليتامى عن طعامه وشرابه، فزاد

الطعام، وفسد بعضُه؛ فسألوا الرسول ﷺ؛ فنزلت الآية؛ فاختلطت الأطعمة ﴿قُلْ﴾: أمرٌ بإخبارِ ﴿إِصْلَاحٌ﴾: أي حفظ أموالهم على حدة، طعامهم وشرابهم ﴿لَهُمْ﴾: تمليكًا ﴿خَيْرٌ﴾: المنفعة ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿تُخَالِطُوهُمْ﴾: تشاركوهم في المال والتّجارة؛ فيكون مالكم ومالهم واحدًا ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد العلّة والسبب ﴿إِخْوَانُكُمْ﴾: والأخُ هو المشاركُ لآخرٍ في الولادة، أو الرضاعة، المقصود لا بأس من خلط الطعام والشراب مع طعام وشراب اليتامى، والسكن والمعاش؛ لأنّهم إخوانكم في الدين، مثل الإخوة المشاركين في الولادة من الأبوين، يعينُ بعضُهم بعضًا ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾: علم الخالق لخلقه ﴿الْمُفْسِدَ﴾: الذي يصرف النّاس عن دينهم، ويميّزه ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾: الذي يصنع الصواب قولًا وعملًا، إنّ الله ﷻ يعلم النية والقصد، وعليه الحساب ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَ﴾: حرف علّة وسبب ﴿أَعْنَتَكُمْ﴾: كلّفكم ما يشقّ عليكم، ولضيّق عليكم، وأحرجكم، لكنْ كان التشريع التوسعة بالتي هي أحسن، جاء في المعنى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام–١٥٢] ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ عَزِيزٌ﴾: في ذاته وصفاته، العزّة التي ليس مثلها عزّة ﴿حَكِيمٌ﴾: صاحب الصواب الحق في أقواله وأفعاله.

التكليف: جواز أكل الفقير طعام اليتيم مجانًا بالمعروف، من دون إسرافٍ، والبدل لمن أسرف.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٢١)

﴿وَلَا﴾: لا يجوز، ومحرّمٌ عليكم أنْ ﴿تَنْكِحُوا﴾: تتزوجوا من ﴿الْمُشْرِكَاتِ﴾: النساء اللائي عبدن الأوثان، استثنى الله ﷻ منهن نساء أهل الكتاب، ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، بمعنى إلّا بشرط أنْ ﴿يُؤْمِنَّ﴾: إنْ آمنت المُشركة جاز نكاحُها ﴿وَ﴾: حرفٌ يفيد هنا التخصيص ﴿لَ﴾: حرف تخصيص ﴿أَمَةٌ﴾: من النساء العبيد ﴿مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ﴾: أكثرُ بركةً ونفعًا ﴿مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ﴾: بمعنى حتّى إذا ﴿أَعْجَبَتْكُمْ﴾: نزلت في عبد الله بن رواحة كان عندهُ أمةٌ سوداءُ، تُصلّي وتصُوم وتؤمن بالله ﷻ ورسوله؛ فتزوجها، فأخذ بعضُ المسلمين عليه أنّه تزوج أمَةً؛ فنزلت الآية ﴿وَلَا﴾: محرّم عليكم أنْ ﴿تُنْكِحُوا﴾: تتزوجوا ﴿الْمُشْرِكِينَ حَتَّى﴾: حرفٌ يُفيد سبب ما جاء قبلها ﴿يُؤْمِنُوا﴾: هنا تحريمُ زواجِ المسلمةِ من المشركِ، وجاء في أكثر من موضعٍ من القرآن الكريم: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة–١٠] ﴿وَلَعَبْدٌ﴾: رجلٌ مملوكٌ للغير ﴿مُؤْمِنٌ خَيْرٌ﴾: أنفع وأكثر فائدة ﴿مِنْ مُشْرِكٍ﴾: هو الذي يجعل مع اللهِ ﷻ إلهًا آخرَ ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾: إنّ الله ﷻ يُفضلُ العبدَ الأسودَ المؤمنَ على السيدِ المشرك؛ لأنّ مصير

المعاشرة تؤدي إلى حبّ الدنيا والحرصِ عليها، وتفضيلها على الآخرة؛ فتكون العاقبةُ جهنّم وبئس المصير، ولذلك قال ﷻ ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارةً للجمع القريب والبعيد المشركين الذين جاء ذكرُ خصالِهم ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾: إنّ طاعتهم تقود إلى جهنّم يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو﴾: يأمر ما يدخل ﴿إِلَى الْجَنَّةِ وَ﴾: أيضًا يدعو الله تعالى إلى ﴿الْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ﴾: يُوضّح ويُظهر ﴿آيَاتِهِ﴾: الأدلّة والبراهين ﴿لِلنَّاسِ﴾: عموم بني آدم؛ ليعلّمهم الله ﷻ، ويقيم الحُجّة عليهم، ويذكّرهم بما ينفعهم في الدنيا والآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: حرفٌ يُفيد التوقع من البشر، ويُفيد الإشفاق والتحقق من الله ﷻ ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾: يؤمنون ويخضعون لأوامر الله ﷻ.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٢٢٢)

أسباب النزول: عَنْ أَنَسٍ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا، وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ[١].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾: في الحكم الشرعي ﴿عَنِ﴾: حرف جر يفيد الاتصال والارتباط والتعلق ﴿الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ﴾: وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر ﴿أَذًى﴾: سمي بالأذى بحكم الشرع، وبوصف الطبّ على حسب ما يذكرهُ أصحاب هذه الصناعة، قال رسول الله ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ» فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ، فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ، فَجَاءَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ فَقَالَا يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الْيَهُودَ تَقُولُ: كَذَا وَكَذَا، فَلَا نُجَامِعُهُنَّ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا[٢]. ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿اعْتَزِلُوا﴾: مسموحٌ كلُّ شيءٍ إلّا جماع ﴿النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾: وزيادةٌ في التوضيح ﴿وَلَا﴾: مُحرّمٌ عليكم أنْ ﴿تَقْرَبُوهُنَّ﴾: قد يكون المقصود عدم ممارسة الجماع ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي إلّا بشرط أنْ ﴿يَطْهُرْنَ﴾: تنتهي فترةُ المحيض، فاعتزلوا النساء في المحيض ﴿فَإِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿تَطَهَّرْنَ﴾: إذا انقطع الحيضُ، وبعد الغسلِ بالماء، أو التيمم إذا تعذّر الماء ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾: باشروهن بالجماع ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية المكانية، هنا بمعنى ﴿حَيْثُ﴾: ظرفٌ يدلُّ على المكان ﴿أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾: قال ابن عباس: في الفرج فقط، وليس في غيره، وتحريم الوطء في الدبر ﴿إِنَّ﴾:

---

[١] صحيح مسلم /٢٤٦/١(٣٠٢).

[٢] المرجع السابق.

حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾: التائبين من الذنب، وإنْ تكرر الذنبُ، أي تكرر جماع الحائض قبل ذلك ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾: أيضاً يُحبُّ الله تعالى الذين يتجنبون الأذى.

التكليف: في الآية الكريمة تكليفات عدّة: **الأول:** مخالفة اليهود في كلّ شيء، **والثاني:** تحريمُ نكاح الحائض، **والثالث:** جواز مؤاكلةِ الحائض ومشاربتها.

وفي قضية ماذا يفعل من جامع الحائض: إتيان الحائض من المُنكرات فيجب الحذر من ذلك، ومن فعل هذا فعليه التوبة إلى الله ﷻ، وهكذا مع النفساء قبل أنْ تطهر، قبل أنْ ينقطع الدم وتطهر، فالحكم واحدٌ في النفساء والحائض، فمن فعل شيئًا من ذلك فعليه التوبة إلى الله ﷻ والرجوع إليه ﷻ والندم على ما فرط منه، وعليه مع هذا الكفارة وهي دينار أو نصف دينار يتصدق به على بعض المساكين، كما جاء في حديث ابنِ عباسٍ، عن النبيّ ﷺ في الذي يأتي امرأته وهي حائضٌ، قال: يتصدَّقُ بدينارٍ، أو بنصفِ دينار[1] وهكذا النفساء في حكمها فإنّه قد عصى ربّهُ عزّ وجلّ؛ فعليه التوبة إلى الله والإنابة إليه والندم على ما مضى منه، والعزم ألّا يعود في ذلك، وعليه مع ذلك أنْ يتصدق بدينارٍ أو بنصف دينارٍ مخيّرًا، والدينارُ مثقالٌ من ذهب.

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٢٣)

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾: من المؤكد أنّ مهمة النساء الحمل والولادة؛ هنا تعني إتيان النساء في الفرج؛ أي في موضع الولد، كأنّه التربةُ، التي يُزرعُ فيها النبت، وتعنى الثواب في [الشورى-٢٠]، وتعني الزرع في (البقرة) ﴿فَـ﴾: حرفٌ استثنائي يفيد السبب ﴿أْتُوا﴾: باشروا ﴿حَرْثَكُمْ أَنَّى﴾: من أين وكيف ﴿شِئْتُمْ﴾: في موضعٍ واحدٍ، ومن أيّ جهة كانت، وقتما شئتم، وكيفما شئتم، بشرط أنْ يكون بالفرج، وفي أسباب ذلك، فعن جَابِر ﷺ، قَالَ: كَانَتِ اليَهُودُ تَقُولُ: إِذَا جَامَعَهَا مِنْ وَرَائِهَا جَاءَ الوَلَدُ أَحْوَلَ، فَنَزَلَتْ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة-٢٢٣][2]، وقد سأل النصارى الرسول ﷺ فأخبرهم بإتيان الزوجة في صمامٍ واحدٍ[3]، ﴿وَ﴾: عطفًا على ﴿قَدِّمُوا﴾: مقدمات الجماع ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿أَنْفُسِكُمْ﴾: فعل الطاعات، وليس المحرّمات، ومن المقدمات: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَوْ

---

[1] سنن أبي داود ت الأرنؤوط (٣/ ٤٩٦) خرجه الخمسة وصححه ابن خزيمة وغيره.

[2] صحيح البخاري (٦/ ٢٩).

[3] صحيح مسلم (٢/ ١٠٥٩).

أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا[1]، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: انتهوا عن فعل المحرّمات وأنتم تعلمون حُرمتها ﴿وَاعْلَمُوا﴾: أيضاً اعلموا علم يقين ﴿أَنَّكُمْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿مُلَاقُوهُ﴾: كلكم سيقوم ليوم الحساب على كلّ عملٍ، حلالٍ أو حرامٍ ﴿وَبَشِّرِ﴾: عطفاً على ما سبق أخبر بما يسُرُّ ويُبهج، وهي حُسن اللون، وظهور السرور ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: الذين يعبدون الله ﷻ بقناعةٍ ويقين.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٤)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق، وأيضًا ﴿لَا﴾: بمعنى مُحرّمٌ عليكم أنْ ﴿تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً﴾: تجعلوه علّة وسبب لمنع عمل الخير ﴿لِأَيْمَانِكُمْ﴾: لا تجعلوا ما حلفتم باللهِ ﷻ مانعةً من إتيان البِرّ، والخير، وصلةِ الأرحام ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿تَبَرُّوا﴾: جاء لفظ البر في القرآن الكريم على ثلاثةِ أوجهٍ، هنا بمعنى الصلة في القرابة، وكذلك في قوله ﷻ ﴿**لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [الممتحنة-٨] ﴿وَتَتَّقُوا﴾: أيضاً تتقوا، والتقوى هي البعد عن الذنوب، والعبادة لله ﷻ وطاعته والخوف منه أيضًا ﴿وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾: يأمرُ اللهُ ﷻ بالصلحِ بين النّاس للحفاظ على وحدةِ المجتمعِ المسلمِ وتماسكه ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾: وأيضاً هو سبحانه مُطلق السمع؛ الذي لا يقدر البشر على تقديره ﴿عَلِيمٌ﴾: له العلم كلّه، ما قيل، وما في النفوس.

الحكم: إذا أقسم الرجلُ على فعلٍ فيه خيرٌ له وللنّاس فلا يمنعه حبّه لطاعةِ الله ﷻ والوفاء بالقسم أنْ يستمر في صناعة البر والخير، فعن أبي موسى الأشعري قال رسول الله ﷺ: إِنِّي وَاللَّهِ – إِنْ شَاءَ اللَّهُ – لاَ أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي، وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»[2]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَلْيَأْتِهَا، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ»[3].

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٢٥)

---

[1] صحيح البخاري /٨/٨٢(٦٣٨٨).
[2] صحيح البخاري (٨/ ١٤٦).
[3] صحيح مسلم /٣/١٢٧٢(١٦٥٠).

﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤَاخِذُكُمُ﴾: لا يعاقبكُم ولا يحاسبكُم ﴿اللَّهُ﴾ ﷻ ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿اللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾: جاءت كلمةُ "اللغو" في القرآن على ثلاثةِ وجوه؛ هنا بمعنى الحلف، أو الأيمان اللاغية؛ غير المقصودة والتي تجرى عادةً على لسان الإنسان؛ من غيرِ عقدِ القلبِ والنيّةِ، ولا التأكيد، مثل: لا والله، وجاءت بمعنى الحلف عند شربِ خمر الجنّة في قوله ﷻ ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور-٢٣]، وجاءت بمعنى الحلف الباطل في قوله ﷻ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون-٣]، في قوله أيضًا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت-٢٦] ﴿وَلَكِنْ﴾: حرفٌ يُفيدُ الاستدراك ﴿يُؤَاخِذُكُمْ﴾: يُحاسبكم، أويعاقبكم ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصول، بسبب الذي ﴿كَسَبَتْ﴾: اعتقدت وجنت وجمعت ﴿قُلُوبُكُمْ﴾: تعنى بما عقّدتم الأيمان، الذي يأتي بتصميمٍ وإصرارٍ، وقد صمّم الإنسان على أنْ يفعله ولم يفعله، أو هو يحلف اليمين وهو يعلم أنّهُ كاذبٌ، وقيل إنّ الرجلَ على شيءٍ وينساه، وقيل لغو اليمين أنْ تحلف وأنت غضبان، ولغو اليمين أنْ تُحرّم ما أحلّ الله ﷻ لك، وكلُّ ذلك عليه كفّارة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾: يمحو الذنوب جميعًا ﴿حَلِيمٌ﴾: لا يُعجّل بالعقوبة.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢٢٦)

﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يُؤْلُونَ﴾: يحلفون ﴿مِن نِّسَائِهِمْ﴾: على عدم جماع زوجاتهم، وليس للإماء، فإذا حلف الرجل ألّا يقترب من زوجته مدّة معيّنة، فإنْ كانت نيتُه أقلّ من أربعة أشهر؛ فعليه أنْ يُكملها أربعة أشهر، وعليها أنْ تصبر ولا تطلب منه الفيئة أي الرجعة في هذه المدّة، وإنْ زادت عن أربعة أشهر تطلب الزوجة ﴿تَرَبُّصُ﴾: من الربص؛ وتعني الانتظار لأمرٍ يُنتظر زوالُهُ، أو حصوله ﴿أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾: من تاريخ حلف اليمين ثم يُوقف، ويطلب الجماع، أو الطلاق، والجمهور مع الكفّارة إذا عاد وجامع ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿فَاءُو﴾: رجعوا في المدة فيما حلفوا عليه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾: واسع المغفرة والعفو ﴿رَّحِيمٌ﴾: عظيمُ الرحمة والعطف على خلقه.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٧)

﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿عَزَمُوا﴾: قرروا ﴿الطَّلَاقَ﴾: الانفصال، فيها قولان: ذُكر وإنْ عزموا تعني أنّ الطلاق لا يحدث تلقائيًا بعد انتهاء الشهور الأربعة، وقولٌ آخرٌ يقول: يقع الطلاق بمضي الشهور الأربعة تطليقة واحدة، وهذا عن عمر، وعثمان، وابن عباس، رضي الله عنهم، والطلقةُ هنا واحدة فقط، وهنا يُطرح سؤال: هل توجب العدّة على من تُطلّق بعد أربعة أشهر؟ الواجب الغالب هو نعم، ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ سَمِيعٌ﴾: يسمع كلّ صوتٍ مهما كان خافتًا

حتى ما يجري في النفس، ولا يجري على اللسان ﴿عَلِيمٌ﴾: يعلم السرَّ وما خفي، ويعلم الجهر من قولٍ وعملٍ.

﴿والْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٢٨)

﴿وَ﴾: أيضًا وعطفًا على ما سبق في حكم ﴿الْمُطَلَّقَاتُ﴾: الحكم هنا للزوجات المُطلقات المُدخلُ بهنّ، وممن يحضن ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾: من الربص وتعني الانتظار لأمرٍ يُنتظر زواله، أو حصوله، وعليهنّ أن يُحصين بدقةٍ الزمن ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿أَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾: القرء في كلام العرب الوقت؛ أي على المطلقة أنْ تمكث ثلاثة قروء "أشهر" بعد طلاق زوجها؛ ثم تتزوج إنْ شاءت، أمّا الأَمَة؛ ففيها قولان: فتمكث شهرين، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: طَلَاقُ الْأَمَةِ تَطْلِيقَتَانِ، وَقُرْؤُهَا حَيْضَتَانِ[1]، أي مثلها مثل الحُرّة "قُرُوءٍ": قيل: الطهور من الحيض، والعدة هي الأطهار، جاء في المعنى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق–١]، وقيل الحيض ﴿وَلَا﴾: بمعنى أيضًا مُحرّمٌ عليهم ولا ﴿يَحِلُّ لَهُنَّ﴾: تخصيصًا ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يَكْتُمْنَ﴾: يحجُبن ويخفين ﴿مَا﴾: الجنين الذي ﴿خَلَقَ﴾: أوجد من غير سابق وجود ﴿اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾: المقصود هو وجود حمل، أو حيض في موضوع القروء، وهذا تهديد للنساء ألّا يخالفن الحقّ ﴿وَإِنْ﴾: حرفُ شرطٍ ﴿كُنَّ يُؤْمِنَّ بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: يوم القيامة ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾: وعليه إنّ أزواجهن ﴿أَحَقُّ﴾: لهم الحق ﴿بِ﴾: حرف باء التعددية ﴿رَدِّهِنَّ﴾: أي أنّ الزوج الذي طلّق أحق برد مطلقته ما دامت في مدّة عدّتها ﴿فِي ذَلِكَ﴾: كلُّ ما سبق ذكرهُ التي أخبر الله ﷻ عنها ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾: إذا أرادوا الخير، وهذا في الطلقات الثلاث المسموح بهن، وليس في الطلاق البائن ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق فإنّ ﴿لَ﴾: حرف تمليك ﴿هنَّ﴾: للزوجات المُطلقات ﴿مِثْلُ﴾: يساوي، يعادل ﴿الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِ﴾: حرف باء الصلة والمصاحبة ﴿الْمَعْرُوفِ﴾: للمرأةِ على الزوجِ حقٌ، مثلما للرجلِ على المرأة الزوجة حق، فليؤدِّ كل واحدٍ منهما ما يجب عليه بالمعروف، ولقد جاء في خطبة الوداع: أنّه ﷺ قال: فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ. فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ

---

[1] سنن أبي داود /٢/٢٥٧(٢١٨٩). قال الألباني وشعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

بِالْمَعْرُوفِ[1]، ﴿وَ﴾: حرفٌ يفيد هنا الحال ﴿لِلرِّجَالِ عَلَيْهِن دَرَجَةٌ﴾: منزلةٌ في الفضيلة، والخُلق، والخَلْق، والمنزلة، والطاعة في الأمر والإنفاق، والقيام، بالأعمال الصالحة والفضل في الدنيا والآخرة، جاء في المعنى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء-٣٤] ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾: قويٌ في انتقامهِ ممن عصاه، وخالف أمره ﴿حَكِيمٌ﴾: في أمرِهِ، وشرعهِ، وقدره.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٢٩)

أسباب النزول: كان في بداية الإسلام للرجل حقُ إرجاعِ مُطلّقته ولو مائة مرّة ما دامت في العدّةِ، وقد سبّب ذلك ضررًا للنساء، فجاء ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾: جاء التشريع ليقول: التطليق الرجعي مرّة بعد مرّة، مرَّتين، وأباح الرجعة فيهما، فأصبحت الطلقة الثالثةُ بائنةً، أي لا رجوع بعدها ﴿فَـ﴾: حرفٌ استثنائي يفيد السبب بهدف ترتيب الأمر ﴿إِمْسَاكٌ﴾: تبقى ﴿بِـ﴾: باء الإلصاق ﴿مَعْرُوفٍ﴾: بالمعاملة الحسنة ﴿أَوْ﴾: حرف عطف يفيد التسوية بين متعاطفين ﴿تَسْرِيحٌ﴾: تطليقٌ ومفارقةٌ ﴿بِإِحْسَانٍ﴾: تطليقٌ مع دفع الحقوق، أجازت الآيةُ الكريمةُ في الطلقتين، الأولى للزوج أنْ يردّ مُطلقته بنيّة الإصلاح، أو يُطلّقُها بالمعروف والإحسان، وهذه التوجيهات الإمساك بمعروف والتسريح بإحسان في الطلقة الثالثة ﴿وَلَا﴾: حرفٌ، تحريم ﴿يَحِلُّ لَكُمْ﴾: أي حرام عليكم ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ونفي الإنكار ﴿تَأْخُذُوا مِمَّا﴾: بعض أو جزء ﴿آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾: تُحرِّمُ الآيةُ الكريمةُ التضييق على النساء كي يتنازلن عن حقوقهن، بعضها أو كلّها ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿أَنْ يَخَافَا أَلَّا﴾: حرفٌ يُفيد التخصيص والتنبيه ﴿يُقِيمَا﴾: يُطبقا ويُنفذا ﴿حُدُودَ﴾: ما شرّعه ﴿اللَّهِ﴾: جاء الخوف هنا بمعنى العلم واليقين؛ في حال علمتم عدم إقامة حدود الله ﷻ، فيمكن أنْ تفتدي، أمّا إذا لم يكنْ لها عذرٌ أو له عذرٌ فقال ﷺ: أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقًا فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ[2]، وقال ﷺ: المُخْتَلِعَاتُ هُنَّ المُنَافِقَاتُ[3]. ﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿خِفْتُمْ أَلَّا﴾: حرف تخصيص ﴿يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا﴾: أداةُ نهيٍ تُفيد طلب عدم الفعل ﴿جُنَاحَ﴾: إثم ﴿عَلَيْهِمَا فِيمَا﴾: في الذي ﴿افْتَدَتْ بِهِ﴾:

---

[1] صحيح مسلم /٣٩/٤(٣٠٠٩).

[2] سنن أبي داود /٢/٢٣٥(٢٢٢٨). قال الألباني: إسناده صحيح.

[3] سنن الترمذي /٣/٤٨٤(١١٨٦). وقال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ، وَلَيْسَ إِسْنَادُهُ بِالقَوِيِّ. والحديث صححه الألباني.

أي لم يُشرّع الخُلع إلّا في هذه الحالة، أي لا يجوز أنْ يأخذ الرجلُ فديةً من زوجته إلّا في حالات الشقاق، وعدم الاتفاق، والكره، قيل إنّه: لا يجوز الخُلع إلّا أنْ يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة، وهنا يمكن للزوج أنْ يقبل الفدية ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾: أحكامُ اللهِ المفروضة ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهى عن ﴿تَعْتَدُوهَا﴾: تخالفوا شرْع الله ﷻ ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل، أي الإنسان ﴿يَتَعَدَّ﴾: يُخالف ﴿حُدُودَ﴾: ما شرّعهُ ﴿اللَّهِ فَ﴾: حرف يفيد السبب ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارةً للجماعة، البعيدة والقريبة ﴿هُمُ﴾: حرف تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب ﴿الظَّالِمُونَ﴾: الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم بالعقاب بمخالفتهم شرع الله ﷻ.

التكليف: هل يجوزُ أنْ تكون الفديةُ أكبر ممّا أعطاها؟ والجواب: نعم؛ إلّا إذا كان العيبُ فيه؛ فلا يأخذ منها شيئًا، وقيل لا يأخذُ أكثر ممّا أعطاها.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٢٣٠)

﴿فَإِنْ﴾: حرف شرط للتأكيد ﴿طَلَّقَهَا﴾: المقصود إذا طلقها مرّتين ووقعت الطلقةُ الثالثةُ؛ فإنّها تُحرّمُ عليه ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ وحثٍّ على الفعل، أي لا ﴿تَحِلُّ لَهُ﴾: لا تعود في عصمته ﴿مِنْ بَعْدُ﴾: طلاقه لها ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي إلّا بشرط أنْ ﴿تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾: أي بعد الطلقة الثالثة يجب ألّا ترجع المطلقة للزوج الأول إلّا بعد زواجها من آخر، نكاحًا صحيحًا، بنيّة العشرة الطبيعية، فإنْ طلقها الآخر في غير نكاحٍ فلا يجوز أنْ تعود للأول، إنّ شروط الزواج في الزوج الثاني: الشرط الأول: رغبتهُ في المرأة، والشرط الثاني: قصدُ دوام العشرة، والشرط الثالث: أنْ يكون الوطءُ مُباحًا، وليس وهي مُحرِمة، أو صائمةٌ، أو معتكفةٌ، أو حائضٌ، أو نفساء، أو كان الزوج صائمًا، أو مُحرِمًا، أو معتكفًا، أو إذا كان الزوج الثاني ذميًّا، وهناك أحاديث عدّة في تحريم المُحلل، فقد رُوي عَنِ الْحَارِثِ قَالَ: « لَعَنَ مُحَمَّدٌ ﷺ آكِلَ الرِّبَا، وَمُوكِلَهُ، وَشَاهِدَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَالْوَاشِمَةُ وَالْمُتَوَشِّمَةُ» قَالَ: قُلْتُ: «إِلَّا مِنْ دَاءٍ» قَالَ: «نَعَمْ، وَالْمُحَلِّلُ وَالْمُحَلَّلُ لَهُ، وَمَانِعُ الصَّدَقَةِ، وَكَانَ يَنْهَى عَنِ النَّوْحِ، وَلَمْ يَقُلْ لَعَنَ»[1]، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المُحِلَّ وَالمُحَلَّلَ لَهُ»[2].

---

[1] سنن النسائي /٦/١٤٩(٣٤١٦)، قال الألباني إسناده صحيح.

[2] سنن الترمذي ت شاكر (٣/ ٤٢٠) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وسنن أبي داود (٢/ ٢٢٧)، وصححه الألباني.

﴿فإنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿طَلَّقَهَا﴾: الزوج الثاني بعد الدخول بها ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل ﴿جُنَاحَ﴾: لا مانع شرعيًا ﴿علَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾: أي يعود الاثنان: المرأةَ وزوجها الأول ﴿إنْ﴾: بشرط ﴿ظَنَّا﴾: تأكد الاثنان ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾: هي العشرة بالمعروف, إنْ تأكّدا أنّ زواجهما على غيرِ تدليس ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾: الشرائع والأحكام ﴿يُبَيِّنُهَا﴾: يُوضحها الله ﷻ ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿قَوْمٍ﴾: جماعةٍ من النّاسِ من مصدرٍ عرقيٍ واحدٍ أي المسلمين عمومًا ﴿يَعْلَمُونَ﴾: يجب أنْ يعلموها؛ فهي أحكامُ الشرع؛ لفائدة النّاس.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٣١)

﴿وَإِذَا﴾: أداةُ ربطٍ بين ما بعدها مع ما قبلها ﴿طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾: حدث الطلاق ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: قاربن على انتهاء عدّتهن دون رجعة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾: إعادة إرجاعهن في الطلقتين الأولى والثانية فقط، إنْ أردتم ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة والالتصاق ﴿مَعْرُوفٍ﴾: إذا حدث طلاقٌ فيه رجعةٌ فعلى الرجل أنْ يُحسن المعاملة إذا انقضت عدّتها، وقيل إنْ تكتمل العدّة أو يُعيدَها إلى عصمته بمعروف، وأنْ يُشهد على رجعتها، وأنْ ينوي عشرتها بالمعروف، ﴿أَوْ﴾: حرف يفيد هنا التخيير ﴿سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾: أو يُسرّحها يتركها حتى تنقضي عدتها، ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن، من غيرِ شقاقٍ، ولا مخاصمةٍ ولا فحشِ قولٍ ﴿وَلَا﴾: مُحّرمٌ عليكم أنْ ﴿تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾: بنيّة الإضرار والإيذاء بهنّ، بمنع زواجهن من غيركم ﴿لِ﴾: حرفُ علّةٍ وسببٍ ﴿تَعْتَدُوا﴾: مثل أنْ يبقى استمرار زواج المرأة المُطلّقة حتى إذا اقتربت نهاية عدتها رجّعها ضرارًا؛ حتى لا تتزوج غيره، ثم يطلقها فتعتد، حتى إذا أوشكت انتهاء عدتها الثانية، أرجعها حتى تطول عليها العدّة ﴿وَمَنْ﴾: إنّ الذي من جنس العاقل ﴿يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾: كلُّ ما سبق ذكرهُ الذي أخبر الله ﷻ عنه ﴿فَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾: جنى على نفسهِ بذنبٍ؛ لأنّهُ خالف أمرَ اللهِ ﷻ ﴿وَلَا﴾: حرف نهي وتحريم ﴿تَتَّخِذُوا﴾: تستخدموا، وتجعلوا من ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾: الدّالة على التحكيم ﴿هُزُوًا﴾: هذا الصنف من الأزواج الذين يُطلّقون زوجاتهم، ويتحايلون؛ ليسببوا ضررًا لنسائهم بطلاقهم، وعدم إرجاعهم ليطيل فترة العدة، أو الرجلُ الذي يقول طلقت وكنت

مازحًا، أو الرجلُ يعتق، أو ينكحُ ويقولُ كنت لاغيًا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ثَلَاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ، وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ: النِّكَاحُ، وَالطَّلَاقُ، وَالرَّجْعَةُ[1] ﴿وَاذْكُرُوا﴾: عطفًا على فضل الله تعالى يجب ذكر امتثال وتطبيق وليس ذكر كلام ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: والذكر هنا بمعنى رسالة الإسلام على محمد ﷺ ﴿وَمَا﴾: الذي ﴿أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ﴾: حرفُ جرّ يُفيد ابتداء الغاية المكانيّة ﴿الْكِتَابِ﴾: القرآن ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾: أيضاً اذكروا السُنّة النبويّة المشرّفة ﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾: يأمركم وينهاكم، ويتوعدكم العقاب على ارتكاب المُحَرّمات ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: عطفاً على ما سبق خافوا الله ﷻ في أزواجكم وذريّتكم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ﴾: وعليه جاء حرف تأكيد ﴿اللَّهَ بِ﴾: حرف باء الالتصاق ﴿كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة؛ لتؤكد وتفيد العموم، الصغير والكبير ﴿عَلِيمٌ﴾: صاحبُ العلمِ الكاملِ في الجهرِ والسرّ، ولكلٍّ ثواب، ولكلٍّ عقاب.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٣٢)

﴿وَ﴾: حرفٌ يفيد هنا الاستئناف ﴿إِذَا﴾: حرفُ ظرفٍ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾: إذا طلقتم النساء أقلّ من ثلاثِ مرّات ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد التخيير ﴿بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: وانتهت عدّتهن ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي أهلِ الزوجةِ التي طلقها زوجُها مرّة أو مرّتين؛ وانقضت عدّتها، ويريد الزوج أنْ يُرجعها؛ وهي توافق تحريمًا، فحرامٌ عليكم أنْ ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾: يمنعها أولياؤُها، أهلُها ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾: تعود لزوجها الذي طلقها ﴿إِذَا﴾: حرفُ ظرفٍ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿تَرَاضَوْا﴾: اتفقوا برضا الجميع ﴿بَيْنَهُمْ بِ﴾: حرفُ باء الصلة والالتصاق ﴿الْمَعْرُوفِ﴾: توافق الزوجان، والأهل من دون إكراه، بالحسنى بينهما ﴿ذَلِكَ﴾: كلُّ ما سبق ذكرهُ التي أخبر الله ﷻ عنها ﴿يُوعَظُ بِهِ﴾: هنا الموعظة هي النهي ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿كَانَ مِنْكُمْ﴾: التوجيه عامٌ للجميع، وخاصّة لأصحاب القضية ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: يؤمن بشرع الله ﷻ ويخاف عذابه في الآخرة ﴿ذَلِكُمْ﴾: اسم إشارة في كلُّ ما سبق ذكرهُ الذي أخبر اللهُ ﷻ عنها ﴿أَزْكَى﴾: أطهرُ، وأفضلُ، وخيرٌ عند الله ﷻ ﴿لَكُمْ﴾: تحديدًا ﴿وَأَطْهَرُ﴾: أيضًا المقصود ردّ الزوجات إلى أزواجهن بهذا التشريع، هذا يُنقي القلوب ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾: هو الذي يُشرّع الأوامر

---

[1] سنن أبى داود /٢/٢٢٥(٢١٩٦). قال الألباني: إسناده حسن، قال شعيب الأرناؤوط: حسن لغيره.

والنواهي التي تنفعكم ﴿وَأَنْتُمْ لَا﴾: عطفاً على ما سبق اعلموا أنّكم لا ﴿تَعْلَمُونَ﴾: لا تعرفون أين الخير في كلِّ شيءٍ، مما تأتون ومما تتركون. لا بد للنكاحِ من وليٍّ، والمرأةُ لا تملكُ أنْ تُزوّج نفسها وفي هذا خلافٌ وجدلٌ في كتب الأحكام.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٣٣)

﴿وَ﴾: أيضًا في حكم ﴿الْوَالِدَاتُ﴾: اللاتي أنجبن أطفالًا في سنّ الرضاعة عليهن أنْ ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ﴾: إنّ كمال الرضاعة سنتين، ﴿كَامِلَيْنِ﴾: والإكمال على مراحل منفصلة بينما الإتمامُ مرحلة مستمرة حتى ينتهي، حتى يستطيع الطفل أنْ يأكل ويهضم ما أكل بعدها من كلّ شيءٍ، كما أنّ هذا يتيح فرصة حملٍ جديدةٍ؛ لتكثير سواد المسلمين، والله أعلم ﴿لِمَنْ﴾: للذي من جنس العاقل واللام هنا للتبيين ﴿أَرَادَ أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾: إكمال مدّة الرضاعة ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا فإنّ ﴿عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾: على والد الطفل نفقة الوالدات ﴿رِزْقُهُنَّ﴾: الإنفاق عليهنّ ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ بِ﴾: حرفُ باء الصلة ﴿الْمَعْرُوفِ﴾: ومعناها ما يتيسر للإنسان، كعادة أمثالهن من النساء في البلاد التي يعيشون فيها ﴿لَا﴾: حرف تحريم ﴿تُكَلَّفُ﴾: تُحمّل ﴿نَفْسٌ﴾: جوهر وذوات الإنسان ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿وُسْعَهَا﴾: بحسب قُدرتها، ودونَ تبذير، وعليه نفقتها وكسوتها ﴿لَا﴾: حرف نهي ﴿تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِ﴾: حرف باء السببية ﴿وَلَدِهَا﴾: لا يجوز أنْ تُبعد المرأة عن مولودها حتى ترضعه؛ حفاظًا على حياته، إذا كان الهدف الإضرارٍ بالوالد، ويمكن أنْ تبعدهُ عن الرضاعة ليس بنيّة الإضرار بوالده، كما أنّه لا يجوز انتزاع الولد منها بهدف الإضرار بها ﴿وَلَا﴾: أيضًا مُحرّم عليكم الإضرار ﴿مَوْلُودٌ لَهُ بِ﴾: حرف باء الصلة والالتصاق ﴿وَلَدِهِ﴾: لا يحلُّ لأحدِ الوالدين أنْ يتخذَ من الولدِ وسيلةَ إضرارٍ بالآخر ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾: وعطفاً على ما سبق يرث الولد بسبب غياب الأب ﴿مِثْلُ ذَلِكَ﴾: كلُّ ما سبق ذكرهُ الذي أخبر اللهُ ﷻ عنها، هنا إذا غاب الأبُ لا يجوز لأحدٍ أنْ يتخذ الولد وسيلة إضرار بالآخر ﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿أَرَادَا فِصَالًا﴾: فِطام الولد قبل مرور الحولين ﴿عَنْ تَرَاضٍ﴾: موافقةٍ ﴿مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾: إذا اتفق الوالدان على فطام المولود قبل الحولين، ورأيا في ذلك مصلحةً له، وبعد التشاور فلا مانع، ولا بأس، ولا جناح، المطلوب

موافقة الوالد والوالدة. إنّ انفراد أحدهما بالقرار لا يكفي، ولا يجوز، هذا من رحمة الله ﷻ بالأطفال ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿جُنَاحَ﴾: إثم ﴿عَلَيْهِمَا وَ﴾: أيضًا ﴿إِنْ﴾: حرف شرط بمعنى إذا ﴿أَرَدْتُمْ أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾: إنْ أردتم أنْ تقوم الأمُ بإرضاع الولد ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نفي ﴿جُنَاحَ﴾: لا حرج أو منع، فلا إثم ﴿عَلَيْكُمْ﴾: بشرط أنْ يُعوّضها عن مدة رعايتها له ﴿إِذَا﴾: حرفُ ظرفٍ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها بما قبلها ﴿سَلَّمْتُمْ مَا﴾: الذي ﴿آتَيْتُمْ بِ﴾: باء الالتصاق ﴿الْمَعْرُوفِ﴾: إذا اتفقت الوالدةُ والوالدُ أنْ يستلم الوالدُ ولدهُ، بسببِ عذرٍ منها، أو عذرٍ منه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: عطفاً على ما سبق من تفصيل يأتي أمرٌ ربّانيّ أنْ يكون كلُّ عملٍ في تقوى الله ﷻ بوعيٍ ورجاءٍ في الأجر، وبوعي وبخوفٍ من العقاب ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿اللَّهَ بِمَا﴾: اسم موصول، بالذي ﴿تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: تأكدوا أنّ الله ﷻ مُطلّعٌ على كلِّ شيءٍ، لا يخفى عليه شيء؛ ويُحاسبُ على كلِّ شيءٍ.

التكليف: نجدُ في آيات العلاقات الزوجية تفاصيل التشريع، بينما لا نجد هذا التفصيل في الصلاة على سبيل المثال، وهذا يدلُّ على أهمية العلاقات الأسرية، والاجتماعية في الشريعة الإسلامية، التي تُحافظُ على نسيجِ المجتمعِ المسلم.

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٣٤)

﴿وَ﴾: حرفٌ يفيد هنا الحال ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾: الذين يموتون من الأزواج ﴿وَيَذَرُونَ﴾: يتركون وراءهم ﴿أَزْوَاجًا﴾: زوجات غير حوامل، فعليهن أنْ ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾: من الربص وتعني الانتظار لأمرٍ يُنتظر زوالهُ، أو حصوله ﴿بِ﴾: حرفُ باء الالتصاق ﴿أَنْفُسِهِنَّ﴾: ينتظرن شرطًا واجبًا مدّة ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾: مائة وثلاثين يومًا لا يخرجن من بيوت الزوجية، والامتناع عن الزينة، والزواج من آخر، وينطبق هذا الحكم على الزوجة التي دُخل بها، والتي تزوجها ولم يدخل بها؛ بسبب عموم الآية.

الاستثناء: **أولًا**: في الزوجةِ الحاملِ التي توفّي زوجُها: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق-٤]، **ثانيًا**: الزوجة إنْ كانت أَمةً؛ فعدّتُها نصفُ عدّةِ الحُرّة، ولا حداد على الزوجة الكافرة.

﴿فَ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب الأمر ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط، وهي أداةُ ربطٍ بين ما بعدها بما قبلها ﴿بَلَغْنَ﴾: أمضين ﴿أَجَلَهُنَّ﴾: مُدّة العدّة ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿جُنَاحَ﴾: لا إثم ﴿عَلَيْكُمْ فِيمَا﴾: في الذي ﴿فَعَلْنَ﴾: يكون الفعل مصحوبًا بالحواس ويكون العمل مصحوبًا بالنيات ﴿فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾: ذهبت بما تريد في الحلال ﴿بِ﴾: باء الالتصاق ﴿الْمَعْرُوفِ﴾: هنا بمعنى الفرض في قوله ﷻ ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء-٦] وفي قوله ﴿أيضا لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء-١١٤] والقاعدةُ أنّ الحداد هو ثلاثةُ أيامٍ لا يزيدُ عن ذلك؛ إلّا التي مات زوجها؛ فأربعةُ أشهرٍ: وهو الزواج، والزينة، والخروج من البيت، واللبس، والحُليّ؛ بشرطِ التأكد أنّها ليست حاملًا ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق اعلموا أنّ ﴿اللَّهُ بِمَا﴾: اسم موصول، بالذي ﴿تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: يعلمُ كلّ شيءٍ.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٣٥)

﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: لا حجرٌ، أو مانعُ شرعي أو إثمٌ ﴿فِيمَا﴾: في الذي ﴿عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد ابتداء الغاية الزمانيّة ﴿خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾: أنْ يقول الرجلُ تلميحًا إنّني أرغبُ في خطبةِ امرأةٍ صفاتُها كذا، أو يقول أريدُ أنْ أتزوج، أو يقول أسأل الله أنْ يرزقني زوجةً صالحةً؛ من غير تصريحٍ للمرأة بالخطبة ﴿أَوْ﴾: حرفُ عطفٍ يُفيد التسوية بين المتعاطفين، أو التخيير ﴿أَكْنَنْتُمْ﴾: ما أخفيتم ﴿فِي أَنْفُسِكُمْ﴾: في ضمائركم من رغبة الزواج بالتي مات زوجها، وهي في مدة العدّة ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ س﴾: حرفٌ يفيد التحقق في المستقبل ﴿تَذْكُرُونَهُنَّ﴾: علم الله ﷻ ما في أنفس النّاس ورغبتهم الشديدة فيهن، فرفع عنكم الحرج ﴿وَلَكِنْ﴾: حرف استدراك ﴿لَا﴾: حرف نهي ﴿تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾: أنْ تتواعدوا سرًا على الزواج في فترة العدّة، ولا تقولوا أنا أعشق، عاهديني ألّا تتزوجي غيري، أو أنْ يتزوجها سرًّا وهي في العدّة، فإذا انتهت الفترة، أعلن ذلك ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿أَنْ﴾: حرف تصور ﴿تَقُولُوا قَوْلًا

﴿مَعْرُوفًا﴾: هنا إباحة التعريض بالقول ﴿وَلَا﴾: تحريم أنْ ﴿تَعْزِمُوا﴾: لا تتموا ﴿عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾: اتفاق الزواج ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي إلَّا بشرط أنْ ﴿يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾: حتى تنقضي مدّة العدّة، هناك إجماعٌ على أنّه لا يصحُّ العقدُ في مُدّة العدّة، وهنا حكمٌ شرعيّ: إذا تزوج رجلٌ من امرأة في فترة العدّة، ودخل بها؛ يتم التفريق بينهما، وهل تحلُّ أمْ تُحرّمُ عليه إلى الأبد؟ هناك قولان: قول الجمهور: لا تُحرّم عليه، بل يخطبها بعد انتهاء العدّة، أمّا الإمام مالك فهو: يحرّمها إلى الأبد، فالعقاب يكون بنقيض قصده، فتحرّم عليه، مثل القاتل يُحرم عليه الميراث؛ كالذي قتل والده ليرثه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ﴾: حرف تأكيد ونفي الإنكار ﴿اللَّهَ يَعْلَمُ مَا﴾: الذي ﴿فِي أَنْفُسِكُمْ فَ﴾: لهذا السبب ﴿احْذَرُوهُ﴾: هذا وعيدٌ لمنْ ضَمَرَ في نفسِهِ ما يُخالف المُشرّع في أمر النساء، هنا يأمرُ اللهُ ﷻ على إضمار الخير؛ لأنّ الله ﷻ يعلم ما بالنفس، مع التذكير برحمة الله ﷻ؛ حتى لا ييأس النّاس فإنّه ﴿وَ﴾: عطفاً على ما سبق ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾: يمحو الذنوب ﴿حَلِيمٌ﴾: ويشفق على عبادة.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٣٦)

﴿لَا﴾: حرفُ نفي ﴿جُنَاحَ﴾: إثم أو ذنب ﴿عَلَيْكُمْ﴾: أي مُباح لكم ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا﴾: حرف نفي ﴿لَمْ﴾: حرفُ جزم ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾: المسُّ هو النكاح، هنا جوازُ طلاق المرأة قبل الدخول بها ﴿أَوْ﴾: حرف تسوية بين متعاطفين، أو التخيير جاءت هنا بمعنى إلّا الاستثنائية ﴿تَفْرِضُوا لَهُنَّ﴾: حرف تمليك ﴿فَرِيضَةً﴾: وقبل أنْ تحددوا لها مهرًا ﴿وَ﴾: حرفٌ يفيد هنا الاستئناف ﴿مَتِّعُوهُنَّ﴾: تعويضها عمّا فاتها بشيءٍ تأخذه الواحدةُ من زوجها الذي طلّقها قبل أن يدخل بها، بحسب قدرته الماديّة، قال ابن عباس: أعلى تعويض هو الخادم، وأقلُّ من ذلك الفضّة والكسوة كدرعٍ، وخمارٍ، وملحفةٍ، وجلبابٍ، وقال أبو حنيفة: إذا حدث نزاعٌ بين الزوجين في مقدار المتعة وجب لها نصف المهر الذي تأخذه مثلها، وهنا يُطرح سؤال: هل المتعة لكلّ مطلقة، أم للتي لم يُدخل بها؟ والجواب فيه أقوال: وجوبُ المتعةِ على كلّ مطلّقةٍ لعموم الآية: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة– ١٤١]، وأمّا للمطلقة قبل المساس قبل النكاح قال ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب– ٤٩] قال سعيد بن المسيب: أنّ هذه الآية نُسخت في سورة الأحزاب، للمطلقة التي لم يُدخل بها، ولم يُفرض لها، فإنْ كان دخل بها وجب لها مهرُ مثلها، إذا كانت مفروضة، وإذا

طلقها قبل الدخول عليها؛ فنصفُ المهر ﴿عَلَى الْمُوسِعِ﴾: الزوج الغني ﴿قَدَرُهُ﴾: قدر إمكانه ﴿وَعَلَى الْمُقْتِرِ﴾: الزوج الفقير ﴿قَدَرُهُ﴾: قدر إمكانه، تعني استحبابًا مُطلقًا عند بعض العلماء ﴿مَتَاعًا﴾: حق الانتفاع به ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: بالتي هي أفضل ﴿حَقًّا﴾: واجبًا ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾: الذين يعبدون الله ﷻ بقناعةِ المُشاهد.

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٣٧)

هذه الآية تخصُّ المُطلقةَ قبل الدخول بها، وقد فُرِض المهر ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد ابتداء الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِ أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾: تدخلوا بهن، وإنْ خلا بها ﴿وَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿فَرَضْتُمْ﴾: خصصتم وجوبًا ﴿لَهُنَّ فَرِيضَةً فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿نِصْفُ مَا﴾: الذي ﴿فَرَضْتُمْ﴾: نصف الصداق ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿أَنْ يَعْفُونَ﴾: إذا تنازلت الثيّب عن حقّها، والعفو هنا يعني الترك ﴿أَوْ﴾: حرفٌ يُفيد التسوية، أو التخيير ﴿يَعْفُوَ الَّذِي﴾: اسمٌ موصولٌ بالفرد المُذكر ﴿بِ﴾: باء الالتصاق ﴿يَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾: فيه قولان: الزوجُ، لأنّ بيده عقدُ النكاح وإبرامه، ونقضه، وهدمه، ولا يجوز للولي أنْ يهب من مال وليته، للغير هذا الأرجح، والثاني هو الأبُ أو الأخُ أو من لا تُنكح إلّا بإذنه، ﴿وَأَنْ تَعْفُوا﴾: تُسامحوا ﴿أَقْرَبُ لِ﴾: حرف تخصيص ﴿التَّقْوَى﴾: قال ابن عباس: أقربهم للتقوى الذي يعفو، الزوج أو المطلقة ﴿وَلَا﴾: حرف نهي ﴿تَنْسَوُا﴾: تتجاهلوا ﴿الْفَضْلَ﴾: حُسن العلاقة ﴿بَيْنَكُمْ﴾: حثّ اللهُ ﷻ على العمل بالمعروف، حتى يستمر نسيج المجتمع، ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ بِمَا﴾: اسم موصول، بمعنى الذي ﴿تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: لا يخفى عليه شيءٌ، فهو مُطّلع على السرائر اطلاع المشاهد، ويجزي بها.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٢٣٨)

﴿حَافِظُوا﴾: استمروا ﴿عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﵁: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الصَّلاَةُ عَلَى مِيقَاتِهَا»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» فَسَكَتُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي[1]، ﴿وَ﴾: أيضًا حافظوا على ﴿الصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾: هي صلاة الصّبح وهذا رأيُ

---

[1] صحيح البخاري (٤/ ١٤).

أبي أمامة، وأنس، وجابر، وأبي العالية، وعبيد بن عمير، وعطاء، وعكرمة، ومجاهد، وهو رأي ابن عمر، وابن عبّاس. وهو رأي مالك والشّافعي كذلك فيما نصّ عليه في الأم[١].

الصّلاة الوسطى هي: صلاة العصر وهذا الرّأي أخذ به أكثر أهل العلم، وهو الرّأي المعتمد، ودلّت السنّة الصحيحة عليه وهو قول أكثر علماء الصّحابة، فعَنْ عَبِيدَةَ، عَنْ عَلِيٍّ ﷺ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَلَأَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا، شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاَةِ الوُسْطَى حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ»[٢] وهذه الرّواية أشارت إلى كلام النبيّ ﷺ كونها العصر.

وعَنْ أَبِي قِلاَبَةَ، أَنَّ أَبَا المَلِيحِ حَدَّثَهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ بُرَيْدَةَ فِي يَوْمٍ ذِي غَيْمٍ، فَقَالَ: بَكِّرُوا بِالصَّلاَةِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ صَلاَةَ العَصْرِ حَبِطَ عَمَلُهُ»[٣]، وقيل إنّها صلاة المغرب ﴿وَقُومُوا﴾: عطفًا على ما سبق كونوا في الصلاة ﴿لِ﴾: حرفُ تخصيص ﴿اللَهِ قَانِتِينَ﴾: قائمين، خاشعين، مُتذللين، عدم الكلام، فقط التسبيح، والتحميد، والتكبير، أو التفكير فيما سبق.

التكليف: حول خلاف أفضلية كلِّ صلاةٍ؛ فإنّ المطلوب الحفاظ على كلِّ الصلوات، وبالأخص صلاة العصر.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٣٩)

بعد التأكيد على إقامة الصلاة الوسطى، جاءت الآية الكريمة لتقول عن الأحوال التي تُعطّل أداء الصلاة، والقيام بحدودها، مع التأكيد على أدائها ﴿فَإِنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿خِفْتُمْ﴾: وبخاصّة في حالة الحرب والقتال، هي صلاة الخوف ﴿فَ﴾: حرفٌ استثنائي يفيد السبب ﴿رِجَالًا﴾: وقوفًا على أقدامكم، وأنتم تمشون على أرجلكم ﴿أَوْ﴾: حرفٌ يفيد التسوية بين متعاطفين، أو التخيير ﴿رُكْبَانًا﴾: أو راكبين على دوابكم في أيّ اتجاه، القبلة أو غيرها، قد تكون ركعةً واحدةً إذا تلاحم الجيشان، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «فَرَضَ اللهُ الصَّلَاةَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ ﷺ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعًا، وَفِي السَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ، وَفِي الْخَوْفِ رَكْعَةً»[٤].

وعن هيئة الصلاة: في حالات الضرورة الصلاة إيماءً، فإنْ لم يقدروا يؤخروها حتى ينكشف القتال، ويصلّوا ركعتين، وإنْ لم يقدروا فيصلوا ركعةً وسجدتين ﴿فَإِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿أَمِنْتُمْ﴾: إذا انتهت أسبابُ صلاةِ الخوف ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾: والذكر هنا هو الصلوات الخمس؛ فأقيموا الصلاة بتمام قيامها،

---

[١] فتح الباري (٨/١٩٦) باختصار.

[٢] صحيح البخاري (٤/ ٤٣).

[٣] صحيح البخاري (١/ ١٢٢).

[٤] صحيح مسلم /١/٤٧٩(٦٨٧).

وركوعها، وسجودها، وخشوعها، وتهجدها ﴿كَمَا﴾: مثلما ﴿عَلَّمَكُمْ﴾: كما هداكم، وأنعمَ عليكم ﴿مَا﴾: الذي ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿تَكُونُوا﴾: من قبل ﴿تَعْلَمُونَ﴾: بما ينفعكم في الدنيا والآخرة؛ عليكم أنْ تقابلوا ذلك بالشكر والذكر.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٤٠)

﴿وَالَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾: يموتون ﴿مِنْكُمْ﴾: من المسلمين ﴿وَيَذَرُونَ﴾: ويتركون خلفهم ﴿أَزْوَاجًا وَصِيَّةً﴾: تكون وصيتُهم ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿أَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾: هي العام أو السنة.

حكم الآية: منسوخة بالآية التي تقول: ﴿**يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا**﴾ [البقرة– ٢٢٤]، ومع ذلك فإنّ صحابة رسول الله ﷺ لم يرفعوها من القرآن الكريم، فعَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: ابْنُ الزُّبَيْرِ قُلْتُ: لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﴿**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا**﴾ [البقرة– ٢٣٤] قَالَ: قَدْ نَسَخَتْهَا الآيَةُ الأُخْرَى، فَلِمَ تَكْتُبُهَا؟ أَوْ تَدَعُهَا؟ قَالَ: «يَا ابْنَ أَخِي لاَ أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ»[1]، ومن الأسباب السابقة: كان الرجلُ إذا مات كانت عدّة زوجته أنْ تبقى في بيته سنةً كاملةً، ينُفق عليها من ماله؛ فنزلت الآيةُ فنسختها بأربعة أشهر وعشرًا، قَالَ عَطَاءٌ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَسَخَتْ هَذِهِ الآيَةُ عِدَّتَهَا عِنْدَ أَهْلِهَا فَتَعْتَدُّ حَيْثُ شَاءَتْ، وَهْوَ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿**غَيْرَ إِخْرَاجٍ**﴾ [البقرة– ٢٤٠] قَالَ عَطَاءٌ: إِنْ شَاءَتْ اعْتَدَّتْ عِنْدَ أَهْلِهِ وَسَكَنَتْ فِي وَصِيَّتِهَا، وَإِنْ شَاءَتْ خَرَجَتْ، لِقَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿**فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ**﴾ [البقرة– ٢٣٤] قَالَ عَطَاءٌ: «ثُمَّ جَاءَ المِيرَاثُ، فَنَسَخَ السُّكْنَى، فَتَعْتَدُّ حَيْثُ شَاءَتْ، وَلاَ سُكْنَى لَهَا»[2]، وإذا كانت الزوجةُ التي مات زوجها حاملًا فعدتها أنْ تضع حملها، وجاءت الآية: ﴿**وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم**﴾ [النساء–١٢]، فبيّن ﷻ ميراث المرأة، وترك الوصية والنفقة ﴿غَيْرَ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿إِخْرَاجٍ﴾: قال ابن عباس إنْ شاءت أكملت عدّتها عند أهلها، وسكنت في وصيتها، وإنْ شاءت خرجت ﴿فَإِنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ﴾: إثم أو ذنب ﴿عَلَيْكُمْ فِي مَا﴾: الذي ﴿فَعَلْنَ﴾: يكون "**الفعل**" مصحوبًا بالحواس يكون **العمل** مصحوبًا بالنيات تصرفن ﴿فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ﴾: جزء أو بعض ﴿مَعْرُوفٍ﴾: الزينة، والتطيب، والتجمل، والمقصود من الشهور الأربعة والأيام العشرة، حيث إنّ ما زادَ على ذلك منسوخ، واللهُ

---

[1] صحيح البخاري (٦/ ٢٩).

[2] صحيح البخاري (٦/ ٢٩).

أعلم، جاء الميراثُ؛ فنسخ السكن، وتعتد المرأةُ متى شاءت، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾: القوي المنيع ذو الأنفة الأبي الملك متفرد الوجود ﴿حَكِيمٌ﴾: لا يقول إلّا صوابًا ولا يفعل إلّا الصحيح.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٤١)

﴿وَ﴾: عطفًا على ذلك ﴿لِلْمُطَلَّقَاتِ﴾: تخصيصاً وتمليكاً للائي وقع عليهنّ الطلاقُ شرعًا ﴿مَتَاعٌ﴾: الكسوةُ، والطعامُ، والماءُ، وفي أسباب النزول: لمّا نزلت ﴿بِ﴾: حرف باء الالتصاق ﴿الْمَعْرُوفِ﴾: المتعة التي لا مبالغ فيها ولا تقصير ﴿حَقًّا﴾: واجبًا وفريضةً ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾: قال رجلٌ إنْ شئت أحسنت ففعلت، وإنْ شئت لم أفعل، فنزلت هذه الآية، واستدل: وهذا بوجوبِ المُتعةِ للمطلّقةِ يتساوى هنا إن كانت مفوّضةً أو مفروضًا لها، أو مُطلقةً قبل الدخول بها.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢٤٢)

﴿كَ﴾: مثل، أيضًا ﴿ذَلِكَ﴾: كلُّ ما سبق ذكرهُ الذي أخبر اللهُ ﷻ عنه ﴿يُبَيِّنُ﴾: يُفصّل ويُوضّحُ ﴿اللَّهُ لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿آيَاتِهِ﴾: الحلال والحرام، والفروض والحدود، فيما أمركم به، وما نهاكم عنه، بصورةٍ واضحةٍ ومفسّرةٍ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: هنا تفيد التوقع؛ لأنّها من عند البشر، وإذا كانت من اللهِ ﷻ فهي تفيد التحقق، والوجوب ﴿تَعْقِلُونَ﴾: عَقّلَ الشيءَ فهمهُ وتدبرهُ، حتى تعلموهُ جيدًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٤٣)

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: هل علمت وهي تعني الوجع والحزن؟ ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿خَرَجُوا مِنْ﴾: حرفُ جرّ يُفيدُ هنا ابتداء الغاية المكانيّة ﴿دِيَارِهِمْ﴾: من بيوتهم ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾: آلافٌ خرجوا ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾: فرارًا من الطاعون، وفيها أقوالٌ متعددةٌ في أمرِ العدد: قيل أكثر من ثلاثين ألفًا، وقالوا ثمانية آلاف، قالوا نأتي أرضًا ليس فيها موت، ووصلوا إلى الأرض ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿قَالَ لَهُمُ اللَّهُ﴾: أمرهم ﴿مُوتُوا﴾: كانوا في زمانِ بني إسرائيل، نزل عليهم ملكان فصاحا بهم؛ فماتوا جميعًا ﴿ثُمَّ﴾: تفيد التتابع الزمني مع التباعد والتراخي ﴿أَحْيَاهُمْ﴾: اجتمعت العظامُ الباليةُ، وأمر اللهُ ﷻ الأرواح أنْ ترجع؛ فرجعت، ووقفوا جميعًا ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ لَ﴾: حرف تمليك وتخصيص ﴿ذُو﴾: صاحبُ الأسماءِ والصفات ﴿فَضْلٍ﴾: خيرٍ وكرمٍ ﴿عَلَى النَّاسِ﴾: نسل آدم ﵇، حيث يُريهمُ الآيات الباهرة، والحُجج القاطعة، والدلالات الدامغة ﴿وَلَكِنَّ﴾: حرفُ عطفٍ واستدراك ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ﴾: عموم البشر ﴿لَا﴾: حرفُ نفي ﴿يَشْكُرُونَ﴾: مع كلِّ هذه النعم فإنّ الغالبية من البشرِ لا تشكر الله ﷻ.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٤٤)

﴿وَ﴾: عطفًا على ذلك يأمر الله ﷻ النّاس ﴿قَاتِلُوا﴾: تشريع القتال من الله ﷻ للمؤمنين، بشرط أنْ يكون ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: للحفاظ على الإسلام؛ ورفعة دعوته؛ وحفظ أرواح المسلمين؛ وأرضهم، وأموالهم ﴿وَاعْلَمُوا﴾: أيقنوا ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد ونفي الشك ﴿اللَّهَ سَمِيعٌ﴾: لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾: بما في قلوبكم، ولقد جاء القتالُ بعد آيةِ الهاربين من الموت؛ لتقول إنّ الحذر لا يُغني من القَدَر، وأنّ الفرار من الجهاد لا يُبعد أجلًا، وأنّ الأجل محتوم، والرزقُ مقسومٌ، قال ﷻ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء-٧٨]، وهنا نتذكر قصة سيدنا خالد ؓ: الذي لم يبقَ في جسدِهِ مكانٌ إلّا فيه أثرُ الجروح، ثم مات على فراشه.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٤٥)

﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل، الإنسان ﴿ذَا﴾: اسمُ إشارةٍ للمفردِ القريبِ مَن هو هذا الذي مِن المسلمين ﴿الَّذِي﴾: اسمٌ موصولٌ للمفرد المذكر؛ يأتي السؤالُ **من ذا** الذي للتخصيص والحثّ على الاتفاق في سبيل الله ﷻ ﴿يُقْرِضُ اللَّهَ﴾: جاء اللفظُ **"يقرض"**؛ ليؤكد أنّ الثواب سيتحقق؛ لأنّ القرض له مقابلٌ بعكس الهبة ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾: احتسابًا عن طيبِ نفسٍ، قيل الإنفاق في سبيل الله ﷻ، وقيل النفقة على العيال، وقيل التسبيح والتقديس ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾: هنا بمعنى محتسبًا؛ أي يُنفقُ بنيّةٍ حسنةٍ ونفسٍ طيبةٍ ﴿فَ﴾: لهذا السبب ﴿يُضَاعِفَهُ﴾: يزيدُ ﴿لَهُ﴾: تحديدًا ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾: ليعود عليه عائدُها أضعافًا كثيرة، قال ﷻ: **مثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّه كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ** [البقرة- ٢٦١]، وفي أسباب نزولها: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَبِّ زِدْ أُمَّتِي»، فَنَزَلَتْ: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً**﴾ [البقرة-٢٤٥]، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَبِّ زِدْ أُمَّتِي»، فَنَزَلَتْ: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر-١٠][1]، ﴿وَ﴾: عطفًا على إقراركم بقدرة الله تعالى يجب اليقين في أنّ ﴿اللَّهُ يَقْبِضُ﴾: يُضيّق الرزق ﴿وَ﴾: أيضًا سبحانه وتعالى ﴿يَبْسُطُ﴾: يُوسّع وينشرُ ويزيدُ في الكسب؛ لحكمةٍ قدّرها ﷻ ﴿وَإِلَيْهِ﴾: كلُّكم يموت وإلى الله ﷻ ﴿تُرْجَعُونَ﴾: تعودون للحساب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ

[1] صحيح ابن حبان ٥٠٥/١٠(٤٦٤٨). ضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد وكذلك الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب.

اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٢٤٦)

القصة تخصُّ بني إسرائيل الذين جاؤوا بعد موسى عليه السلام، حيث كان الأنبياءُ بينهم، فقادوهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، وكانت التوراة بينهم، ولما انحرفوا عن تعاليم الله سبحانه وتعالى؛ سلّط سبحانه وتعالى عليهم أعداءهم؛ فقتلوا منهم الآلاف، واستعبدوهم، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: تُفيدُ دائمًا الوجع والحزن ﴿إِلَى الْمَلَإِ﴾: هم الذين يملؤون النّاس مهابةً، هم وجهاءُ القومِ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعض ﴿بَنِي﴾: أبناءِ وأحفاد ﴿إِسْرَائِيلَ﴾: يعقوب عليه السلام ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ مُوسَى﴾: بعد موته ﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى من الزمن بمعنى حين ﴿قَالُوا لِ﴾: حرف تخصيص ﴿نَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ﴾: كلّف وخصّص ﴿لَنَا﴾: تخصيصًا ﴿مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: يريدون ملكًا، للقتال؛ وعلّلوا ذلك بأنّهُ سيكون لرفعِ دينِ الله سبحانه وتعالى ﴿قَالَ﴾: النبي وهو يشكُ في نياتهم بالقتال حقًّا ﴿هَلْ﴾: حرفُ استفهامٍ يُفيد الاستفسار والتشكيك ﴿عَسَيْتُمْ﴾: فعلٌ يُفيد الترجي ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُتِبَ﴾: فُرض من الله سبحانه وتعالى ﴿عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا﴾: حرف تخصيص بمعنى هل ﴿تُقَاتِلُوا﴾: ستقاتلون في سبيل الله حقًّا؟ ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا﴾: ما يمنعُنا ﴿أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ﴾: حرف **إلّا** مكون من **أن** و **لا** يفيد الاستثناء؛ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿أُخْرِجْنَا﴾: رُحّلنا قسرًا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿دِيَارِنَا وَ﴾: أيضًا فرّقونا عن ﴿أَبْنَائِنَا﴾: بعض الذين طلبوا القتال في سبيل الله سبحانه وتعالى، وتراجعوا فظلموا أنفسهم بنقض عهدهم مع الله سبحانه وتعالى، لقد اعترفوا بمشروعية القتال: استيلاءُ الأعداء على أرضهم، وقتل أولادهم وأنبيائهم ﴿فَلَمَّا﴾: حرفٌ يُفيد التتابع والسبب ﴿كُتِبَ﴾: فُرض ﴿عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾: لمّا فرض اللهُ سبحانه وتعالى عليهم القتال ﴿تَوَلَّوْا﴾: ابتعدوا، وأعرضوا، ولم يوفوا بوعدهم وعهدهم، وأغلبهم تنحى عن القتال، ولم يستعد ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾: إلّا عددًا قليلًا منهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: أحاط علمًا بما في نفوسهم ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿الظَّالِمِينَ﴾: الذين ظلموا غيرهم، وظلموا أنفسهم؛ بأنْ أوردوها النّار.

التكليف: قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ المرادُ النظر للاعتبارِ، والعبرةُ هنا: الحثُّ والتحريضُ على القتالِ.

والغرابة، من وجوه:

أولها: أنّهم خرجوا بإرادتهم واختيارهم، ودون إجبارٍ أو إكراه.

وثانيها: أنّهم خرجوا من ديارهم، والأصلُ أنّ الديار غالية عزيزة لا يغادرها أهلُها بسهولة.

وثالثها: أنّهم خرجوا وهم ألوفٌ فلو كانوا عشرات أو مئات لكان لهم بعض العذر ولكنهم آلاف، بل ألوف، وهي جمعُ كثرةٍ حيثُ غادروا ديارهم وهم بعشرات أو بمئات الألوف. ومهما كان تعدادُ الجيوش الغازية فإنّها تضيعُ في خضم أهلِ الديار فكيف يهربون وهم بهذا العدد الهائل ؟؟

ورابعها: أنّهم يخرجون حذر الموت، فلم يكُنْ خطرُ الموتِ والقتلِ ماثلًا أو واقعًا بهم، ولا حتى متوقعًا، بل هو الحذرُ والاحتياطُ من خطرٍ قد يحلُّ بهم، فما بالهم يغلّبون الاحتمال الضعيف ويتجاهلون الاحتمال القوي؟ وهو النصرُ، وردُّ الغزاةِ خائبين إنْ همْ واجهوهم؟!

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٤٧)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق **﴿قَالَ لَهُمْ﴾**: تخصيصًا **﴿نَبِيُّهُمْ﴾**: كان هذا أمرًا ربّانيًّا إلى النبيّ عليه السلام **﴿إِنَّ﴾**: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار **﴿اللَّهَ قَدْ﴾**: حرفٌ دخلَ هنا على الفعلِ الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق **﴿بَعَثَ﴾**: أرسل **﴿لَكُمْ﴾**: تخصيصًا **﴿طَالُوتَ مَلِكًا﴾**: قيل إنّ طالوت كان نبيًّا، وقيل كان عبدًا صالحًا، حدّد لهم اللهُ سبحانه وتعالى نبيّهم، الملك الذي سيُقاتل، فقد كانت هذه شريعة بني إسرائيل؛ أنْ يكون لهم زعامةٌ دينيةٌ وهم الأنبياء، ولهم زعامةٌ حربيةٌ وهم الملوك، قال لهم نبيُّهم إنّ القائد هو طالوت، الذي ليس من بيت الملوك؛ لأنّ الملك كان في سبط يهوذا، والملك ليس من هذا السبط **﴿قَالُوا أَنَّى﴾**: حرفُ استنكارٍ يُفيدُ الاستبعاد والاستحالة، كيف؟ ومن أين؟ **﴿يَكُونُ لَهُ﴾**: لطالوت **﴿الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾**: كيف يكون علينا ملكًا وهو ليس من سبط الملوك **﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ﴾**: أولى **﴿بِ﴾**: حرف باء الصلة **﴿الْمُلْكِ مِنْهُ﴾**: والحق هنا بمعنى أولى، نحن أولى بالملك؛ لأنّنا من سبط يهوذا **﴿وَلَمْ﴾**: حرف نفي **﴿يُؤْتَ﴾**: يُعطى ويُمنح **﴿سَعَةً﴾**: كثيرًا **﴿مِنَ﴾**: جزء أو بعض **﴿الْمَالِ﴾**: وهو أيضًا لا يملك مالًا؛ ليقوم باحتياجات المُلك، قالوا إنّه كان سقّاءً، وقيل إنّهُ كان دبّاغًا، وكان الأولى بهم أن يطيعوا **﴿قَالَ﴾**: نبيُّهم: **﴿إِنَّ﴾**: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار **﴿اللَّهَ اصْطَفَاهُ﴾**: إنّ الله سبحانه وتعالى اختاره **﴿عَلَيْكُمْ﴾**: لكم، من بينكم، وهو سبحانه وتعالى أعلم به منكم **﴿وَ﴾**: أيضًا **﴿زَادَهُ بَسْطَةً﴾**: سعةً وامتدادًا **﴿فِي الْعِلْمِ﴾**: المقصود هنا العلم الشرعي على وجه التفضيل، جاء تقديم العلم هنا على الجسم إشارةً إلى أنّ إمامة الجاهل وقيادته لا خير فيها أيضًا زيادةً في القوة **﴿وَالْجِسْمِ﴾**: جاء التفضيل للعلم على الجسم؛ لأنّ قيادة الجاهل لا خير فيها؛ أي أنّ القوي أعلم منكم، وأقوى بدنيًا منكم، وأشدُّ قوة وبأسًا، وأكثرُ

صبرًا في الحرب، وأعرفُ بها ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي﴾: عطفاً على كلّ ما سبق؛ فإنّ الله تعالى يمنح ويهب ﴿مُلْكَهُ﴾: مما يملك ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَشَاءُ﴾: هذا قرارٌ وحكمٌ ربّانيٌّ، فهو ﷻ لا يُسأل عمّا يفعل، وهم يُسألون ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾: كثيرُ الفضل والرحمة، يختص بها من يشاء ﴿عَلِيمٌ﴾: صاحبُ العلم التام، بمن يستحق الملك، ومن لا يستحقه.

التكليف: تحددُ الآيةُ هنا مواصفات القائد العسكري: العلم، والقوة البدنية، والصبر.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٤٨)

﴿وَقَالَ لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿نَبِيُّهُمْ﴾: وضّح لهم نبيُّهم بعض آيات المُلك ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿آيَةَ﴾: دليلًا، وبرهانًا وهو بيانُ الحُجّة على صدق ﴿مُلْكِهِ﴾: إنّ من بركة الملك طالوت عليكم ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يَأْتِيَكُمُ﴾: أنْ يردُّ اللهُ ﷻ عليكم ﴿التَّابُوتُ﴾: صندوق التوراة، الذي أُخذ منكم ﴿فِيهِ﴾: في التابوت ﴿سَكِينَةٌ مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد بداية الغاية ﴿رَبِّكُمْ﴾: حرف يفيد في الأصل التربية، وهو ﷻ المنشئُ للشيء من حالٍ إلى حالٍ، وهو المربي إلى حدّ التمام، جاء السبب ليحقق به طمأنينةً لقلوبكم، ووقار، وجلالًا ورحمة، وما تعرفون من آيات الله ﷻ ﴿وَ﴾: أيضًا فيه ﴿بَقِيَّةٌ﴾: ما تبقى ﴿مِمَّا﴾: بعض أو جزء ﴿تَرَكَ آلُ مُوسَى وَ﴾: أيضًا ترك ﴿آلُ هَارُونَ﴾: وفيه العصا، ورضاض الألواح، وقيل عصا هارون أيضًا، وثيابُ موسى عليه السلام، وثياب هارون، وقيل النعلان ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾: جاءت الملائكةُ تحمل التابوت بين السماء والأرض، حتى وضعته بين يدي طالوت والنّاس ينظرون. أصبحوا فوجدوا التابوت في دار طالوت، دون ظهوره في السماء ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿فِي ذَلِكَ﴾: هذا الذي حدث وجاء ذكره فيما سبق وأخبر الله ﷻ عنه ﴿لَ﴾: حرفُ علّةٍ وسببٍ ﴿آيَةً﴾: بُرهانًا، وهو بيانُ الحُجّةِ بصدقِ ﴿لَكُمْ﴾: تحديدًا ما جاءكم من النبوة، وتأكيدًا على أمر الله ﷻ بطاعة طالوت ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: إذا كنتم تصدّقون بالله ﷻ وباليوم الآخر.

التكليف: قوله ﷻ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ليُعْلَمَ أنّ منْ يواصلُ الطريق هم أهلُ الإيمان.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢٤٩)

أسباب النزول: جهّز طالوتُ جيشًا ممن أطاعوه؛ بلغ ثمانين ألفًا؛ والله أعلم ﴿فَلَمَّا﴾: حرفٌ يفيد التتابع والسبب ﴿فَصَلَ﴾: خرج ﴿طَالُوتُ بِـ﴾: حرفٌ "ب" يُفيدُ الصلة ﴿الْجُنُودِ﴾: عن بيت المقدس ﴿قَالَ إِنَّ﴾: بالتأكيد ﴿اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾: قال طالوت إنّ الله ﷻ مُختبركم، وهو أعلمُ بكم ﴿بِنَهَرٍ﴾: قيل نهر الأردن الذي يمتد بين فلسطين غربًا والأردن شرقًا ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ﴾: من ماء النّهر ﴿فَـ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ يفيد النفي ﴿مِنِّي﴾: من شرب من النّهر لا يسيرُ معي في مهمتي القادمة ﴿وَ﴾: حرفٌ يفيد هنا الاستئناف ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَطْعَمْهُ﴾: يذقهُ ﴿فَإِنَّهُ﴾: هو بالتأكيد ﴿مِنِّي﴾: لا بأس عليه هو معي؛ جاء لفظ الطعام في القرآن الكريم على أربعة وجوهٍ، في هذه الآية بمعنى شربوا، وجاءت بمعنى ما يأكلهُ النّاس في قوله ﷻ ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش–٤]، وفي قوله ﷻ ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام–١٤]، وفي قوله أيضًا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب–٥٣]، وجاءت بمعنى الذبائح في قوله ﷻ ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة–٥]، وبمعنى مليح السمك في قوله ﷻ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة–٩٦] ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ ﴿مَنِ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿اغْتَرَفَ﴾: أخذ منه قليلًا ﴿غُرْفَةً بِـ﴾: باء الاستعانة ﴿يَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا﴾: تفيد هنا الاستثناء والحصر ﴿قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ شُرْب كميّةٍ قليلةٍ بحجم ما تسع اليد، والنتيجة: من شرب منه لم يرتو؛ لأنه خالف أمر الله تعالى، ومن اغترف غرفة بيده فقد ارتوى، قال السدي شرب منه ستةٌ وسبعون ألفًا، وبقي أربعةُ آلاف مؤمنٍ ﴿فَلَمَّا﴾: حرفٌ يُفيدُ التتابع والسبب ﴿جَاوَزَهُ﴾: عبروا النّهر ﴿هُوَ﴾: وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر، وهنا هو طالوت ﴿وَ﴾: أيضًا جاوز

﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿آمَنُوا مَعَهُ﴾: ومن معهُ من المؤمنين ﴿قَالُوا لَا﴾: حرف نفي ﴿طَاقَةَ﴾: قدرةً ولا قوةً ﴿لَنَا﴾: تحديدًا ﴿الْيَوْمَ بِ﴾: حرف باء التعددية ﴿جَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾: استقلّوا عدد أنفسهم عند لقاء عدوهم ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾: المتيقنون ﴿أَنَّهُمْ﴾: بالتأكيد ﴿مُلَاقُوا اللَّهِ﴾: الذين يؤمنون بالله ﷻ، ووعده في الدنيا، ولقائه يوم القيامة ﴿كَمْ﴾: تفيد الكثرة ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا جزءاً أو بعضاً ﴿فِئَةٍ﴾: مجموعةٍ متجانسةٍ ﴿قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ﴾: انتصرت على ﴿فِئَةً كَثِيرَةً﴾: قيل كان عددُهم (٣١٣) مؤمنًا، وهو أيضًا عدد الذين كانوا مع محمد ﷺ يوم بدر، هناك أمثلةٌ عديدةٌ من القلّةِ؛ التي غلبت أعدادًا كبيرةً، إنّ النصر من عند الله ﷻ، ليس بكثرةِ العددِ، ولا بكثرةِ السلاحِ، بل بإرادة الله ﷻ ﴿بِإِذْنِ﴾: بإرادة وأمر ﴿اللَّهِ وَ﴾: وعطفًا على ما سبق ﴿اللَّهُ مَعَ﴾: مؤيد وناصر وحافظ ﴿الصَّابِرِينَ﴾: المنتظرين بهدوءِ واطمئنان.

التكليف: مع الإيمان يكون الابتلاء والاختبار والتمحيص؛ لاختبار صدق الإيمان وصبر المؤمنين، فهذه الفئة القليلة، التي احتملت العطش، وقاومت الرغبة الشديدة في الارتواء هي التي تستحق النصر والتمكين.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٥٠)

﴿وَلَمَّا﴾: حين ﴿بَرَزُوا﴾: ظهروا وانكشفوا، وتحدد القتال، وتقابل الجمعان، وأصبح القتالُ وشيكًا ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿جَالُوتَ وَ﴾: أيضًا برزوا لـ ﴿جُنُودِهِ﴾: كان عددُ أتباعِ طالوت قليلًا، وأعدادُ أعدائهم كثيرًا؛ فلجئوا إلى الله ﷻ، دعوا الله ﴿قَالُوا رَبَّنَا﴾: أيّها المُعبود، والمُربي، المنشئُ للكون من وما فيه من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام والخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ ﴿أَفْرِغْ﴾: أي لا تبقي منه شيئًا، كنايةً عن كبر، وكثرة الصبر، أي اربط على القلوب وأنزل ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾: فهذا سلاحٌ من أدوات النصر ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿ثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾: كنايةً عن الشجاعةِ والثباتِ في مواجهة الأعداء، حتى لا تزل الأقدامُ من الخوف في مواجهةِ العدو، أو تهرب ﴿وَانْصُرْنَا﴾: عطفًا على إيماننا؛ اجعلنا ننتصر ﴿عَلَى الْقَوْمِ﴾: الجماعة ﴿الْكَافِرِينَ﴾: غير المؤمنين.

التكليف: الصبرُ والثباتُ في هذه الآيةُ الكريمةُ من الأدوات المُهمةِ للنصر؛ إنّ الدعاء سلاح بتّارٌ، والدعاء عند اللقاء تتجلى فيه حقيقة العبودية لله ﷻ، والافتقار إليه، والاعتماد عليه ﷻ

في تحقيق النصر، فلا العدد والعدة ولا الأسباب هي التي تجلب النصر وحدها، فهذه الفئة مؤمنة تحمل قضية عادلة، وتعيش لها وتضحي في سبيلها، إنّها قضيةُ الحقِ والعدلِ، ومقاومةِ الفساد.

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢٥١)

﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب والتتابع السريع **﴿هَزَمُوهُمْ﴾**: هزم أتباعُ طالوت أعداءهم، غلبوهم، وقهروهم **﴿بِإِذْنِ اللَّهِ وَ﴾**: عطفًا على هذا النصر **﴿قَتَلَ دَاوُودُ﴾**: القائد المؤمن **﴿جَالُوتَ﴾**: القائد الكافر، كان طالوت قد وعد داوود إنْ قتل جالوت؛ فسوف يزوجهُ ابنته، ويُشاركهُ في الحكم **﴿وَآتَاهُ﴾**: منحهُ ووهبهُ **﴿اللَّهُ الْمُلْكَ﴾**: ثم تولى داوود المُلك منحةً من الله ﷻ بعد النبوة العظيمة **﴿وَ﴾**: أيضًا منحهُ ﷻ **﴿الْحِكْمَةَ﴾**: جاء اللفظ القرآني "**الحكمة**" على عدّة وجوه؛ جاء معناها هنا النبوة، وكذلك في قوله ﷻ **﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾** [ص-٢٠]، وجاءت بمعنى الفهم والعلم في قوله ﷻ **﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾** [الأنبياء-٧٩]، وفي قوله أيضًا **﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾** [مريم-١٢]، وفي قوله ﷻ **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾** [لقمان-١٢]، وجاءت بمعنى تفسير القرآن في قوله ﷻ **﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾** [البقرة-٢٦٩]، وجاءت بمعنى القرآن في قوله ﷻ **﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾** [النحل-١٢٥] **﴿وَ﴾**: أيضًا **﴿عَلَّمَهُ مِمَّا﴾**: حرفٌ يُفيد بعضًا أو جزءًا من كلٍّ **﴿يَشَاءُ﴾**: إنّه علم الله ﷻ الخاص بالأنبياء عليهم السلام **﴿وَلَوْلَا﴾**: حرف تخصيص، أي دونَ **﴿دَفْعُ اللَّهِ﴾**: تدافع وقتال **﴿النَّاسَ﴾**: عموم بني آدم **﴿بَعْضَهُمْ﴾**: جزء منهم **﴿بِ﴾**: حرفُ باء التعددية **﴿بَعْضٍ﴾**: بجزءِ آخر وتدافع الحقّ ضدّ الباطل **﴿لَ﴾**: حرف علّةٍ وسببٍ **﴿فَسَدَتِ﴾**: تغيرت معايرُها وأهدافُها إلى العكس **﴿الْأَرْضُ﴾**: كنايةً عن فسادِ سكّانها، كان في المثل السابق دفعُ الله ﷻ ضد قوم طالوت، وبفضل الله ﷻ كانت شجاعةُ داوود، ولولا هذا لهلكوا، **﴿وَلَكِنَّ﴾**: حرف عطف واستبدال **﴿اللَّهَ ذُو﴾**: صاحبُ الوصف بالأسماء والصفات **﴿فَضْلٍ﴾**: كرمٍ، ورزقٍ، وحفظٍ، ورحمةٍ **﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**: يُمنُّ الله ﷻ ويرحم، ويدفع بأس بعضهم عن بعض، وله الحكمُ، والحكمةُ في جميعِ أفعالهِ، وأقواله ﷻ.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٥٢)

﴿تِلْكَ﴾: إشارةً للبعيد المؤنث ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾: الدلائلُ والبراهينُ الربّانية ﴿نَتْلُوهَا﴾: نذكرها ﴿عَلَيْكَ﴾: لك يا محمد ﷺ في الكتاب والسُنّة ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿الْحَقِّ﴾: بالوقائع المشابهة لك كما كانت في عهود أهل الكتاب، بالحقّ الذي يعلمهُ أهل الكتاب، وهم بنو إسرائيل ﴿وَإِنَّكَ﴾: حرف تأكيد وشهادة من الله ﷻ، والمقصود محمد ﷺ ﴿لَ﴾: حرف تخصيص وتمليك ﴿مِنَ﴾: بعض ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾: أنّه رسولُ اللهِ ﷻ، ونبيهُ؛ لعلّ بني إسرائيل يؤمنون برسالته.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (٢٥٣)

﴿تِلْكَ﴾: اسم إشارة للبعيد ﴿الرُّسُلُ﴾: هؤلاء الرسل ﴿فَضَّلْنَا﴾: مايزنا، جاءت بصيغة الجمع؛ للتكريم ﴿بَعْضَهُمْ﴾: جزء وليس الجميع ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾: وهذا من الحقائق، أنّ الله ﷻ مايز بعض النبيين على بعض، جاء في المعنى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء-٥٥]، كان التفضيل في الوحي وفي طبيعة الاتباع، وفي الدرجات، فضَّل الله موسى، ومحمدًا ﷺ، وفضَّل آدم كما جاء في حديث الرسول في الإسراء، حيث رأى ﷺ الأنبياء في السموات بحسب تفاوت منازلهم قال ﷺ: «لاَ تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ الناس يصعقون يوم القِيَامَةِ، فَأَكُون أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُا لأَرْضُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذ بِقَائِمَةٍ مِن قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، أَمْ حُوسِب بِصَعْقَةِ الأُولَى»[1]، وقد كان هذا قبل أنْ يعلم الرسول ﷺ التفضيل في هذه الآية، وقد يكون جاء هذا من باب التواضع، وربّما عدم التفضيل في حال التنازع والتخاصم، وربمّا عدم التفضيل من باب العصبية واختلاف الآراء، ولأنّه ليس من مهام البشر التفضيل بين الأنبياء، وإنّما هو شأنُ اللهِ عزّ وجلّ ﴿مِنْهُمْ﴾: الذين من بني آدم ﴿مَنْ﴾: الذي ﴿كَلَّمَ﴾: كلّمهُ ﴿اللَّهُ﴾ ﷻ ﴿وَ﴾: أيضًا منهم الذي ﴿رَفَعَ﴾: أعلى اللهُ تعالى شأن ﴿بَعْضَهُمْ﴾: عددٌ منهم ﴿دَرَجَاتٍ﴾: منازل ومكانة ﴿وَآتَيْنَا﴾: وهب الله ﷻ بصيغة الجمع للتعظيم ﴿عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾: الحُججَ والدلائلَ القاطعةَ، على صحّةِ ما جاء من رسلٍ إلى بني إسرائيل، غيرهم، وعن آخر الأنبياء محمد ﷺ ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾: عززنا قوته ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: وهو جبريل ﵇ ﴿وَلَو﴾: حرفٌ يُفيد الاستفهام والنفي ﴿شَاءَ﴾: أراد ﴿اللَّهُ مَا﴾: حرف نفي

---

[1] صحيح البخاري /٣/١٢١(٢٤١٢).

﴿اقْتَتَل﴾: أي ما تنازعوا، ولا اختلف الذين جاؤوا من بعدهم ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع الذين ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِهِمْ مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد ابتداء الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ مَا﴾: حرف مصدر ﴿جَاءَتْهُمُ﴾: وصلتهم ﴿الْبَيِّنَاتُ﴾: البراهينُ الواضحةُ القاطعةُ الدلالة ﴿وَلَكِنَّ﴾: حرف استدراك ﴿اخْتَلَفُوا﴾: تفرقت وتناقضت في كل شيء ﴿فَمِنْهُمْ﴾: بعضهم ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿آمَنَ﴾: صدّق بالله ﷻ وملائكته وكتبه ورسله ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾: أنكرَ وجحدَ ورفضَ وأخفى ﴿وَلَوْ﴾: حرف يفيد الامتناع والاستحالة ﴿شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ﴾: حرفُ عطفٍ واستدراكٍ ﴿اللَّهَ يَفْعَلُ﴾: يُنفذُ ويحقق ﴿مَا﴾: الذي ﴿يُرِيدُ﴾: كلّ هذا الاختلاف، والاقتتال هو بإرادة الله ﷻ، وفعله، وقضائهِ، وقدرهِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٥٤)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿آمَنُوا﴾: إيمانًا صادقًا ﴿أَنْفِقُوا﴾: هي دعوةٌ لبذلِ المالِ في سبيلِ اللهِ ﷻ؛ لرفاهيةِ المجتمع، ووحدته، ونيلِ ثواب ذلك في الآخرة ﴿مِمَّا﴾: جزء أو بعض ﴿رَزَقْنَاكُمْ﴾: جاءت بصيغة الجمع؛ لتفيد الكثرة من الأموال الحلال، والثمرات، وغيرها ﴿مِنْ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِ أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾: قبل يوم القيامة، حيث لا مالَ ينفعُ صاحبه ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿بَيْعٌ﴾: هو إعطاء الشيء المُثمن وأخذ الثمن ﴿فِيهِ﴾: لا بيع في يوم القيامة، ولا شراء، ولا كسب ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿خُلَّةٌ﴾: مودّة، ولا صاحب ولا خليل، ولا شفيع، ولا صديق، ولا نسيب، ولا فداء للنفس حتى بملء الأرض ذهبًا ﴿وَلَا﴾: أيضاً لا توجد له عند رسله ﴿شَفَاعَةٌ﴾: لا تُقبلُ وساطةُ أحدٍ من الشافعين ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿الْكَافِرُونَ﴾: الذين غطّوا عناصر الإيمان وأنكروها ﴿هُمُ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع الغائب المذكر والمؤنث ﴿الظَّالِمُونَ﴾: الظالمُ هو المبالغُ في كفره، يوم يأتي هذا الظالمُ إلى اللهِ ﷻ كافرًا، وهذا تخصيصٌ بدلًا من القول والظالمون هم الكافرون؛ لأنّه ما من أحدٍ إلّا وقد يظلم؛ فيخرج عندها إلى ملّةِ الكفر، وهذا من فضلِ اللهِ ﷻ بعباده.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢٥٥)

فضل آية الكرسي: عن أُبيّ بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: أبَا المنذر أيّ آيةٍ معك من كتابِ الله أعظم؟ قال: قلت الله ورسوله اعلم. قال: ابو المنذر: هذه آية الكرسي، التي لها شأنٌ عظيم، قال عنها الرسول ﷺ: بأنّها أفضلُ آيةٍ في كتاب الله، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَبَاحٍ، عَنْ أُبَيٍّ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَهُ: أَيُّ آيَة فِي كِتَابِ اللهِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَرَدَّدَهَا مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ أُبَيٌّ: آيَةُ الْكُرْسِيِّ، قَالَ: لِيَهْنِ لك الْعِلْمُ، قال عَبْدُ أَبَا الْمُنْذِرِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنّ لَهَا لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تُقَدِّسُ الْمَلِكَ عِنْدَ سَاقِ الْعَرْشِ[١] للمراجعة اللَّهِ بن مسعود ﷺ: إِنَّ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ... ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ[٢]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺبِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَذَكَرَ الحَدِيثَ، فَقَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ، لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ذَاكَ شَيْطَانٌ»[٣]، وعَنْ أُبَيٍّ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَهُ: أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَرَدَّدَهَا مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ أُبَيٌّ: آيَةُ الْكُرْسِيِّ، قَالَ: لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ لَهَا لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تُقَدِّسُ الْمَلِكَ عِنْدَ سَاقِ الْعَرْشِ[٤]، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ قَرَأَ إِذَا زُلْزِلَتْ عُدِلَتْ لَهُ بِنِصْفِ القرآنِ، وَمَنْ قَرَأَ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ عُدِلَتْ لَهُ بِرُبُعِ القرآنِ، وَمَنْ قَرَأَ قُلْ هُو اللَّهُ أَحَدٌ عُدِلَتْ لَهُ بِثُلُثِ القرآنِ[٥]. وعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ الْبَقَرَةُ سَنَامُ القرآنِ وَذُرْوَتُهُ نَزَلَ مَعَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ثَمَانُونَ مَلَكًا وَاسْتُخْرِجَتْ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ فَوُصِلَتْ بِهَا أَوْ فَوُصِلَتْ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ[٦].

﴿اللَّهُ لَا﴾: حرف نفي ﴿إِلَهَ﴾: معبود يستحق العبادة ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿هُوَ﴾: هو في اللغة ضمير رفع للمفرد؛ هو هنا اللهُ ﷻ، المتفرد بالألوهية لجميع الخلق ﴿الْحَيُّ﴾: الذي

---

[١] مسند أحمد /٣٥/٢٠٠(٢١٢٧٨). وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح على شرط مسلم.

[٢] التفسير من سنن سعيد بن منصور – محققا (٣/ ٩٥٣).

[٣] صحيح البخاري (٤/ ١٢٣).

[٤] مسند أحمد ط الرسالة (٣٥/ ٢٠٠) إسناده صحيح على شرط مسلم.

[٥] رواه الترمذي في سننه – كتاب فضائل القرآن ح٨ ٢٨١.

[٦] رواه الإمام احمد في مسنده – مسند البصريين ح ١٩٤١٥.

لا يموت ﴿الْقَيُّومُ﴾: الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظهم، كان يقرؤها عمر ﷺ: القيّام، وتعني الذي تفتقر إليه جميع المخلوقات، وهو غنيّ عنها، وتعني: لا قوام للمخلوقات دونَ أمره، وفي السياق جاء: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم-٢٥]، جاءت في ثلاث سور: الأولى البقرة: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ﴾: الذي لا يموت والثانية: آل عمران: ﴿الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، والثالثة: سورة طه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾، ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تَأْخُذُهُ﴾: الأخذُ هو حوزُ الشيء، وتحصيلهُ بالقهر، أي لا يعتريهُ نقصٌ، ولا غفلةٌ، ولا ذهولٌ عن خلقه. قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبت، شهيدٌ على كلِّ شيءٍ، لا يخفى عليه شيءٌ ﴿سِنَةٌ﴾: هي الوسن والنُعاس ﴿وَلَا﴾: أيضًا لا يأخذه ﴿نَوْمٌ﴾: والنوم حالةٌ أقوى من السِنَة ﴿لَهُ﴾: يملك ﷻ ﴿مَا﴾: كلَّ الذي ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض وأحاط بها ﴿وَمَا﴾: أيضًا له كل الذي من جنس غير العاقل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: هذا إخبارٌ من اللهِ ﷻ بأنّ الجميع عبيده، وهم من ملكِهِ، وتحت قهرِهِ وسلطانهِ ﴿مَنْ﴾: سؤال عن ﴿ذَا﴾: اسمُ إشارةٍ للمفرد المذكر القريب هذا ﴿الَّذِي﴾: اسمٌ موصولٌ بالفرد المذكر ﴿يَشْفَعُ﴾: من هذا الذي لهُ حقُّ الشفاعةِ ﴿عِنْدَهُ﴾: عند الله ﷻ، يطلب الشفاعة لعباد الله ﷻ، والعفو أو المغفرة أو الجنّة ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع، تعني لا أحد ﴿بِ﴾: حرف باء الاستعانة ﴿إِذْنِهِ﴾: لا يتجرأ أحدٌ على طلب الشفاعة إلّا بإذن الله ﷻ ﴿يَعْلَمُ﴾: علم الواجد من غير سابق وجود ﴿مَا﴾: الذي ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: المستقبل، إنّ مستقبلهم عنده معلوم ﴿وَمَا﴾: أيضاً الذي ﴿خَلْفَهُمْ﴾: ويعلم ماضيهم ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يُحِيطُونَ﴾: لا يطّلعون ولا يعرفون ﴿بِ﴾: حرف باء الإلصاق ﴿شَيْءٍ﴾: تفيد العموم ﴿مِنْ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعضًا أو جزءًا ﴿عِلْمِهِ إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿بِمَا﴾: اسم موصول، بمعنى الذي ﴿شَاءَ﴾: أراد من علم ذات الله ﷻ وصفاته ولا من علوم الغيب إلّا ما أطلعهم عليه ﷻ ﴿وَسِعَ﴾: أحاطَ بكلِّ شيءٍ ﴿كُرْسِيُّهُ﴾: العلمُ، أو موضع القدمين، هذا قول الرسول ﷺ، وقيل تَحْتَ العَرْشِ[1] ﴿السَّمَاوَاتِ وَ﴾: أيضًا وسع ملكه ﴿الْأَرْضَ﴾: عن أبي ذرٍّ قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيُّ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ أَعْظَمُ قَالَ: آيَةُ الْكُرْسِيِّ ثُمَّ قَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ: مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ[2]، وقال الحسن البصري: الكرسي غير العرش، والعرش أكبر

---

[1] سنن الترمذي /٤/٢٠٢. وقال الإمام أبو عيسى الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. قال الألباني: صحيح، (انظر: المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة (٢/ ٣٨٢).

[2] صحيح ابن حبان /٢/٧٧(٣٦١). وقال الألباني: وجملة القول الحديث بهذه الطرق صحيح (سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها للألباني (١/ ٢٢٦)). وقال الألباني: ولم يصح فيه مرفوعًا سوى قوله ﷺ: ما السماوات السبع في الكرسي إلا

أكبر منه ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يَئُودُهُ﴾: لا يُعجزه، لا يثقل عليه ﴿حِفْظُهُمَا﴾: حفظ السموات السبع، والأرض، وما بينهما على الحالة التي حددها ﷻ ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾: الغنيُ الحميدُ الفعّالُ لما يريد، القاهرُ لكلِ شيءٍ، الحسيبُ الرقيبُ على كلِّ شيءٍ، هو الكبيرُ المتعال، دونَ تشبيهٍ، ولا تكييفٍ.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥٦)

أسباب النزول: عن ابن عباسٍ، قال: كانت المرأةُ تكونُ مِقْلاةً، فتجعلُ على نفسِها إن عاشَ لها ولدٌ أن تُهَوِّدهُ، فلما أُجليتْ بنو النَّضيرِ كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندَع أبناءنا، فأنزل اللهُ عزَّ وجل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة-٢٥٦](1)، وقال كثيرٌ من العلماء إنّها محمولةٌ على أهل الكتاب، ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل إذا دفعوا الجزية، وقال آخرون منسوخةً بآيةِ القتال، ولا بد من دعوة أصحاب الأديان للإسلام، فإنْ رفضوا ولم يدفعوا الجزية؛ قوتلوا حتى يُقتلوا، وهذا معنى الإكراه.

﴿لَا﴾: حرف تحريم ﴿إِكْرَاهَ﴾: لا إجبار لأحدٍ على الدخول ﴿فِي الدِّينِ﴾: في دخول الدين الإسلامي على وجه التحديد؛ لأنّهُ ﴿قَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿تَبَيَّنَ﴾: ظهر واضحًا جليًّا ﴿الرُّشْدُ﴾: الإيمانُ والهدى، براهينهُ واضحة، إنّ المشكلة في الإنسان، فمن هداه اللهُ ﷻ للإسلام وشرح صدرَهُ، دخل بقناعةٍ وبيّنه، ومن أعمى اللهُ ﷻ قلبه، وختم على سمعه وبصره، فلا ينفعه دخوله في الدين مُكرهًا ﴿مِنَ﴾: يفيد بداية الغاية، بعض ﴿الْغَيِّ﴾: الضلال والكفر ﴿فَمَنْ﴾: اسم استفهام من جنس العاقل الذي ﴿يَكْفُرْ﴾: يُنكر، ويرفض طاعة ﴿بِ﴾: حرف باء المصاحبة ﴿الطَّاغُوتِ﴾: هو كلّ من يُعبد من دون الله ﷻ من صنمٍ أو شيطانٍ أو أصحاب فكرٍ منحرف، وقد جاء لفظ الطاغوت في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه: الأول: هو الشيطان، الذي يشملُ كلَّ شرٍ كان عليه أهلُ الجاهلية، هذا قولُ عمر بن الخطاب ﷺ، وقال أيضًا: إنّ الجبت هو السحر ﴿وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿اسْتَمْسَكَ﴾: ظفر، طلب أنْ يمسك فأمسك ﴿بِ﴾: حرف باء المصاحبة ﴿الْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾: العقيدةِ الصحيحةِ الحق، السبب القوى: أي العروة التي لا تنفصم في نفسها، المُحكمة، المُبرمة، القوية، هي الربطة القوية الشديدة ﴿لَا﴾: حرف نفي

كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة. وذلك مما يبطل أيضا تأويل الكرسي بالعلم. ولم يصح هذا التأويل عن ابن عباس كما بينته في الصحيحة (١٠٣) (تعليق على الطحاوية (ص:٥٤).

(1) سنن أبي داود ت الأرنؤوط (٤/ ٣١٧).

﴿انْفِصَامَ لَهَا﴾: التي لا تنقطع، وفيها أقوالٌ كلُّها صحيحة: الإيمان، الإسلام، لا إله إلّا الله، القرآن، الحبّ في الله والبغضِ في الله ﷻ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾: يسمعُ ما يجرى في الكون كلّه ﴿عَلِيمٌ﴾: يعلمُ ما يجري فيهِ.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥٧)

﴿اللَّهُ وَلِيُّ﴾: هو ﷻ الحبيبُ، النصيرُ، المؤيدُ، المعزُ، الرافعُ ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: جميع المؤمنين ﴿يُخْرِجُهُمْ﴾: يأخذهم وينقلهم ﴿مِنَ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿الظُّلُمَاتِ﴾: جاء الظلمات بصيغة الجمع؛ يخرجهم بصيغة الجمع الذي يضم كلَّ المؤمنين، بالتفخيم والتعظيم ﴿إِلَى النُّورِ﴾: ووحّد ﷻ لفظ "**النور**" بمعنى الحق الذي هو واحد، بينما الكفر أجناس كثيرة ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنعام-١٢٢]، ذكرهُ اللهُ ﷻ بالمفرد؛ لأنّه نور الحق الواضح، الجلّي، المبين، السهل المنير، فالإيمانُ واحدٌ، والكفرُ أجناسٌ كثيرةٌ، وقد تكرر ذكر تفرد الإيمان وتعدد الكفر، مثل: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ [الأنعام-١٥٣] ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ويفيد هنا الحال ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أنكروا وجود الله ﷻ، وملائكتهِ، وكتبهِ، ورسلهِ، والقيامةِ، كلُّ أصحاب الكفرِ، والشكِّ، وكلُّ أجناسِ الشرك، كثيرةٌ ومُتعددةٌ ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ﴾: أنصارُهم، وأعوانُهم، وأحبابهم ﴿الطَّاغُوتُ﴾: هم الأوثان، والأصنام، وما عُبد من دون الله ﷻ ﴿يُخْرِجُونَهُمْ﴾: يأخذونهم وينقلونهم ﴿مِنَ﴾: حرفٌ يُفيدُ بداية الغاية المكانيّة ﴿النُّورِ﴾: يأخذونهم من الإسلام ومن الإيمان ﴿إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾: إلى كلِّ أشكال الكفر ﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للقريب والبعيد ﴿أَصْحَابُ﴾: هم الملازمون الدائمون في ﴿النَّارِ﴾: في جهنّم ﴿هُمْ﴾: حرف تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب ﴿فِيهَا﴾: في جهنّم ﴿خَالِدُونَ﴾: مُقيمون فيها أبدًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥٨)

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: دائمًا تفيد الوجع والحزن، ألم تعلم بقلبك يا محمد ﷺ وتتيقن من قول الله ﷻ فيهم، اثنان ملكا الدنيا، واثنان كافران ﴿إِلَى الَّذِي﴾: اسمُ موصولٌ بالفردِ المذكر؛ والمقصود هنا نمرود

بن كنعان، ملك بابل الذي ملك مشارق الدّنيا ومغاربها، وهو واحدٌ من أربعة، اثنان مؤمنان هما سليمان بن داوود، وذو القرنين، واثنان كافران هما النمرود بن كنعان، وبختنصر ﴿حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ﴾: هذه قصةُ الذي حاجّ إبراهيم ﷺ، في وجود الله ﷻ ﴿فِي رَبِّهِ﴾: هو سبحانه المُعبود، والمُربي، والمالك، والعاطي، وكثيرِ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرِ لكسر البرايا، والثابت، والقريبِ، والجامع، والمصلح، والسيّد ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل بمعنى إنّما ﴿آتَاهُ﴾: وهبه ﴿اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ هذا هو النمرود الذي مكث في المُلكِ أربعمائة سنة، مارسَ فيها كلّ صُنوف الظُلم، والطغيان، والجبروت ﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى من الزمن يفيد هنا للتوكيد ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي﴾: اسم موصول بالفرد ﴿يُحْيِي﴾: يهبُ الحياة لمن شاء ﴿وَيُمِيتُ﴾: ويكتب الموتَ على من شاء. طلب النمرودُ من إبراهيم ﷺ, أنْ يُقدّم دليلًا على وجود الله ﷻ، فقال إبراهيم: ربّي الذي يحيي ويميت، وكلّها أدلّةٌ شاهدةٌ؛ نشأت من العدم، وفنيت بعد نشأتها ووجودها، هذا دليلٌ على فاعلٍ لأنّها لا تفعل ذلك من نفسها، قال النمرود عندها: ﴿قَالَ﴾: النمرود ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾: قال النمرود: أنا آتي برجلين استحقا الموت، فآمرُ بقتلِ أحدهما فيُقتل وآمرُ بالثاني فلا يُقتل ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ﴾: حرفُ جرٍّ يفيد ابتداء الغاية المكانية، هنا ﴿الْمَشْرِقِ فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب، والتتابع السريع ﴿أْتِ بِهَا﴾: اجعلها تأتي ﴿مِنَ الْمَغْرِبِ﴾: كانت حُجّةُ إبراهيم ﷺ، إنّ الله ﷻ الذي يتصرف في الكون، ويتصرف في حركة الشمس والوجود كلّه، فإنْ كنت أيّها النمرود إلهًا فسخّر الكواكب لما تشاء، فأتِ بالشمس من المغرب ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾: سكت عن الكلام والمحاجاة، أُخرس فلم يتكلم؛ فقد قامت عليه الحُجّة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي﴾: إنّ الله ﷻ لا يُرشد ولا يُلهم ﴿الْقَوْمَ﴾: الجماعةَ أصحابَ مذهبٍ واحدٍ أو الذين من أصلٍ واحدٍ ﴿الظَّالِمِينَ﴾: الكفّار بالحجة والبرهان، وهو بيان الحُجّة، فإنّ حججهم باطلة، مهزومة.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٥٩)

جاء ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: في الآية السابقة إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربّه، فجاءت الآيةُ بعدها ﴿أَوْ﴾: حرفُ عطفٍ يُفيد هنا التقسيم والتسوية ﴿كَ﴾: حرف الكاف بمعنى مثل ﴿الَّذِي﴾: اسمٌ موصول يفيد المفرد المذكّر ﴿مَرَّ﴾: جاءت في مثل قوة الذي حاج إبراهيم ﷺ، فمن هو الذي مرّ ؟ قال

الحسن، وقتادة: هو عزيرٌ، واسمه هزقيل بن بوار، وقال مجاهد: هو رجلٌ من بني إسرائيل وصل ﴿عَلَى قَرْيَةٍ﴾: لم يأت اسم القرية لعدم جدوى ذلك، وتسمية القرية جاءت لاجتماع الناس فيها وأصلها قَرِيتُ الماء، أي جمعته، والمقصود هنا بيت المقدس ﴿وَ﴾: حرفٌ يفيد هنا الحال ﴿هِيَ خَاوِيَةٌ﴾: خربةٌ، خرّبها الطاغية بختنصر، وأُعيد بناؤها بعد سبعين سنة بعد أنْ قتل أهلها، فهي خاليةً من السكان ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾: سقطت السقوف والجدران على الأرض، فقال ﴿قَالَ أَنَّى﴾: كيف ومتى ﴿يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: متى سيُعَمّرُ اللهُ ﷻ هذا الخراب الكبير ﴿فَ﴾: حرف يفيد السبب والتتابع السريع؛ فكان أنْ ﴿أَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾: فعمرت البلد بعد موته سبعين سنة، وتكامل سكانها، ورجع بنو إسرائيل إليها ﴿ثُمَّ﴾: تفيد التتابع مع التراخي الزمني، أي ليس فورًا ﴿بَعَثَهُ﴾: لما أماته الله ﷻ ثم أحياه كانت عيناه أول ما عملت؛ لينظر ويشاهد بها صنع الله ﷻ فيه، كيف أحيا الله بدنه، فلما وقف أرسل الله ﷻ له ملكًا ﴿قَالَ﴾: له ﴿كَمْ﴾: ما هو عدد ما ﴿لَبِثْتَ﴾: ما هي المُدةُ الزمنيّة التي مكثت؟ قال عزيرٌ: ﴿قَالَ لَبِثْتُ﴾: مكثت ﴿يَوْمًا أَوْ﴾: حرف يفيد التسوية بين متعاطفين ﴿بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ لأنّه مات أول النّهار، ثم بعثه اللهُ تعالى آخر النّهار، فلّما رأى الشمس ظنّ أنّها شمس ذلك اليوم، أي أنّه اعتقد أنّه نام جزءًا من اليوم ﴿قَالَ﴾: الملكُ الكريم ﴿بَلْ﴾: حرف ينفي ما قبله؛ ويؤكد ما بعده ﴿لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَ﴾: حرفٌ يفيد التتابع السريع ﴿انْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾: كان مع عزير عنبٌ وتينٌ وعصير، فوجده كما كان لم يتغير منه شيء، لا حمض، ولا أنتن ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَتَسَنَّهْ﴾: أي لم يتغير الطعام، لا في الشكلِ ولا في الطبيعة، ولا في الكمّ ﴿وَانْظُرْ﴾: أيضًا تأمل ودقق ﴿إِلَى حِمَارِكَ﴾: فقد أخذ ينظر إلى حماره، والله ﷻ يُحييهُ ويلُمُّ عظامَهُ ولحمَهُ ﴿وَلِ﴾: حرفُ سبب وعلّة ﴿نَجْعَلَكَ آيَةً﴾: دليلًا وبُرهانًا وهو بيان الحُجّة ﴿لِ﴾: تخصيصًا ﴿لِلنَّاسِ﴾: لبني آدم دليلًا على يوم المعاد يوم البعث ﴿وَانْظُرْ﴾: أيضًا تأمّل ودقق ببصرك ﴿إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ﴾: استفهام يفيد التعجب ﴿نُنْشِزُهَا﴾: جاء لفظ نشوز على ثلاثة أوجه في القرآن الكريم؛ هنا بمعنى نُخرجها من القبور، الحياة، أي وهبها الحياة، وجاءت بمعنى عصيان المرأة لزوجها في قوله ﷻ **﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾** [النساء-٣٤]، وبمعنى إثبات الرجل غير زوجته عليها كما جاء في قوله ﷻ **﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ**

الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء-١٢٨] وجاءت هنا بمعنى نرفعها؛ فيُركبُ بعضَها على بعضٍ، وفي قراءة ننشرها؛ أي نحييها **﴿ثُمَّ﴾**: حرف يفيد التتابع الزمني البطيء **﴿نَكْسُوهَا﴾**: نُغطيها **﴿لَحْمًا﴾**: هي الجهاز العضلي؛ المسئول عن الحركة، **﴿فَلَمَّا﴾**: حرفٌ يفيد السبب والتتابع **﴿تَبَيَّنَ﴾**: اتضحَ، وبانَ وظهر **﴿لَهُ﴾**: لعزيرٍ تحديدًا **﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾**: أشهد شهادة علم **﴿أَنَّ﴾**: حرف تأكيد الفعل، ونفي الشك **﴿اللَّهَ عَلَى كُلِّ﴾**: تفيد العموم **﴿شَيْءٍ﴾**: جاءت بصيغةِ نكرةٍ؛ لتؤكد العموم **﴿قَدِيرٌ﴾**: أنا أشهدُ شهادةَ عالمٍ بذلك، وقد رأيته عيانًا، فأنا أعلم أهلِ زماني بذلك، قرأ آخرون قال أعلم؛ أي أنّ الله أمرهُ بالعلم.

التكليف: يواجه المسلمُ اليوم أمورًا صعبة، ولا يتعظُ أنّ الله ﷻ إذا سؤل؛ أجاب.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦٠)

أسباب النزول: عندما قال إبراهيم عليه السلام للنمرود: **﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾** أحب إبراهيم عليه السلام أنْ يرتقي من علم اليقين إلى عين اليقين، وأنْ يشاهد ذلك **﴿وَإِذْ﴾**: حرفٌ يدلُّ على ما مضى من الزمن **﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾**: واذكر يوم قال إبراهيم عليه السلام **﴿رَبِّ﴾**: هو المنشئُ لكلِّ شيءٍ في هذا الملكوت من حالٍ إلى حالٍ، إلى حدِّ التمام، منسوبةً إلى الله ﷻ، يا مالك أمري كلّه؛ تحببًا وتقربًا **﴿أَرِنِي﴾**: أريد أنْ أشاهد **﴿كَيْفَ﴾**: حرفُ استفهامٍ يُفيد التعجب **﴿تُحْيِي﴾**: تعيد حياة **﴿الْمَوْتَى قَالَ﴾**: الله ﷻ **﴿أَوَلَمْ﴾**: اسم مركب يفيد الاستفهام والاستنكار **﴿تُؤْمِنْ﴾**: سأل اللهُ تعالى وهو أعلم بإبراهيم من نفسه؛ فأجاب عليه السلام **﴿قَالَ بَلَى﴾**: نعم أؤمن **﴿وَلَكِنْ﴾**: حرفُ عطفٍ واستدراكٍ **﴿لِ﴾**: حرف تمليك يفيد العلّة **﴿يَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾**: السبب أنني أريد مزيدًا من الاطمئنان، وليس بسبب الشك **﴿قَالَ﴾**: الله ﷻ **﴿فَـ﴾**: حرف يفيد السرعة والتعقيب **﴿خُذْ أَرْبَعَةً مِنَ﴾**: بعض **﴿الطَّيْرِ﴾**: اختلف المفسرون في الأربعة ما هي؟ قال ابن عباس: أَخَذَ وزًّا وفرخَ نعام، وديكًا، وطاووس، وقال مجاهد: حمامة، وديكًا، وطاووسًا، وغرابًا، ليس مهمًا ما هي الطيور؛ لأنّ الله ﷻ لم يذكر أسماءها **﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾**: قرّبهنّ والصَّرُّ تعني: الضَّمُّ والإمَالة، حيث جلب إبراهيم عليه السلام أربعة أنواع من الطير، كما أمره الله ﷻ، وقام بإيوائها وضمّها وإمالتها إليه من خلال رعايتها، وإطعامها، وتدريبها، وتوجيهها، وجعلها تعتمد عليه في حياتها وحاجاتها، وهو ما يحدث مع مربي الصقور والببغاوات والحمام وغيرها من الطيور والحيوانات، حيث

يألفونها وتألفهم، ويدربونها على القيام بحركات وأعمال مختلفة، فتقوم بتنفيذ ما تؤمر به بكفاءة عالية. ﴿ثُمَّ﴾: تفيد التتابع مع التراخي الزمني، كي يتسنى لسيدنا إبراهيم عليه السلام أنْ يصعد على مكانٍ مرتفعٍ ﴿اجْعَلْ﴾: ضع ﴿عَلَى كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾: قسّمهنَّ أجزاءَ، وجعلَ على كل جبلٍ جزءًا من الطير ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يدلُّ على تراخي وتباعد زمني ﴿ادْعُهُنَّ﴾: أمرهُ اللهُ أنْ يدعوهن فدعاهن، أخذَ ينظر إلى الريش، كيف يطير، وإلى الدم كيف يعود للشرايين والأوردة، ويشاهد العضلات تعود في الجسم، وكلِّ جزءٍ من كلِّ طائرٍ يتصل بعضُه ببعضٍ، ثم اسألهم أنْ يأتوك فسوف ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾: حتى قام كلُّ طائرٍ على حدة، وجاؤوا مُسرعين، حتى يكون المشهد أبلغ له في الرؤية، كما سألها ﴿وَ﴾: حرفٌ يفيد هنا الحال ﴿اعْلَمْ﴾: علم يقين ﴿أَنَّ﴾: حرف يفيد اليقين علم يقين المشاهدة ﴿اللَّهَ عَزِيزٌ﴾: أنّه سبحانه وتعالى عزيز؛ لا يغلبه شيء، ولا يمتنع عن طاعته شيء، وما شاء اللهُ سبحانه وتعالى كان بلا ممانع، فهو القاهرُ لكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾: صاحبُ الصواب الكامل في أقواله، وأفعاله، وشرعه.

التكليف: إنّ الثقة بالله سبحانه وتعالى مع الإيمان الخالص تُحقق الدعاء حتى ولو بدا للإنسان مستحيلًا.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٦١)

﴿مَثَلُ﴾: حالٌ وصفاتٌ مستحسنة عجيبة ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يُنْفِقُونَ﴾: يُشبّهُ اللهُ سبحانه وتعالى الذين يدفعون ﴿أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: لنصرة الله سبحانه وتعالى ودينه، ونصرةِ المسلمين في بركتهِ ونعمتهِ وأثرهِ، جاء اللفظ القرآني سبيل على أربعة عشر وجهًا، هنا في هذه الآية بمعنى الطاعة، وكذلك في قوله سبحانه وتعالى **﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** [الحديد– ١٠]، وقال مكحول: سبيل الله يعني في الجهاد، من رباط الخيل، وإعداد السلاح، أمّا ابن عباس فقال: الجهاد، والحج يضاعف منهما إلى سبعمائة ضعف ﴿كَ﴾: حرف، يعني حال ﴿مَثَلِ حَبَّةٍ﴾: كل البقوليات كالقمح، والشعير، والأرز، والفول وغيرها ﴿أَنْبَتَتْ﴾: أنتجت ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ﴾: تفيد العموم، وهذا مثلٌ أبلغُ في النفوس من مجرد ذكر العدد (٧٠٠) أي أنّ الله سبحانه وتعالى يُنمّي العمل الصالح كما يُنمي الزرع، قال أبو عبيدة: من أنفق نفقةً فاضلةً في سبيل الله فسبعمائة ومن أنفق على نفسهِ وأهلهِ أو عادَ مريضًا، أو أماطَ أذى ﴿سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ﴾: عطفًا على هذا إنّ ﴿اللَّهُ

﴿يُضَاعِفُ﴾: يزيد أضعافًا ﴿لِ﴾: حرف تمليك وتخصيص ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَشَاءُ﴾: فالحسنةُ بعشرةِ أمثالها، والصوم جُنّة ما لم يخرقها، ومن ابتلاه اللهُ عزّ وجلّ ببلاءٍ في جسده فهو له حِطّة، أي كفّارةٌ لذنوبه، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ، فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُ مِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ»[1]، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾: واسع الرزق والعطاء ﴿عَلِيمٌ﴾: ومحيطٌ بكلّ علمٍ؛ فهو الذي أوجده.

التكليف: يأتي هنا حال سيدنا عثمان بن عفّان الذي جهّز جيش العسرة، في غزوة تبوك وأيضًا عبد الرحمن بن عوف الذي تصدق بنصف ماله يقول الله ﷻ لعباده إنّ الثواب مُضاعف لمن أنفق في سبيل الله ﷻ، وابتغاء مرضاته.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٦٢)

﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾: الحديث عن صنفٍ من المنفقين من البشر ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: لنيل رضا الله ﷻ ﴿ثُمَّ﴾: تفيد التباعد الزمني مع التراخي ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُتْبِعُونَ﴾: لا يقولون أو يفعلون بعد بذلهم ﴿مَا أَنْفَقُوا﴾: الذي أنفقوه في سبيل الله ﷻ ﴿مَنًّا﴾: والمنّان هو واحدٌ من ثلاثة لا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ﴿وَلَا أَذًى﴾: هو التطاول والتفاخر على النّاس بهذا الإنفاق؛ إيذاء النّاس في أنفسهم، أو أجسادهم، أو أموالهم ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿أَجْرُهُمْ﴾: ثوابُ عملهم ﴿عِنْدَ﴾: حرفُ ظرف زمانٍ وظرف مكان ﴿رَبِّهِمْ﴾: يا مالك أمري كلّه؛ تحببًا وتقربًا حدّد اللهُ ﷻ أنّ ثوابَ عملهم عليه ﷻ، وليس على أحدٍ سواه، يُثيبهم كيف يشاء في الدنيا أو الآخرة ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: لهم الأمنُ الذي هو طمأنينةُ النفس، وزوالُ الخوف، يوم القيامة من أهوالها؛ لأنّ الأجر هنا عند ربّهم ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿هُمْ﴾: حرف تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب يَحْزَنُونَ﴾: لا يُصيبهم حزنٌ على ما فاتهم من الحياة الدنيا وزينتها، وبما نقص من حق الأولاد من بعده، لا يتأسفون على ما أنفقوا لأنّ ما عند الله ﷻ خيرٌ وأبقى.

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (٢٦٣)

---

[1] صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٥).

﴿قَوْلٌ﴾: كلامٌ مسموع ﴿مَعْرُوفٌ﴾: طيب لا لُبس فيه، ولا أذى، ولا فُحشَ لمسلمٍ، ودعاءٌ خالصٌ لله ﷻ ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿مَغْفِرَةٌ﴾: السماح والعفو من الله ﷻ لمن أساء من قولٍ أو عملٍ، ظلمًا وعدوانًا ﴿خَيْرٌ﴾: أفضلُ عند الله ﷻ ﴿مِنْ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا جزءًا أو بعضًا ﴿صَدَقَةٍ﴾: إحسانٍ وعطاءٍ في سبيل الله ﷻ ﴿يَتْبَعُهَا أَذًى﴾: قولٌ فقط ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذى للمتصدق عليه بالقولِ أو الفعلِ ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿اللَّهُ غَنِيٌّ﴾: لا يحتاج إلى خلقه في شيء ﴿حَلِيمٌ﴾: يحلمُ ويغفرُ عن ظلمٍ لفظيٍّ أو فعلي. عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مِرَارًا، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ»[(١)]، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ»[(٢)].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٦٤)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿آمَنُوا لَا﴾: حرف نهي عن فعلٍ أو قولٍ به ﴿تُبْطِلُوا﴾: جاء لفظ الباطل هنا بمعنى حبط العمل ﴿صَدَقَاتِكُمْ﴾: أي ذهابُ ثوابِ الحسنةِ والصدقةِ ﴿بِالْمَنِّ﴾: إذا تبعها تفضّلٌ ﴿وَالْأَذَى﴾: ما يصل من الضرر إمّا في نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيويًا كان أو أخرويًا ﴿كَ﴾: حرف معناه مثل أو حال ﴿الَّذِي﴾: اسمٌ موصولٌ هنا بالفرد المذكّر ﴿يُنْفِقُ﴾: الذي يعطي ﴿مَالَهُ﴾: بهدف ﴿رِئَاءَ﴾: مراءاة للنّاس وسمعةً له، وليس لوجه الله ﷻ، الذي يريد أنْ يراه ﴿النَّاسِ﴾: البشر الذي ينفق؛ ليُعلي سمعته، أو شهرته، أو تفضله، يريد من النّاس مدحهم وشكرهم له، وليقال إنّه كريم، وكلُّها مقاصدُ دنيوية ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤْمِنُ﴾: يُصدّقُ ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ وَ﴾: لا يصدّق أيضًا، ولا يؤمن بـ ﴿الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: أي يكفر بيوم القيامة، ولا يريد ثواب الآخرة ﴿فَ﴾: حرف يفيد السبب ﴿مَثَلُهُ﴾: يضرب الله ﷻ مثلًا يُشبّه فيه المرائي بالإنفاق مثله ﴿كَ﴾: مثل أو حال ﴿مَثَلِ صَفْوَانٍ﴾: الصخرِ الكبيرِ الأملسِ

---

(١) صحيح مسلم /١/١٠٢(١٠٦).

(٢) مسند أحمد /٦/٤٤١(٢٧٥٢٤). قال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره دون قوله: وَلَا مُكَذِّبٌ بِقَدَرٍ فقد تفرد بها سليمان بن عتبة الدمشقي وهو ممن لا يحتمل تفرده.

﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾: أي تجمع فوقه تراب، يسهل إزالته بالريح، أو ﴿فَأَصَابَهُ﴾: أخذه أو ألمّ به ﴿وَابِلٌ﴾: هو المطرُ الغزيرُ الشديدُ ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾: لا يُنبت شيئًا مفيدًا كالرُخام مثلًا، أجرد غير مغطى بشيء؛ فقد أزال المطرُ الشديدُ التراب عن الصخرِ الأملسِ اليابسِ، ولم يبق شيءٌ عليه من التراب، ذهب كلّه كما يذهب عمل المُرائي ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَقْدِرُونَ﴾: لا يحتفظون منه ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾: لا يجنون منه أيّ شيء، من ثوابِهِ وأجره ﴿مِمَّا﴾: حرفٌ يُفيد بعضًا أو جزءًا ﴿كَسَبُوا﴾: ما حصّلوه من مال ثم أنفقوا؛ ليُقال عنهم بين النّاس، يُخبرُ اللهُ ﷻ أنْ أجرَ الآخرةِ تبدد، وما رغب فيه المُرائي تبدد أيضًا ﴿وَاللَّهُ لَا﴾: حرف نفي ﴿يَهْدِي﴾: لا يدلّ ولا يُرشدُ ﴿الْقَوْمَ﴾: الجماعة الذين من أصلٍ واحدٍ، أو أصحابُ منهجٍ واحدٍ ﴿الْكَافِرِينَ﴾: المُجرمين الذين غطّوا حقيقة الإيمان بجريمة الكفر.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٦٥)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿مَثَلُ﴾: حال ونموذج ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ﴾: ويأتي هنا مثلُ الصفة المليحة العجيبة، من المؤمنين المنفقين في مقابل المُنفقين المُرائين ﴿ابْتِغَاءَ﴾: الذين يريدون ﴿مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾: الذين ينفقون لنيل رضا الله ﷻ عنهم، بعيدًا عمّا يريده المراؤون ﴿وَتَثْبِيتًا﴾: هنا أيضًا صفةٌ جديدةٌ هي المصدقون، المُتيقنون، المُتثبتون، المُتحققون من ثواب الإنفاق ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية المكانيّة وهي ﴿أَنْفُسِهِمْ﴾: من ثواب الله ﷻ وجزائه، أوفر الجزاء ﴿كَ﴾: حرف بمعنى مثل أو حال ﴿مَثَلِ جَنَّةٍ﴾: الجنّة هي البستان في ﴿بِ﴾: حرف باء الظرفية ﴿رَبْوَةٍ﴾: المكان المرتفع عن الأرض ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾: نزل عليها المطر الغزير ﴿فَ﴾: لهذا السبب ﴿آتَتْ﴾: أعطت وأنتجت ﴿أُكُلَهَا﴾: ثمرها الذي يُؤكل ﴿ضِعْفَيْنِ﴾: أي ضاعفت إنتاجها أكثر من مثيلاتها في الأماكن الأخرى من المزارع ﴿فَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يُصِبْهَا وَابِلٌ﴾: لم يأتها مطرٌ غزيرٌ ﴿فَطَلٌّ﴾: والطلُّ هو الرذاذُ من المطر الخفيف، إنّ هذه الجنّة لا تُمحلُ أبدًا، حتى وإنْ خفّ المطر عنها، فيكفيها رذاذٌ وقليلٌ من المطر، كذلك عملُ المؤمن لا يُبور أبدًا؛ لأنّ قبول الله ﷻ له يُنمّيه ويزيده ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الاستئناف أنّ ﴿اللَّهُ بِمَا﴾: اسم موصول، بالذي ﴿تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: إنّ كلّ شيءٍ يعلمهُ الله ﷻ علم المشاهدِ السامعِ، ويطّلع عليه من أعمال عباده، ونياتهم.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٦٦)

﴿أَ﴾: يسأل الله ﷻ عباده بهدف التربية وتهذيب الأخلاق بمعنى الاستبعاد القريب من النفي ﴿يَوَدُّ﴾: يرغبُ ﴿أَحَدُكُمْ﴾: واحدٌ منكم يسأل ﷻ ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَكُونَ لَهُ﴾: يمتلك ﴿جَنَّةٌ﴾: بستانٌ أو حقلٌ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع وهو النخيل ﴿نَخِيلٍ﴾: جاء ذكر شجرة النخيل في عشرين موضعًا في القرآن الكريم، وجاءت ثمرة الرطب في موضعٍ واحدٍ في قوله ﷻ ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر-٥] ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا أيضًا يود أنْ يكون له ﴿أَعْنَابٍ﴾: ضرب اللهُ ﷻ مثل الأعناب هنا لفائدته العظيمة؛ ففيه سكريات الجلوكوز والفركتوز، السكر أحادي الجزيء، الذي يسهُل امتصاصه، وهو مادةٌ غذائيةٌ توضع في المحلول المائي المُعقم، وتُحقنُ بسرعةٍ في أوردة المرضى، وهي تُغذي كلّ الأعضاء، وفي العنب مواد بروتينية، ودهون أحادية الجزيء، وأليافٌ تساعد على الهضم، وفيه موادٌ مضادةٌ للأكسدة؛ تحافظ على سلامة القلب مثل سفيراترال ﴿تَجْرِي﴾: تتوزع وتنتقل بسرعةٍ ﴿مِنْ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: تُفيدُ الكثرة من الماء، ووفرته، وزيادته، واستمراره ﴿لَهُ﴾: تمليكًا ﴿فِيهَا﴾: في مزارعه وحقوله ﴿مِنْ كُلِّ﴾: تؤكد عموم ﴿الثَّمَرَاتِ﴾: كل ما تنتجه البساتين وفي المثل هي الأولاد، والمال، والجاه، والسلطان، والشباب، كلُّ ذلك تبدد وضاع ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾: أصابه الضعف الذي يصيب من هرم ﴿وَلَهُ﴾: أيضًا تخصيصًا ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾: أبناء وحفدة ﴿ضُعَفَاءُ﴾: وأصاب أولاده الضعف ﴿فَـ﴾: حرف يفيد السبب ﴿أَصَابَهَا﴾: ضربها ﴿إِعْصَارٌ﴾: هو الريحُ الشديدُ، زوبعة إنّ هذا المثل الربّاني، ككل الأمثلة، ذات دلالات حسنة، قال ابن عباس ﵄: هذا حالُ رجلٍ غنيٍ عمل بطاعة الله ﷻ، ثم جاءه الشيطان؛ فعمل بالمعاصي حتى أتلف أعماله، هناك من يعمل من أحسن الأعمال أولًا، ثم ينتكس فيعمل السيئات، فيُبدّلُ اللهُ ﷻ حسناته بالسيئات، فأبطل بعمله الثاني ما أسلف من الصالح، ثم احتاج إلى شيءٍ مما عمل في الأول في أضيق الأحوال، فلم يحصل منه على شيء، وهذا معنى ﴿فِيهِ نَارٌ﴾: الإعصارُ الذي يصاحبهُ الشرار الذي يحرق ﴿فَاحْتَرَقَتْ﴾: الثمار والأشجار، والمعنى ذهابُ أجرِ الأعمال والحسنات، أي كالذي عمل الحسنات ثم بدلها بالسيئات، فلم ينفعه الأول ولا الآخر، جاء معنى ﴿كَذَلِكَ﴾: هذا الذي حدث، وجاء ذكره فيما سبق، وأخبر الله ﷻ

عنه ﴿يُبَيِّنُ﴾: يوضّحُ ويُظهرُ ﴿اللَّهُ لَكُمُ﴾: تحديدًا ﴿الْآيَاتِ﴾: الأدلّة والبراهين الدالّةَ على الصدق ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: تُفيدُ هنا إشفاقًا من الخالق ﷻ، فإنْ قدّرها فهي كائنه ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾: تعتبرون وتفهمون المعاني؛ وتُسقطونها على المطلوب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٢٦٧)

أسباب النزول: عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، فِي قَوْلِهِ ﷻ: **﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾** [البقرة-٢٦٧]، قَالَ: نَزَلَتْ فِي الْأَنْصَارِ، كَانَتِ الْأَنْصَارُ تُخْرِجُ إِذَا كَانَ جِدَادُ النَّخْلِ مِنْ حِيطَانِهَا أَقْنَاءَ الْبُسْرِ، فَيُعَلِّقُونَهُ عَلَى حَبْلٍ بَيْنَ أُسْطُوَانَتَيْنِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَأْكُلُ مِنْهُ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ، فَيَعْمِدُ أَحَدُهُمْ فَيُدْخِلُ قِنْوًا فِيهِ الْحَشَفُ، يَظُنُّ أَنَّهُ جَائِزٌ فِي كَثْرَةِ مَا يُوضَعُ مِنَ الْأَقْنَاءِ، فَنَزَلَ فِيمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ: **﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾** [البقرة-٢٦٧]، يَقُولُ: لَا تَعْمِدُوا لِلْحَشَفِ مِنْهُ تُنْفِقُونَ، **﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾** [البقرة-٢٦٧]، يَقُولُ: لَوْ أُهْدِيَ لَكُمْ مَا قَبِلْتُمُوهُ إِلَّا عَلَى اسْتِحْيَاءٍ مِنْ صَاحِبِهِ، غَيْظًا أَنَّهُ بَعَثَ إِلَيْكُمْ مَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِيهِ حَاجَةٌ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ صَدَقَاتِكُمْ[1]. ﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وهنا لبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات، البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: نداءٌ من اللهِ ﷻ للمؤمنين ﴿أَنْفِقُوا﴾: أمرٌ أنْ تصدقوا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعضًا أو جزءًا ﴿طَيِّبَاتِ﴾: أطيب وأصلح ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَسَبْتُمْ﴾: من المال الحلال المكتسب من التجارة، وتعني الذهب والفضة، والثمار والزرع، هو طيب المال، وأغلاه ﴿وَمِمَّا﴾: أيضًا الذي من جنس غير العاقل ﴿أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾: خيرات الزراعة وما في باطن الأرض من ثروات ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿لَا﴾: حرف نهي ﴿تَيَمَّمُوا﴾: لا تقصدوا ولا تتخيروا منه ﴿الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾: تنفقون رذائل المال، والثمار، وأقلّه قيمةً وأهميةً ﴿وَلَسْتُمْ﴾: تفيد النفي ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿آخِذِيهِ﴾: لا تقبلونه ولا تأخذونه ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿تُغْمِضُوا فِيهِ﴾: تتسامحوا أو تتساهلوا في أخذه منكم، وإذا تأخذوه تأخذونه على مضضٍ أو تفضلون عدم أخذه، وقيل في المعنى الكلّي: لا تقصدوا المال الحرام؛ لتجعلوا نفقاتكم منه، وقيل لا تنفقوا مما لا تقبلون أخذه من الآخرين الذين حُكم عليهم ﴿وَاعْلَمُوا﴾: يجب أنْ تُدركوا صدقًا ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد ونفي

[1] سنن ابن ماجه (١/ ٥٨٣).

الإنكار والشك ﴿اللَّهَ غَنِيٌّ﴾: ليس في حاجةٍ إلى صدقاتكم، وهو ﷻ غنيٌ عن جميع خلقه، وكلُّهم إليه ﷻ فقراء ﴿حَمِيدٌ﴾: المحمودُ في جميع أفعاله، وأقواله، وشرعه، وقدره.

التكليف: تأمّل حقَّ الفقير كيف يُحصّنه الله ﷻ من مال الأغنياء.

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٦٨)

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾: عليكم أنْ تتأكدوا أنّ الشيطان يريد لكم الفقر؛ حتى لا تنفقوا في سبيل الله ﷻ ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا أيضًا ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾: ويزيّن ويحبّب إليكم ﴿الْفَحْشَاءِ﴾: ارتكاب المعاصي والآثام، والمحرّمات، ومخالفة الله ﷻ ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ﴾: وعد الله ﷻ العفو لمن تاب ﴿وَفَضْلًا﴾: الرزق في مقابلة ما يخوّف به الشيطان من الفقر ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾: صاحبُ الملك والعطاءِ الوافر والرحمةِ الواسعة ﴿عَلِيمٌ﴾: بعباده سرّهم وجهرهم.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٢٦٩)

﴿يُؤْتِي﴾: يُعطي ويهب ﷻ ﴿الْحِكْمَةَ﴾: قال ابن عباس: هي المعرفة؛ أي التفسير للقراءة، بالقرآن ناسخهُ ومنسوخة، ومحكمهُ، ومتشابه، ومقدمهُ، ومؤخرهُ، حلالهُ، وحرامهُ، وأمثالهُ. قال مجاهد: الحكمةُ ليست بالنبوة، ولكنّها بالعلم، والفقه، والقرآن، وقال أبو العالية: خشيةُ الله رأس كلّ حكمةٍ، وقال أبو مالك: هي السُنّة، وقال زيد ابن أسلم: هي العقل، وقال مالك: وإنّه ليقع في قلبي أنّ الحكمة هي الفقه في دين الله، وأمرٌ يُدخلهُ اللهُ ﷻ في القلوب من رحمته وفضله ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَشَاءُ﴾: أراد ﴿وَمَنْ﴾: الذي من البشر ﴿يُؤْتَ﴾: يُعطي ويمنحُ ﴿الْحِكْمَةَ﴾: يعطيه اللهُ ﷻ الصواب في القولِ والعمل، ومعرفةِ السنّة النبوية المشرفة ﴿فَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿أُوتِيَ﴾: أُعطي ﴿خَيْرًا﴾: النافع المفيد ﴿كَثِيرًا وَمَا﴾: حرف نفي بمعنى لا ﴿يَذَّكَّرُ﴾: ينتفعُ بالموعظة والتذكار ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿أُولُوا﴾: أصحاب ﴿الْأَلْبَابِ﴾: العقول الواعية للخطاب ومعنى الكلام.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٢٧٠)

﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿أَنْفَقْتُمْ مِنْ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعضًا أو جزءًا حتى قليل ﴿نَفَقَةٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة لتفيد العموم كثرة أو قلة، جودة أو رداءة، إنّ كلّ الذي أنفقتم وكلّ شيءٍ دفعتموه ﴿أَوْ﴾: حرفٌ يُفيد التسوية ﴿نَذَرْتُمْ مِنْ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿نَذْرٍ﴾: ما أوجب الإنسان على نفسه أمرًا، ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿إِنَّ﴾: حرف

للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ﴾ ﷻ ﴿يَعْلَمُهُ﴾: يُخبر اللهُ ﷻ أنّه يعلم كلَّ عملِ خيرٍ يعملهُ الإنسانُ، ويخُصُّ هنا الإنفاق والنذور، وهو ﷻ يُجازي الجزاء الأوفى للمنفقين ابتغاء وجه الله ﷻ، ورجاء رضاه على نيّة المتصدق ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾: ليس للذين يكفرون؛ فيظلمون أنفسهم ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾: فتوعدهم الله ﷻ بحرمانهم من الشفعاء الأنصار يوم القيامة، لا أحد يُنقذهم من عذاب الله ﷻ وغضبه.

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٧١)

أسباب النزول: عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ يَقُولُ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟»، قُلْتُ: مِثْلَهُ، قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ ﷺ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: لَا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا[١]، ﴿إِنْ﴾: حرفُ شرط ﴿تُبْدُوا﴾: تُظهروا وتبينوا الصدقات ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ جمع صدقة وهي عطيّةُ برٍّ وإحسانٍ لفقير أو معوز ﴿فَنِعِمَّا﴾: مدحٌ ﴿هِيَ﴾: المقصود هنا الصدقة شيءٌ مُستحبٌ ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿تُخْفُوهَا﴾: أي إنفاقها في السرِّ، وهذا الأفضل؛ لأنّها أبعدُ عن الرياء، إلّا إذا كان في إظهارها مصلحة راجحة؛ ليقتدي بها النّاس، فتكون هنا أفضل، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ، كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ، وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ، كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ»[٢]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ[٣]، وقال ﷺ: إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ وَتَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ[٤]، وقال: ابن عبّاس: في تفسير هذه الآية: جعل اللهُ صدقة السرِّ في التطوع تفضُل العلانية بسبعين ضعفًا، وجعل صدقة الفريضة علانية أفضل من سرّها، يقال بخمسة وعشرين ضعفًا ﴿وَتُؤْتُوهَا﴾: تُعطوها ﴿الْفُقَرَاءَ﴾: المحتاجين إلى ضرورات الحياة ﴿فَهُوَ خَيْرٌ﴾: أنفع ﴿لَكُمْ﴾:

---

[١] سنن أبي داود (٢/ ١٢٩)، وحسنه الألباني.

[٢] سنن أبي داود (٢/ ٣٨)، وصححه الألباني.

[٣] صحيح البخاري /٨/١٦٣(٦٨٠٦).

[٤] سنن الترمذي /٢/٤٥(٦٦٤). قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ.

تخصيصًا ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿يُكَفِّرُ﴾: يُذهب ويمحو ﴿عَنْكُمْ﴾: تحديدًا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا جزءًا أو بعضًا ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾: الأفعال والأقوال التي تُسبب الضرر لصاحبها ﴿وَاللَّهُ بِمَا﴾: اسم موصول، بالذي ﴿تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: لا يخفى عليه شيءٌ.

التكليف: الصدقةُ حقُّ الفقير، والضعيف، يحثُّ الله ﷻ عليها، لمصلحةِ المجتمع.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٢٧٢)

أسباب النزول: كان رسول الله ﷺ يأمرُ بأنْ لا تُعطى الصدقات إلّا للمسلمين، فرخّصت هذه الآية التصدق على غير المسلمين إذا كان الإنفاقُ ليس في كفرٍ؛ ولتأليف القلوب، ولكلّ من سأل، من كلّ أصحابِ دين ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقص يُفيد النفي ﴿عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾: دخولهم في الإسلام ﴿وَلَكِنَّ﴾: حرفُ عطفٍ واستدراكٍ ﴿اللَّهَ يَهْدِي مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَشَاءُ﴾: لأنّ اللهَ هو الهادي إلى الإيمان لمنْ شاء ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ﴾: بعض أو جزء ﴿خَيْرٍ﴾: ما ينفع النّاس ﴿فَ﴾: حرف سبب ﴿لِ﴾: حرف تمليك ﴿أَنْفُسِكُمْ﴾: ومثله؛ من عمل صالحًا فلنفسه وغيرها، أي ثوابُها مكتوبٌ للمنفقين طاعةً لله ﷻ ورسوله ﷺ ومن هنا: ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿تُنْفِقُونَ إِلَّا﴾: حرفُ استثناء ﴿ابْتِغَاءَ﴾: طمعًا ورغبةً في ﴿وَجْهِ اللَّهِ﴾: فإذا أنفق المؤمنُ على نفسِهِ فهي لوجهِ الله ﷻ، وإذا أنفق على غيرِهِ أيضًا فلنفسه إنْ كانت في سبيل الله ﷻ. قال عطاء الخراساني: إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله سواء عمل الذي أخذ الصدقة بارًا أو فاجرًا، يستحق أو لا يستحق، فالثوابُ على قصدِ المُتصدق ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ﴾: حرف للتبعيض أو التقليل ﴿خَيْرٍ﴾: تفيدُ عموم النافع ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾: ينالكم ثوابه كاملًا ﴿وَأَنْتُمْ لَا﴾: حرف نفي ﴿تُظْلَمُونَ﴾: عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، عَلَى زَانِيَةٍ؟ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، عَلَى سَارِقٍ وَعَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ، فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ[1].

---

[1] صحيح البخاري (٢/ ١١٠).

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢٧٣)

﴿لِ﴾: حرفُ تمليكٍ وتخصيصِ الصدقات ﴿الْفُقَرَاءِ﴾: الذين لا يملكون مالًا يلبي احتياجاتهم الضرورية ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: هم المهاجرون الذين انقطعوا عن مالهم، وعيالهم، وذهبوا إلى المدينة، وانقطعوا عن عملهم في سبيل الله، وإلى الرسول ﷺ ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾: لا يقدرون ﴿ضَرْبًا﴾: ذهابًا للتكسب بالعمل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: لا يستطيعون السفر للتجارة، وطلب الرزق ﴿يَحْسَبُهُمُ﴾: يظنّهم ﴿الْجَاهِلُ﴾: الذي لا يعرف أمرهم وحالهم ﴿أَغْنِيَاءَ﴾: بسبب ملبسهم، وحالهم، وتعففهم، ومقالهم ﴿مِنَ التَّعَفُّفِ﴾: التنزهِ عن السؤال ﴿تَعْرِفُهُمْ بِ﴾: حرفُ باء الاستعانة ﴿سِيمَاهُمْ﴾: يعلمهم أصحابُ العقول الواعية من ملامحهم، قال ﷻ: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ [الفتح-٢٩]، وقال ﷻ أيضًا: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد-٣٠]؛ أي أنّ القول يدلُّ على طبيعة الشخص ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَسْأَلُونَ﴾: لا يطلبون من ﴿النَّاسَ﴾: من عموم بني آدم ﴿إِلْحَافًا﴾: الأصل في اللغة هو اللحاف الذي يلف الإنسان ويغطيه، والمقصود هنا هو كثرة السؤال واللّف حول المسئول من اليمين والشمال حتى يعطيه أو يمنعه، لا يُلحّون في السؤال، ولا يُكلّفون السائل ما لا يقدر، ولا يكلّفون النّاس ما لا يحتاجون إليه، عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلاَ اللُّقْمَةُ وَلاَ اللُّقْمَتَانِ، إِنَّمَا المِسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ» يَعْنِي قَوْلَهُ: ﴿لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة-٢٧٣][1]، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ، جَاءَتْ مَسْأَلَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُدُوشًا - أَوْ كُدُوحًا - فِي وَجْهِهِ[2] ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿تُنْفِقُوا مِنْ﴾: بعض أو جزء ﴿خَيْرٍ﴾: ما ينفع النّاس ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ بِهِ﴾: حرفُ باء الالتصاق، والهاء ضميرٌ عن الخبر ﴿عَلِيمٌ﴾: لأنّه لا يخفى عليه شيءٌ، وسيجزي عليه أوفى الجزاء، وهو له يوم القيامة عون، والعبد أحوجُ ما يكونُ إليه.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٤)

---

[1] صحيح البخاري /٦/٣٢(٤٥٣٩).

[2] مسند أحمد /١/٤٤١(٤٢٠٧). قال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن وهذا إسناد ضعيف.

أسباب النزول: قال ابن جبير عن أبيه: كان لعليّ أربعة دراهم؛ فأنفق درهمًا ليلًا، ودرهمًا نهارًا، ودرهمًا سرًا، ودرهمًا علانية؛ فنزلت الآية الكريمة ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾: هؤلاء المتصدقون بمالهم الحلال بطيب خاطر؛ في رضا الله ﷻ ﴿بِ﴾: حرف باء الظرفية ﴿اللَّيْلِ﴾: وإنفاق الليل مُقدّم عندهم لأنّه لا رياء فيه ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿النَّهَارِ﴾: بطبيعة ظروف الإنفاق ﴿سِرًّا﴾: لا يراهُ أحدٌ من خلق الله ﷻ ﴿وَعَلَانِيَةً﴾: إنفاقًا مُشاهدًا، ولكن ليس فيه رياء، هذه آية تمدح المنفقين في كلّ الأحوال والأوقات، من ربّ العالمين، في الليل أو النّهار، في السر والعلن، على الأهل وعلى غيرهم، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ»[1]، وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً، وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا، كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً»[2]، ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿لَهُمْ﴾: تخصيص وتمليك ﴿أَجْرُهُمْ﴾: ثوابُهم ﴿عِنْدَ﴾: ظرف مكان ﴿رَبِّهِمْ﴾: هو ﷻ الثابتُ، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ؛ تحببًا وتقربًا، ينالون ثوابهم يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق والطاعات من مالك أمرهم كلّه ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: لا يخافون يوم الفزع الأكبر ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿هُمْ﴾: حرف تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب ﴿يَحْزَنُونَ﴾: ولا يحزنون لما أصابهم في الدنيا؛ لأنّ ثواب الآخرة أبقى.

التكليف: الإنفاق في الأوجه المذكورة علاجٌ لأمراض الأمّة، من الفقر، والمرض، والسرقة، والحسد وغيرها.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧٥)

أسباب النزول: بعد أنْ جاء تبيان فضلِ وصفاتِ الأبرار المؤدّين للنفقات، المُخرجين للزكاة، المتفضلين بالبرّ والصدقات، لذوي الحاجة والقربات، في جميع الأحوال والأوقات، جاءت الآية للتحدث عن النقيض وهم ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يَأْكُلُونَ﴾: جاء النصُّ **الأكل** لأنّ أخذ المال يراد به الأكل غالبًا ﴿الرِّبَا﴾: المتعاملون بالربا والذين يتكسبون ويعتشون منه ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَقُومُونَ﴾: أي يوم يخرجون من قبورهم، إلى بعثهم ونشورهم ﴿إِلَّا﴾:

---

[1] صحيح البخاري /١/٢٠(٥٦).

[2] صحيح مسلم /٢/٦٩٥(١٠٠٢).

حرفُ استثناءٍ منقطعٍ، بمعنى على عكس قيام المؤمنين، بل يُبعثون ﴿كَمَا﴾: مثلما ﴿يَقُومُ﴾: حالهُ كحال ﴿الَّذِي﴾: اسمٌ موصولٌ بالفرد المُذكر ﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾: يصرعه والتخبُّط في السير: السير على غير هدى، يسير يمينًا وشمالًا في حَيرة واضطراب، ويأتي ما يأتي بجهالة وبغير تبصُّر. ﴿الشَّيْطَانُ مِنَ﴾: و الشيطان من الفعل شَطَن، أيْ: ضلّ وتاه وابتعد وزاغ، فهو شيطان، أيْ مملوء بالزيغ والضَّلال، ونقول: أَشْطَنَ الرجلُ فَرَسَه، أيْ: أبعَدَها عنه.، والشيطان يكون من الإنس والجنّ كما اخبرنا الله في قوله ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام-١١٢] وشيطان الإنس أخطر وأكثر شرًّا من شيطان الجنّ، لأنه من الناس ويعيش مع الناس، ويتكلم لُغتَهم ويتطبَّع بأطباعهم، ويدعو للشرّ والفساد في ثوب الصديق أو الجار أو القريب أو ابن البلد، والناس يرونه منهم ومثلهم، وهم لا يعرفون حقيقته. بعض أو جزء ﴿الْمَسِّ﴾: الجنون، والخَبَل وغياب العقل. فإنّ المَسَّ المذكور في الآية كان قبل تخبُّط الشيطان، بل كان سببًا فيه، وإنّ التخبُّط من الناحية الزمانية قد حدث بعد المَسِّ ونتيجة له، والمعنى: إنّ الشيطان يتخبَّطه ويوجِّهه كما يريد، بسبب ما عنده من المَسِّ والجنون. وبسبب ضعف إيمانه، والذي لا يستخدم عقله، فيوجّهه أينما أراد، وكيفما أراد، ويجعله على غير هدى، فيعيش في الدنيا يتنقل بين المعاصي بشكل عشوائي كما يقومُ المصابُ بالصرعِ في نوبةِ الصرعِ الذي هو قيام مُنكر، قال ابن عباس: آكل الربا يقوم يوم القيامة يُخنق، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَتَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ بُطُونُهُمْ كَالْبُيُوتِ، فِيهَا الْحَيَّاتُ تُرَى مِنْ خَارِجِ بُطُونِهِمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرَائِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ أَكَلَةُ الرِّبَا[1]، ولا يملك الشيطان مع ابن آدم غير الوسوسة، وهو لا يستطيع إجبار أحد على فعل معصية، أو ترك طاعة ﴿ذَلِكَ﴾: هذا الذي حدث، وجاء ذكرهُ فيما سبق وأخبر اللهُ ﷻ عنه، إشارة للبعيد، مثلهم وحالُهم أنّهم استحلّوا الربا، ولم يفرقوا بينه وبين المال الحلال ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرفُ توكيد القول ﴿قَالُوا﴾: ادعوا كذبًا ﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ تُفيد التأكيد ﴿الْبَيْعُ﴾: هو إعطاءُ الشيءِ المُثمنِ وأخذُ الثمن ﴿مِثْلُ الرِّبَا﴾: الآية فيها تشبيهٌ مقلوب؛ لأنّ الأصل هو البيع، والربا فرعٌ من أنواعه، وعليه يكون التشبيه إنّما الربا مثل البيع؛ لأنّ الأصل في التشبيه هو المشبه به لاشتماله على

[1] سنن ابن ماجه /٢/٧٦٣(٢٢٧٣). قال محمد فؤاد عبد الباقي: إسناده ضعيف، وكذلك ضعفه الألباني.

الصفة المشتركة وجه الشبه، ولمّا قُلب هنا وجعل الربا أصلًا مشبهًا به إنّما هو على حدّ اعتقاد اليهود والنصارى؛ لأنّه هو الأصلُ في الحل، والتعامل عندهم، ولا يتعاملون بغيره، ولإقامة الحُجّة عليهم، فالقلب هنا على حدّ اعتقادهم، ولقد اعترضوا على حكم الله ﷻ، وساووا البيع بالربا؛ لأنّهم لا يعترفون بمشروعية أصلِ الربا، قالوا البيع هو نظير الربا، فلماذا حرّم الله الربا وأحلّ البيع؟ ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الاستئناف ﴿أَحَلَّ اللَّهُ﴾: جعله حلالًا ﴿الْبَيْعَ وَ﴾: أيضًا ﴿حَرَّمَ﴾: جعله حرامًا ﴿الرِّبَا﴾: هذا ردٌ عليهم، إنّه ﷻ صاحبُ التشريع الذي فيه خيرهم، وخير المخلوقات ﴿فَمَنْ﴾: فالذي ﴿جَاءَهُ﴾: وصلهُ ﴿مَوْعِظَةٌ﴾: إذا جاء النهي عن الربا للإنسان ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾: تعني كلمةُ الرب: المُعبود، والمُربي، وهو المنشئُ للكون بمن وبما فيه من حالٍ إلى حالٍ إلى حدِّ التمام وهو سبحانه الخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ ﴿فَ﴾: حرف يفيد السبب والتتابع السريع ودونَ تأخير ﴿انْتَهَى﴾: توقف وانتهى عن التعامل بالربا ﴿فَلَهُ﴾: تخصيصٌ وتمليك ﴿مَا﴾: الذي قد ﴿سَلَفَ﴾: الذي فعل من قبل، وقد عفا الله عمّا سلف؛ أي لا رد للربا؛ فالحكم يبدأ من هنا، لا يُحاسبُ اللهُ ﷻ على ما أُكل من ربا قبل التحريم ﴿وَأَمْرُهُ﴾: الحكمُ في مصيره ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: عند الله ﷻ فيما يفعل بعد ذلك ﴿وَمَنْ عَادَ﴾: إلى التعامل بالربا بعد علمه بالتحريم؛ فقد وجبت عليه العقوبة، وقد قامت عليه الحُجّة ﴿فَأُولَئِكَ﴾: اسمُ إشارةٍ للجمعِ القريبِ والبعيد ﴿أَصْحَابُ﴾: الملازمون دائمًا ﴿النَّارِ﴾: جهنّم ﴿هُمْ﴾: حرف تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾: مصيرهم يوم القيامة، صحبةُ النّار أبدًا.

التكليف: حكمٌ شرعيّ: بعد نزول هذه الآية حُرّمت ثلاث حالات: **المخابرة:** وهي لك المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض، **والمزابنة:** شراءُ الرُطب في رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض، **والمحاقلة:** شراءُ الحبّ في سنبله في الحقل بالحبّ على وجه الأرض، والحكمةُ في ذلك لأنّه لا يعلم التساوي بين الشيئين قبل الجفاف.

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (٢٧٦)

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ﴾: المحق هو ذهاب المال شيئًا فشيئًا حتى لا يبقى منه شيء كمحاق القمر آخر الشهر؛ يُذهب اللهُ ﷻ المال الذي جاء بالربا إمّا بأخذه كلّه من يد صاحبه، أو يحرمهُ بركة

المال، بأنْ يعدمه ثوابه في الدنيا، ويعاقب عليه يوم القيامة ﴿الرِّبَا﴾: المعنى اللغوي هو: الكثرة والنمو، قال ابن مسعود: الربا وإنْ كثُر فإنّ عاقبتهُ تصير إلى قلّ، أي القلّة ﴿وَيُرْبِي﴾: يزيدُ ويُبارِكُ ويُضاعفُ ﴿الصَّدَقَاتِ﴾: هناك أحاديثُ عديدةٌ تقول إنّه إذا تصدق العبد من طيّب يقبلها الله ﷻ منه؛ فيأخذها بيمينه ويربيها كما يُربي أحدُكم مُهرهُ أو فصيله ﴿وَاللَّهُ لَا﴾: حرف نفي ﴿يُحِبُّ﴾: إنّ الله ﷻ يكره ويمقت ﴿كُلَّ﴾: تفيد عموم جنس ﴿كَفَّارٍ﴾: الذي هو شديد الكفر، أي الذي غطىّ الإيمان عن قناعاتٍ وإصرارٍ ﴿أَثِيمٍ﴾: الذي يرتكب المحرّمات بالقول والفعل، الجاحد، الذي يأكل أموال النّاس بالباطل، وهذا من الإثم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٧)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿آمَنُوا﴾: بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، وصدّقوا، إنّ الإيمان وحدهُ لا يكفي، فلا بد من اقترانه بأنْ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: وعطفًا على إيمانهم طبّقوا تعاليم الله ﷻ بعمل الصالحات عملًا بما أمرهم الله ﷻ ورسوله ﷺ من خيرٍ لأنفسهم، وللنّاس من حولهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾: أدّوها حقّ الأداء، وحقّ إقامتها ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾: أيضًا أنفقوها الزكاة المفروضة على وجوهها الصحيحة ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿أَجْرُهُمْ﴾: ثوابهم ﴿عِنْدَ﴾: حرفٌ يُفيد ظرف مكان ﴿رَبِّهِمْ﴾: مالك أمرهم كلّه ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: لا خوف في يوم الفزع الأكبر؛ ولا يخافون في الدنيا مغرمًا، ولا يخسرون مالًا، ولا يخافون من أعدائهم ﴿وَلَا هُمْ﴾: تحديدًا ﴿يَحْزَنُونَ﴾: ولا حزن يُصيبهم يوم يفرُّ المرءُ من أخيه، وأمّهِ وأبيهِ، وصاحبتهِ وبنيهِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨)

أسباب النزول: قيل إنّ هذه الآية نزلت في أبناء عمرو بن عُمير وهم من ثقيف، وأبناء المغيرة من مخزوم كان بينهم ربًا في الجاهلية؛ فدخلوا جميعًا في الإسلام، طلبت ثقيف أنْ تأخذ أموالها؛ فتشاوروا، قالت بنو المغيرة: لا نؤدي الربا في الإسلام بكسب الإسلام، فكتب عتاب بن أسيد نائب مكّة إلى الرسول ﷺ، فأرسل الرسول إليه هذه الآية، والآية التي تليها، فقالوا نتوب إلى الله، ونذر ما بقي من الربا؛ فتركوه كلّهم.

﴿يَا أَيُّهَا آمَنُوا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب

﴿اتَّقُوا﴾: تجنبوا غضبه وخافوا ﴿اللَّهَ﴾: وراقبوه فيما يقولون وما يفعلون ﴿وَ﴾: عطفًا على إيمانكم ﴿ذَرُوا﴾: والذرو هو إظهارُ وإعلاءُ، اتركوا، ولا تأخذوا ﴿مَا﴾: الذي ﴿بَقِيَ مِنَ﴾: جزء أو بعض مالكم من النّاس الذي جاء من ﴿الرِّبَا﴾: من الزيادة والفوائد على المال بعد تحريم الله ﷻ له ﴿إِنْ﴾: حرف شرط بمعنى إذا ﴿كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مصدقين بالله تعالى ورسله وكتبه واليوم الآخر.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (٢٧٩)

﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿لَمْ﴾: حرف جزم ينفي الفعل ﴿تَفْعَلُوا﴾: إذا لم تنتصحوا من هذه الآية فلكم تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، للذين يستمرون في تعاطي الربا ﴿فَ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب وتنفيذ الأمر دونَ تأخير ﴿أْذَنُوا﴾: أعلن اللهُ ﷻ الحرب على صنفين من النّاس: الأول آكل الربا والثاني من عادى لله وليًا، اعلموا وتيقنوا وتأكدوا؛ ليعلم كلُّ مخلوقٍ أنّ مصير أكلِ الربا هو الهلاك والدمار؛ لأنّه دخل في حربٍ مع الله ﷻ، ومنْ يفعل ذلك فهو حتمًا هالكٌ ﴿بِ﴾: حرف باء الإلصاق ﴿حَرْبٍ مِنَ﴾: ذكر ﷻ كلمة حرب؛ لكي لا يعرف ماهية هذه الحرب؛ فيجهز لها العدّة لصدّها، وإنما تأتيه من حيث لا يحتسب زلزال، قتل، حريق، دمار... إلخ ﴿اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: قال ابن عباس: يُقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب، وقرأ الآية. قال علي بن أبي طلحة في معنى الآية، فمن كان مقيمًا على الربا لا ينزع عنْه، كان حقًّا على إمام المسلمين أنْ يطلب منه التوبة، يستتيب فإن نزع، وإلّا ضُرب عُنقُه ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿تُبْتُمْ﴾: وإذا امتنعتم عن أخذ الربا ﴿فَلَكُمْ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾: لكم ما دفعتم من غير زيادة أو نقص ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تَظْلِمُونَ﴾: إذا أخذتم الربا فأنتم ظلمتم غيركم ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿تُظْلَمُونَ﴾: لا تظلمون أنفسكم فتمسّكم النّار.

التكليف: ليعلم كلُّ مخلوقٍ أنّ مصير أكل الربا هو الهلاك والدمار؛ لأنّه دخل في حربٍ مع الله ﷻ، ومن يفعلْ ذلك حتمًا هالك، ومن زاوية أُخرى جاء ذكر كلمة حرب نكرة لكي لا يعرف الإنسانُ ماهية هذه الحرب؛ فيُجهز لها العدة لصدها، وإنّما تأتيه من حيث لا يحتسب زلزالٌ، قتلٌ، حريقٌ، دمارٌ... إلخ.

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨٠)

جاء الإسلام ليس فقط ليُغير العبادات، ولكن ليؤسس للمعاملات، ومنها المعاملات الماديّة، هذه الآيةُ تُحدّد سلوكًا سويًا في المعاملات المالية ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط، وإذا ﴿كَانَ ذُو﴾:

صاحبُ الوصفِ بالأسماءِ والصفات ﴿عُسْرَةٍ﴾: ضيق المعاش، إذا نَقُص أو انعدم مالهُ، أو أصابهُ مما أُخذ من ثمره أو تجارته ﴿فَ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب وتنفيذ الأمر ﴿نَظِرَةٌ﴾: أجّلوا، تأجيل ﴿إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾: وقت ميسّر، حيث كان الذي يأكل الربا يقول للذي عليه الدين: إمّا أنْ تقضي، وإمّا أنْ تربي، من الربا، جاءت الآية لتقول يسّروا على الذي عليه الدين إنْ كان مُعسرًا: حتى ييسر اللهُ ﷻ له، أي بتوافر المال، المقصود: تأجيل السداد، حتى يتوافر المال ﴿وَ﴾: وعطفًا على ما سبق اعلموا ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَصَدَّقُوا﴾: أي إمّا أنْ يُسامح في الكلّ، أو في جزءٍ من المال ﴿خَيْرٌ لَكُمْ ﴾: أكثرُ نفعًا لكم تحديدًا وتخصيصًا في الدنيا والآخرة ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: لقد أعلمناكم؛ فما لكم من عذرٍ؛ لقد غيّر الإسلام نمط الحياة الاقتصادية، وجاءت الأحاديث؛ لتعزّز ما جاء في هذه الآية الكريمة وأمثالها، وكلّها تهدف إلى زيادة الرابطة الاجتماعية بين المسلمين؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُظِلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ فَلْيُنْظِرْ مُعْسِرًا، أَوْ لِيَضَعْ عنهُ[1]. تعني يسامحه، قَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: مَنْ نَفَّسَ عَنْ غَرِيمِهِ أَوْ مَحَا عَنْهُ كَانَ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[2]. وقَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: مَنْ أَعَانَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ غَازِيًا، أَوْ غَارِمًا فِي عُسْرَتِهِ، أَوْ مُكَاتَبًا فِي رَقَبَتِهِ، أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلّا ظِلُّهُ[3].

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٨١)

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «هَذِهِ آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ»[4]، عاش الرسول ﷺ تسع ليالي بعد هذه الآية، ثم مات يوم الإثنين في الثاني من ربيع الأول ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿اتَّقُوا﴾: احفظوا أنفسكم ﴿يَوْمًا﴾: هو يوم القيامة ﴿تُرْجَعُونَ﴾: تنقلبون عائدين ﴿فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾: يوم الموت، ويوم البعث ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يفيد التتابع الزمني مع التراخي، أي ليس فورًا ﴿تُوَفَّى﴾: تُنصف ﴿كُلّ﴾: تفيد العموم ﴿نَفْسٍ﴾: وهي جوهر الإنسان؛ جاءت بصيغة نكرة لتفيد العموم ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَسَبَتْ﴾: خيرًا إنْ كان عملُها خيرًا، أو عذابًا إنْ كان عملُها فسادًا ﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُظْلَمُونَ﴾: سيكون حسابهم قضاءً بالعدل.

---

(١) مسند الإمام أحمد ج٢٤/٢٨٧(١٥٥٢٠)، سنن ابن ماجه ج٣/٤٩٣(٢٤١٩) وقال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن في المتابعات والشواهد.

(٢) مسند أحمد /٣٠٨/٣٧(٢٢٦٢٣). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٣) المستدرك للحاكم /٢١٧/٢(٢٨٦٠). وعلق الحاكم: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. وقال شعيب الأرنؤوط: حديث ضعيف دون قوله: أو غارما في عسرته فهو صحيح لغيره، (مسند أحمد (٣/ ٤٨٧).

(٤) صحيح البخاري (٣/ ٥٩).

التكليف: في الآية صورةٌ من صور الالتفاف، وهي الانتقال من صيغةِ الخطابِ إلى صيغةِ الغائب؛ وذلك للفائدة، إذ قال الحق في بداية الآية ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ**﴾ أسلوب خطاب، ثم ختم الآية بصيغة الغائب ﴿**يُظْلَمُونَ**﴾ حتى يعلم كلُّ مخلوقٍ أنّ المقصود بالخطاب هنا الحاضرون، والغائبون؛ حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فليسوا وحدهم المقصودين، وإنّما كلَّ من جاء من أمّة محمدٍ ﷺ بعدهم إلى يوم القيامة، وبعضهم يقول إنّ هذه كانت آخر ما نزل على محمدٍ ﷺ.

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ **(٢٨٢)**

أسباب النزول: تُسمى هذه آيةُ الدين، وهي أطولُ آيةٍ في القرآن الكريم، نزلت في موضوع السُلف، قال ﷺ: مَنْ أَسْلَفَ فِي شَيْءٍ، فَفِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ[(١)]، إنّ من عظمةِ هذا الدين أنّه نظّم حياة الإنسان في كلّ المجالات، ومنها المعاملات الاقتصادية؛ بالتفصيل الواضح في القرآن، ومُعززًا بالسنّة النبويّة المشرّفة ﴿**يَا أَيُّهَا**﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿**الَّذِينَ**﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿**آمَنُوا**﴾: يُرشد الله ﷻ المؤمنين لأنّه يُحبهم ﴿**إِذَا**﴾: حرفُ ظرفٍ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿**تَدَايَنْتُمْ**﴾: التعاملُ بمعاملاتٍ مُؤجلة ﴿**بِ**﴾: حرفُ باء الإلصاق ﴿**دَيْنٍ**﴾: دين المال، أو التجارة ﴿**إِلَى أَجَلٍ**﴾: إلى مدّةٍ ﴿**مُسَمًّى**﴾: محدّدةٍ، وزمنٍ مُتفقٍ عليه ﴿**فَ**﴾: حرف يفيد السبب والتتابع السريع ﴿**اكْتُبُوهُ**﴾: عليكم توثيقُ الدَيْن مكتوبًا؛ لحفظ الحقوق، عن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ،

---

(١) صحيح البخاري /٣/٨٥(٢٢٤٠).

لاَ نَكْتُبُ وَلاَ نَحْسُبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا» يَعْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ، وَمَرَّةً ثَلاَثِينَ[1]، وهذا لا يتناقضُ؛ لأنّ القرآن الكريم كتابُ اللهِ ﷻ قد يسرّه للحفّاظ وسهّله للنّاس، وأمّا ما أمر بكتابتهِ فهي أشياءُ قليلةٌ وصغيرة، والأمرُ هنا أمرُ إرشاد، وليس أمر وجوب، قال ابن جرير: من أدان فليكتب، ومن ابتاع فليُشهد، ولقد كانت الكتابةُ واجبةً حتى نسخِها بقوله ﷻ: ﴿**فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ**﴾ ومع ذلك فإنّه في هذا الزمان الذي زاد فيه عددُ النّاس، وتشابهت أسماؤهم، وتوسعت تجارتهم؛ فإنّ الكتابة أولى؛ لتحقيق الغايات السابقة ﴿**وَ**﴾: حرفُ عطف يعني هنا أيضًا ﴿**لْ**﴾: حرفُ أمرٍ مُوجب ﴿**يَكْتُبْ بَيْنَكُمْ**﴾: بين طرفي الدين ﴿**كَاتِبٌ بِ**﴾: حرفُ باء المصاحبة ﴿**الْعَدْلِ**﴾: أمينٌ نزيهٌ عادلٌ يكتب بالقسط؛ أي لا يظلم طرفًا لطرف، ولا يكتبُ إلّا ما اتفق عليه الطرفان، لا زيادة ولا نقصان ﴿**وَلَا يَأْبَ**﴾: حرامٌ عليه أن يمتنع ﴿**كَاتِبٌ**﴾: الكاتب عن الكتابة إذا سُئِل ﴿**أَنْ**﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿**يَكْتُبَ كَمَا**﴾: مثلما ﴿**عَلَّمَهُ اللَّهُ فَ**﴾: حرفٌ يُفيد السبب وعدم التأخير ﴿**لْ**﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿**يَكْتُبْ**﴾: يكتب النّاس للنّاس، هذا أمرٌ من اللهِ ﷻ لا ضغوط عليه، أي لا إجبار، بلْ يتصدق بالكتابة التي علمّه اللهُ إياها، قال رسول الله ﷺ: مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ جِيءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَدْ أُلْجِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ[2]. ﴿**وَ**﴾: عطفًا على هذا ﴿**لْ**﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿**يُمْلِلِ**﴾: ليقول ويقرُّ للذي يكتب ﴿**الَّذِي**﴾: اسمٌ موصولٌ بالفرد المُذكر ﴿**عَلَيْهِ الْحَقُّ**﴾: الذي أخذ الدين، أي على الذي أخذ الدين أنْ يُملي على الكاتب ما عليه من دينٍ؛ حفظًا للحقوق، وليكن شاهدًا على نفسه ﴿**وَ**﴾: أيضًا ﴿**لْ**﴾: حرف تخصيص ﴿**يَتَّقِ**﴾: يخشى ﴿**اللَّهَ رَبَّهُ**﴾: منسوبًا إلى الله ﷻ مالك أمر كلّ شيءٍ، كلّه، أيّ يقول الصدق خوفًا وتجنبًا لغضب الله ﷻ ﴿**وَلَا**﴾: أيضًا هنا حرف نفي للتحريم ﴿**يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا**﴾: لا يكتم أو يُقلل منه شيئًا ﴿**فَإِنْ**﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿**كَانَ الَّذِي**﴾: اسمٌ موصولٌ بالفرد المُذكر ﴿**عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا**﴾: إذا كان الذي أخذ الدين مُبذرًا، أو مُسرفًا، أو مُفرّطًا، أو محجورًا عليه، أو قليل الفهم ﴿**أَوْ**﴾: حرفٌ يُفيد التسوية بين مُتعاطفين ﴿**ضَعِيفًا**﴾: صغيرًا، أو مجنونًا ﴿**أَوْ لَا**﴾: حرف نفي ﴿**يَسْتَطِيعُ**﴾: لا يقدر ﴿**أَنْ**﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿**يُمِلَّ هُوَ**﴾: وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر كان مريضًا أو جاهلًا لا يعرف الصواب من الخطأ ﴿**فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ**﴾: لهذا السبب على وليِّ أمره أن يملل على الكاتب نيابةً عنه ﴿**بِ**﴾: حرفُ باء المصاحبة ﴿**الْعَدْلِ**﴾: بالصدق ﴿**وَاسْتَشْهِدُوا**﴾: أمرَ اللهُ ﷻ باعتمادِ الشهودِ

---

(1) صحيح البخاري /٣/٢٧(١٩١٣).

(2) المستدرك للحاكم /١/١٠١(٣٤٤). وقال: هَذَا الإِسْنَادُ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. والحديث في مسند أحمد /٢/٣٠٥(٨٠٣٥) وسنن أبي داود، وابن ماجه. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

لزيادةِ التوثيق، على الأقل ﴿شَهِيدَيْنِ مِنْ﴾: بعض ﴿رِجَالِكُمْ﴾: حدّدَ اللهُ ﷻ طبيعةَ الشهداء، رجلين من الشهود، فإذا لم يتوافر ﴿فَإِنْ لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾: لهذا السبب فليكن ﴿فَرَجُلٌ﴾: واحدٌ ﴿وَامْرَأَتَانِ﴾: في حال الأموال يمكن استخدام رجلٍ وامرأتين شهودًا، لمعرفة اللهِ ﷻ بطبيعةِ خلقهِ، والفروق التي بين الرجلِ والمرأة ﴿مِمَّنْ﴾: من الذين ﴿تَرْضَوْنَ﴾: تقبلونهم ﴿مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾: الرضا هنا هو تحقيق شروط الشاهد، أنْ يكون الشاهدُ عدلًا، يُرضى الطرفين حسبةً لله ﷻ ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَضِلَّ﴾: تنسى ﴿إِحْدَاهُمَا﴾: إذا نسيت إحدى النساء من الشهداء، وجاء اللفظ ضلال في القرآن على ثمانية أوجه؛ هنا بمعنى النسيان ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا﴾: التي لم تنس ﴿الْأُخْرَى﴾: تقول الشاهدةُ المتذكّرةُ للتي نسيت، وتحقق شهادتها ﴿وَلَا﴾: حرف تحريم ﴿يَأْبَ﴾: يرفض إذا طُلب منهم الشهادة فعليهم أنْ يستجيبوا؛ إنّ تحَمُّل مهمة الشهادة يراه بعضهم واجبًا، لكن هذا ليس فرض عين، بل فرض كفاية؛ والله أعلم، عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا»[1] ﴿الشُّهَدَاءُ إِذَا﴾: حرفُ عطفِ ما بعدها على ما قبلها ﴿مَا دُعُوا﴾: طُلب منهم ﴿وَلَا﴾: حرف نهي وتحريم ﴿تَسْأَمُوا﴾: لا ترفضوا ولا تملّوا من الملل ﴿أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾: توثقوه مكتوبًا ﴿صَغِيرًا﴾: قليلًا ﴿أَوْ﴾: حرفُ عطفٍ يُفيد التسوية بين ما بعدها بما قبلها ﴿كَبِيرًا﴾: جاءت كلمةُ كبير هنا بمعنى كثير ﴿إِلَى أَجَلِهِ﴾: مدّته ﴿ذَلِكُمْ﴾: اسم إشارة في هذا الذي حدث، وجاء ذكره فيما سبق، وأخبر اللهُ ﷻ عنه ﴿أَقْسَطُ﴾: هذا أعدل ﴿عِنْدَ﴾: ظرف زمان، وظرف مكان ﴿اللَّهِ وَأَقْوَمُ﴾: أثبتُ وأعدلُ ﴿لِلشَّهَادَةِ﴾: الذي إذا كتبهُ بيدهِ تذكّر ما كتب، إذا أنساه الزمن ﴿وَأَدْنَى﴾: أقرب ﴿أَلَّا﴾: حرفٌ يفيد التنبيه ﴿تَرْتَابُوا﴾: تشكّوا؛ لأنّه وثيقةٌ مكتوبةٌ بين الأطراف ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً﴾: والتجارةُ هي استخدامُ رأس المالِ في البيعِ والشراء؛ طلبًا للربح، إذا كانت عملية البيع ﴿حَاضِرَةً﴾: البيع بالحاضر يدًا بيد، فلا بأس من عدم الكتابة؛ لأنّه لا يوجد محذور ﴿تُدِيرُونَهَا﴾: تُتداول ﴿بَيْنَكُمْ فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقص يفيد النفي ﴿عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾: حرجٌ ﴿أَلَّا﴾: حرفُ تخصيص ﴿تَكْتُبُوهَا وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أَشْهِدُوا﴾: ليكن بينكم شهود ﴿إِذَا﴾: حرفُ ظرفٍ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿تَبَايَعْتُمْ﴾: إذا كان هناك بقيةٌ من الحقوق فيجب تحقيق الشهداء على الحقوق المتبقية إنْ كان لها أجل، أو لم يكنْ لها أجل، هذا الأمر منسوخ بالآية: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ [البقرة-

---

[1] صحيح مسلم /٣/١٣٤٤(١٧١٩).

٢٨٣]، فالأمر هنا على الندب وليس على الوجوب، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ثَلَاثَةٌ يَدْعُونَ اللَّهَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ: رَجُلٌ كَانَتْ تَحْتَهُ امْرَأَةٌ سَيِّئَةَ الْخُلُقِ فَلَمْ يُطَلِّقْهَا، وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ عَلَى رَجُلٍ مَالٌ فَلَمْ يُشْهِدْ عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ آتَى سَفِيهًا مَالَهُ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ**﴾ [النساء-٥][1] ﴿**وَلَا**﴾: حرف نهي وتحريم ﴿**يُضَارَّ**﴾: لا تضروا ﴿**كَاتِبٌ**﴾: بسبب كتابته لكم الشهادة ﴿**وَلَا**﴾: حرامٌ أيضًا أنْ يُضار ﴿**شَهِيدٌ**﴾: كأنْ يُجبر الشاهدُ أو الكاتب؛ فيكتب خلاف ما يُملي، ويشهد بخلاف ما سمع، أو يكتم الجميع، وقيل لا يُضار بهما، أي يُؤذَى إذا شهد الحق ﴿**وَإِنْ**﴾: حرف شرط ﴿**تَفْعَلُوا**﴾: إنْ خالفتم ما أمرتكم به، أو فعلتم ما نَهيتكم عنه ﴿**فَ**﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿**إِنَّهُ**﴾: بالتأكيد ﴿**فُسُوقٌ**﴾: خروج عن أمر الله ﷻ وحدوده ﴿**بِكُمْ**﴾: ملازمٌ لكم ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾: بالخوف، والترقب، واتباع الأوامر، وترك النواهي ﴿**وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ**﴾: يفيد العموم ﴿**شَيْءٍ**﴾: جاءت بصيغةِ نكرةٍ لتؤكد العموم ﴿**عَلِيمٌ**﴾: عالمٌ بحقيقةِ الأمور، ومصالحها، وعواقبها، علمُه محيطٌ بجميع الكائنات، ويُعلِّم أولياءَهُ حتى لا يضلوا.

التكليف: من أعظم الوسائل لتحقيق العدل في المعاملات الماديّة ما شرّعهُ اللهُ ﷻ في هذه الآية الكريمة وأمثالها، فإذا جرت معاملاتٌ ماليةٌ مؤجلةٌ يجب كتابتُها لتحقيق الغايات التالية: الأولى: حفظ مقدارها، والثانية: تحديد ميقاتها، و الثالثة: ضبط الشهداء عليها.

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٢٨٣)

﴿**وَإِنْ**﴾: حرف شرط ﴿**كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ**﴾: وإذا كنتم في السفر، وتداينتم إلى أجلٍ مسمّى ﴿**وَلَمْ**﴾: حرف نفي﴿**تَجِدُوا كَاتِبًا**﴾: لم تجدوا ما يُحققُ شرط الكتابة، مثل غياب الكاتب، أو عدم وجود ورق، أو قلم ﴿**فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ**﴾: بدل الكتابة رهانٌ، مثل بعض الذهب أو عقار، أو مواد تجارية تُعطى لصاحب الحق، أي يقبضها صاحب الحق، وتكون في يده، ومن هنا استدل مجاهدٌ وآخرون أنّه لا يكون الرهن مشروعًا إلّا في السفر ﴿**فَإِن**﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿**أَمِنَ بَعْضُكُمْ**﴾: جزءٌ أو جماعةٌ منكم ﴿**بَعْضًا**﴾: الجزء أو الجماعة الأخرى، يقول أبو سعيد الخدري: هذه الآية نسخت ما قبلها، وقال الشعبي: لا بأس ألّا تكتبوها أو لا تشهدوا إذا توافر ائتمان بعض ﴿**فَ**﴾: حرفٌ يفيد الجواب ﴿**لْ**﴾: حرف تخصيص ﴿**يُؤَدِّ**﴾: يردّ ويُرجع، والأداءُ هو دفعُ الحقِ دُفعةً

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٣٣١)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ» ووافقه الذهبي.

كأداء الخراج والجزية، ورد الأمانة ﴿الَّذِيَ﴾: اسمٌ موصولٌ بالفرد المُذكر ﴿اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾: واجبُ ردّ الأمانةِ ﴿وَلْيَتَّقِ﴾: يتجنب غضب ﴿اللَّهَ﴾ ﷻ ﴿رَبَّهُ﴾: تعني كلمةُ الرب: المُعبود، والمُربي، وهو إنشاء الشيء في الكون حالًا فحال إلى حدّ التمام، وهو الخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيط، والمُدبّر، والجابرُ لكسر البرايا، والثابت، والقريبُ، والجامعُ، والمصلحُ، والسيدُ ﴿وَلَا﴾: هنا حرف تحريم ﴿تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾: لا تُخفوها؛ لأنّها من أكبر الكبائر، قال ابن عباس: شهادةُ الزور من أكبر الكبائر، وكتمانُها كذلك ﴿وَمَنْ﴾: الذي من البشر ﴿يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ﴾: فاجرٌ مذنبٌ ﴿قَلْبُهُ﴾: ويعززُ المعنى: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ﴾ [المائدة– ١٠٦] ﴿وَاللَّهُ بِمَا﴾: اسم موصول، بالذي ﴿تَعْمَلُونَ﴾: سرًا أو جهرًا ﴿عَلِيمٌ﴾: يعلم تفاصيل العمل وخبايا النيات.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٨٤)

﴿لِلَّهِ﴾: إنّ مُلك الله ﷻ ﴿مَا﴾: حرفٌ يُفيد كلّ الذي ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض، وأحاط بها؛ لكونها بيضاويّة الشكل ﴿وَمَا﴾: أيضاً كلّ الذي من جنس غير العاقل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: يُخبر الله ﷻ أنّه مالك السموات والأرض، وما فيهن، وما بينهّن، المُطّلع على كلّ شيءٍ فيهن من السرائر والضمائر، مهما بلغ حجمها ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿إِنْ﴾: حرف تأكيد ﴿تُبْدُوا﴾: إذا أظهرتم ﴿مَا﴾: الذي ﴿فِي أَنْفُسِكُمْ﴾: ما تكتمونه داخلكم ﴿أَوْ﴾: حرفُ عطفٍ يُساوي ما بعده بما قبله ﴿تُخْفُوهُ﴾: أو تُبقوه في صدوركم ﴿يُحَاسِبْكُمْ بِهِ﴾: يُحاسبُ عليه ﴿اللَّهُ فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿يَغْفِرُ﴾: يمحو ذنوب ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿مَنْ﴾: للمفرد من جنس العاقل ﴿يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: ولأنّها بصيغةِ النكرةِ فهي تُفيد عموم الأشياء ﴿قَدِيرٌ﴾: سيُحققُ المحاسبة على الإظهار والإخفاء، وعلى الجميع كما فعل الصحابة، لقد تجنبوا جليل الأعمال المحرّمة وصغيرها؛ لأنّ الحساب واقع. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة– ٢٨٤]، قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللهِ، كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدِ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ،

قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ، ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي إِثْرِهَا: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة-٢٨٥]، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة-٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة-٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة-٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة-٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ[1].

التكليف: لقد أفاد تقديمُ لفظِ الجلالةِ **لِلَّهِ** في أول الآية، وحقق التأخير؛ ليُفيد الاختصاص؛ أي أنّ ما في السماوات وما في الأرض لله وحده، ولا يشاركهُ في ملكهِ أحدٌ، وهو بخلاف لو قيل ما في السماوات وما في الأرض لله. ومن المعلوم أنّ العلماء قد أجمعوا على أنّ هذه الآية منسوخة بالآية رقم ٢٨٦ من سورة البقرة **﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾**

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨٥)

﴿آمَنَ﴾: تحقق التصديق بالقلب والجوارح **﴿الرَّسُولُ﴾**: محمد ﷺ **﴿بِمَا﴾**: اسمٌ موصولٌ، بمعنى الذي **﴿أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾**: ما جاء في الآية السابقة [البقرة-٢٨٤] **﴿وَ﴾**: أيضًا آمن **﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾**: وآمن صحابتهُ ﷺ **﴿كُلٌّ﴾**: الجميع **﴿آمَنَ بِ﴾**: حرف باء الصلة **﴿اللَّهِ﴾**: ربًّا **﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾**: حقًّا **﴿وَكُتُبِهِ﴾**: وآخرها القرآن الكريم **﴿وَرُسُلِهِ﴾**: كلُّهم، وآخرهُم محمد ﷺ **﴿لَا﴾**: حرف نفي، إنّنا ننفي أنْ **﴿نُفَرِّقُ﴾**: نتمايز أو ننحازُ **﴿بَيْنَ أَحَدٍ﴾**: واحدٍ والآخر **﴿مِنْ﴾**: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعض **﴿رُسُلِهِ﴾**: لا نؤمنُ ببعضٍ ونكفرُ ببعضٍ، بل نؤمن بهم كلّهم تصديقًا **﴿وَ﴾**: عطفًا على إيمانهم **﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾**: بعدما سمعنا كلام الله ﷻ قبلنا، ورضينا، وطبقنا؛ ننشد **﴿غُفْرَانَكَ﴾**: نطلب عفوك عنّا ومغفرتك لنا، ونؤمن أنّه **﴿رَبَّنَا﴾**: مالك أمرنا كلّه **﴿وَ﴾**: حرفٌ عطفٍ يفيد هنا الحال، ما سبق **﴿إِلَيْكَ﴾**: المآل والرجعة

---

[1] صحيح مسلم /١/١١٥(١٢٥).

﴿الْمَصِيرُ﴾: نعلم أنّنا سنُبعث يوم القيامة ونُحاسب، وعندما أمرهم رسول الله ﷺ أنْ يقولوا سمعنا وأطعنا، قالوا بإيمانٍ وتصديقٍ؛ فنزلت شهادةُ اللهِ ﷻ فيهم في كتابه العزيز إلى يوم القيامة، قال أبو هريرة: أنّ الله نسخ هذه الآية بالتي نزلت بعدها: وقيل إنّها لم تُنسخ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، يَرْفَعُهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا وَسْوَسَتْ، أَوْ حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ أَوْ تَكَلَّمْ»(١)، وجاء أيضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ: إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فَلاَ تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ(٢)، وجاء أيضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلاَمَهُ: فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا(٣).

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٨٦)

أسباب النزول: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ **﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** [البقرة-٢٨٤]، قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللهِ، كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدِ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ، ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي إِثْرِهَا: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾** [البقرة-٢٨٥]، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ ﷻ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: **﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾** [البقرة-٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ **﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾**

---

(١) صحيح البخاري /٧/٤٦(٥٢٦٩).
(٢) صحيح البخاري (٩/ ١٤٤).
(٣) صحيح البخاري /١/١٧(٤٢).

[البقرة–٢٨٦] قالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة–٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة–٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ[١].

﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُكَلِّفُ﴾: يفرض ﴿اللَّهُ نَفْسًا﴾: والنفسُ هي جوهرُ وذات المخلوق الحي، ومن لُطفِ اللهِ ﷻ وفضلهِ على أُمّة محمد ﷺ أنّه ﷻ لا يأمرُ نفسًا من خلقهِ بشيءٍ ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿وُسْعَهَا﴾: ما تقدرُ على فعلهِ، لا يكلّفُ اللهُ ﷻ الإنسانَ فوق طاقتهِ ﴿لَهَا﴾: للنفس الجزاء الحسن ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَسَبَتْ﴾: الكسب دائمًا في الخير، أي جنت من خيرٍ لا يُنقصُ منه شيءٌ ﴿وَعَلَيْهَا مَا﴾: الذي ﴿اكْتَسَبَتْ﴾: أي ما جنت من شرٍّ في مخالفةِ الأعمال التي تدخل تحت التكليف؛ فجزاؤه ما اكتسب من ذنب، لا يحمله عنه أحدٌ ﴿رَبَّنَا﴾: يا مالك أمرنا كلّه، يا من أنشأتنا وربيتنا حالًا بعد حالٍ، هنا إقرارٌ بعبودية الخلق للخالق ﷻ ﴿لَا﴾: حرفُ نفيٍّ بمعنى: انفِ يا ربّ عنّا المُساءلة والعذاب، ولا ﴿تُؤَاخِذْنَا﴾: لا تحاسبنا فتعاقبنا ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿نَسِينَا أَوْ﴾: حرف يساوي بين ما بعده بما قبله ﴿أَخْطَأْنَا﴾: يُعلّمُ اللهُ ﷻ أولياءه كيف يدعونه؛ ليغفر لهم إذا نسوا فريضةً، أو فعلوا حرامًا، أو أخطؤوا العمل؛ جهلًا منهم على الوجهِ الشرعي، جاء لفظ الخطأ في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه، هنا بمعنى الخطأ غير العمد، كما جاء بمعنى مذنب من غير شرك ﴿في قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف–٩٧]، وبمعنى مذنب في الشرك في قوله ﷻ ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص–٨]، وفي قوله أيضًا ﴿لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة–٣٧]، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»[٢]، ﴿رَبَّنَا وَلَا﴾: أداةُ نهي، لكنّها لم تحمل معنى النهي الحقيقي، وإنّما خرج لإفادة الدعاء، وهو طلب الكفّ عن الفعل على سبيل التذلل، والتضرع، والخضوع؛ لأنّهُ من الأدنى (العبد) إلى الأعلى (ربّه)، وهكذا كلُّ النهي في هذه الآية، كلّهُ دعاء ﴿تَحْمِلْ عَلَيْنَا﴾: لا تكلّفنا ﴿إِصْرًا﴾: عبئًا ثقيلًا من التكاليفِ الشاقّةِ علينا، لا نستطيع تنفيذه من الأعمال ﴿كَمَا﴾: مثلما ﴿حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع مَنْ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانية، ﴿قَبْلِنَا﴾: كما شرّعت للأمم السابقة من الأغلال، والآصار، وهم اليهود الذين عاقبتهم على ظلمهم لأنفسهم ﴿رَبَّنَا وَلَا﴾: حرف نفي ﴿تُحَمِّلْنَا﴾: تفرض علينا من التكاليف ﴿مَا﴾: الذي ﴿لَا﴾: حرفُ نفي

---

[١] صحيح مسلم (١/ ١١٥).

[٢] سنن ابن ماجه /٦٥٩/١(٢٠٤٥). قال محمد فؤاد عبد الباقي: إسناده صحيح، وكذلك صححه الألباني.

﴿طَاقَةَ﴾: قدرةً ﴿لَنَا﴾: تخصيصًا ﴿بِهِ﴾: أكثرَ مما نطيق ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾: سامح منّا التقصير والزلل ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾: امح ما بيننا وبين عبادك من الذنوب؛ فلا تُظهرهم على عيوبنا ﴿وَارْحَمْنَا﴾: اغفر لنا ما قدمنا، ولا تُوقعنا في ذنبٍ آخرَ؛ من هذا الدعاء الذي علّمنا إيّاه اللهُ ﷻ نستخلص: أنّ المُذنب محتاجٌ إلى ثلاثةِ أشياء: أنْ يعفو اللهُ عنه فيما بينه وبين الله ﷻ، وأنْ يسترهُ عن عباده فلا يفضحهُ بينهم، وإنْ يعصمهُ فلا يقعُ في معصيةٍ ﴿أَنْتَ﴾: سبحانك ﴿مَوْلَانَا﴾: إقرارُ العبدِ لخالقه: أنّك أنت وليّنا وناصرُنا، عليك توكلنا، بك نستعين وعليك نتكل، ولا حول ولا قوة إلّا بك ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿انْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ﴾: الجماعةِ، أصحابِ مذهبِ كفرٍ واحدٍ ﴿الْكَافِرِينَ﴾: انصرنا على الذين أخفوا حقيقة دينك، وأنكروا وحدانيتك، ورسالة نبيّك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك. كان معاذ يقول في نهاية هذه السورة: آمين.

التكليف: إنّ الهدف من هذه السورة الكريمة إعداد الأمّة الإسلامية لعمارة الأرض على القواعد الربّانية، بثبات صفوف النّاس، والعمل بأصولِ الإيمان، وتحقيق الغايات الكليّة من العقيدة.

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

ترتيبها 3 — آياتها 200

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

سميت بهذا الاسم في المصاحف وكتب التفسير والسُنّة. ووجه تسميتها: بسورة آل عمران أنها ذُكرت فيها فضائل آل عمران. وأُطلق عليها هي وسورة البقرة الزهراوين، تسمى الأمان، والكنز، والمجادلة، وسورة الاستغفار، وهي سورةٌ مدنيةٌ بالاتفاق، وقد عُدّت السورة الثامنة والأربعين في عداد سور القرآن، نزلت بعد سورة البقرة، ونزلت قبل سورة الأنفال، وعدد آياتها: مائتان في عدّ الجمهور، وعددها عند أهل العدد بالشام مائة وتسع وتسعون، جاءت الثلاثُ وثمانون آية الأولى من هذه السورة للتأكيد على قضية التوحيد والعقيدة الصحيحة ولدحض العقيدة الفاسدة التي تبناها وفدُ نصارى نجران المعتقدين أنّ عيسى ؑ، هو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، أو أنّه هو الله.

أسباب النزول: نزلت هذه السورة الكريمة في المدينة، بعد وصول وفد نجران النصارى يحاجّون في عيسى ؑ، ويزعمون أنّه ابن الله، عَنْ جَابِرٍ أَنَّ وَفْدَ نَجْرَانَ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: مَا تَقُولُ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ: «هُوَ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ وَعَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» قَالُوا لَهُ: هَلْ لَكَ أَنْ نُلَاعِنَكَ أَنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ؟ قَالَ: «وَذَاكَ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «فَإِذَا شِئْتُمْ» فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَجَمَعَ وَلَدَهُ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَقَالَ رَئِيسُهُمْ: لَا تُلَاعِنُوا هَذَا الرَّجُلَ فَوَاللَّهِ لَئِنْ لَاعَنْتُمُوهُ لَيُخْسَفَنَّ

أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ. فَجاؤوا فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُلَاعِنَكَ سُفَهَاؤُنَا وَإِنَّا نُحِبُّ أَنْ تُعْفِيَنَا قَالَ: «قَدْ أَعْفَيْتُكُمْ» ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَذَابَ قَدْ أَظَلَّ نَجْرَانَ»[1].

﴿الم﴾ (١)

وكما في سورة البقرة فإنّ أصل الضمائر في الكلام أنْ تعود على متقدمٍ في اللفظِ والرتبة، ولا تعود على متأخرٍ في اللفظ والرتبة، بمعنى ما هو الاسم الذي سبق، وعليه فإن الحرفين ﴿أل﴾: أرى – والله أعلم– يعنيان اسم الله ﷻ، والدليلُ، على من يعود الضمير ويؤكد ذلك ما قاله علماء النحو والبلاغة، وما جاء في أول الآية رقم (٢) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وجاء في الآية (٣) ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ولم يدّع أحدٌ قبلهُ ﷻ أنّه أنزلها، وجاء في الآية (٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ جاء هنا اسم الله صريحًا، وجاء فيها أيضًا إنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ، وجاء في أول الآية رقم (٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ﴾.

حرف ﴿م﴾: أرى – والله أعلم– أنّهُ يعني محمدًا ﷺ: ويُعزّزُ هذا ما جاء في أول الآية رقم (٣) ﴿نزّل عليك﴾، ولم يسبق هذا ضمير يعود على اسم، ومن المعروف أنّ القرآن الكريم قد نزل من الله ﷻ على محمدٍ ﷺ، وجاء في الآية رقم (٧) ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ ويعود الضمير من الله تعالى على محمدٍ ﷺ.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (٢)

﴿اللَّهُ﴾: أسمُ اللهِ ﷻ الأعظم، انظر سورة الفاتحة، ﴿لَا﴾: حرفُ نفي ﴿إِلَهَ﴾: معبودًا يستحقُ العبادة ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ مُنقطع ﴿هُوَ﴾: المقصود هنا الله ﷻ، وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر ﴿الْحَيُّ﴾: الذي لا يموت ﴿الْقَيُّومُ﴾: دائمُ القيام بتدبير شئونِ خلقهِ، وحفظهم ورزقهم.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٣)

﴿نَزَّلَ﴾: تفيد أنّ مصدر التنزيل هو العلو، والسمو، والرفعة، وتُفيد فضل الله ﷻ، وعظمته، ورفعته، فقد أخبرَ ﷻ أنّه أنزل ﴿عَلَيْكَ﴾: الضمير يعود على الرسول محمد ﷺ وحده ﴿الْكِتَابَ﴾: القرآن الكريم ﴿بِ﴾: حرف باء المصاحبة ﴿الْحَقِّ﴾: بالصدق فمع الإعلام الصادق فيما حدث في الماضي، والعدلُ في الأحكام لا شك فيه، ولا ريبَ أنّه من عند الله ﷻ، أنزلهُ بعلمه، ويشهدُ الملائكةُ على ذلك، واللهُ يشهدُ وهو خيرُ الشاهدين ﴿مُصَدِّقًا﴾: تصديقًا وتوافقًا مع ما ورد في الكُتبِ التي أُنزلت من قبل، والتي بشّرت بمجيء محمد ﷺ، وما جاء في كتاب الله ﷻ، القرآن

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٦٤٩)، وقال هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

الكريم ﴿لِمَا﴾: للذي، حرفٌ يدلُّ على ما حدث في الماضي ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: الكتب السماوية التي نزلت قبل القرآن الكريم، وقبل بعثةِ محمدٍ ﷺ ﴿وَ﴾: أيضًا أنزل ﴿أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ﴾: التي نزلت على موسى بن عمران عليه السلام ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾: أيضًا أنزل على عيسى بن مريم عليه السلام.

﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (٤)

﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلُ﴾: من قبل القرآن الكريم، وقبل بعثة محمد ﷺ ﴿هُدًى﴾: ليدلّ الإنسانَ على الصراط المستقيم ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿النَّاسِ﴾: لتهدى النّاس، عموم البشر، إلى عبادة الله ﷻ وحده، وطاعته ﴿وَأَنْزَلَ﴾: أيضاً من عنده ﴿الْفُرْقَانَ﴾: جاء اللفظ القرآني "الفرقان" على ثلاثةِ وجوه، هنا بمعنى القرآن، وكذلك في قوله ﷻ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان–١]، قال بذلك قتادة، والربيع، وبمعنى النصر في قوله ﷻ ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة– ٥٣]، وفي قوله أيضًا ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال–٤١]، وبمعنى المخرج في قوله ﷻ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة–١٨٥]، وفي قوله أيضًا ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال–٢٩]، هو الذي يفرق بين الحق والباطل، بين الهدى والضلال، وبين الرشاد والغي، بما فيه من حقائق وبينات، ودلائل واضحة، وبراهين قاطعة ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: الذين غطوا، وأنكروا، وتكلموا بالباطل ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: جاء التنوين هنا للتفخيم والتهويل؛ ستُصيبُهم صنوفُ العذابِ التي وردت في القرآن الكريم، عذابٌ شديدُ الإيلام، شديدُ القوة، وموعده يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾: هو الغالبُ، القويُّ، منيعُ الجناب، عظيمُ السلطان ﴿ذُو﴾: صاحبُ الوصف بالأسماءِ والصفات، يملكُ ويتحكم ﴿انْتِقَامٍ﴾: جزاءٍ أو عقابٍ، على كذب المكذبين بآياتهِ، ومخالفةِ رسلهِ وأنبيائه، عليهم السلام.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٥)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ لَا﴾: حرف نفي ﴿يَخْفَى﴾: لا يغيب ﴿عَلَيْهِ﴾: ولا يُحجب عنه ﴿شَيْءٌ﴾: تفيد العموم، صغيرٌ أو كبيرٌ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: من غير العاقل من الخلق ومن العاقل على الأرض ﴿وَلَا﴾: حرفُ نفي أنْ يغيب عنه شيءٌ ﴿فِي السَّمَاءِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض وأحاط بها، كلُّ مخلوق في السماء من كواكب، وملائكة، وغيرهم إلّا يعلمهُ اللهُ ﷻ.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦)

﴿هُوَ﴾: ضميرٌ يُشيرُ إلى اللهِ ﷻ الواحدِ الأحد، وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر ﴿الَّذِي﴾: اسمٌ موصولٌ بالفرد، والمقصود هنا الله ﷻ ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾: يخلق الذكر والأنثى، ويحددَ الشكلَ حُسناَ أم قُبحاَ، ويحددُ المصير، شقيًّا أم سعيدًا، أبيضًا أم أسودًا أم أصفرًا ﴿فِي الْأَرْحَامِ﴾: جمع رحم المرأة، وهو عضوٌ صغيرُ الحجم، يكون طولهُ في المرأة غير الحامل (٧,٥) سم، وعرضه (٥) سم، وسمكه (٢,٥) سم، به تجويفٌ ليس فيه فراغ، ما أنْ تُوضع فيه النطفةُ وينمو الجنين حتى يصلُ حجمُهُ إلى ما يتسع للطفل والمشيمة، في حجمٍ قد يصل المعدة في أعلى البطن، ثم يخرجُ المولود، ويعودُ الرحمُ لحجمهِ الأول، وهذه معجزةُ خلقٍ، سبحان الخالق ﴿كَيْفَ﴾: استفهامٌ يفيد التعجب، هنا بمعنى مثلما ﴿يَشَاءُ﴾: هو ﷻ الذي يُحدّد شكل الطفل، وجنسه ذكرًا أو أنثى، وموعد نزوله، وهل سيسقط أم يكتمل ﴿لَا﴾: حرف نفي أنْ يكون ﴿إِلَهَ﴾: معبودًا يستحق العبادة ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿هُوَ﴾: ﷻ، هنا تصريح بأنّ عيسى ﵇ كان في رحم مريم، عليها السلام، فهو مخلوقٌ كبقية البشر من الخلق، فقد صوّرهُ اللهُ ﷻ في رحم أمّه بإرادته ﷻ، وانتقل من حالِ النطفة التي لا تُرى بالعينِ المجرّدةِ إلى العلقة التي تتكون من عددٍ من الخلايا، ثم مضغةٍ أي بحجم قطعةِ الخبز التي في فمّ الإنسان، إلى طفلٍ كاملٍ، ثم يخرجُ من رحم أمِّهِ كما يُخرجُ الطفلُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فكيف يكون عيسى ﵇ إلهًا كما زعم النصارى، ضمير يعود على الله ﷻ ﴿الْعَزِيزُ﴾: وصفةُ العزّةِ هنا بالغة الدلالة، كلّ ما يمرُ فيه الإنسان في خلقهِ من ضعفٍ إلى ضعفٍ، واللهُ عزيزٌ لا يضعف، منيعُ الجانب ﴿الْحَكِيمُ﴾: الحَكم والمُحكم الذي لا خلل فيه من الأقوال والأفعال بالعدل، الذي خلق كلّ شيء بحكمتهِ، وقدرتهِ، وسلطانهِ؛ فسارت كلُّ المخلوقات في الكون بطاعتهِ؛ فأدّت دورها في سهولةٍ ويسرٍ.

التكليف: هذه الآية من الآيات التي تُبطل ألوهية المسيح ﵇؛ لأنّه كغيره مخلوق ممن صورهم اللهُ ﷻ على ما شاء؛ فكيف يكون بعد ذلك إلهًا؟

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٧)

﴿هُوَ﴾: ضميرٌ يعني هنا على الله ﷻ وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر ﴿الَّذِي﴾: اسم موصولٌ بالفرد، والمقصود هنا الواحدُ الأحدُ الفردُ الصمدُ، الله ﷻ ﴿أَنْزَلَ﴾: بعثَ إليك جبريل ؏؛ فنزل ﴿عليك﴾: ضميرٌ يعودُ على محمدٍ ﷺ ﴿الْكِتَاب﴾: هو القرآن الكريم ﴿مِنْهُ﴾: فيه بعضُ ﴿آيَاتٌ﴾: مكونات السور، والدلائل، والبراهين ﴿مُحْكَمَاتٌ﴾: واضحاتٌ، مُبينات، لا التباس فيها على أحدٍ، لا يختلف فيها النّاس، خاصّة أصحابُ العقول والألباب، هي حُججُ الرّب ﷻ، وعصمةُ العباد، ودفع الخصوم بالباطل، ليس لهن تصريفٌ، ولا تحريفٌ عن غرضهن، هنَّ كلماتُ الصدق، لا تأويل فيهن، ابتلى اللهُ ﷻ بهنّ العباد، كما هو الابتلاء بالحلال والحرام، فلا تذهبُ هذه الآياتُ إلى الباطل، ولا تنحرفُ عن الحق فقد حددت الحدود والعبادات والعبر والعظات ﴿هُنَّ﴾: ضميرُ رفعٍ منفصلٍ للجمع المؤنث الغائب ﴿أُمُّ﴾: الأمُّ هي الوالدةُ القريبة التي ولدت وليدها، وهي أيضًا للأمِّ البعيدةِ مثل أمّ البشرية حواء، عليها السلام، هي أصلهُ يُردُّ إليها غيره: وأمُّ الشيءِ رأسُه، فيقال ضربهُ على أمّ رأسه، وهي هنا مرجعٌ أعلى في القرآن، ودلالاتُها واضحةٌ، ومعانيها راسخةٌ ﴿وَأُخَرُ﴾: وأنزل أيضًا غيرها من آيات ﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾: غير ظاهرة الدلالة؛ محتملة المعانيّ يصعب على غير الراسخين في العلم القول فيها، تحتاج إلى عرضها على الآيات المحكماتُ، فإنْ وافقتها؛ عُمل بها، وهذه المتشابهاتُ تحتملُ معاني أُخرى من حيث اللفظِ، والتركيبِ، والمرادِ والغاية، ومنها الآياتُ المنسوخةُ، والمُقدمةُ، والمُؤخرةُ، والأمثال في القرآن، والأقسام، وما يؤمن به الخلق، وما لا يُعمل به، وقيل هي الحروف المقطعة في أوائل السور، وهي التي يُصدّق بعضُها بعضًا، جاء بالمعنى: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر-٢٣]، وقيل هنا المتشابه الذي يكون في سياقٍ واحدٍ، والمثاني الذي يقول عن شيئيين متقابلين كصفةِ الجنّة، وصفةِ النّار ﴿فَأَمَّا﴾: حرفُ تفضيلٍ وتوكيدٍ بمعنى أي ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾: مراكز الوعي والإدراك ﴿زَيْغٌ﴾: ميلٌ وانحرافٌ عن الحق، المصابون بأمراض الضلال وإنكار الحق ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيدُ السبب ﴿يَتَّبِعُونَ﴾: يعتمدون في فهمهم وعملهم ﴿مَا﴾: الذي من جنس غير العاقل ﴿تَشَابَهَ مِنْهُ﴾: الذي يُمكنهم تحريفهُ، وتسخيرهُ لمقاصدهم الفاسدة، معتمدين فيه على احتمالات المعاني اللفظية؛ فيصرّفونه كيف يشاؤون، ويبتعدون عن المُحكم؛ لأنّه لا يخدم مصالحهم، ولا يلبي أهواءهم،

وهو حُجّةٌ عليهم ﴿ابْتِغَاءَ﴾: إنّ مُرادهم ورغبَتهم ﴿الْفِتْنَةِ﴾: يريدون بعد ضلالهم أنْ يُضلّوا أتباعهم، يوهمونهم أنّهم يحتّجون بالقرآن في بدعتهم؛ رغبةً في الضلال، وهي ابتغاء الفتنة، مثلما قال النصارى، يقول الله ﷻ: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء–١٧١]، وتركوا قوله ﷻ: ﴿إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف–٥٩] ﴿وَابْتِغَاءَ﴾: أيضًا الرغبة في ﴿تَأْوِيلِهِ﴾: قال السدي رغبةً في تحريفه بحسب أهوائهم، وعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران–٧] إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيهِ، فَهُمُ الَّذِينَ عَنَاهُمُ اللَّهُ، فَاحْذَرُوهُمْ[1]، وقال ﷺ: « فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ»[2].

ملخص المعاني: التحريف، معرفة العواقب، الجدال، اتباع المتشابه للتهرب من التعليم، إنّ التأويل في اللغة هو الرجوعُ إلى مرادِ المتكلمِ وتفسيرِهِ، وقيل هم الخوارج، وقيل يوم وزّعَ الرسولُ ﷺ غنائم حنين، فقد رأت عقولُهم الفاسدة أنّه لم يعدل في القسمة؛ فقالوا بهذه المقالة، حيث قال ذو الخويصرة: اعدل، فإنّك لم تعدل، عن أَبَي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ؓ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا، أَتَاهُ ذُو الخُوَيْصِرَةِ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ، فَقَالَ: «وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ». فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ؟ فَقَالَ: «دَعْهُ، فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ القُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَمَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ، – وَهُوَ قِدْحُهُ – فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، قَدْ سَبَقَ الفَرْثَ وَالدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ، إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ المَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، وَيَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ» قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا الحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ، فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ فَالْتُمِسَ فَأُتِيَ بِهِ، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي نَعَتَهُ[3]، وقد ظهروا في عهد علي ؓ، وقتَلَهم بالنهروان، ثم تشعبت منهم شعوب، وقبائل، وآراء، وأهواء، ومقالات، ونحل كثيرة منتشرة، ثم انبعثت القدرية، ثم المعتزلة، ثم الجهمية، وغيرها من أهل البدع التي أخبر عنها

---

[1] سنن ابن ماجه /١/١٨(٤٧). قال الألباني: صحيح.

[2] صحيح البخاري /٦/٣٣(٤٥٤٧).

[3] صحيح البخاري /٤/٢٠٠(٣٦١٠).

رسول الله ﷺ، التي أخبر عنها رسول الله ﷺ في قوله: وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، يَعْنِي: الْأَهْوَاءَ، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً[١]، وقال ﷺ: وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ، إِلَّا وَاحِدَةً وَهِيَ: الْجَمَاعَةُ[٢]. فقال ﷺ: ألا إنَّ مَنْ قبلَكم من أهلِ الكتابِ افترقُوا على ثِنتَين وسبعينَ ملَّةً، وإن هذه الملةَ ستفترقُ على ثلاثٍ وسَبعينَ: ثنتانِ وسبعونَ في النَّار، وواحدةٌ في الجنة، وهي الجماعة -زاد ابن يحيى وعمرو في حديثيهما: وإنّه سيخرج في أمتي أقوام تَجَارَى بهم تلك الأهواءُ كما يَتَجَارَى الكَلَبُ لِصاحبه - وقال عمرو: الكَلَب بصاحبه- لا يبقى منه عِرْقٌ ولا مَفصِلٌ إلا دخلَه[٣]، وقال بقراءة القرآن، قَالَ ﷺ: إِنَّ قَوْمًا يقرؤونه يَنْثُرُونَهُ نَثْرَ الدَّقَلِ[٤]. ﴿وَ﴾: عطفاً على ما سبق ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿يَعْلَمُ﴾: يُدركُ بحقٍ ﴿تَأْوِيلَهُ﴾: تفسيرهُ الصحيح ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾: حرفُ استثناءٍ، قال ابن عباس جاءت هذه على أربعة أنحاء، الأولى: تفسيرٌ لا يُعذر أحدٌ في فهمه، أي يفهمه الجميع، والثانية: تفسيرٌ تعرفه العرب من لغاتها، والثالثة: تفسيرٌ يعلمهُ الراسخون في العلم، والرابعة: تفسيرٌ لا يعلمهُ إلّا الله ﷻ، قال رسول الله ﷺ: إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ لِتَضْرِبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ وَلَكِنْ يُصَدِّقِ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا تَشَابَهَ عَلَيْكُمْ فَآمِنُوا بِهِ[٥]؛ أي يؤمنون به ولا يعلمون تأويله، قرأ عبد الله بن مسعود: إنْ تأويلهُ إلّا عند اللهِ، والراسخون في العلم يقولون آمنّا به ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾: منهم الذين يعلمون تأويله ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ؟ قَالَ: «هُوَ مَنْ بَرَّتْ يَمِينُهُ، وَصَدَقَ لِسَانُهُ، وَعَفَّ بَطْنُهُ وَفَرْجَهُ، فَذَاكَ الرَّاسِخُ»[٦]. من العلماء من قال في التأويل يُراد به في القرآن معنيان: الأول: التأويل بمعنى حقيقة الشيء، وما يؤول إليه الأمر، مثل: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف-١٠٠]؛ أي حقيقة الخبر، إمّا في الدنيا أو في الآخرة، والثاني: تفسيرهُ وبيانهُ وتعبيرهُ عن الشيء، مثل: نبئنا بتأويله أي تفسيره. ﴿كُلٌّ﴾: جميع الآيات ﴿مِّنْ﴾: حرفُ جرٍ يُفيد ابتداء الغاية، وهي من ﴿عِندِ﴾: ظرفُ زمانٍ ومكانٍ ﴿رَبِّنَا﴾: من عند مالك أمرنا كلّه، كلُّ ما هو في القرآن المُحكم، والمتشابهِ هو حقّ وصدق، كلُّ منهما يُصدّق الآخر ويشهد له: جاء في المعنى: ﴿أَفَلَا

---

(١) مسند أحمد ط الرسالة ٢٨/١٣٤(١٦٩٣٧). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) سنن ابن ماجه /٢/١٣٢٢(٣٩٩٣). قال محمد فؤاد عبد الباقي: إسناده صحيح. رجاله ثقات. صححه الألباني.

(٣) سنن أبي داود /٧/٦(٤٥٩٧)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

(٤) سنن الترمذي /١/٧٤٠(٦٠٢). وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٥) الطبقات الكبير لابن سعد /٤/١٧٩(٥٣٤٤). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن، (سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٧٨). وقال الألباني في الصحيحة /١/٨: أخرجه ابن سعد بسند حسن.

(٦) المعجم الكبير للطبراني (٨/ ١٥٢).

﴿يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [محمد-٢٤]، فلا يَفهم حقَّ الفهم إلّا أصحابُ العقولِ السليمَة، والفهمِ المستقيم ﴿وَمَا﴾: عطفاً على ما سبق هنا نفي، بمعنى لا ﴿يَذَّكَّرُ﴾: يعتبر ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿أُولُو﴾: أصحاب ﴿الْأَلْبَابِ﴾: العقول السليمة التي تسمع وترى؛ فتؤمن، وأمّا غيرهم فهو فاقدٌ لذلك؛ لأنّ الآية فيها تعريضٌ بالذين لم يذكروا الله؛ فأنزلهم منزلة من ليس لهُ لبٌّ وعقلٌ، بمعنى: إذا كان هذا أسلوبَ قصرٍ يحملُ معنى قصرِ التذكيرِ على أصحابِ العقول؛ فهذا بمعنى المغايرة، من لم يذكر الله ليس بذي عقل، والذي ليس له عقل هي الدابة؛ فأنزلهم اللهُ منزلة البهائم؛ وهذا أقوى تعريض؛ من هنا وجب معرفة التفسير الصحيح؛ ففيه النور والهدى.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٨)

﴿رَبَّنَا﴾: يا مالك أمرنا كلّه، اعترافًا وتحببًا لله ﷻ ﴿لَا﴾: أداةُ نفيٍ تعني هنا الطلب ألّا يكتب عليهم ﴿تُزِغْ﴾: تميل عن الحق والهدى إلى الهوى ﴿قُلُوبَنَا﴾: وهي مراكزُ الفهم والإدراك ﴿بَعْدَ﴾: أنْ استقامت على الإيمان، أمّا الذين في قلوبهم زيغٌ فإنّهم يتّبعون ما تشابه من القرآن، والمعنى ثبتنا على الصراط المستقيم ﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى من الزمن وقد ﴿هَدَيْتَنَا﴾: جعلتنا على الهدى بمزيدٍ من الإيمان واليقين ﴿وَهَبْ لَنَا﴾: أيضًا أعطنا وامنحنا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية، وهي من عند الله ﷻ الذي لا يحدّه زمان أو مكان ﴿لَدُنْكَ﴾: من عندك ﴿رَحْمَةً﴾: رحمتك التي تهدي القلوب للإيمان، غفرانًا ورضًا ﴿إِنَّكَ﴾: أنت سبحانك بالتأكيد ﴿أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾: الذي يعطي بلا ثمن أو حساب، قَالَت أُمّ سَلَمَةَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ: ﷺ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ[1]. عن أمّ سلمة قالت قال ﷺ: مَا مِنْ خَلْقِ اللهِ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَشَرٍ إِلّا أَنَّ قَلْبَهُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ فَإِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ فَنَسْأَلُ اللهَ رَبَّنَا أَنْ لَا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا تُعَلِّمُنِي دَعْوَةً أَدْعُو بِهَا لِنَفْسِي قَالَ بَلَى قُولِي اللهُمَّ رَبَّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي وَأَذْهِبْ غَيْظَ قَلْبِي وَأَجِرْنِي مِنْ مُضِلّاتِ الْفِتَنِ مَا أَحْيَيْتَنَا[2]، وعن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ،

---

[1] سنن الترمذي /٥/٥٣٨(٣٥٢٢). عمار قال وهذا حديث حسن، وقال الألباني: صحيح.

[2] مسند أحمد /٦/٣٠١(٢٦٦١٨). تعليق شعيب الأرنؤوط: بعضه صحيح بشواهده وهذا إسناد ضعيف لضعف شهر ابن حوشب وبقية رجاله رجال الشيخين.

يَقُولُ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»[1].

التكليف: إنّ الوقوع في الفتنة هو أخطرُ أمراض الإيمان، والدعاءُ هو أفضل الدواء.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٩)

﴿رَبَّنَا﴾: يا مالك أمرنا كلّه **﴿إِنَّكَ﴾**: أنت سبحانك بالتأكيد **﴿جَامِعُ النَّاسِ﴾**: دعاءٌ يُقال في الدنيا؛ يُقرُّ ويعترفُ بيوم القيامة، أنت وحدك سبحانك ستبعث كلّ البشر **﴿لِ﴾**: حرف لام التخصيص جاءت هنا بمعنى "**في**" الظرفية **﴿يَوْمٍ﴾**: القيامة، ميعاد الجميع **﴿لَا﴾**: نافية **﴿رَيْبَ﴾**: لاشكّ **﴿فِيهِ﴾**: في حدوثه، حيث يفصل اللهُ ﷻ بين العباد، ثوابًا لمنْ عمل صالحًا، وعقابًا لمنْ كفر، وأفسدَ في الحياة الدنيا **﴿إِنَّ﴾**: حرف تأكيد **﴿اللَّهَ لَا﴾**: حرف نفي **﴿يُخْلِفُ﴾**: لن يُغيّر **﴿الْمِيعَادَ﴾**: وعدهُ، وميعادَ يومه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (١٠)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد **﴿الَّذِينَ﴾**: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ **﴿كَفَرُوا﴾**: من المؤكد أنّ الذين أخفوا حقيقة الخالق، وأنكروا وأفسدوا، وعصوا، ولم يعملوا، وأيضًا أخفوا آياتِ اللهِ ﷻ، وكذّبوا رسله، وخالفوا كتابه، ولم ينتفعوا بوحي أنبيائه **﴿لَنْ﴾**: تنفي هنا أنْ **﴿تُغْنِيَ﴾**: لن تمنع **﴿عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا﴾**: أيضاً لا تغني عنهم **﴿أَوْلَادُهُمْ﴾**: لن تمنع أموالُهم ولا أولادُهم عنهم العذاب، لا في الدنيا ولا في الآخرة، يُعززُ هذه الآية: **﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾** [التوبة-٥٥] **﴿مِنَ﴾**: حرفُ جرٍ؛ يفيد ابتداء الغاية من **﴿اللَّهِ شَيْئًا﴾**: حرفٌ يُفيد العموم **﴿وَ﴾**: حرفُ عطفٍ يُفيد هنا عطفًا على ذلك **﴿أُولَئِكَ﴾**: اسمُ إشارةٍ للقريب والبعيد، هؤلاء الكافرون من القريب والبعيد، في كلّ زمانٍ **﴿هُمْ﴾**: حرف تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب **﴿وَقُودُ﴾**: موادُ اشتعال، هم حطب وما توقد به **﴿النَّارِ﴾**: جهنّم التي تُسعّر وتُوقد بهم.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١١)

﴿كَ﴾: حرفٌ يعنى مثل وحال **﴿دَأْبِ﴾**: شأنٍ، حالٍ، صنيعٍ، عملٍ، سُنّةٍ **﴿آلِ﴾**: أصحاب وأعوان وأنصار وجنود **﴿فِرْعَوْنَ﴾**: في فعلهم، وألفاظهم، والشأن، والعادة، والمقصود كما فعل آل

---

[1] صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٥).

فرعون، سيُهلكون أنفسهم في الدنيا، ويُعذبون في الآخرة ﴿و﴾: أيضًا ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع الذين ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة، وهي ﴿قَبلِهِمْ﴾: الأمم السابقة التي هلكت مثل عاد، وثمود وغيرهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: أنكروا دعوة الله وأنكروا صدق رسلهم ﴿فَـ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب وتنفيذ الأمر دونَ تأخير ﴿أَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾: لم يؤخر الله ﷻ عقابهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: بسبب ما صنعوا في الدنيا من قولٍ وعملٍ في الكفر ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يُفيد هنا الاستئناف، اعلم أنّ ﴿اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: شديدُ الأخذ، أليمُ العذاب، لا يفرّ من عذابِهِ أحدٌ، في الأرض أو في السماء.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١٢)

أسباب النزول: بعد هزيمة أهل قريش في بدر، جمع رسول الله ﷺ النّاس في المدينة في سوق بني قينقاع، وقال: يا معشرَ يهودَ، أسلِموا قَبلَ أن يُصِيبَكُم مثلُ ما أصابَ قُريشًا قالوا: يا محمدُ، لا يَغُرَّنَّكَ من نفسِك أنك قتلتَ نَفَرًا من قريشٍ كانوا أغْمارًا لا يعرفون القتالَ، إنك لو قاتلْتَنا لعَرَفْتَ أنا نحن الناس، وأنك لم تَلْقَ مثلَنا[1]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا أَصَابَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا يَوْمَ بَدْرٍ فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ, جَمَعَ الْيَهُودَ فِي سُوقِ قَيْنُقَاعَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا؛ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ لَا يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا أَغْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ, إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ , وَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا؛ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: **﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾** [آل عمران-١٣]: أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺبِبَدْرٍ , **﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾** [آل عمران-١٣] إِلَى قَوْلِهِ: **﴿لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾** [آل عمران-١٣][2].

﴿قُلْ﴾: فعلُ أمرٍ ربّانيّ بالقول، والمخاطب هو محمد ﷺ ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: مِنَ اليهود وكفّار قريش ﴿سَ﴾: حرفُ تأكيد الفعل في المستقبل ﴿تُغْلَبُونَ﴾: هنا إخبارٌ من اللهِ ﷻ لهم أنّهم سيُهزمون في الدنيا إذا قاتلهم المسلمون، لا محالة، وجاء حرف السين ليزيد في المبنى اللغوي ليزيد في المعنى، وهي الهزيمة ﴿وَ﴾: وقل أيضًا عطفًا على هزيمتكم ﴿تُحْشَرُونَ﴾: تُجمعون في زحامٍ شديدٍ وتلاصقٍ متعبٍ ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾ إلى جهنّم ستُجمعون يوم القيامة، والحشرُ هو إخراجُ الجماعةِ من مقرّهم وإبعادُهم

---

[1] سنن أبي داود /٤/٦١٦(٣٠٠١). وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

[2] السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٠٩).

عنه ﴿وَبِئْسَ﴾: فعلٌ جامدٌ للذم من سوءٍ، وشرٍ، وذمٍ، وهو ذكر المساوئ وهو عكس المدح ﴿الْمِهَادُ﴾: تذوقون سوء الفراش؛ وهي النّار.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (١٣).

وفي سياق استكمال الآية السابقة يجب القول للكافرين ﴿قَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقق ﴿كَانَ﴾: فيمَا مضي من الزمن السابق ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا، نذكركم أيّها الكافرون ﴿آيَةٌ﴾: دليلٌ وعبرةٌ، كيف أنّ الله ﷻ نصر رُسلهُ وأعزّ دينهُ، وأظهر كلمتهُ ﴿فِي﴾: بسبب حادثةِ وقصةِ ﴿فِئَتَيْنِ﴾: والفئةُ تعني الجماعة من النّاس يُفاء إليها، بمعنى الرجوع إليها وقت المُلمات، والحديث هنا عن فرقتين، فرقة المسلمين، وفرقة الكفّار من قريش ﴿الْتَقَتَا﴾: تقابلتا في القتال يوم بدر ﴿فِئَةٌ﴾: المؤمنون كانت ﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: هم أنصارُ محمدٍ ﷺ الذين قاتلوا لتكون كلمةُ الله ﷻ هي العليا، لم يأت وصف هذه الفئة بالمؤمنة؛ لأنّها تقاتل في سبيل الله ﴿وَأُخْرَى﴾: فرقة غيرها ﴿كَافِرَةٌ﴾: هم المشركون من قريش ﴿يَرَوْنَهُمْ﴾: تهيأ لهم أنّهم ﴿مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾: أي زيادة ضعفهم عددًا؛ فيها قولان: الأول: رأي الكفّار أنّ عدد المسلمين ضعف عددهم؛ فخافوا، وكان هذا سببًا في هزيمتهم، فقبل المعركة بعثت قريشُ عمر بن سعد ليقدّر عدد المسلمين؛ فأخبرهم أنّهم ثلاثمائة أو يزيدون قليلًا أو ينقصون، فلمّا وقع القتال أمدّهم اللهُ ﷻ بألفٍ من خواصّ الملائكة وسادتهم، والقول الثاني: رأى المسلمون عدد الكفّار ضعف عددهم، ومع ذلك نصرهم اللهُ ﷻ عليهم، علمًا أنّ عدد الكفّار كان ثلاثة أضعاف عدد المسلمين ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ﴾: ينصر ﴿بِ﴾: حرفُ باء السببية ﴿نَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾: بوسائل النصر من عنده، إنّ الحسم والفوز في المعارك هو من إرادةِ اللهِ ﷻ ﴿إِنَّ﴾: بالتأكيد ﴿فِي ذَلِكَ﴾: هذا الذي حدث، وجاء ذكره فيما سبق، وأخبر الله ﷻ عنه هذه الحوادث الواضحة للجميع ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿عِبْرَةً﴾: موعظةً ودليلًا ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿أُولِي﴾: أصحاب ﴿الْأَبْصَارِ﴾: لمن لهم بصر وبصيرة؛ تقودهم للفهم الصحيح؛ ليعلموا أنّ قدر الله ﷻ نافذ.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (١٤)

﴿زُيِّنَ﴾: جُمّل وحُسّن ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿النَّاسِ﴾: بني آدم، على أنْ يروا ويحبوا ملذات الدنيا، ابتلاءً وتمحيصًا ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾: التي يشتهيها ويرغب فيها ﴿مِنَ﴾: حرفٌ يُفيدُ بداية

الغاية المكانيّة ﴿النِّسَاءِ﴾: بدأ الله ﷻ بتقديم فتنةِ النساءِ؛ لأنّ الفتنةَ بهن أشدّ، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»[1]، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»[2]، ﴿وَالْبَنِينَ﴾: من كثرة الأبناء الذكور؛ للتفاخر والزينة، وتكثير النسل، وحتى يكون التكاثر خيرًا، قال ﷺ: تَزَوَّجُوا الْوَلُودَ الْوَدُودَ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ[3]. ﴿وَ﴾: أيضًا زُيّن للنّاس ﴿الْقَنَاطِيرِ﴾: الأوزان الثقيلة، جمع قنطار، وهو المال الوفير؛ المُكدسِ، والمُحصنِ ﴿الْمُقَنْطَرَةِ﴾: القنطار يساوي ألفًا ومائة أوقية من الفضة، هي الأموال المتجمعةُ والمتراكمةُ فوق بعضها؛ كنايةً عن كثرتها ﴿مِنَ﴾: بعض أو جزء ﴿الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾: وهي الأموال الوفيرة من كلِّ الأصنافِ من الذهبِ والفضّةِ، وأوراقِ العملاتِ والسنداتِ في العصر الحديث؛ للنفقةِ والملذات ﴿وَالْخَيْلِ﴾: المجهزة عند المسلمين في سبيل الله ﷻ، ويدخل في هذا العصر كل وسائل النقل، ووسائل القتال المُتحركة كالدبابات، والعربات، والبواخر، والطائرات، وغيرها ﴿الْمُسَوَّمَةِ﴾: المُعلّمة الراعية، وهي الجيد الحسان، وقيل ذات الغرُّة المُحجّلة، كثيرة النسل ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾: الإبل، والبقر، والغنم، والمعز ﴿وَالْحَرْثِ﴾: أيضاً الأرض المهيأة للزراعة، وكلُّ شيءٍ يضاف إليه ﴿ذَلِكَ﴾: حرف إشارة للبعيد ﴿مَتَاعُ﴾: ما يسرُّ ويُفرحُ ويتمتع به الإنسان في ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: للمؤمن والكافر ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ﴾: في ملكِهِ في الآخرة يوم القيامة ﴿حُسْنُ﴾: خير ﴿الْمَآبِ﴾: العاقبةِ والمرجعِ من الجنّة، والأوبةُ ضدّ الرجوع، والأواب كالتواب؛ وهو الراجعُ إلى الله ﷻ بترك المعاصي، وفعل الطاعات.

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (١٥)

﴿قُلْ﴾: يا محمد وهو تكليفٌ للمسلمين من بعده ﴿أَ﴾: حرفُ استفهامٍ غرضهُ هنا التشويق ﴿أَؤُنَبِّئُكُمْ﴾: هل أخبركم وأُعلمكم هنا الكلمة تجذب الانتباه وتشوّق النفس لمعرفة الجواب ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿خَيْرٍ﴾: أكثرَ نفعًا وبركةٍ ﴿مِنْ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا التبعيض ﴿ذَلِكُمْ﴾: اسم إشارة للبعيد هو كل ما جاء ذكره، وأخبر عنه الله ﷻ، إشارةٍ للبعيدِ، بمعنى هل أقولُ لكم ما هو أفضلُ من زينةِ الحياةِ الدنيا، الواردةِ في الآية السابقة؟ والجواب هو ﴿لِ﴾: حرف تخصيص وتمليك ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿اتَّقَوْا﴾: تجنبوا

---

[1] صحيح البخاري /٨/٧(٥٠٩٦).

[2] صحيح مسلم (٢/ ١٠٩٠).

[3] سنن النسائي /٦/٦٥(٣٢٢٧). قال الألباني: حسن صحيح.

وخافوا معصية الله ﷻ وعقابه ﴿عِنْدَ﴾: ظرف مكان وزمان ﴿رَبِّهِمْ﴾: عند مالك أمرهم كلّه يوم القيامة نلحظ هنا أنّ المتقين عُطِفوا على ربهم لمزيدٍ من اللطف بهم ﴿جَنَّاتٌ﴾: هنا جاء جواب أؤنبئكم، وهو جنّات وليس جنّةً واحدة ﴿تَجْرِي مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد هنا ابتداء الغاية المكانيّة ﴿تَحْتِهَا﴾: زيادة في متعة المشاهدة والانتفاع ﴿الْأَنْهَارُ﴾: تجري من تحتها الأنهار ومن حولها العيون، وأنواع من الشراب، العسل، واللبن، والخمر، والماء وغير ذلك ﴿خَالِدِينَ﴾: ماكثين ﴿فِيهَا﴾: دونَ انقطاعٍ، لا يرغبون في مفارقتها ﴿وَ﴾: أيضًا فيها ﴿أَزْوَاجٌ﴾: الزوجات ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾: والطهارةُ نوعان، طهارةُ النفسِ من الآثامِ، وطهارةُ الجسدِ من الأوساخِ، لا دنس، ولا خبث، ولا أذى، ولا حيض، ولا نفاس، وغير ذلك مما يعتري النساء في الحياة الدنيا ﷻ ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد ابتداء الغاية المكانيّة والزمانيّة، عند ﴿اللَّهِ﴾: يحلُّ عليهم رضا الله ﷻ، لا يسخطُ عليهم أبدًا ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا يجب العلم أنّ ﴿اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾: المشاهد بحالِ كلّ واحدٍ من خلقه؛ ويعطيه ما يستحقه من النعم.

التكليف: يُذكّرُ اللهُ ﷻ عباده أنّه هو الملك العدل، هو ﷻ القاضي يوم القيامة، وهو العادل الذي يحكم للنّاس ما لهم من خير في الدنيا، فيثيبهم، وما عليهم من سوء فيعاقبهم، وهنا تكتمل دورة العدل للمخلوقات، وخاصّة الإنسان.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٦)

الحديث هنا عن صنفٍ من البشر ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾: الربّ هو المنشئ للشيء في الكون والمربي حالًا بعد حال إلى حدّ الكمال، هو المالك للأمر كلّه، والداعون هم أهلُ الجنّة الذين يُؤكدون ﴿إِنَّنَا﴾: نحن بالتأكيد ﴿آمَنَّا﴾: صدّقنا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبالقرآنِ دستورًا، وبمحمدٍ نبيًّا ورسولًا ﷺ ﴿فَ﴾: لهذا السبب ﴿اغْفِرْ لَنَا﴾: سامحنا وامحُ عنّا ﴿ذُنُوبَنَا﴾: فيما أذنبنا، وارحمنا برحمتك وفضلك ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿قِنَا﴾: من الوقاية، احمنا وجنّبنا ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾: جهنّم وبئس المصير.

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (١٧)

لقد أقرَّ المؤمنون في الآيةِ السابقةِ بإيمانهم، وهنا يأتي ذكر بقية صفاتهم ﴿الصَّابِرِينَ﴾: على تأدية الطاعات، وتجنّب المُحرّمات ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿الصَّادِقِينَ﴾: في أقوالهم، أيضاً في تنفيذ واجباتهم التي آمنوا بها، الملتزمين بها مهما كانت المهامُ شاقّة ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾: المطيعين، الخاضعين ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾: من أموالهم في الزكاة، وصلة الأرحام، وعلى أصحاب الحاجات وغيرهم ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ﴾: الذين يطلبون المغفرة من اللهِ ﷻ في كلِّ وقتٍ، وخاصّةً في الأوقات

المُستحبة وهي ﴿بِ﴾: حرف باء الظرف، أي في أوقات ﴿الْأَسْحَارِ﴾: الذين يُحبون الاستغفار وقت السحر، وهو ثلث الليل الأخير، وقبل ظهور الشمس، وهؤلاء الذين يقومون الليل، وقيل إن ما قصده يعقوب عليه السلام لمّا قال لأبنائه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف-٩٨] أنّه أخّرهم إلى وقت السحر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: يَنْزِلُ رَبُّنَا تبارك وتعالى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ(١).

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨)

﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾: يُخبرُ اللهُ تبارك وتعالى عن نفسهِ أنّه شهد شهادة عدلٍ وصدقٍ عن علمٍ حضوره وهو الأمر المشهود به ﴿أَنَّهُ﴾: حرفُ تأكيد ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿إِلَهَ﴾: معبود مُطاع ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿هُوَ﴾: تبارك وتعالى، حيث أقام الآيات الشرعية، وخلق الآيات الكونيّة، الدّالة على قدرته، وقدّر أرزاق خلقه كلّهم ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا وتفيد هنا حال شهد ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾: تشهد بألوهيته، وربوبيته، وتفرده بالمُلك، ويشهد ﴿وَأُولُو﴾: يشهدُ أصحاب ﴿الْعِلْمِ﴾: العالمون، المتبصرون، المتيقنون بالعلم والمعرفة الحق أنّه تبارك وتعالى ﴿قَائِمًا﴾: دائم القيام بتدبير خلقه وحفظهم ﴿بِ﴾: حرف باء الالتصاق والصلة ﴿الْقِسْطِ﴾: يُقيم العدل في كلّ الأحوال والأمور ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿إِلَهَ﴾: معبود مُطاع ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿هُوَ﴾: وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر، وتعني هنا الله تبارك وتعالى، حيث أقام الآيات الشرعية، وخلق الآيات الكونية، الدّالة على قدرته، وقدّر أرزاق خلقه كلّهم ﴿الْعَزِيزُ﴾: الذي لا يغلبه أحدٌ، الذي لا يُرام جنابهُ، صاحبُ العظمةِ والكبرياء ﴿الْحَكِيمُ﴾: المُحكم الذي لا خلل فيه من الأقوال والأفعال بالعدل، الذي خلق كلّ شيء بحكمتهِ، وقدرتهِ، وسلطانهِ؛ فسارت كلُّ المخلوقات في الكون بطاعتهِ؛ فأدّت دورها في سهولةٍ. وقد شهد بذلك رسول الله ﷺ، وشهد الصحابة في صلاتهم.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٩)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد يفيد هنا الحصر ﴿الدِّينَ﴾: الإيمان، والانقياد، والطاعة للهِ تبارك وتعالى ﴿عِنْدَ﴾: حرفُ، ظرفُ زمانٍ ومكانٍ، بمعرفة الطرفين، المؤمن وعند الكافر، رغم إنكاره ﴿اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾: إنّ الله تبارك وتعالى لا يقبل دينًا لمخلوقٍ سوى الإسلام، يعني إتباع الرسل الذين بعثهم الله تبارك وتعالى في كلّ

---

(١) صحيح البخاري /٢/٥٣(١١٤٥).

زمانٍ، حتى جاء محمد ﷺ؛ فأُغلقت كلُّ الأبواب إلّا بابُه ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿اخْتَلَفَ﴾: تباعدت آراؤهم ومواقف ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿أُوتُوا﴾: أعطاهم، ووهبهم اللهُ ﷻ ﴿الْكِتَابَ﴾: من اليهود الذين جاءتهم التوراة، والنصارى الذين جاءهم الإنجيل على وجه الخصوص ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ مَا﴾: الذي ﴿جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾: وهؤلاء اختلفوا في الدين بعد أنْ قامت عليهم الحُجّةُ ببعثةِ الرسل إليهم، ونزول الكتاب عليهم، فكان اختلافهم في دينهم ﴿بَغْيًا﴾: حسدًا وطلبًا للرياسة، وظلمًا وطُغيانًا ﴿بَيْنَهُمْ﴾: بعضُهم على بعض؛ بالتحاسُد والتباغُض والتدابر، واختلفوا وتفرقوا في جميع أقوالهم وأفعالهم، فما عاقبة هؤلاء ﴿وَمَنْ﴾: وعطفاً على ما جاء بخصوص المفرد الذي من جنس العاقل ﴿يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: من يطغى ويجحد بما أنزل الله ﷻ في كتابه الكريم ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿اللَّهَ سَرِيعُ﴾: لا يُؤجل ﴿الْحِسَابِ﴾: العقاب والجزاء على التكذيب، ولا يُؤجل الثواب على مخالفة الكاذبين.

التكليف: من لقي الله ﷻ بعد بعثة محمد ﷺ بدينٍ آخرٍ؛ فلنْ يُقبل منه، جاء في المعنى: **﴿مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾** [آل عمران–٨٥]. وجاء عن مسلم ﵁ أنّ النبي ﷺ قال:" والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمّة يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بما أُرسلت به إلّا كان من أهل النّار.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠)

﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿حَاجُّوكَ﴾: إذا جادلوك في التوحيد، في الدين الحق، الذي نزل عليك يا محمد ﷺ ﴿فَـ﴾: حرفٌ يفيد السبب، وبدون تأخير ﴿قُلْ﴾: قولًا واضحًا ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ﴾: هو التسليم الكامل في كلّ أمرٍ، أخلصتُ نفسي وعبادتي ﴿لِلَّهِ﴾: تخصيصًا؛ لا أشرك به، وأُقرُّ أنّه ﷻ لا ندّ له، ولا ولد له، ولا صاحبة، أنا ﴿وَمَنِ﴾: أيضاً الذين من البشر ﴿اتَّبَعَنِ﴾: أنا ومن آمن برسالتي ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿قُلْ لِلَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد الجميع ﴿أُوتُوا﴾: أعطاهم وأنزل الله ﷻ فيهم ﴿الْكِتَابَ﴾: هم اليهود والنصارى، أمر اللهُ رسولَه ﷺ أنْ يقول لليهود والنصارى الذين هم أهل كتاب ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾: هم المشركون من العرب، الذين لم ينزل فيهم كتاب، أو لم يُبعث فيهم رسول ﴿أَ﴾: حرفُ استفهامٍ ﴿أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾: استفهام خرج عن معناه الحقيقي؛ لأنّه موجهٌ من اللهِ ﷻ، وهو ﷻ لا يسأل عن شيءٍ لا يعلمه؛ لأنّه وسع كلّ شيءٍ علمًا، ولهذا حمل معنى الأمر وهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام؛ أي

أسلموا، وقد جاء الأمرُ عن طريق الاستفهام؛ لأنّه موجهٌ لغير المسلم، فطلب منهم أنْ يُسلموا، ومن أسلم فليعلن إسلامه، ﴿فَقَدِ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿اهْتَدَوْا﴾: عرفوا الطريق الصحيح، طريق الدين الحق ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَوَلَّوْا﴾: إنْ أعرضوا، ونأوا، وابتعدوا ﴿فَإِنَّمَا﴾: حرفُ تأكيد ﴿عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾: إنّ مهمةُ الرسول التبليغ، أمّا من رغب في الهداية فيهديه اللهُ ﷻ، وأمّا من أراد الضلالة، فسيذهبُ به عملهُ إلى جهنّم ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ﴾: يعلم علم الذي يسمع ويرى ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿الْعِبَادِ﴾: يعلم الله ﷻ أحوال جميع الخلق، علم الذي يُشاهد حقًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢١)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: المقصود اليهود والنصارى، وهم أهل الكتاب الذين غطّوا آيات الله ﷻ ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿حَقٍّ﴾: وهم الذين قتلوا أنبياءهم بغيرِ جريمةٍ منهم إلّا لأنّهم دعوهم إلى الحق، ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِ﴾: حرف باء الالتصاق ﴿الْقِسْطِ﴾: ويقتلون أيضًا الذين يقيمون العدل وشرع الله ﷻ بين ﴿مِنَ﴾: بعض ﴿النَّاسِ﴾: والذين يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ، أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا، وَإِمَامُ ضَلَالَةٍ، وَمُمَثِّلٌ مِنَ الْمُمَثِّلِينَ[١]. ﴿فَ﴾: حرفٌ هنا يفيد الأمر ﴿بَشِّرْهُمْ﴾: حمل هذا الأمر معنى التهديد والوعيد؛ لأنّ البُشرى تحملُ الخبرَ السّار، لكنْ هنا حملت التهديد، والوعيد لما اقترنت بكلمتي العذاب الأليم، قل لهم وبلّغهم. من المعلوم أنّ البشرى تكون في تبليغ الخير؛ خيرًا للمؤمنين، وهنا جاءت إنذارًا للكافرين ﴿بِ﴾: حرف باء السبب ﴿عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: موجعٍ، مؤلمٍ.

التكليف: جاءت الأفعال بصيغة المضارع بغرض استحضار الحالة الفظيعة التي يفعلها يهودٌ ومن جهةٍ ثانيةٍ كشف نوايا اليهود الذين يُصرّون دومًا على قتل الأنبياء والعلماء والدعاة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢٢)

﴿أُولَئِكَ﴾: إشارةً للقريب و للبعيد هؤلاء الكافرون، قتلةُ الأنبياءِ والذين يحكمون بما لم يُنزّل اللهُ ﷻ، هؤلاء هم ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿حَبِطَتْ﴾: كبرت وانتفخت انتفاخ مرض عقيدة، وفسدت، فبطلت أعمالهم، أي ضاع ثواب ﴿أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ﴾: أيضًا ضاع

---

[١] مسند الإمام أحمد /٦/٤١٣ وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد /٥/٢٣٦ رجاله ثقات.

ثوابهم في ﴿الْآخِرَةِ﴾: لا ثواب لأعمالهم يوم القيامة، بل عليهم العقاب ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿مَا﴾: حرفُ نفي ﴿لَهُمْ﴾: ليس لهم تخصيصًا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا جزءًا أو بعضًا من جنسِ الفاعل ﴿نَاصِرِينَ﴾: شفعاء، ومُحبين.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٣)

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: تفيد حدث في الماضي، تُفيد هنا الاستفهام والتعجب من حال الكافرين، وإعراضهم عن الانقياد لحكم الله ﷻ ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿أُوتُوا﴾: أعطاهم الله ﷻ ﴿نَصِيبًا﴾: جزءًا، حظًّا ﴿مِنَ﴾: قد تفيد هنا البيان أو تفيد التبعيض، بمعنى جزءًا أو بعضًا من جنس ﴿الْكِتَابِ﴾: هي التوراة التي نزلت على اليهود، والإنجيل الذي نزل على النصارى ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ﴾: يأمرهم الله ﷻ ﴿لِ﴾: حرف للتبيين والإظهار ﴿يَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾: ليكون التحاكم بينهم بما في الكتابين حيث يأمرُهم اللهُ ﷻ باتباع محمدٍ ﷺ، ولقد جاء في كُتبهم أنِ اتبعوا محمدًا، فدعاهم ﷺ إلى التحاكم في ذلك ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التباعد الزمني مع التراخي، أي ليس السريع ﴿يَتَوَلَّى﴾: سوّفوا الأمر الربّاني الواضح بعد ذلك ﴿فَرِيقٌ﴾: جماعةٌ ﴿مِنْهُمْ﴾: بعض أو جزء ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع الغائب المذكر والمؤنث الذين ابتعدوا، ورفضوا الاحتكام إلى ما في كتبهم وهم ﴿مُعْرِضُونَ﴾: أداروا ظهورهم عنهما خلافًا وعنادًا.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٤)

﴿ذَلِكَ﴾: حرفٌ يُشير إلى كلّ ما جاء ذكره، وأخبر عنه الله ﷻ، هنا الانصراف البعيد عن كتاب الله ﷻ، والحكم به ﴿بِ﴾: حرفُ باء السببية ﴿أَنَّهُمْ﴾: تأكيد ونفي الإنكار ﴿قَالُوا﴾: ادّعوا كذبًا أنّه ﴿لَنْ﴾: حرف نفي ﴿تَمَسَّنَا﴾: تُصيبنا في العمق منّا ﴿النَّارُ﴾: هنا تجرّؤوا بالكذب على الله ﷻ في الذي ذكره عن عذابهم يوم القيامة، واعتقدوا أنّه إنْ كانت هناك عقوبةٌ في الآخرة، فقد حدّدوا هم مدّة العقوبة ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾: قالوا سيُعذبنا اللهُ سبعة أيامٍ، يومٌ عن كلّ ألف سنة عشناها في الدنيا، ثم ندخل الجنّة ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿غَرَّهُمْ﴾: خدعوا أنفسهم بالباطل، بالذي ادّعوه أنّه جاء ﴿فِي دِينِهِمْ﴾: في التوراة ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: يكذبون على الله ﷻ، وفيما ادّعوه لأنفسهم اختلاقًا وكذبًا.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٥)

﴿فَـ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿كَيْفَ﴾: حرفُ استفهامٍ بغرض التهديد والوعيد، وهو استخدامُ صيغة الاستفهام في مقام عدم الرضا، كيف سيكون حالهم ﴿إِذَا﴾: حرفُ ظرفٍ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿جَمَعْنَاهُمْ﴾: جاءت بصيغة الجمع لإظهار ضخامة الحدث ﴿لِ﴾: حرف تعني في ﴿يَوْمٍ﴾: بعثناهم يوم القيامة، يوم الحساب ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿رَيْبَ﴾: لا شك ﴿فِيهِ﴾: يومٌ واقعٌ بلا شك، وكائنٌ بكلّ تأكيد ﴿وَ﴾: حرفٌ يفيد هنا الاستئناف ﴿وُفِّيَتْ﴾: أُعطيت ﴿كُلُّ﴾: تفيد العموم ﴿نَفْسٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة لتؤكد وتفيد عموم الأنفس ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَسَبَتْ﴾: ما تستحق، جزاء ما عملت في الحياة الدنيا، خيرًا أو شرًا ﴿وَهُمْ﴾: ضميرٌ يعود على الجمع ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾: لا ظلم لأحدٍ، هذا يومُ العدلِ الذي لا ظُلم فيه.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٦)

﴿قُلِ﴾: فعلُ أمرٍ بقول واجبِ التحقق، قل يا محمد تعظيمًا لله ﷻ، شاكرًا، ومتوكلًا عليه، ومفوضًا أمرك له ﴿اللَّهُمَّ﴾: نداء، واستثناءٌ بمعنى يا الله وجاءت هنا لتمكين الجواب. عنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، الْمَنَّانَ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ بِاسْمِ اللهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى[1]، وقال رسول الله ﷺ: لقد دَعا الله باسمِهِ العَظيم الذي إذا دُعِيَ به أجابَ، وإذا سُئِلَ به أعطَى[2] ﴿مَالِكَ﴾: يا صاحب ﴿الْمُلْكِ﴾: كلّه، كلّ ما في السماوات وما في الأرض، المُتصرف فيه ﴿تُؤْتِي﴾: تُعطي ﴿الْمُلْكَ﴾: الحكم والقوة والسلطان ﴿مَن تَشَاءُ﴾: لحكمةٍ أردتها ﴿وَتَنْزِعُ﴾: وتأخذ بقوةٍ، وتمنع ﴿الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾: لحكمةٍ أردتُها، جاء هذا الربط بين تؤتي وتنزع للتفخيم والتعظيم، فالعطاء كبير، والأخذ كبير ﴿وَتُعِزُّ﴾: أيضًا ترفع شأن ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿تَشَاءُ﴾: بغرضٍ وحكمة ﴿وَتُذِلُّ﴾: تُنزلُ وتُخفضُ منزلة ﴿مَنْ﴾: جنس العاقل ﴿تَشَاءُ﴾: بإرادةٍ وحكمةٍ ﴿بِـ﴾: حرفُ باء الالتصاق ﴿يَدِكَ﴾: إن كان الخير بيد الله ﷻ والمعاقبة بالشر بيده ﷻ وحُذف لمناسبة المقام ﴿الْخَيْرُ﴾: بإرادتك كلّ ما يُحب الخلق ﴿إِنَّكَ﴾: أنت سبحانك وبكلِّ تأكيدٍ وليس غيرك

---

[1] مسند أحمد ط الرسالة (١٩/ ٢٣٨)حديث صحيح.

[2] سنن أبي داود /٢/٦١٢(١٤٩٥). قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

﴿عَلَى كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: وشيء جاءت بصيغةِ نكرة؛ لتُفيد العموم، بمعنى الكلّ ﴿قَدِيرٌ﴾: يا صاحب القدرة التي لا يملكها غيرك: كناية عن العطاء

التكليف: لقد نزع اللهُ ﷻ الملكَ والنبوة من بني إسرائيل، وأعطاهما للعرب، وبعث نبيّهم رسول الله ﷺ إلى جميع الإنسِ والجنّ، جمع اللهُ ﷻ فيه محاسن من كان قبلهُ، وخصّهُ بخصائصَ لم يختص بها نبيًّا من قبل، العلم بالشريعة، والاطلاع على الغيب في الماضي والمستقبل، وحقائق الآخرة، وانتشار أُمّته في الدنيا، وإظهار دينه على سائر الأديان.

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٧)

﴿تُولِجُ﴾: ومن عجائب قدرتك أنّك سبحانك تُدخل وقت وزمن ﴿اللَّيْلَ فِي﴾: وقت وزمن ﴿النَّهَارِ﴾: يأخذُ اللهُ ﷻ من طول الليل فيدخله في النّهار، والعكس ﴿وَتُولِجُ﴾: أيضاً تُدخلُ ﴿النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾: وقت فيحدث التفاوت بين الليل والنّهار، ثم يتساويان، وهكذا في فصول السنة، من الربيع إلى الصيف، إلى الخريف، إلى الشتاء، وهذا ما قدّرهُ اللهُ ﷻ للشمسِ وللأرضِ في دورانهما الأزلي إلى أنْ يشاء الله ﷻ ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ﴾: إشارة للمؤمن ﴿مِنَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا ابتداء الغاية المكانيّة ﴿الْمَيِّتِ﴾: وفي هذا الموقع يكون المقصود هو الكافر، يخرج الله ﷻ الزرع من الحب، ويخرج النخلة من النواة، ويخرج الولد المؤمن من الأب الكافر، والدجاجة من البيضة، وهكذا جميع الأشياء ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾: الذى لا يؤمن كالذي لا يتحرك ولا يتنفس ﴿مِنَ الْحَيِّ﴾: كالمؤمن، يُخرج ﷻ الحبّ من الزرع، ويخرج النواة من النخلة، ويخرج الكافرَ من المؤمن، والبيضة من الدجاجة ﴿وَتَرْزُقُ﴾: أيضاً تُعطي من كرمك وجودك ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل الذي ﴿تَشَاءُ﴾: تعطي بلا ممانعةٍ من أحدٍ ﴿بِ﴾: حرف باء المقابلة ﴿غَيْرِ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿حِسَابٍ﴾: من المال ما لا يُعدّ، وما لا يقدرُ الإنسانُ على إحصائه، وتقلّ المال على آخرين بحكمتك، وإرادتك، ومشيئتك.

التكليف: نشهد في هذه الآية الطباق بين تؤتي وتنزع، وتعز وتذل، والليل والنهار، والحي والميت، وهذه تفيد أنّ أحوال الكون، وتقلباته الثابتة والمتغيرة بيد الله ﷻ وحده.

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨)

﴿لَا﴾: حرف نهي؛ تعني تحريمًا من اللهِ ﷻ وهي أنْ ﴿يَتَّخِذِ﴾: يقبل، يرضى، أو يعتمد، أو يوافق ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾: بأركان الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقيامة، والقضاء

والقدر ﴿الْكَافِرِينَ﴾: الذين يُنكرون هذه الحقيقة ﴿أَوْلِيَاءَ﴾: جاء ذكر الولاء على أحد عشر وجهًا؛ هنا بمعنى التناصح، وأحبابًا، وأنصارًا، وأعوانًا، وقرابة، تُسرّون إليهم بالمودة ﴿مِنْ دُونِ﴾: بديلًا عن، غير ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَ﴾: عطفًا على هذا فإنّ ﴿مَنْ﴾: والذي من جنس العاقل ﴿يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾: هو كل ما جاء ذكره، واخبر عنه الله ﷻ، إشارةً للبعيد، من يرتكب خطيئة اتخاذهم أولياء، وقد نهى الله ﷻ عن ذلك ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد الجواب ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقصٌ يُفيد النفي ﴿مِنَ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد غاية المصدر هنا ﴿اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾: فقد برئ الله ﷻ منه، وحُرم من رحمة الله ﷻ، جاءت آيات بالمعنى نفسه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء–١٤٤]، وجاء أيضًا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة–٥١] ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ يقطع ما بعده عمّا قبله ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَتَّقُوا﴾: تتجنبوا وتحذروا ﴿مِنْهُمْ تُقَاةً﴾: أمرًا لا بد من الحذر منه، إنّ الذي خاف منهم في بعض البلدان أو الأوقات، بسبب بطشهم وظلمهم، فيمكنهُ أنْ يتقي شرّهم في الظاهر، ولا تقترفوا المعاصي إرضاءً لهم، قال ابن عباس: ليس التَقية بالعمل، إنّما التقية باللسان، قال ﷻ: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل–١٠٦] ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ﴾: يُنذركم، ويخوفكم ﴿اللَّهُ نَفْسَهُ﴾: من غضبه، ونقمته، واعلموا علم اليقين أنّه ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾: إنّه الرجوع إلى الله ﷻ، بالموت، والبعث يوم القيامة؛ لينال كلّ عبدٍ ثوابًا أو عقابًا.

﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٩)

﴿قُلْ﴾: يا محمد ﷺ ﴿إِنْ﴾: حرف شرط بمعنى إذا ﴿تُخْفُوا﴾: تكتموا ﴿مَا﴾: الذي ﴿فِي﴾: المخفي غير المعلن ﴿صُدُورِكُمْ﴾: قلوبكم التي في صدوركم، وهي مصدر الإدراك، ما نهاكم الله ﷻ عنه من موالاة الكافرين، أو غيره ﴿أَوْ﴾: حرفُ عطفٍ يُفيد التسويةَ بين ما بعده بما قبله ﴿تُبْدُوهُ﴾: تُظهروه ﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: يعلم ﷻ السرائر، والضمائر، والعلن، في كلّ زمانٍ ومكانٍ، في الأرض والسماوات، مهما صغُر أو كبُر ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة لتفيد العموم ﴿قَدِيرٌ﴾: إنّ قدرة اللهِ ﷻ شاملة، هذا تحذيرٌ وتخويفٌ للعباد، وإنْ أمهل الله ﷻ فإنّ أخذَه؛ كان أخذ عزيزٍ مقتدرٍ.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٣٠)

﴿يَوْمَ﴾: يوم القيامة ﴿تَجِدُ﴾: تطّلع ﴿كُلُّ﴾: تفيد العموم ﴿نَفْسٍ﴾: كلُّ النفوس، وهي جوهر الإنسان؛ بلا استثناء على ﴿مَا﴾: الذي ﴿عَمِلَتْ﴾: في حياتها الدنيا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعض ﴿خَيْرٍ﴾: ما نفع النّاس ﴿مُحْضَرًا﴾: مكتوبًا في كتابه، يرى الإنسان عمله الصالح كاملًا غير منقوص، فيسرّه ذلك ويفرح، ويرى الآخر ﴿وَ﴾: أيضًا تجدُ ﴿مَا عَمِلَتْ﴾: نفسٌ ﴿مِنْ سُوءٍ﴾: ما يسبب الضرر والشرّ، يرى الإنسان أعماله السيئة وقبحها؛ فيحزن عندها ﴿تَوَدُّ﴾: ترغب النفس وتتمنى ﴿لَوْ﴾: حرفٌ يُفيد التمني مع الاستحالة ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿بَيْنَهَا﴾: بين النفس ﴿وَبَيْنَهُ﴾: بين العمل السيئ، تتمنى كلُّ نفسٍ أجرمت لو باعد اللهُ ﷻ بينها وبين عملها ﴿أَمَدًا﴾: الأمد هو مدّة معينة لها حدود من الزمن، أمّا الأبدُ هي مدةٌ من الزمن، ليس لها حدود ﴿بَعِيدًا﴾: براءةً كبيرةً، مسافةً كبيرةً، جاء في السياق: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف–٣٨] ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ﴾: عطفًا على ما جاء يُنذركم، ويخوفكم ﴿اللَّهُ نَفْسَهُ﴾: من عقابه، وهو خطابٌ للمخالفين ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾: يعد الله ﷻ أولياءه وأحبابه بالرأفة والرحمة؛ حتى لا يقنطوا من رحمته ﷻ، وهذا من عطفه ورأفته ورحمته بعباده؛ حتى يستقيموا على دينه الصحيح.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣١)

﴿قُلْ﴾: يا محمد وهو أمرٌ لكلِّ مؤمنٍ به ﷺ ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾: إذا كنتم صادقين في حبّكم لله ﷻ ﴿فَ﴾: حرفٌ جواب بهدف ترتيب وتنفيذ الأمر دونَ تأخير ﴿اتَّبِعُونِي﴾: أطيعوا أوامري، أنا رسوله ﷻ إليكم، وانتهوا عمّا نهيتكم عنه في الظاهر والباطن؛ عندها ﴿يُحْبِبْكُمُ﴾: تنالون محبّة ﴿اللَّهُ﴾: فيعطيكم ﷻ أكثر مما تطلبون، عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللهِ[1] ﴿وَيَغْفِرْ﴾: أيضاً يمحو الخطايا ويسامح ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾: المعاصي والذنوب التي ارتكبتموها ﴿وَ﴾: عطفًا على ما جاء اعلموا أنّ ﴿اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ من كرمه أنّه يغفر للمسيء، ويبدلُ سيئاتهم حسنات.

التكليف: إنّ معيار الحكم على كلّ من يدّعي حبّ اللهِ ﷻ هو اتباع أوامره، وتطبيق شريعته، في أقواله وأفعاله، هنا نموذج الجزاء للمؤمن وللكافر، وبين الحي والميت.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٢)

---

(١) مسند الإمام أحمد /٣٠/٤٨٨(١٨٥٢٤)وقال الأرناؤوط: حديث حسن بشواهده، وهذا إسناد ضعيف

﴿قُلْ﴾: يا محمد ﷺ وهو أمرٌ لكلّ مؤمنٍ به ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَ﴾: أيضًا أطيعوا ﴿الرَّسُولَ﴾: هذا أمرٌ ربّانيٌ للجميع؛ بضرورة طاعة الله ﷻ ورسوله ﷺ، لا تتخلفوا عن أمره، فتكونوا من الكافرين، والكفر هو التغطية ﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَوَلَّوْا﴾: أعرضوا وعصَوْا وكفروا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾: يؤكد الله ﷻ أنّه ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُحِبُّ﴾: أي أنّه ﷻ يكرهُ ﴿الْكَافِرِينَ﴾: هذا عاقبةُ كفرهم، أنْ ينالوا درجةَ الكفرِ شهادةً من الله ﷻ عليهم، وتكونَ العاقبةُ غضبَ الله ﷻ عليهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٣٣)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ اصْطَفَى﴾: لقد اختار الله ﷻ، واجتبى، وقرّب ﴿آدَمَ﴾: الإنسان الأول، أبا البشرية الذي خلقهُ ﷻ بيده من أديم الأرض، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة، وعلّمه الأسماء كلّها، وأنزله من الجنّة لحكمةٍ أرادها ﷻ، ﴿وَ﴾: أيضًا اختار ﴿نُوحًا﴾: واصطفى اللهُ ﷻ نوحًا ؑ؛ فجعله أوّل رُسلهِ في الأرض؛ ليحارب عبادة الأوثان، وانتقم له من الكفّار الذين حاربوه على مدى عمره الطويل، ولم يستجيبوا له، وهو يدعوهم ليلًا ونهارًا، سرًّا وعلانية، فلمّا أيقن أنّهم لنْ يؤمنوا دعا عليهم؛ فأغرقهم اللهُ ﷻ، واختار أيضًا ﴿وَآلَ﴾: واختار أيضًا عائلةَ ونسلَ ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾: واصطفى الله ﷻ آل إبراهيم ؑ، ومن نسلهِ كان خاتمُ الأنبياء سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ ﴿وَآلَ عِمْرَانَ﴾: أيضًا اختار واصطفى الله ﷻ عيسى وأمّه مريم وهما من آل عمران، والد أم عيسى ؑ، وهو من ذريّةِ إبراهيم ؑ، لقد اختار الله ﷻ هذه البيوت وعائلاتهم، تفضيلًا ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: على خلق الله ﷻ جميعًا.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٤)

﴿ذُرِّيَّةً﴾: نسلًا ﴿بَعْضُهَا﴾: نسلًا من بعد نسل ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا ﴿بَعْضٍ﴾: جزءٌ من هؤلاء المذكورون من ذريّة إبراهيم وهم إسماعيل، وإسحق، ويعقوب، والأسباط: يتوارثون الدعوة إلى الله ﷻ، ويدعون إلى مكارم الأخلاق، والشمائل الحسنة، وآخرهم كان محمدٌ ﷺ ﴿وَ﴾: أيضًا وعطفًا على ما سبق اعلموا أنّ ﴿اللَّهُ﴾: ﷻ من فوقهم ﴿سَمِيعٌ﴾: يسمعُ كلّ شيءٍ ﴿عَلِيمٌ﴾: بما يجرى في ملكه بأمره ﷻ.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٥)

﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى من الزمن بمعنى حين ﴿قَالَتِ﴾: سألت ﴿امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾: هي حنّة بنت قاعود بن قابيل، وهي أمُّ مريم ابنة عمران، اشتهت الولد؛ فدعت الله ﷻ أنْ يهبها ولدًا؛ فحملت، واعترافًا بفضل الله ﷻ عليها قالت ﴿رَبِّ﴾: والرّبُّ هو المنشئُ للكون البديع بما

وبمن فيه، وهو المُربي للكون وما ومن فيه من حالٍ إلى حالٍ إلى حدّ التمام؛ فهو مالك كلّ أمر ﴿إِنِّي﴾: أنا بالتأكيد ﴿نَذَرْتُ﴾: أُخصص جريًا على عاداتهم ترك الأولاد الذكور لخدمة بيت المقدس ﴿لَكَ مَا﴾: جاء الحرف **ما** ليدلّ على غير العاقل، وهو الجنين الذي في الرحم؛ الذي لم يكتمل نموّه ﴿فِي بَطْنِي﴾: في رحمي، أوجبتُ على نفسي بإرادتي؛ فنذرتُ أنْ يكون ما في رحمي ﴿مُحَرَّرًا﴾: أعتقهُ خالصًا لوجهِ اللهِ ﷻ مُفرّغًا للعبادة؛ لخدمة بيته المقدس فقط ﴿فَـ﴾: حرفٌ يفيد السبب والجواب ﴿تَقَبَّلْ مِنِّي﴾: أي استجب مطلبي ﴿إِنَّكَ﴾: أنت يا ألله بالتأكيد ﴿أَنْتَ﴾: تحديدًا ﴿السَّمِيعُ﴾: صاحب السمع المطلق لدعائي، ﴿الْعَلِيمُ﴾: العليم علمًا تامًّا وكاملًا بنيّتي.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٣٦)

﴿فَلَمَّا﴾: حرفٌ يُفيد التتابع والسبب ﴿وَضَعَتْهَا﴾: لم تكن تعلم هل الذي في بطنها ذكرٌ، أم أنثى، حتى وضعتها ﴿قَالَتْ رَبِّ﴾: يا مالك أمري كلّه ﴿إِنِّي﴾: أنا بالتأكيد ﴿وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾: كانت تأمُلُ أنْ يكون ما في بطنها ذكرًا ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا فإنّ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا﴾: اسم موصول، بالذي ﴿وَضَعَتْ﴾: العبارة هنا تُفيد تنزيه الله عمّا قالت؛ فهو ﷻ الذي وهبها الأنثى لحكمةٍ أرادها ﴿وَلَيْسَ﴾: فعلٌ ماضٍ ناقص؛ يُفيد النفي ﴿الذَّكَرُ كَـ﴾: حرفٌ بمعنى مثل أو كحال ﴿الْأُنْثَى﴾: هي تعلم أنّ الذكر أقوى جسدًا، والخبرُ يُفيدُ هنا في الظاهرِ التحسر ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾: وهنا حكمُ جواز تسمية المولود في يوم الولادة، كما سمّى محمدٌ ﷺ ابنه إبراهيم يوم ولادته ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا﴾: أُحصّنها وأجيرها بحفظك ﴿بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾: والذريّة تُطلق على الفرد وعلى الجماعة ﴿مِنَ﴾: حرفٌ يُفيدُ بداية الغايّة المكانيّة ﴿الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾: جاءت الرجيم على وزن فعيل والمقصود هو المفعول، أي مرجوم؛ هو الذي أغضبك، وعصاك، والذي كتبت عليه الطرد من رحمتك.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٧)

﴿فَـ﴾: وبسبب دعائها ﴿تَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾: تقبل اللهُ ﷻ نذر مريم من أُمّها قبولًا حسنًا، حيث نذرتها لله ﷻ ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿أَنْبَتَهَا﴾: أنشأها ﴿نَبَاتًا﴾: نشأةً ﴿حَسَنًا﴾: رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهماأنّ زكريا عليه السلام، استأجر لها ظئرًا "مرضعةً" طيبةً، أرضعتها حولين كاملين فكانت

تنمو نماءً عجيبًا على خلاف المواليد؛ وجعل شكلها جميلًا، ومنظرها بهيجًا، مرزوقةً من الصالحين من النّاس، تتعلم منهم الدين، وفعل الخير ﴿**وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا**﴾: كان زكريا ﷺ كفيلَها في معيشتها؛ لأنّها كانت يتيمة، اكتسبت منه علمًا نافعًا، وعملًا جمًّا، كان زكريا زوج خالتها، وقيل زوج أختها، معنى ذلك أنّها كانت في كفالة خالتها، والخالة في منزلة الأم ﴿**كُلَّمَا**﴾: كلمةٌ مكوّنةٌ من "**كل**" و"ما" وهي تفيد التكرار والتعميم ﴿**دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ**﴾: وهو مكان عبادتها في بيت المقدس ﴿**وَجَدَ عِنْدَهَا**﴾: ظرفُ زمانٍ وظرفُ مكانٍ ﴿**رِزْقًا**﴾: رزقًا يسوقه الله ﷻ لها، كان زكريا يجدُ عندها فاكهةَ الصيفِ في الشتاءِ، وفاكهةَ الشتاءِ في الصيف، بمعنى فاكهةً طوال العام، وهذا الأصحُّ، والله ﷻ أعلم، وهذا من كرامة الأولياء، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿**إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا**﴾ تَلاَ إِلَى قَوْلِهِ ﴿**وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا**﴾ قَالَ: كَفَلَهَا زَكَرِيَّا فَدَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ، فَوَجَدَ عِنْدَهَا عِنَبًا فِي مِكْتَلٍ فِي غَيْرِ حِينِهِ، قَالَ زَكَرِيَّا: ﴿**أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ قَالَ: إِنَّ الَّذِي يَرْزُقُكِ الْعِنَبَ فِي غَيْرِ حِينِهِ لَقَادِرٌ أَنْ يَرْزُقَنِي مِنَ الْعَاقِرِ الْكَبِيرِ الْعَقِيمِ وَلَدًا، ﴿**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ**﴾ فَلَمَّا بُشِّرَ بِيَحْيَى قَالَ: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ: آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا**﴾ قَالَ: يُعْتَقَلُ لِسَانُكَ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ وَأَنْتَ سَوِيٌّ[1]. ﴿**قَالَ يَا**﴾: حرفُ نداءٍ للقريب والبعيد ﴿**مَرْيَمُ أَنَّى**﴾: للبحث عن الحال والمكان؛ بمعنى من أين؟ وكيف؟ ﴿**لَكِ**﴾: تخصيصًا ﴿**هَذَا**﴾: اسم إشارة للمفرد المذكر القريب، وتفيد الإشارة والتنبيه ﴿**قَالَتْ هُوَ**﴾: الرزق وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر ﴿**مِنْ**﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع، وتُفيد هنا بداية الغاية التي لا يحدّها زمانٌ أو مكانٌ ﴿**عِنْدِ اللَّهِ**﴾: هذا رزقُ اللهِ ﷻ واسعًا، ﴿**إِنَّ**﴾: حرف تأكيد ﴿**اللَّهَ يَرْزُقُ**﴾: يهبُ من النعم ﴿**مَنْ**﴾: الذي من جنس البشر ﴿**يَشَاءُ**﴾: أراد ﴿**بِغَيْرِ**﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿**حِسَابٍ**﴾: يرسله بغير عددٍ، أو حجمٍ محددٍ، أو مقابلٍ؛ وبلا نهاية.

﴿**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾ **(٣٨)**

﴿**هُنَالِكَ**﴾: الأسماء **هنا** و **هناك** و **هنالك** هي ظرف مكانٍ بعيدٍ، أبعد والأبعد، وقد تأتي زمانيّة كما هو الحال في هذه الآية ﴿**دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ**﴾: عندما رأى زكريا رزق الله ﷻ لمريم من فاكهةِ الصيفِ، وفاكهةِ الشتاءِ دعا زكريا، وطلب من ربّه الولد، وكان شيخًا كبيرًا، أصابهُ الضعف، وشابت رأسهُ، وكانت امرأتهُ عاقرًا، وكبيرةً في العمر، كلُّها عوامل لا تقول بمجيء الولد، ولكنّها الثقة باللّهِ ﷻ، وشجّعه رزق الله ﷻ لمريم، قال داعيًا الله ﷻ ﴿**رَبِّ**﴾: ليؤكد على

---

[1] المستدرك للحاكم – دار المعرفة (٢/ ٢٩١) هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ.

عبوديته لله ﷻ بالاعتراف بأنّه مالك أمره كلّه، الذي يستجيب للدعاء ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾: طلب منحةً من الله ﷻ، دونَ ثمنٍ مقابلٍ، ضدّ قوانين البشر وقدراتهم، فلا الرجل ولا المرأة يصلحان للإنجاب في هذه الحالة ﴿ذُرِّيَّةً﴾: الولد ﴿طَيِّبَةً﴾: مؤمنةً يُصلحُ اللهُ ﷻ بها العباد والدين ﴿إِنَّكَ﴾: أنت سبحانك بالتأكيد ﴿سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾: ليؤكد العبدُ الصالحُ يقينه بأنّ الله ﷻ سيستجيب لأوليائه.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣٩)

﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب وبدون تأخير ﴿نَادَتْهُ﴾: خاطبتهُ ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾: شفاهيةً، خطابًا سمعه ﴿وَهُوَ﴾: وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر ﴿قَائِمٌ يُصَلِّي﴾: جاءهُ الكلامُ في حال قيامه للصلاة ﴿فِي الْمِحْرَابِ﴾: هو مكان الصلاة والعبادة، مكان خلوته، ومجلس الدعاء ﴿أَنَّ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾: البشارةُ هي إخبارٌ حسنٌ، علم زكريا عليه السلام، الخبر من الملائكة، وأخبره الله ﷻ باستجابة الدعاء، فسوف يرزقه بولدٍ أسمِهِ ﴿بِ﴾: باء الالتصاق ﴿يَحْيَى﴾: ولد اسمه يحيى من صلب أبيه ورحمِ أُمّه، وبالنظر إلى دلالات الاسم: أنشأه أي أحياهُ اللهُ ﷻ من عدمٍ، وأحيا اللهُ ﷻ به الإيمان، ومن صفاته: ﴿مُصَدِّقًا﴾: سيصدق ويؤمن بما جاء به عيسى عليه السلام، من ربّه ﷻ، مُؤكدًا ببرهانٍ ببيانِ الحُجّةِ القاطعِ ﴿بِ﴾: حرفُ باء السبب ﴿كَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيدُ ابتداء الغاية المكانيّة، الكلمة هي عيسى بن مريم، فيحيى أولّ من صدّق بعيسى عليه السلام، فهو أكبر منه سنًّا، كان يحيى، وعيسى ابنيّ خالة، وكانت أمُّ يحيى تقول لمريم فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا فِي بَطْنِي يَسْجُدُ لِلَّذِي فِي بَطْنِكِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران-٣٩][1]، وهذا دليلُ تصديق يحيى بعيسى عليها السلام ﴿وَسَيِّدًا﴾: والسيد في حكم الشرع هو من يُصلح حالَ النّاس في دنياهم وأخراهم؛ صاحبُ سيادةٍ وريادةً في العلم، وفي العبادة، والحكم، والقوة، والفتوة، وهو الكريم عند ربّه ﴿وَحَصُورًا﴾: لا يباشر مجامعة النساء مع قدرته على ذلك. ذكر القاضي عيّاض في ذلك: أنّه كان معصومًا من الذنوب، أي لا يأتيها، كأنّه حصور، كأنّه لا يملك ماء النطفة المني، أو لا يملك عضوًا ذكريًا، لقد كان مانعًا نفسه عن الشهوات ﴿وَنَبِيًّا﴾: أيضاً مُرسلًا من ربّه ﷻ، وهو ﴿مِنَ﴾: حرفٌ يُفيدُ بداية الغاية المكانيّة ﴿الصَّالِحِينَ﴾: الذين يُصلح اللهُ ﷻ بهم النّاس.

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٦٤٨).

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (٤٠)

﴿قَالَ﴾: زكريا عليه السلام، مُتعجبًا ﴿رَبِّ﴾: يا مالك أمري كلّه ﴿أَنَّى﴾: كيف ومن أين؟ فقد استبعدت حدوث الولد منهما؛ فهي كبيرةٌ في العمر؛ وهي لا تلدُ، ولا تحيضُ، وأيضًا لأنّ زوجها كبيرٌ في العمر، ﴿يَكُونُ لِي﴾: تخصيصًا ﴿غُلَامٌ﴾: مولودٌ جديدٌ ﴿وَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾: استغرب زكريا عليه السلام، كيف سيكون له ولد، وهو كبير السن ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا كانت وما تزال ﴿امْرَأَتِي﴾: وهي التي ستحمل وتلد، كيف وهي ﴿عَاقِرٌ﴾: لا تُنجبُ لسببٍ من الأسباب فهي يمكن أنْ تُنجب إذا عُولجت، أمّا العقيم فهي لا تُنجب مطلقًا ﴿قَالَ﴾: القائل هو المَلَك ﴿كَ﴾: مثل وحال ﴿ذَلِكَ﴾: هو كلّ ما جاء ذكره، وأخبر عنه الله تعالى، في هذا الحال وفي كلّ حال فإنّ ﴿اللَّهُ يَفْعَلُ﴾: يحقق ﴿مَا﴾: الذي ﴿يَشَاءُ﴾: هذا أمر الله سبحانه وتعالى الذي لا يُعجزه شيءٌ.

التكليف: جاء اللفظ القرآني **يفعل** لأنّه يعبّر أنّ مجيء الغلام في البشر يأتي بواسطة الزوج والزوجة، فناسب ذلك الفعل، أمّا في مجيء عيسى عليه السلام، فجاء اللفظ يخلق وهو إيجاد الشيء من غير سابق وجود، ومن هنا يكون وجوب الثقة المطلقة في قدرة الله سبحانه وتعالى على تحقيق كلّ معجزة يُنعم بها على الخلق.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (٤١)

﴿قَالَ﴾: القائلُ هو زكريا عليه السلام؛ شاكرًا فضلَ الله سبحانه وتعالى ﴿اجْعَلْ﴾: حقق ﴿لِي آيَةً﴾: سأل زكريا عليه السلام، ربّه سبحانه وتعالى علامةً يستدلُّ بها على أنّ اللهَ سبحانه وتعالى استجاب لدعائه، وأنّه سيرزقه الولد، كحال كلِّ من يتوقع خيرًا فإنّه يستعجل البشارة ﴿قَالَ﴾: الله سبحانه وتعالى ﴿آيَتُكَ﴾: العلامةُ أو الدليلُ على تحققِ الذي طلبتهُ هو ﴿أَلَّا﴾: حرفُ تخصيصٍ إذا جاءت قبل الفعل؛ أي أنّك لنْ ﴿تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾: لا تستطيع النطق باللسان دون خللٍ خلقي ولكنها إشارةٌ أنّ زوجته تحمل في بطنها جنينًا؛ لمدة ثلاث أيام، مع أنّك سليمٌ معافى ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ مُنقطعٍ ﴿رَمْزًا﴾: يجري لسانهُ ولا يتكلم، إيماءً أو بالإشارة، وليس باللسان، رغم أنّك صحيحٌ سليم ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿اذْكُرْ﴾: بالشكر والثناء ﴿رَبَّكَ﴾: هو المنشئ للشيء من حالٍ إلى حالٍ؛ وهو المربي إلى حدّ التمام، المالك لأمرك كلّه ﴿كَثِيرًا﴾: أمره بذكر الله سبحانه وتعالى كثيرًا، والتكبير ﴿وَسَبِّحْ﴾: نزّه الله سبحانه وتعالى ﴿بِ﴾: حرف باء الظرفية، تفيد الالتصاق، بمعنى استمرار التسبيح، ليلًا ونهارًا ﴿الْعَشِيِّ﴾: في

المساء الأول ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾: طلوع الفجر، وأمرهُ بكثرة التسبيح، أول النّهار، وآخرهُ، كنايةً عن كثرةِ التسبيحِ طوال النّهار، وجزءًا من الليل.

التكليف: وجوب ذكر الله ﷻ وشكره على كلّ نعمةٍ يُنعم بها على الخلق.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٢)

﴿وَإِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى من الزمن. واذكر يا محمد ﷺ ما قالته الملائكةُ لمريم ابنة عمران يوم ﴿قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا﴾: حرفُ نداءٍ للقريب والبعيد ﴿مَرْيَمُ﴾: ابنة عمران ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾: كان الاصطفاء الأول هو لعبادته وطاعته، اختاركَ وميزكَ وفضلك بكرمه لتكوني أم عيسى عليه السلام، السبب الأول: اختارها ﷻ، لكثرة عبادتها، وشرفها، وطهارتها، والسبب الثاني: لفضلها على نساء العالمين، فعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ»[1] ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿طَهَّرَكِ﴾: والطهارة نوعان طهارةُ النفس من الآثام، وطهارةُ الجسد من الأوساخ، إنّ الله ﷻ حفظك من الفاحشة، والإثم ﴿وَاصْطَفَاكِ﴾: والاصطفاء الثاني أنّها ستلد رسولًا نبيًّا هو عيسى عليه السلام عَلَى ﴿عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾: لم يكتب هذا الفضل على غيرك من النساء في العالم، اختارك وفضلك بسبب هذه الصفات الحميدة.

التكليف: الاصطفاء سُنّةٌ بشريةٌ، فالحاكم الصالح؛ يختار من الصالحين من يساعده والله ﷻ المثل الأعلى.

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٤٣)

﴿يَا﴾: حرفُ نداءٍ للقريب والبعيد ﴿مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾: كوني خاشعةً لله ﷻ الصلاة، أخلصي العبادة، وزيدي في زمن القيام في الطاعة في خشوعٍ، والقنوط هو طول القيام، وقيل طولُ الركوع في الصلاة؛ وقيل هي العبادة ﴿وَاسْجُدِي﴾: قُدّم السجود هنا على الركوع مع أنّ الركوع قَبل السجود لأنّ المقام مقام شكرٍ فتناسب مع السجود لأنّ العبد يكون أقرب من ربّه وهو ساجدٌ ﴿وَارْكَعِي﴾: بمعنى الصلاة ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾: كوني مع المصلين الذين يُتمّون السجود والركوع، لقد قدّم الله ﷻ السجود على الركوع؛ لأنّ العبد يكون أقرب إلى الله ﷻ وهو في السجود.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٤)

---

[1] صحيح البخاري (٥/ ٣٨)، صحيح مسلم /٤/١٨٨٦(٢٤٣٠).

﴿ذَٰلِكَ﴾: هو كلُّ ما جاء ذكره في موضع البعيد، الزمن السابق، وأخبر عنه الله ﷻ، هنا ما جاء ذكره عن زكريا، ومريم، عليهما السلام ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿أَنْبَاءِ﴾: الأخبار الصادقة والمهمة، وليست الكاذبة ﴿الْغَيْبِ﴾: هو غير المعلوم، وغير المرئي، وغير المسموع ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾: نعلّمك إيّاه يا محمد ﷺ وحيًا، ونقصّهُ عليك ﴿وَمَا﴾: حرف نفي بمعنى الذي ﴿كُنْتَ﴾: لم تكن ﴿لَدَيْهِمْ﴾: ما كنت بحضرتهم يا محمد لتخبرهم كيف اختصموا فيمن يقومُ بكفالة مريم عليها السلام، بل أخبرناك به وحيًا من عندنا، كأنّك حاضرٌ وشاهدٌ ﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى من الزمن بمعنى حين ﴿يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾: والقلم هو ما يُكتبُ به فإذا استخدم في الخير نال صاحبهُ الثواب؛ وهنا جواز الاقتراع إضافة إلى الاستفهام؛ حيث اجتمع العلماء والصالحون وهم يقترعون في شأن مريم ﴿أَيُّهُمْ﴾: حرفُ استفسارٍ عن الجماعة الذكور ﴿يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾: من منهم يقوم بكفالتها ورعايتها، رغبةً في الأجر ﴿وَمَاكُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾: أيضاً ما كنت عندهم ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾: يغضب بعضُهم من بعضٍ في تنافسهم على كفالة مريم، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: اقْتَرَعُوا فَجَرَتْ الأَقْلاَمُ مَعَ الجِرْيَةِ، وَعَالَ قَلَمُ زَكَرِيَّا الجِرْيَةَ، فَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا[1].

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٤٥)

﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى من الزمن ﴿قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾: نُعلمك يا محمد ﷺ عندمَا قالت الملائكة ﴿يَا﴾: حرفُ نداءٍ للقريب والبعيد ﴿مَرْيَمُ إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾: والبشارة تأتي فيما يُحبهُ النّاس ﴿بِكَلِمَةٍ﴾ الكلمة هي كنْ عيسى بن مريم؛ فكان ﷺ ﴿مِنْهُ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد ابتداء الغاية المكانيّة، يقول فقط كنْ، قدّر الله ﷻ في أمرٍ، سيرزقك الله ﷻ مولودًا اسمه عيسى ﷺ، أي يقول له كُنْ فيكون دونَ أب ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى﴾: سيعرفه المؤمنون بهذا الاسم، قيل لأنّه إذا مسح أحدًا من ذوي العاهات بُرئ بإذن الله ﷻ، وقيل لكثرة سياحته، وقيل لأنّه مسيح القدمين، لا أخمص لهما ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾: نسبةً لأمّه؛ لأنّهُ لا أبّ له ﴿وَجِيهًا﴾: صاحب الوجاهة التي هي نبوته ﷺ في الدنيا ووجاهته في الآخرة هي الشفاعة، وعلو الدرجة ﴿فِي الدُّنْيَا﴾: له مكانةٌ وجاهٌ عند الله ﷻ؛ بما يوحي إليه من الشريعة، ويُنزّل عليه الكتاب، الإنجيل ﴿وَ﴾: أيضًا وجيها في ﴿الْآخِرَةِ﴾: يوم القيامة ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾: أيضًا لأنّهُ سيشفعُ عند اللهِ ﷻ فيمن أذن اللهُ ﷻ فيه، فيقبل اللهُ ﷻ شفاعته.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٤٦)

---

[1] صحيح البخاري (٣/ ١٨١).

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ومن الكرامات والمعجزات ﴿يُكَلِّمُ النَّاسَ﴾: يدعو النّاس إلى عبادة الله وحده، لا شريك له وهو ﴿فِي الْمَهْدِ﴾: وهو صبيٌّ نائمٌ في مضجع الصبي في سن الرضاعة، وهذه آيةٌ من المعجزات ﴿وَ﴾: أيضًا يُكلمهم وهو ﴿كَهْلًا﴾: بعد اكتمال قوته البدنية، ويكلّم النّاس وهو في سن ما بين الشباب والشيخوخة، في كهولته، وكان إذا تكلّم وهو شابٌّ أسمع وأقام الحجّة؛ وهو في هذه الفترات يُبلّغُ ما أنزل اللهُ ﷻ عليه، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ[1]، ﴿وَمِنَ﴾: حرفُ جرّ يُفيد ابتداء الغاية، هو أيضاً من ﴿الصَّالِحِينَ﴾: من الرُسلِ الذين يُصلحون أحوال النّاس، يقولون صدقًا، ويعملون لخدمة الدين.

التكليف: لقد اكتملت البشرى بعيسى عليه السلام بعناصرها، ولادته من أمٍّ بلا أب، وكلامهُ للنّاس وهو في المهد، وكلامُه في كهولته، لتؤكد فعلًا أنّه من الصالحين، ومن العلماء، وكونه نبيًّا مرسلًا.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤٧)

﴿قَالَتْ﴾: مريم ﴿ رَبِّ﴾: تقربًا وتحببًا لله ﷻ، مالك كلّ أمرها، لمّا سمعت بهذه البشرى، سألت مريم عليها السلام ﴿أَنَّى﴾: من أين وكيف؟ ﴿يَكُونُ لِي﴾: تخصيصًا ﴿وَلَدٌ﴾: مولود ﴿وَلَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾: كيف يكون هذا الولدُ ولم أتزوج أحدًا في حلالٍ، ولم يقربني أحدٌ في حرامٍ؟ كيف يكونُ الولدُ دونَ أبٍ له ﴿قَالَ﴾: القائل هو المَلَكُ الذي يُبلّغ أمر الله ﷻ ﴿كَذَلِكِ﴾: مثل هذا، وهو كلُّ ما جاء ذكره، وأخبر عنه الله ﷻ عنه ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ﴾: يوجدُ من غير سابق مثال ﴿مَا﴾: الذي ﴿يَشَاءُ﴾: جاء لفظ الخلق في القرآن الكريم على سبعة أوجهٍ؛ هنا بمعنى من غير سابق وجود في قوله ﷻ **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾** [الأنعام-١]، وفي قوله ﷻ **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾** [المؤمنون-١٢]؛ حتى لا يبقى في نفسِ أحدٍ أيّ شيء، ولذلك لم يقل ﷻ يفعل كما في قصة زكريا عليه السلام ﴿إِذَا﴾: حرفُ ظرفٍ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿قَضَى﴾: حكم وقرّر: أراد وأحكم وجعله حتمًا ﴿أَمْرًا﴾: وهذه الكلمات تعزيزٌ لخلق الله ﷻ لعيسى عليه السلام ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيدُ السبب ﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ تُفيد التحديد والتخصيص ﴿يَقُولُ لَهُ﴾: تخصيصًا للشيء المُراد خلقه ﴿كُنْ﴾: فعلُ أمرٍ ربّاني واجبُ التحقق من حرفين ﴿فَ﴾: حرف جواب بمعنى بسرعة وبدونَ

---

[1] مسند أحمد ط الرسالة /٥/٣١(٢٨٢١). وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

تأخير ﴿يَكُونُ﴾: يوجد ما أراده الله ﷻ، لا يتأخر، بل يكون بعد الأمر بلا تأخير، جاء في المعنى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر–٥٠]؛ أمرٌ مرّة واحدةً، فيكون الشيءُ في طرفة عين.

التكليف: جاء النصّ القرآني ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ليؤكد حقيقتين: الأولى نفي الزنا عن مريم، والثانية قدرة الله ﷻ على الخلق، الذي هو إيجاد المخلوقات من غير سابق وجود.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٤٨)

يستمر الوحي في إخبار مريم عن ابنها عيسى عليه السلام، ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿يُعَلِّمُهُ﴾: يُخبر أنّ الله ﷻ سيُعلّمُ عيسى عليه السلام؛ وحيًا ﴿الْكِتَابَ﴾: الكتابة؛ ليفهم الكتاب الذي سينزل عليه، وهو الإنجيل ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: هي العلم وقوة الفهم والفقه، وحسن التدبير للأمور بوضعها في مواضعها، هي الصواب في القول والعمل، هي السُنن التي تجري على لسانِ وأفعالِ الأنبياءِ، عليهم السلام ﴿وَالتَّوْرَاةَ﴾: أيضًا التي نزلت على موسى عليه السلام، وما نزل على أنبياء بني إسرائيل من قبل ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾: أيضاً الذي سيكون كتاب عيسى عليه السلام إلى قومه.

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٤٩)

﴿وَ﴾: عطفًا على تعليم عيسى عليه السلام سيرسلهُ اللهُ ﷻ ﴿رَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: هذه بشارةٌ إلى مريم أنّ دعوة عيسى عليه السلام؛ ستخُصُّ بني إسرائيل رسولًا من عند الله ﷻ مفادها ﴿أَنِّي﴾: أنا عيسى بالتأكيد ﴿قَدْ﴾: حرفٌ دخلَ هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿جِئْتُكُمْ﴾: أتيتكم بما عندي، ما جاءني من ربّي إليكم ﴿بِ﴾: حرفُ باء الصلة ﴿آيَةٍ﴾: بدليلٍ وبرهانٍ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع، يُفيدُ بداية الغايّة التي لا يحدُّها زمانٌ ولا مكانٌ ﴿رَبِّكُمْ﴾: هو من عند الله ﷻ، وليس من عندي ﴿أَنِّي﴾: أنا بكلّ تأكيدٍ، ونفيٍ للشكّ ﴿أَخْلُقُ﴾: أُوجدُ من غيرِ سابقِ وجود ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿مِنَ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد ابتداء الغاية المكانيّة ﴿الطِّينِ﴾: وهو اختلاط التراب بالماء، أُصوّر بيدي من الطين جسمَ طائرٍ ﴿كَ﴾: مثل ﴿هَيْئَةِ﴾: شكل ﴿الطَّيْرِ﴾: طلبوا منه عليه السلام أنْ يخلق خفاشًا على سبيل التعجيز؛ فالخفاش أعجب من سائر المخلوقات؛ إنّه يتكون من لحمٍ ودمٍ، يطير بغير ريش، وتلد أنثاه كما تلد بقية الحيوانات، ولا يبيض، ومنها يخرج اللبن الذي يرضعه الصغار وتحيض أنثاه كما تحيض المرأة؛ ولا يُبصرُ إلّا في ساعةٍ بعد غروب الشمس وفي ساعةٍ بعد طلوع الفجر، وهو يطيرُ، مثل الطيور ﴿فَـ﴾:

حرفٌ يُفيدُ هنا العلّة والسبب ﴿أَنْفُخُ فِيهِ﴾: أي أُجري على الطين أنفاسي ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾: فيُصبح جسمُ الطين طيرًا بلا تأخير، يطير أمام الجميع ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: ينفي عيسى عليه السلام، عن نفسه القُدرة، ويُؤكّدها لله تعالى، ويُضيفُ ذكر آياتِ الله تعالى التي وهبها إيّاه ﴿وَأُبْرِئُ﴾: أيضًا أشفي ﴿الْأَكْمَهَ﴾: هو المولود الأعمى، لأنّ في إبصاره معجزة، وهذا أبلغُ في الدليل والتحدي، وقيل هو الأعمى الذي فقد بصره، وقيل الأعمش الذي هو ضعيف البصر ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾: أيضًا أشفي المُصاب بمرض البرص في الجلد، وهو فقدان اللون الطبيعي، مع رقّة الجلد، وتلف غدد العرق، وفقدان الشعر ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: كانت معجزةُ عيسى عليه السلام، منسجمةً مع البيئة؛ لأنّ العهد الذي سبقه قد طغت عليه المادّة، وبخاصّة بني إسرائيل، حيث قطعوا كلّ صلةٍ بينهم وبين شريعة موسى عليه السلام، فكانت معجزتهُ تقويضًا للمادةِ رأسًا على عقب؛ لأنّ معجزتهُ عليه السلام، كانت فيما برعوا فيه، لماذا كان إحياءُ الموتى آيةً في هذا الزمان؟ لأنّ السحر كان غالبًا في زمان موسى عليه السلام، وعُظّم فيه السحرة؛ فبعثهُ اللهُ تعالى بمعجزةٍ أبهرت الأبصار، وحيّرت السحرة، فلما علموا أنّها من عند الله تعالى أسلموا؛ وصاروا من عباد الله تعالى، كما جاءت بعثةُ محمدٍ ﷺ في زمانِ لغةِ الفُصحاء، وأهلِ البلاغة، وتجويد الشعر؛ فكان كتابُ الله تعالى الذي لا يأتي بمثله الإنسُ والجان، أو بعشرِ سورٍ من مثله، حتى ولو تعاونوا ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ﴾: أُخبركم ﴿بِمَا﴾: اسم موصول، بالذي ﴿تَأْكُلُونَ﴾: ماذا يأكل أحدُكم الآن دون أن أشاهده ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾: وأيضًا أخبركم ما هو مُدّخرٌ في بيوتكم لطعامِ الغد ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: هو كلُّ ما جاء ذكره، وأخبر عنهُ اللهُ تعالى، في هذه الآيات، والمعجزات كلّها بالتأكيد ﴿لَ﴾: حرف تخصيصٍ وعلّةٍ وسبب ﴿آيَةً﴾: دليلًا ﴿لَكُمْ﴾: على صدقي فيما جئتكم به ﴿إِنْ﴾: حرف شرط بمعنى إذا ﴿كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: إذا أردتم الدليل على الإيمان، ستؤمنون.

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (٥٠)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق؛ أي يضيف ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾: جئتكم مصدقًا لما قبلي، وهي التوراة لأنّها بشّرت بي وذكرت أوصافي فكان بعثتي تصديقًا لها، وكان هو يراعي أحكامها فيما لم يُؤمر بنسخه، وهذا من تصديقه لها، ومُقررًا ومُثبتًا ما أُنزل من كتابٍ من الله تعالى من قبله، وهو التوراة ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسبب ﴿أُحِلَّ﴾: لأجل أنْ أحلَّ بعض الذي حرّم الله عليكم من الأطعمة في التوراة كالشحوم وكل ذي ظفر وغيرها، مما شدّد الله تعالى فيه عليهم لتشديدهم، وقيل إنّما أُحلُّ لهم ما حرّمتهُ عليهم الأحبارُ، ولم تحرّمه التوراة

﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿بَعْضَ﴾: جزءًا من ﴿الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾: هذه الآية تقول إنّ عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة، وقيل إنّه لم ينسخ شيئًا، ولكنّه أحلّ لهم أكل الشحوم، والله أعلم ﴿وَجِئْتُكُمْ بِ﴾: حرف باء الصلة والمصاحبة ﴿آيَةٍ﴾: بدليلٍ وحجّةٍ على صدق ما أقول لكم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية التي لا يحدّها زمانٌ ولا مكان ﴿رَبِّكُمْ﴾: من عند الله سبحانه وتعالى، مالك أمركم كلّه، وليست من عندي ﴿فَ﴾: حرف سبب استثنائي بهدف ترتيب وتنفيذ الأمر دونَ تأخير ﴿اتَّقُوا﴾: خافوا من الله سبحانه وتعالى، واعلموا ما أمر ربّي، والعمل ليوم الموت، أطيعوا ﴿اللَّهَ﴾: بقناعةٍ، فيما أمركم به، طمعًا في رحمته، وأعرضوا عمّا نهاكم عنه بقناعةٍ، تفاديًا لعقابه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: اسمعوني، وأنفّذوا أوامري.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٥١)

﴿إِنَّ﴾: حرفُ تأكيد ﴿اللَّهَ رَبِّي﴾: هو المنشئُ للشيء من حالٍ إلى حال، إلى حدّ التمام، وهو مالك أمري كلّه ﴿وَرَبُّكُمْ﴾: أيضًا هو سبحانه مالك أمركم، فأنا وأنتم عبيدُ الله سبحانه وتعالى، سواءً بسواءٍ ﴿فَ﴾: لهذا السبب ﴿اعْبُدُوهُ﴾: اخضعوا له، واستكينوا، وطبقوا شريعته ﴿هَذَا﴾: اسمُ إشارةٍ للمفرد المذكر القريب ما آمركم به ﴿صِرَاطٌ﴾: منهجُ حياةٍ ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾: معتدلٌ لا عوج فيه، ولا ضلال فيه، تحققوا به ما تريدون بأقصر الطرق وأفضلها.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٥٢)

﴿فَلَمَّا﴾: حرفٌ يُفيد التتابع والسبب ﴿أَحَسَّ عِيسَى﴾: عَلِم عِلمَ اليقين مستخدمًا الحواس الخمس، علمٌ بلا شبهة؛ وأدرك عيسى عليه السلام ﴿مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾: أدرك تصميم قومه على الكفر، والاستمرار في الضلال قال: ﴿قَالَ مَنْ﴾: هم الذين من جنس العاقل، أيّها النّاس ﴿أَنْصَارِي﴾: أعواني ومساعديّ ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: من يساعدني، وينصرني ويتّبعني، وقيل من أنصاري في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا حالُ النبي محمد ﷺ الذي طلب النصرة؛ فنصرةُ الأنصار ضدّ كفّار مكّة، ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾: هم الأصفياء الأتقياء، وقيل كانوا أصحاب ثيابٍ بيضاء، وقيل كانوا قصّارين، وقيل كانوا صيّادين، كانوا تلاميذ عيسى عليه السلام، وأخصّ الناس به. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ» قَالَ سُفْيَانُ: الحَوَارِيُّ: النَّاصِرُ[1]، ﴿نَحْنُ﴾: ضميرٌ يُفيد جمعًا من النّاس من المُخبرين عن أنفسهم ﴿أَنْصَارُ﴾: أتباع، وناصرون، ومؤيدون ﴿اللَّهِ﴾: ننشر دينه سبحانه وتعالى بعد أنْ ﴿آمَنَّا﴾: اعتقدنا صدقًا ﴿بِ﴾: حرفُ باء الصلة ﴿اللَّهِ﴾: كان منهم الإعلان العلني بالإيمان

---

[1] صحيح البخاري (٤/ ٥٧).

بالله ﷻ ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿اشْهَدْ﴾: يا عيسى وليشهد جميع النّاس المؤمن والكافر في الدنيا ويشهد عيسى لنا بالإيمان يوم القيامة ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿أَنَّا﴾: نحنُ بوضوحٍ وصراحةٍ ﴿مُسْلِمُونَ﴾: إنّهم يُشهدون الجميع على إسلامهم، بقوّةٍ وعزّةٍ.

التكليف: كانت وستبقى هذه الوقفةُ عظيمةً عند الداعية المؤمن مهما كانت قوة الكافرين أمامه، ثم قال عليه السلام في خطوة ضرورية.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٥٣)

﴿رَبَّنَا﴾: المُعبودَ، والمُربيَ، وهو المنشئ لكل شيء في الكون حالًا فحال إلى حدّ التمام، وهو الخالق، والمالكَ، والعاطيَ، وكثيرَ الخير، والمُحيطَ، والمُدبّر، والجابرَ لكسر البرايا، والثابت، والقريبَ، والجامعَ، والمصلحَ، والسيدَ، يا من تملك حياتنا، ومماتنا، ورزقنا، وحسابنا نعلن نحن بالتأكيد ﴿آمَنَّا﴾: أعلن أنصارُ عيسى عليه السلام لربّهم إيمانهم أمام الجميع ﴿بِمَا﴾: اسم موصول، بمعنى الذي ﴿أَنْزَلْتَ﴾: علينا وهو الإنجيل ﴿وَ﴾: عطفًا على إيماننا ﴿اتَّبَعْنَا﴾: انقدنا طواعيةً ﴿الرَّسُولَ﴾: رسولك عيسى عليه السلام، طاعةً، واحتسابًا، ورجاءً ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد هنا الطلب من باب الرجاء ﴿اكْتُبْنَا﴾: أي اجعلنا مع طائفة ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾: من الذين يشهدون بالحق، إيمانًا بالله ﷻ، وتصديقًا برسله، وقيل أنْ يكتبهم مع أمّة محمد ﷺ فماذا كان ردّ فعلِ الكافرين؟ كان هذا التمايز الواضح بين المؤمنين والكافرين له ما بعده، فماذا سيفعل الكافرون؟

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٥٤)

﴿وَمَكَرُوا﴾: كان مكْرُ اليهود الشرَّ، مَكَرَ الكافرون من بني إسرائيل للفتك بعيسى عليه السلام، أرادوا به سوءًا، وقرروا صلبه، وتآمروا عليه، ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان، الذي كان كافرًا، وقالوا إنّ عيسى يُحرّض على معصية الملك، ويفرّق بين الأبّ وابنه، وقالوا عنه ابن زانية، حاش لله، فغضب الملك عليه، وطلبه، وأمر بصلبه، وتعذيبه ﴿وَ﴾: أيضًا عطفًا على ما قالوه ﴿مَكَرَ اللَّهُ﴾: كان مكر الله في الخير فقد أرادوا قتل عيسى عليه السلام، فاستدرجهم من حيث لا يعلمون، نجَّى الله ﷻ نبيّه وخيّب مكرهم، وقيل كان مكرُ الله ﷻ هو إلقاء الشبه على واحدٍ من الحواريين، ورُفع عيسى إلى السماء؛ فجاء الجنود بالذي أُلقي عليه شبه عيسى وهو من الحواريين، وظنّوا أنّهم قتلوه عليه السلام. إنَّ أمرَ اللهِ نافذٌ لا راد لإرادته ﷻ: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾؛ أمرُ الله ﷻ نافذٌ، وكيده أنفذ من كيدهم، وهو ﷻ الأقوى بلا مقارنة، قَالَ الْفَرَّاءُ: ﴿**وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ**﴾ [آل عمران- ٥٤] نَزَلَتْ فِي شَأْنِ عيسى عليه السلام، إِذْ أَرَادُوا قَتْلَهُ، فَدَخَلَ بَيْتًا فِيهِ كُوَّةٌ، وَقَدْ أَيَّدَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِجِبْرِيلَ عليه السلام، فَرَفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ مِنَ الْكُوَّةِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْهُمْ لِيَقْتُلَهُ، فَأَلْقَى اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ

الرَّجُلِ شَبَهَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَلَمَّا دَخَلَ الْبَيْتَ فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ عِيسَى خرجَ إِلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ: مَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ، فَقَتَلُوهُ وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ عِيسَى، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران-٥٤] الْمَكْرُ مِنَ اللَّهِ الِاسْتِدْرَاجُ لَا عَلَى مَعْنَى مَكْرِ الْمَخْلُوقِينَ[١].

التكليف: هذه قصةُ معجزةِ الإيمانِ باللهِ ﷻ، يعني الاعتقاد الكامل بأنّ قوّة الله ﷻ غالبة.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٥٥)

﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على حدث في الماضي بمعنى حين **﴿قَالَ اللَّهُ يَا﴾**: حرف نداء للقريب والبعيد **﴿عِيسَى﴾**: أوحى الله ﷻ إليه مخاطبًا **﴿إِنِّي﴾**: أنا الله بالتأكيد **﴿مُتَوَفِّيكَ﴾**: أراد الله ﷻ أن يُتمّ ما كتب لنبيّه ؈، من أيام بقائه على الأرض قابضك، قال متوفيك الوفاة المؤقتة، هو النوم وليس مميتك؛ فقد قبض اللهُ نفس عيسى ؈، حيّة، ورفع جسده دون موت. أغلب القول إنّ الوفاة هي أعمّ من الموت هنا هي النوم، هي الوفاةُ الصغرى، أي إنّي قابضك من غير خروج الروح إلى أجلٍ مسمى، وقد جاء: **﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾** [الزمر-٤٢]، وقيل تقديم وتأخير: معناها إنّي رافعك إليّ في الملكوت الأعلى، وافيًا بروحك وجسدك، فهو ؈ لم يمت وسينزل إلى الأرض؛ ويقتل الخنزير الذي يأكله المشركون، ويكسر الصليب الذي يُقدسون، ويدعو إلى دين محمدٍ ﷺ ويعيش ما شاء الله ﷻ له العيش، قيل إنّ الوفاة المؤقتة هي النوم، واللهُ ﷻ أعلم **﴿وَ﴾**: حرف عطف بمعنى أيضًا **﴿رَافِعُكَ إِلَيَّ﴾**: قابضُك من الأرض حيًّا إلى جواري، وآخذُك عندي بغير موت، ورافعُك من بين المشركين وأهل الكفر بك **﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾**: والطهارةُ نوعان: طهارةُ النفس من الآثام، وطهارةُ الجسد من الأوساخ، رافعك لأعلى، ومُنزّهك، ومُطهّرك **﴿مِنَ﴾**: حرفُ جرٍّ يفيد ابتداء الغاية المكانية، أي المصدر **﴿الَّذِينَ﴾**: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ **﴿كَفَرُوا﴾**: من الكفّار **﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾**: وهم المؤمنون بالله ﷻ وبرسوله عيسى ؈ وهم خُلص أصحابه، الذين لم يغالوا فيه، والذين وصفوه بما يستحق دون غلو، وقيل إنّ النصارى الذين اتبعوا عيسى ؈، لم يزالوا ظاهرين على باقي بني إسرائيل من اليهود، الذين كفروا بعيسى **﴿فَوْقَ﴾**: أعلى منزلةً، وأقوى مقامًا من **﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾**: أنكروا الإيمان بالله تعالى وبرسوله ﷺ **﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾**: سيبقى علوّ المؤمنين على الكافرين، حتى يقوم كلُّ الخلق للحساب **﴿ثُمَّ﴾**: حرفٌ يُفيدُ التتابع مع التباعد الزمني **﴿إِلَيَّ﴾**: إلى الله ﷻ **﴿مَرْجِعُكُمْ﴾**: عودتكم بالبعث والنشور إلى الله ﷻ **﴿فَ﴾**: حرفٌ

---

[١] الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٤٤٤).

يفيد الجواب ﴿أَحْكُمُ﴾: أقضي، وأفصل ﴿بَيْنَكُمْ﴾: بين المؤمنين والكافرين ﴿فِيمَا﴾: في الذي ﴿كُنْتُمْ﴾: في الحياة الدنيا ﴿فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾: في كلّ ما ورد في هذه الآية الكريمة من اختلافٍ حول عيسى عليه السلام، وقول الكافرين في مريم عليها السلام، وفي الجنّة والنّار.

التكليف: بقي من اليهود، من خالف قسطنطين، حتى إذا جاء محمدٌ ﷺ، وظهرت نبوته؛ آمنوا به، ونسخ الله ﷻ به الديانات السابقة، ولهذا فتح اللهُ ﷻ عليه مشارق الدنيا ومغاربها، وكسر شوكة كسرى وقيصر، ولقد كان رفع عيسى عليه السلام، فتنةً كُبرى للذين نجوا من بني إسرائيل، وهم قليل، هم الذين تحصّنوا بالإيمان الحق، وهذه سُنّةٌ قائمةٌ إلى يوم الدين.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٥٦)

﴿فَأَمَّا﴾: حرفُ استفتاحٍ بمعنى أي ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: من بني إسرائيل وهم اليهود، ومن الذين كفروا بعد رفع عيسى عليه السلام، وهم النصارى ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿أُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا﴾: جاء تكرار لفظ العذاب للتأكيد والتشديد ﴿شَدِيدًا﴾: قاسيًا يشتد عليهم ﴿فِي الدُّنْيَا وَ﴾: أيضًا يشتد عليهم في ﴿الْآخِرَةِ﴾: سأُذيقهم صنوف العذاب بالقتل، والأسر، وكلِّ صنوفِ الهوانِ، وهذا حالُ الكافرين إلى يوم القيامة: فقد فتح المسلمون القسطنطينية، وقتلوا الروم مقتلةً عظيمةً ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعض ﴿نَاصِرِينَ﴾: من يرفع عنهم عذاب الآخرة وبعض عذاب الدنيا؛ حيثُ يشكّل المسلمون اليوم أكثر من ثلث سكان العالم، أي أكثر من ملياري نسمة.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٧)

يُبينّ الحقُ ﷻ في هذه الآية صنفي البشر، الذين آمنوا، والذين كفروا، ويُحددُ ﷻ مصير كلِّ فئةٍ ﴿وَأَمَّا﴾: حرفُ تفضيلٍ وتوكيدٍ ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿آمَنُوا﴾: بالله ﷻ، وملائكته، وكتبه ورسله إنّ الإيمان وحدهُ لا يكفي، فلا بد من اقترانه بأنْ ﴿وَ﴾: أيضًا وعطفًا على إيمانهم الصادق ﴿عَمِلُوا﴾: طبقوا ﴿الصَّالِحَاتِ﴾: كلِّ ما لم يحرّمه الله ﷻ من قولٍ وعملٍ ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿يُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾: كاملًا غير منقوصٍ، أي يعطيهم أجر صبرهم في الدنيا نصرا وعزًّا، يرثون الذين كفروا، ويوم القيامة يفوزون بالجنّة ونعيمها، وأمّا الذين كفروا فمصيرهم في الدنيا الهزيمة، وفي الآخرة عذابٌ أليمٌ ﴿وَاللَّهُ لَا﴾: حرف نفي ﴿يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾: ولأنّه ﷻ لا يحبهم؛ لنْ ينصرهم في الدنيا، ولنْ يرحمهم في الآخرة.

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (٥٨)

﴿ذَلِكَ﴾: هو كلُّ ما جاء ذكرهُ، وأخبر عنهُ اللهُ ﷻ عنه ﴿نَتْلُوهُ﴾: يقول الله ﷻ نتلوه؛ أي نقصُّه، وجاءت بصيغة الجمع وهو واحدٌ أحد؛ للتعظيم ﴿عَلَيْكَ﴾: أنّ ما جاءك يا محمد ﷺ من حال عيسى عليه السلام في الدنيا، وميلاده، وتربيته، وكيف تعامل معه الكفّار، ومصيرهم في الدنيا، ومصيرهم في الآخرة ﴿مِنَ﴾: حرفٌ يفيد ابتداء الغاية المكانيّة؛ أي المصدر ﴿الْآيَاتِ﴾: من العلامات الواضحة، ما نُثبّت به قلبك ﴿والذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾: هو القرآن الكريم ذكرُ الأولين ونبأُ الآخرين وحكمُ العاملين.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿مَثَلَ﴾: إنّ **مثل** هنا ليست بمعنى التشبيه، بل تعني الصفة المُستغربة، البديعة، المعجزة، المشتركة بين آدم وعيسى عليهما السلام، فكلّ منهما خُلق من غير أبٍ بكلمةِ التكوين "كُنْ" فكان ﴿عِيسَى عِنْدَ﴾: ظرفُ زمانٍ وظرفُ مكانٍ ﴿اللَّهِ﴾: حال عيسى عليه السلام، يوم خلقه الله ﷻ من أمٍّ بلا أبٍ ﴿كَ﴾: مثل وحال ﴿مَثَلِ﴾: نموذج ﴿آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ﴾: حرفٌ يُفيدُ ابتداء الغاية المكانيّة، أي المصدر ﴿تُرَابٍ﴾: من طينٍ من غير أبٍ ومن غير أمٍّ، فالخالق واحدٌ، وقد خلق الله ﷻ حوّاء بغيرِ أمٍّ من ضلعِ آدم عليه السلام، وخلق بقية البشر من ذكر وأنثى: إنّ الآية هنا تدحض ادعاءات الكفّار بشأن نسب عيسى عليه السلام إلى الله ﷻ ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيدُ التتابع الزمني مع التراخي ﴿قَالَ﴾: الله ﷻ ﴿لَهُ﴾: لآدم عليه السلام ﴿كُنْ ف﴾: حرفٌ يُفيدُ التتابع السريع ﴿يَكُونُ﴾: فيصير وقد جاء آدم عليه السلام بلا تأخير، هذا مفتاح الإيمان الصادق، ونلحظ هنا دلالة الحرف "ثم" الذي يفيد التراخي الزمني الذي يفيد أنّ خلق عيسى لم يكن سريعًا عن غيره من الأطفال، بعكس خلق آدم، الذي كان بسرعةٍ قدّرها الله ﷻ.

التكليف: المثلُ هنا يفيد الوصف، أنّه خُلق من ترابٍ كما خُلق آدم من تراب، وقد يكون المعنى هو التشبيه، أي كشأنه في الخلق من غير أمٍّ ولا أب، من باب تشبيه الغريب بما هو أغرب.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٦٠)

﴿الْحَقُّ﴾: ما قيل بشأن خلق عيسى عليه السلام، هو الحق، لا تغيير، ولا تبديل ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا المصدر ﴿رَبِّكَ﴾: مالك أمرك كلّه ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يُفيد طلب عدم الفعل، وهي هنا تُحرّم أنْ ﴿تَكُنْ مِنَ﴾: بعض ﴿الْمُمْتَرِينَ﴾: من المُتشككين والمُجادلين بالباطل، والمُكذبّين الذين يُعاندون بغيرِ حقٍ.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ من بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (٦١)

﴿فَمَنْ﴾: فالذي من جنس العاقل ﴿حَاجَّكَ﴾: من جادلك يا محمد ﷺ من نصارى نجران، أو غيرهم ﴿فِيهِ﴾: في أمر عيسى عليه السلام، كيف يكون ولدٌ بلا أبٍ، ﴿من بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الذي قد بيَّنته لك في عيسى أنّه عبد الله ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السرعة، ولهذا السبب ﴿قُلْ﴾: هذه دعوةُ الكفّار إلى حالة المباهلة، وهي المُلاعنة ﴿تَعَالَوْا﴾: أقبلوا علينا نقرُّ ونعترفُ بكلمةٍ موجودةٍ فيما أُنزل إليكم وأُنزل إلينا من الوحي ﴿نَدْعُ﴾: نطلب جمع ﴿أَبْنَاءَنَا وَ﴾: أيضًا نُحضرُ ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾: يجتمع أولادُنا وأولادُكم والأتباعُ من الطرفين ﴿وَ﴾: أيضًا ندعو ﴿نِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾: اجتماعٌ جامعٌ من المؤمنين ومن الكافرين، في أمرِ عيسى عليه السلام ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيدُ التباعد الزمني مع التراخي ﴿نَبْتَهِلْ﴾: نتضرع إلى الله ﷻ بالدعاء ﴿فَنَجْعَلْ﴾: تكون وتقع ﴿لَعْنَتَ﴾: غضبَ وعقابَ ﴿اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾: أنْ يُصيب اللهُ ﷻ الكاذبين بغضبه. هذه آيةُ المباهلة أي "الملاعنة" حيث أوحى ربُّنا ﷻ لنبيهِ محمدٍ ﷺ أنْ يدعو وفد نصارى نجران أنْ يأتوا بأولادهم، وهو سيأتي بأولاده، وفي الغد خرج ﷺ ومعه عليٌّ، رضي الله عنهموفاطمة، والحسن، والحسين؛ وطلب منهم أنْ يؤمنوا إذا ما دعا على الكاذب أنْ يقولوا آمين، إلّا أنّ وفد نصاري نجران خافوا بعد أنْ تيقنوا أنّ الكاذب إذا ما لعنهُ ﷺ سيموت؛ فهربوا؛ وفي هذا دليلٌ على صدق نبوته ﷺ وفسادُ عقيدة نصارى نجران.

السبب: عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ جَابِرٍ أَنَّ وَفْدَ نَجْرَانَ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: مَا تَقُولُ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ: هُوَ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ وَعَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ قَالُوا لَهُ: هَلْ لَكَ أَنْ نُلَاعِنَكَ أَنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ؟ قَالَ: وَذَاكَ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَإِذَا شِئْتُمْ فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَجَمَعَ وَلَدَهُ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَقَالَ رَئِيسُهُمْ: لَا تُلَاعِنُوا هَذَا الرَّجُلَ فَوَ اللَّهِ لَئِنْ لَاعَنْتُمُوهُ لَيُخْسَفَنَّ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ. فَجَاؤوا فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُلَاعِنَكَ سُفَهَاؤُنَا وَإِنَّا نُحِبُّ أَنْ تُعْفِيَنَا قَالَ: قَدْ أَعْفَيْتُكُمْ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْعَذَابَ قَدْ أَظَلَّ نَجْرَانَ[1].

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٢)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿هَذَا﴾: اسمُ إشارةٍ للفرد المذكر القريب ﴿لَ﴾: حرف لام التخصيص والتوكيد ﴿هُوَ﴾: وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر ﴿الْقَصَصُ﴾: الأخبار والحوادث الصادقة في الماضي ﴿الْحَقُّ﴾: الذي يُؤكد الرواية الصادقة ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾: لا معبود يستحق العبادة ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿اللَّهُ﴾: هذا ينفي ادعاءات النصارى عن ألوهية عيسى عليه السلام ﴿وَإِنَّ﴾: بالتأكيد ﴿اللَّهَ لَهُوَ﴾:

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم (ط مقبل) (٢/ ٦٩٨) هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر ﴿الْعَزِيزُ﴾: القوي المنيع الذي لا يغلبهُ أحدٌ ﴿الْحَكِيمُ﴾: الذي يحقق الغاية الكلّية في قوله، وأفعاله.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٦٣)

﴿فَإِنْ﴾: حرفُ شرط ﴿تَوَلَّوْا﴾: إنْ أعرضوا، وابتعدوا، ورفضوا هذا الدين الحق المُبين؛ فهذا هو الفساد في الأرض بعينه ﴿فَإِنَّ﴾: حرفُ تأكيد الخبر ﴿اللَّهَ عَلِيمٌ﴾: يعلمُ ما في أنفسهم؛ وسيجزيهم شرّ جزاء، وهو قادرٌ ﷻ لأنّه ﴿عَلِيمٌ﴾: صاحبُ كاملِ العلمِ والمعرفةِ ﴿بِالْمُفْسِدِينَ﴾: العودة إلى الشرك والكفر، والفسادُ هو العدول والابتعاد عن الحق، واعتماد الباطل.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦٤)

﴿قُلْ﴾: فعلُ أمرٍ من براعة الاستهلال من الله ﷻ؛ للفت الأنظار لمحمدٍ ﷺ في الأصل، وهي اليوم لكلِّ مسلمٍ لتبيان أهميةِ ما سيأتي بعده من أوامر ﴿يَا﴾: حرفُ نداءٍ للبعيد والقريب ﴿أَهْلَ﴾: أصحاب ﴿الْكِتَابِ﴾: هم اليهود والنصارى، ومن هم على شاكلتهم، وقد دخل في ملّتهم في هذه الأيام فصائلُ، وجماعاتٌ، وأحزابٌ يحتاجون من المسلمين إلى هذا الخطاب ﴿تَعَالَوْا﴾: أقبلوا علينا نُقر ونعترف ﴿إِلَى كَلِمَةٍ﴾: هي الجملةُ المفيدة ﴿سَوَاءٍ﴾: كلمةِ عدلٍ وإنصافٍ تعني عبادة الله ﷻ وحده لا شريك له ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾: نتساوى فيها نحن وأنتم، فنلتزم بها جميعًا، ونطبقها جميعًا وهي ﴿أَلَّا﴾: حرفُ تخصيصٍ ﴿نَعْبُدَ﴾: نُطيع لا نتخذ من المخلوقات إلهًا ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ ﴿اللَّهَ﴾: لا نطيع صنمًا، ولا صليبًا، ولا وثنًا، ولا طاغوتًا، ولا فكرةً ضالةً، ولا عقيدةً فاسدةً، بل نُفرد الله ﷻ بالطاعة وحده، وهذه دعوة جميع الأنبياء ﴿وَلَا﴾: حرف نفي وتحريم ﴿نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾: أي لا نشرك في طاعته غيره ﷻ ﴿وَلَا يَتَّخِذَ﴾: أيضًا لا يعتمد ﴿بَعْضُنَا﴾: جزءٌ منّا ﴿بَعْضًا﴾: جزءًا آخر ﴿أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: لا نطيع في أنفسنا معبودات، في معصية الله ﷻ مثل المسيح ﷺ وعزير، ولا يسجد بعضُنا لبعضٍ ﴿فَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَوَلَّوْا﴾: إذا ابتعدوا، وغادروا هذه الدعوة، ورفضوها ﴿فَـ﴾: حرفُ يفيد الجواب؛ أي ﴿قُولُوا﴾: دونَ تلكؤٍ ﴿اشْهَدُوا﴾: أعلنوا لهم، وللجميع موقفكم، وليشهدهُ عدوُّكم وغيرُكم ﴿بِأَنَّا﴾: نحن بكلّ تأكيد ﴿مُسْلِمُونَ﴾: أسلمنا، فالإسلام لله ﷻ، والانقياد له، واتباع تعاليمه بقناعة، فقد فارقناكم لأننا مسلمون.

التكليف: توجد لحظاتٌ يكون فيها إعلان الولاء لله ﷻ، والبراء من الشرك؛ منجاةً ونصرًا.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٥)

يستمر التكليف الربّاني ﴿يَا﴾: حرفُ نداءٍ للقريب والبعيد ﴿أَهْلَ﴾: أصحاب ﴿الْكِتَابِ﴾: إنّهم اليهود والنصارى ﴿لِمَ﴾: لماذا؟ ﴿تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾: تجادلون في إبراهيم؟ سؤال استنكاري: لماذا تُجادلون في ملّةِ إبراهيم ﷺ؛ فقد اجتمع يهودُ ونصارى نجران عند رسول الله ﷺ، قال الأحبارُ ما كان إبراهيمُ إلّا يهوديًا، وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلّا نصرانيًا، فجاء الردُّ من الله ﷻ ﴿وَمَا﴾: أيضاً حرف نفي ﴿أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ﴾: الكتاب السماوي الذي نزل من الله ﷻ على اليهود ﴿وَ﴾: أيضًا لم يُنزل ﴿الْإِنْجِيلُ﴾: الذي نزل على النصارى ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا ابتداء الغاية الزمانيّة، أي ﴿بَعْدِهِ﴾: يدحض القرآن دعاوى اليهود الذين قالوا إنّ إبراهيم ﷺ، كان يهوديًا، وما نزلت التوراة إلّا على موسى وهو من أحفاد إبراهيم عليهما السلام، ودحض القرآنُ الكريمُ دعاوى النصارى أنّ إبراهيم كان نصرانيًا، وقد جاءت النصرانية بعده بزمن طويل من بعد اليهود ﴿أَفَلَا﴾: حرفُ استفهامٍ خرج عن معناه الحقيقي؛ ليُفيد معنى الأمر، وهو طلبُ الفعل على وجه الاستعلاء، والإلزام، أي اعقلوا ﴿تَعْقِلُونَ﴾: ألا تستخدمون العقل؛ لتفهموا، دونَ تعصب؟.

التكليف: كانت اليهودية بعثة موسى وكانت النصرانية بعثة عيسى وكان إبراهيم عليهم السلام جميعًا، من قبلهم جميعًا، فكيف كان إبراهيم على ملّتهم؟

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٦)

﴿هَا﴾: اسمُ إشارةٍ للدلالة على النوع والعدد ﴿أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾: يا أهل الكتاب ﴿حَاجَجْتُمْ﴾: جادلتم ببيناتٍ وحججٍ ﴿فِيمَا﴾: في الذي، حرفُ استفهامٍ عمّا يُعقل وما لا يُعقل ﴿لَكُمْ﴾: حرفُ تأكيد ﴿بِهِ عِلْمٌ﴾: فيما وصلكم من علمٍ في التوراة والإنجيل في الحلال والحرام وأنواع العبادة، وهو أمرُ دينكم، اليهودية والنصرانية ﴿فَلِمَ﴾: فلماذا ﴿تُحَاجُّونَ﴾: تُجادلون فيه بالباطل؛ وتُخاصمون ﴿فِيمَا لَيْسَ﴾: فعلٌ ماضٍ ناقصٌ؛ يفيد النفي ﴿لَكُمْ﴾: تمليكًا وتخصيصًا ﴿بِهِ عِلْمٌ﴾: من زعمهم أنّ إبراهيم ﷺ، كان على دينهم، لقد حاجج اليهودُ والنصارى في إبراهيم ﷺ، بلا علم، ولو رجعوا إلى ما بين أيديهم من العلم، لعلموا أنّ بعثة محمدٍ ﷺ حقٌ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿أَنْتُمْ﴾: تخصيصًا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تَعْلَمُونَ﴾: لو رجعتم إلى قول الله ﷻ في

رسالاتكم لعرفتم أنّ بعثة محمدٍ ﷺ حق، ولكنّكم اعتمدتم أهواءكم، وأنتم لا تعلمون، هو منهجُ كثيرٍ من أصحابِ الأفكارِ الوضعيةِ الذين يُجادلون بغير علم.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٦٧)

﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿كَانَ﴾: أي لم يكنْ ﴿إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا﴾: لأنّ اليهودية جاءت على عهد موسى عليه السلام، وهو من أحفاد إبراهيم عليه السلام ﴿وَلَا﴾: حرف نفي، ولم يكنْ إبراهيم عليه السلام ﴿نَصْرَانِيًّا﴾: من الذين كانوا في عهد عيسى عليه السلام ﴿وَلَكِنْ﴾: حرفُ عطفٍ واستدراكٍ ﴿كَانَ حَنِيفًا﴾: مائلًا عن الشرك والباطل، ومائلًا عن الأديان الباطلة إلى التوحيد ﴿مُسْلِمًا﴾: مُوحدًا منقادًا لله ﷻ، قاصدًا الإيمان الحق، راجع [البقرة–١٣٥]؛ ففيها المزيد ﴿وَمَا كَانَ﴾: ولم يكن ﴿مِنَ﴾: حرفٌ يفيد بداية الغاية المكانيّة، وهم ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾: الذين عبدوا غير الله ﷻ أو عبدوا معه إلهًا أخر.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٨)

﴿إِنَّ﴾: حرفُ تأكيد ﴿أَوْلَى﴾: أحقُ وأخصُّ ﴿النَّاسِ﴾: عموم بني آدم ﴿بِإِبْرَاهِيمَ﴾: بالانتساب، وباتباع إبراهيم عليه السلام ﴿لَ﴾: حرف تخصيص ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿اتَّبَعُوهُ﴾: هم الذين أطاعوه فاتبعوه في زمانه من أصحابه، والذين اقتدوا بدينه من بعده ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿هَذَا﴾: اسمُ إشارةٍ للمفرد المذكر القريب ﴿النَّبِيُّ﴾: هو محمد ﷺ من جهة موافقتهِ لدينهِ في كثيرٍ من الشريعةِ المحمديةِ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾: اتبعوه وهم على دينه من المهاجرين والأنصار، وأمّةٍ محمد ﷺ ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يُفيد هنا الحال ﴿اللَّهُ وَلِيُّ﴾: الولي هو الحبيب، والنصير والمؤيد ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: الذين آمنوا تصديقًا كاملًا.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٩)

﴿وَدَّتْ﴾: أرادت ورغبت ﴿طَائِفَةٌ﴾: مجموعةٌ من أحبار اليهود، ومن والأهم من بني النضير وقريظة وبني قينقاع، حين دعوا جماعةً من المسلمين إلى دينهم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية، وهم بعض ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: من اليهود والنصارى، والحاقدين على المسلمين ﴿لَوْ﴾: حرفٌ تمنٍّ يُفيدُ الاستحالة ﴿يُضِلُّونَكُمْ﴾: يصرفونكم ويُبعدنكم عن الإيمان، عن الطريق السليم؛ فتضلوا، وتنحرفوا، وفي هذا إنّ تحقق، أو لم يتحقق ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿يُضِلُّونَ﴾: يُحرّفون ويصرفُون ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾: لأنّ هذا يؤكد ثبات المؤمنين على إيمانهم؛ وازدياد ثقتهم برب العالمين؛ سيصيبُهم ما يُضمرون للمسلمين، بمعنى أنّ اليهود هم من يدخل بعضهم في الإسلام، ويترك اليهودية المنحرفة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: ولا

يُدركون أنّ مكرهم على أنفسهم، فهم ممكورٌ بهم في كتاب الله ﷻ، مع ضرورةِ الحذرِ من مكرِ اليهود والنصارى وأوليائهم.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٧٠)

﴿يَا﴾: حرفُ نداءٍ للقريب والبعيد ﴿أَهْلَ﴾: أصحابَ الذين نزل فيهم، أو آمنوا به بعد ذلك ﴿الْكِتَابِ﴾: المقصود هم اليهود والنصارى ﴿لِمَ﴾: لماذا ﴿تَكْفُرُونَ﴾: تُنكرون وتُخفون الحقيقة ﴿بِ﴾: حرف باء الالتصاق ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾: وهي الدلائل والبراهين على صدق رسالة محمدٍ ﷺ من الله تعالى ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ هنا بمعنى حال ﴿أَنْتُمْ﴾: تحديدًا ﴿تَشْهَدُونَ﴾: تعلمون علم المشاهد والشاهد وتُقرّون بصدقها، وقد تحققتم أنّها حق، فلماذا تنكرونها.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٧١)

﴿يَا﴾: حرفُ نداءٍ للقريب والبعيد ﴿أَهْلَ﴾: أصحابُ، ومن نزل فيهم ﴿الْكِتَابِ﴾: اليهود والنصارى ﴿لِمَ﴾: حرفُ استفهامٍ يفيدُ الاستنكار بمعنى لماذا ﴿تَلْبِسُونَ﴾: اللبس هو الخلط، كأنّما كسا الباطلَ ثوبَ الحقّ وكسا الحقَّ ثوبَ الباطل؛ حتى يختلط الأمرُ، ثم يُؤخذُ به الشكّ ﴿الْحَقَّ﴾: التعاليم الصحيحة ﴿بِالْبَاطِلِ﴾: التعاليمِ المحرّفةِ عن عمدٍ، وما أدخلوه مما ليس فيه؛ ليُضلوا النّاس ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾: أيضًا تُخفون الحقّ عن النّاس؟ حيث كان أسلوبُ اليهود والنصارى التشكيك في الحقّ إذا ثبتت رؤيته، وأدركته الحواس، أو تغطيته إذا كان في عالم الغيب ﴿وَأَنْتُمْ﴾: تحديدًا ﴿تَعْلَمُونَ﴾: إنّ الحقيقة حول دين الله ﷻ يعلمها أهلُ الكتاب، وهذا يضاعفُ من عقابهم.

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٧٢)

تضيفُ هذه الآيةُ الكريمةُ فضح مكيدةٍ إضافيةٍ من كيد أهل الكتاب، ليلبسوا على الضعفاء دينهم، فبعد التشكيك في الحق، وبعد كتم الحق جاءت الطريقة الثانية ﴿وَقَالَتْ﴾: كذبًا ﴿طَائِفَةٌ﴾: تطلق على الواحد والاثنين والجماعة، من أصلٍ واحدٍ هم رؤساؤهم وأشرافهم؛ وجماعةٌ من علماء اليهود، قالوا للسفهاء من قومهم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، أي المصدر ﴿أَهْلِ﴾: من الذين نزل فيهم ﴿الْكِتَابِ﴾: الذين نزل فيهم كتاب من الله ﷻ، وهم اليهود والنصارى ﴿آمِنُوا﴾: صدّقوا ﴿بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿آمَنُوا﴾: وهم المؤمنون بمحمدٍ ﷺ ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾: وهم المنافقون، الذين يبدون الإيمان وجه أوّل الشيء، أي يُظهروا إيمانهم في الصباح بالدين الذي نزل على محمد ﷺ، فيُصلُّوا الصبح ﴿وَ﴾: حرف

عطفٍ عطفًا على هذا بهدف الاستئناف ﴿اكْفُرُوا آخِرَهُ﴾: أنكروا الإسلام آخر النّهار، أي في وقتٍ قصيرٍ، فكانوا إذا جاء آخر النّهار ارتدوا، ليقول المتشككون: ما ردّهم عن دينهم إلّا اكتشافهم نقيصةً وعيبًا في دين المسلمين ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: حرفُ ترجي وتوقعٍ عند الخلق، هنا هم المنافقون واليهود ﴿يَرْجِعُونَ﴾: أراد اليهود حين يرى النّاس ارتداد اليهود عن دين محمد ﷺ أن ينصرفوا عن العبادة، خاصّةً إذا صلى اليهود آخر النّهار صلاتهم الخاصّة، ولأنّ النّاس كانت تظنُّ أنّ اليهود أعلمُ منهم، ربما انصرف النّاس عن دين محمد ﷺ.

التكليف: لن يكفّ اليهودُ، حتى أخر يومٍ في حياتهم، عن الحيلِ، والأكاذيبِ، والكيدِ للمؤمنين؛ ليصرفوهم عن دينهم.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٧٣)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لَا﴾: حرف نفي ونهي ﴿تُؤْمِنُوا﴾: قال رؤساءُ اليهود للسفلة منهم: لا تصدقوا ولا تطمئنوا بحق، ولا تعلنوا دينكم، وتكشفوا سرّكم ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع، لا تؤمنوا أبدًا باستثناء ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل، للذي ﴿تَبِعَ دِينَكُمْ﴾: لليهودي فقط، وهذه وسيلةٌ جديدةٌ في محاربةِ الدينِ، يأمرونهم ألّا يُظهروا ما بأيديهم من أدلّةٍ على صدقِ الدينِ الجديد، للمسلمين وللنّاس، ولعلاج هذه الحالة يأمر الله ﷻ رسوله ﴿قُلْ إِنَّ﴾: بالتأكيد ﴿الْهُدَى﴾: إنّ الاهتداء إلى الحق هو ﴿هُدَى اللَّهِ﴾: هذا أمر لمحمدٍ ﷺ وللمسلمين باتباع هذا الدين إلى يوم القيامة، الذي جاء من عند الله ﷻ، خالصًا فيه من الدلائل، والبينات القاطعات، والحجج الواضحات ما يهدي قلوب المؤمنين، وليس ما أنتم عليه أيّها اليهود والنصارى من الكذب والعناد، والاستكبار ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يُؤْتَى﴾: يُعطى ﴿أَحَدٌ﴾: وخاصّة محمدٌ ﷺ ﴿مِثْلَ مَا﴾: الذي ﴿أُوتِيتُمْ﴾: لا تُظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين، فيتعلموه منكم، ويشاركوكم فيه؛ فتفقدوا تميّزكم عليهم، ويمتازوا عليكم لشدّة إيمانهم به ﴿أَوْ﴾: حرف تسوية في الحكم ﴿يُحَاجُّوكُمْ﴾: أنْ يتخذوه حُجّةً عليكم، ودليلًا ضدّكم في الدنيا ﴿عِنْدَ﴾: ظرفُ زمانٍ وظرفُ مكانٍ ﴿رَبِّكُمْ﴾: وتقوم الحُجّة عليكم أيضًا يوم القيامة عند مالك أمركم كلّه، ويأمر الله ﷻ بعلاج هذه المكيدة ﴿قُلْ﴾: يا محمد وكلّ مسلمٍ ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿الْفَضْلَ﴾: التوفيق للإيمان والهدايةِ والإسلام بيد الله ﷻ لا بيد غيره، إنّ فالحقيقةَ الخالدةَ أنّ كلّ صُنوف الخير ﴿بِ﴾: حرفُ باء الالتصاق ﴿يَدِ﴾: بإرادة ﴿اللَّهِ يُؤْتِيهِ﴾: يُعطيه، ويمنحُه ويُفضّل ﴿مَنْ﴾: الذي من بني آدم ﴿يَشَاءُ﴾: يختارُ ويريدُ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾: صاحب العلم الكامل، الوافي

بكلّ صغيرةٍ وكبيرة، يهدي بها من يشاء؛ فيهدي بالحقِ إلى الحق، هو المُعطي وهو المانع، يمُنّ على من يشاء بعلمه؛ فيهدي بصيرته، ويُضلُّ من يشاء فيعمي بصيرته، ويختم على قلبه وسمعه، ويجعل على بصره غشاوة.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤)

﴿يَخْتَصُّ﴾: يختار اللهُ ﷻ ﴿بِرَحْمَتِهِ﴾: برحمةٍ منه وفضل ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَشَاءُ﴾: من المؤمنين، بما ليس له حدود ولا وصف، كان شرفُ النبوة لمحمد ﷺ على سائر الأنبياء، خاتمًا لهم ﴿وَاللَّهُ ذُو﴾: صاحبُ الوصف بالأسماء والصفات ﴿الْفَضْلِ﴾: الكرم، والمنّة، والتفضل ﴿الْعَظِيمِ﴾: له أكمل الشرائع، وأهدى السبل، فوزٌ ونصرٌ في الدنيا، وجنّةٌ في الآخرة، بما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق، وبمعنى أيضًا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا المصدر ﴿أَهْلِ﴾: أصحاب، وأنصار وأتباع ﴿الْكِتَابِ﴾: يقصد اللهُ ﷻ اليهود، وخاصّة الخونة، ويُحذّر المؤمنين منهم، وعدم الانخداع بهم، فبدأ بذكر بعض صفاتهم ﴿مَنْ﴾: الذي من بني آدم ﴿إِنْ﴾: حرف شرط بمعنى إذا ﴿تَأْمَنْهُ﴾: أنْ تطمئن له؛ فتعطيه، تأتمنهُ يا مسلمُ على مالٍ ﴿بِقِنْطَارٍ﴾: أي المبلغ الكبير من المال، والباء هنا للاستعلاء، أي طلب الزيادة وطلب العلو ﴿يُؤَدِّهِ﴾: يردّه ﴿إِلَيْكَ﴾: وهذا يعني أنّه يرده كلّه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ﴾: الذي ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾: وهو اليسير من المال ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾: عندما تطلبُ وتلحُّ في طلب مالَك لا يردهُ إليك، وهو يعلم أنّه من حقك، ومعنى ذلك أنّه لن يعطي الحقوق لأصحابها، صغيرها وكبيرها ﴿إِلَّا﴾: حرفٌ يُفيدُ الاستثناء المنقطع ﴿مَا دُمْتَ﴾: كنت مستمرًا ﴿عَلَيْهِ قَائِمًا﴾: أي لا يردّه إليك إلّا إذا كنت أقوى منه، أو تلحُّ عليه بالمطالبة، أو بالتقاضي ﴿ذَلِكَ﴾: هو كلُّ ما جاء ذكره، وأخبر عنهُ اللهُ ﷻ عنه، هنا بسبب ﴿بِ﴾: حرف باء التوكيد ﴿أَنَّهُمْ﴾: هم بالتأكيد ونفيًا للإنكار ﴿قَالُوا﴾: كذبًا وزورًا ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقصٌ، يُفيدُ النفي ﴿عَلَيْنَا﴾: لا يصيبنا ﴿فِي الْأُمِّيِّينَ﴾: ما أخذنا من أموالِ العرب والمسلمين وكلّ من هو من غيرِ أهلِ الكتاب السماوي، أهل الاختلاق المحض ﴿سَبِيلٌ﴾: ومعنى السبيل هنا الإثم، ليس علينا من ديننا عتاب أو إثم أو حرج في أكلِ أموالِ، وسرقةِ أرض العرب والمسلمين وغيرهم؛

لأنّ ربّهم أحلّها لنا -كما يدّعون-، ومن الملاحظ أنّه إذا كان هذا حالُهم في الدينار، فكيف حالُهم في وطنٍ مثل فلسطين؟ وهل بغير القوة ستُسترد أوطانٌ ومقدسات؟! ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿يَقُولُونَ﴾: يفترون ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾: ما ليس في الدين الذي أنزله الله ﷻ عليهم، ومن جرائمهم أيضًا، اختلاق اليهودِ هذه الفريةِ عليه ﷻ؛ لأنّه حرّم عليهم أكل الأموال إلّا بحقها ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: أي يعلمون أنّ الله ﷻ ما شرّع لهم هذا الكذب، أنه ليس عليهم عقاب من الله ﷻ الذي يُبررون به أكل أموال النّاس بالباطل.

﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧٦)

﴿بَلَى﴾: حرفُ جوابٍ وتصديقٍ، بمعنى نعم، ليس الأمر كما يقولون، بل عليهم إثمٌ لأنّ ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿أَوْفَى﴾: حقّق وعمل ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿عَهْدِهِ﴾: التزم بعهد العبد في طاعة الله ﷻ ﴿وَاتَّقَى﴾: تجنب المحرّمات وعمل بالواجبات، وانتهى عن النواهي بوعيٍ وإدراكٍ؛ طمعًا في ثواب الله ﷻ، وخوفًا من عذابه، فأدى الأمانات إلى أهلها ﴿فَإِنَّ﴾: بالتأكيد ﴿اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾: يُحبُ الذين يعبدون الله ﷻ كأنّهم يرونه، ومن أحبهم الله ﷻ أكرمهم في الدارين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٧)

سبب النزول: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَجُلًا أَقَامَ سِلْعَةً فِي السُّوقِ، فَحَلَفَ فِيهَا، لَقَدْ أَعْطَى بِهَا مَا لَمْ يُعْطِهِ، لِيُوقِعَ فِيهَا رَجُلًا مِنَ المُسْلِمِينَ»، فَنَزَلَتْ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾** [آل عمران-٧٧] إِلَى آخِرِ الآيَةِ[١].

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد الجمع؛ هنا من اليهود وأشباههم من ﴿يَشْتَرُونَ﴾: إذا أكلوا أموال وحقوق غيرهم، يعتمدون الإنكار، عوضًا عن الإيمان، ويستبدلون ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ﴾: إذا استحلفوا ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: باعوا ما أنزل اللهُ ﷻ لهم على رسلهم، بالحلف الكذب الفاجر بأثمانٍ قليلةٍ زهيدةٍ، يبتغون عرض الدنيا الفانية ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارةً لهؤلاء الموصوفين بهذه الصفة ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿خَلَاقَ﴾: الخَلاق هو النصيب، أي لا نصيب، ولا حظّ، يأتي فيما أعدّ لهم من خيرٍ، والخلاق يأتي فيما أعدّ لهم من شرٍّ ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا أو تمليكًا ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾: من متاع يوم القيامة ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾: لا يُسمعهم الله ﷻ كلامه بلا رسول أو سفير كما كلّم الله ﷻ موسى ﵇، على الحقيقة، ولكن يكلمهم مجازًا بأنْ تكون

---

[١] صحيح البخاري (٦/ ٣٤).

الملائكة بمحاسبتهم، وقد يكون هذا توبيخًا لهم لأنّه غاضبٌ عليهم، إنّ كلام اللهِ ﷻ للبشر بأي من هذه الوسائل هو جائزةٌ عظيمةٌ، وتكريمٌ، واحتفاءٌ ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: نظرةُ الرحمة، بل يسخط عليهم ويعذبهم بذنوبهم، دلالةً على تجاهلهم وتحقيرهم، لن ينالوا لطف الكلام من الله ﷻ، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾: أيضًا لا يُثني عليهم، ولا يُطهّرهم من الذنوب والدنس ﴿وَ﴾: أيضًا عطفًا على غضب الله تعالى ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: شديد الوجع وهم في النّار يُقاسون الألم، أي الوجع الشديد.

التكليف: جاءت أحاديثُ شريفةٌ كثيرة في هؤلاء منها، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مِرَارًا، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ[1]. وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، هُوَ عَلَيْهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا**﴾ [آل عمران-٧٧] الآيَةَ[2]، وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنِ اقْتَطَعَ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ[3] وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَجُلًا أَقَامَ سِلْعَةً فِي السُّوقِ، فَحَلَفَ فِيهَا، لَقَدْ أَعْطَى بِهَا مَا لَمْ يُعْطِهِ، لِيُوقِعَ فِيهَا رَجُلًا مِنَ المُسْلِمِينَ[4].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ثَلَاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِطَرِيقٍ، يَمْنَعُ مِنْهُ ابْنَ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلًا لاَ يُبَايِعُهُ إِلَّا لِلدُّنْيَا، فَإِنْ أَعْطَاهُ مَا يُرِيدُ وَفَى لَهُ وَإِلَّا لَمْ يَفِ لَهُ، وَرَجُلٌ سَاوَمَ رَجُلًا بِسِلْعَةٍ بَعْدَ العَصْرِ، فَحَلَفَ بِاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا كَذَا وَكَذَا فَأَخَذَهَا[5].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٨)

﴿وَإِنَّ﴾: حرفُ تأكيد ﴿مِنْهُمْ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية المكانيّة، هم بعض الذين جاء ذكرهم في الآيات السابقة ﴿لَ﴾: حرف تخصيص ﴿فَرِيقًا﴾: من اليهود لعنهم الله ﷻ، جماعةً، طائفةً

[1] صحيح مسلم /١/١٠٢(١٠٦).
[2] صحيح البخاري /٣/١١٠(٢٣٥٦).
[3] مسند أحمد /١/٤١٦(٣٩٤٦). قال شعيب الأرنؤوط: صحيح، وهذا إسناد حسن.
[4] صحيح البخاري /٦/٣٤(٤٥٥١).
[5] صحيح البخاري (٣/ ١٧٨).

﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾: نزلت في النصارى الذين افتروا على عيسى ﷺ ما لم يصحَّ عنه، وما لا ينبغي أنْ يقولوه، ولا من أحدِ إخوانه النبيين، يزيدون بعضَهُ ويُزيلون بعضَهُ من التوراة المُنّزلة من الله ﷻ؛ ويؤولونه بما ليس فيه ﴿لِ﴾: حرفُ علّةٍ وسببٍ ﴿تَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾: حتى تعتقدوا أنّه من الكتاب، ليوهموا الجهلة أنّه من كتاب الله ﷻ ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿هُوَ﴾: وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر؛ المقصود هنا الكلام الكذب ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾: من التوراة ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ﴾: الكلام الكذب ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا المصدر ﴿عِنْدِ اللَّهِ﴾: يُنسبوه إلى الله ﷻ، وهو كذبٌ ﴿وَمَا هُوَمِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: ليس من التوراة، وليس من كلام الله ﷻ ﴿وَيَقُولُونَ﴾: يفترون ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: يفعلون جريمتهم، ويقولون بها، وينسبونها إلى الله ﷻ، وهم يعلمون أنّهم كاذبون.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٧٩)

أسباب النزول: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله فقال أبو رافع القرظي حين اجتمع عنده النصارى والأحبار، فدعاهم رسول الله إلى الإسلام، أتريد منّا يا محمد أنْ نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم، فقال ﷺ: مَعَاذَ اللَّه أَنْ نَعْبُد غَيْر اللَّه أَوْ أَنْ نَأْمُر بِعِبَادَةِ غَيْر اللَّه مَا بِذَلِكَ بَعَثَنِي وَلَا بِذَلِكَ أَمَرَنِي[1].

﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿كَانَ﴾: يجب ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿بَشَرٍ﴾: ويُطلق بشر على الفرد من بني آدم وعلى الجمع منهم، والمقصود هنا عيسى بن مريم ﷺ؛ ولا ينبغي لنبيّ أو رسول ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يُؤْتِيَهُ﴾: يأتمنهُ، يُعطيهُ يمنحهُ ﴿اللَّهُ﴾: أنْ يُنزّل عليه ﴿الْكِتَابَ﴾: يوحي إليه كتاب الله ﷻ كالقرآن الكريم ﴿وَ﴾: أيضًا يهبهُ ﴿الْحُكْمَ﴾: السلطان ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾: أيضًا يصطفيه أنْ يكون نبيًّا ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني مع التراخي ﴿يَقُولَ لِ﴾: حرف تخصيص ﴿النَّاسِ﴾: جاء اللفظ القرآني "**النّاس**" على تسعةِ أوجه، هنا بمعنى بني إسرائيل خاصّة؛ انظر [البقرة-١٣] ﴿كُونُوا﴾: صيروا ﴿عِبَادًا﴾: مُطيعين ﴿لِي﴾: تخصيصًا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿دُونِ﴾: غير ﴿اللَّهِ﴾: أي اعبدوني بدلًا من عبادة الله ﷻ، فقد كان بعضُ القوم يعبدُ بعضُهم بعضًا، وكانوا يعبدون أحبارهم، ورهبانهم، فعَنْ عَدِيّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَنَ»، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة-٣١]،

---

[1] تفسير الطبري = جامع البيان (٥/ ٥٢٤). والحديث أخرجه البيهقي في دلائل النبوة /٥/٣٨٤.

قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ[1] ﴿وَلَكِنْ﴾: عطفاً على ما سبق جاء استدراك ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّين﴾: جمع ربّانيّ هو من يُنسب إلى الربّ؛ لكثرة عبادته وغزارة علمه، أو هو الرّبان الذي يُربّ النّاس فيصلح أمورهم ويقوم عليها، هم العابدون لله ﷻ وحده، بلا شريك، هؤلاء هم الربّانيون، هم الحكماءُ، والعلماءُ، والفقهاءُ، المتمسكون بدينهم وطاعة الله ﷻ، هم أهلُ عبادةٍ وتقوى، مُعلّمون في الدين، وينفذون ما يأمرهم الرُسل: هم السفراءُ بين اللهِ ﷻ وبين خلقهِ، في تبليغِ ما حملوه من الرسالة ﴿بِمَا﴾: اسم موصول، بالذي ﴿كُنْتُم﴾: في الحياة الدنيا ﴿تُعَلِّمُونَ﴾: تُفهمون النّاس ﴿الْكِتَابَ﴾: المعاني والأحكام والشرائع ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ﴾: أيضًا بالذي في الحياة الدنيا ﴿تَدْرُسُونَ﴾: تتعلمون، وتحفظون من الكتب، وتأمرونهم بالتمسك بما فيها.

التكليف: من المنطقي أنّ الذي يُعلّم غيره يجب أنْ يكون أكثرَ من غيرِه تمسكًا به.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٠)

﴿وَ﴾: أيضًا وعطفًا على ما سبق ﴿لَا﴾: حرف نهي وتحريم ﴿يَأْمُرَكُمْ﴾: إنّه ﷻ لن يأمركم ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿تَتَّخِذُوا﴾: تعتمدوا وترضوا ﴿الْمَلَائِكَةَ وَ﴾: أيضًا لا تعتمدوا ﴿النَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾: وهو السيد المعبود. ليس من شريعته أنْ يأمركم ﷻ أنْ تعبدوا غيره، لا نبيًّا، ولا رسولًا، ولا ملكًا مُنزّلًا مُقرّبًا ﴿أَ﴾: حرفٌ يفيد الاستفهام بغرض استنكار الفعل ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾: هل يُلزمكم شرعًا ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿الْكُفْرِ﴾: أيجوز منه ﷻ أنْ يأمركم بعبادة غيره، ولا لغيره أنْ يفعل ذلك؛ فكيف يأمرُ بغير ما شرّع وأصبحتم ﴿بَعْدَ إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى من الزمن ﴿أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: بعد أنْ تبيّن لكم أنّ الإسلام هو عبادة الله ﷻ وحده.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨١)

أسباب النزول: قال ابنُ عباس: ما بعث الله نبيًّا إلّا أخذ عليه الميثاق: لئن بُعث محمدٌ وهو حيّ ليؤمنن به ولينصرنّه[2]، وقال الحسن البصري، وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أنْ يُصدّق بعضُهم بعضًا، وقال ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي[3].

---

[1] سنن الترمذي /٥/٢٧٨(٣٠٩٥). قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ حَرْبٍ، وَغُطَيْفُ بْنُ أَعْيَنَ لَيْسَ بِمَعْرُوفٍ فِي الحَدِيثِ». قال الألباني: حسن.

[2] صحيح ابن حبان – محققا (١٤/ ١١١).

[3] مسند الإمام أحمد /٢٣/٣٤٩(١٥١٥٦) قال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

﴿وَإِذْ﴾: حرفٌ يدُلُّ على ما مضى من الزمن ﴿أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾: العهد المؤكد على الأنبياء والرسل ﴿لَمَا﴾: للذي ﴿آتَيْتُكُمْ﴾: أنزلت لكم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍ لبيان بعض، وتفيد هنا ﴿كِتَابٍ﴾: الكتب السماوية، ومنها العهد والعقد الذي لا يتغير ﴿وَ﴾: أيضًا ما أعطيتكم من ﴿حِكْمَةٍ﴾: وهي سُنن الأنبياء وفق ما شرّع الله ﷻ، وهذا كان من قبل بعثة محمد ﷺ ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني مع التراخي ﴿جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾: وهو محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ﴾: مؤكدٌ ومثبتٌ ﴿لِمَا﴾: ما حدث في الماضي ﴿مَعَكُمْ﴾: مؤكدًا على ما جاء في الكتب السابقة، والتي جاء فيها ﴿لَ﴾: حرف تخصيص ﴿تُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾: تعتقدون وتتبعون الدين الذي بعثه اللهُ ﷻ به ﴿وَ﴾:عطفًا على إيمانكم به ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿تَنْصُرُنَّهُ﴾: تساعدوه بالتأكيد على أعدائه بكلّ الوسائل ﴿قَالَ﴾: الله ﷻ ﴿أَ﴾: حرف استفهام ﴿أَقْرَرْتُمْ﴾: وهو أمرٌ منه ﷻ لهم بالإقرار، عليكم أنْ تؤمنوا بذلك، والخطاب للأنبياء ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾: عطفًا على إقراركم وأخذ العهد الذي أعطيتم ﴿عَلَى ذَلِكُمْ﴾: اسمُ إشارةٍ، هو كلُّ ما جاء ذكره، وأخبر عنهُ اللهُ ﷻ عنه ﴿إِصْرِي﴾: وأعطيتم عهد الله ﷻ الأكيد، فكان ردُّهم عليهم السلام ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾: اعترفنا، واطمأنت قلوبنا بذلك طائعين ﴿قَالَ﴾: الله ﷻ ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد هنا تنفيذ الأمر دون تأخير ﴿اشْهَدُوا﴾: اشهدوا على أنفسكم، وعلى شعوبكم، وأُممكم ﴿وَأَنَا﴾: على إقراركم وشهادة بعضكم على بعضٍ ﴿مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾: هو ﷻ الذي لا تخفى عليه خافيه، لا يحتاج إلى شهادة أحدٍ، ولكنّه تصديقٌ للرسل، وإقرارهم.

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٨٢)

﴿فَمَنْ﴾: اسمٌ موصولٌ بمعنى الذي ﴿تَوَلَّى﴾: ابتعد، وأعرض، ونقض هذا الميثاق المؤكد ﴿بَعْدَ﴾: ظرف زمان ﴿ذَلِكَ﴾: كل ما سبق من الأمور التي أخبر الله ﷻ عنها ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للجميع ﴿هُمُ﴾: حرف تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب ﴿الْفَاسِقُونَ﴾: الذين خرجوا عن الملّة، وخالفوا شريعة اللهِ ﷻ.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٨٣)

﴿أَ﴾: حرفُ استفهامٍ يُفيد إنكار الفعل والتوبيخ ﴿فَغَيْرَ﴾: حرف استثناء بمعنى سوى ﴿دِينِ اللَّهِ﴾: سؤالٌ يستنكر ويوبخ فيه الله ﷻ الذين يكفرون بدينه الحق، دِينِ اللَّهِ الذي نزلت به كتُبه ﷻ على رسله، عليهم السلام، لعبادة الله ﷻ وحده، لا شريك له ﴿يَبْغُونَ﴾: يُريدون، يرغبون ﴿وَلَهُ﴾: لله ﷻ تخصيصًا وتمليكًا ﴿أَسْلَمَ﴾: صدّق، وانقاد، وخضع، واستسلم طواعيةً ﴿مَنْ﴾:

الذي من جنس العاقل ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾: هم الملائكة، والسماء هي كلُّ ما علا الأرض، وأحاط بها؛ لكونها بيضاوية الشكل ﴿وَالْأَرْضِ﴾: استسلم له كلُّ مخلوقٍ على الأرض، ﴿طَوْعًا﴾: والطوعُ هو الانقياد بإرادتهم، ورغبتهم بحبٍ وقبولٍ ﴿وَ﴾: أيضًا استسلموا ﴿كَرْهًا﴾: رغمًا عنهم، فقد استسلم الكُفّار لقوة الله ﷻ رغمًا عنهم، لأنّهم يخافون ربّهم، وقهرهُ وسلطانهُ العظيم، والكرهُ هو الضعفُ، وقيل المشقةُ التي تنال الإنسان من خارج فيما يُحملُ عليه بإكراه ﴿وَإِلَيْهِ﴾: مصيرهم إلى الله ﷻ يوم القيامة ﴿يُرْجَعُونَ﴾: يقومون لله ﷻ، يوم البعث، يوم الجزاء، كلٌ بحسب عمله.

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤)

﴿قُلْ﴾: يأمرُ اللهُ ﷻ رسوله محمدًا ﷺ أنْ يصدع بالإيمان لله ﷻ، إلهًا واحدًا ﴿آمَنَّا﴾: يخبر محمدٌ ﷺ عن نفسه وعن أمّته، أنْ صدّقنا، واطمأنت قلوبنا ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ وَ﴾: أيضًا آمنّا بـ ﴿مَا﴾: الذي ﴿أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾: نؤمن بالله ربًّا وبالقرآن الكريم الذي نزل علينا وحيًّا ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾: أي الوحي وما حملوا من الصحف ﴿وَ﴾: أيضًا آمنّا بما نزل على ﴿الْأَسْبَاطِ﴾: جمع سبط وهو الحفيد، وتعني هنا أولاد النبي يعقوب، وهم إسرائيل عليه السلام، ونسلهِ المتشعبِ من الأحفاد، وهم الاثني عشر الذين آمنوا بموسى عليه السلام ﴿وَمَا أُوتِيَ﴾: أيضاً ما أعطي ﴿مُوسَى وَعِيسَى﴾: آمنّا بنزول التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى عليهما السلام ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد ابتداء الغاية، وهي من المصدر ﴿رَبِّهِمْ﴾: المُعبودِ، والمُربي، وهو المنشئ للشيء في الكون الفسيح حالًا فحال إلى حدّ التمام، والخالق، والمالك، والعاطي، وكثيرُ الخير، والمُحيطِ، والمُدبّرِ، والجابرِ لكسر البرايا، والثابتِ، والقريبِ، والجامعِ، والمصلحِ، والسيدِ، على عموم الأنبياء جميعًا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿نُفَرِّقُ﴾: نميّز كما فرّق اليهود والنصارى ﴿بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾: لا نُؤمن ببعضٍ، ونكفُر ببعضٍ، بل نؤمن بهم جميعهم ﴿وَنَحْنُ﴾: ضميرٌ يُفيد جمعًا من النّاس من المُخبرين عن أنفسهم، هم المسلمون أتباع محمد ﷺ ﴿لَهُ﴾: تخصيصًا لله ﷻ ﴿مُسْلِمُونَ﴾: مُنقادون طائعون لرسولنا محمد ﷺ، ونؤمن بكلّ نبيّ أُرسل، ولا نكفرُ بأحدٍ.

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿مَنْ﴾: إنّ الذي من جنس البشر ﴿يَبْتَغِ﴾: يرغب أو يطلب ﴿غَيْرَ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا أي يستثني ﴿الْإِسْلَامِ﴾: رسالة محمد ﷺ الذي هو دين التوحيد ﴿دِينًا﴾: من الأديان السابقة، أو الأفكار الضالّة ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾: لنْ تُقبل عند الله ﷻ أعمالُه، وأقوالُه، حتى وإنْ كانت نافعةً لبعض النّاس ﴿وَهُوَ﴾: وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾: يوم القيامة ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: من الخاسرين المحرومين من رحمة الله ﷻ؛ لأنه سيدخل جهنّم.

التكليف: وللقبول معياران: الأول في الدنيا: يُثاب عليه، وينتفع به هو شخصيًا، وينعكس هذا على المجتمع؛ فيُثني عليه الآخرون، والمعيارُ الثاني في الآخرة: لا يُثاب عليه، بل يكون هباءً منثورًا، وقد يكون عليه حسرةً؛ لأنّه لم ينفعهُ في الآخرة، بمعيار الدين الحق، لأنّهُ لا نجاة لأحدٍ لا يدين بالإسلام.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦)

أسباب النزول: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَلَحِقَ بِالْمُشْرِكِينَ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ [آل عمران-٨٦] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَبَعَثَ بِهَا قَوْمُهُ، فَرَجَعَ تَائِبًا، فَقَبِلَ النَّبِيُّ ﷺ، ذَلِكَ مِنْهُ وَخَلَّى عَنْهُ[١].

﴿كَيْفَ﴾: سؤال يستنكر هذا الفعل ﴿يَهْدِي﴾: كيف يوفق ﴿اللَّهُ﴾: ﷻ للإيمان ﴿قَوْمًا﴾: جماعةً على منهجٍ واحدٍ ﴿كَفَرُوا﴾: ارتدوا ونكصوا ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾: بعد أنْ تيقنوا بصدق دينهم ﴿وَشَهِدُوا﴾: أقرّوا واعترفوا ﴿أَنَّ﴾: حرفُ تأكيد ونفي الشكّ والإنكار ﴿الرَّسُولَ﴾: محمد ﷺ ﴿حَقٌّ﴾: على صدق الرسول ﷺ وصدق الرسالة ﴿وَجَاءَهُمُ﴾: أيضًا وصلتهم وعرفوا كلّ شيءٍ من ﴿الْبَيِّنَاتُ﴾: البراهين الواضحة فقامت عليهم الحُجج، واتضحت لهم الأمور، ثم ارتدوا، حيث يحمل الاستفهام هنا معنى النفي، أي لنْ يهدي ﴿وَاللَّهُ لَا﴾: عطفاً على ما سبق يأتي حرفُ نفي ﴿يَهْدِي﴾: لا يُوفقُ لمعرفة الخير أبدًا ﴿الْقَوْمَ﴾: هم الجماعةُ من أصلٍ واحدٍ أو أتباع دينٍ واحدٍ ﴿الظَّالِمِينَ﴾: إنّ الله ﷻ لا يُوفق القوم الكافرين والمرتدين، الذين ذنبهم أشدُّ من ذنب الباقين على كفرهم، ممن لم يدخل في الإسلام أصلًا؛ لأنّ المرتد قد عرف الحق، ثم أعرض

---

[١] مسند أحمد ط الرسالة (٤/ ٩٣)، حديث صحيح، وأخرجه الواحدي في أسباب النزول ص ٧٤-٧٥ وأخرجه بنحوه النسائي في المجتبى ١٠٧/٧، وفي الكبرى (١١٠٦٥)، والطبري ٣٤٠/٣، وابن حبان (٤٤٧٧)، والحاكم ١٤٢/٢ و٣٦٦/٤.

عنادًا، وجحودًا، وتمردًا، هؤلاء هم الظالمون لأنفسهم؛ فقد أوردوها النّار أبدًا، كيف يهديهم بعد أنْ عميت قلوبهم؟ لا يستحق هؤلاء الهداية.

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٧)

﴿أُولَئِكَ﴾: إشارةٌ للقريب والبعيد، هم المرتدون، الذين كفروا بعد إيمانهم ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾: عقابُهم ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد الفعل، ونفي الإنكار والشكّ ﴿عَلَيْهِمْ﴾: ستُصيبهم ﴿لَعْنَةَ اللَّهِ﴾: الإبعادُ من رحمةِ اللهِ ﷻ ﴿وَ﴾: أيضًا يستحقون لعنة ﴿الْمَلَائِكَةِ وَ﴾: ويستحقون أيضًا لعنة ﴿النَّاسِ﴾: ويلعنهم خلق الله من بني آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾: جاء اللفظ القرآني "النّاس" على تسعة أوجه، هنا بمعنى المؤمن خاصّة؛ انظر [البقرة-١٣]، والكلمات تُصوّرُ شدّة وغضب الله ﷻ، على هذا الصنف من البشر.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٨٨)

﴿خَالِدِينَ﴾: مقيمين دائمًا بلا انقطاع ﴿فِيهَا﴾: في النّار، لا يخرجون منها ﴿لَا﴾: حرف ينفي أنْ ﴿يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾: لا يُقللُ العذاب، زمنه، ولا يُفتّر، ولا تُخفف شدّته ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لَا هُمْ﴾: ضمير للجمع المذكر الغائب ﴿يُنْظَرُونَ﴾: لا يُؤجل العذاب عنهم، ولو ساعة واحدة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٩)

﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد الجمع، هنا استثناءٌ لبعض هؤلاء، وهذا من رحمة الله ﷻ ﴿تَابُوا﴾: رجعوا إلى الله ﷻ عن كفرهم ﴿مِنْ بَعْدِ﴾: ظرف زمان ﴿ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ ﴿وَ﴾: حرف يفيد هنا الحال ﴿أَصْلَحُوا﴾: حققوا الصدق في دينهم، وإيمانهم، وعقيدتهم، وسلوكهم ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ غَفُورٌ﴾: يسامح ﴿رَحِيمٌ﴾: ويرحم كثيرًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ (٩٠)

أسباب النزول: عن ابن عباس: أنّ قومًا أسلموا، ثم ارتدوا، ثم أسلموا، ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ؛ فنزلت الآية، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ أَحَدٍ تَوْبَةً أَشْرَكَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ وفي رواية: لَا يَقْبَلُ اللهُ تَوْبَةَ عَبْدٍ كَفَرَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ[1].

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: غطّوا وأنكروا ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾: وهم المرتدون، وقيل في اليهود الذين كفروا بعيسى عليه السلام ﴿ثُمَّ﴾: يفيد التتابع الزمني

---

[1] الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٤/ ٤٤٧) وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

غير السريع ﴿ازْدَادُوا﴾: بعد أنْ جاءت رسالةُ محمدٍ ﷺ استمروا وبقوا على كفرهم، فقد تمكن الكفرُ من قلوبهم؛ فكثُرت خطاياهُم وذنوبُهم، وزاد كيدُهم للإسلام والمسلمين، وقيل جاءت في اليهود الذين كفروا برسالة عيسى عليه السلام ﴿كُفْرًا﴾: فلما جاء الإسلام كفروا به أيضًا، أسلموا ثم ارتدوا، ثم أسلموا ثم ارتدوا حتى ماتوا، وكانت الآيةُ السابقةُ تحملُ بُشرى قبول توبةِ التائبِ الذي أصلح، هنا الآية تُشدّد على المُصرّين على كفرهم، وازدياد كفرهم بعد الإيمان، وما موقف الله ﷻ منهم ﴿لَنْ﴾: جازمةٌ قاطعةٌ تفيدُ منع قبول توبتهم عند الموت ﴿تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾: استحالة قبول توبتهم، عند الموت، حُكمٌ قطعيٌ؛ لا توبة لهم، وقد صدّقت الآية هذا المعنى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء-١٨] ﴿وَ﴾: حرفٌ يفيد هنا الاستئناف ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارةٌ للقريب والبعيد منهم ﴿هُمُ﴾: حرف تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب ﴿الضَّالُّونَ﴾: الذين ضلّوا طريق الإيمان الذي يوصلهم إلى رضا الله ﷻ، واتبعوا الكفر.

التكليف: يجوزُ لهم التوبةُ قبل الموت؛ إنْ كانت توبتُهم خالصةً للهِ ﷻ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٩١)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿كَفَرُوا﴾: غطوا، وأنكروا حقيقة أنّ الله ﷻ خالقهم، وأنكروا ملائكته، ورسله من الكفار الأصليين، أو من المرتدين ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿كُفَّارٌ﴾: لم يتوبوا قبل الممات ﴿فَلَنْ﴾: لهذا السبب فالحكمُ قاطعٌ لنْ ﴿يُقْبَلَ﴾: يغفر اللهُ ﷻ لهم، ولن يُقبل ﴿مِنْ أَحَدِهِمْ﴾: ولا من فردٍ واحدٍ منهم، أيّ فدية أبدًا ولو كانت ﴿مِلْءُ﴾: ما يملأ ﴿الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾: حتى لو أنفق الأرض إن كانت كلّها من الذهب، أو بوزن جبالها، وتلالها، وترابها ورملها، وسهلها، ووعر برّها، وبحرها ﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للجمع للقريب والبعيد، هنا تفيد الذين هذا حالهم ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: لن ينجو من النّار، هي مثواهم، لا خُلّة ولا شفاعة، والألم فيها شديد ﴿وَمَا﴾: حرف نفي؛ أنْ يكون ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعض ﴿نَاصِرِينَ﴾: لا أحد بالتأكيد ينقذهم يوم القيامة، أو يجيرهم، أو يدفع عنهم من عذابٍ أليم.

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٩٢)

﴿لَنْ﴾: حرف نفي قاطع ﴿تَنَالُوا﴾: لنْ تحصلوا على درجة؛ لن تُدركوا درجة ومنزلة ﴿الْبِرَّ﴾: هو الإحسان وعمل الخير، وجاء أيضًا بمعنى التقوى في قوله ﷻ ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ

قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة–١٧٧]، وجاء بمعنى الصلة في القربى في قوله ﷻ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة–٢٢٤]، و في قوله أيضًا ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة–٨]، وجاء بمعنى الطاعة في قوله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة–٢]، وفي قوله أيضًا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة–٩]، وفي قوله ﷻ ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم–١٤] وفي قوله ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم–٣٢]

﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي إلّا بشرط أنْ ﴿تُنفِقُوا﴾: تُعطوا من أموالكم؛ توزعوا منها في سبيل الله ﷻ ﴿مِمَّا﴾: بعض أو جزء من الأموال ﴿تُحِبُّونَ﴾: العزيزة عليكم، التي تحبون أنْ تبقى معكم، أو تورثوها أولادكم ﴿وَمَا﴾: الذي من جنس غير العاقل ﴿تُنْفِقُوا مِنْ﴾: بعض أو جزء ﴿شَيْءٍ﴾: وجه الإنفاق الذي هو في سبيل الله أو غير ذلك قليلًا أو كثيرًا ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿اللَّهَ بِهِ﴾: بهذا المال ﴿عَلِيمٌ﴾: فيثيبُ كلًا بعمله.

التكليف: لا تنالوا درجة البر إلّا بصدق الإيمان، والإنفاق والجهاد في سبيل الله ﷻ، وصلاح العمل وقبوله.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٣)

أسباب النزول: قيل جاء وفد نجران من اليهود في العام التاسع للهجرة، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَضَرَتْ عِصَابَةٌ مِنَ الْيَهُودِ نَبِيَّ اللهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، حَدِّثْنَا عَنْ خِلالٍ نَسْأَلُكَ عَنْهُنَّ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلا نَبِيٌّ، قَالَ: سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ، وَلَكِنِ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةَ اللهِ، وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عليه السلام، عَلَى بَنِيهِ: لَئِنْ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا فَعَرَفْتُمُوهُ، لَتُتَابِعُنِّي عَلَى الْإِسْلَامِ قَالُوا: فَذَلِكَ لَكَ، قَالَ: فَسَلُونِي عَمَّا

شِئْتُمْ قَالُوا: أَخْبِرْنَا عَنْ أَرْبَعِ خِلَالٍ نَسْأَلُكَ عَنْهُنَّ: أَخْبِرْنَا أَيُّ الطَّعَامِ حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ؟ وَأَخْبِرْنَا كَيْفَ مَاءُ الْمَرْأَةِ، وَمَاءُ الرَّجُلِ؟ كَيْفَ يَكُونُ الذَّكَرُ مِنْهُ؟ وَأَخْبِرْنَا كَيْفَ هَذَا النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ فِي النَّوْمِ؟ وَمَنْ وَلِيُّهُ مِنَ المَلائِكَةِ؟ قَالَ: فَعَلَيْكُمْ عَهْدُ اللهِ وَمِيثَاقُهُ لَئِنْ أَنَا أَخْبَرْتُكُمْ لَتُتَابِعُنِّي؟ قَالَ: فَأَعْطَوْهُ مَا شَاءَ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، قَالَ: فَأَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى ﷺ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ ﵇، مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا، وَطَالَ سَقَمُهُ، فَنَذَرَ لِلَّهِ نَذْرًا لَئِنْ شَفَاهُ اللهُ ﷻ مِنْ سَقَمِهِ، لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ، وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمَانُ الْإِبِلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا؟ قَالُوا: اللهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: اللهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ، فَأَنْشُدُكُمْ بِاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلا هُوَ، الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَبْيَضُ غَلِيظٌ، وَأَنَّ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ رَقِيقٌ، فَأَيُّهُمَا عَلا كَانَ لَهُ الْوَلَدُ وَالشَّبَهُ بِإِذْنِ اللهِ؟ إِنْ عَلا مَاءُ الرَّجُلِ عَلَى مَاءِ الْمَرْأَةِ كَانَ ذَكَرًا بِإِذْنِ اللهِ، وَإِنْ عَلا مَاءُ الْمَرْأَةِ عَلَى مَاءِ الرَّجُلِ كَانَ أُنْثَى بِإِذْنِ اللهِ؟ قَالُوا: اللهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: اللهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ، فَأَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلا يَنَامُ قَلْبُهُ؟ قَالُوا: اللهُمَّ نَعَمْ. قَالَ: اللهُمَّ اشْهَدْ قَالُوا: وَأَنْتَ الْآنَ فَحَدِّثْنَا: مَنْ وَلِيُّكَ مِنَ المَلائِكَةِ؟ فَعِنْدَهَا نُجَامِعُكَ أَوْ نُفَارِقُكَ؟ قَالَ: فَإِنَّ وَلِيِّيَ جِبْرِيلُ ﵇، وَلَمْ يَبْعَثِ اللهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلا وَهُوَ وَلِيُّهُ قَالُوا: فَعِنْدَهَا نُفَارِقُكَ، لَوْ كَانَ وَلِيُّكَ سِوَاهُ مِنَ المَلائِكَةِ لَتَابَعْنَاكَ وَصَدَّقْنَاكَ[1].

﴿كُلُّ﴾: تُفيد جميع أنواع ﴿الطَّعَامِ﴾: ما يُؤكل ﴿كَانَ﴾: في الماضي ﴿حِلًّا﴾: هو الحلال؛ وسمّي حلالًا لانحلالِ عقدةِ الحظرِ عنه، فصار مسموحًا تناوله ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿بَنِي﴾: أبناء وأحفاد ﴿إِسْرَائِيلَ﴾: هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام، لم يُحرّم اللهُ ﷻ طعامًا على بني إسرائيل ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿مَا﴾: الذي ﴿حَرَّمَ﴾: منع ﴿إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾: وهو لحم الإبل ولبنها، وقيل حرّم كلّ لحمٍ فيه عرق، كان ذلك ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِ أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿تُنَزَّلَ﴾: من الله ﷻ ﴿التَّوْرَاةُ قُلْ﴾: والكلام أمرُ الله ﷻ لمحمدٍ ﷺ ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا فعل الأمر ﴿أْتُوا﴾: هاتوا وأبرزوا ﴿بِ﴾: حرف باء الالتصاق ﴿التَّوْرَاةِ﴾ الكتاب الذي نزل في اليهود ﴿فَاتْلُوهَا﴾: اقرؤوا، وستجدونها تنطق بما حرّم يعقوب على نفسه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إن كنتم مُحقّين في دعواكم.

﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٩٤)

---

[1] مسند أحمد ط الرسالة (٤/ ٣١٠-٣١٢)، مسند أحمد – قرطبة (١/ ٢٧٨)، تعليق شعيب الأرنؤوط: حسن وهذا إسناد ضعيف. ضعيف.

﴿فَمَنِ﴾: حرفُ استفهامٍ عن العاقل ﴿افْتَرَى﴾: هو الذي ادعى ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾: أنّه ﷻ شرّع لهم السبت، والتمسك بالتوراة دائمًا، وأنّ الله ﷻ لم يبعث شريعةً أخرى ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ ذَلِكَ﴾: بعد إحضار التوراة وتلاوتها، أو بعد التحدي لهم بما في كتابهم. كلُّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ بعد ما أظهرهُ الله تعالى من نسخٍ ونزولِ الدينِ الخاتمِ على محمدٍ ﷺ ﴿فَ﴾: حرف يفيد السبب ﴿أُولَئِكَ﴾: اسمُ إشارة للجمع القريب والبعيد ﴿هُمُ﴾: حرف تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب ﴿الظَّالِمُونَ﴾: الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم، وصدّهم عن الحق فأوردوها النّار ﴿قُلْ﴾: صيغةُ أمرٍ من اللهِ ﷻ لمحمدٍ ﷺ أنْ يقول: ﴿صَدَقَ اللَّهُ﴾: إنّ كلّ ما أخبر به الله ﷻ عن يعقوب هو الصدق، وأنّ كلّ ما شرّعه الله ﷻ في القرآن على لسان محمد ﷺ هو حقٌّ وصدقٌ، لا شك فيه، ولا مرية ﴿فَاتَّبِعُوا﴾: لهذا السبب وبدون تأخير آمنوا وانقادوا ﴿مِلَّةَ﴾: دين الإسلام الذي أنا عليه، ما دام صدق ما جئتكم به قد بيّن لكم بجلاء دين ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾: هو ﷺ بالتمام والكمال والوضوح ﴿حَنِيفًا﴾: المُتحيزُ للحق، المائلُ عن الباطل ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿كَانَ مِنَ﴾: حرف يفيد التمييز بمعنى بعض ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾: ما نزل على محمد ﷺ، قال ﷻ: **﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [الأنعام-١٦١].

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٦)

﴿إِنَّ﴾: حرفُ تأكيد ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ﴾: لعبادة الله ﷻ في الأرض، هو الكعبة ﴿وُضِعَ﴾: أوّلُ بيتٍ بُني ﴿لِ﴾: حرفُ تخصيص ﴿النَّاسِ﴾: لعموم بني آدم للعبادة، والنسك، والطهارة، والصلاة، والحج، كان قبلها بيوتٌ للعبادة، ولكن هذا البيت كان لعبادة الله ﷻ وحده ﴿لَلَّذِي بِ﴾: حرفُ باء الظرفية ﴿بَكَّةَ﴾: البيت الذي في مكّة المكرّمة، الذي بناه إبراهيم ﷺ، وقيل سُميّت بكة لأنّها تَبُكّ أعناق الظالمين والجبابرة، أي يخضعون عندها ويذلون، وقيل لأنّ النّاس يتباكون فيها، أي يتزاحمون؛ وقيل لأنّ الله ﷻ بكّ به النّاس جميعًا؛ فتُصلي النساءُ أمام الرجال، ولا يكون هذا في مكانٍ غيرهِ ﴿مُبَارَكًا﴾: كثير الخير والبركات ﴿وَهُدًى﴾: ليدلَّ النّاسَ على الطريق الصحيح، والعبادةِ الخالصة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾: لكلّ النّاس، مهما اختلفت أعراقُهم، وأجناسُهم، وألوانُهم، وألسنتهم.

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٧)

﴿فِيهِ﴾: في البيت الحرام ﴿آيَاتٌ﴾: علاماتٌ ﴿بَيِّنَاتٌ﴾: واضحةٌ على شرفه وفضله، وأنّ الله ﷻ عظّمه، وشرّفهُ بالمناسك، منها الصفا والمروة والمشاعر كلّها، وهلاك من يقصدهُ من الجبابرة وغير هذا، ومنها ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾: وهو الحجر الذي كان يقوم عليه وهو يبني البيت، ارتفع به إبراهيم، ليُكمل بناء علو جدار البيت العتيق، وقيل الشعور بالأمن، ومنها أيضًا: المشاهد، وقيل آثار قدمين، وقيل إنّ الحرم كلّه مقام إبراهيم ﴿وَمَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾: فيه يطمئن كلُّ خائفٍ على نفسه في هذا المكان، حتى كان ذلك في الجاهلية، كان يدخل القاتلُ، فيراه أهلُ القتيل، فلا يقتربون من قاتل ولدهم، وحتى الطير كانت آمنةً من الصيد، والشجر آمن، عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ العَدَوِيِّ، أَنَّهُ قَالَ لِعَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ وَهُوَ يَبْعَثُ البُعُوثَ إِلَى مَكَّةَ: ائْذَنْ لِي أَيُّهَا الأَمِيرُ أُحَدِّثْكَ قَوْلًا قَامَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْغَدِ مِنْ يَوْمِ الفَتْحِ، فَسَمِعَتْهُ أُذُنَايَ، وَوَعَاهُ قَلْبِي، وَأَبْصَرَتْهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ، إِنَّهُ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلاَ يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلاَ يَعْضُدَ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُولُوا لَهُ: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ، وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ[(١)]، وقال ﷺ: لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ السِّلَاحَ بِمَكَّةَ[(٢)] ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ﴾: بناءً على ما سبق صار على النّاس، كلّ بني آدم، فريضةً واجبةً ﴿حِجُّ الْبَيْتِ﴾: هذه أوّل آيةٍ توجب الحجّ، وقيل إنّ أول آية: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة–١٩٦]، والحجُّ أحدُ أركان الإسلام، ودعائمه، وقواعدهُ، يجب على المكلّف في العمر على الأقل مرّةً واحدةً ﴿مَنِ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿اسْتَطَاعَ﴾: إذا كان الشخص يقدر بنفسه، أو يقدر بغيره، وطبيعة الاستطاعة هي: الزادُ، والراحلةُ، أيْ وسيلة النقل، عن ابن عباسٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ[(٣)] ﴿إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾: جاء لفظ "**السبيل**" في القرآن الكريم على أربعة عشر وجهًا، ومعنى السبيل هنا من يقدر أنْ يبلغ موعد الحج، انظر تفسير [البقرة–٢٦١] ﴿وَمَنْ﴾: عطفاً على ما سبق الذي من جنس العاقل ﴿كَفَرَ﴾: أنكر هذه الآيات البيّنات في فضائل الكعبة، وكفر بفريضة الحج، الفريضة التي أوجبها اللهُ ﷻ لمن استطاع إليه سبيلًا ﴿فَـ﴾: حرفٌ يفيدُ الجواب ﴿إِنَّ﴾: بالتأكيد

---

(١) صحيح البخاري /١٤/٣(١٨٣٢).

(٢) صحيح ابن حبان /٢٧/٩(٣٧١٤). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. [تعليق الألباني]: صحيح، «الصحيحة»: (٢٩٣٨).

(٣) سنن أبى داود /٧٥/٢(١٧٣٤) وقال الألباني: حسن.

﴿اللَّهَ غَنِيٌّ﴾: ليس في حاجةٍ لعبادةِ أحدٍ ﴿عَنِ﴾: حرفُ جرٍ يفيد الاستعلاء ﴿الْعَالَمِينَ﴾: كلَّ ما في الوجود، منْ يجحد بفريضة الحجّ فقد كفرَ، والله غنّي عنه.

التكليف: من ارتكب الجريمة في الحرم يُؤخذُ بها وتُقام عليه العقوبة، والحُرمات قصاص.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٨)

﴿قُلْ﴾: يا محمد ﷺ ﴿يَا﴾: حرفُ نداءٍ للقريب والبعيد ﴿أَهْلَ﴾: من نزل فيهم ولهم ﴿الْكِتَابِ﴾: جنسِ الكتاب الذي أنزله الله ﷻ هنا، أمرٌ من الله ﷻ لنبيّه ﷺ أنْ يُعنّف اليهود والنصارى بالسؤال ﴿لِمَ﴾: لماذا؟ وما الدافع والفائدة عندما ﴿تَكْفُرُونَ﴾: تُنكرون وتغطون البراهين الصادقة ﴿بِآيَاتِ﴾: الأدلّة والبراهين على صدق رسالة ﴿اللَّهِ﴾: بإنكار وتغطية الحق، بعنادكم، وصدّكم عن سبيل الله ﷻ ﴿واللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾: وتعرفون أنّ الله ﷻ مُطلعٌ عليكم، ويراكم حين تنطقون بالكفر بآيات التوراة، وسيُعاقبكم ويُعذبكم على مخالفتكم أوامره بأقوالكم، وتكذيبِكم الرسل، والجحودِ، والعنادِ، وعلى كلِّ ما تعملون.

التكليف: الاستفهام في الآية استنكاري توبيخي بسبب أفعالهم المُشينة التي وقعت منهم، وهي الكفر بآيات الله ﷻ، وعدم العمل بأحكامها.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٩)

﴿قُلْ﴾: يا محمد ﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد، إنّ هذا القول يُقال في كلّ وقتٍ وحينٍ ﴿أَهْلَ﴾: أصحاب ﴿الْكِتَابِ﴾: اليهود والنصارى ﴿لِمَ﴾: حرفُ استفهامٍ يُفيد حدوث شيءٍ في الماضي ﴿تَصُدُّونَ﴾: تدبرون المكائد لتوقعوا الفتنة بين المؤمنين، وتمنعون النّاس من الإيمان ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍ يفيد المجاوزة ﴿سَبِيلِ﴾: عن دين ﴿اللَّهِ﴾ ﷻ ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿آمَنَ﴾: وخاصّة محاربتكم للمؤمنين ﴿تَبْغُونَهَا﴾: تريدون أنْ تكون دعوةُ الله ﷻ ﴿عِوَجًا﴾: منحرفةً عن ومتعارضةً مع الإسلام، لاعوجاج وميل القصد والاستقامة، لتكون حياتُكم، وحياةُ النّاس كُفرًا وعنادًا، مُعوجّةً عن الطريق السليم ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾: تشهدون أنّ هذا جاء في كتبكم المنزلة على أنبيائكم، وتشاهدون وتشهدون على جرائمكم ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿اللَّهُ بِ﴾: حرف باء التوكيد ﴿غَافِلٍ﴾: لا يعلم ﴿عَمَّا﴾: عن الذي ﴿تَعْمَلُونَ﴾: وهذا تهديد متكرر بعد الآية الأخيرة، أنّ الله ﷻ لا يغفلُ عن عملكم، ولا عن قولكم؛ وسيجزيكم ما تستحقون من العقاب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (١٠٠)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: نداءٌ من الله ﷻ لتحذير الذين آمنوا ﴿إِنْ﴾: حرفُ شرط ﴿تُطِيعُوا﴾: إنْ استجبتم وأطعتم وأصغيتم إلى دسائسهم، وركنتم إلى أقوال، ﴿فَرِيقًا﴾: طائفة ﴿مِنَ﴾: بعض أو جزء ﴿الَّذِينَ أُوتُوا﴾: أعطاهم الله ﷻ ﴿الْكِتَابَ﴾: هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، حدّد الحقُّ ﷻ صفاتهم: يحسدون المؤمنين على ما آتاهم اللهُ ﷻ من فضله، والذين نزل فيهم محمد ﷺ والقرآن الكريم، إنْ تسمعوا لهم ما يقولون، وتقبلوا رأيهم فيما يكذبون سوف ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾: يصلوا بكم إلى هدفهم، ترجعون ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: إسلامكم ﴿كَافِرِينَ﴾: تُنكرون أركان الإسلام، يُرجعوكم كفّارًا بعد الإيمان، وإنّ الواقع المُعاش اليوم يُظهر لنا أنّ أفرادًا، وشعوبًا، ودولًا، أطاعت أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين وعدوهم، ومنّوهم، وجعلوهم يحاربون المؤمنين، ويُحاربون الله ﷻ ورسوله في دينه.

التكليف: ولننظر إلى حالِ الدولِ الإسلامية اليوم التي تواليهم، وتعطيهم من ثرواتها، وكرامتها، وسياستها ويخدمون سياستهم، وفيها محاربةُ المسلمين المؤمنين حقًّا، بحجّة محاربة الإرهاب، والتطرف، والأصولية.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٠١)

﴿وَ﴾: حرف عطفٍ يفيد الحال ﴿كَيْفَ﴾: سؤالٌ إنكاري توبيخي، يُفيد التعجب من صنيعهم هذا ﴿تَكْفُرُونَ﴾: هذا استفهام تعجبٍ وتوبيخٍ، واستبعاد وقوع الكفر منهم مع تلاوة القرآن الكريم، كيف تُنكرون وجود الله ﷻ، وآياته، ورسالة رسوله ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَى﴾: تُقرأ ﴿عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾: براهين، تتنزل آياتُ القرآن الكريم على رسوله ليلًا ونهارًا، ويبلّغكم بها، والذين جاؤوا من بعد محمد ﷺ حتى اليوم لا ينكرون هذه الحقائق ﴿وَفِيكُمْ﴾: وأيضًا بينكم ﴿رَسُولُهُ﴾: فإنّ سُنَّة رسوله ﷺ، باقية فاعلة بقي كتاب الله ﷻ بين المسلمين، وكأنّه بين ظهرانيكم ﴿وَمَنْ﴾: إنّ الذي من البشر ﴿يَعْتَصِمْ﴾: يحتمي ويتحصن ﴿بِ﴾: حرف باء الاستعانة واللجوء إلى ﴿اللَّهِ﴾: يحددُ الحقُّ ﷻ علاج هذا الانحراف الكبير، بالالتزام، والاحتماء بالله ﷻ، وتعاليمه، وكتابه، وسنّة رسوله ﴿فَقَدْ﴾: تحقق بأقوى ما يكون في الماضي، وتفيد المضارع، ولا تفيد المستقبل

﴿هُدِيَ﴾: دلّه الله ﷻ حقّا ﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾: طريق ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾: وفّقه الله ﷻ إلى أقصر الطرق التي توصل إلى الدين الصحيح، إلى طريق مستقيم، الذي هو عماد الهداية، والوسيلة، والنتيجة، والمآل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ تواصلٍ بين المُنَادِي وهو هنا الله ﷻ وبين المُنَادَى عليهم وهم المؤمنون، وهي:

١- أداةُ نداءٍ لتنبيه السمع لتنفيذ ما جاء بعدها من أمرٍ ونهيٍ.

٢- لبيان الشعور بالفارق بين المُخاطِب والمُخَاطب من حيث المنزلةَ؛ فيشعر بالمكانة والمنزلة والبعد بين الله ﷻ وبين البشر.

﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿آمَنُوا﴾: المؤمنون بأركان الإسلام كلّها ﴿اتَّقُوا﴾: والتقوى هي ألّا يترك العبد شيئا مما يلزم فعله، ولا يفعلُ شيئًا مما يلزمُ تركهُ، ويبذل في ذلك جهده المستطاع؛ فيتجنبوا بذلك غضب ﴿اللَّهَ حَقَّ﴾: صدق وعدل ﴿تُقَاتِهِ﴾: تقواه بالصورة التي أرادها ﷻ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران-١٠٢] قَالَ: أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى وَيُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى[(١)]، قيل إنّها منسوخة بقوله ﷻ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن-١٦]، وقيل غير منسوخة، ولكنّ التقوى تعنى في هذه الآية: الجهاد في سبيله حقّ جهاده، ولا يأخذكم في الله ﷻ لومة لائمٍ، وأنْ تقوموا لله ﷻ بالقسط، ولو على أنفسكم، وآبائكم، وأبنائكم ﴿وَلَا﴾: لا تصلوا إلى مرحلة مفارقة الدنيا ﴿تَمُوتُنَّ﴾: لا تُضيّعوا عمركم، ويدرككُم الموتُ وحالكم غير حال الإسلام ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿وَ﴾: حرف الواو يفيد هنا الحال ﴿أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: أمرٌ من الله ﷻ، بالحفاظ على الإسلام في حال الصحةِ، والعافيةِ، والسلامةِ، لتموتوا على الإسلام، فالله ﷻ أجرى في النّاس سنّته الكريمة، أنّه من عاش على شيءٍ مات عليه، ومن مات على شيءٍ بُعث عليه، عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثٍ، يَقُولُ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ»[(٢)].

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٠٣)

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم /٢/٣٢٣(٣١٥٩). وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِجَاهُ» [التعليق - من تلخيص الذهبي] ٣١٥٩ - على شرط البخاري ومسلم.

(٢) صحيح مسلم /٤/٢٢٠٥(٢٨٧٧).

أسباب النزول: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَتِ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بَيْنَهُمْ شَرٌّ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَوْمًا جُلُوسٌ ذَكَرُوا مَا بَيْنَهُمْ حَتَّى غَضِبُوا، فَقَامَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ بِالسِّلَاحِ فَنَزَلَتْ: ﴿**وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ**﴾ الآيَةُ كُلُّهَا، وَالآيَتَانِ بَعْدَهَا إِلَى ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ**﴾[١].

﴿**وَاعْتَصِمُوا**﴾: عطفًا على ما جاء من أوامر ونواهي تحصنوا، وتقووا ﴿**بِ**﴾: حرف باء الاستعانة ﴿**حَبْلِ اللَّهِ**﴾: هذه استعارةٌ تصريحيةٌ، تُشبه القرآن الكريم بالحبل، الذي هو عهد الله ﷻ وذمّته، ودينه وكتابه، وقيل القرآن الكريم، كما قال ﷺ: كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ[٢]، ﴿**جَمِيعًا**﴾: دونَ استثناء ﴿**وَلَا**﴾: حرف تحريم ﴿**تَفَرَّقُوا**﴾: نهى الله ﷻ عن الفُرقةِ الناتجةِ عن اختلافٍ في الدين، ﴿**وَاذْكُرُوا**﴾: عطفاً على ما سبق قولوا واستشعروا ﴿**نِعْمَتَ**﴾: كرم وفضل ﴿**اللَّهِ عَلَيْكُمْ**﴾: ذكر الله ﷻ، وفضلهِ، وكرمهِ، واذكروا ﴿**إِذْ**﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى من الزمن، بمعنى حين ويوم ﴿**كُنْتُمْ**﴾: قبل الإسلام ﴿**أَعْدَاءً**﴾: تضربون أعناق بعض، وتنهبون أموال بعض ﴿**فَ**﴾: حرف يدلُّ على السبب؛ كانت النتيجة السريعة أنْ ﴿**أَلَّفَ**﴾: جمع على المحبة والوفاء ﴿**بَيْنَ**﴾: يفيد التواصل ﴿**قُلُوبِكُمْ فَ**﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿**أَصْبَحْتُمْ**﴾: جاء اللفظ القرآني "**أصبح**" من الصبح، هو أولُ النّهار، وقت طلوع أعظم مصباحٍ كونيّ يُضيء الأرض وما عليها؛ فتنتهي حالةُ الظلام؛ ويضيءُ في الأرض كلَّ زواياها الصغيرة والكبيرة، والمعنى أنّ الإيمان يُضيء للمؤمن كلّ شيءٍ حوله؛ فيرى الأشياء على حقيقتها؛ ويمشي على هدى بلا تيهٍ أو ضلالٍ ﴿**بِ**﴾: حرف باء السببية ﴿**نِعْمَتِهِ**﴾: صرتم بسرعةٍ بفضلِ الله ﷻ عليكم ﴿**إِخْوَانًا**﴾: في الدين، كما الأخ، الذي هو المشارك لآخرٍ في الولادة، تحكمكم الرحمة، والحب، والشفقة، والنصرة، ولقد جاء اللفظ القرآني "**إخوانًا**" على ستة أوجه: هنا بمعنى الأخوّة في الإسلام كما جاء في سورة [الحجرات-١٠] ﴿**وَكُنْتُمْ**﴾: قبل الإسلام ﴿**عَلَى شَفَا**﴾: طرفِ حفرةٍ على وشكِ أنْ تقعوا في ﴿**حُفْرَةٍ مِنَ**﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿**النَّارِ**﴾: بسبب اختلافكم، وتباغضكم، وحربكم لبعض ﴿**فَ**﴾: حرفٌ استثنائي يفيد هنا السبب وتنفيذ الأمر دونَ تأخير ﴿**أَنْقَذَكُمْ مِنْهَا**﴾:

---

[١] المعجم الكبير للطبراني ط إحياء التراث (١٢/ ١٢٦).

[٢] سنن الترمذي /٥/١٧٢(٢٩٠٦). وقال: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ وَإِسْنَادُهُ مَجْهُولٌ، وَفِي الحَارِثِ مَقَالٌ». قال الألباني: ضعيف.

نجّاكم من هذا العذاب بالإسلام؛ لقد نجّاكم اللهُ ﷻ من هذه الحفرةِ المحرقة ببعثةِ محمدٍ ﷺ ودعوتكم إلى الإسلام ﴿كَذَلِكَ﴾: كل ما سبق من الأمور التي أخبر بها الله ﷻ هنا بهذه الآيات ﴿يُبَيِّنُ﴾: يوضحُ ﴿اللَّهُ لَكُمْ﴾: تحديدًا ﴿آيَاتِهِ﴾: الأدلّة والبراهين ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: يُفيد التوقع والترجي من الخلق ويفيد التحقق إذا جاءت من عند الله ﷻ إشفاقًا عليكم ﴿تَهْتَدُونَ﴾: تدركون الحقيقة، وحتمًا تنجون بإذن الله.

التكليف: شبّه الله ﷻ حال النّاس في الجاهلية بحال المُشرف على السقوط في حفرةٍ عميقةٍ، من الواضح أنّ أركان النجاةِ هي أمّةٌ مُتحدة، تأديةُ واجبِ الدعوة، وأمرٌ بالمعروف، ونهيٌ عن المنكر.

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لْ﴾: حرف علّة وسبب ﴿تَكُنْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ يصير ﴿مِنْكُم﴾: بعضُكم ﴿أُمَّةٌ﴾: جماعةٌ من المسلمين، مُخصصةٌ ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾: الدعوة إلى الله ﷻ بالنفع ﴿وَيَأْمُرُونَ بِ﴾: حرف باء الالتصاق ﴿الْمَعْرُوفِ﴾: وهو الدين، واتباع القرآن، وتطبيق السُّنة، وهذه من أكبرِ عناصرِ حقوق الإنسان، حريّة الرأي، والتعبير؛ بما ينفع النّاس ﴿وَيَنْهَوْنَ﴾: أيضًا يأمرون بتجريم وتحريم ﴿عَنِ﴾: حرفُ جرٍّ يفيد المجاوزة ﴿الْمُنْكَرِ﴾: يحاربون الرذيلة؛ وعندها يتحقق الفَلاح، هنا يوجد طِباقُ مقابلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَأُولَئِكَ﴾: إشارةً للجماعة القريبة والبعيدة، فقد خصّ وقصر الله ﷻ الفَلاح عليهم ﴿هُمُ﴾: حرف تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: هؤلاء الذين دخلوا الجنّة؛ فهم الناجحون في دنياهم وآخرتهم.

التكليف: إنّ وحدة صفِّ المسلمين على المحبّةِ والألفةِ، طريقُ الهداية وطريقُ كلّ خيرٍ، لا يعني تخصيص هذه الجماعة أن تُسقط الدعوة عن كلّ فردٍ، فالرسول يقول ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[1].

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٥)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لَا﴾: مُحرّم عليكم أنْ ﴿تَكُونُوا﴾: تصيروا أيّها المؤمنون ﴿كَ﴾: مثل ﴿الَّذِين﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿تَفَرَّقُوا﴾: أصبحوا فرقًا مُتعددةً، متصارعةً

---

[1] صحيح مسلم /١/٦٩(٤٩).

كما هم أهل الكتاب، اليهود والنصارى، وقد يكونون هم المختلفين من المسلمين، وكذلك الفِرق التي نشأت بالخلافات في أصول وضروريات الدين، وأسسه، وهذه النتيجة خطيرة ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾: كان الاختلاف في الدين قبل التفرق، ولكن قدّم الله ﷻ الفُرقة لخطورتها على الاختلاف؛ والله أعلم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانية ﴿بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾: أُنزلت عليهم الآيات الواضحات، جاء الاختلاف والفُرقة وهم يعرفون خطورةَ هذه الفُرقة عليهم في الدنيا، ووبالَها عليهم في الآخرة ﴿وَأُولَئِكَ﴾: إشارةً للجماعة، للقريب والبعيد، سيُحقق الله ﷻ في المُتفرقين المُختلفين العذاب ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: وهذه عقوبةُ يوم القيامة، تقع على الفرق التي اختلفت، وهي تعلم حكم الله ﷻ في الاختلاف في الدين.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١٠٦)

﴿يَوْمَ﴾: هو يوم القيامة ﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾: هي وجوهُ أهل الجنّة، التي تُصبح بالسعادة مُبيضّه، وهم أهل السُنَّة والجماعة ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾: من المعروف أنّ هرمون الأدرينالين يُفرز بصورةٍ كبيرةٍ في الجسم في حالات الخوف؛ وهو يعمل على قبض جُذُر الأوعية الدموية في الجسم وخاصّة الجلد؛ وهنا تصبح الوجوه كالحةً، أقرب إلى السواد، هي وجوه الكافرين من الخزي، والكآبة، والخوف، وهم أهل البدعة، والاختلاف، والتفرق، والمنافقون في الدنيا ﴿فَأَمَّا﴾: حرفُ تفضيلٍ وتوكيدٍ بمعنى أي ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾: يقال لهم يوم القيامة ﴿أَ﴾: حرفُ استفهامٍ بغرضِ التوبيخ ﴿كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: إنكار توبيخي، أنتم المرتدون، وأهل الكتاب، والمنافقون والمبتدعون، الذين نقضتم إيمانكم بعد أنْ صدَّقتم ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب يقال لهم بدون تأخير ﴿ذُوقُوا﴾: والذوق هو فقط للطعام، وكإشارة إلى أنّ كلّ أدوات الحواس الجلد، والشم، وغيرها؛ سيصيبها، ﴿الْعَذَابَ﴾: الأليم ﴿بِمَا﴾: بسبب، بالذي ﴿كُنْتُمْ﴾: في حياتكم الدنيا ﴿تَكْفُرُونَ﴾: هذا أمر ربّاني يخصُّ كلّ منكرٍ للدين.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٠٧)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿أَمَّا﴾: حرف تفضيلٍ وتأكيد ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾: دليلُ الأمن الذي هو طمأنينةُ النفسِ، وزوالُ الخوف، ودليلُ السعادة، جاء لفظ أبيض؛ أي غابت عنها الألوان ذات الدلالات السيئة ﴿فَ﴾: حرف يفيد الجواب ﴿فِي

رَحْمَةِ اللَّهِ﴾: في الجنَّة ﴿هُمْ﴾: حرف تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب ﴿فِيهَا﴾: في الجنّة ﴿خَالِدُونَ﴾: ماكثون أبدًا.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٨)

﴿تِلْكَ﴾: اسم إشارة للبعيد ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾: علامات، وبينات، وبراهين التي تعدُ المؤمنين بالجنّة؛ وتتوعد الكافرين بالنّار ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾: نكشفُها ونُوضحُها لك؛ حتى تعرف ماذا سيحدث في الدنيا وفي الآخرة ﴿بِ﴾: حرفُ باء الصلة والمصاحبة ﴿الْحَقِّ﴾: نقرأها عليك يا محمد بالعدل والصدق، والعدل ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا بمعنى أيضًا ﴿مَا﴾: حرف ينفي أنّ ﴿اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِ﴾: حرف لام التخصيص ﴿الْعَالَمِينَ﴾: من كمال الحكم العدل أنْ يعرف كلُّ النّاس كيف لا يظلمون أنفسهم، ولا يظلمون غيرهم؛ فلا يقعُ عليهم عقابُ ربّهم، ويعلّمهم الله ﷻ كيف لا يظلمون، وهو ﷻ الذي لا يظلمُ أحدًا من خلقه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (١٠٩)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لِ﴾: حرف تمليك ﴿اللَّهِ مَا﴾: بمعنى الذي لغير العاقل ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض وأحاط بها؛ بسبب شكلها البيضاوي ﴿وَمَا﴾: الذي من جنس غير العاقل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: كلّ ما في السماوات من كواكب، وأقمار، وما على الأرض من شجرٍ، وحجرٍ، ومياهٍ، وكنوزٍ؛ هم في ملك الله ﷻ، الكلُّ عبيده، في قبضته، هو ﷻ خالقُهم ومالكهم، ناصيتهم بيده، سخّرهم بأمره، الكلُ في قبضته يتصرف به كيف يشاء ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ﴾: تعود، إليه ﷻ الفيصل في الحكم ﴿الْأُمُورُ﴾: فمن اتبع تعاليم الله ﷻ، صاحبِ الملكوت، سيرجع كلّ مآلٍ إليه؛ فيتصرف كيف يشاء، وأمّا عن البشر فمن أحسن، ورضي فله الحُسنى والرضا، ومن عصى فجزاؤه ما قرره الله ﷻ فيه.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١١٠)

﴿كُنْتُمْ﴾: في علم الله ﷻ، في الماضي، وستبقون منذ آمنتم ﴿خَيْرَ﴾: صاحبةُ الفعل الحق والقول النافع للخلق ﴿أُمَّةٍ﴾: جماعةٍ كبيرةٍ من البشر من أصلٍ واحدٍ، خُلقت من البشر، خير الأمم، أنفع النّاس للنّاس، والمقصود أُمّة محمد ﷺ ﴿أُخْرِجَتْ﴾: أظهرها اللهُ ﷻ، خلقها، وكلّفها، وأرسلها ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿النَّاسِ﴾: عموم البشر بإيمانكم، وعملكم، تأخذون الأمم الأخرى إلى الخير، والفوز في الدنيا والآخرة ﴿تَأْمُرُونَ﴾: تعظون وتُرشدون ﴿بِ﴾: حرف باء الالتصاق ﴿الْمَعْرُوفِ﴾: ويبين الله ﷻ أدوات الخيرية لهذه الأُمّة، كان أولهم المهاجرون مع

رسول الله ﷺ وهي آيةٌ عامّةٌ في جميع الأمم، في جميع القرون، خيرَ القرون كان أوّلُهُ، أي تدعون، وتأخذون النّاس إلى العمل لخير النفس البشرية السليمة ﴿وَتَنْهَوْنَ﴾: تمنعون ﴿عَنِ﴾: حرفُ جرٍّ يفيد المجاوزة ﴿الْمُنْكَرِ﴾: تُحرّمون ما لا يتفق مع تعاليم الخالق، منها تقوى الله ﷻ، وبرّ الوالدين، والإحسانِ إلى الخلق، وصلةِ الرحم، واحترام حريّة النّاس، وحفظ أنفسهم، وأموالهم، وأعراضهم، عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران-١١٠] قَالَ: «أَنْتُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ»[1]، ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ﴾: حرف شرطٍ ويفيد الاستفهام والنفي ﴿آمَنَ﴾: اعتقد بصدق ﴿أَهْلُ﴾: أصحابُ ﴿الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾: يُوبخُ الله ﷻ أهل الكتاب من اليهود، والنصارى، فيشهد أنّهم لم يؤمنوا بالله ﷻ حقّ الإيمان، أي لو آمنوا بمحمدٍ ﷺ؛ لفازوا بثواب إيمانهم بمن سبق من أنبياء، وختموا بخيرهم محمدٍ ﷺ ﴿مِنْهُمُ﴾: جزءٌ هم ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾: قليل منهم يؤمن بالله ﷻ، وملائكته، وكتبه، وبما جاء على محمدٍ ﷺ ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾: الأغلبية والأكثرية منهم كُفّارٌ ﴿الْفَاسِقُونَ﴾: الذين خرجوا عن تعاليم ربّهم؛ فضلّوا؛ وكفروا؛ وعصَوا.

التكليف: إنّ خيريّة هذه الأمّة بعناصرها المتكاملة: خيرِ الأنبياء، وخيرِ وأكملِ تعاليم شرع الله ﷻ، وأكرمِهم منزلة يوم القيامة، وخيرِ المؤمنين، وخيرِ الإيمان بكتاب الله ﷻ.

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ (١١١)

تحمل هذه الآيةُ العظيمةُ بشرى دائمةً مستمرةً، حتى ينزل عيسى ﷺ، ويحكم بملّة الإسلام، وشرع ما نزل على محمد ﷺ فيكسرُ الصليب، ويقتلُ الخنزير، ولا يقبلُ غير الإسلام، فهكذا كان يوم خيبر أذلّهم اللهُ ﷻ وأذلّ قبلهم بني قينقاع يهود المدينة، وبني النضير، وبني قريظة، وكذلك نصارى الشام؛ دخلها عمر بن الخطاب عام (٦٣٥) ميلادي، وأنهى وجودهم.

قضيةٌ معاصرة: خاصّةٌ بالصراع مع النصارى واليهود: مهما بلغ ضرر المسلمين المؤمنين الموحدين، على يد أهل الكتاب، فالمواجهة مع اليهود حتميةٌ، والصراع طويل، لكنّ النصر للفئة المؤمنة بإذن الله ﷻ ﴿لَنْ﴾: حرف نفي ﴿يَضُرُّوكُمْ﴾: يؤذوكم في دينكم، وينهوا الإسلام ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿أَذًى﴾: سيكون الضررُ طفيفًا بسبب الكذب والتضليل في المال، والبيت، والأشخاص، ولنْ يضرُوكم في دينكم ولا في أنفسكم، بل هو أذى الأقوال ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿يُقَاتِلُوكُمْ﴾: عندما يُقررون قتالكم ﴿يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾: سيُهزمون، ويهربون من أمامكم، وخيرُ شاهدٍ هو مواجهة اليهود للمسلمينَ في فلسطين ﴿ثُمَّ﴾:

---

[1] سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٢٢٦) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وحسنه الألباني.

حرفٌ يُفيد التتابع الزمني مع التراخي ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُنْصَرُونَ﴾: لنْ يكتب اللهُ ﷻ لهم نصرًا، حتى وإنْ قتلوا كثيرًا من المسلمين، أو هدموا كثيرًا من البيوت.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (١١٢)

﴿ضُرِبَتْ﴾: أحاطت بهم وفُرضت عليهم، وأُلزموا بها، وجُعلت، وأُلصقت، استعارة حيث شبّه الله ﷻ الذل بالخباء، الذي يخفي، أو غطاء الرأس ﴿عَلَيْهِمُ﴾: على اليهود ﴿الذِّلَّةُ﴾: ما كان عن قهرٍ، التحقير، والصَغار، وهو المقصود بالخباء المضروب على أصحابه ﴿أَيْنَ مَا﴾: في أيّ مكانٍ وموضعٍ ﴿ثُقِفُوا﴾: في كلِّ حالٍ، وفي كلِّ مجتمعٍ من المجتمعات، ويشهد على ذلك تاريخهم، حتى وإنْ أقاموا دولةً لهم في فلسطين، أو في أيّ مكان ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناء منقطع ﴿بِ﴾: حرفُ باءِ الصلةِ والالتصاق ﴿حَبْلٍ﴾: بعهدٍ أو أمنٍ، والحبل دليل ربطٍ، وقوةٍ، وتعاونٍ، ومؤازرة ﴿مِنَ﴾: حرفٌ يفيد بداية الغايّة ﴿اللَّهِ﴾: إلّا من الله ﷻ، عقد الذمّة الذي أعطاه اللهّ ﷻ لهم، وضرب عليهم الجزية، وألزمهم أحكام دينهم، عهد الله ﷻ ﴿وَحَبْلٍ مِنَ﴾: بعض ﴿النَّاسِ﴾: المؤمنون الذين يعطونهم الأمان؛ لأنّهم في ذمّتهم، كما في حالات الهُدنة والاتفاقيات، ومعاملة الأسير، رجلًا كان أو امرأة، أو عبر التحالفات مع الآخرين مثل الغرب الصليبي ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق كان حالهم ﴿بَاءُوا﴾: رجعوا به مستحقين له، أُلزموا، فالتزموا، جاء اللفظُ "بَاءُوا" في القرآن الكريم على أربعة أوجه؛ هنا بمعنى استوجبوا؛ أي وجب عليهم، وحقّ عليهم، أي رجعوا ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿غَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾: رجعوا بغضبٍ، وسخطٍ من الله ﷻ؛ يستحقونه ﴿وَضُرِبَتْ﴾: فُرضت قهرًا ﴿عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾: هي فقرُ النفس وشُحّها وبُخلها، فُرضت شرعًا، وقدرًا، عليهم المسكنة والضعف ﴿ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ إشارةً للبعيد، هذا الغضب ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: حرفُ تأكيدٍ ونفي الإنكار بسبب ﴿كَانُوا﴾: فيما سبق ﴿يَكْفُرُونَ﴾: يُخفون ويحجبون حقيقة الإيمان بالكِبرِ، وبالظلمِ، وبالحسد ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾: دلائل وجوده ﷻ ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾: أيضًا كانوا ينهون حياة ﴿الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿حَقٍّ﴾: بغير ذنب، كلّما جاءهم رسولٌ بما لا تهوى أنفسهم؛ قتلوه، ظُلمًا، وعُدوانًا ﴿ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر اللهُ ﷻ عنها ﴿بِمَا﴾: بالذي فعلوا أي ﴿عَصَوْا﴾: بسبب عصيانهم لأوامر الله ﷻ وكفرهم بآياته ﴿وَكَانُوا﴾: في

الماضي وسيبقون ﴿يَعْتَدُونَ﴾: سجّل التاريخ، وسجّلت الكُتبُ السماويةُ، قتلهم الأنبياء وكثرة عصيانهم، واقترافهم المعاصي، وخيانة الوطن والمواطنين؛ ومحاربة شرع الله ﷻ.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (١١٣)

سبب النزول: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: أَخَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الْعِشَاءِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَإِذَا النَّاسُ يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَدْيَانِ أَحَدٌ يَذْكُرُ اللهَ هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرُكُمْ، قَالَ: وَأَنْزَلَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، حَتَّى بَلَغَ: **﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ تُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾** [آل عمران-١١٣،١١٥][(١)]، ﴿لَيْسُوا﴾: فعل ماضٍ ناقص؛ يفيد النفي ﴿سَوَاءً﴾: ليس كُلّهم على حالٍ واحدٍ، فمنهم المؤمن، ومنهم المجرم؛ لأنّ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعض ﴿أَهْلِ﴾: أصحاب ﴿الْكِتَابِ﴾: الذين نزلت فيهم كُتبٌ من الله ﷻ، مثل اليهود، والنصارى ﴿أُمَّةٌ﴾: هم قومٌ من أصلٍ واحدٍ؛ يدلُّ على أمّةٍ مستمرةٍ في الوجود جيلًا بعد جيل ﴿قَائِمَةٌ﴾: مُستقيمةٌ، عادلةٌ، مُطيعةٌ، لشرع الله ﷻ، تتّبع النبي ﷺ، هذه الآيات تتحدث عن اليهود، والنصارى، قبل بعثةِ محمدٍ ﷺ كانوا ﴿يَتْلُونَ﴾: جاءت بصيغة الفعل المضارع للدلالةِ على التجددِ والاستمرار، يذكرون ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾: الأدلّة، والبراهين الإيمانية في كتاب الله ﷻ ﴿آنَاءَ﴾: وقت ﴿اللَّيْلِ﴾: ويُكثرون التهجد، ويتلون آيات الله ﷻ ﴿وَهُمْ﴾: ضميرٌ يُفيد الجمع المذكر الغائب تحديدًا ﴿يَسْجُدُونَ﴾: كنايةً عن الصلاة.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٤)

ذكر الله ﷻ صفات هؤلاء المؤمنين في نهاية سورة آل عمران أنّهم كانوا ﴿يُؤْمِنُونَ بِـ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ﴾: تطمئنُ قلوبُهم، وتصدقُ جوارحهم بالله ربًّا، لا شريك له ﴿وَ﴾: أيضًا يؤمنون بـ ﴿الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: ويؤمنون بيوم القيامة، حيث العدل، والثواب، والعقاب، ومن أعمالهم أنّهم ﴿وَيَأْمُرُونَ﴾: أيضًا يعملون ويدعون إلى الإسلام ﴿بِـ﴾: حرف باء المصاحبة ﴿الْمَعْرُوفِ﴾: والمعاملة الطيبة ﴿وَيَنْهَوْنَ﴾: يمنعون ويحرّمون ﴿عَنِ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد المجاوزة ﴿الْمُنْكَرِ﴾: ما حرّمه الله ﷻ ﴿وَيُسَارِعُونَ﴾: يتسابقون لا يتوانون ﴿فِي الْخَيْرَاتِ﴾: في فعل الخير، وتطبيقه ﴿وَأُولَئِكَ﴾: إشارةً للقريب والبعيد ﴿مِنَ﴾: مع بعض ﴿الصَّالِحِينَ﴾: هؤلاء في زمرة الذين ينفعون النّاس، ويُصلحون دينهم ودنياهم.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (١١٥)

---

(١) مسند أحمد ط الرسالة (٦/ ٣٠٤)، صحيح لغيره، وهذا إسناده حسن.

﴿ومَا﴾: بمعنى الذي ﴿يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾: إنّ الذي يفعله هؤلاء من خيرٍ، قليلٍ أو كثيرٍ ﴿فَلَنْ﴾: حرف نفي ﴿يُكْفَرُوهُ﴾: لن يضيع ثوابه عند الله ﷻ، ولنْ يخفيه أحد ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: لا يخفى عليه عمل عاملٍ منهم، من ذكرٍ، أو أنثى ﴿بِ﴾: حرف باء التعددية ﴿الْمُتَّقِينَ﴾: الذين يعملون بأوامر الله ﷻ، بقناعة، طمعًا في غفرانه، ورحمته، ويمتنعون عن المعاصي بقناعةٍ، ويخافون عذابه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٦)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: هم بنو قريظة وبنو النضير، لأنه لمّا ذَكَر الله ﷻ مؤمني أهل الكتاب ذَكرَ كفّارهم في هذه الآية، الذين أنكروا وجود الله ﷻ، أو عصوه ﴿لَنْ﴾: حرف نفي يؤكد أنّه لن ﴿تُغْنِيَ﴾: لا تُرد، ولا تُجزئ، ولا تدفعُ عنهم غضب الله ﷻ، ولا تمنعهم ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾: كثرةُ أموالهم، ونفوذهم ﴿وَلَا﴾: أيضًا لا ينفعهم ﴿أَوْلَادُهُمْ﴾: ولا كثرة عددهم ﴿مِنَ﴾: حرف يفيد بداية الغاية، هي من ﴿اللَّهِ شَيْئًا﴾: بأسِ الله ﷻ، ولا من عذابه ﴿وَ﴾: حرف عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارةً للقريب والبعيد منهم ﴿أَصْحَابُ﴾: المُصاحبون، المُلازمون دومًا ﴿النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: في جهنّم؛ المقيمون فيها أبدًا.

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٧)

﴿مَثَلُ﴾: حال ﴿مَا﴾: الذين ﴿يُنْفِقُونَ﴾: يدفعون كثيرًا من المال وكلّ أشكال الخير؛ الذي يسخّرونه لخدمة أهدافهم؛ وينتظرون أجره من النّاس ﴿فِي هَذِهِ﴾: إشارة للمؤنث المفرد ﴿الْحَيَاةِ﴾: زمن العيش على الأرض، قبل يوم القيامة ﴿الدُّنْيَا﴾: على الأرض ﴿كَ﴾: حرفٌ يفيد مثل وحال ﴿مَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾: كمثلِ بردٍ شديدٍ، وجليدٍ، وقيل نارًا، ومن المعلوم أنّ الثلجُ يُتلف الزرع كما تتلفه النّار ﴿أَصَابَتْ﴾: ضربت ﴿حَرْثَ﴾: زراعةَ ﴿قَوْمٍ﴾: جماعةٍ من أصلٍ واحدٍ ﴿ظَلَمُوا﴾: ارتكبوا الجرائم في حق ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾: ذهبت أموالُهم بلا فائدةٍ عليهم ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب بهدف ترتيب وتنفيذ الأمر دونَ تأخير ﴿أَهْلَكَتْهُ﴾: أتلفتهُ بالصاعقةِ، وهو مثمرٌ، أو عندما حان وقت حصاده، ذهبت به، فخسره صاحبه، كذلك حال الكفّار، يمحقُ الله ﷻ ثوابهم، وأعمالهم في الدنيا، كما يذهب بثمر الأشجار، وقد بنوها، وزرعوها على باطلٍ ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ﴾: حرفُ عطفٍ واستدراكٍ ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾: أضاعوا كذلك

أموالهم في مغالبة الله ﷻ الذي لا يُغلب ﴿يَظْلِمُونَ﴾: بظلمهم لأنفسهم، وليس بظلم الله ﷻ لهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١١٨)

أسباب النزول: هذه الآيات جاءت بعد معركةِ أُحد، وفيها من العبر كثير ﴿يَا﴾: حرفُ نداءٍ للبعيد للتنبيه ﴿أَيُّهَا﴾: كلمةُ نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: بالله ﷻ، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقيامة، والقضاء والقدر، وهو تكليفٌ للمؤمن الصادق ﴿لَا﴾: أداةُ تحريمٍ ونهيٍ ﴿تَتَّخِذُوا﴾: حرامٌ عليكم أنْ تعتمدوا ﴿بِطَانَةً﴾: أصدقاءَ، وأخلّاءَ خاصّة الأهل من الذين يطّلعون على سرائركم، وأخباركم وأقوالكم ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾: من غيركم، أي من غير المسلمين، من أهل الأديان الأخرى والكفّار؛ لأنّهم ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَأْلُونَكُمْ﴾: لا يُقصّرون، ولا يتوانون في فساد دينكم، ومخالفتكم، ويزينون لكم ﴿خَبَالًا﴾: هو الفساد في كلِّ ما يضرّكم في الأبدان، والأفعال، والعقول بكلّ شيءٍ ممكنٍ، بكلّ أشكال المكر، والخديعة وهم أهلُ نفاق ﴿وَدُّوا﴾: أرادوا، ورغبوا، وطلبوا ﴿مَا﴾: الذي ﴿عَنِتُّمْ﴾: كلُّ ما يُصيب المؤمنين من التعب والضرر، والذي يشقُّ عليهم، ويؤذيهم ﴿قَدْ﴾: تتحقق بأقوى ما يكون في الماضي، والمضارع، ولا تفيد المستقبل ﴿بَدَتِ﴾: ظهرت ﴿الْبَغْضَاءُ﴾: العداوة والكراهية ﴿مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿أَفْوَاهِهِمْ﴾: من ألسنتهم، الذي يكشف نياتهم، بفلتات اللسان، بالطعن في دينكم، كما أن ملامحهم تكشف ما بداخلهم، تُظهر حقدهم لكلّ لبيبٍ، وصاحبِ عقلٍ ﴿وَمَا﴾: الذي ﴿تُخْفِي﴾: تستر ﴿صُدُورُهُمْ﴾: إنّ تلك الفلتات من اللسان بالنسبة لما في قلوبهم قليلة، كُرهٌ، وحقدٌ، وعداوةٌ ﴿أَكْبَرُ﴾: كبيرٌ عمّا ترون ﴿قَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد ﴿بَيَّنَّا﴾: أوضحنا وأظهرنا ﴿لَكُمُ﴾: تخصيصًا ﴿الْآيَاتِ﴾: الأدلّة والبراهين، أظهرها الله ﷻ من فلتات ألسنتهم، وفي تعابير وجوههم، وما يسربونهُ لأعداء المسلمين ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾: إنّ الذين يعقلون هذه الآيات يجب عليهم:

التكليف: على المسلمين ألّا يتخذوا مقربين لهم من اليهود والنصارى، مهما كانوا، وأنْ يتفحصوا كلمات البطانة، والأعوان، والأتباع، والمستشارين الذين استخدموهم في أعمالهم، وأنْ يُتابعوا ما يصدرُ عن هذه البطانة من قولٍ، وعملٍ، ويدرسون بعنايةٍ ما يفشونه من أسرارٍ للأعداء، عن

القوة، وأسرارِ الحرب، وأنْ يرقبوا أين هؤلاء من الإسلام، فإنْ كانوا بعيدين عنه؛ فلا بد من تغييرهم وتحييدهم.

﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١١٩)

﴿هَا﴾: اسم إشارة للدلالة على العدد والنوع ﴿أَنْتُمْ﴾: أيّها المسلمون الموالون، والذين اتخذوا منهم بطانةً ﴿أُولَاءِ﴾: اسمُ إشارةٍ للجمعِ القريب المذكر والمؤنث، وهنا تفيد المؤمنين ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾: تُحبون المنافقين، بما يظهرونه لكم من الإيمان؛ وبما عندهم من طاقاتٍ وتحبون لهم الخير، والحقيقة أنّهم ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿لَا﴾: تنفي أنْ يكونوا ﴿يُحِبُّونَكُمْ﴾: شهادةٌ من الله ﷻ الذي يعلم ما تُخفي الصدور، إنّ هؤلاء لا يُحبون المؤمنين، ظاهرًا وباطنًا ﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾: وأنتم تُصدّقون ﴿بِ﴾: حرف باء التعددية ﴿الْكِتَابِ﴾: جنس الكتاب السماوي ﴿كُلِّهِ﴾: تؤمنون بجنس الكتاب، الذي نزل عليكم وعليهم، وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحقُّ أنْ تكرهوهم؛ لأنّهم لم يتبعوا كتابكم الحق ﴿وَإِذَا﴾: أداة ربط ما بعدها بما قبلها ﴿لَقُوكُمْ﴾: قابلوكم ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾: يُظهرون بألسنتهم الإيمان نفاقًا وتقية، ويقولون نصدّق ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾: ابتعدوا عنكم، وأصبحوا لوحدهم ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ﴾: الأنامل جمع الأنملة؛ وهي المفصل الأعلى من الأصابع التي فيها الظفر، تعبيرًا على التأسف والحسرة؛ لأنّهم عجزوا عن الانتقام منكم ﴿مِنَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا التعليل والسبب ﴿الْغَيْظِ﴾: هذا العمل، العضُّ على الأصابع، تعبيرٌ عن أشدّ حالات الغيظ، والغضب، والكره والحنق، بسبب وحدتكم، وقوتكم ﴿قُلْ﴾: يا أيّها النبيُّ قل لهؤلاء ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾: يعني أنّكم ستبلغون غيظًا يُميتكم؛ لأنّ الله ﷻ مُتم نعمته على المسلمين، ورافعُ شأنِ دينه، فاشبعوا غيظًا، وموتوا بغيظكم، والغيظُ هو أشدُّ من الغضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ عَلِيمٌ بِ﴾: حرف باء المصاحبة ﴿ذَاتِ﴾: طبيعة وحقيقة ﴿الصُّدُورِ﴾: يعلم ما في أنفسكم، وما تُكنّه قلوبُكم التي في صدورِكُم من الغلّ، والحسدِ، والبغضاءِ، وستنالون عقابكم في الدنيا عندما يتحقق للمؤمنين نصرهم، وتدخلون جهنّم في الآخرة، خالدين فيها، لا خروج منها أبدًا.

﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (١٢٠)

يُخبر الله ﷻ مواصفات وأخلاق هؤلاء من البطانة، التي تُكنّ قلوبُهم أشدّ العداوة للمؤمنين ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَمْسَسْكُمْ﴾: تُصيبكم ﴿حَسَنَةٌ﴾: جاء لفظ "**الحسنة**" في القرآن الكريم على

خمسة أوجه؛ هنا بمعنى الخير من مالٍ، أو ولدٍ، وجاءت بمعنى التوحيد كما في [الأنعام-١٢٠]، وبمعنى كثرة المطر وبمعنى العافية وبمعنى العفو وبمعنى الزوجة الصالحة وكذلك حسنةَ الآخرة؛ أي الجنّة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾: تُغضبهم وتُحزنهم، ولهذا لا يصلحون أنْ يكونوا بطانةً للمسلمين ﴿وَإِنْ﴾: أيضاً إذا ﴿تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾: جاء اللفظ القرآني "**السيئة**" في القرآن الكريم على خمسة أوجه؛ هنا بمعنى هزيمة، وتأتي بمعنى الشرّ أو القحط، أو الجدب، أو العذاب أو القول القبيح لحكمةٍ الله ﷻ يعلمها، كما جرى يوم أُحد، يوم فرح المنافقون ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَصْبِرُوا﴾: على عداوتهم، أو التكاليف الشاقّة في حربهم، هذا جزءٌ من العلاج، الصبر على الابتلاء ﴿وَتَتَّقُوا﴾: أي العمل بما أنزل الله ﷻ قناعةً، وطمعًا في النصر، وانتهاءً عن المعاصي قناعةً، وخوفًا من العذاب ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَضُرُّكُمْ﴾: لن يصيبكم أذىً من ﴿كَيْدُهُمْ﴾: مكرهم وتدبيرهم السوء لكم ولدينكم ﴿شَيْئًا﴾: لن ينالوكم بسوءٍ، صغيرٍ أو كبيرٍ ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ بِمَا﴾: اسم موصول، بالذي ﴿يَعْمَلُونَ﴾: بما يمكرون من السوء ﴿مُحِيطٌ﴾: مطلعٌ عليه، قادرٌ على إحباطه، يطوّق اللهُ ﷻ مكرهم؛ فلا حول لهم ولا قوّة.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢١)

بعد أنْ قدّم الله ﷻ في الآيات السابقة حقائق عن بعض النّاس، أهمها البطانة المنافقة، وكشف ما في أنفسهم، وأظهر نياتهم للمؤمنين، تأتي حادثةُ أُحدٍ كاختبارٍ وابتلاءٍ، وجاء في **أسباب النزول:** أنّها نزلت في واقعةِ أُحدٍ، وقيل يوم الأحزاب بعد بدر، حيث قُتل أشرافٌ من مكّة، وسلمت عيرُ التجارة، ترك أبناءُ الذين قُتلوا هذه العير والبضاعة لأبي سفيان، ليرصدها لمحاربة المسلمين، وجمعوا مرتزقةً من الأحباش، وجاؤوا في ثلاثةِ آلافِ مقاتلٍ، ونزلوا بالقرب من جبلِ أُحد، وفي الجانبِ الآخرِ شَاوَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ يَوْمَ أُحُدٍ فِي المُقَامِ وَالخُرُوجِ، فَرَأَوْا لَهُ الخُرُوجَ، فَلَمَّا لَبِسَ لَأْمَتَهُ وَعَزَمَ قَالُوا: أَقِمْ، فَلَمْ يَمِلْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ العَزْمِ، وَقَالَ: «لاَ يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ يَلْبَسُ لَأْمَتَهُ فَيَضَعُهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ»[1]، ولقد خرج ﷺ في ألفٍ من أصحابه، وفي الطريق رجع عبد الله بن سلول بثلث الجيش؛ لأنّ رأيّه كان من البداية: أنْ يبقوا في المدينة، وبرّر موقفه بقوله: لو كنّا نعلم اليوم قتالًا لاتبعناكم، ولكنّا لا نراكم تقاتلون، واستمر الرسول ﷺ في سيره حتى نزل عدوةَ الوادي، وجعل ظهرَهُ لجبلِ أُحد، وأمر الرماة، وعددهم خمسون، أنْ يلزموا مكانهم مهما كانت الظروف.

---

[1] صحيح البخاري (٩/ ١١٢).

﴿وَإِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى من الزمن، اذكر يوم ﴿غَدَوْتَ﴾: خرجت أوّل النّهار ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿أَهْلِكَ تُبَوِّئُ﴾: تحدد وتُنزلُ المقاتلين ﴿الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ﴾: مواطنَ، ومواقعَ، ومواقفَ صالحةً ﴿لِلْقِتَالِ﴾: حرف اللام للسبب والعلّة؛ منهم في الميمنة، ومنهم في الميسرة، ومنهم من فوق الجبل ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا يجب أن تعلم أنّ ﴿اللَّهُ سَمِيعٌ﴾: يسمع الله ﷻ قولهم ﴿عَلِيمٌ﴾: ويعلم ما في الضمائر.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٢)

﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما تحقق في الزمن ﴿هَمَّتْ﴾: كادتا وأوشكتا أنْ ترجعا إلى المدينة ﴿طَائِفَتَانِ﴾: قال جابر بن عبد الله نزلت في بني حارثة، وبني سلمة وكانا جناحي الجيش يوم أُحد؛ اللذيّن فضلًا أنْ يرجعا عن الغزو مع النبي ﷺ، وأنْ يُقاتلا وهم في المدينة، وقد فرح بها جابر لأنّها تقول ﴿مِنْكُمْ﴾: من المسلمين ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿تَفْشَلَا﴾: لما اختلفت جبهةُ المسلمين، بين منْ رأى البقاء في المدينة، يُحاربُ وهو بداخلها، وبين منْ رأى الخروج لملاقاةِ الكفّار ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾: إنّ الله ﷻ ناصرُ الطائفتين المسلمتين، فعصمهما من الفشل فلم يرجعوا، كما رجع الكافرون، ولم يُكفّر الله ﷻ أيًّا منهما ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿لْ﴾: حرف تخصيص ﴿يَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: يعتمد، ويتكل المؤمن على الله ﷻ دائمًا.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢٣)

عَنِ الْبَرَاءِ، قَالَ: «كُنَّا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ نَتَحَدَّثُ أَنَّ عِدَّةَ أَصْحَابِ بَدْرٍ عَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهَرَ، وَلَمْ يُجَاوِزْ مَعَهُ إِلا مُؤْمِنٌ بِضْعَةَ عَشَرَ وَثَلاثَ مِائَةٍ»[(١)]، ﴿وَلَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾: أظهركم على الكافرين ﴿بِ﴾: حرف باء الظرفية تفيد هنا المكان ﴿بَدْرٍ﴾: قيل هو اسم رجلٍ وسُمّي المكان باسمه؛ لأنّه كان له فيه ماءٌ وهو اليوم قريةٌ تبعد عن المدينة المنوّرة بنحو مائة وخمسين ميلًا. حدثت فيه موقعةُ بدرٍ الحربية، فعن عروة بن الزبير قال كان أوّلُ مشهدٍ شهدهُ رسولُ الله يوم بدر ورئيس المشركين يومئذ عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، فالتقوا ببدرٍ يوم الجمعة لسبع عشرةٍ خلت من رمضان، وأصحاب رسول الله يومئذ ثلاث مائة وبضعة عشر رجلًا والمشركون بين الألف والتسع مائة فكان ذلك يوم الفرقان؛ فرّق اللهُ عزّ وجلّ فيه بين الحق والباطل، وكان أولُ قتيلٍ قُتل من المسلمين "مهجع"، مولى عمر بن الخطاب ورجلٌ من الأنصار؛ فهزموا يومئذٍ المشركون وقُتل منهم يومئذٍ زيادةٌ عن سبعين رجلًا، وأُسر منهم مثل ذلك؛ فأنزل اللهُ عزَّ وجلّ

---

(١) شرح السنة للبغوي (١٣/ ٣٧٧) هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ إلى آخر الآية[1]، ﴿وَ﴾: حرفٌ يفيد هنا الحال ﴿أَنْتُمْ﴾: تحديدًا ﴿أَذِلَّةٌ﴾: عددُكم قليل، وعددُ عدوكم كبير، وعتادُكم قليلٌ، وعتادُهم كبيرٌ ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا الأمر ﴿اتَّقُوا﴾: خافوا غضب ﴿اللَّهَ لَعَلَّكُمْ﴾: حرفٌ يُفيد عند البشر الترجي، ويفيد هنا الإشفاق؛ لأنّه من الله ﷻ ﴿تَشْكُرُونَ﴾: لتعلموا أنّ النصر من عند الله ﷻ، ويُعززُ هذا ما قاله الحق ﷻ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة–٢٥]، كان عليهم أنْ يشكروا الله ﷻ.

التكليف: كانت هذه جملةً استثنائية، سبقت؛ لتصبير المسلمين؛ وتذكيرهم بما يترتب على الصبر من نصر.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ (١٢٤)

﴿إِذْ﴾: اذكر يا محمد ﷺ حينذاك ﴿تَقُولُ﴾: يا محمد ﷺ جاءت بصيغة الفعل المضارع؛ لتحكي عن الماضي باستحضار الصورة في الفهم والتصور ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: تخصيصًا، شهادةُ حقٍ في أصحاب رسول الله ﷺ أنّهم مؤمنون ﴿أَلَنْ﴾: أداةُ توكيدٍ وجزمٍ والاستفهام هنا قد يكون تقريريًا، لأنّه مُجابٌ بالكلمة (بلى) في الآية التالية ﴿يَكْفِيَكُمْ﴾: للإنكار منك عليهم عدم اكتفائهم بذلك المدد من الملائكةِ، ألنْ يعينكم، ويدعمكم ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يُمِدَّكُمْ﴾: يُزوّدكم بالملائكة في حال مجيئهم، لا يتأخرون ﴿رَبُّكُمْ﴾: جاء اسم الله ﷻ هنا بالربّ إظهار كمال العناية بهم، فهو ﷻ المنشئُ لكم من العدم، وهو مالك أمركم كلّه، وهذه شهادة رضًا من الله ﷻ أنّهم عبيده، وهو ربّهم، فشاء أنْ يُمدّهم ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾: أرسلهم الله ﷻ من السماء مُنزلين إلى الأرض، ولقد جاء في أسباب النزول قولان: الأول: نزلت في يوم بدرٍ؛ قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾، فقد أمدّ الله ﷻ المسلمين بألفٍ من الملائكة، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف؛ وهذا هو الأرجح، والقول الثاني: نزلت يوم أُحد؛ قال ﷻ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران–١٢١] لأنّ بعض الصحابة فرّوا يومئذٍ.

﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (١٢٥)

﴿بَلَى﴾: حرفُ جوابٍ وتصديقٍ؛ هذا يكفيكم ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَصْبِرُوا﴾: على شدّةِ الحرب ومجابهة العدو وتثبتوا في المعركة ﴿وَتَتَّقُوا﴾: عطفًا على صبركم تُطيعوا الله ﷻ ورسوله ﴿وَ﴾:

---

[1] دلائل النبوة . للبيهقي (٣/ ١٢٧).

حرفُ عطفٍ يفيد هنا ﴿يَأْتُوكُمْ﴾: يأتي المشركون، أو يأتي الملائكةُ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿فَوْرِهِمْ هَذَا﴾: من ساعتهم هذه، مُسرعين إليكم ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾: يُزيدُكم ﴿رَبُّكُمْ﴾: هو المنشئُ للكون البديع بما وبمن فيه، وهو المربي إلى حدّ التمام؛ فهو مالك كلّ أمري، جاء اللفظ الرّب هنا لتَطمئن النفوس؛ فهو مالكُ كلِّ أمرهم، ولن يُضيّعهم ﴿بِ﴾: حرفُ باء الصلة ﴿خَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾: مُعلَّمين بالسيماء؛ أي بشكلهم سماتهم، عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: «كَانَ سِيمَا أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَوْمَ بَدْرٍ الصُّوفُ الْأَبْيَضُ»[1]، عَنْ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: «كَانَتْ عَلَى الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ يَوْمَ بَدْرٍ عِمَامَةٌ صَفْرَاءُ مُعْتَجِرٌ بِهَا، فَنَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمْ عَمَائِمُ صُفْرٌ»[2].

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١٢٦)

﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿جَعَلَهُ اللَّهُ﴾: يعود الضمير على نزول الملائكة، وكيف أعلمهم اللهُ ﷻ بإنزالهم ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ فقد جعله الله ﷻ ﴿بُشْرَى﴾: خبرًا سارًا بالنصر ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لِ﴾: حرفُ علّةٍ وسببٍ ﴿تَطْمَئِنَّ﴾: تهدأ وتسكن ﴿قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾: لتطيب قلوب المسلمين، التي هي مركز الوعي والإدراك وطمأنتهم ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿النَّصْرُ إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿عِنْدِ﴾: ظرف زمانٍ ومكانٍ ﴿اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾: إنّ النصر من صاحب العزّة التي لا تُرام، التي منحها لأوليائه، وليس بمجرد الأسلحة، والعتاد الماديّ فقط ﴿الْحَكِيمِ﴾: حكمتهُ في قضائهِ وقدرهِ والتي يُعلِّمُ بها أولياءه الحِكم والمُحكم الذي لا خلل فيه من الأقوال والأفعال بالعدل، الذي خلق كلّ شيء بحكمتهِ، وسلطانهِ؛ فسارت كلُّ المخلوقات في الكون بطاعتهِ؛ فأدّت دورها في سهولةٍ ويسرٍ.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ (١٢٧)

﴿لِ﴾: حرف سبب وتعليل ﴿يَقْطَعَ﴾: ليهلك ﴿طَرَفًا﴾: فئةً، طائفةً ﴿مِنَ﴾: جزء أو بعض ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿كَفَرُوا﴾: الهلاكُ لهذه الفئةِ من الكافرين، الذين قُتلوا في معركةِ بدر ﴿أَوْ﴾: حرف عطف يفيد التسوية في الحكم ﴿يَكْبِتَهُمْ﴾: يُخزيهم، ويذلّهم، ويغمّهم في يوم بدر ﴿فَ﴾: حرفٌ استئنائي بهدف ترتيب وتنفيذ الأمر دونَ تأخير ﴿يَنْقَلِبُوا﴾: يرجعوا لأهلهم ﴿خَائِبِينَ﴾: فاشلين، مهزومين، ولم ينالوا ما أرادوا، لم يُحققوا في الحرب انتصارًا.

---

[1] السنن الكبرى للنسائي (٨/ ٣٤).

[2] المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٤٠٧).

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨)

أسباب النزول: كان الرسول ﷺ يقنت بعد الركوع في صلاة الفجر، يدعو لبعض المسلمين بأسمائهم، ويدعو بالهلاك على بعض الكفّار بأسمائهم، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَشُجَّ وَجْهُهُ شَجَّةً فِي جَبْهَتِهِ حَتَّى سَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ؟» فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [آل عمران-١٢٨] إِلَى آخِرِهَا[١]، وعن سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهُ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ مِنَ الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ مِنَ الفَجْرِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ العَنْ فُلاَنًا وَفُلاَنًا وَفُلاَنًا» بَعْدَ مَا يَقُولُ «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران-١٢٨] إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران-١٢٨][٢]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى أَحَدٍ أَوْ يَدْعُوَ لِأَحَدٍ، قَنَتَ بَعْدَ الرُّكُوعِ، فَرُبَّمَا قَالَ: إِذَا قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدِ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ يَجْهَرُ بِذَلِكَ، وَكَانَ يَقُولُ فِي بَعْضِ صَلاَتِهِ فِي صَلاَةِ الفَجْرِ: «اللَّهُمَّ العَنْ فُلاَنًا وَفُلاَنًا، لِأَحْيَاءٍ مِنَ العَرَبِ» حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران-١٢٨] الآيَةَ[٣]، ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقص يفيد النفي ﴿لَكَ﴾: تخصيصًا ﴿مِنَ﴾: جزء أو بعض ﴿الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: ليس لك في الحكم على عباد الله، إلّا ما أمر الله ﷻ به فيهم ﴿أَوْ﴾: حرفُ عطفٍ يُفيد هنا التقسيم والتسوية ﴿يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾: هنا إشارةٌ وتلميحٌ بأن قريشًا سيكون مصيرها الإيمان، يهدي الكفّار من الضلال إلى الإيمان ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾: يسبب لهم الألم والحزن إنْ استمروا في كفرهم، فسيعذبهم في الدنيا والآخرة ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيدُ السبب ﴿إِنَّهُمْ﴾: هم بالتأكيد ﴿ظَالِمُونَ﴾: طغوا لأنفسهم ولغيرهم بكفرهم.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢٩)

﴿وَ﴾: حرف عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿لِ﴾: حرف تمليك لله ﷻ ملكًا وخلقًا وعبيدًا يتصرف كيف يشاء ويحكم كيف يريد ﴿اللَّهِ مَا﴾: الذي من جنس غير العاقل ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض، وأحاط بها؛ بسبب شكلها البيضاوي ﴿وَمَا﴾: أيضًا له تعالى الذي من جنس غير

---

[١] سنن الترمذي /٥/٢٢٦(٣٠٠٢). وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

[٢] صحيح البخاري (٥/ ٩٩).

[٣] صحيح البخاري (٦/ ٣٨).

العاقل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: البحار والأشجار والجبال والزرع والثروات.. ليُظهر سعة ملك الله ﷻ، كلّ الخلق من مُلكه، كلّ شيءٍ من تدبيره ﷻ ﴿يَغْفِرُ﴾: يسامحُ ويعفو ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل، وبخاصّةٍ الإنسان ﴿يَشَاءُ﴾: يسامحُ من أراد فلا يُعذبهم ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾: بالعدل؛ يذيقهم ما يستحقون من كلّ ما يسوؤهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾: يسامح ﴿رَحِيمٌ﴾: هنا إشارةٌ إلى دعوة قريش إلى التراجع عن موقفها من الإسلام.

التكليف: جاء في هذه الآية ذكرُ يغفرُ ويُعذّبُ؛ لتوضيح النتيجة في طباقٍ واضحٍ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٣٠)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿آمَنُوا﴾: والموضوع هو ﴿لَا﴾: حرفُ نهيٍ، وتحريمٍ ﴿تَأْكُلُوا﴾: جاء اللفظ الأكل كنايةً عن الأخذ؛ لأنه يؤول إليه، وينتهي بأكله؛ هنا تحريم أخذ، تجنبوا، واحذروا أكل أموال ﴿الرِّبَا﴾: أي الفوائدُ التي تُؤخذ على أموال الديون لأجلها ﴿أَضْعَافًا﴾: وهي الفوائد والزيادات ﴿مُضَاعَفَةً﴾: الزيادة على رؤوس الأموال، التي كانوا يقولون في الجاهلية إذا حلّ أجلُ الدين: إمّا أنْ تُقضى تدفع، وإمّا أنْ تُربى، يستمر الربا بالقدر، وتُزاد المُدّة ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا أيضًا ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾: خافوا من عقابه بوعيٍ وإدراكٍ، وامتنعوا عمّا يغضبه ﴿لعلَّكُمْ﴾: تفيد التحقق إن جاءت من الله ﷻ، وتفيد الطمع والترجي إذا جاءت من البشر ﴿تُفْلِحُونَ﴾: أنْ تنالوا ما تريدون في الدنيا والآخرة.

التكليف: هنا دعوةٌ لقريش لتتراجع عن موقفها من دين الإسلام، وفيه تربيةٌ حربيةٌ للمسلمين.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١٣١)

﴿وَاتَّقُوا﴾: تجنبوا دخول ﴿النَّارَ﴾: جهنّم ﴿الَّتِي أُعِدَّتْ﴾: جُهّزت، وهذا يعني أنّ النّار من مخلوقات الله ﷻ، لأنّ المعدوم لا يكون معدًّا لغاية ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾: تخصيصًا؛ التي هيأها الله ﷻ مصيرًا ومآلًا للذين أنكروا وغطّوا أركان، وحقيقة الإيمان، هذه دعوةٌ لمخالفةِ الكفّار في موضوع الربا، وحثٌّ على بذل المال في سبيل الله ﷻ.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٣٢)

﴿وَ﴾: عطفًا على هذه الحقائق التي هي مِنْ مُلك الله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾: بالإيمان به؛ تصديقًا قولًا وعملًا ﴿وَالرَّسُولَ﴾: هنا ندبٌ من الله ﷻ للنّاس لفعل الخيرات، بطاعةِ الله ﷻ،

وطاعةِ الرسول ﷺ، بالعملِ بما في كتاب الله ﷻ وسنّة رسوله ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: جاءت لعل هنا من الله ﷻ؛ لتفيد التأكيد ﴿تُرْحَمُونَ﴾: تنالون رحمة الله ﷻ في الدنيا والآخرة.

التكليف: الآية تحث المسلمين على تجنب سياسة الكفّار في المعاملات المالية.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣)

﴿وَسَارِعُوا﴾: هنا وجوب المسارعة والمبادرة دونَ توانٍ إلى ما يُوجب ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾: فعل ما أمرَ اللهُ ﷻ به من الطاعات التي تُوجب المغفرة والعفو من الله ﷻ؛ حتى يمحو ذنوبكم؛ ويسامحكم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الكلّية، التي لا يحدها زمان أو مكان ﴿رَبِّكُمْ﴾: من مالك أمركم كلّه ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿جَنَّةٍ﴾: لتنالوا غفرانه وتكون عاقبتُكم في الجنّة التي ﴿عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: المعنى هنا اتساعها، ذكر الحق جلَّ وعلا عرض الجنّة، ولم يذكر طولها؛ ليبيّن للأمّةِ كبر مساحتها التي إنْ كان عرضُها وهو أقلُّ من الطول يساوي عرض السموات والأرض؛ فما بالكم بطولها؟ وقد جاء ما يؤكد ذلك قوله ﷻ: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد–٢١] ﴿أُعِدَّتْ﴾: جُهّزت ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: كما أنّ الله ﷻ هيأ النّارَ للكافرين، فقد هيأ ﷻ الجنّة لأهلها، أُعدّت جائزةً للمتقين الذين يعبدون الله ﷻ بصدق، يرجون جنّته، ويتجنبون غضبه بوعي، ويخشون عذابه.

التكليف: قدّم اللهُ ﷻ المغفرة على الجنّة؛ لأنّ التخلي مُقدمٌ على التحلّي؛ فلا يستحق دخول الجنّة من لم يتطهر من الذنوب.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٤)

﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿يُنْفِقُونَ﴾: يبذلون ويعطون أموالهم في طاعة الله ﷻ ﴿فِي السَّرَّاءِ﴾: حالات اليُسر والرخاء وسعة المال، وفي المنشط، وفي الصحة ﴿وَ﴾: حرف استئناف بمعنى أيضًا ينفقون في ﴿الضَّرَّاءِ﴾: الشدّةِ، وضيقِ المالِ والحالِ، في المكرهِ، وفي المرض ﴿وَالْكَاظِمِينَ﴾: الذين يكتمون، ويمنعون غضبهم؛ لا يُعلنون، ويكفّون شرّهم عن النّاس مع القدرة على الانتقام ﴿الْغَيْظَ﴾: الذي يُثيرهم ويُؤلمهم ﴿وَالْعَافِينَ﴾: المُسامحين، التاركين عقوبة من أذنب واستحق المؤاخذة ﴿عَنِ﴾: حرف جرّ يفيد المجاوزة ﴿النَّاسِ﴾: يصف الله ﷻ هنا دواءً لحالة المؤمن الذي يقع له ما يغيظه؛ فيأمره ﷻ أنْ يكتم غضبه، وأنْ يعفو عن المسيئين. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي

يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ»[1]، عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ اللَّهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ»[2].

التكليف: نلحظ من هذه الكلمات أهميّة وحدة المجتمع المسلم، وابتعاده عمّا يُغضبه، وإذا غضب كيف يكتمه؛ ويعفو؛ فتزداد المحبةُ بين المسلمين، ولذلك وضع جائزةً لهؤلاء حيث ختم الآية الكريمة: ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق فإنّ ﴿اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: وللمحسنين مقاماتٌ ونعمٌ وفضائلُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»[3]، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُشْرِفَ لَهُ الْبُنْيَانُ، وَتُرْفَعَ لَهُ الدَّرَجَاتُ، فَلْيَعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَلْيُعْطِ مَنْ حَرَمَهُ وَيَصِلْ مَنْ قَطَعَهُ[4]. هذه كلماتُ الله ﷻ ورسوله ﷺ تحثُّ على مكارم المعاملات مع المسيئين؛ لوحدة المجتمع المسلم، وتماسكه، وتآخيه.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٥)

﴿وَالَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد الجميع من الرجال والإناث، واختصها الله ﷻ هنا بالزنا؛ لأنّهُ من أشنعِ الفواحش ﴿إِذَا﴾: حرفُ ظرفٍ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿فَعَلُوا﴾: يكون الفعل هنا مصحوبًا بالحواس، ارتكبوا ﴿فَاحِشَةً﴾: معصيةً كبيرةً مُتناهيةً في القُبح ﴿أَوْ﴾: حرفُ عطفٍ يُفيد هنا التسوية بين متعاطفين ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: اقترفوا ذنبًا دون الكبائر ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾: المقصود هنا ذكر القلوب، تذكروا الله ﷻ في القلب، وفي العلن؛ فاستشعروا الخوف ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿اسْتَغْفَرُوا﴾: طلبوا المغفرة، يفيد الحرف است: بمعنى الطلب في الفعل، مثل استسقى، واستطعم، واستأذن ﴿لِ﴾: حرف سبب ﴿ذُنُوبِهِمْ﴾: طلبوا الغفران من الله ﷻ على ذنوبهم، عَنْ عَلِيٍّ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ – وَقَالَ مِسْعَرٌ ثُمَّ يُصَلِّي؛ وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ[5]، وقال أنسُ ابن مالك: اعلموا أنّ إبليس بكى عندما نزلت هذه

---

[1] صحيح البخاري /٨/٢٨(٦١١٤).

[2] سنن أبي داود (٤/ ٢٤٨)، وحسنه الألباني. , سنن الترمذي /٤/٢٣٧(٢٤٩٣)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

[3] صحيح مسلم /٤/٢٠٠١(٢٥٨٨).

[4] المستدرك للحاكم – دار المعرفة (٢/ ٢٩٥) هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ.

[5] سنن ابن ماجه /١/٤٤٦(١٣٩٥). قال محمد فؤاد عبد الباقي: قال السندي: الحديث قد رواه الترمذي، وقال: حديث حسن. والحديث أخرجه الترمذي /٣/٢٥٧(٤٠٦).

الآية ﴿وَمَنْ﴾: استفهامٌ أفاد معنى النفي؛ أي لا أحد غير الله ﷻ ﴿يَغْفِرُ﴾: يمحو ﴿الذُّنُوبَ إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ، أي لا يغفرها إلّا ﴿اللَّهُ وَلَمْ﴾: حرف جزم ينفي الفعل المضارع ﴿يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَ﴾: حرف الواو هنا يفيد الحال ﴿هُمْ﴾: تحديدًا ﴿يَعْلَمُونَ﴾: مُتأكدون أنّهم مُذنبون، وأنّ الله ﷻ يقبل التوبة، لقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة–١٠٤].

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (١٣٦)

﴿أُولَئِكَ﴾: اسمُ إشارةٍ جاءت هنا للبعيد للدلالة على علو منزلتهم؛ هؤلاء الذين طبّقوا ما في الآية السابقة من القريب ومن البعيد ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾: جائزتُهم وأجرُهم ﴿مَغْفِرَةٌ﴾: عفوٌ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية التي لا يحدّها زمانٌ أو مكانٌ ﴿رَبِّهِمْ﴾: هو الذي أنشأهم من طورٍ إلى طورٍ ومن حالٍ إلى حالٍ إلى حدِّ التمام، هو مالك أمرهم كلِّه، ﷻ ﴿وَجَنَّاتٌ﴾: لم يقل ﷻ جنّةً واحدةً، وهذا فضلٌ من الله ﷻ كبيرٌ، بل قال بصيغة الجمع للتكريم ﴿تَجْرِي مِنْ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿تَحْتِهَا﴾: إمعانًا في المُتعة ﴿الْأَنْهَارُ﴾: أي فيها كلّ المشروبات، تحت الجالس في جنّته، مبالغةً في المتعة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: ماكثين فيها أبدًا ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا أيضًا ﴿نِعْمَ﴾: مدح ﴿أَجْرُ﴾: ثواب ﴿الْعَامِلِينَ﴾: يمدح الله ﷻ الجنّة التي هي أفضلُ أجرٍ للعاملين من أجلها، جاء هنا حذف المخصوص بالمدح، أي ونعم الجنّة أجر العاملين.

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٣٧)

أسباب النزول: في معرضِ حادثةِ موتِ سبعين من المسلمين في موقعة أُحد جاء ﴿قَدْ﴾: حرفٌ، دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد ﴿خَلَتْ﴾: مضت وانقضت ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾: قوانينُ ووقائعُ جرت على الأمم التي كان فيهم أنبياءٌ وأتباع، يُصيبهم البلاء؛ ويجعل لهم العاقبة ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: سيحوا بقصد الاعتبار، والتقدير، ادرسوا تاريخ الإنسان على الأرض، وتصرفات الأمم؛ لأخذ العبر ﴿فَانْظُرُوا﴾: لهذا السبب ادرسوا واستخلصوا ﴿كَيْفَ﴾: استفهام بغرض التعجب والاستنكار ﴿كَانَ عَاقِبَةُ﴾: نهايةُ وجزاءُ ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾: دراسةُ مصير المتشككين، المُنكرين لأركان الإيمان، لتقع في النفوس العبر، وليس مجرد المعرفة.

التكليف: النتيجة أنّ الدائرة تدورُ على الكافرين، وأنّ النصر للمؤمنين، وإنْ أصابهم الابتلاء من الجرحى والشهداء.

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٨)

﴿هَذَا﴾: اسم إشارة للمفرد المقصود هنا القرآن الكريم ﴿بَيَانٌ﴾: هذا الذي جاء ذكره من آياتٍ فيه بيانٌ وإظهارٌ لجميع النّاس، المؤمن، والكافر، والمنافق، وتوضيحُ الأمور، وتجلياتها، وهذا من وصف القرآن الكريم، هو موعظة ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿النَّاسِ﴾: لعموم الخلق، المؤمن، والكافر، والمنافق حتى يميزون الهدى من الضلال ويميزون بين الفلاح والخُسران ﴿وَهُدًى﴾: أيضًا ودليلٌ، يهدي القلوب المؤمنة للطريق السليم وحدهم، هو دستورٌ واضحٌ ثابتٌ ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾: زاجرٌ للمحارم، والجرائم، والآثام ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: تخصيصًا الذين يتمسكون بالدين، بوعيٍ وإدراكٍ وطمعٍ في كرم الله ﷻ، والمنتهين عن الإثم بوعيٍ خوفًا من عذابه ﷻ.

التكليف: البيان للجميع والهدى والموعظة للمتقين وحدهم.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩)

أسباب النزول: هذه الآية تسريةٌ لقلوب المؤمنين بعد مُصابهم في موقعة أُحد ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لَا﴾: ينهى الله ﷻ المؤمنين أنْ ﴿تَهِنُوا﴾: هنا أمرٌ من الله ﷻ واضحٌ، واجب النفاذ؛ ويعني لا تضعُفوا وتعجزوا، وتتركوا الاستعداد للقتال، والملل من الأخذ بأسباب القوة بسبب ما جرى ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾: هنا تعزيةٌ وتسليةٌ عمّا أصابهم من الحزن بعد معركة أُحد؛ فيُضعفُ عزيمتكم. ومن المعلوم أنّه الحزن يزيدُ إفراز هرمون (الأدرينالين)، وهو هرمون الغضب، ويسبب ارتفاع الضغط وزيادة ضربات القلب، وإذا استمر يسبب أذى لكلِّ عضوٍ في الجسم ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾: وهي صيغةٌ أقوى من العالي، أي كثيرةُ العلو، وكبيرةٌ، وتعني أنّ العاقبة والنصر والظفر والعلو لكم على عدوكم بعد هذه الواقعة ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: ومعناها أيّها المؤمنون؛ لأنّه ﷻ يعلم أنّهم مؤمنون، وفيهم رسوله ﷺ وهي موعظةٌ من بعدهم لكلِّ مؤمنٍ.

التكليف: إنّ مُصاب المسلم كائنٌ، والدواء عدم الضعف، والحدّ من الحزن إلى أقصى درجة، وتقوية الإيمان.

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٠)

﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿يَمْسَسْكُمْ﴾: يُصبكم في العمق، فالمسُّ أعمقُ من اللمس ﴿قَرْحٌ﴾: جراحٌ، وقتلٌ، وخسارةٌ كما كان في يوم أُحد ﴿فَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد

والتحقيق ﴿مَسَّ﴾:الإصابات العميقة ﴿الْقَوْمَ﴾: هم أعداء المسلمين ﴿قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾: أي أصابهم أيضًا قتلٌ، وجرحٌ مثلما أصابكم أيّها المسلمون ﴿وَتِلْكَ﴾: اسم إشارة للمفرد البعيد المؤنث ﴿الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾: التداول هو التبادل، فقد كانت هذه الجولةُ موقعةُ أُحد لأعدائكم، فسوف تأتي جولاتٌ يكون لكم النصرُ عليهم، أي تداولٌ وتبادلٌ؛ لحكمةٍ يعملها الله ﷻ، تقوية إيمان الأمّة، وتقوية عزيمتها؛ وإثراء تجربتها الإيمانية؛ والقتالية ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لِ﴾: حرفُ علّة وسبب ﴿يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿آمَنُوا﴾: ليُظهر ويبيّن اللهُ ﷻ درجة صبرهم، دليل الإيمان الصادق هنا، وهو الصبر على مواجهة الأعداء؛ لأنّ ثلث الجيش عاد في موقعةِ أُحد، وليكشف اللهُ ﷻ للنّاس، ويفضح المنافقين ﴿وَيَتَّخِذَ﴾: يصطفي ويختار ويُكرم ﴿مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾: كرم الشهادة، هم الذين يُقتلون في سبيل الله ﷻ، ويبذلون أرواحهم في مرضاته، لكونهم مشهودًا لهم بالجنّة ﴿وَاللَّهُ لَا﴾: حرف نفي ﴿يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾: الذين لا يطيعون الله ﷻ، ورسوله مهما كلّفهم.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٤١)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق من القرح، أيضًا ﴿لِ﴾: حرفٌ يفيد السبب والغاية ﴿يُمَحِّصَ اللَّهُ﴾: التمحيص هو تخليص الشيء من كلّ عيبٍ، فإذا قلت محّصتُ الذهب أي أزلت الخبث منه، والمقصود هنا يُطهّر ويُنقي ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: من ذنوبهم يُكفّر، ويرفع درجاتهم؛ بسبب ما أصابهم، ويخلّص صفوفهم من المنافقين ﴿وَيَمْحَقَ﴾: يُهلكَ ويستأصل، فمن سُنن الله ﷻ في ﴿الْكَافِرِينَ﴾: إذا انتصروا تجبّروا، وطغوا، وبطروا؛ فيكون ذلك سببًا في فنائهم.

التكليف: إنّ الشعوب التي عانت من الكفّار أو من أعوانهم؛ والتي تريد أنْ تتبدل أحوالهم، ويقضوا تمامًا على ظالميهم؛ عليهم أنْ يعودوا إلى الله ﷻ، وأنْ يصبروا على الابتلاء، قال ﷺ: أَخْلِصْ دِينَكَ يَكْفِكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ[1].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٢)

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾: هل ظننتم، وتأكدتم، أيها المؤمنون ﴿أَنْ﴾: حرفُ تصور] أو توهم ﴿تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾: أنْ تفوزوا بالجنّة بقليل من العمل؟ ﴿وَلَمَّا﴾: حرفٌ يُستعمل على وجهين، أحدُهما لنفي الماضي وتقريب الفعل كما في هذه الآية، والثاني عَلَمًا للظرف نحو ﴿وَلَمَا أَنْ جَاءَ الْبَشِير﴾

---

[1] المستدرك على الصحيحين /٤/٣٤١ (٧٨٤٤) وقال صححه على شرط البخاري ومسلم، فقال الذهبي معقبًا عليه: لا، وقال العراقي في المغني عن حمل الأسفار /٤/٣٦٥: إسناده منقطع.

[يوسف–٩٦] أي في وقت مجيئه ﴿يَعْلَمِ اللَّهُ﴾: ولم يتحقق أنْ تُبتلوا، وتُختبروا بالجهاد، وبالقتال، والجرحى، والشدائد، وتُظهروا صبركم، وتوبتكم ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية المكانيّة، هم الذين كابدوا بسبب الإيمان، وكابدوا في مواجهة الأعداء، وكابدوا كيد الشيطان، وتخاذل المنافقين، وجاهدوا أنفسهم وأهواءهم ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾: والصبر ليس عند النصر، ولكن الصبر عند الابتلاءِ، والهزيمةِ، والقتلِ، والجروحِ، وخسارةِ الأموال، والممتلكات، فطريق الجنّة له ثمن: الإيمان، والجهاد، والابتلاء، والصبر.

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (١٤٣)

﴿وَلَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ﴾: ترغبون وتتأملون ﴿الْمَوْتَ﴾: لقاء العدو، وتتشوقون لمقاومته، ومناحرته، ونيل الشهادة في سبيل الله ﷻ، قيل في معركة بدر ﴿مِنْ قَبْلِ﴾: فيما مضى ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿تَلْقَوْهُ﴾: أي قبل مواجهة الأعداء، حيث سيكون منكم شهداءُ وجرحى ﴿فَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿رَأَيْتُمُوهُ﴾: لقد عاينتم الموت، شاهدتموه وليس بالإحساس، واقعًا أمامكم؛ فقاتلوا، واصبروا، واحتسبوا ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾: لقد عاينتم و رأيتم الموت في حدِّ السيوف، في إخوانكم في معركة أُحد.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يُكَلِّمُ النَّاسَ فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ، فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمَّا بَعْدُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران–١٤٤] إِلَى قَوْلِهِ ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران–١٤٤]، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى تَلاَهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ، فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا يَتْلُوهَا فَأَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ المُسَيِّبِ، أَنَّ عُمَرَ قَالَ: «وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلاَهَا فَعَقِرْتُ، حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلاَيَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلاَهَا، عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ مَاتَ»[1].

---

[1] صحيح البخاري (٦/ ١٤).

﴿وَمَا﴾: حرفُ نفي ﴿مُحَمَّدٌ﴾: أنّ محمدًا ﷺ من البشر، في جسده ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناءٍ أنّه ﴿رَسُولٌ قَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق، لقد قُصِرَ موصوف على صفة الرسول ﴿خَلَتْ﴾: مضت وانقضت ﴿مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾: إنّ تاريخ الأنبياء والرسل يقولُ أنّهم يموتون، أو يُقتلون، أو يُعذبون، أو يُسجنون، ولما انهزم المسلمون في موقعةِ أُحد نادى الشيطانُ إنّ محمدًا قد قُتل، وقال ابن قميئة: قتلت محمدًا، وكان قد ضربه؛ فشجّ رأسه ﷺ، أصاب هذا الخبر قلوب المسلمين؛ فأصابهم ضعفٌ، وتخلّفٌ عن القتال، نزلت الآية لتُذكّر المؤمنين بسنن الله ﷻ في الأنبياء من قبل محمد ﷺ، وكان رجلٌ من المهاجرين مرّ على رجلٍ من الأنصار وهو ينزف دمًا، فقال يا فلان أشعرت أنّ محمدًا قد قُتل؛ فقال الأنصاري إنْ كان محمدٌ قد قُتل فقد بلغ، أي انتهى أجله، فقاتلوا عن دينكم؛ فنزلت هذه الكلمات ﴿أ﴾: حرفُ الألف للاستفهام يفيد الاستنكار ﴿فَإِنْ﴾: حرفُ شرط يفيد الاستنكار والاستفهام ﴿مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾: إذا مات، أو قتل، فقد صاح الشيطانُ: قُتِلَ محمد ﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾: بأسلوبٍ توبيخي، قيل هل رجعتم عن دينكم؟ وتقهقرتم عن نصرةِ نبيكم؟ فقد قال أحدُهم لو كان رسولًا ما قُتل ﴿وَمَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾: أدبر راجعًا عن القتال، أو رجع عن دينه، عن الإسلام ﴿فَلَنْ﴾: حرف نفي ﴿يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾: ومن يرتد عن دينه لن يضُرّ دين الله شيئًا ﴿و﴾: عطفًا على ما سبق ﴿س﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يَجْزِي﴾: يُكافئُ ﴿اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾: الذين أطاعوه، وقاتلوا عن دينه، واتبعوا رسوله، حيًّا أو بعد موته ﷺ.

التكليف: إنّ الدعوة الإسلامية لا تنتهي بموت رسولها، ولا قائدها، ولا مؤسسها.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٥)

﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿كَانَ﴾: لا يصح ولا يصلح ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿نَفْسٍ﴾: هي ذاتِ وجوهرِ الإنسان ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيدِ الفعل ﴿تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: لا يموت أحدٌ إلّا بقضاء الله ﷻ حتى يستوفي عمره ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾: مؤقتًا بوقتٍ، أجلٍ معلومٍ ومحددٍ، إنّ عمر كلّ إنسانٍ مُقدّر ومكتوب في كتاب، لا يزيد، ولا ينقص ﴿وَمَنْ﴾: إنّ الذي من بني أدم ﴿يُرِدْ﴾: يرغب وينشد ﴿ثَوَابَ﴾: أجر، وغنيمة، ومكسب ﴿الدُّنْيَا﴾: من كان همُّهُ متاع الحياةِ في الأرض، كالغنيمة في الحرب ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾: نعطه ونهبه المال، والجاه، والنساء، وغيرها ﴿وَمَنْ﴾: والذي ﴿يُرِدْ ثَوَابَ﴾: أجرَ ﴿الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾: نُؤته ثوابها بدخول الجنّةِ، زاد الله ﷻ له في حسناته،

أضعافًا مضاعفةً، وكان سعيهُ مشكورًا ﴿وَ﴾: عطفًا على ما جاء فإنّ الجائزة هي في الحاضر والمستقبل ﴿سَ﴾: حرفٌ يفيد التحقق في المستقبل ﴿نَجْزِي﴾: حرف تأكيد الفعل، نكافئ ﴿الشَّاكِرِينَ﴾: جاءت بصيغة الجمع؛ لزيادة الفضل، سيُعطَى من فضل الله ﷻ ورحمته، في الدنيا، وفي الآخرة بقدر شكرهم.

التكليف: هذه الآية تشجيعٌ للخائفين، وترغيبٌ لهم في القتال؛ إنّ الهجوم أو الهروب لا يُنقص من العمر، ولا يزيد فيه.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٦)

السبب: يُعاتب اللهُ ﷻ بهذه الآية، وما قبلها، من انهزم يوم أحد، وترك القتال لمّا سمع بأنّ محمدًا قُتل، فوّبخهم على فرارهم، وبسبب تركهم القتال ﴿وَكَأَيِّنْ﴾: اسمٌ مركبٌ يُفيدُ تكثير العدد، بمعني كم ﴿مِنْ نَبِيٍّ﴾: كثيرٌ من الأنبياء قُتل، وقُتل معه رجالٌ من أولياء الله ﷻ ﴿قَاتَلَ مَعَهُ﴾: مع النبيّ ﴿رِبِّيُّونَ﴾: قاتل مع الأنبياء، كثيرٌ من العلماء والفقهاء، ومعهم رجالٌ ربّانيون، آمنوا بالله ﷻ ورسله، ووهبوا أنفسهم في سبيل الدين ﴿كَثِيرٌ﴾: أعدادٌ كثيرةٌ من الأنبياء، والمؤمنين، وقيل هم ألوف من العلماء الذين يعبدون ربّهم ﴿فَمَا﴾: حرفٌ ينفي العمل أجمعَه من الوهن ﴿وَهَنُوا﴾: ما ضعفت عزيمتُهم بعد نبيّهم، وما جبنوا ﴿لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن الجهاد بما نالهم من ألمِ الجراحِ وقتلِ الأصحاب ﴿وَمَا﴾: حرفُ نفي ﴿ضَعُفُوا﴾: خافوا، أو وهنوا أمام عدوهم ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾: لم تفتر عزيمتُهم، ولم تسكن أجسادهم لما أصابهم من قتلٍ وجرحٍ، بل استمروا في الدفاع عن دينهم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾: على الشدائد، وعلى المصائب، والمكروه.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٤٧)

﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿كَانَ﴾: في الماضي ﴿قَوْلَهُمْ﴾: لم يكن قولُهم، بل كان دأبُهم، وما جرى على لسانهم بكثرة ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿أَنْ﴾: حرف توكيد القول ﴿قَالُوا رَبَّنَا﴾: يا مالك أمرنا كلّه؛ تأكيدُ ربوبية الله ﷻ لهم، وهذه تؤكِّد طبيعة هؤلاء الربّانيين، الذين يدعون الله ﷻ بالآتي ﴿اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: سامحنا فيما أذنبنا ﴿وَإِسْرَافَنَا﴾: أيضًا اغفر لنا مجاوزتنا الحد، ومبالغتنا، وارتكاب الكبائر، وتجاوز الحدود؛ من باب محاسبة النفس ﴿فِي أَمْرِنَا﴾: في أمور دنيانا، التي تصرفنا عن الجهاد ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾: في القتال والجهاد، إنّ ثبات الأقدام، وعدم الفرار، هي

من مظاهر الشجاعة، والإيمان، وهي من مقوماتِ النصر ﴿وَ﴾: أيضًا وعطفاً على ما سبق ﴿انْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾: كلّما كان غُفران الذنب، والتجاوز عن الخطايا، وثبات الأقدام؛ يكون النصر.

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤٨)

﴿فَـ﴾: حرف عطف يفيد هنا تنفيذ الأمر دونَ تأخير ﴿آتَاهُمُ﴾: أعطاهم ومنحهم ﴿اللَّهُ﴾: بسرعة، دون تأخير ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾: جائزة النصر، والفوز، والعاقبةِ الحسنةِ ﴿وَ﴾: أيضًا أعطاهم ﴿حُسْنَ﴾: فضل ﴿ثَوَابِ﴾: الجزاء الحسن ﴿الْآخِرَةِ﴾: الثواب الجزيل، الحسن يوم القيامة؛ فجمع لهم ﷻ بين خير الدنيا، وخير الآخرة ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: وكانت الجائزةُ حبَّ الله ﷻ للمخلوق الذي يعبد ربّه بصدقٍ؛ وهذا فضلٌ كبير.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (١٤٩)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿آمَنُوا﴾: شهادةٌ من الله ﷻ لهم بالإيمان، وتحذيرٌ منه ﷻ لهم ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿تُطِيعُوا﴾: إذا أطعتم، وواليتم، واستعنتم بجماعةِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: من اليهود، والنصارى، وأمثالهم من الشيوعيين، والمُلحدين، وأهل الضلال، تكون النتيجة ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾: يُرجعوكم بعد إيمانكم كفارًا، كما كنتم قبل الإيمان، كأنّكم انقلبتم ﴿عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾: على مؤخرةٍ منكم، وتراجعٍ، بمعنى الخروج من الإسلام إلى الكفر ﴿فَـ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب وتنفيذ الأمر دونَ تأخير ﴿تَنْقَلِبُوا﴾: فترجعوا، والانقلاب هو الارتداد، عكس الاعتدال ﴿خَاسِرِينَ﴾: خُسران الدنيا، بعدما حققتم فيها من خيرٍ، وتحقق خُسران الكفّار؛ فيضيعُ عمل الدنيا، وتفقدوا ثواب الآخرة، وترجعوا خاسرين، فما العمل؟ وقد طلبتم النصر منهم؟ تجيبُ الآيةُ التاليةُ:

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ (١٥٠)

﴿بَلِ﴾: حرفٌ للإضراب ينفي ما قبله؛ ويؤكد ما بعده ﴿اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾: هو ناصرُكم، ومؤيدكم، ورازقُكم ﴿وَهُوَ﴾: وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر، وهنا تعني ﷻ ﴿خَيْرُ﴾: صاحبُ الخير المطلق ﴿النَّاصِرِينَ﴾: خيرُ من ينصرُكم، وخيرُ من يُعينكم، ولستم في حاجةٍ لغيره ﷻ.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٥١)

يذكر الله ﷻ بعض الوسائل التي ينصر بها أولياءه، ومنها: ﴿سَ﴾: حرفُ تأكيد الفعل في المستقبل، سوف ﴿نُلْقِي﴾: نملأ، وجاءت بصيغة الجمع، ولم يقل ﷻ سألقي؛ ليبيّن ﷻ عظم الخوف الذي سيلقيه ﴿فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: في القلوب التي هي مراكز الوعي والإدراك ﴿الرُّعْبَ﴾: الخوف، والفزع الشديد، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ»[1]، ﴿بِمَا﴾: اسم موصول، تعني بالذي، بسبب أنّ بعض المسلمين قالوا من أين أصابنا هذا؟ وقد وعدنا الله بالنصر ﴿أَشْرَكُوا بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ﴾: شركهم بالله ﷻ معه معبودات أخرى ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿لَمْ﴾: حرف ينفي الفعل المضارع ﴿يُنَزِّلْ بِهِ﴾: حرف باء المصاحبة ﴿سُلْطَانًا﴾: لا حجّة ولا بيّنة، ولا دليل أنّه مُنزّل من عند الله ﷻ ﴿وَ﴾: حرفٌ يفيد هنا حال وكون ﴿مَأْوَاهُمُ﴾: مثواهم، ومقامهم، ومقرّهم ﴿النَّارُ﴾: جهنّم يوم القيامة ﴿وَبِئْسَ﴾: فعلٌ جامدٌ للذمّ من سوءٍ، وشرٍ، وهو ذكر المساوئ، وهو عكس المدح والتحقير ﴿مَثْوَى﴾: مصير ومآل ﴿الظَّالِمِينَ﴾: الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وأضلّوا غيرهم.

التكليف: إنّ الخوف هو من أعظمِ أدواتِ الهزيمةِ لأيّ جيش، وهو بيد الله ﷻ، يلقيه في قلب أعدائه فيُهزمون؟

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥٢)

قال البَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرَّجَّالَةِ يَوْمَ أُحُدٍ، وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلًا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلاَ تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ، هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا القَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلاَ تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ»، فَهَزَمُوهُمْ، قَالَ: فَأَنَا وَاللَّهِ رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ، قَدْ بَدَتْ خَلاَخِلُهُنَّ وَأَسْوُقُهُنَّ، رَافِعَاتٍ ثِيَابَهُنَّ، فَقَالَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ: الغَنِيمَةَ أَيْ قَوْمِ الغَنِيمَةَ، ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ:

---

[1] صحيح مسلم /١/٣٧٠(٥٢١).

أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ، فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الغَنِيمَةِ، فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ، فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ، فَذَاكَ إِذْ يَدْعُوهُمُ الرَّسُولُ فِي أُخْرَاهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ أَصَابُوا مِنَ المُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ وَمِائَةً، سَبْعِينَ أَسِيرًا وَسَبْعِينَ قَتِيلًا، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَفِي القَوْمِ مُحَمَّدٌ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ الخَطَّابِ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَمَّا هَؤُلاَءِ، فَقَدْ قُتِلُوا، فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ وَاللَّهِ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لَأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ، قَالَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالحَرْبُ سِجَالٌ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي القَوْمِ مُثْلَةً، لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي، ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ: أُعْلُ هُبَلْ، أُعْلُ هُبَلْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ، قَالَ: إِنَّ لَنَا العُزَّى وَلاَ عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟»، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا اللَّهُ مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ»[1].

﴿وَلَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿صَدَقَكُمُ اللَّهُ﴾: حققّ لكم اللهُ ﷻ وأنجز ﴿وَعْدَهُ﴾: ما وعدكم به من النصر ﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى من الزمن؛ وجاءت هنا للتعليل ﴿تَحُسُّونَهُمْ﴾: تقتلونهم قتلًا كثيرًا؛ بعون الله ﷻ ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة والمصاحبة ﴿إِذْنِهِ﴾: الضمير يعود على الله ﷻ، أي بتسليطكم عليهم؛ ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي إلّا بشرط أنْ ﴿إِذَا﴾: حرفُ ظرفٍ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿فَشِلْتُمْ﴾: أصابكم الخوف ﴿وَتَنَازَعْتُمْ﴾: أيضًا اختلفتم، وخالفتم بعضكم بعضًا، وحاولتم نزع الأمر من بعضكم ﴿فِي الْأَمْرِ﴾: خالفتم أمر الرسول ﷺ عندما ترك الرماة مواقعهم ﴿وَ﴾: أيضًا من معصيتكم ﴿عَصَيْتُمْ﴾: ذهبتم إلى الغنائم، وتركتم المواقع، خلافًا لأوامر الرسول ﷺ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ مَا﴾: الذي ﴿أَرَاكُمْ﴾: جعلكم تشاهدون ﴿مَا﴾: الذي ﴿تُحِبُّونَ﴾: عَنِ البَرَاءِ رضي الله عنه، قَالَ: لَقِينَا المُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشًا مِنَ الرُّمَاةِ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ، وَقَالَ: «لاَ تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلاَ تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلاَ تُعِينُونَا» فَلَمَّا لَقِينَا هَرَبُوا حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ فِي الجَبَلِ، رَفَعْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ، قَدْ بَدَتْ خَلاَخِلُهُنَّ، فَأَخَذُوا يَقُولُونَ: الغَنِيمَةَ.. الغَنِيمَةَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: عَهِدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لاَ تَبْرَحُوا، فَأَبَوْا، فَلَمَّا أَبَوْا

---

[1] صحيح البخاري (٤/ ٦٥).

صُرِفَ وُجُوهُهُمْ، فَأُصِيبَ سَبْعُونَ قَتِيلًا[1]؛ والسبب أنّ ﴿مِنْكُمْ﴾: بعضِكم أو جزءٍ ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس البشر ﴿يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾: هؤلاء الذين طمعوا في الغنيمة ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾: الذين لم يخالفوا الرسول ﷺ والذين استشهدوا في المعركة؛ لأنّهم أرادوا جزاء الآخرة بالطاعة والشهادة ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد السبب والتتابع الزمني مع التراخي ﴿صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾: فقد ألقى رجالٌ من الأنصار والمهاجرين سلاحهم، جاءهم عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبد الله فسألوا، فقيل لهم مات رسول الله؛ فقال عمر قوموا موتوا على ما مات عليه، فقاموا؛ وقاتلوا؛ وقُتل منهم، وقتلوا من الأعداء ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يَبْتَلِيَكُمْ﴾: ليختبر درجة صبركم، ولقد كانت المعركة اختبارًا لطاعة المسلمين لرسول الله ﷺ ﴿وَلَقَد﴾: أيضاً تحقق في الماضي ﴿عَفَا﴾: سامح ﴿عَنْكُمْ﴾: هذه بشارةٌ من الله ﷻ لأهلِ أُحدٍ ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا اعلموا أنّ ﴿اللَّهُ ذُو﴾: صاحب الوصف بالأسماء والصفات صاحب ﴿فَضْلٍ﴾: كرمٍ ومنّةٍ ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: المُصدقين بربوبيته ﷻ.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٥٣)

﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى من الزمن بمعنى حين ﴿تُصْعِدُونَ﴾: تذهبون في الوادي تهربون، وتبتعدون في الجبال؛ خوفًا من الأعداء ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿تَلْوُونَ﴾: لا يلتفت بعضُكم إلى بعض هربًا، لا تعرّجون، ولا تُنصرون، ولا تنظرون خلفكم ﴿عَلَى أَحَدٍ﴾: جاء اللفظ القرآني أحد في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه، جاء هنا بمعنى النبي محمد ﷺ، وجاء بقصد اسم الله ﷻ في قوله ﷻ ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا * أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ [البلد–٥، ٦، ٧] وجاء بمعنى بلال بن رباح في قوله ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ [الليل–١٩]؛ لا تنظرون لأحدٍ من الدهشة، والخوف، والرعب ﴿وَالرَّسُولُ﴾: محمد ﷺ ﴿يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾: أي من خلفكم، كَأَنَّهُ يَقُول: إِلَيّ عباد الله إِلَيّ عباد الله، أَنا رَسُول الله ﷺ من يُكرمهُ فَلهُ الْجنَّة[2]. ﴿فَ﴾: حرف يفيد السبب ﴿أَثَابَكُمْ﴾: عاقبكم ﴿غَمًّا﴾: حزنًا، وألمًا، وضيقًا ﴿بِ﴾: حرف الباء هنا للمصاحبة؛ بمعنى فأثابكم غمًّا مصحوبًا ﴿غَمٍّ﴾: كان جزاؤكم من الله ﷻ غمًّا مثله بما أُشيع عن قتل رسول الله ﷺ ﴿لِ﴾: حرف علةٍ وسببٍ ﴿كَيْلَا﴾: من أجل ألّا ﴿تَحْزَنُوا عَلَى مَا﴾: الذي ﴿فَاتَكُمْ﴾: ما لم تنالوا من خيرِ الجهاد، والثبات ﴿وَلَا﴾:

---

[1] صحيح البخاري /٥/٩٤(٤٠٤٣).

[2] انظر عمدة القاري شرح صحيح البخاري /١٧/١٥٣ بتصرف، واللفظ ورد مرفوعًا في كتب السيرة عن النبي ﷺ بإسناد ضعيف جدًا من طريق أسباط عن السدي فذكره.

حرف نفي ﴿مَا﴾: الذي ﴿أَصَابَكُمْ﴾: ولا تحزنوا على موت سبعين شهيدًا، وجرح الرسول ﷺ وكسر رباعيته ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ﴾: يعلم سرّكم وجهركم ﴿بِمَا﴾: اسم موصول، بالذي ﴿تَعْمَلُونَ﴾: عملتم في المعركة من طاعةٍ وعصيانٍ.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٥٤)

﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع الزمني مع التراخي؛ أي ليس فورًا ﴿أَنْزَلَ﴾: اللهُ ﷻ ﴿عَلَيْكُمْ﴾: على طائفة من المؤمنين، الصادقين، الواثقين بوعد الله ﷻ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع ﴿بَعْدِ الْغَمِّ﴾: الحزن ﴿أَمَنَةً﴾: سكينةً وعدمَ خوفٍ، في وجود الخوف، وهم يحملون أسلحتهم ﴿نُعَاسًا﴾: حالةَ هدوءٍ وسكونٍ، تدلُّ على الشعور بالأمن؛ علمًا أنّ النُعاس في القتال من الله ﷻ، والنُعاس في الصلاة من الشيطان، كانوا ينامون؛ ويسقط السيف من أيديهم مرّات؛ ويأخذونه ﴿يَغْشَى﴾: يلبس، ويعمّ، ويُغطي ﴿طَائِفَةً﴾: جماعةً من أصلٍ واحدٍ ﴿مِنْكُمْ﴾: هم المؤمنون الذين خرجوا للقتال طلبًا للأجر، أصابهم النُعاسُ قليلًا، فضلًا من اللهِ ﷻ، هم أهلُ التوكل والصدق واليقين بالنصر ﴿وَطَائِفَةٌ﴾: أيضًا جماعةٌ أُخرى هم المنافقون منهم مُعتب بن قشير، وأصحابه من المنافقين، كانوا خرجوا طمعًا في الغنيمة ﴿قَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾: جعلوا يتأسفون، فقد أخذهم القلق بسبب حضورهم المعركة، هؤلاء الذين ليس لهم همّ إلّا أنفسهم، يُخبر اللهُ ﷻ عمّا في نفوسهم فهم ﴿يَظُنُّونَ﴾: يُوقنون ﴿بِاللَّهِ غَيْرَ﴾: حرفُ استثناءٍ بمعنى إلّا ﴿الْحَقِّ﴾: فقدوا اليقين بنصر الله ﷻ، كان كلُّ همّهم نجاة أنفسهم، هم أهل شكٍ وريبٍ في نصر الله ﷻ، ولذلك لم يناموا ولم يطمئنوا ﴿ظَنَّ﴾: اعتقاد ﴿الْجَاهِلِيَّةِ﴾: كظنّ الذين هم في الجاهلية، من الكفّار والمنافقين، ظنّ الذين اعتقدوا أنّ هذا النصر المُؤقت للكفّار هو الفيصل، وأنّ المسلمين هلكوا، وهذا حالُ أهل الظنون في كلّ زمانٍ، وفي كلّ مكانٍ ﴿يَقُولُونَ هَلْ﴾: حرفُ استفهامٍ يفيد التشكيك ﴿لَنَا﴾: هل نملك ﴿مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾: لو كان القرار بالتأكيد بأيدينا، جاء اللفظ القرآني الأمر بمعنى النصر، أي ماذا بأيدنا، حتى ننتصر ﴿قُلْ﴾: يا محمد ﷺ ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿الْأَمْرَ﴾: القضية كلّها والمُشكل ﴿كُلَّهُ﴾: جميعهُ ﴿لِلَّهِ﴾: إنّ الهزيمة والنصر من عند الله ﷻ، وليست

من عند أنفسكم ﴿يُخْفُونَ﴾: هو النفاق، لا يُظهرون ما يكتمون ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ مَا﴾: في ذاتهم ووجوههم الذي ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُبْدُونَ﴾: يُظهرون ﴿لَكَ﴾: هم المنافقون، يُبطنون ما لا يُظهرون لمحمد ﷺ ﴿يَقُولُونَ لَوْ﴾: يسألون سؤال المسترشدين ﴿كَانَ لَنَا﴾: تخصيصًا ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾: لو أخذتم رأينا في القتال ﴿شَيْءٌ مَا﴾: حرف نفي ﴿قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾: لو كان القرارُ قرارُنا ما جئنا هنا، ولو قاتلنا ما نُقتل هنا، بل نموتُ على فراشنا، وهذا موقف المنافقين ﴿قُلْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ بالقول ﴿لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾: أخبرهم يا محمد ﷺ: لو كنتم في بيوتكم آمنين، مطمئنين، لا تقاتلون ﴿لَ﴾: حرف تخصيص ﴿بَرَزَ﴾: وهو الظهور من الصف ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿كُتِبَ﴾: قدّر الله ﷻ ﴿عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾: لجاءهم الموت وهم نائمون، فأجل الإنسان مكتوب؛ لا يُؤخّر ولا يُعجّل، هذا قدرهم ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا وبغرض الاستئناف ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يَبْتَلِيَ﴾: يختبر ويمتحن عمليًا وهو أعلم ﴿اللَّهُ مَا﴾: الذي ﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾: ليختبر الله ﷻ بالابتلاء ما في الصدور وهي القلوب؛ مراكز الوعي والإدراك، من إيمان، أو كفر، أو نفاق ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾: **أيضًا** ليختبر ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾: اعتقادكم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِ﴾: حرف باء المصاحبة ﴿ذَاتِ﴾: طبيعة ما في الصدور إيمانًا أو كفرًا ﴿الصُّدُورِ﴾: حتى وإنْ أخفيتم ما في صدوركم، وهي مراكز الوعي والإدراك فإنّ الله ﷻ أعلم بكم؛ فيميز الخبيث من الطيب، ويُظهر حقيقة المؤمن من المنافق قولًا عملًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٥٥)

﴿إِنَّ﴾: حرفُ تأكيد ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿تَوَلَّوْا﴾: الذين فرّوا من القتال، والذين خالفوا أوامر الرسول ﷺ وانهزموا ﴿مِنْكُمْ﴾: من المسلمين ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾: يوم المواجهة المسلحة، بين المسلمين والكفّار، في موقعه أُحد ﴿إِنَّمَا﴾: حرف يفيد التحديد والتخصيص ﴿اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾: حملهم الشيطان، وحثّهم على الزلل والخطيئة ﴿بِبَعْضِ﴾: شيء أو جزء ﴿مَا﴾: الذي ﴿كَسَبُوا﴾: قال بعضُ السلف: إنّ من ثوابِ الحسنةِ الحسنةُ بعدها، وإنَّ من جزاء السيئة سيئةَ بعدها، والكسب ما يجترح الإنسان مما فيه اجتلاب نفع، وتحصيل حظ ﴿وَلَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿عَفَا﴾: ما يسهل قصده وتناوله، ويقال لترك العقوبة؛ أي سامح وصفح ﴿اللَّهُ عَنْهُمْ﴾: غفر لهم، وصفح عنهم ﴿إِنَّ﴾: بالتأكيد ﴿اللَّهَ غَفُورٌ﴾: يمحو الذنب ﴿حَلِيمٌ﴾: اسمٌ من أسماء الله ﷻ، جاء في المناسبة، فهو يحلم، ولا يُعجّل بالعقوبة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٥٦)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿آمَنُوا لَا﴾: حرف ينهى عن أنْ ﴿تَكُونُوا كَ﴾: حرف بمعنى أيضًا ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يأمرُ اللهُ ﷻ المؤمنين ألّا يتشابهوا في القول مع الكفّار من المنافقين ﴿وَ﴾: حرف عطف أيضًا لا يكونوا مثل الذين ﴿قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾: والأخُ هو المشاركُ لآخرَ في الولادة ولكنّ الشراكةَ هنا في الاعتقاد، في الكفر، أو في النسب، أو في المحبّةِ ﴿إِذَا﴾: حرفُ ظرفٍ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾: أي إذا كانوا في الأسفار؛ فماتوا ﴿أَوْ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد التقسيم والتسوية، هنا يُفيد الغزو والموت ﴿كَانُوا غُزًّى﴾: أي كانوا في الغزوات والحروب، في سبيل الله ﷻ وماتوا ﴿لَوْ﴾: حرفٌ يُفيد الاستحالة ﴿كَانُوا عِنْدَنَا﴾: لو بقوا في مُدنهم، وقراهم، وبلدانهم ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾: أي ما ماتوا في السفر، وما قُتلوا في القتال في سبيل الله ﷻ ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾: إشارة إلى كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر عنها اللهُ ﷻ، إشارة للبعيد، هذا الاعتقاد ﴿حَسْرَةً﴾: ليكون ندامةً، وحزنًا على موتاهم ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾: مراكز الوعي والإدراك ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا اعلموا أنّ ﴿اللَّهُ يُحْيِي﴾: بيده الخلقُ والحياة ﴿وَيُمِيتُ﴾: وإليه يُرجع الأمر كلّه، بما في ذلك موت المخلوقات، فلا يزيد أو ينقص عمرُ أحدٍ من شيءٍ إلّا بقضاء الله وقدره ﴿وَاللَّهُ بِمَا﴾: اسم موصول، بالذي ﴿تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: يعلم عمل المخلوقات علم المشاهد تمام العلم، وعلمه نافذ في الخلق.

﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١٥٧)

﴿و﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لَئِنْ﴾: حرف اللّام موطئة للقسم فهي تشير إلى أنّ قَسَمًا مُقدرًا سبقها وهنا الآية تفيد الشرط والسبب ﴿قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: السبب الأول في القتل هنا في سبيل الله ﷻ ﴿أَوْ﴾: حرف عطف يفيد التقسيم والتسوية بين ما بعدها بما قبلها ﴿مُتُّمْ﴾: والسبب الثاني الموت دونَ قتال ﴿لَ﴾: حرف تخصيص ﴿مَغْفِرَةٌ﴾: عفو وسماح ﴿مِنَ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية ﴿اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا﴾: من الذي ﴿يَجْمَعُونَ﴾: يُكدّسون، إنّ المغفرة والرحمة من الله ﷻ ومغفرته ورضوانه، خيرٌ من المال، وكثرة الأولاد، وكثرة الحُطام الفاني.

﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١٥٨)

﴿وَلَئِنْ﴾: حرف يفيد الشرط والسبب ﴿مُتُّمْ﴾: دونَ قتال ﴿أَوْ﴾: حرف عطف يفيد هنا التسوية بين متعاطفين ﴿قُتِلْتُمْ﴾: في الحالتين يتحقق الموت دونَ قتال، أو الموت في القتال؛ فالمصيرُ واحدٌ ﴿لَ﴾: حرف علّة وسبب ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: عائد إلى الله ﷻ ﴿تُحْشَرُونَ﴾: يوم الحشر، يوم الحساب، يوم القيامة، ويُجزى كلُّ مخلوقٍ بما عمل، إنْ عمل خيرًا فجزاؤه خير، وإنْ عمل شرًا فجزاؤه من جنس العمل، مهما تعددت وسائل الموت.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (١٥٩)

﴿فَبِمَا﴾: اسم موصول، بالذي، بسبب ﴿رَحْمَةٍ﴾: عطف ﴿مِنَ﴾: حرف جرٍ يفيد بداية الغاية الزمانيّة والمكانيّة؛ وهي ﴿اللَّهِ﴾: المقصود خُلق وصفات الرسول ﷺ، هكذا خلق الله ﷻ محمدًا ﷺ بهذه الصفات، وهكذا بعثه ﴿لِنْتَ﴾: كنت هيّنًا ليّنًا لم تقسُ عليهم ﴿لَهُمْ﴾: من رحمة الله ﷻ أنْ جعل نبيّه غير جبّار، سهلًا على المؤمنين والتابعين ﴿وَلَوْ﴾: حرف يفيد هنا النفي ﴿كُنْتَ فَظًّا﴾: ينفي الله ﷻ عن رسوله ﷺ الخُلق الكريه، وصفة الغلظة، والجفاء، والتجبر في القول والفعل ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾: قاسي القلب على المسلمين، سيء المعاملة ﴿لَ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿انْفَضُّوا﴾: تفرقوا ﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾: عنك، وتركوك، وابتعدوا. عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ؟ قَالَ: أَجَلْ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**﴾ [الأحزاب-٤٥]، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ، وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ[1]، ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا الأمر ﴿اعْفُ عَنْهُمْ﴾: سامحهم على أخطائهم وزلّاتهم ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: اطلب لهم المغفرةَ من اللهِ ﷻ ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾: يعود الضمير على عموم المسلمين، وعلى أبي بكر وعمر ﴿فِي الْأَمْرِ﴾: كان الرسول ﷺ يشاور أصحابه لتحقيق الغايات التالية: يُطيّب خاطرهم، ويُنشطهم فيما يبغون؛ ولأنّهم شركاء في القرار، وشهدت حياة الرسول ﷺ أنّه شاور أصحابه في الحرب والسلم، مثل دفع ثمار المدينة ﴿فَإِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿عَزَمْتَ﴾: عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي

---

[1] صحيح البخاري (٣/ ٦٦).

طَالِب قَالَ: سُئِلَ رَسُول اللَّه ﷺ عَنْ الْعَزْم؟ فَقَالَ: مُشَاوَرَة أَهْل الرَّأْي ثُمَّ اِتِّبَاعهمْ[1]، وقال ﷺ: المُستَشَارُ مؤتَمَنٌ[2] ﴿فَتَوَكَّلْ﴾: اعتمد في كلذ أمرك ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: بعد التشاور والعزم؛ ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ فتوكل: تشمل هذه الأوامر: أولًا: التشاور، وثانيًا: اتخاذ القرار، وثالثًا: التوكل على الله ﷻ.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٦٠)

﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾: إنْ يؤيدكم، ويعينكم الله ﷻ ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي بمعنى أنّه إذا خصّكم الله ﷻ بالنصر لا ﴿غَالِبَ﴾: لن يغلبكم ولن يقهركم ولا هازم ﴿لَكُمْ﴾: لن يهزمكم أحدٌ، ولو اجتمعت عليكم الدنيا ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿إِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾: يمنع عنكم النصر، أو يكتب عليكم الهزيمة، ويَكِلُكُم لأنفسكم ﴿فَمَنْ﴾: حرف استفهام عن العاقل ﴿ذَا﴾: اسم إشارةٍ للمفردِ القريب ﴿الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾: فلا أحد ينصركم من بعد قرار الله ﷻ وإرادته بعدم نصركم ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَـ﴾: حرف يفيد السبب وبدون تردد ﴿لْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: التوكلُ هو الاعتماد الكامل على الله ﷻ، بعد التشاور والأخذ بالأسباب، واتخاذ القرار؛ هذه أُسس النجاح.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٦١)

سبب النزول: قال ابنُ عبَّاسٍ: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ في قطيفةٍ حمراءَ فُقِدَتْ يومَ بدرٍ، فقال بعضُ الناسِ: لعلَّ رسولَ الله ﷺ أخذها، فأنزلَ اللهُ عز وجلَّ الآية ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ إلى آخر الآية[3].

﴿وَمَا كَانَ﴾: لا يجب، ولا يصح ﴿لِنَبِيٍّ أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يَغُلَّ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد: ما ينبغي لنبيّ أنْ يخون، وقيل يأخذ شيئًا من الغنيمة غير ما قرره الله ﷻ له، ومشاورة أصحابه ﴿وَمَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَغْلُلْ﴾: يأخذ شيئًا من الغنيمة، يأتي تحريم الغلول ﴿يَأْتِ﴾: يحضر معه ﴿بِمَا﴾: اسم موصول، بمعنى بالذي ﴿غَلَّ﴾: أخذ ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: هذا ذنب يختص فاعله بعقوبة على رؤوس الأشهاد، موقف صعب؛ يُكشف بعض النّاس أمام

---

[1] الحديث أورده ابن كثير في تفسيره وتبعه ابن مردوية عن علي مرفوعًا قال الألباني في الضعيفة: /١٠/ ٤٤٦ سكتا عن إسناده؛ وما أراه يصح، وليتهما ساقاه لننظر فيه، ونكشف عن علته!

[2] سنن أبي داود ت الأرنؤوط /٧/٤٤٦(٥١٢٨). وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

[3] سنن أبي داود ت الأرنؤوط (٦/ ١٠٠)، حديث صحيح.

الخلق، حيثُ الفضيحةُ يوم القيامة، فيأتي حاملًا ما أخذهُ بالخيانة أمام أهل المحشر، حاملًا له قبل أن يُحاسب عليه ﴿ثُمَّ﴾: تفيد التتابع الزمني مع التراخي ﴿تُوَفَّى﴾: تأخذُ بالكامل ﴿كُلُّ﴾: تفيد جميع ﴿نَفْسٍ﴾: جوهر الإنسان، جاءت بصيغة نكرة لتعزز العموم ﴿مَا﴾: جزاء الذي ﴿كَسَبَتْ﴾: وافيًا مكتملًا، من خيرٍ أو شرٍ. تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، ﴿وَهُمْ﴾: تحديدًا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُظْلَمُونَ﴾: لا بزيادة سيئاتهم، ولا بإنقاص حسناتهم.

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٦٢)

﴿أَفَمَنِ﴾: الذي من جنس العاقل سؤال غرضهُ البلاغي هنا النفي من المولى ﷻ، بمعنى هل يستوي الذي ﴿اتَّبَعَ﴾: الذي آمن وأطاع الله ﷻ، في قوله، وعمله، وفاز ب ﴿رِضْوَانَ﴾: رضا ﴿اللَّهِ كَ﴾: حرفٌ يُفيد حال أو مثل ﴿مَنْ﴾: كالذي من جنس العاقل ﴿بَاءَ﴾: رجع مُتلبسًا ﴿بِسَخَطٍ﴾: غضبٍ شديدٍ ﴿مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ﴾: مصيرهُ في الآخرةِ ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ﴾: فعلٌ جامدٌ للذم وسوءٍ، وشرٍ، وهو ذكر المساوئ وهو عكس المدح ﴿الْمَصِيرُ﴾: أسوأ مصير، وأوجع مآل، وفي النهاية سينقسم النّاس إلى فئتين: من فازَ برضا اللهِ ﷻ، ومن باءَ بسخطهِ؛ فاختر طريقك.

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦٣)

﴿هُمْ﴾: ضميرٌ منفصلٌ مرفوعٌ للجمع الغائب المذكر والمؤنث، منهم أهلُ الخير، والتقوى والإيمان، ومنهم أهلُ الكفرِ والعصيانِ ﴿دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾: منازلُ متفاوتة، وهي منازل أهل الجنّة، أو دركات، وهي منازل أهل النّار، في الأسفل ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا فإنّ ﴿اللَّهُ بَصِيرٌ﴾: لا يغيبُ عن بصرهِ شيء ﴿بِمَا﴾: اسم موصول، بمعنى الذين ﴿يَعْمَلُونَ﴾: ولأنّ الله ﷻ يعلم كلَّ شيءٍ، وهو العدل؛ خصّص الدرجات لأهل الجنّة، والدركات لأهل النّار.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١٦٤)

﴿لَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿مَنَّ﴾: أنعم، وتفضّل، وأحسن ﴿اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: المُصدقين حقًا بالله ﷻ، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقيامة ﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما حدث في الماضى من الزمن ﴿بَعَثَ﴾: أرسل ﴿فِيهِمْ﴾: إليهم ﴿رَسُولًا﴾: مبعوثًا برسالةٍ من عنده ﷻ إليهم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية المكانيّة وهي ﴿أَنْفُسِهِمْ﴾: من جنسهم، من البشر؛ ليتمكنوا من مخاطبته، وسؤاله، والانتفاع به ﴿يَتْلُو﴾: يقرأ صدقًا ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾: كلامُ الله ﷻ، القرآن الكريم بلغتهم، بعد أنْ كانوا أهل جاهلية، لا يعرفون شيئًا من الشرائع ﴿وَ﴾: حرف عطف بمعنى أيضًا ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾:

يُطهّرهم من دنسِ الكُفرِ، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾: يُفهمهم القرآن الكريم ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: وهي السُنّة النبوية المشرّفة ﴿وَإِنْ﴾: حرفُ شرطٍ ﴿كَانُوا مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد ابتداء الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلُ﴾: منْ قبل أنْ يأتي الرسولُ ﷺ ﴿لَ﴾: حرف تمليك وتخصيصٍ ﴿فِي ضَلَالٍ﴾: في جهلٍ، وتيهٍ، وغيٍّ ﴿مُبِينٍ﴾: ظاهرٍ، جليّ، واضحٍ للإنسان.

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦٥)

﴿أَوَلَمَّا﴾: حرفٌ مُركبٌ يُفيد الاستنكار، عندما ﴿أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ﴾: يوم أُحد حيث قُتل سبعون مسلمًا ﴿قَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿أَصَبْتُمْ﴾: حققتم وأنجزتم ﴿مِثْلَيْهَا﴾: يوم بدر، حيث قتل المشركون من المسلمين في موقعة أُحد قتلتم من الكفّار سبعين مشركًا، وأسرتم سبعين ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾: من أين جرى لنا هذا؟ كيف حدث هذا الخذلان؟ ونحن مؤمنون ﴿قُلْ﴾: أخبرهم يا محمد ﴿هُوَ﴾: وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر، هنا بمعنى ما أصابكم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية ﴿عِنْدِ﴾: ظرفُ زمانٍ ومكانٍ ﴿أَنْفُسِكُمْ﴾: يوم عصيتم أمر الرسول ﷺ؛ فتركتم مكانكم، وهم الرماة ﴿إِنَّ﴾: بالتأكيد ﴿اللَّهَ عَلَى كُلِّ﴾: يفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة؛ لتؤكد العموم ﴿قَدِيرٌ﴾: يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فينصر من أطاع، ويكتب الهزيمة لمن عصى.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٦٦)

﴿وَمَا﴾: حرف نفي إنّ الذي ﴿أَصَابَكُمْ﴾: من قتلٍ، وجرحٍ، وخوفٍ، والذي أدىّ إلى فراركم ﴿يَوْمَ الْتَقَى﴾: يوم موقعة أُحد حيث تقابل للقتال، بما أصابهم ﴿الْجَمْعَانِ﴾: يوم هزيمةِ، المسلمين ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿بِ﴾: حرفُ باء المُصاحبة ﴿إِذْنِ﴾: أمر ﴿اللَّهِ﴾: بقدر اللهِ ﷻ، وحكمتهِ، وقيل يوم خلّى بينكم وبين الكافرين ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: إنّ الله ﷻ يعلم؛ ولكنّهُ يريد أنْ يُحقق ما يُعلّمهُ للنّاس، الذين صبروا، وثبتوا.

التكليف: لقد أراد اللهُ ﷻ أنْ يُعلّم المسلمين درسًا في مواجهة الصعاب مثل مصيبة الهزيمة.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (١٦٧)

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع الرجال والنساء ممّن ﴿نَافَقُوا﴾: ليُظهر الله ﷻ المنافقين الذين ادعوا الإيمان وأبطنوا الكفر، وهم أصحاب عبد الله بن سلول الذين رجعوا بثلث الجيش وهم في الطريق ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾: لحق بهم عبد الله بن عمرو بن حرام، أخو بني سلمة، وهو من الرجال المؤمنين؛ يحرضونهم على اللحاق بالمؤمنين ﴿تَعَالَوْا﴾: أقبلوا ﴿قَاتِلُوا﴾: حاربوا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ للقتال؛ والمساعدة نصرة لدين الله ﷻ والمسلمين ﴿أَوِ﴾: حرفٌ يفيد التسوية بين ما بعده بما قبله ﴿ادْفَعُوا﴾: فيها أقوال: من التدافع ليكثّروا سواد المسلمين، أو ادفعوا بالدعاء، أو الدفع المالي للتسليح وغيره، أو رابطوا ﴿قَالُوا﴾: والقائلُ هم المنافقون، ﴿لَوْ﴾: حرفٌ يُفيد الاستحالة ﴿نَعْلَمُ قِتَالًا﴾: لو نحن متأكدون أنّه ستكون حرب ﴿لَ﴾: حرف يفيد العلّة والسبب ﴿اتَّبَعْنَاكُمْ﴾: للحقنا بكم، وجئناكم ﴿هُمْ﴾: حرف تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب، المقصود هنا المنافقين ﴿لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ﴾: حرفٌ يفيد بداية الغاية ﴿لِلْإِيمَانِ﴾: انقلب حالهم من الإيمان، ليقترب من الكُفر، كما ينقلب حالُ الإنسان من الكُفر ليقترب من الإيمان ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا﴾: الذي ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقص يُفيد النفي ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾: يكذبون، ويقولون ما لا يعتقدون صحته، هم يعرفون أنّ ما أصاب قريش في موقعةِ بدرٍ كان نفعًا كبيرًا للدين، حيث جمع الكفّار الجيوش، للثأر لقتلاهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾: صاحبُ العلم المُطلق ﴿بِمَا﴾: اسم موصول، بالذي ﴿يَكْتُمُونَ﴾: هذا منطق ما قيل من النّاس في الحدث، أمّا الله ﷻ فهو يشهد ﷻ أنّهم يقولون ما لا يُبطنون.

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٦٨)

﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿قَالُوا﴾: نزلت في عبد الله بن أبيّ بن سلول وأصحابه المنافقين ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿إِخْوَانِهِمْ﴾: والأخ هو المشارك لآخر في الولادة، أو في العقيدة، تحتمل أنّ الله عدَّهم حتى هذه الحالة أقرب للإيمان كما قال ﷻ، وقد يكون قولُهم لأوليائهم ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿قَعَدُوا﴾: لم يدافعوا عن إخوانهم، ويحتمل أنّ القول لأقاربهم، وأوليائهم الذين قُتل أبناؤهم، والله أعلم ﴿لَوْ﴾: حرفٌ يُفيدُ الاستحالة ﴿أَطَاعُونَا﴾: لو سمعوا مشورتنا، ونصيحتنا، وقعدوا، وما خرجوا ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿قُتِلُوا﴾: لنجوا من القتل، وهنا خللٌ كبيرٌ في تصورهم؛ لأنّ الموت والحياة بيد الله ﷻ ﴿قُلْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ لمحمدٍ ﷺ ليقول للكافرين ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا الأمر ﴿ادْرَءُوا﴾: امنعوا ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍّ بمعنى على ﴿أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾: وأنتم قاعدون، معنى ذلك أنّ الموت سيصيب القاعدين أيضًا، واعلموا

أنّ من كتب اللهُ ﷻ عليه الموت؛ سيموت، ولو كان في برجٍ مشيدٍ ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: يشهد اللهُ ﷻ عليهم أنّهم لم يكونوا صادقين في قولهم.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩)

أسباب النزول: قَالَ أَنَسٌ: «أُنْزِلَ فِي الَّذِينَ قُتِلُوا بِبِئْرِ مَعُونَةَ قُرْآنٌ قَرَأْنَاهُ، ثُمَّ نُسِخَ بَعْدُ بَلِّغُوا قَوْمَنَا أَنْ قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا، فَرَضِيَ عَنَّا وَرَضِينَا عَنْهُ»[1]، قيل إنّهم كانوا أربعين أو سبعين، ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لَا﴾: حرف نهي ﴿تَحْسَبَنَّ﴾: لا تظن، لا تعتقد ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا﴾: ماتوا مقتولين في موقعة أُحد، ومثلهم من يُقتل فهم في سائر الأماكن ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: هم الشهداء ﴿أَمْوَاتًا﴾: ليسوا ميتين، كما تعتقدون، فقد ورد في السنّةِ المطهرة أن أرواحهم في أجواف طيور خُضر ﴿بَلْ﴾: حرف ينفي ما قبله؛ ويؤكد ما بعده، بمعنى الانتقال من معنى إلى آخر ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ﴾: في الجنّةِ، في كرم الله ﷻ، ظرف زمانٍ ومكانٍ، هي حياةٌ مُحققة، وإن عددناهم نحنُ ميتين ﴿رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾: من الأكل والشرب. فرزقهم مستمرٌ عند الله ﷻ، وإن انقطع من الدنيا. جاءت أحاديثُ عدّة عن الشهداء: عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ [آل عمران-١٦٩] قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً»، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا[2].

عنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ، لَهَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ، يَسُرُّهَا أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا، وَلَا أَنَّ لَهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، إِلَّا الشَّهِيدُ، فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ، فَيُقْتَلَ فِي الدُّنْيَا لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ»[3].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ، وَمَشْرَبِهِمْ، وَمَقِيلِهِمْ، قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا، أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي

---

[1] صحيح البخاري (٤/ ٢١).
[2] صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٢).
[3] صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٨).

الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكُلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران-١٦٩] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ[١].

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٧٠)

﴿فَرِحِينَ﴾: الفرح هو الذي لا هم ولا حزن فيه من النعم ﴿بِمَا﴾: اسم موصول، بالذي ﴿آتَاهُمُ﴾: أعطاهم، وساقه الله ﷻ من الكرامة بالشهادة، وما صاروا فيه من نعيم، وما يصلهم من رزق ﴿اللَّهُ مِنْ﴾: بعض أو جزء ﴿فَضْلِهِ﴾: النعم والفضائل التي تفضل الله ﷻ عليهم بها ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾: أيضاً يطلبون بُشرى مجيء إخوانٍ لهم شهداء، ويستبشرون ويتشوقون إليهم، فهم مسرورون بما هم فيه، ومسرورون لمجيء إخوانهم من بعدهم ﴿بِالَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿لَمْ﴾: حرف جزم ينفي المضارع ﴿يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾: يُخبرهم الله ﷻ أنّه أخبر نبيّه محمدًا ﷺ بأمرهم وما هم فيه من النعيم، فاستبشروا بذلك ﴿أَلَّا﴾: حرف تخصيص ﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: والمعنى لا يخافون من عذاب الله ﷻ، حيث يأخذُ الشهيدُ وهو في الجنّة كتابًا يقول له سيأتي إليك فلان يوم كذا وكذا، ويقدم عليك فلانٌ يوم كذا وكذا؛ فيُسرّ بذلك كسرور أهل الدنيا بعودة غائبهم ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿هُمْ﴾: حرف تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب ﴿يَحْزَنُونَ﴾: ولا يُصيبُهم ما لا يسرُّهم.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١)

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: ينتظرون ويطلبون البشرى وهي الأخبار السارة ﴿بِ﴾: حرفُ باء الصلة والمصاحبة ﴿نِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾: الثواب الكبير الذي هو خير الله ﷻ لهم ﴿وَفَضْلٍ﴾: أيضًا زيادة عن الثواب ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿أَنَّ﴾: حرف تأكيد الفعل ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ لَا﴾: حرف نفي ﴿يُضِيعُ﴾: لا يُبطل ﴿أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: ثوابهم؛ بزيادة وليس بنقص، وهذه الآية جمعت المؤمنين الشهداء وغيرهم بنعمة الله ﷻ وفضله بالأنبياء، كلُّ ثوابٍ أعطاهم إيّاه شمل المؤمنين من بعدهم.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢)

---

[١] سنن أبي داود (٣/ ١٥) وصححه الألباني.

الأسباب: كان يوم حمراء الأسد وعُدّتْ غزوة، عندما أصاب المسلمين في موقعة أُحد ما أصابهم، وقد بدأ يعود كفّار مكّة، ندموا، وقالوا لم تقتلوا محمدًا؛ ولا نلتم المغانم، بئس ما صنعتم ارجعوا، فعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ , عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: يَا ابْنَ أُخْتِي، كَانَ أَبَوَاكَ، تَعْنِي الزُّبَيْرَ وَأَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، مِنَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ، قَالَتْ: لَمَّا انْصَرَفَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أُحُدٍ وَأَصَابَ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ مَا أَصَابَهُمْ، خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا، فَقَالَ: مَنْ يَنْتَدِبُ لِهَؤُلَاءِ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى يَعْلَمُوا أَنَّ بِنَا قُوَّةً؟ قَالَ: فَانْتَدَبَ أَبُو بَكْرٍ وَالزُّبَيْرُ فِي سَبْعِينَ، فَخَرَجُوا فِي آثَارِ الْقَوْمِ فَسَمِعُوا بِهِمْ، وَانْصَرَفُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ، قَالَتْ: لَمْ يَلْقَوْا عَدُوًّا[1]، وكان أبو سفيان قد أصابه الرعب والخوف، وقد أخبرهم الرسول ﷺ أنّ الله ﷻ ألقى في قلب أبي سفيان الرعب، كان النبي وأبو بكر وعثمان وعليّ ورجالٌ آخرون؛ فأرسل أبو سفيان تجّارًا في طريقه، طلب منهم: رُدّوا محمدًا، ولكم منّي كذا وكذا ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾: عندما أمرهم الرسول ﷺ بملاحقة كفّار أُحد، وكان زعيمهم أبو سفيان في جيش قريش بعد رجوعهم من غزوةِ أُحد ﴿مِنْ بَعْدِ مَا﴾: الذي ﴿أَصَابَهُمُ﴾: ألمَّ بهم ﴿الْقَرْحُ﴾: الجروح هي الهزيمة في معركة أُحد ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا﴾: يخصُّ الله ﷻ الذين ثبتوا، وصمدوا، وأيقنوا بنصر الله ﷻ ﴿أَجْرٌ﴾: ثواب ﴿عَظِيمٌ﴾: عزّ الدنيا ونعيم الجنّة في الآخرة.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣)

﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿قَالَ لَهُمُ﴾: تخصيصًا ﴿النَّاسُ﴾: جاء لفظ النّاس هنا لأسباب عديدة، لأنّه جاء متخفيًا، حتى يحقق الغاية وهي التخذيل عن المسلمين، ولتكون الآيةُ عامّةً صالحةً لكلِّ زمانٍ ومكانٍ جاء لفظ النّاس في القرآن الكريم على تسعة أوجه، هنا بمعنى إنسانٍ واحدٍ، هو الصحابي معبد بن أبي معبد الخزاعي، جاء إلى المجتمع الإسلامي سرًّا بعد غزوة أُحد؛ ليخبر النّاس أنّ أبا سفيان يجمع أعوانه للحرب ﴿إِنَّ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿النَّاسَ﴾: المقصود هو أبو سفيان بن حرب، الذي كان زعيم الكفّار، ولأن الله ﷻ يعلم أنّ أبا سفيان سيدخلُ في الإسلام؛ فلم يذكر اسمهُ هنا في مقام الكفّار، وجاء اللفظُ الناس من أجل تفخيم الخبر، والاستعداد للحرب ﴿قَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿جَمَعُوا لَكُمْ﴾: أعدّوا رجالهم، وأسلحتهم؛ ليقاتلوكم ﴿فَـ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف

---

[1] صحيح البخاري (٥/ ١٠٢).

ترتيب وتنفيذ الأمر دونَ تأخير ﴿اخْشَوْهُمْ﴾: عليكم أنْ تخافوا على أنفسكم، وعلى أموالكم، وعلى أوطانكم ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾: أيقنوا بالله ﷻ أكثر؛ أنّ النصر من عنده ﷻ؛ وهو ناصر المؤمنين، وهذه حقيقة قلبية ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿قَالُوا﴾: جاءت قضية اللفظ ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾: يكفينا تأييده ﷻ لنا ﴿ونِعْمَ﴾: مدحٌ وتبجيلٌ ﴿الْوَكِيلُ﴾: ونعم من توكلنا عليه، ولمّا بلغ رسول الله تهديد أبي سفيان؛ كان ردُّ المؤمنين: حسبنا الله ونعم الوكيل. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، «قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ» حِينَ قَالُوا: ﴿**إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا، وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ**﴾ [آل عمران-١٧٣][(١)]، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: كَيْفَ أَنْعَمُ وَقَدِ الْتَقَمَ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَى سَمْعَهُ يَنْظُرُ مَتَى يُؤْمَرُ قَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا نَقُولُ؟ قَالَ: قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا[(٢)].

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١٧٤)

﴿فَ﴾: حرفٌ يفيدُ السببَ والتتابع السريع ﴿انْقَلَبُوا﴾: عندما رجعوا إلى الله ﷻ ورجعوا بعد خروجهم لقريش راضين، وقابلين ما حدث؛ متوكلين عليه، وقد حدث ذلك عندما خرج المسلمون إلى حمراء الأسد ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة والمصاحبة ﴿نِعْمَةٍ﴾: السلامة والعافية ﴿مِنَ﴾: حرف جر يفيد بداية الغاية ﴿اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾: لهم أجرُ تفضل الله ﷻ عليهم، وكفاهم همّهم، ورد بأس الكفّار عنهم، وأبطل كيد الكفّار عليهم، وقيل ربحٌ في التجارة، فقد مرّت عيرٌ على الرسولِ ﷺ في أيامِ الموسم؛ فاشتراها؛ وربح فيها مالًا، فقسّمهُ بين أصحابه ﴿لَمْ﴾: حرفُ نفي ﴿يَمْسَسْهُمْ﴾: يُصيبهم في جوهر إيمانهم، وصلابة تنظيمهم ﴿سُوءٌ﴾: شرٌ وضررٌ، كفاهم ما أهمّهم، وردّ عنهم بأس من كاد لهم، ومعنى السوء هنا القتل والهزيمة ﴿وَ﴾: حرفٌ يفيد هنا الحال عطفًا على عدم خوفهم من العدو ورغم ما أصابهم ﴿اتَّبَعُوا رِضْوَانَ﴾: سلكوا ما يرضي الله ﷻ ﴿اللَّهِ﴾: لما امتثلوا لأوامره ﷻ؛ نالوا رضاه، ومحبته ﴿وَاللَّهُ ذُو﴾: صاحب الوصف بالأسماء والصفات ﴿فَضْلٍ﴾: كرمٍ ومنّةٍ ﴿عَظِيمٍ﴾: كبيرٍ دائمٍ.

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٥)

---

(١) صحيح البخاري (٦/ ٣٩).

(٢) مسند أحمد ط الرسالة (١٧/ ٨٩)، صححه الألباني.

﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ مركّبةٍ تُفيدُ التحديد والتخصيص، تعني أيضًا إنّ ﴿ذَلِكُمُ﴾: اسم إشارة للبعيد إلى كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر عنها اللهُ ﷻ، للبعيد فإنّ هذا ﴿الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾: الشيطان يثبطُ ويُخوّف المسلمين من أوليائه الكافرين، ويقول لهم إنّ أعداءهم أصحابُ بأسٍ شديدٍ ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿تَخَافُوهُمْ﴾: لا تُصدقوا الشيطان، ولا تخافوا أولياءه ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الاستئناف ﴿خَافُونِ﴾: أي توكلوا على الله ﷻ، واحتموا به، فهو كافيكم، وناصركم عليهم ﴿إِنْ﴾: حرفُ شرط ﴿كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: وفي هذا المعنى قال ﷻ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر–٣٦]، وقال ﷻ أيضًا: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء–٧٦]، وكذلك قوله ﷻ: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة–١٩].

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦)

﴿وَلَا﴾: أيضًا ينهي الله ﷻ أنْ ﴿يَحْزُنْكَ﴾: يُسبب لك الحُزن من فعلٍ أو قولٍ ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يُسَارِعُونَ﴾: يدخلون دونَ تأخيرٍ أو ترددٍ ﴿فِي الْكُفْرِ﴾: هم قومٌ ارتدوا فسبب هذا غمًّا للنبيﷺ وليخفف عنه ﷻ نهاهُ عن الحزن، وقيل كان النبي ﷺ يُفرط في الحزن بسبب كفر قومه، فنهاهُ اللهُ ﷻ، لا تحزن بسبب أنْ صاروا كفارًا بسرعة، ﴿إِنَّهُمْ﴾: هم بالتأكيد ﴿لَنْ﴾: حرف نفي ﴿يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾: يُبشر الله ﷻ رسوله أنّهم لنْ يضروا دين الله ﷻ، ولنْ يضروا المؤمنين بشيءٍ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا﴾: حرفُ تنبيهٍ ﴿يَجْعَلَ﴾: يحدد لهم دونَ تأخير أو تردد ﴿لَهُمْ﴾: تمليكًا وتخصيصًا ﴿حَظًّا﴾: لن يكون لهم نصيب في الجنّةِ، أو نصيب من الثواب ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾: يوم القيامة ﴿وَلَهُمْ﴾: تخصيصًا؛ بسبب مسارعتهم في الكفر ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: لقد عاد ضرر كفرهم عليهم؛ فجلب لهم شديد الألم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٧)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿اشْتَرَوُا﴾: استبدلوا ﴿الْكُفْرَ﴾: عدم بالإيمان بالله ﷻ ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿الْإِيمَانِ﴾: أخذوا بمنهج الكفر، وتركوا الإيمان ﴿لَنْ﴾: حرف نفي قاطع ﴿يَضُرُّوا اللَّهَ﴾: لن يضروا دين الله ﷻ ﴿شَيْئًا﴾: صغيرًا، أو كبيرًا ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: إنّهم يضرون أنفسهم بالعذاب الشديد الأليم يوم القيامة.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٧٨)

﴿وَلَا﴾: حرف نهي وتحريم ﴿يَحْسَبَنَّ﴾: لا يظنّ أو يعتقد ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: أعداء المؤمنين ﴿أَنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ تُفيد التوكيد ﴿نُمْلِي﴾: نزيد في أعمارهم، ونضاعف لهم المعاناة بما أصابوا في موقعة أُحُد ﴿لَهُمْ﴾: في أعمارهم، وجمعهم المال، وزيادة الأولاد، والقوة ﴿خَيْرٌ﴾: فائدة ومنفعة ﴿لِ﴾: حرفُ تخصيص ﴿أَنْفُسِهِمْ﴾: ليس هذا خيرًا لهم كما يحسبون ﴿إِنَّمَا﴾: حرفُ توكيد بمعنى إنّ الذي ﴿نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾: لتزداد ذنوبهُم، ويزدادَ عقابهم ﴿وَلَهُمْ﴾: تمليكًا وتخصيصًا ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾: يهين ويذلُّ شخوصهم، ويمس كرامتهم، بما حصّلوا.

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٩)

سبب النزول: قال بعض المنافقين: إنْ كان محمدٌ صادقًا فليخبرنا عمّن سيؤمن به منّا؛ ومن سيكفر به، فعن مجاهد في قوله عز وجل: ﴿**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾ قال ميزهم يوم أحد المنافق عن المؤمن[١]، ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿كَانَ اللَّهُ﴾: لم يكن في حكم الله ﷻ ﴿لِ﴾: حرفُ علّةٍ ﴿يَذَرَ﴾: يترك ﴿الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا﴾: الذي ﴿أَنْتُمْ عَلَيْه﴾: أي اختلاط المؤمنين، وبالمنافقين، بالكافرين، وعدم التمايز بينكم ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي إلّا بشرط أنْ ﴿يَمِيزَ﴾: يُظهر، ويوضّح ﴿الْخَبِيثَ﴾: المنافق الفاجر الذي خبثت نفسه بالشرك والمعاصي نميّزه ﴿مِنَ﴾: حرف تمييز ﴿الطَّيِّبِ﴾: هو الذي طهرت نفسه بالإيمان والعمل الصالح، وهي صفات المؤمن، الصابر، الثابت على التكليف والابتلاء، المطيع لله ﷻ ولرسوله ﷺ، لقد كان يومُ أُحدٍ يومًا ميّز اللهُ ﷻ به الخبيث المنافق، من المجاهد المؤمن ﴿وَمَا﴾: أيضًا هنا نفي ﴿كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾: هي الأمور غير المعلومة، وغير المرئية، وغير المسموعة لك، لنْ يقول الله ﷻ لكم ما في الغيب في خلقه إلّا ما يريدُ بالأسباب الكاشفة ﴿وَلَكِنَّ﴾: حرف عطف واستدراك يأتي بعد نهي أو نفي ﴿اللَّهَ يَجْتَبِي﴾: يختار الله ﷻ ويصطفي ﴿مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾: فيطلعه على جزءٍ من الغيب، كما أخبر محمدًا ﷺ عن صفات المنافقين ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا أمر

---
[١] دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٢٣).

﴿آمِنُوا بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾: رسل حق ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾: طاعة الله ﷻ بصدقٍ ويقينٍ ﴿فَ﴾: حرف يفيد السبب ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿أَجْرٌ﴾: وعد الله ﷻ المؤمنين المتقين بثواب ﴿عَظِيمٌ﴾: كبيرٌ.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٨٠)

نزلت هذه الآية في أهل الكتاب، الذين بخلوا بتبيان ما نزل في الكتب السماوية السابقة ﴿وَلَا﴾: حرف نهي وتحريم ﴿يَحْسَبَنَّ﴾: لا يظنُّ ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يَبْخَلُون﴾: الذين يجمعون المال، ولا ينفقون منه ما أمر الله ﷻ، ويظنون أنّه ينفعهم، بل هو ضررٌ على دينهم، وعلى دنياهم أيضًا ﴿بِمَا﴾: اسم موصول، بمعنى الذي ﴿آتَاهُمُ اللَّهُ﴾: رزقهم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعضًا أو جزءًا ﴿فَضْلِهِ﴾: ومن كرمهِ، ومن ملكهِ العظيم ﴿هُوَ﴾: وتعني في اللغة ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر وهو هنا البخل بالمال ﴿خَيْرًا﴾: فائدةً ومنفعةً ﴿لَهُمْ﴾: يظنون أنّ هذا المال والملك سيكون فيه الخير لهم ﴿بَلْ﴾: حرفٌ ينفي ما قبله؛ ويؤكد ما بعده ﴿هُوَ شَرٌّ﴾: سوءٌ وضررٌ وأذى ﴿لَهُمْ﴾: يُؤكد الله ﷻ لهم أنّ ما جمعوه هو شر لهم؛ لأنّهم ﴿سَ﴾: حرف يفيد تأكيد الفعل في المستقبل ﴿يُطَوَّقُونَ﴾: هو ما يحيط بالعنق، والجسد؛ بمعنى تُحيط بهم النّار؛ بسبب ما فعلوا من إثمٍ من كلّ جانبٍ ﴿مَا﴾: الذي ﴿بَخِلُوا بِهِ﴾: سيكون ما بخلوا من المال طوقًا لهم في أعناقهم من النّار ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: يُظهر الحديث الشريف هذه الحالة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ، يَعْنِي شِدْقَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ ثُمَّ تَلاَ: **﴿لاَ يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾** الآيَةَ[1] ﴿وَ﴾: حرف عطف يفيد حال ﴿لِلَّهِ مِيرَاثُ﴾: الملك الذي يؤول لصاحبه الذي يستحقه ﴿السَّمَاوَاتِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض وأحاط بها؛ لكونها ببضاويّة الشكل ﴿وَالْأَرْضِ﴾: لن يبقى من الخلق وارثٌ للأبد، كلُّ شيءٍ سيعود إلى خالقه، فللّه ميراثُ جميع من وما في السماواتِ والأرض ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: يعلمُ صغير الأمور وكبيرها، يعرف النيات، والضمائر، ويُجازي عليها.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨١)

---

[1] صحيح البخاري /٢/١٣٢(١٤٠٣).

حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ الله قرضا حسنا﴾ قَالُوا يَا مُحَمَّدُ أَفْتَقَرَ رَبُّكَ يَسْأَلُ عِبَادَهُ الْقَرْضَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ[1]، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ لِفِنْحَاصَ، وَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ وَأَحْبَارِهِمْ: اتَّقِ اللهَ وَأَسْلِمْ، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ عِنْدِ اللهِ، جَاءَكُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِهِ، تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، فَقَالَ فِنْحَاصُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، وَاللهِ مَا بِنَا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فَقْرٍ، وَإِنَّهُ إِلَيْنَا لَيَفْتَقِرُ، وَمَا نَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ كَمَا يَتَضَرَّعُ إِلَيْنَا، وَإِنَّا عَنْهُ لَأَغْنِيَاءُ، وَلَوْ كَانَ عَنَّا غَنِيًّا لَمَا اسْتَقْرَضَنَا أَمْوَالَنَا كَمَا يَزْعُمُ صَاحِبُكُمْ، يَنْهَاكُمْ عَنِ الرِّبَا وَيُعْطِينَاهُ، وَلَوْ كَانَ عَنَّا غَنِيًّا مَا أَعْطَانَا الرِّبَا، فَغَضِبَ أَبُو بَكْرٍ فَضَرَبَ وَجْهَ فِنْحَاصَ، فَأَخْبَرَ فِنْحَاصُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فَأَخْبَرَهُ؛ فَجَحَدَ ذَلِكَ فِنْحَاصُ وَقَالَ: مَا قُلْتُ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران-١٨١] الْآيَةَ.. إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران-١٨١][2]، ﴿لَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقق ﴿سَمِعَ﴾: علم يقينًا ﴿اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ﴾ اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿قَالُوا﴾: هم اليهود في عهد الرسول، والأسباب لقولهم هي الغرور بما هم فيه من الثراء، وجهلًا منهم بقضاء الله ﷻ وقدره ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ فَقِيرٌ﴾: وهذا قولهم اليوم على المسلمين ﴿وَ﴾: أيضًا قالوا ﴿نَحْنُ﴾: ضميرٌ يُفيد جمعًا من النّاس من المُخبرين عن أنفسهم، هنا هم اليهود ﴿أَغْنِيَاءُ سَ﴾: حرفٌ يفيدُ تأكيد الفعل ﴿نَكْتُبُ ما قالوا﴾: من الكذب والافتراء على الله ﷻ ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿حَقٍّ﴾: ما ارتكبوه من جرائم قتلٍ لأنبيائهم ظُلمًا وعُدوانًا ﴿وَنَقُولُ﴾: عطفاً على ما سبق سنقول لهم يوم القيامة ﴿ذُوقُوا﴾: والذوق هو فقط للطعام، وكإشارة إلى أنّ كلّ أدوات الحواس الجلد والشمّ وغيرها سيصيبها وهنا تعني ذوقوا وقاسوا ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾: ستدخلون جهنّم لافترائكم، وقولكم على الله ﷻ الكذب، ونقول لكم ذوقوا النّار.

التكليف: ما قاله ويقوله اليهود، هو للتشكيك في الإسلام والمسلمين، جهلًا منهم بسبب ثرواتهم.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (١٨٢)

﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر عنها اللهُ ﷻ، هنا هذا العذاب؛ حريق النّار ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصول، بمعنى الذي، بسبب ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾: أيها اليهود وهو ما اقترفتموه

---

[1] الأحاديث المختارة = المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما (١٠/ ١١٣).

[2] شرح مشكل الآثار (٥/ ٨٧).

في الحياة الدنيا، وبقولكم، وعملكم توبيخًا، وتقريعًا، وتحقيرًا، وتصغيرًا لكم ﴿وَأَنَّ﴾: أيضًا جاء حرف تأكيد الفعل أنّ ﴿اللَّهَ لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ يفيد النفي ﴿بِ﴾: حرف باء التوكيد ﴿ظَلَّامٍ﴾: الله ﷻ العدل لا يظلم أحدًا ﴿لِ﴾: حرفُ تخصيصٍ ﴿الْعَبِيدِ﴾: أيّ أحدٍ من عبيده، وكل الخلق عبيده، ومن هؤلاء اليهود من قال:

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٨٣)

﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿قَالُوا إِنَّ﴾: بالتأكيد ﴿اللَّهَ عَهِدَ﴾: أوصانا وكلّفنا ﴿إِلَيْنَا﴾: زعموا أنّه، ﷻ، أوصاهم في كتبهم على ألسنةِ أنبيائهم ﴿أَلَّا﴾: حرفُ تنبيه ﴿نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى﴾: حرفٌ بمعنى إلى أن ﴿يَأْتِيَنَا﴾: يُحضر لنا ﴿بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾: قالوا من معجزات الله ﷻ حتى يؤمنوا أنْ يقدم نبيُهم قربانًا؛ ويدعو الله ﷻ فتنزل نّار من السماء، فتحرقه، كبرهانٍ ببيانِ الحُجّةِ على قبول الله ﷻ لقرابينهم، هذه أقوالهم، ليدحضوا أنّ الله ﷻ أوكل الرسالة إلى محمد ﷺ هذا لم يُتعبد به الله جميعَ رسله، ولا جعله اللهُ ﷻ دليلًا على صدقِ دعوةِ النبوة ﴿قُلْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ لرسوله ﷺ أنْ يقول ﴿قَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿جَاءَكُمْ﴾: من الله ﷻ لكم ﴿رُسُلٌ مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِي﴾: قبل رسالة محمد ﷺ ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة والتوكيد ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: بالأدلّة والبراهين على صدق الرسل ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿بِ﴾: حرف باء التعددية ﴿الَّذِي قُلْتُمْ﴾: أي نزلت النّار، وأكلت قرابينكم ﴿فَلِمَ﴾: لماذا؟ ﴿قَتَلْتُمُوهُمْ﴾: ومع كلِّ هذه الأدلّة: لماذا قتلتم الأنبياء والرسل؛ بعد التكذيب، والمعاندة ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: لو كنتم صادقين في دعواكم: معرفة صدق الرسل، وقد جاؤوكم بالبينات ثم قتلتموهم، وخالفتم تعاليمهم.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (١٨٤)

﴿فَإِنْ﴾: حرف شرط بمعنى إذا ﴿كَذَّبُوكَ﴾: يا محمد ﷺ إذا كذّبك هؤلاء؛ لا تضعُف ﴿فَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿كُذِّبَ﴾: أنكر الكفّار ذلك الزمان ﴿رُسُلٌ مِنْ﴾: حرف جر يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِكَ﴾: كذّب كفّار ذلك الزمان – من أمثالهم – رسلهم من قبلك الذين ﴿جَاءُوا بِ﴾: حرف باء التعددية ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: بالحجج والبراهين القاطعة ﴿وَ﴾: أيضًا جاءوا بـ ﴿الزُّبُرِ﴾: كُتب المواعظِ الزواجر، جاء اللفظ القرآني الزُبر على خمسةِ أوجه، هنا بمعنى حديث الأمم السابقة ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾: أيضًا جاءوا بالكتاب الواضح،

الجليّ، الذي يُوضّح وينير السبيل، والكتب التي نزلت من السماء، كالصحف المُنزّلة على المرسلين.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (١٨٥)

﴿كُلُّ﴾: تفيد عموم ﴿نَفْسٍ﴾: هي الإنسان، جاءت بصيغةٍ نكرةٍ؛ لتفيد العموم، جميع الخلق، بلا استثناء الإنس، والجنِّ، الملائكةِ، وحملةِ العرش ﴿ذَائِقَةُ﴾: ستُكابد سكرات ﴿الْمَوْتِ﴾: ستموت، فلا يحزن أيُّ إنسان؛ فهذه كلمات عزاءٍ لجميع النّاس؛ الكلُّ ميّت، فها هي النفس كما وصفها خالقها ﷻ: فيها الفجور وفيها التقوى، وفيها الشح وفيها الهوى، وهي النفس اللوامة، وهي النفس المطمئنة، وهي النفس الأمارة بالسوء، وها هي النفس تُزهق وتُقتل وتُموت، وكلمة نفس لا تطلق على الجسد بانفراده، وكل هذه الصفات لا تكون للجسد منفردًا ﴿وَإِنَّمَا﴾: أداة حصر تفيد التحديد والتخصيص ﴿تُوَفَّوْنَ﴾: تأخذون ما تستحقون مِنْ ﴿أُجُورَكُمْ﴾: ثواب عملكم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: سيجازي الله ﷻ كلَّ نفسٍ يوم القيامة بأعمالها، صغيرها، وكبيرها، فلا ظُلم لأحدٍ ﴿فَمَنْ﴾: فالذي من جنس العاقل، كبني آدم ﴿زُحْزِحَ﴾: أبعده الله ﷻ ﴿عَنِ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد المجاوزة ﴿النَّارِ﴾: جهنّم ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ﴾: فقد: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿فَازَ﴾: ظفر بما تمنى، وهي الجنّة ونجا مما خاف وهي النّار ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾: العيش في الدنيا ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾: الخداع، الباطل، تصغير شأن الدنيا، وتحقير أمرها، هي متاعٌ زائلٌ، متروكٌ، ورفض الغرور بالأماني.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٨٦)

﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾: خطاب من الله ﷻ لمحمد ﷺ وللمسلمين من بعده، لا بد أنْ تُختبرون، وتمتحنون في زمن حياتهم ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾: أنْ يفقد المؤمن مالهُ، أو يُقصد له في دخله، أو يؤدي حق الخلق عليه من زكاة وغيرها، وأيضًا من كلِّ أشكالِ الخسارة المادية ﴿وَ﴾: أيضًا يأتي البلاء في ﴿أَنْفُسِكُمْ﴾: الموتُ، أو المرضُ، أو الخسارة في المال، في نفسه أو ولده، أو أهله، وُيبتلى المؤمن على قدر دينه؛ فإنْ كان في دينه صلابة؛ زيد في البلاء ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾: أيضاً تسمعون بالتأكيد ﴿مِنَ﴾: بعض ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: نزلت فيهم، وأعطاهم اللهُ ﷻ كُتبًا سماوية، وبخاصّةٍ اليهودِ والنصارى، كان ذلك قبل واقعةِ بدر،

عندما كان المسلمون في المدينة؛ يثبتهم اللهُ ﷻ، أمام كذب اليهود، وستبقى اتهامات اليهود والنصارى ووصفهم للمسلمين بالإرهاب، والأصولية، والتطرف... إلخ، قائمةٌ لا تنتهي ﴿وَمِنَ﴾: وأيضًا بعض ﴿الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾: سائر الطوائف الكفرية من غير أهل الكتاب، الذين يعبدون غير الله ﷻ ﴿أَذًى﴾: الطعن في دينكم وأعراضكم وكل ما يضرُّكم ﴿كَثِيرًا﴾: الأذى هنا سماعي، الإساءة إليكم في أنفسكم، وفي دينكم ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾: كان الصبرُ ومزيدٌ من التقوى علاج هذا الأذى، وكان العفو دائمًا، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنهما قَالَ: رَكِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِمارًا عَلَيْهِ إِكَافٌ[١] تَحْتَهُ قَطِيفَةٌ[٢] فَدَكِيَّةٌ[٣] وَأَرْدَفَنِي وَرَاءَهُ وَهُوَ يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ ﷺ فِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ وَذَلِكَ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ حَتَّى مَرَّ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ، وَالْيَهُودِ، وَفِيهِمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، وَفِي الْمَجْلِسِ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ ﷺ فَلَمَّا غَشِيَتِ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ[٤] الدَّابَّةِ، خَمَّرَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ ثُمَّ قَالَ: لَا تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ وَقَفَ فَنَزَلَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ: أَيُّهَا الْمَرْءُ، لَا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا، فَلَا تُؤْذِنَا فِي مَجَالِسِنَا وَارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ، فَمَنْ جَاءَكَ مِنَّا فَاقْصُصْ عَلَيْهِ فَقَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ: بَلْ اغْشَنَا فِي مَجَالِسِنَا، فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ، فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ، حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَتَوَاثَبُوا، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ، فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ)[٥]، ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر عنها اللهُ ﷻ ﴿مِنْ عَزْمِ﴾: قوةٍ وصلابة ﴿الْأُمُورِ﴾: ما يواجه الإنسانُ من شدائدَ، وما يُسببُ الضرر النفسي، أو الجسدي.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (١٨٧)

﴿وَإِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما حدث في الماضي، أذكر أيها النبي حين ﴿أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ﴾: عهده ﷻ المؤكد من ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: حين أخذ الله عهده المؤكد، من علماء، وأهل الكتاب، وهم اليهود خاصّة، وأيضًا النصارى، يوبخ الله ﷻ في هذه الآية أهل الكتاب، على نبذهم ميثاق أجدادهم، وآبائهم ﴿لَ﴾: حرف التعليل ﴿تُبَيِّنُنَّهُ﴾ لأنّهم لم

---

[١] الإكاف: البرذعة.

[٢] القطيفة: كساء أو فِراش له أهداب.

[٣] فَدَكِيَّة: أي من صنع فَدَك، وهي بلدة مشهورة، على مرحلتين أو ثلاث من المدينة.

[٤] العَجَاجة: الغبار.

[٥] الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (١٨/ ٢٢٤).

يُبيّنوا ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿النَّاسِ﴾: لعموم بني آدم صفات محمد ﷺ ورسالته ﴿وَلَا﴾: هنا جاء نفي ﴿تَكْتُمُونَهُ﴾: ولا تخفوا حقيقة النبي، وحقيقة الدين الجديد عن النّاس، وهذا عهد أنبيائهم من قبل ﴿فَـ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿نَبَذُوهُ﴾: ألقوه منسيًا، هنا تشبيه التمسك بالميثاق بالشيء المنبوذ المهمل والملقى ﴿وَرَاءَ﴾: خلف وبمعنى اعتمدوا غيره ﴿ظُهُورِهِمْ﴾: كناية عن عدم اهتمامهم؛ وتعمدوا عدم ذكره والتظاهر بنسيانه ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا أيضًا ﴿اشْتَرَوْا﴾: باعوا أو اختاروا عوضًا عن قليل من أموال الدنيا ﴿بِهِ﴾: هنا حرف باء الالتصاق بمعنى: بهذا الدين وتعاليم أنبيائهم من قبل ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: حقيرًا، يسيرًا، واستبدلوا بع عرضًا من حطامِ الدنيا الرخيص ﴿فَبِئْسَ﴾: فعلٌ جامدٌ للذمّ من سوءٍ، وشرٍ، وذمٍ، وهو ذكر المساوئ وهو عكس المدح، صفقات سخيفة، دنيوية زائلة ﴿مَا﴾: الذي ﴿يَشْتَرُونَ﴾: ما اشتروا به الدنيا، وبئس صفقة بيع دين أجدادهم، لقد كتموا الحق وبعثة الرسول ﷺ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكَتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ[1].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨٨)

سبب النزول: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، «أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فِي عَهْدِ رَسُولِ ﷺ، كَانُوا إِذَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ، وَحَلَفُوا وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا» فَنَزَلَتْ: **﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾** [آل عمران-١٨٨][2]، وعن حُمَيْدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، أَنَّ مَرْوَانَ، قَالَ: اذْهَبْ يَا رَافِعُ - لِبَوَّابِهِ - إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقُلْ: لَئِنْ كَانَ كُلُّ امْرِئٍ مِنَّا فَرِحَ بِمَا أَتَى وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ، مُعَذَّبًا لَنُعَذَّبَنَّ أَجْمَعُونَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا لَكُمْ وَلِهَذِهِ الْآيَةِ؟ إِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، ثُمَّ تَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾** [آل عمران-١٨٧] هَذِهِ الْآيَةَ، وَتَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: **﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾** [آل عمران-١٨٨]، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «سَأَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ، إِيَّاهُ وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ، فَخَرَجُوا قَدْ أَرَوْهُ أَنْ قَدْ أَخْبَرُوهُ بِمَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ وَاسْتَحْمَدُوا بِذَلِكَ إِلَيْهِ، وَفَرِحُوا بِمَا أَتَوْا مِنْ كِتْمَانِهِمْ إِيَّاهُ، مَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ»[3].

---

[1] سنن ابن ماجه /٩٨/١(٢٦٦). قال الألباني: صحيح.
[2] صحيح مسلم (٤/ ٢١٤٢).
[3] صحيح مسلم (٤/ ٢١٤٣).

﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تَحْسَبَنَّ﴾: لا تظن أيها المؤمن و يا أيّها النبي ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا﴾: بالذي ﴿أَتَوْا﴾: ما فعلوا من أشكال القبح ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿يُحِبُّون﴾: يُفضّلون ﴿أَنْ﴾: حرف توهم ﴿يُحْمَدُوا﴾: يريدون أنْ يمدحهم الخلق ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصول، بمعنى الذي، بسبب ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَفْعَلُوا﴾: ما فعلوا، وما عملوا، وما قالوا ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾: بالتأكيد لا تظنّهم ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿مَفَازَةٍ﴾: بنجاةٍ ﴿مِنَ﴾: حرف يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿الْعَذَابِ﴾: سيفوزون بالهروب من العذاب ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا فإنّ ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: تأكيدٌ أنّهم لن ينجوا من العذاب المؤلم جدًا.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٨٩)

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ﴾: إنّ الله ﷻ هو مالك كلِّ شيءٍ ﴿السَّمَاوَاتِ﴾: هي كل ما علا الأرض وأحاط بها من كلّ جوانبها؛ لكونها بيضاوية الشكل ﴿وَالْأَرْضِ وَ﴾: عطفًا على هذا فاعلم أنّ ﴿اللَّهُ عَلَى كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: تؤكد العموم؛ لأنّها جاءت بصيغة النكرة ﴿قَدِيرٌ﴾: القادرُ على كلّ شيءٍ، لا يُعجزه شيءٌ، فعليكم خشيته لا تخالفوه، فهو العظيم لا أعظم منه، القدير لا أقدر منه.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٠)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿فِي خَلْقِ﴾: إيجاد الشيء من غيرِ مثالٍ سابقٍ ﴿السَّمَاوَاتِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض، وأحاط بها؛ لكونها بيضاوية الشكل ﴿وَ﴾: أيضًا في خلق ﴿الْأَرْضِ﴾: في ارتفاعها، واتساعها، وكثافتها، وما فيها من المشاهد العظيمة، والكواكب فوقها، وفي ثوابت البحار، والجبال، والأشجار، والحيوان، والمعادن ﴿وَاخْتِلَافِ﴾: أيضاً في تعاقب، وتتابع ﴿اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: فكلّ منهما يطولُ ويقصرُ على مدار السنة، في تبادلٍ بديع ﴿لَآيَاتٍ﴾: دلائل، وبراهين واضحة ﴿لِ﴾: حرفُ تخصيص ﴿أُولِي﴾: أصحاب ﴿الْأَلْبَابِ﴾: العقول السليمة، التي تُدرك الحقائق على أصولها، فالذي خلق الكون خالق أعظم، ومن صفات أولى الألباب ما يلي:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٩١)

قال البخاري رحمه الله: بَابُ **﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾** عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَقُلْتُ: لَأَنْظُرَنَّ إِلَى صَلاَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَطُرِحَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وِسَادَةٌ، فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

فِي طُولِهَا، فَجَعَلَ يَمْسَحُ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ، ثُمَّ «قَرَأَ الآيَاتِ العَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ آلِ عِمْرَانَ، حَتَّى خَتَمَ ثُمَّ أَتَى شَنًّا مُعَلَّقًا، فَأَخَذَهُ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي فَقُمْتُ فَصَنَعْتُ مِثْلَ مَا صَنَعَ، ثُمَّ جِئْتُ فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِي، ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِي فَجَعَلَ يَفْتِلُهَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ أَوْتَرَ»[١].

﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾: جاء لفظ الذكر في القرآن الكريم هنا بمعنى الذكر باللسان الذين يذكرون الله ﷻ بألسنتهم، ويؤمنون بضمائرهم، وسرائرهم، وعلى كلِّ حالٍ من أحوالهم، وفي كل حين، وقيل هي الصلاة، والأحقُّ هو في الحالتين ﴿قِيَامًا﴾: واقفين ﴿وَ﴾: أيضًا يذكرونه ﷻ ﴿قُعُودًا﴾: وهم جالسون، أي في كلّ الحالات، إذا قدروا أو لم يقدروا على الوقوف ﴿وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾: وأيضًا يذكرون الله تعالى وهم مضطجعون على جنوبهم ﴿وَ﴾: أيضًا وعطفًا على هذا ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾: يتأملون؛ ليعرفوا الحقيقة ﴿فِي خَلْقِ﴾: إيجاد من غير سابق وجود ﴿السَّمَاوَاتِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض، وأحاط بها؛ لكونها كروية ﴿وَالْأَرْضِ﴾: يدركون ما فيها من عظمة الخلق، والقدرة، والعلم، والحكمة، والرحمة ﴿رَبَّنَا﴾: مالك أمرنا كلّه ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿خَلَقْتَ﴾: أوجدت من غير سابق مثال ﴿هَذَا﴾: الكون العظيم ﴿بَاطِلًا﴾: يمدحون الله ﷻ: إنّك لم تخلق هذا الكون عبثًا، أو بلا هدف، أو بلا فائدة ﴿سُبْحَانَكَ﴾: ننزهك عن النواقص والعيوب ونسألك ﴿فَ﴾: بسبب هذا ﴿قِنَا﴾: جنّبنا، وأبعدنا، ولا تكتب علينا ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾: أنْ نكون من أهل النّار أو نُعذّب فيها.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (١٩٢)

ويتقربون ويتوددون لله ﷻ بالاعتراف ﴿رَبَّنَا﴾: يا من خلقتنا ومالك أمرنا كلّه، ويؤكدون إيمانهم ﴿إِنَّكَ﴾: أنت سبحانك بالتأكيد ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس البشر ﴿تُدْخِلِ النَّارَ﴾: يصيرون في جهنّم ﴿فَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿أَخْزَيْتَهُ﴾: أهنته، وجعلته ذليلًا، وفضحته أمام الجميع، ويعترفون أنّه ﴿وَمَا﴾: أيضاً هنا نفي ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الظَّالِمِينَ﴾: الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم بسبب كفرهم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعض ﴿أَنْصَارٍ﴾: لا مجير، ولا مغيث، ولا شفيع يوم القيامة.

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ (١٩٣)

---

[١] صحيح البخاري (٦/ ٤١).

﴿رَبَّنَا﴾: تقربًا وحُبًّا واعترافًا يقولون يا مالك أمرنا كلّه ﴿إِنَّنَا﴾: نحن بالتأكيد ﴿سَمِعْنَا﴾: جاء لفظ "**السمع**" هنا بمعنى سمع الأذن، وهي أداةُ من أدوات الإدراك، وجاء المعنى الثاني للسمع، سمع القلب في قوله ﷻ ﴿**أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ**﴾ [هود–٢٠]، وفي قوله ﷻ ﴿**الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا**﴾ [الكهف–١٠١] ﴿مُنَادِيًا﴾: والمنادي قد يكون محمدًاﷺ وكلّ داعيةٍ ﴿يُنَادِي﴾: يقولُ بصوتٍ مرتفعٍ ومتكررٍ ﴿لِلْإِيمَانِ﴾: داعيًا للتوحيد، والمقصود هو محمد ﷺ ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل، وإنّ مضمون النداء هو أنْ ﴿آمِنُوا﴾: صدّقوا ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿رَبِّكُمْ﴾: يأمر بالإيمان بالله ﷻ أنّه المالك المتصرف في كلّ أمرٍ، والإقرار بأنّه ربّ البشر، وربّ كلِّ الكون، إلهًا واحدًا ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب والاستجابة السريعة ﴿آمَنَّا﴾: صدقنا بقناعة ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: بعد أنْ استجابوا واتّبعوا النبيّ ﷺ؛ طلبوا محو الذنوب، وستر العيوب ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾: أزل أيضًا عنّا ذنوبنًا وآثارها بيننا وبينك؛ دونَ فضيحةٍ في الدنيا، أو فضيحةٍ في الآخرة ﴿وَتَوَفَّنَا﴾: أيضاً اكتب أنْ يكون موتُنا، وبعثُنا، وحشرُنا ﴿مَعَ الْأَبْرَارِ﴾: مع الصالحين، الذين يفعلون الخيرات، ويذرون السيئات.

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (١٩٤)

﴿رَبَّنَا﴾: المنشئ للكون البديع بما ومن فيه، هو المربي إلى حدّ التمام؛ فهو مالك كلّ أمري ﴿وَآتِنَا﴾: وأيضًا هب لنا، واعطنا ﴿مَا﴾: الذي ﴿وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾: جاء على ألسنة الرسلِ، من ثوابِ الهدايةِ، والإيمان ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿تُخْزِنَا﴾: لا تفضحنا ولا تجعل وجوهنا ذليلةً مخزيةً، كنايةً عن العذاب ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: والخزي هنا هو العذاب، لا تفضحنا على رؤوس الخلائق ﴿إِنَّكَ﴾: أنت سبحانك بكلّ تأكيد ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾: إقرارٌ بالقولِ الحقّ، والإيمانِ بيومِ القيامة، بلا شكّ، وكان الرسول ﷺ يُكثر في الليل من أدعية هذه الآيات الكريمات.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (١٩٥)

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا أَسْمَعُ اللَّهَ ذَكَرَ النِّسَاءَ فِي الْهِجْرَةِ بِشَيْءٍ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ**

أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران-١٩٥][(١)]، **﴿فَ﴾**: حرفٌ يُفيد هنا سبب وسرعة الاستجابة، يسمى فاء التعقيب؛ أي بعد أنْ سأل المؤمنون ربّهم **﴿اسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾**: قبل الله ﷻ دعاءهم بما يأتي من الوعد **﴿أَنِّي﴾**: هو الله ﷻ **﴿لَا﴾**: حرف نفي **﴿أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾**: أنّي لا أُذهب أجرَ عملِ أيّ مخلوقٍ بلا ثواب، بل أُوفيه حقّهُ بالقسط **﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾**: بالعدل، ودون تمييزٍ بين ذكرٍ وأنثى، لا نزيد لذكر ولا ننقص لأنثى **﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾**: رجالكم مثل نسائكم في الطاعة، ونساؤكم مثل رجالكم فيها، بوصفهم تشعبًا من أصلٍ واحدٍ، الجميع من نسل آدم ﵇، وكلا الجنسين مُكلّفٌ من الله ﷻ، وكلاهما في الثواب متساويان **﴿فَ﴾**: حرفٌ استئنائي هنا بهدف ترتيب وتنفيذ الأمر دونَ تأخير **﴿الَّذِينَ﴾**: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ **﴿هَاجَرُوا﴾**: الذين تركوا دار الكفر، وذهبوا إلى دار الإيمان، وفارقوا الأهل والجيران **﴿وأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾**: كان خروجهم قسرًا؛ فقد أخرجهم الكفّار من بيوتهم بالأذى **﴿وَ﴾**: حرف عطفًا بمعنى أيضًا **﴿أُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾**: كان طردُهم من ديارهم إيذاءً لهم بسبب إيمانهم بالله ﷻ وحده **﴿وَقَاتَلُوا﴾**: في سبيل الله ﷻ؛ لرفع شأن دينه، وهذا أعلى المقامات **﴿وَقُتِلُوا﴾**: أيضًا فقدوا الحياة في سبيل الله ﷻ **﴿لَ﴾**: حرف علّةٍ وسببٍ **﴿أُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾**: يؤكد الله ﷻ في هذه الإجابة بلام ونون التأكيد؛ غفران الذنوب، والغفران لسيئاتهم التي حدثت في الدنيا **﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾**: أيضاً بالتأكيد **﴿جَنَّاتٍ﴾**: وليس جنّة واحدة، **﴿تَجْرِي مِنْ﴾**: حرفُ جرٍّ يُفيد بداية الغاية المكانيّة **﴿تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾**: تجري فيها كلُّ المشارب الطيبة، التي جاءت في كتاب الله ﷻ اللبنُ، والعسلُ، والخمرُ، والماءُ غير الآسن وغير ذلك **﴿ثَوَابًا﴾**: عوضًا عمّا فقده المؤمن في حياته الدنيا، جزاء **﴿مِنْ﴾**: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الكليّة **﴿عِنْدِ اللَّهِ﴾**: نسب الله ﷻ هذا الثواب إليه، ليدلّ على عظم الثواب، فالكريم إذا أعطى أجزل **﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ﴾**: في ملكِه، بيده **﴿حُسْنُ الثَّوَابِ﴾**: الجزاء الحسن، الذي لا مثيل له في الدنيا.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (١٩٦)

﴿لَا﴾: حرف نهي وتحريم **﴿يَغُرَّنَّكَ﴾**: لا يخدعنّك أيها النبيّ، وهو نداء لكلِّ مؤمنٍ بالنبي ﷺ **﴿تَقَلُّبُ﴾**: تصرف وتنقلُ في الأسفار، وتنعّمُ الكفّار بالمال والولد، والأرض، ووسائل الترف، والسرور، والخير الوفير، والجاه والسلطان **﴿الَّذِينَ﴾**: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ **﴿كَفَرُوا﴾**: غطّوا، وأخفوا، وأنكروا **﴿فِي الْبِلَادِ﴾**: يُحددُّ اللهُ ﷻ للرسول ﷺ وللمسلمين أسلوب الكافرين الذين غطّوا، وأخفوا، وأنكروا حقّ المسلمين في البلاد، ولم يقل بلاد وكأنّها تُقالُ لكلِّ قومٍ معروفةٍ

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٣٢٨)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ».

عندهم البلاد، وفي حالِ فلسطين يمكن الفهم لا يغرنكم أيّها المسلمون تقلب الاحتلال في بلادكم؛ وفي آسيا، وأفريقيا، وأمريكا؛ حيث اضطهاد البشر.

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١٩٧)

﴿مَتَاعٌ قَلِيل﴾: استمتاعٌ قصيرُ الأجل، لا يُقارن بثواب الله ﷻ في الدنيا وفي الآخرةِ، وإنْ كانت أدوات الاستمتاع كثيرة. فقد جاء ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان-٢٤]، وعن مدّةِ الاستمتاع ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق-١٧] ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني مع التباعد والتراخي ﴿مَأْوَاهُمْ﴾: مآلهم، ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُ وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿بِئْسَ﴾: فعلٌ جامدٌ للذمّ من سوءٍ، وشرٍ، وذمٍ، وهو ذكر المساوئ وهو عكس المدح ﴿الْمِهَادُ﴾: فراشهم ومخادعهم يوم القيامة، المكان الذي يبيتون فيه.

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ (١٩٨)

﴿لَكِنِ﴾: حرف عطف واستدراك ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾: يُستثنى من هؤلاء الذين أيقنوا بالله ربًّا بقناعة؛ أي مالك أمرهم كلّه، طمعًا في رحمته، وأيقنوا بعذابه، خوفًا من عذابه، فعملوا بأوامره؛ وانتهوا عن نواهيه ﴿لَهُمْ﴾: سيعطيهم ويثيبهم ﴿جَنَّاتٌ﴾: وليست جنّة واحدة ﴿تَجْرِي مِنْ﴾: حرف جر يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: فيها كلُّ المشارب الطيبة، التي تجري تحت القصور ﴿خَالِدِينَ﴾: باقين بلا انقطاع ﴿فِيهَا﴾: في الجنّة ﴿نُزُلًا﴾: ضيافةً ومكرمةً ﴿مِنْ عِنْدِ﴾: حرف ظرف يُفيد المكان؛ أي المُلك ﴿اللَّهِ وَمَا﴾: الذي ﴿عِنْدَ﴾: من ملك ﴿اللَّهِ خَيْرٌ﴾: وجزاءٌ، هم نزلاء في الأماكن، والدرجات التي حددها ﷻ، لا يغادرونها، هذه مساكنهم ماكثين فيها أبدًا ﴿لِ﴾: حرف تخصيص وتمليكِ ﴿الْأَبْرَارِ﴾: هذه تسمية الله ﷻ لصنفٍ من البشر، الذين أحسنوا إلى الآباء، والأبناء، والضعفاء وأبروهم؛ فوعدهم الله ﷻ وعدًا حسنًا.

التكليف: إنّ ما عند اللهُ ﷻ، وما أعدّهُ للطائعين والعاملين في مجال الدعوة أعظمُ درجة ومنزلة، ومآلًا مما يجمعه الكفار من كسب.

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٩٩)

﴿وَ﴾: حرف عطف بمعنى أيضًا هنا جمع بين متعاطفين ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعض ﴿أَهْلِ﴾: من اليهود والنصارى، أصحاب ﴿الْكِتَابِ﴾:

الحديث عن طائفة من اليهود والنصارى وليس كلّهم ﴿لَ﴾: حرف تخصيص ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يُؤْمِنُ بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ﴾: شهادة من الله ﷻ أنّهم يؤمنون به حق الإيمان، ويؤمنون أيضًا ﴿وَمَا﴾: الذي ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾: ما نزل على محمد ﷺ وأمّته ﴿وَمَا إِلَيْهِمْ﴾: من الرسل والكتب الحق؛ التي لم تتغير، ولم تتبدل، ولم تتناقض مع ما نزل على النبي الخاتم والكتاب الكريم ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾: خاضعين، متذللين لله ﷻ، ومطيعين ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: لا يتخلون عن اتباع محمدٍ ﷺ طلبًا لمنصبٍ أو جاهٍ، لا يبيعون الإيمان بأثمان قليلة، أو كثيرة، ولا يكتمون ما عندهم، ومنها حقيقة بعثة محمد ﷺ، وذكر صفاته، وأخلاقه، وصفة أُمّته، وكان عبد الله بن سلام منهم ومعه عشرة فقط من اليهود، الذين آمنوا بالدين؛ والرسول الجديد، أمّا النصارى فمنهم منقادون للإسلام طواعية ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ﴾: تحديدًا وتخصيصًا ﴿أَجْرُهُمْ﴾: ثواب عملهم، قيل أجرهم مرّتين، الأول إيمانهم بما جاء في كتبهم، والثاني إيمانهم بما نزل على محمدٍ ﷺ ﴿عِنْدَ﴾: حرف يفيد ظرف زمان ومكان ﴿رَبِّهِمْ﴾: أصحاب هذه الصفات لهم ثوابهم الكبير عند خالقهم ومالك أمرهم كلّه ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: سريع الإحصاء، حسابه في الدنيا، أو في الآخرة، والحساب المقصود هنا ثواب المؤمنين؛ لأنّ الكلمات جاءت في وصف أُناسٍ مؤمنين من أهل الكتاب، عن أَبِي بُرْدَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَاهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الأَمَةُ، فَيُعَلِّمُهَا فَيُحْسِنُ تَعْلِيمَهَا، وَيُؤَدِّبُهَا فَيُحْسِنُ أَدَبَهَا، ثُمَّ يُعْتِقُهَا فَيَتَزَوَّجُهَا فَلَهُ أَجْرَانِ، وَمُؤْمِنُ أَهْلِ الكِتَابِ، الَّذِي كَانَ مُؤْمِنًا، ثُمَّ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَالعَبْدُ الَّذِي يُؤَدِّي حَقَّ اللَّهِ، وَيَنْصَحُ لِسَيِّدِهِ[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢٠٠)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿آمَنُوا﴾: نداء ربّاني من الله ﷻ؛ موجّه للذين آمنوا، وحتى يكتمل إيمانهم؛ فإنّ الله يأمرهم بفعل الخيرات، ومنها ﴿اصْبِرُوا﴾: عليكم الصبر على تكاليف دين الإسلام، فلا تتركوه بسبب السرّاء، أو الضرّاء، أو الشدّة، أو الرخاء، حتى تموتوا وأنتم عليه مسلمين، والصبر على الشهوات وعلى تطبيق الشريعة، ﴿وَصَابِرُوا﴾: أيضًا المصابرة على كيد ومحاربة الأعداء، وهي أشدُّ من الصبر، الذين يكيدون للإسلام، الذين طوّعوا أنفسهم، وأهواءهم، ورغباتهم ﴿وَرَابِطُوا﴾: أيضًا عليكم ملازمة الثغور؛ والحدود متأهبين للدفاع، وقيل المداومة في

---

[1] صحيح البخاري (٤/ ٦٠).

مكان العبادة، والثبات هنا دعوة لحماية المساجد وعُمّارها، واصبروا، في انتظار الصلاة بعد الصلاة، يؤكد ذلك ما جاء في حديث الرسول ﷺ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ[١]، واصبروا في مرابطة الغزو: حفظ ثغور المسلمين وحمايتها، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا العَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوِ الغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»[٢]، عَنْ سَلْمَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ»[٣]، عن فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنَّهُ يُنْمَى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَيَأْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ، وَسَمِعْتُ رَسُولَ ﷺ يَقُولُ: الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ[٤]، وعن رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ[٥]، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يُنْمَى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَيَأْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ[٦] وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ[٧] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: عطفًا على ما جاء تجنبوا غضبه، واطلبوا رحمته في جميع الأمور، والأحوال، عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ[٨] ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: إذا جاء اللفظ لعلّ في القرآن الكريم من اللهِ ﷻ تعنى التحقق، أي أنّ الوقوع آتٍ لا محالة ﴿تُفْلِحُونَ﴾: بمعنى تنالون في الدنيا ما تُريدون، وفي الآخرةِ تُحققون ما تطمعون من نعيم.

---

[١] سنن النسائي /١/٨٩(١٤٣). قال الألباني: صحيح.
[٢] صحيح البخاري (٤/ ٣٥).
[٣] صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٠).
[٤] سنن الترمذي ت بشار (٣/ ٢١٧) وقال حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
[٥] صحيح مسلم /٣/١٥٢٠(١٩١٣).
[٦] سنن الترمذي /٤/١٦٥(١٦٢١). قال الترمذي: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
[٧] سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ١٧٥) وصححه الألباني.
[٨] سنن الترمذي /٤/٣٥٥(١٩٨٧). قال الترمذي: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

سُمّيت هذه السورة في كلام السلف سورة النساء، وكذلك سُميّت في المصاحف وفي كُتب السنّة وكُتبِ التفسير، ولا يعرف لها اسم آخر. ووجه تسميتها بإضافة إلى النساء أنها افتتحت بأحكام صلة الرحم، ثم بأحكام تخص النساء، وأنّ فيها أحكامًا كثيرة من أحكام النساء: الأزواج، والبنات، وختمت بأحكام تخص النساء، وهي سورة مدنية، وقد عُدّت الثالثة والتسعين من السور، نزلت بعد سورة الممتحنة، وقبل سورة إذا زلزلت الأرض، وعدد آياتها: مائة وخمس وسبعون في عدد أهل المدينة ومكّة والبصرة، ومائة وست وسبعون في عدد أهل الكوفة، ومائة وسبع وسبعون في عدد أهل الشام. قال ابن عباس: نزلت سورة النساء في المدينة، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، قَالَ: إِنَّ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ لِخَمْسَ آيَاتٍ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِيَ بِهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾** [النساء-٤٠] **﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾** [النساء-٣١] **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾** [النساء-٤٨] **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾** **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾** [النساء-١١٠] قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِيَ بِهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا[1]، وجاء سابقًا أنّ سورة الفاتحة حدّدت الصنف الأول من البشر، وهم المسلمون: الذين أنعم الله ﷻ عليهم، وبرّأت المسلمين من اليهود المغضوب عليهم، وأيضًا برأتهم من النصارى الضالّين، وكانت سورة البقرة في المغضوب عليهم من بني إسرائيل، وكانت آل عمران في الضالّين أي النصارى، وتأتي سورة النساء لتُنظّم، وتُحصّن المجتمع المسلم، وتحقق في واقع المجتمعات المسلمة الحقوق الاجتماعية، والمالية، وعمارة الأسرة، وكانت المرأة الأم، والزوجة، والابنة الركن الأساس فيه؛ حيث أن سورة النساء تهتم بالأسرة المسلمة، التي تحافظ على مالها؛ فلا يتبدد من سوء التصرف، وهي تقوى المجتمع المسلم الذي جاء ذكره في سورة الفاتحة الذين أنعمت عليهم.

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم ٢/ ٣٣٤(٣١٩٤) وقال: هذا حديث صحيح إن كان عبد الرحمن سمع من أبيه؛ فقد اختلف في ذلك، وأقره الذهبي.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١)

أسباب النزول: وعَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ [النساء-١] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، ﴿**إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ [النساء-١] وَالْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: ﴿**اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ**﴾ [الحشر-١٨] «تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ، حَتَّى قَالَ: وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ، كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[1]، ﴿**يَا أَيُّهَا**﴾: كلمةُ نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿**النَّاسُ**﴾: وهي تُذكّر بني آدم، بأصل خلقهم، من آدم عليه السلام، فعموم البشر أخوة في الإنسانية، حتى لا يقوى أحدُهم على الآخر، فلا يقطعوا الأرحام، يُخاطب الله ﷻ عموم البشر كلّهم بكلمة النّاس، ويخاطب المؤمنين بصيغة الذين آمنوا، وهذه الآية تتحدث عن بني آدم، الإنسان، ومن المعلوم أنّ الإنسان هو أعظم مخلوقٍ إلكتروني على كوكبنا الأرضي، فله مجالٌ مغناطيسي، يُرسل ويستقبل الإشارات الكهربائية والمغناطيسية، ويوجد بداخله دورة كهرومغناطيسية متكاملة تربطه بكل ما يحيط به في هذا الوجود ﴿**اتَّقُوا**﴾: تجنبوا الغضب كلّه، إنّ تقوى الله ﷻ هي الخشية والخوف منه؛ احفظوا أنفسكم مِنْ ﴿**رَبَّكُمُ**﴾: مالك أمركم، مِنْ غضبِ الذي خلقكم، وهو المالك لكم، واكسبوا رضاه، بعبادته بيقين، وإدراك؛ طمعًا في جنّته، وانتهوا عن عصيانه، بيقينٍ وقناعةٍ؛ خوفًا من سخطه ﴿**الَّذِي خَلَقَكُمْ**﴾: الخلق هو إيجاد الشيء من غير سابق وجود، فلم يكن جنس الإنسان موجودًا قبل آدم عليه السلام ﴿**مِنْ**﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿**نَفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾:

---

[1] صحيح مسلم ٢/ ٧٠٤(١٠١٧).

من آدم عليه السلام، بلا أبٍ أو أمٍّ، خلقه من ترابٍ ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا﴾: أيضًا أوجد من غير سابق وجود النفس الأولى ﴿زَوْجَهَا﴾: خلق حواء عليها السلام، من ضلعه الأيسر من خلفه، وهو نائم؛ فاستيقظ فرآها؛ فأعجبته، فأنس لها و مال إليها، وأنست إليه ﴿وَبَثَّ﴾: أيضًا أوجد بالتكاثر، بكثرةِ عددٍ، وكثرةِ توزيع؛ فأصلُ البث هو التفريق، وإثارة الشيء؛ كبث الريح التراب ﴿مِنْهُمَا﴾: وخلق ﷻ من آدم وحواء عليهما السلام ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾: رجالًا ونساءً كثيرين، انتشروا في الأرض، واختلفت ألوانهم وألسنتهم، وكلّهم يعود لله ﷻ يوم القيامة ﴿وَ﴾: حرف عطف بمعنى أيضًا ﴿اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾: فيها أقوال: اتقوا الله بطاعتكم له، أو الذي تُسألون عنه، كما يُقال أسألك بالله أنْ تفعل، وأسألك بوالدك أو والدتك، أو الذين تعاقدوا وتعاهدوا بالقسم به، أو شهادته ﷻ عليكم ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾: قرأ بعضهم والأرحام أي: تساءلون بالله وبالأرحام، كما قال مجاهد وغيره، وقيل اتقوا الله بعدم قطع الأرحام، واتقوه بالبر بها، وصلتها ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ﴾: اسم الخالق البارئ المصور ﷻ ﴿كَانَ عَلَيْكُمْ﴾: ولا يزال وسيبقى ﴿رَقِيبًا﴾: مطلعًا حافظًا لأعمال الخلق، مراقبًا لجميع أحوال، وأعمال الخلائق، لا يفوته شيء منها، يحصيها ويعدّها، ويجازي بها، والرقبةُ اسمٌ للعضو المعروف بين الرأس والصدر، والمَرقبُ المكان العالي الذي يشرف عليه الرقيب، والرقوب هي المرأة التي ترقب موت ولدها.

التكليف: ينظر الله ﷻ إلى خلقه، برحمته الواسعة، ويأمر من رزقهم من النّاس أنْ ينظروا إلى فقرائهم، وأرحامهم، والمجتمع بكامله، نظرة عطفٍ، وتكافلٍ، وتكاملٍ كالماء الذي ينزل من قمة الجبل إلى الأودية، ثم إلى كلّ نبات، فكانت الزكاة والصدقة جزءًا من دين المسلمين.

﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (٢)

﴿وَ﴾: حرف عطف بمعنى أيضًا ﴿آتُوا﴾: يقول الله ﷻ للأوصياء والأولياء ادفعوا إلى ﴿الْيَتَامَى﴾: الذين فقدوا آباءهم، ولم يبلغوا الحُلم؛ وأعطوا اليتامى ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾: التي رزقكم الله ﷻ، حقوقهم؛ إذا بلغوا الحُلم كاملة، ولا تضمّوها لأموالكم، وهذا من أشرف حقوق الإنسان ﴿وَلَا﴾: مُحرّمٌ عليكم أيضًا أنْ ﴿تَتَبَدَّلُوا﴾: وضع مالٍ محلَ مالٍ آخر، أي أخذ أموال غير مستحقة لكم ﴿الْخَبِيثَ﴾: المال الحرام، الخسيس، وتقال عن الضعيف الهزيل من الدواب، وهي الأموال الزائفة ﴿بِ﴾: حرف باء المقابلة ﴿الطَّيِّبِ﴾: هو ما تقبله الحواس، وتتمتع به الأنفس من المال الطيب الحلال، وتعني السمين من الدواب، والأموال الصحيحة غير المزيفة ﴿وَلَا

﴿تَأْكُلُوا﴾: أيضًا لا تضموا ﴿أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾: يُحرّم الله ﷻ خلط الأموال؛ ليأكل منها جميعًا من لا يحق له ﴿إِنَّهُ﴾: هذا المنهج ﴿كَانَ حُوبًا﴾: إثمًا وخطأ ﴿كَبِيرًا﴾: وتنطبق هذه الصفات على غير الأموال، وصف الرسول ﷺ ذلك قائلًا: إِنَّ طَلَاقَ أُمِّ أَيُّوبَ لَحُوبٌ[1].

التكليف: من حقوق الإنسان الإحسان إلى الضعفاء من النّاس، مثل اليتامى، والنساء، والمعاملة المالية بالعدل.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ (٣)

أسباب النزول: سَأَلَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن قوله ﷻ: **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾** [النساء-٣]، قَالَتْ: هِيَ اليَتِيمَةُ فِي حَجْرِ وَلِيِّهَا، فَيَرْغَبُ فِي جَمَالِهَا وَمَالِهَا، وَيُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِأَدْنَى مِنْ سُنَّةِ نِسَائِهَا، فَنُهُوا عَنْ نِكَاحِهِنَّ، إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ فِي إِكْمَالِ الصَّدَاقِ، وَأُمِرُوا بِنِكَاحِ مَنْ سِوَاهُنَّ مِنَ النِّسَاءِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: ثُمَّ اسْتَفْتَى النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: **﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾** [النساء-١٢٧]، قَالَتْ: فَبَيَّنَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الآيَةِ: أَنَّ اليَتِيمَةَ إِذَا كَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ، وَمَالٍ رَغِبُوا فِي نِكَاحِهَا، وَلَمْ يُلْحِقُوهَا بِسُنَّتِهَا بِإِكْمَالِ الصَّدَاقِ، فَإِذَا كَانَتْ مَرْغُوبَةً عَنْهَا فِي قِلَّةِ المَالِ وَالجَمَالِ تَرَكُوهَا وَالتَمَسُوا غَيْرَهَا مِنَ النِّسَاءِ، قَالَ: فَكَمَا يَتْرُكُونَهَا حِينَ يَرْغَبُونَ عَنْهَا، فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَنْكِحُوهَا إِذَا رَغِبُوا فِيهَا، إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهَا الأَوْفَى مِنَ الصَّدَاقِ وَيُعْطُوهَا حَقَّهَا[2].

﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط بمعنى إذا ﴿خِفْتُمْ أَلَّا﴾: حرفُ تنبيهٍ ﴿تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾: ألّا تعدلوا، ولا تنصفوا إذا تزوجتم اليتيمات اللاتي تحت ولايتكم؛ وخوفًا ألّا تعطوهن مهورهن كاملة، أو خفتم الإساءة إليهن ﴿فَـ﴾: حرف هنا يفيد السبب ﴿انْكِحُوا﴾: فتزوجوا ﴿مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾: ما استحسنتم ورأيتموهن طيبات، أي موافقات، ومناسبات لكم، وعن عددهن و"**ما**" هنا تعني الذي ﴿مَثْنَى﴾: اثنتين ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ هنا تفيد التخيير ﴿ثُلَاثَ﴾: أيضًا ثلاثة ﴿وَرُبَاعَ﴾: أربعة وليس أكثر من ذلك في وقتٍ واحدٍ ﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿خِفْتُمْ أَلَّا﴾: حرف يفيد التنبه ﴿تَعْدِلُوا﴾: تأكدتم أنّكم لنْ تعطوهن حقوقهن في النفقة وسائر الحقوق بالتساوي، ولا تُحققوا العدل في المعاملة ﴿فَـ﴾: حرفٌ يفيد هنا الجواب ﴿وَاحِدَةً﴾: تزوجوا واحدةً فقط ﴿أَوْ﴾: حرف عطف يفيد هنا التخيير ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: من الإماء؛ لأنّ حقوقهن أقل من

---

[1] المراسيل لأبي داود/١٩٧(٢٣٣). قال الألباني في الضعيفة ٢٥٤/١٤: وهذا إسناد صحيح، ولكنه مرسل.

[2] صحيح البخاري ٤/ ٩(٢٧٦٣).

حقوق الزوجات ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر عنها اللهُ ﷻ، في هذه الحالة ﴿أَدْنَىٰ﴾: أقرب ﴿أَلَّا﴾: حرف يفيد التخصيص؛ أي حتى لا ﴿تَعُولُوا﴾: تكثر عيالكم؛ فتفقروا، والعيلة هي الفقر؛ وتعني زيادة العيال، ومعنى آخر يقول: حتى لا تظلموا وتجوروا؛ أنْ تميلوا، لا يجوز للرجل أن يتزوج أكثر من أربعة من النساء في وقتٍ واحدٍ، باستثناء الرسول ﷺ، والأمثلة في صحابة رسول الله ﷺ متوافرة، الصحابي غيلان بن سلمة كان عنده عشرة من النساء قبل إسلامه وإسلامهن؛ فأمره أنْ يختار منهن أربعًا فقط. فعَنْ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ غَيْلَانَ بْنَ سَلَمَةَ الثَّقَفِيَّ أَسْلَمَ وَلَهُ عَشْرُ نِسْوَةٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَأَسْلَمْنَ مَعَهُ، «فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَتَخَيَّرَ أَرْبَعًا مِنْهُنَّ»[1].

﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ (٤)

﴿وَ﴾: حرف عطف بمعنى أيضًا ﴿آتُوا﴾: الأمر هنا للرجال؛ فعليهم أنْ يعطوا ﴿النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ﴾: المهور الواجبة، مهورهن، وقيل هي للأب؛ يأخذ من صداق ابنته؛ فنهاهم القرآن عن ذلك ﴿نِحْلَةً﴾: المهر فريضة واجبة؛ يصبح صداق المرأة واجبًا على الرجل ﴿فَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿طِبْنَ﴾: تبرعن وتصدقن ﴿لَكُمْ عَنْ﴾: حرف جر يفيد مِنْ ﴿شَيْءٍ﴾: حرف يفيد العموم ﴿مِنْهُ﴾: من المهور ﴿نَفْسًا﴾: رضيت نفوسهن بالعطاء دون إكراه، فإنْ سامحته، أو أعطته من صداقها عن طيبِ خاطرٍ، بعد تسمية الصداق ﴿فَـ﴾: حرف يفيد هنا ربط جواب الشرط ﴿كُلُوهُ﴾: فليأكله الزوج ﴿هَنِيئًا﴾: حلالًا ﴿مَرِيئًا﴾: طيبًا، سائغًا، لا تنغيص؛ وفي هذا تحصين للزواج الناجح، المبني على الالتزام بالحقوق والواجبات.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٥)

﴿وَلَا﴾: نهي وتحريم ﴿تُؤْتُوا﴾: لا تعطوا، وهذا أمرٌ موجّه إلى أولياء الأمور ﴿السُّفَهَاءَ﴾: هم الذين لا يُحسنون التصرف، ومنهم صغير السن، والمجنون، وناقص العقل، وناقص الدين، والمفلس المحجور عليه، واليتامى، والنساء اللائي لا يطعن القيّم عليهن ﴿أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: تمليكًا وتخصيصًا ﴿قِيَامًا﴾: التي جعلها الله ﷻ لكم سببًا تقوم عليه معيشتكم؛ وتتحقق به مصالح العباد، ومصاريف حياتهم ﴿وَ﴾: حرف عطف بمعنى أيضًا ﴿ارْزُقُوهُمْ﴾: أعطوهم ﴿فِيهَا﴾: منها ﴿وَاكْسُوهُمْ﴾: ألبسوهم ملابسَ مناسبة ﴿وَقُولُوا لَهُمْ﴾: أيضاً أوجب اللهُ

[1] سنن الترمذي ٣/ ٤٢٧(١١٢٨) وصححه الألباني.

ﷻ عليكم القول لهم ﴿قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: عدوهم وعدًا صادقًا؛ أنْ تردوا إليهم أموالهم كاملة؛ إذا بلغوا الرشد، أو تعافوا من الأمراض، وغيرها.

التكليف: أولًا: هذه تعاليم تحصين بناء الأسرة، وخاصّة المرأة وهي العنصر الضعيف فيها؛ وهذه من أعظم حقوق الإنسان الخاصّة بالضعفاء، وهي تعني: لا تضع مالك الذي تنفق معه على عيالك، وتسيّر به معيشتك، لا لزوجتك أو بنتك، ثم تنتظر ما يعطونك ممّا في أيديهن، لكنْ أمسك عليك مالك، واستثمره، وكنْ أنت الذي يُنفق عليهن.

ثانيًا: هنا مشروعية الحَجر على أموال السفيه.

ثالثًا: هذه مشروعية تحصين الأسرة، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ثَلَاثَةٌ يَدْعُونَ اللَّهَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ: رَجُلٌ كَانَتْ تَحْتَهُ امْرَأَةٌ سَيِّئَةَ الْخُلُقِ فَلَمْ يُطَلِّقْهَا، وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ عَلَى رَجُلٍ مَالٌ فَلَمْ يُشْهِدْ عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ آتَى سَفِيهًا مَالَهُ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ﴾[1].

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٦)

﴿وَ﴾: حرف عطف بمعنى أيضًا ﴿ابْتَلُوا﴾: بالمال اختبروا، وامتحنوا يا أيها الأوصياء أخلاق ﴿الْيَتَامَى﴾: الذين فقدوا الأب والأم، لمعرفة درجة نجابته، ودرجة حسن تصرفه، بشيء من المال ويأمره بالتصرف فيه؛ حتى يعلم كيف يتصرف ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾: قال مجاهد: بلغوا الحُلم، وهو رأي جمهور العلماء؛ أي أنْ تفرز الخصية السائل المنوي في الذكر، ويفرز مبيض الأنثى البويضة، ويكون الحيض، أي توافرت عناصر ما يُنجب الولد. عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْمُبْتَلَى حَتَّى يَبْرَأَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَكْبُرَ[2]، ﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿آنَسْتُمْ﴾: رأيتم، لاحظتم، وأدركتم، وتأكدتم ﴿مِنْهُمْ﴾: حرفٌ يفيد بداية الغاية ﴿رُشْدًا﴾: أولًا: صلاحًا في دينهم، وثانيًا: حفظهم، وحسن التصرف في أموالهم بعد التبذير، وثالثًا وضع المال في موطنه ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا ربط الجواب ﴿ادْفَعُوا﴾: أرجعوا ﴿إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾: يُسلم الوصيُّ على المال دونَ تأخير ما عنده من مالٍ لصاحبه الذي بلغ الحُلم؛ أي بلغ سنّ الرشد ﴿وَلَا﴾: حرف نهي يُحرّم ﴿تَأْكُلُوهَا

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم ٢/ ٣٣١(٣١٨١) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

[2] سنن أبي داود٦/٤٥٢(٤٣٩٩) قال الأرناؤوط: حديث صحيح.

﴿إِسْرَافًا﴾: إنفاقًا من غير ضرورة، تبذيرًا متجاوزين الحدود ﴿وَ﴾: حرف عطف بمعنى أيضًا، لا تنفقوها ﴿بِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾: أي مسارعة؛ بمعنى لا تبادروا ولا تسرعوا بأكل أموالهم قبل بلوغهم الحلم ﴿وَمَنْ﴾: بمعنى الذي من جنس العاقل ﴿كَانَ﴾: وإذا كنت ﴿غَنِيًّا﴾: عندك من المال ما يغنيك ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا ربط الجواب ﴿لْ﴾: حرف يفيد هنا الأمر ﴿يَسْتَعْفِفْ﴾: يكف ولا يأكل منه شيئًا، فالمال عليه كالميتة والدم ﴿وَمَنْ﴾: الذي من البشر ﴿كَانَ فَقِيرًا﴾: نزلت في والي اليتيم الذي يربيه، ويُعلّمه، ويصلحه إذا كان محتاجًا ﴿فَلْيَأْكُلْ بِ﴾: حرف باء الالتصاق والصلة ﴿الْمَعْرُوفِ﴾: بقدر قيامه على اليتيم، وهو واجبٌ؛ من أجل الآخرين، قدر حاجته ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد الاستئناف ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾: أرجعتم ما تبقى من ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾: عند بلوغ اليتيم سن الحُلم، وتحقق إيناس الرشد؛ سلّموهم جزءًا من أموالهم، يتصرفون فيها، وراقبوهم؛ فإنْ أحسنوا ﴿فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾: استخدموا شهودًا عليهم؛ حتى لا يقع من بعض اليتامى جحودٌ، وإنكارٌ لما قبضوه ﴿وَكَفَى﴾: يكفيكم، والكف هو سد الخلة، وبلوغ المراد في الأمر ﴿بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾: محاسبًا، وشاهدًا، على الأولياء، هل ما أعادوه كان كاملًا أم ناقصًا.

التكليف: هل يردُّ الواليُّ المال الذي أكلهُ سابقًا إذا أصبح ميسورًا؛ فيها أقوال:

الأول: لا، لأنّه أكل بأجرِ عملِهِ، وكان فقيرًا وهذا هو الأصح، **والثاني:** نعم يُردُّ المال؛ لأنّ القاعدة هي النهي والحظر على مال اليتيم، فيُرد المال كأكل مال الغير للمضطر. **والثالث:** يأكل من ماله ولا يأكل من مال اليتيم؛ إلّا في حال الاضطرار بسبب الفقر والحاجة.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ (٧)

﴿لِ﴾: حرف تمليك وتخصيص ﴿الرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾: حصّة، كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار، ولا يورّثون النساء والأطفال شيئًا؛ فجاء الحُكم ﴿مِمَّا﴾: بعض أو جزء ﴿تَرَكَ﴾: الميراث ﴿الْوَالِدَانِ﴾: إذا مات الأب والأم ﴿وَالْأَقْرَبُونَ﴾: أيضاً للأقارب نصيب مثل الإخوة، والأعمام، بعد موتهم ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ﴾: أيضاً للبنات نصيب بعكس حال الجاهلية؛ حيث لا حقوق للمرأة في ميراث والديها، وهو معلوم، وموضّح في الإسلام من الله ﷻ ﴿مِمَّا﴾: بعض أو جزء ﴿تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾: كان قليلًا ﴿أَوْ كَثُرَ﴾: زاد، يوجب خروج النصيب، مهما كان حجمُ وقيمةُ الميراث ﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾: واجبًا، توزيع الحصص، كما جاء في القرآن، مثل: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء–١١]، والحكم هنا: يُوزّع الميراث على الجميع، يستوون في

أصل الوراثة؛ للرجال، وللنساء، والأطفال، والأقربين، أو أزواج، أو زوجات؛ بحسب ما فرض الله ﷻ للجميع من النصيب.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٨)

﴿وَإِذَا﴾: حرف يفيد هنا الزمان للمستقبل ويفيد المفاجأة، وقت حضور القسمة ﴿حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾: وقت توزيع حصص الورثة ﴿أُولُوا﴾: أصحاب ﴿الْقُرْبَى﴾: من الأقارب الفقراء، عند توزيع التركة، الذين ليس لهم حقٌ في الميراث ﴿وَالْيَتَامَى﴾: أيضًا الذين مات عائلُهم ﴿وَالْمَسَاكِينُ﴾: أيضًا هم الفقراء ممن ليس لهم نصيب مفروض في الميراث ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا سبب وسرعة التنفيذ ﴿ارْزُقُوهُمْ﴾: أي أعطوهم ﴿مِنْهُ﴾: بعضًا أو جزءًا من هذا الرزق؛ على سبيل المودّة، والمحبّة؛ وتطييب النفوس ﴿وَقُولُوا﴾: أسمعوهم ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿قَوْلًا﴾: كلمات ﴿مَعْرُوفًا﴾: قولًا كريمًا، حسنًا، بلا تفضّل أو منّة.

الحكم الشرعي: كان ذلك واجبًا في بداية الإسلام؛ وفيها أقوال: **الأول**: عن ابن عباس ﵁: أنّ الآية مُحكمة، وليست منسوخة. **والثاني**: موقف الأئمة الأربعة، وجمهور الفقهاء: كما نقلها عكرمة عن ابن عباس: أنّها منسوخة؛ نسختها الآية التي بعدها، وآيةُ الميراث.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٩)

﴿وَ﴾: حرف عطف بمعنى أيضًا ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يَخْشَ﴾: يخاف ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد الجمع، هنا هم الأوصياء، لو ماتوا؛ مثل الكبار، والمرضى، والمحاربين ﴿لَوْ﴾: حرف يفيد الاستحالة ﴿تَرَكُوا مِنْ﴾: حرف جر يفيد بداية الغاية الزمانيّة، أي الوقت ﴿خَلْفِهِمْ﴾: ماتوا، وتركوا خلفهم أولادهم؛ والذين تحت ولايتهم ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾: صغارًا، أو مرضى، أو ضعفاء ﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾: يخشون عليهم من بعدهم الفقر، والعوز، من الأيتام، والفقراء من أولادهم، ومن يحضرون الوصية والقسمة ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا ربط جواب الشرط ﴿لْ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يَتَّقُوا﴾: ليخافوا ﴿اللَّهَ﴾: ﷻ في أخذ أموال اليتامى ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾: هو القول السليم، والصواب الذي سمعوه، أي الشهادة الحق، وهي التي لا تُخالف الشرع، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء-٩]، يَعْنِي الرَّجُلَ يَحْضُرُهُ الْمَوْتُ فَيُقَالُ لَهُ: تَصَدَّقْ مِنْ مَالِكَ، وَأَعْتِقْ، وَأَعْطِ مِنْهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَنُهُوا أَنْ يَأْمُرُوهُ بِذَلِكَ، يَعْنِي مَنْ حَضَرَ مِنْكُمْ مَرِيضًا عِنْدَ الْمَوْتِ فَلَا يَأْمُرُهُ أَنْ يُنْفِقَ مَالَهُ فِي الْعِتْقِ

وَالصَّدَقَةِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَكِنْ يَأْمُرُهُ أَنْ يُبَيِّنَ مَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ دَيْنٍ وَيُوصِي مِنْ مَالِهِ لِذِي قَرَابَتِهِ الَّذِينَ لَا يَرِثُونَ، يُوصِي لَهُمْ بِالْخُمُسِ أَوِ الرُّبُعِ، يَقُولُ: أَيَسُرُّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ وَلَهُ وَلَدٌ ضِعَافٌ، يَعْنِي صِغَارًا، أَنْ يَتْرُكَهُمْ بِغَيْرِ مَالٍ؛ فَيَكُونُوا عِيَالًا عَلَى النَّاسِ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَأْمُرُوهُ بِمَا لَا تَرْضَوْنَ بِهِ لِأَنْفُسِكُمْ وَلِأَوْلَادِكُمْ، وَلَكِنْ قُولُوا الْحَقَّ مِنْ ذَلِكَ[1].

التكليف: وعظٌ للأوصياء بأنْ يفعلوا باليتامى الذين في حجورهم ما يُحبون أن يُفعل بأولادهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (١٠)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد **﴿الَّذِينَ﴾**: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ **﴿يَأْكُلُونَ﴾**: يستولون ويأخذون **﴿أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾**: أموالًا، وأرضًا وكلَّ ما يُورثُ **﴿ظُلْمًا﴾**: يتصرفون فيها بغير ما أمر اللهُ ﷻ **﴿إِنَّمَا﴾**: حرف تحديد وتخصيص؛ بمعنى هم الذين **﴿يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾**: تدخل هذه الأموال بطونهم كالنّار تحرقهم، ولهم في الآخرة عذاب النار **﴿وَ﴾**: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا **﴿سَ﴾**: حرفُ تأكيد الفعل **﴿يَصْلَوْنَ﴾**: يذوقون ألم **﴿سَعِيرًا﴾**: دخول النّار يوم القيامة.

التكليف: يحافظ الإسلام على أموال الشرائح الضعيفة في المجتمع؛ فيُغلّظ العقوبة، وخاصة في أموال اليتامى، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ[2].

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١١)

ثلاث آيات في سورة النساء تسمى آيات علم الفرائض؛ وهي الآيات [١١، ١٢، ١٧٦].

﴿يُوصِيكُمُ﴾: وصية الله ﷻ أمرٌ واجبٌ **﴿اللَّهُ﴾**: يأمركم ﷻ ويعهد إليكم بالعدل **﴿فِي أَوْلَادِكُمْ﴾**: في ميراث الأولاد **﴿لِ﴾**: حرف تخصيص، وملكية **﴿الذَّكَرِ مِثْلُ﴾**: ما يساوي **﴿حَظِّ﴾**: نصيب **﴿الْأُنْثَيَيْنِ﴾**: بنتين، كان أهلُ الجاهلية يجعلون كلّ الميراث للذكور دون الإناث، فأعطى الله ﷻ الاثنين، وفاوت بينهما؛ فجعل نصيب الذكر ضعف نصيب الأنثى؛ لأنّه يحتا ج إلى الإنفاق،

---

[1] السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٤٤٣(١٢٥٨١) موقوفًا على ابن عباس.

[2] صحيح البخاري /٨/١٧٥(٦٨٥٧).

ويتاجر، ويتحمل المشاق ﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل، بمعنى إذا ﴿كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ﴾: أكثر من، وهي هنا زائدة والله أعلم ﴿اثْنَتَيْنِ فَـ﴾: حرف يفيد هنا ربط جواب الشرط ﴿لَهُنَّ﴾: تمليكًا ﴿ثُلُثَا مَا﴾: الذي ﴿تَرَكَ﴾: بمعنى أكثر فنصيبهم ثلثان (٢ من ٣) ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿كَانَتْ﴾: من البنات ﴿وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ﴾: الأم والأب ﴿لِكُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾: توجد أحوال في الوالدين:

الأول: أنْ يموت الرجل وأبواه وأولاده أحياء؛ ففرض الشارع الحكيم لكلٍ من الأب والأم السدس.

الثاني: إذا مات الرجلُ وأبواه أحياء، وله بنت واحدة؛ فلها النصف ولكلٍ من الأبوين السدس.

الثالث: إذا مات الرجلُ وأُمّهُ وأبوهُ أحياء فقط؛ يأخذ الأب الثلثين وتأخذ الأم الثلث ﴿مِمَّا﴾: من الذي ﴿تَرَكَ﴾: الميراث ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَكُنْ لَهُ﴾: تمليكًا ﴿وَلَدٌ وَوَرِثَهُ﴾: آل الميراث ﴿أَبَوَاهُ﴾: الأب والأم ﴿فَـ﴾: حرف يفيد جواب الشرط ﴿لِ﴾: حرف تمليك ﴿أُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿كَانَ لَهُ﴾: حرف تخصيص ﴿إِخْوَةٌ﴾: والأخ هو المشارك الآخر في مصدر الولادة ﴿فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ﴾: حرف يفيد ابتداء الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ﴾: تحقيق وتنفيذ ﴿وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ﴾: حرف عطف ﴿دَيْنٍ﴾: يجب سداده ﴿آبَاؤُكُمْ﴾: الأبّ وما علا ﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾: وأيضًا أحفادكم ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تَدْرُونَ﴾: تعلمون ﴿أَيُّهُمْ﴾: من منهم ﴿أَقْرَبُ﴾: أكثر ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿نَفْعًا﴾: فائدةً، ومصلحةً ﴿فَرِيضَةً﴾: حكمًا نافذًا ﴿مِنَ اللَّهِ إِنَّ﴾: حرفُ تأكيد ﴿اللَّهَ كَانَ﴾: بلا انقطاع أو نهاية ﴿عَلِيمًا﴾: صاحب العلم الكامل ﴿حَكِيمًا﴾: الصدق المطلق، والحكمة البالغة.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (١٢)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿لَكُمْ﴾: المقصود هنا للرجال، بعد موت الزوجات، يكون نصيب الأزواج ﴿نِصْفُ مَا﴾: الذي ﴿تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ الرجال الذين ماتت زوجاتهم ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَكُنْ﴾: يوجد ﴿لَهُنَّ وَلَدٌ﴾: ليس لهن أولاد أو ذريّة ﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيدِ الفعل، وتوكيدٍ يفيد التخيير ﴿كَانَ لَهُنَّ﴾: تخصيصًا ﴿وَلَدٌ﴾: أنثى أو ذكرٌ ﴿فَلَكُمُ﴾: تخصيصًا وتمليكًا للأزواج ﴿الرُّبُعُ مِمَّا﴾: بعض أو جزء ﴿تَرَكْنَ﴾: يأخذ الزوج ربع ما تركت

الزوجة التي ماتت ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ﴾: حرف عطف يفيد التسوية في الحكم ﴿دَيْنٍ﴾: يخصم الوصية والدين من الميراث قبل أنْ يأخذ الزوج نصيبه وهو الربع ﴿وَلَهُنَّ﴾: تمليكًا ﴿الرُّبُعُ مِمَّا﴾: مِنْ الذي ﴿تَرَكْتُمْ إِنْ﴾: بشرط ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ﴾: وإذا مات الرجلُ وليس له أولاد تأخذ الزوجة ربع الميراث ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ﴾: يوجد للرجل الميت ﴿وَلَدٌ﴾: أولاد ﴿فَلَهُنَّ﴾: تمليكًا ﴿الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِن﴾: حرف جرٍّ يفيد ابتداء الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ﴾: ظرف زمان ﴿وَصِيَّةٍ﴾: هبةٍ، عطيةٍ ﴿تُوصُونَ﴾ تأمرون بتنفيذها بعده ﴿بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾: إذا مات الرجل وعليه دين فبعد سداد الدين وتنفيذ الوصية يكون نصيب الزوجة ثُمن الميراث ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً﴾: وهي مشتقة من الإكليل، وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه، والمقصود من يرثه من حواشيه، وليس من أصوله، ولا من فروعه، وهو من لا ولد له، ولا والد ﴿أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿لِكُلِّ﴾: للجميع ﴿وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾: إشارة إلى كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر عنها اللهُ ﷻ، هنا بمعنى أكثر عددًا مما سبق ﴿فَهُمْ﴾: جميعهم ﴿شُرَكَاءُ﴾: يتقاسمون ﴿فِي الثُّلُثِ﴾: نصيبهم جميعًا اقتسام ثلث الميراث ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة، أو الوقت ﴿بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿مُضَارٍّ﴾: يكون نصيب الأخ أو الأخت سدسَ الميراثِ، بعد سداد وصيّة الميت، وسداد الدين عنّه بالعدل، وليس بالتسبب وإيقاع الضرر أو الجور؛ بحيث يُحرم بعضهم بالحيل، أو التلاعب، أو الكذب ﴿وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾: إنّ وصية اللهِ ﷻ أمرٌ واجبُ النفاذ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: بحقوق، ومصالح النّاس في تشريعه ﴿حَلِيمٌ﴾: في عدله وتشريعه لعباده.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٣)

﴿تِلْكَ﴾: هذه الأوامر والأحكام المتقدمة ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾: هي فرائضُ، وشرائعُ الله ﷻ المفروضة في الميراث؛ بحسب قربهم من الميت ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿مَنْ﴾: تفيد العاقل بمعنى الذي ﴿يُطِعِ﴾: يطبق حكم ﴿اللَّهَ وَ﴾: أيضًا يطبق حكم ﴿رَسُولَهُ﴾: في قسمة المواريث وغيرها من الحدود والقواعد؛ فلم يزد، ولم ينقص، وعمل بما شرّع الله ﷻ ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾: صيغة الجمع تفيد الكثرة ﴿تَجْرِي مِنْ﴾: حرف جر يفيد ابتداء الغاية المكانية ﴿تَحْتِهَا﴾: زيادة في المتعة والاستفادة ﴿الْأَنْهَارُ﴾: عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ

الْمَصْدُوقُ إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا"[1] ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: باقون فيها، بلا فناء ﴿وَذَلِكَ﴾: إشارة إلى كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر عنها اللهُ ﷻ، وهي هنا تطبيق التشريع، وهو ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: النجاح الذي ليس كمثله نجاح.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٤)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَعْصِ﴾: يرفض طاعة ﴿اللَّهَ وَ﴾: يرفض أيضًا تحقيق سنّة ﴿رَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾: إمّا بالتشكك وبتجاوز حدود الشرع، أو بتغيير هذه الأحكام أو ترك العمل بها ﴿يُدْخِلْهُ﴾: الله ﷻ ﴿نَارًا﴾: يكتب عليه دخول النّار يوم القيامة ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾: ماكثًا فيها أبدًا ﴿وَلَهُ﴾: تخصيصًا ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾: فيه الإذلال والتحقير.

﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (١٥)

﴿وَاللَّاتِي﴾: اسمٌ موصولٌ بالجمع المؤنث ﴿يَأْتِينَ﴾: يُمارسن ﴿الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾: والنساء اللائي يثبت عليهن الزنا، من نساء المسلمين؛ متزوجات، أو غير متزوجات ﴿فَاسْتَشْهِدُوا﴾: لا بد من تحقيق وجود شهودٍ ﴿عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً﴾: اطلبوا توافر أربعة من الشهداء العدول ﴿مِنْكُمْ﴾: من المسلمين ﴿فَإِنْ﴾: حرفُ شرط ﴿شَهِدُوا﴾: بالله ﷻ أنّ الزنا وَقَع وليست شُبهات ﴿فَ﴾: حرف يفيد ربط جواب الشرط ﴿أَمْسِكُوهُنَّ﴾: احبسوهن ﴿فِي الْبُيُوتِ﴾: حيث يسكنون ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي إلّا بشرط أنْ ﴿يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾: هنا مجاز عقلي، والمعنى هو حتى يتوفاهن الله ﷻ أو تتوفاهن الملائكة، ولقد كانت المرأة في بداية الإسلام إذا ثبت أنّها زنت حُبست في البيت حتى تموت مدى الحياة ﴿أَوْ﴾: حرف عطف يفيد التقسيم والتسوية ﴿يَجْعَلَ اللَّهُ﴾: يُشرّع ﴿لَ﴾: تخصيصًا ﴿هُنَّ﴾: ضميرُ رفعٍ منفصلٍ للغائب الجمع المؤنث ﴿سَبِيلًا﴾: جاء اللفظ القرآني "**السبيل**" على أربعة عشر وجهًا، وجاء هنا بمعنى

---

[1] صحيح مسلم ٤/٢٠٣٦(٢٦٤٣).

المخرج بأنْ يُنزل من شأنهنّ حُكمًا آخراً؛ في قوله ﷻ ﴿**مثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة-٢٦١]، والسبيل هو الناسخ لهذا الحكم، فجاء في سورة النور آية رقم (٢) ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ تحديد العقوبة الجلد، أو الرجم.

حكم الجمهور: على أنّ الزاني المُحصن حدُّهُ الرجمُ فقط؛ واستدلوا على ذلك بقصةِ الغامدية وماعز، رضي اللهُ عنهما، حين أمر النبيُّ ﷺ برجمهما ولم يذكر عليه الصلاة والسلام الجلد، وقصتهما صحيحة. وكذلك ما ثبت في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالاَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ، فَقَامَ خَصْمُهُ فَقَالَ: صَدَقَ، اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ، فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا عَلَى هَذَا، فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ، فَقَالُوا لِي: عَلَى ابْنِكَ الرَّجْمُ، فَفَدَيْتُ ابْنِي مِنْهُ بِمِائَةٍ مِنَ الغَنَمِ وَوَلِيدَةٍ، ثُمَّ سَأَلْتُ أَهْلَ العِلْمِ، فَقَالُوا: إِنَّمَا عَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ، أَمَّا الوَلِيدَةُ وَالغَنَمُ فَرَدٌّ عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا أُنَيْسُ لِرَجُلٍ فَاغْدُ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَارْجُمْهَا»، فَغَدَا عَلَيْهَا أُنَيْسٌ فَرَجَمَهَا[١]، وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَجَمَ مَاعِزًا، وَلَمْ يَذْكُرْ جَلْدًا[٢] فعلم بهذا صحة ما ذهب إليه الجمهور من أن على الزاني المحصن الرجم وأن على البكر جلد مائة وتغريب عام. والله أعلم.

﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (١٦)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا **﴿اللَّذَانِ﴾**: اسم موصول بالاثنين: الرجل والمرأة، اللذين يأتيان الفاحشة من رجالكم ونسائكم، أي الزاني والزانية **﴿يَأْتِيَانِهَا﴾**: يمارسان الزنا **﴿مِنْكُمْ﴾**: من المسلمين **﴿فَ﴾**: حرفٌ يفيد العلّة والسبب **﴿آذُوهُمَا﴾**: عاقبوهما بالضرب والمقاطعة والتوبيخ، دون الحبس، والزانية بالحبس والإيذاء، بالوسائل السابقة، وكان الحكم قبل الإسلام لمن ثبت عليه الزنا، الشتم، والتعيير، والضرب بالنعال، وقيل إنّها نزلت في الرجلين؛ إذا عملا عمل قوم لوط، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ

---

[١] صحيح البخاري ٣/ ١٨٤(٢٦٩٥).

[٢] مسند أحمد /٤٥٩/٣٤(٢٠٩٠١). وصححه الأرناؤوط وقال: صحيح لغيره.

وَالْمَفْعُولَ بِهِ[1] ﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَابَا﴾: أقلعا عن الفاحشة بصدق ﴿وَ﴾: عطفًا على التوبة ﴿أَصْلَحَا﴾: إذا امتنعا عن فعل الفاحشة، وصلحت أعمالهما ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾: لا تعنيف بكلامٍ قبيحٍ، ولا ضربٍ بعد ذلك ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ كَانَ﴾: بلا نهاية ﴿تَوَّابًا﴾: كثير التوبة عن عباده، هنا جناس مغاير مع **تابا** ﴿رَحِيمًا﴾: شديدَ الرحمةِ؛ لأنّ التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٧)

﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ تفيد التحديد والتخصيص ﴿التَّوْبَةُ﴾: من الفاحشة ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: إنّما يقبل الله ﷻ التوبة ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يَعْمَلُونَ﴾: يقترفون ﴿السُّوءَ﴾: الذنب ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿جَهَالَةٍ﴾: يرتكبون الخطيئة لجهلهم بعاقبتها، وأضرارها، أو يقترفون ذنبًا وخطأ عمدًا، فهم في جهلٍ حتى يُقلعوا عن الذنب، وقال صحابة رسول الله ﷺ: كلُّ ذنبٍ أصابه عبد فهو جهالة، ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني مع التراخي ﴿يَتُوبُونَ﴾: يقلعون عن العمل، ولا يعودون له، ولو بعد حين ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَرِيبٍ﴾: كلّ ما هو دون الموت فهو قريب، ما دام في صحّةٍ وعافيةٍ، ويدخل في ذلك ﴿فَأُولَئِكَ﴾: اسم إشارة يفيد القريب والبعيد ﴿يَتُوبُ﴾: يسامح ويغفر ﴿اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: عَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ[2]، ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿كَانَ﴾: ويبقى أبدًا ﴿اللَّهُ عَلِيمًا﴾: يعلم أحوال عباده ظاهرها وباطنها ﴿حَكِيمًا﴾: صاحب الصواب في أقواله، وأفعاله، وتشريعه.

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٨)

تعزز هذه الآية ما سبقتها حول موعد التوبة المقبولة ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿لَيْسَتِ﴾: فعل ماضٍ ناقص يفيد النفي ﴿التَّوْبَةُ لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يَعْمَلُونَ﴾: يقترفون ﴿السَّيِّئَاتِ﴾: جاءت كلمة السيئات في القرآن على خمسة وجوه، هنا بمعنى الشرك، ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي إلّا بشرط أنْ ﴿إِذَا﴾: حرفُ ظرفٍ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط ما بعدها

---

[1] سنن ابن ماجه ٢/٨٥٦(٢٥٦١). صححه الألباني.

[2] سنن الترمذي ٥/٥٤٧(٣٥٣٧). وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

بما قبلها ﴿حَضَرَ﴾: جاء موعد، وأدرك ﴿أَحَدَهُمُ﴾: واحدٌ منهم ﴿الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي﴾: أنّه ميّتٌ لا محالة، ولم يبق له في الحياة رجاء؛ قال ﴿تُبْتُ﴾: أقلعت عن الذنب ولن أعود له ﴿الْآنَ﴾: لا تنفع اليوم توبة ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ﴾: عطفًا على ما سبق كانوا ﴿هُمْ﴾: للتخصيص، والتحديد، والتأكيد، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب ﴿كُفَّارٌ﴾: ولا توبة مقبولة من هؤلاء الكفّار ﴿أُولَئِكَ﴾: هؤلاء ﴿أَعْتَدْنَا﴾: هيأنا وأعددنا ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾: قال ﷺ: مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِعَامٍ تِيبَ عَلَيْهِ حَتَّى قَالَ: بِشَهْرٍ حَتَّى قَالَ: بِجُمُعَةٍ حَتَّى قَالَ: بِيَوْمٍ حَتَّى قَالَ: بِسَاعَةٍ حَتَّى قَالَ: بِفُوَاقٍ[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (١٩)

أسباب النزول: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِامْرَأَتِهِ، إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوِّجُوهَا فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي ذَلِكَ»[2].

﴿يَا أَيُّهَا﴾: "**يا**" تصلح لكلِّ المستويات، أداةُ نداءٍ لتنبيه السامع لِما سيأتي، وبيان الشعور بالفارق في المكانةِ بين المُخاطِبُ والمُخاطَب، وهي هنا كلمةُ تواصلٍ بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليه ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿آمَنُوا لَا﴾: حرف تحريم ﴿يَحِلُّ﴾: لا يجوز شرعًا ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿تَرِثُوا النِّسَاءَ﴾: مُحرّم عليكم أنْ تُصبح المرأة إرثًا للرجل، كإرث المال، تتزوجوهن أو تزوجوهن من تريدون، أو تمنعوهن من الزواج ﴿كَرْهًا﴾: وهن كارهات، أو مُكرهاتٍ عليه ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿لَا﴾: وحرام أنْ ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾: العضل هو المنع بشدّةٍ كأنه إمساك بالعضلات ﴿لِ﴾: حرف سبب ﴿تَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾: تمسكوهن لتسببوا لهنّ ضررًا، وتُصعّبوا، وتضيّقوا عليهن في المعيشة، ليتنازلن عن حقوقهن، أو بعضٍ منها، على وجهِ القهرِ والإضرار، نزلت هذه الآية الكريمة ضدّ عادات الجاهلية؛ كان يمنع الرجل مطلقته من الزواج من غيره؛ فإن أعطته وأرضته، سمح لها بالزواج ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿أَن﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يَأْتِينَ﴾: يرتكبن ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿فَاحِشَةٍ﴾: النشوز وسوء الخلق، قال ابن مسعود: المقصود الزنا ﴿مُبَيِّنَةٍ﴾: الذي

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم ٤/٣٩١(٧٧٤٥) سكت عنه الذهبي في التلخيص. وقال د سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد: معنى الحديث صحيح بشواهده. (التفسير من سنن سعيد بن منصور (٣/ ١٢٠٦).

[2] صحيح البخاري ٦/ ٤٤(٤٥٧٩).

تحقق، فللرجل حق استرجاع مال الصداق، وقال ابن عباس: الفاحشة هي النشوز والعصيان، وقال ابن جرير: الزنا، والنشوز، والعصيان وبذاءة اللسان، وسوء المعاملة؛ هنا يجوز التضييق عليها حتى تبرئه من حقها أو بعضه، كلُّ ذلك كان في الجاهلية، وقد نهى الإسلام عن ذلك ﴿و﴾: عطفًا على هذا ﴿عَاشِرُوهُنّ﴾: الحياة العادية ﴿بِ﴾: حرف باء الظرفية ﴿الْمَعْرُوفِ﴾: صاحبوهن بتطبيق ما هو معروف في الشريعة، وبين أهلها من القول الطيب وحُسن الأفعال، وكفّ الأذى، وجمال المظهر؛ كما تحب المرأة أن تكون، ولقد كانت حياة رسول الله ﷺ نموذجًا للعشرة الطيبة والمعاملة الحسنة. ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كَرِهْتُمُوهُنَّ فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب، غير ارتكاب فاحشة أو نشوز ﴿عَسَى﴾: فعلٌ ماضٍ جامد؛ يُفيدُ الإشفاق لأنّه جاء في الأمر المكروه ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾: تفيد العموم ﴿وَيَجْعَلَ﴾: يحقق به ﴿اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا﴾: منافع ﴿كَثِيرًا﴾: عسى أنْ يكون صبرُكم عليهنّ فيه خيرٌ في الدنيا والآخرة، مثل أنْ تأتي له بالولد؛ الذي يجلب الخير الوفير للوالدين، وللدين، والمسلمين.

﴿وإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (٢٠)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿إِنْ﴾: حرف يفيد الشرط ﴿أَرَدْتُمُ﴾: رغبتم ﴿اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾: إذا أراد رجلٌ أنْ يُطلّق زوجته ﴿مَكَانَ﴾: بدل ﴿زَوْجٍ﴾: ويستبدل بها بزوجةٍ أخرى؛ فلا حرج في ذلك ﴿وَآتَيْتُمْ﴾: أعطيتم ﴿إِحْدَاهُنَّ﴾: واحدةً منهن ﴿قِنْطَارًا﴾: أي كان صداقُ المرأة التي سيفارقها الزوجُ كثيرًا، أي كان المهر أو المُؤخّر، أو غيره ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿تَأْخُذُوا مِنْهُ﴾: تقطعوا منهُ ﴿شَيْئًا﴾: جزءًا، تفيد عموم الشيء ﴿أَ﴾: حرف استفهام يفيد الاستنكار والتوبيخ ﴿تَأْخُذُونَهُ﴾: عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه خَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تُغَالُوا مَهْرَ النِّسَاءِ، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَكْرُمَةً، لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَحَقَّ بِهَا، وَلَا أَوْلَى مِنَ «النَّبِيِّ ﷺ مَا أَمْهَرَ أَحَدًا مِنْ نِسَائِهِ، وَلَا أَصْدَقَ أَحَدًا مِنْ بَنَاتِهِ أَكْثَرَ مِنِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً، وَالْأُوقِيَّةُ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا، فَذَلِكَ ثَمَانُونَ وَأَرْبَعُ مِائَةِ دِرْهَمٍ، وَذَلِكَ أَغْلَى مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْهَرَ، فَلَا أَعْلَمُ أَحَدًا زَادَ عَلَى أَرْبَعِ مِائَةِ دِرْهَمٍ»[1] ﴿بُهْتَانًا﴾: هو الباطل، والظلم؛ بالافتراء واختلاق الكذب ﴿وَإِثْمًا﴾: أيضًا ذنبًا ﴿مُبِينًا﴾: ومخالفةً واضحةً لشرع الله سبحانه وتعالى، بيّنة؛ لوضوح الآية.

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم ٢/ ١٩٢(٢٧٢٦) وقال: رُوِيَ فِي وَجْهٍ صَحِيحٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عُمَرَ.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٢١)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿كَيْفَ﴾: سؤال استنكاري ﴿تَأْخُذُونَهُ﴾: كيف تأخذون الصداق من المرأة ﴿وَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿أَفْضَى﴾: جامع الرجلُ زوجته، أو خلا بها خلوة شرعية بعد عقد النكاح، استحقت المهر كلّه إذا طلقها ﴿بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾: اطّلع بعضُكم على بعض بالخلوة الشرعية؛ أي المعاشرة الزوجية، والعلاقات الاجتماعية بكل تفاصيلها ﴿وَأَخَذْنَ﴾: حصلن ﴿مِنْكُمْ﴾: حرف يفيد التأكيد ﴿مِيثَاقًا﴾: فيه أقوال: "**الميثاق**" هو العقد بالزواج، وقيل إمساكٌ بمعروفٍ، أو تسريحٌ بإحسانٍ؛ وهو قول الله ﷻ، قال رسول الله ﷺ: فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللهِ[1]، ﴿غَلِيظًا﴾: وثيقًا متينًا.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٢٢)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿لَا﴾: حرف نهي وتحريم ﴿تَنْكِحُوا﴾: لا يتزوج أحدُكم امرأةً ﴿مَا﴾: التي ﴿نَكَحَ﴾: تزوجهنّ ﴿آبَاؤُكُمْ مِنَ﴾: حرفٌ يُفيد التمييز ﴿النِّسَاءِ﴾: تزوجها أبوه من قبل ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ ﴿مَا﴾: الذي ﴿قَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿سَلَفَ﴾: كان نكاح نساء الآباء معمولًا به في الجاهلية، فما تم قبل الإسلام فقد سلف، وكان أيضًا الجمع بين الأختين في الجاهلية؛ ﴿إِنَّهُ﴾: حرف تأكيد ﴿كَانَ﴾: ويبقى ﴿فَاحِشَةً﴾: قبحًا عظيمًا ﴿وَمَقْتًا﴾: أيضاً البغض، وهو أمرٌ مكروهٌ في ذاته، يمقت الابنُ أباه ويمقتُ الأبُ ابنه بعد أنْ يتزوج امرأته؛ لأنّ الذي يتزوج امرأة يبغض زوجها السابق، ومن هنا أيضًا حُرّمت الأمهات فهي كالآباء، وأيضًا يمقت اللهُ ﷻ كلَّ فاعلٍ لهذا الأمر، يبغضه الله ﷻ ﴿وَسَاءَ﴾: ما يسبب الشرّ والضرر ﴿سَبِيلًا﴾: طريقًا سيئًا لمن سلكه؛ لأنّه ارتداد عن الدين، بعدما تبين حكم الله ﷻ فيه، وهنا يجب قتله، وأخذ أمواله لبيتِ المالِ، وقد حدثت حادثةٌ في عهد الرسول ﷺ؛ فأمر بقتله، وأخذ ماله فعَنْ يَزِيدَ بْنِ الْبَرَاءِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ لَقِيتُ عَمِّي وَمَعَهُ

---

[1] صحيح مسلم ٢/ ٨٨٩(١٢١٨).

رَايَةٌ فَقُلْتُ لَهُ أَيْنَ تُرِيدُ قَالَ بَعَثَنِى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى رَجُلٍ نَكَحَ امْرَأَةَ أَبِيهِ فَأَمَرَنِى أَنْ أَضْرِبَ عُنُقَهُ وَآخُذَ مَالَهُ[1].

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٢٣)

هذه آيةُ تحريم المحارم من النسب، وما يتبعها من الرضاع، والمحارم بالمصاهرة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: حَرُمَ مِنَ النَّسَبِ سَبْعٌ وَمِنَ الصِّهْرِ سَبْعٌ ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ [النساء-٢٣] هَذَا مِنَ النَّسَبِ ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾[2]، ﴿حُرِّمَتْ﴾: هنا يوجد حذف مضاف بمعنى حرّم الله ﷻ ﴿عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾: نكاح، تحريم زواج الأم، وأم الأم، وجدتها من جهة الأبّ، وجدتها من جهة الأم ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾: التحريم القاطع في الأم، وبنات الرجل، وبنتها، وبنت بنتها، ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾: وأيضاً حرام عليكم الزواج من الأخت؛ هي المشارك الآخر من الأب والأم، أو أحدهما وحرّم اللهُ ﷻ عليكم الزواج من نسل الأبوين، أو من أحدهما ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾: أخت الأب، وعمات الآباء، والأمهات، وإنْ علون ﴿وَخَالَاتُكُمْ﴾: أخوات أمهاتكم، وخالات أمهاتكم، وخالات آبائكم، وإنْ علونْ ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾: وأولادهن، وإنْ نزلوا ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ﴾: وكما تُحرّم الآم التي ولدت ابنها، تُحرّم الآمُ التي أرضعت الطفل، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الرَّضَاعَةُ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الوِلَادَةُ[3]، وقال مسلم: يُحرّم من الرضاعة ما يُحرّم من النسب، وفي عدد الرضعات: يقول مالك بن عمر: تَحرّم بمجرد الرضاعة، لعموم الآية، وقال آخرون: لا يُحرّم أقل مِنْ ثلاث رضعات؛ وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا

---

[1] سنن أبى داود /٤/٢٦٧(٤٤٥٩) صححه الألباني.

[2] المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٣٣٣) «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ وَلَهُ شَاهِدٌ صَحِيحٌ مِنْ رِوَايَةِ عِكْرِمَةَ» [التعليق - من تلخيص الذهبي] ٣١٨٩ - على شرط البخاري ومسلم.

[3] صحيح البخاري /٤/٨٢(٣١٠٥).

تُحَرِّمُ الْمَصَّةُ وَلَا الْمَصَّتَانِ[1]، وفي حال أنْ تكون الرضاعة في سن الصغر أقل من سنتين، ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾: تُحرّم أم الزوجة بمجرد عقد القرآن على بنتها، سواء دخل بها أم لم يدخل بها ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا حرام عليكم ﴿رَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾: كناية عن الجماع، مثل القول بنى بها أو عليها، والمقصود هي بنت المرأة من زوجٍ آخرَ؛ سواءً تربين في بيوتكم أم لا، لا تُحرَّم إلّا إذا دخل الرجل بأمّها ﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿لَمْ﴾: حرف جزمٍ ينفي المضارع ﴿تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾: لم يتمّ النكاح فعلًا ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا لا ﴿جُنَاحَ﴾: إثم أو ذنب ﴿عَلَيْكُمْ﴾: فإن طلّق الأم قبل الدخول بها، جاز أنْ يتزوج ابنتها ﴿وَحَلَائِلُ﴾: هن زوجات ﴿أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿أَصْلَابِكُمْ﴾: هن زوجات أبنائكم الذين ولدوا من أصلابكم، ولو لم يدخلوا بهن، ويدخل في ذلك زوجات الأبناء من الرضاعة ﴿وَأَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾: هنا إجماع على تحريم الزواج من أختين من النسب أو الرضاعة في وقتٍ واحدٍ ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿مَا﴾: الذي ﴿قَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿سَلَفَ﴾: إلّا ما قد مضى في عهد الجاهلية؛ فقد عفا الله ﷻ عنها، ويحرّم الشرع الجمع كذلك بين المرأة وعمتها أو خالتها ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ كَانَ﴾: ويبقى بلا نهاية أو زوال ﴿غَفُورًا﴾: واسع السماح والمغفرة ﴿رَحِيمًا﴾: كثير الرحمة بالمؤمنين خاصّة وبعباده عامّة.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٢٤)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ هنا بمعنى أيضًا يحرّم الله تعالى عليكم الزواج مِنْ ﴿الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾: يُحرّم الله ﷻ عليكم نكاح المتزوجات لغير زوجها ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿مَا﴾: الذين ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: وهن النساء السبايا في الجهاد، ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: الحكمُ لازمٌ لا يحلُّ الحديث لأحدٍ غير الأربعة، الالتزام بما كتبهُ الله ﷻ عليكم، وجوب لزوم شرعه، وقيل ما حرّم الله عليكم ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿مَا وَرَاءَ﴾: غير ﴿ذَلِكُمْ﴾: اسم إشارة للبعيد، حلالٌ لكم ما ملكت أيمانكم، ما عدا ما جاء في المحرّمات،

---

[1] سنن أبي داود /٢/٢٢٤(٢٠٦٣). صححه الألباني.

إشارة إلى كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر عنها اللهُ ﷻ، وقيل هنا بمعنى ما ملكت أيمانكم ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿تَبْتَغُوا﴾: ترغبوا ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿أَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ﴾: معافين من الحرام ﴿غَيْرَ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿مُسَافِحِينَ﴾: غير زانيات ﴿فَمَا﴾: حرفٌ يفيد خبرًا ﴿اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾: انتقعتم وتلذذتم بجماعهن، ومباشرتهن بالنكاح الشرعي ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا ربط جواب الشرط ﴿آتُوهُنَّ﴾: ادفعوا لهن ﴿أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾: هي المهور، أي في مقابل الاستمتاع لا بد من دفع المهور، يعزز ذلك قوله ﷻ: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء–٤]، وقد استدل بعضهم على زواج المتعة، فقد كان في أول الإسلام، ثم نُسخ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: نَهَى عَنْ مُتْعَةِ النِّسَاءِ يَوْمَ خَيْبَرَ، وَعَنْ أَكْلِ لُحُومِ الحُمُرِ الإِنْسِيَّةِ[١]، وقال ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ أَذِنْتُ لَكُمْ فِي الِاسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُخَلِّ سَبِيلَهُ، وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا»[٢] ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿جُنَاحَ﴾: حرج أو إثم، يعتمد أصلًا على النيات والخبايا النفسية، فيذكرهم الله ﷻ أنّه ﷻ عليم بما في نفوسهم، حكيم في شرعه لمصلحتهم جميعًا ﴿عَلَيْكُمْ فِيمَا﴾: بسبب الذي ﴿تَرَاضَيْتُمْ﴾: اتفقتم عليه ﴿بِهِ مِنْ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾: أي إذا فرض الرجل للمرأة صداقًا فسامحته عنه، أو عن شيء منه، فلا جناح عليهما في ذلك، وقد قيل عن التراضي، أنْ يوفي الرجلُ صداق المرأة، ثم يخيرّها في البقاء أو الفراق ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ كَانَ﴾: ويبقى بلا انتهاء ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: العلم والحكمة الربّانية هنا أوصافٌ مناسبةٌ؛ لأنّ الحكم مبنيٌّ على علمٍ أراده الله ﷻ.

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٥)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى الاستئناف ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يَسْتَطِعْ﴾: يقدر ﴿مِنْكُمْ﴾: من المسلمين ﴿طَوْلًا﴾: هنا نفي الطول الذي هو قدرةٌ وسعةٌ في

[١] صحيح البخاري /٥/١٣٥(٤٢١٦).

[٢] صحيح مسلم ٢/ ١٠٢٥(١٤٠٦).

المال، أي إذا كان فقيرًا ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يَنْكِحَ﴾: يتزوج ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾: الحرائر المسلمات العفيفات ﴿الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ﴾: بعض ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ﴾: حرف تمييز، بمعنى بعض ﴿فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾: أي تزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكهن المؤمنون غيرهم، أمّا إن كان يستطيع زواج حرّةٍ فزواج الأمة عليه حرام، ولا يجوزُ نكاح الأمَة الكتابية انظر: زبدة التفاسير من فتح القدير: محمد سليمان الأشقر، ص (١٠٣) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِ﴾: حرف باء السببية ﴿إِيمَانِكُمْ﴾: يُحذّر الله ﷻ أنّه أعلم بحقيقة ما في النفوس من سرائر، وما على المسلمين إلّا اعتماد العلن الظاهر ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: الزواج داخل المجتمع المسلم ﴿فَانْكِحُوهُنَّ﴾: تزوجوهن ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿إِذْنِ﴾: بموافقة ورضا ﴿أَهْلِهِنَّ﴾: هذا يعني أنّ الأَمَةَ لا تُزوّج إلّا بإذن سيدها، وكذلك لا يُزوّج العبدُ إلّا بإذن مولاه، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيُّمَا عَبْدٍ تَزَوَّجَ بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهِ فَهُوَ عَاهِرٌ[1]، أي زانٍ، ﴿وَآتُوهُنَّ﴾: عطفاً على ما سبق ادفعوا لهن ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: الصداق، والمهور، والحقوق ﴿بِ﴾: حرف باء الالتصاق ﴿الْمَعْرُوفِ﴾: عن طيب نفسٍ، دون إنقاصٍ منه استهانة بالإماء ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾: عفيفات عن الزنا، لا يمارسنه ﴿غَيْرَ﴾: حرف نفي بمعنى ليس ﴿مُسَافِحَاتٍ﴾: المسافحات هن اللائي يمارسن الزنا بلا مانع، الزانيات المعلنات، اللائي يرضين بأيّ زانٍ ﴿وَلَا﴾: حرفُ نهي ﴿مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾: المتخذات الأخلاء للزنا سرًا، والأصدقاء، أو الواحدة التي لها صديقٌ خليلٌ تقرّ به، وغير متزوجة ﴿فَ﴾: حرفٌ استئنافي بهدف ترتيب الأمر ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿أُحْصِنَّ﴾: تزوجن ﴿فَإِنْ﴾: حرفُ شرط ﴿أَتَيْنَ﴾: جئن، فعلن ﴿بِفَاحِشَةٍ﴾: جريمة الزنا ﴿فَ﴾: حرف ربط الجواب ﴿عَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا﴾: الذي ﴿عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾: المتزوجات ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾: قال ابن عباس: الأَمةُ التي زنت وهي غير متزوجة فلا حدّ عليها، وإنّما تُضرب تأديبًا خمسين جلدة ولا رقم عليها، وإنْ تكرر تُباع، أمّا عقاب الأمة المتزوجة فالمقصود هو العذاب الممكن بتبعيضه بعض، وهو الجلد فقط، وليس الرجم، والله أعلم ﴿ذَلِكَ﴾: اسم إشارةٍ للبعيد، كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ ﴿لِمَنْ﴾: تخصيصًا للذين مِنْ جنس العاقل ﴿خَشِيَ﴾: خاف ﴿الْعَنَتَ﴾: مَنْ خشي الوقوع في الزنا وإثمه ﴿مِنْكُمْ﴾: فيجوز نكاح الإماء بالشروط المتقدمة، فله أنْ يتزوج الأمة، ويفضل الصبر ﴿وَأَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَصْبِرُوا خَيْرٌ﴾: أنفع ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا خشية أنْ يُنجب منها أولادًا أرقاء، أو العدول عن الحرائر، غير أنّ الجمهور خالف أبا حنيفة وأصحابه، فقد أجازوا نكاح الأمة

---

[1] سنن أبي داود /٢/١٨٨(٢٠٨٠). حسنه الألباني.

والكتابية سواءً كان قادرًا على الزواج من الحرّة أم لا، سواءً خاف العنت أم لا ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾: مُسامحٌ ﴿رَحِيمٌ﴾: كثيرُ الرحمة بخَلْقه المؤمنين.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦)

﴿يُرِيدُ﴾: هذه إرادة ﴿اللَّهُ﴾ ﷻ ﴿لِ﴾: علّة وسبب ﴿يُبَيِّنَ لَكُمْ﴾: يرشدكم ويُعلّمكم ما أحلّ الله لكم، وما حرّم عليكم أيّها المؤمنون ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾: أيضاً يرشدكم ﴿سُنَنَ﴾: إلى الطرق الحميدة، طرق الأنبياء والشرائع التي ارتضاها لكم ولمن قبلكم من الأنبياء وأتباعهم لتقتدوا بهم ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، الرجال والنساء، ويفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾: أي يزيل عنكم الإثم المحرّم، ويعيدكم إلى طاعته ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: يعلم كل ما يُصلح عباده وينفعهم، ﴿حَكِيمٌ﴾: فيما شرّع، وقدّر، وفعل، وقال في شئون عباده.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (٢٧)

﴿و﴾: عطفًا على ما سبق اعلموا أنّ ﴿اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل، ونفي الشك ﴿يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ﴾: يريد الله ﷻ أنْ يغفر لكم ذنوبكم ويريد ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾: من الرجال والنساء، هم أتباع الشيطان، واليهود، والنصارى، والزناة، واللصوص، وفاعلو المنكرات التي يزينها الشيطان للإنسان، ويثير شهواته ﴿أَن تَمِيلُوا مَيْلًا﴾: تنحرفوا عن جادّةِ الصوابِ انحرافًا ﴿عَظِيمًا﴾: أنْ تبتعدوا كثيرًا عن شريعة الله، وحكمه ﷻ.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (٢٨)

﴿يُرِيدُ﴾: هذه إرادة الله ﷻ يوضحها ﴿اللَّهُ أَنْ﴾: حرفُ تفيد المصدر ﴿يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾: يريد الله أنْ يخفف عن عباده مشقة تطبيق شريعته، وأوامره، ونواهيه، ويكلّفهم طاقتهم، وما يقدرون عليه ﴿وَخُلِقَ﴾: أيضًا خلق من غير سابق وجود ﴿الْإِنْسَانُ﴾: هو نسل آدم عليه السلام، هو أعظم مخلوقٍ الكتروني على كوكب الأرض، فله مجالٌ مغناطيسي؛ يرسل ويستقبل الإشارات الكهربائية المغناطيسية، وبداخله دورة كهرومغناطيسية متكاملة تربطه بكلّ ما يحيط به في هذا الوجود، والحقيقة أنّ جميع الكائنات الحية النباتية منها والحيوانية، البسيطة منها والمعقدة، تتركب أجسامهم من وحدات أساسية هي الخلايا، والتي تُعد بمنزلة قوالب الطوب التي يُبنى منها الكائن الحي، إنّ معنى كلمة عضويه أن جزيئاتها تحتوى على ذرة الكربون متحدة مع ذرات عناصر أخرى، وأنّ عنصر الكربون ومن ثم المواد العضوية تُعدّ أساسًا سليمًا للبدء في بحث نشأة الحياة ﴿ضَعِيفًا﴾: عاجزًا غير قادر على ملك نفسه، ومقاومة الشهوة الجامحة، فلهذا أراد الله ﷻ

التخفيف عنه، وأباح له ما أباح؛ لأنّه ضعيف، يناسبه التخفيف، ضعف نفسه، وضعف عزمه وهمته، وقيل ضعفه أمام النساء.

نموذج التخفيف: عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَ بِهِ: بَيْنَمَا أَنَا فِي الحَطِيمِ، وَرُبَّمَا قَالَ: فِي الحِجْرِ مُضْطَجِعًا إِذْ أَتَانِي آتٍ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا مُوسَى، قَالَ: هَذَا مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ بَكَى، قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلاَمًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي، ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ: هَذَا أَبُوكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلاَمَ، قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ رُفِعَتْ إِلَيَّ سِدْرَةُ المُنْتَهَى،... ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ صَلاَةً كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَا أُمِرْتَ؟ قَالَ: أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلاَةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلاَةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟ قُلْتُ: أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، قَالَ: سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ، وَلَكِنِّي أَرْضَى وَأُسَلِّمُ، قَالَ: فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَى مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٢٩)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم وهم من البشر، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد

---

(١) صحيح البخاري /٥/٥٢(٣٨٨٧).

والقريب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا لَا﴾: حرف تحريم أنْ ﴿تَأْكُلُوا﴾: كنايةً عن أخذ ﴿أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِ﴾: حرف باء السببية ﴿الْبَاطِلِ﴾: المقصود ما لم يُجز الشرع أخذه من مالكه، بمعنى استخدام أنواع الكسب غير الشرعي، كالسرقة، والغصب، والربا، والقمار، وما يأتي بالكذب، والرشوة، والحيل، والتي قد يلبسها بعضهم ثوب الشرع ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿تَكُونَ تِجَارَةً﴾: نصّ اللهُ ﷻ عن التجارة دون سائر المعاملات لكونها الأكثر شيوعًا، والتجارةُ هي استخدام رأس المال؛ طلبًا للربح المسموح؛ وهي تشمل البيع والشراء الشرعي ﴿عَنْ﴾: حرف جر يفيد السبب ﴿تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾: ترُضى البائع، والمشتري، ويربح الجميع، دون غشٍ، ولا تدليسٍ، ولا كتمانٍ لعيب؛ فلا يصحُّ البيعُ إلّا بالقبول. عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، - أَوْ قَالَ: حَتَّى يَتَفَرَّقَا - فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا[1]، ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿لَا﴾: حرف تحريم ﴿تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: المعنى هنا أهل دين المسلمين؛ بارتكاب ما حرّم الله ﷻ، وتعاطي معاصيه كالانتحار، ومنها قتل الآخرين، ولا يُلقي بنفسه إلى الهلاك ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ كَانَ﴾: بلا نهاية ﴿بِكُمْ رَحِيمًا﴾: وَيُذْكَرُ أَنَّ عَمْرَو بْنَ العَاصِ: أَجْنَبَ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ، فَتَيَمَّمَ وَتَلاَ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء-٢٩] فَذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يُعَنِّفْ[2]، وعن عمرو بن العاص، قال: احتَلَمتُ في ليلةٍ باردةٍ في غَزوةِ ذاتِ السَّلاسِلِ فأشفَقتُ أنْ اغتسِلَ فَأهلِكَ، فتَيَمَّمتُ، ثمَّ صَلَّيتُ بأصحابي الصُّبحَ، فذكروا ذلك للنبيِّ ﷺ فقال: يا عَمرو، صَلَّيتَ بأصحابِكَ وأنت جُنُبٌ؟ فأخبَرتُه بالذي مَنَعَني مِنَ الاغتِسالِ، وقلتُ: إني سمعتُ اللهُ يقولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء-٢٩]، فضَحِكَ رسولُ الله ﷺ ولم يَقُل شيئًا[3]، إن رسول الله ﷺ ينهي عن الانتحار، وعن قتل النفس، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ شَرِبَ سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا[4].

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (٣٠)

---

[1] صحيح البخاري ٣/ ٥٩(٢٠٨٢).

[2] صحيح البخاري ١/ ٧٧ معلقًا رواه بصيغة التضعيف.

[3] سنن أبي داود /١/٢٤٩(٣٣٤). وصححه الأرناؤوط والألباني.

[4] صحيح مسلم /١/١٠٣(١٠٩).

﴿و﴾: أيضًا ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾: من يعمل ما نهى الله ﷻ عنه، من أموال الناس ﴿عُدْوَانًا﴾: متعمدًا القتل ﴿وَظُلْمًا﴾: مُتعديًا، عارفًا بالتحريف والتدليس، مُتجاسرًا، ومُتطاولًا على انتهاك الحق ﴿فَ﴾: حرف هنا لربط جواب الشرط ﴿سَوْفَ﴾: كلمةُ وعدٍ لعملٍ في المستقبل، تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ سيتم ﴿نُصْلِيهِ﴾: ندخله ونحرّقه ﴿نَارًا﴾: في نار جهنّم؛ نارًا تغطيه من كلّ الجوانب، يعاني حرّها وعذابها ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها الله ﷻ، وسيبقى العذاب ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾: وكان تعذيب الله ﷻ للمجرمين هيّنًا، فأمر الله ﷻ بين الكاف والنون، فيكون ما أراد.

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (٣١)

بعد تبيان محارم الله ﷻ مثل الشرك بالله ﷻ، وعصيان الوالدين، وقتل النفس، وأكل مال النّاس بالباطل، والزّنا، والزواج المحرّم وغيرها؛ قال الحق ﷻ عن عذاب المخالفين، وأردف بثواب المطيعين ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَجْتَنِبُوا﴾: إذا ابتعدتم وأخذتم جانبًا ﴿كَبَائِرَ﴾: عن ارتكاب محارم الله ﷻ، وكبائر الآثام ﴿مَا﴾: الذي ﴿تُنْهَوْنَ﴾: نهاكم عنه وحرّمه عليكم ﴿عَنْهُ نُكَفِّرْ﴾: نمحو ﴿عَنْكُمْ﴾: لكم صغائر الذنوب؛ ونمحوها، ونزيلها عنكم، ونستبدل أعمالكم بالأحسن ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾: صغائر الذنوب ﴿وَنُدْخِلْكُمْ﴾: ننزلكم في الآخرة ﴿مُدْخَلًا﴾: منزلًا ﴿كَرِيمًا﴾: المدخل الحسن الذي ارتضاه اللهُ ﷻ لكم، وجاء اللفظ القرآني "**الكريم**" على ستةِ أوجهٍ؛ هنا بمعنى الحسن، في قوله أيضًا ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**﴾ [الشعراء-٧]، وفي قوله ﷻ ﴿**قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ**﴾ [النمل-٢٩] قَالَ ﷺ: مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَيَصُومُ رَمَضَانَ، وَيُخْرِجُ الزَّكَاةَ، وَيَجْتَنِبُ الْكَبَائِرَ السَّبْعَ، إِلَّا فُتِّحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، فَقِيلَ لَهُ: ادْخُلْ بِسَلَامٍ[1].

الكبائر السبع: قال رسول الله ﷺ: اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ[2]، وقد جاء في أحاديث أخرى تكرار بعض ما سبق، وجاء إضافة: حقوق الوالدين، وقول الزور، وشهادة الزور، واليمين الغموس، والتسبب في شتم الوالدين؛ عندما يسب آباء الآخرين؛ فيسبوا والده، قال ﷺ: سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ[3]. وجاء من الكبائر: الإضرار في الوصية، والذين يشترون بعهد الله وأيمانهم

[1] سنن النسائي /٥/٨(٢٤٣٨). وضعفه الألباني.
[2] صحيح البخاري /١٧٥/٨(٦٨٥٧).
[3] صحيح البخاري /١٩/١(٤٨).

ثمنًا قليلًا، وقد روى الطبري، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: كَمِ الْكَبَائِرُ أَسَبْعٌ هِيَ؟ قَالَ: إِلَى سَبْعِمِائَةٍ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى سَبْعٍ، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ، وَلا صَغِيرَةَ مَعَ إِصْرَارٍ[١].

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٣٢)

أسباب النزول: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: «يَغْزُو الرِّجَالُ وَلَا تَغْزُو النِّسَاءُ وَإِنَّمَا لَنَا نِصْفُ المِيرَاثِ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ **﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾** [النساء-٣٢][٢]، ﴿وَلَا﴾: أيضاً ينهى اللهُ ﷻ عن ﴿تَتَمَنَّوْا﴾: يجوز أنْ يتمنى الإنسانُ أنْ يكون حالهُ كحالِ غيرِه من دون أنْ يتمنى زوال ذلك عن صاحبه ﴿مَا﴾: الذي ﴿فَضَّلَ﴾: مايز أحدًا على آخر ﴿اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾: مثل أنْ يقول الإنسان ليت، لو أنّ لي مال فلان وأهله، لأنّ ذلك يؤدي إلى الحسد، والبغضاء، والمقصود في الأمور الدنيوية، وكذلك في التكاليف الدينية، وأنْ تتمنى النساء أنْ يكونوا مثل الرجال؛ فيجاهدوا، عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا[٣]، ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾: حصّةٌ أو جزءٌ ﴿مِمَّا﴾: بعض أو جزء، من الذي ﴿اكْتَسَبُوا﴾: جمعوا من خير ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿لِ﴾: حرف تخصيص وتمليك ﴿النِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا﴾: حصّة أو بعض أو جزء ﴿اكْتَسَبْنَ﴾: كل إنسان له جزاء ما عمله؛ فإن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًّا فشر، وقيل في الميراث: كلُّ إنسانٍ يرث بحسبه ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ﴾: بدلًا من التمني عليكم أن تنشغلوا بالكسب الحلال وسؤال الله ﷻ من جزء أو بعض ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾: فبعد أنْ نهى الله ﷻ عن التمني الذي لا يفيد، قال لهم: سلوني من فضلي أعطكم؛ فإنّي كريم وهّاب، أي اسألوا الله ﷻ من فضلهِ فإنّه يُحبُّ أنْ يُسأل، وإنّ أفضل العبادة انتظار الفرج ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ كَانَ﴾: بلا زوال ﴿بِ﴾: حرف باء التوكيد ﴿كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة لتؤكد العموم ﴿عَلِيمًا﴾: يعلم ﷻ من يحتاج؛ فيعطيه، ومن يستحق الفقر فيفقره، ومن يستحق الآخرة؛ فييسرها له، ومن يستحق الخذلان؛ فيخذله، فهو بكلِّ شيءٍ عليم.

---

[١] الحديث أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب /١٩٩/٥(٧٩٤٤) وأشار المناوي إلى ضعفه وكذلك الألباني في فيض القدير، تفسير الطبري /٦٥١/٦(٩٢٦١). وصحح إسناده المحقق د: سعد بن عبد الله آل حميد. (الاعتصام للشاطبي/٤٠٤/٢).

[٢] سنن الترمذي ٥/ ٢٣٧(٣٠٢٢) وقال هذا حديث مرسل، قال الألباني: صحيح الإسناد.

[٣] صحيح البخاري /٢٥/١(٧٣).

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (٣٣)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿لِ﴾: تخصيص ﴿كُلٍّ﴾: جميع المؤمنين ﴿جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾: جاء اللفظ القرآني "**الولي**" على أحد عشر وجهًا، وجاء هنا بمعنى الورثة من الأقارب، أو العصبة، أو الورثة الآخرين؛ فالعرب يُسمّون ابن العم مولى ﴿مِمَّا﴾: حرفٌ يدلُّ على بعض أو جزءٍ من غير العاقل ﴿تَرَكَ﴾: هو الميراث ﴿الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾: الذي تركه الوالدان، معنى ذلك أنّ كلّكم أيها النّاس جعلنا لكم أبناء عمومة، وورثة، وأقارب ﴿وَلِلَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: والعقد يكون وعدًا شفهيًا أو كتابيًا يمكن تنفيذه بالقانون، هنا هم موالي الموالاة، جاء فيهم قسمٌ وحلفُ يمينٍ، هم المهاجرون الذين ذهبوا إلى المدينة؛ حيث كان يرث المهاجرُ الأنصاري؛ دون قرابة رحم عندما آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وقد نُسخت هذه الآية: ﴿**وأولو الأرحامِ بعضُهم أولى ببعض**﴾ [الأنفال-٦٥] المآخاة بين المهاجرين والأنصار في المال ﴿فَـ﴾: حرفٌ يفيد هنا فعل وترتيب الأمر ﴿آتُوهُمْ﴾: أعطوهم ﴿نَصِيبَهُمْ﴾: من مكاسب النصر، والرفادة، والوصيّة، المقصود الوفاء بالعهود، والحلف على المناصرةِ والمعاونة ﴿إِنَّ﴾: حرفٌ للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ كَانَ﴾: بلا انقطاع أو زوال ﴿عَلَى كُلِّ﴾: تفيد عموم الأشياء ﴿شَيْءٍ﴾: حرف نكرة يؤكد العموم ﴿شَهِيدًا﴾: شهادة من قرّر وعرف كلّ شيءٍ.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (٣٤)

أسباب النزول: عَنِ الحَسَنِ، أَنَّ رَجُلًا لَطَمَ وَجْهَ امْرَأَتِهِ فَأَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ فَقَالَ: القِصَاصُ، فَنَزَلَتِ ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**﴾ [٣٤-النساء] فَتَرَكَهُ[1]؛ ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ الرجل قيّم على المرأة؛ يرعى شئونها، ويحقق رغباتها، هو رئيسها، وكبيرها، والحاكم عليها، ومصحح عوجها إنْ حادت ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصول، بمعنى الذي، بسبب ﴿فَضَّلَ﴾: زاد في الخيرية ﴿اللَّهُ بَعْضَهُمْ﴾: جزءٌ منهم ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾: بالخصائص التي وضعها الله في الرجل، فالنبوة نزلت في الرجال فقط، وكذلك الحكم، والملك، والقوة البدنية، والقضاء؛ فقال الله

---

[1] المراسيل لأبي داود /١/٣٤٧(٢٦٣) قال الأرناؤوط: رجاله ثقات، رجال الصحيح غير أشعث: فإنه ثقة؛ روى له البخاري تعليقًا؛ وأصحاب السنن.

ﷻ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة-٢٢٨] ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿بِمَا﴾: بسبب الذي ﴿أَنْفَقُوا﴾: صرفوا ودفعوا للنساء، وللغزو والجهاد وغيرها من أمورٍ ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعض ﴿أَمْوَالِهِمْ﴾ من المهر، ومصروفات البيت والأولاد، وما كلفّهم الله ﷻ به في كتابه الكريم، ومن هنا يأتي أنّ العجز يُسقط قوامة الرجل على المرأة، ويمنحها الحق في فسخ العقد ﴿فَ﴾: حرف يفيد الاستئناف ﴿الصَّالِحَاتُ﴾: من النساء ﴿قَانِتَاتٌ﴾: مطيعاتٌ لله ﷻ ولأزواجهنّ، قائماتٌ بما يجب عليهن من حقوقِ اللهِ ﷻ وحقوقِ أزواجهن ﴿حَافِظَاتٌ لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الْغَيْبِ﴾: الماضي غير المعلوم، غير المرئي، وغير المسموع لك مطيعات حافظات لأزواجهن في غيبتهم؛ في أنفسهم، ومالهن، وولدهن ﴿بِمَا﴾: بالذي ﴿حَفِظَ اللَّهُ﴾: بتوفيق الله ﷻ لهن؛ فهو الحافظ لحقوقهن، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ النِّسَاءِ خَيْرٌ؟ قَالَ: الَّتِي تَسُرُّهُ إِذَا نَظَرَ، وَتُطِيعُهُ إِذَا أَمَرَ، وَلَا تُخَالِفُهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا بِمَا يَكْرَهُ[1]. وقَالَ أيضًا ﷺ: إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ[2]، ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا حال ﴿اللَّاتِي﴾: اسمٌ موصول هنا بالجماعة المؤنثة ﴿تَخَافُونَ﴾: تتوقعون ﴿نُشُوزَهُنَّ﴾: النشوز هو الترفع، فالمرأة الناشز هي المترفعة على زوجها، التاركة لأمره، المُعرضة عنه، التي تكرهه، ولقد جاء لفظ "**النشوز**" على أربعة أوجه؛ هنا بمعنى العصيان، وجاء بمعنى تفضيل الزوج امرأته على غيرها من النساء كما في قوله ﷻ ﴿**وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾ [النساء-١٢٨] ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا فعل الأمر ﴿عِظُوهُنَّ﴾: إذا شعر الرجل منها نشوزًا؛ فعليه أنْ يعظها، ويُخوّفها، إذا عصته، من غضب الله ﷻ، ويذكّرها بما عليها من الطاعة، وحسن المعاشرة؛، وأنّ الله ﷻ حرّم معصية الزوجة لزوجها، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ، فَأَبَتْ أَنْ تَجِيءَ، لَعَنَتْهَا المَلاَئِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ[3]، وقال ﷺ أيضًا: «لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا[4]، ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ﴾: وأيضاً بالتباعد عن المضاجع المشتركة، وأن يوليها ظهره في الفراش، لا يباشرها، ولا يُكلّمها ﴿فِي الْمَضَاجِعِ﴾: ولا

---

[1] سنن النسائي /٦/٦٨(٣٢٣١). وحسنه الألباني فقال حسن صحيح.

[2] مسند أحمد /٣/١٩٩(١٦٦١). وحسنه الأرناؤوط فقال حسن لغيره.

[3] صحيح البخاري /٧/٣٠(٥١٩٣).

[4] سنن الترمذي /٣/٤٥٧(١١٥٩). وحسنه الترمذي وقال: حسن غريب.

يضاجعها؛ وهذا أحد معاني الهجر، وهو الهجر بالجسد، وهناك أنواع من الهجر؛ كهجر الاستماع، وهجر التلاوة، وهجر التدبر والتفكر ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾: إذا لم يرتدعن بالموعظة، وبالهجران؛ فضرب غير مبرح، غير مؤثر، ليس على الوجه، ولا تُقبّح ولا تهجُر إلّا في البيت؛ ولقد أوصى رسول الله ﷺ بالنساء؛ فقال: فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ[1]. وقَالَ أيضًا: اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ[2]. يعني أسيرات شفقة ورحمة بهن ﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿أَطَعْنَكُمْ﴾: إذا تحققت طاعتهنّ لكم ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿تَبْغُوا﴾: تظلموهن، وتجبروهن على فعل شيء مما يكرهن لا بقولٍ ولا بفعلٍ، ولا تكلفوهن ولا تتجاوزوا وتعتدوا ﴿عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾: والسبيل هنا بمعنى العلل؛ أي ليس له أنْ يضربها، ولا يهجرها إذا أطاعته، ولا يتعللُ كذبًا، ولا يظلم ﴿إِنَّ﴾: حرف شرطٍ وللتأكيد ﴿اللَّهَ كَانَ﴾: دائمًا أبدًا، بلا انقطاع ﴿عَلِيًّا﴾: صاحب المنزلة الرفيعة ﴿كَبِيرًا﴾: إنْ الله ﷻ يهدد، ويحذّر الرجال إذا بغوا على النساء بلا سبب، فاللهُ ﷻ وليُهنّ، ناصرهنّ ومؤيدهنّ، والمنتقمُ ممن ظلمهن، وبغى عليهن.

التكليف: من الواضح أنّ هذه الآية الكريمة توضّح أسس العلاقة الزوجية كما أرادها صاحب الصنعة ﷻ.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (٣٥)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الاستئناف ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿خِفْتُمْ﴾: جاء اللفظ القرآني (خفتم) أي إذا توقعتم بالتأكيد، والكلام موجّه إلى أولياء الزوجين ﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾: جاء لفظ الشقاق هنا بمعنى الخلاف بين الزوجين؛ إذا تفاقم الخلاف والنفور، والعداوة من الزوجين ﴿فَـ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ، والأمر هنا للوجوب، وليس للندب أو الاستحباب، كما قال الشافعي لأنّه من باب رفع الظلم ﴿ابْعَثُوا﴾: أرسلوا ﴿حَكَمًا﴾: وسيطًا عادلًا، ممن يصلحُ لذلك، عقلًا ودينًا، وإنصافًا، أمر الله ﷻ أن يكون المحكمون من أهل الزوجين؛ لأنهما أعلم بهما ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعض ﴿أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾: لأنّهما أعرف بأحوالهما؛ وأحفظُ لأسرارهما الخاصّةِ، وأحرصُ على الصلح بينهما، وعلى الحكم أنْ يقوم بالآتي: **الأول:** أنْ يُسكنهما في مكانٍ آمن. **الثاني:** يمنع الظالمَ

---

[1] صحيح مسلم /٢/٨٨٩(١٢١٨).

[2] سنن ابن ماجه /٣/٥٧(١٨٥١). وصححه شعيب الأرناؤوط.

منهما من الظلم. **الثالث**: إذا تعذّر الحلُّ؛ بعث الحكمُ أهل الثقةِ من أهل المرأة، ومن أهلِ الرجلِ، يجتمعون للحل، ويقررون ما فيه المصلحة، وهذا غرض الشارع الحكيم؛ لذلك جاء في الآية الكريمة ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿يُرِيدَا﴾: في نيتهما من البداية ﴿إِصْلَاحًا﴾: المقصود هنا بلجنة الإصلاح المشتركة ﴿يُوَفِّقِ﴾: يسهّل وييسر ﴿اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾: بين الرجل وزوجته، إنّ عليهم أنْ ينظروا في الحالة: إنْ كان الرجلُ هو المسيءُ؛ حجبوا عنه امرأته، وقصروه على النفقة، وإنْ كانت المرأة هي المسيئة، قصروها عن زوجها، ومنعوها النفقة، وعندها: يكون القرار: إمّا التوفيق أو التفريق؛ فإنْ كان القرار التوفيق، ورفض طرف من الزوجين؛ فإن مات الرافض؛ ورثه الطرف الذي رضي، إنّ الحَكم هو الذي يُقرر في النهاية، وحتمًا سيكون مع صاحب الحق ضدّ الطرف الآخر ﴿إِنَّ﴾: حرفٌ للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ كَانَ﴾: بلا انقطاع أو امتناع ﴿عَلِيمًا﴾: صاحب العلم المطلق ﴿خَبِيرًا﴾: عنده خبر كلّ شيء ظاهره وباطنه.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (٣٦)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: جاء اللفظ القرآني "**اعبدوا**" على ثلاثةِ وجوه، هنا بمعنى التوحيد أطيعوا الله ﷻ في أوامره، ونواهيه كما في قوله ﷻ **﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾** [هود-٥٠]، وبمعنى الطاعة كما في قوله ﷻ **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ *قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾** [سبأ-٤٠، ٤١]، عَنْ مُعَاذٍ، قَالَ: أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النبي ﷺ: يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ؟، قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ؟، قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ[1]، ﴿وَلَا﴾: أيضًا هنا ينهى أنْ ﴿تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾: جاء اللفظ الشرك في القرآن على ثلاثة أوجه، هنا بمعنى الشرك بالله عبادة وطاعة لغيره ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿الْوَالِدَيْنِ﴾: وأيضًا ما علا من الأجداد ﴿إِحْسَانًا﴾: هكذا كانت عبادة الله وحده، متبوعة بالإحسان إلى الوالدين: **﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾** [لقمان-١٤]، وجاء أيضًا: **﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾** [الإسراء-٢٣] ﴿وَبِذِي﴾: أيضًا صاحب ﴿الْقُرْبَى﴾: تتوسع دائرة الأوامر الربّانيّة لضبط العلاقات الأُسرية بعد الوالدين، إلى الأقارب،

---

[1] صحيح البخاري /٩/١١٤(٧٣٧٣).

من جهتيّ الأب والأم، من الرجال، ومن النساء ﴿وَالْيَتَامَى﴾: وتشمل هذه الطاعة الإحسان إلى أضعف شرائح المجتمع؛ الذين فقدوا العائل والمعين في الأرض، وهم اليتامى ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾: أيضاً هم أصحاب الاحتياجات، الذين لا يجدون ما يكفيهم من الأموال ﴿وَالْجَارِ ذِي﴾: صاحب ﴿الْقُرْبَى﴾: الجار الذي بينه وبين جاره قرابة، وقيل الجار المسلم ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾: قيل: الجار البعيد، والذي دونَ قرابة، والجار غير المسلم، مثل النصراني، أو اليهودي، وقيل الرفيق في السفر، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ[1]، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الجِيرَانِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ[2]، عن الْمِقْدَاد بْن الْأَسْوَدِ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: مَا تَقُولُونَ فِي الزِّنَا؟ قَالُوا: حَرَّمَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرَةِ نِسْوَةٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ، قَالَ: فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي السَّرِقَةِ؟ قَالُوا: حَرَّمَهَا اللهُ وَرَسُولُهُ فَهِيَ حَرَامٌ، قَالَ: لَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ أَبْيَاتٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ[3]. ﴿والصَّاحِبِ﴾: أيضاً المرافق ﴿بِ﴾: حرف باء الظرفية ﴿الْجَنْبِ﴾: قيل هي الزوجة، وقيل الرفيق في السفر، وقيل الرفيق الصالح، وقيل جليسك في الحضر، وقيل رفيقك في السفر الغريب الذي انقطعت به السبل ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: هو الضيف، وقيل الذي يمر عليك مجتازًا للسفر؛ وهذا الأقرب للصحيح ﴿وَمَا﴾: أيضاً الذي ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: هم العبيد أو الرقيق، والمماليك، والأسير، وهناك أحاديث عدّة تحضّ على إطعام الفقراء، والخدم، والعمال، والعاملين ﴿إِنَّ﴾: حرفٌ للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ لَا﴾: حرف نفي ﴿يُحِبُّ﴾: أي أنّه يكره ﴿مَنْ﴾: الذي ﴿كَانَ مُخْتَالًا﴾: المُعجب بنفسه ﴿فَخُورًا﴾: الذي من أهل الفخر والخيلاء، الذي يمدحُ نفسه، المتكبرُ الفخورُ المتطاولُ على النّاس، والمُعددُ لمناقبه، الذي يرى أنّه أفضل منهم، هؤلاء يتفاخرون على النّاس بما أنعم الله ﷻ عليهم، ولا يشكرون الله ﷻ إلّا قليلًا.

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٣٧)

﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يَبْخَلُونَ﴾: الذين لا ينفقون أموالهم على الشرائح المحتاجة، التي أوجبها الله ﷻ في الآية السابقة، وكذلك أداء الحقوق ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ

---

[1] صحيح البخاري /٨/١٠(٦٠١٥).

[2] سنن الترمذي /٣/٣٩٧(١٩٤٤). وحسنه الترمذي وقال: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

[3] مسند أحمد ٣٩/ ٢٧٧(٢٣٨٥٤) قال الأرناؤوط: إسناده جيد.

بمعنى أيضًا ﴿يَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾: عموم بني آدم ﴿بِ﴾: حرف باء الحال ﴿الْبُخْلِ﴾: ليس فقط لا ينفقون، ولكن لا يريدون أحدًا أن يُنفق، ويمنعون ما أوجب الله ﷻ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ[1]، ﴿وَيَكْتُمُونَ﴾: الذين يُخفون، ولا تظهر عليهم نعمة الله ﷻ، لا في مأكلهم، ولا ملبسهم، ولا عطائهم، وبذلهم، جاء في المعنى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات-٦، ٧، ٨] ﴿مَا﴾: الذي ﴿آتَاهُمُ﴾: أعطاهم ووهبهم ﴿اللَّهُ مِنْ﴾: جزء أو بعض ﴿فَضْلِهِ﴾: نعمة الله عليهم، في المال، والملبس، والطعام، فهؤلاء هم البخلاء الذين يكفرون أي يسترون، ويغطّون نعم الله عليهم، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، إِلَّا كَانَ الَّذِي أَعْطَى أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ[2] وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، [ص-١٢٤] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»[3]، ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: أيضاً جهّز الله ﷻ لهؤلاء وأعدّ بصورة كبيرة ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الْكَافِرِينَ﴾: الذين يُخفون فضل الله ﷻ، ويبخلون في الإنفاق ﴿عَذَابًا مُهِينًا﴾: كان اختيار الله ﷻ لفظ مهينًا دلالات؛ فالبخيل يهين نفسه في الدنيا، فلا يُظهر ما أنفق اللهُ ﷻ عليه من نعم، وجزاؤه في الآخرة من جنس عمله.

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ (٣٨)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾: من الرجال والنساء، بعد الحديث عن البخلاء في الآية السابقة، جاء ذكر مرضٍ من أمراض المنافقين في مجال المال، وتأتي هذه الآية لتفضح المرائين، الذين يقصدون السمعة، والمدح من النّاس، على ما ينفقون، ولا يريدون وجه الله ﷻ ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤْمِنُونَ بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: يوم القيامة، هؤلاء المنفقون رئاء النّاس، يشهد عليهم ربُّهم أنّهم لم يُنفقوا طاعةً لله ﷻ، ونيل رضاه؛ لأنّهم لا يؤمنون بالله ﷻ، ولا يؤمنون بيوم الحساب، يوم القيامة ﴿وَمَنْ﴾: وأيضًا الذي من جنس العاقل ﴿يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ﴾: تخصيصًا ﴿قَرِينًا﴾: هو الصاحب والخليل، الذي كان الشيطانُ له صاحبًا ومُلازمًا؛ الذي زيّن له الشيطان القبائح، فعدل عن طاعة الله ﷻ، وعن الإنفاقِ في سبيلِهِ وابتغاءِ مرضاته، وثوابِهِ يوم القيامة

---

[1] صحيح مسلم /٤/١٩٩٦(٢٥٧٨).

[2] سنن ابن ماجه /٢/١٢٥٠(٣٨٠٥). وحسنه الألباني.

[3] سنن الترمذي ٥/ ١٢٣(٢٨١٩) وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ».

﴿فَـ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿سَاءَ﴾: المُسبب الضرر والشر ﴿قَرِينًا﴾: شهادة من الله ﷻ على سوء المُلازم القرين.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (٣٩)

﴿وَمَاذَا﴾: حرف يفيد الاستفهام يفيد هنا أيّ شيءٍ ﴿عَلَيْهِم﴾: ما الذي يضرهم؟ ماذا سيخسرون ﴿لَوْ﴾: حرف يفيد الاستحالة ﴿آمَنُوا﴾: إذا اعتقدوا بيقينٍ حقًّا وصدقًا ﴿بِـ﴾: حرف باء المصاحبة ﴿اللَّه وَ﴾: أيضًا آمنوا بـ ﴿الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: ثواب وعقاب يوم القيامة؛ فاتّبعوا أوامره، وابتعدوا عن الريّاء، وأخلصوا عملهم لله ﷻ، لينالوا أجرهم يوم القيامة ﴿وَأَنْفَقُوا﴾: أيضاً دفعوا أموالاً في سبيل الله، في الطُرق المشروعة التي جاءت في الآيات السابقة ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ من الأموال والأنعام التي رزقهم اللهُ ﷻ بها ﴿وَكَانَ﴾: ويكون بلا انتهاء ﴿اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾: يعلم ﷻ نيّاتهم، صالحة أم فاسدة، فمن يستحق التوفيق، يوفقه ويزده، ويلهمه رشده، ويسخّره لعمل الخير ومن يرائي، يطرده من باب رحمته، ومصيره الخسارة في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٤٠)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ لَا﴾: حرف نفي ﴿يَظْلِمُ﴾: إن الله ﷻ عدل، لا يُنقص من أجور عباده، إنّه سيُوفي كلّ عاملٍ بعمله، حتى ولو كان ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾: مثقال وزن هباءة التراب، أو حبّةٍ من خردلٍ، وقيل الذّرُ هو النمل الصغير، ولا مثقال ذرّة بالمفهوم العلمي المعاصر، وإذا اعتمدنا المصطلح العلمي للذّرة، نقول إنّها التي لا تُرى بالعين بالمجّردة، وقد جاء في القرآن على لسان لقمان: ﴿**يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ**﴾ [لقمان–١٦]، وقال ﷻ: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه**﴾ [الزلزلة–٧، ٨]، جاء في الحديث عن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﵁، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ»، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: «أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا قَدِ اسْوَدُّوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الحَيَا، أَوِ الحَيَاةِ – شَكَّ مَالِكٌ – فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً»[1] ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ بمعنى أيضًا ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَكُ﴾: توجد، تكون ﴿حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾: حتى المشرك، فيخفف اللهُ ﷻ عنه العذاب يوم القيامة، ولا يخرج من النّار أبدًا، وعن العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ ﵁، قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا

---

[1] صحيح البخاري /١/٢٣(٢٢).

أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ[1]؛ هذا خاص بأبي طالب، أمّا الآخرون فالكافر يُطعم ويشرب ويُسقى بما قدّمه من حسنات، أمّا من لم تكن له حسنة ﴿وَيُؤْتِ﴾: أيضاً يعطي ويهب ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية التي لا يحدّها زمانٌ أو مكانٌ ﴿لَدُنْهُ﴾: تفيد بداية ونهاية الفعل، من كرم الله ﷻ ورحمته ﴿أَجْرًا﴾: جزاءً وثوابًا ﴿عَظِيمًا﴾: يهب من عنده الجنّة، فعَنْ أَبِي عُثْمَانَ قُال: بَلَغَنِي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ بِالْحَسَنَةِ الْوَاحِدَةِ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ. قَالَ: فَقُضِيَ أَنِّي انْطَلَقْتُ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا، فَلَقِيتُهُ، فَقُلْتُ: بَلَغَنِي عَنْكَ حَدِيثٌ أَنَّكَ تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الْحَسَنَةَ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: لاَ، بَلْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِيهِ أَلْفَيْ أَلْفِ حَسَنَةٍ. ثُمَّ تَلاَ: ﴿**يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء-٤٠] فَقَالَ: فَمَنْ يَقْدُرُ قَدْرَهُ؟[2].

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٤١)

﴿فَ﴾: حرف يفيد الاستئناف ﴿كَيْفَ﴾: استفهام عن حال الخلق يوم القيامة ﴿إِذَا﴾: حرفُ ظرفٍ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿جِئْنَا﴾: نأتي ﴿مِنْ كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿أُمَّةٍ﴾: جماعةٍ كبيرةٍ من أصلٍ واحدٍ أو أصحاب مذهبٍ واحدٍ، الذين بُعث منهم أنبياء، فهؤلاء هم أممُ الأنبياء والرسل ﴿بِشَهِيدٍ﴾: نبيّ أو أنبياء كلّ أمّةٍ بُعث فيهم؛ أي سيأتي الله ﷻ بالأنبياء؛ ليشهد كل نبي، على أُمته، كيف استقبلت دعوته ﴿وَ﴾: حرفُ عفٍ يفيد هنا بمعنى أيضًا ﴿جِئْنَا بِكَ﴾: يا محمد ﷺ﴿عَلَى هَؤُلَاءِ﴾: قومك، ومن بلّغت ﴿شَهِيدًا﴾: ويأتي الله ﷻ بمحمدٍ ﷺ شهيدًا على أمّته، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ، قَالَ: «نَعَمْ» فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا**﴾ [النساء-٤١]، قَالَ: «حَسْبُكَ الآنَ» فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ[3]. حرف عطفٍ يفيد هنا

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (٤٢)

---

[1] صحيح البخاري /٥/٥٢(٣٨٨٣).

[2] مسند الإمام أحمد /١٦/٤٤٣(١٠٧٦٠) والحديث ضعفه شعيب الأرناؤوط.

[3] صحيح البخاري /٦/١٩٦(٥٠٥٠).

﴿يَوْمَئِذٍ﴾: في هذا يوم القيامة ﴿يَوَدُّ﴾: يتمنى ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿كَفَرُوا﴾: من الرجال والنساء، جحدوا وأنكروا وغطوا ﴿وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾: يريد أيضًا الذين حاولوا تغطية وستر الدين عن أعين النّاس، وعن قلوبهم، ولم يطيعوا رسول الله ﴿لَوْ﴾: حرف يفيد الاستحالة ﷺ ﴿تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾: لو انشقت الأرض وابتلعتهم، أو صاروا ترابًا؛ واختفوا عن وجهها؛ من هول ما يرون من الخزي، والفضيحة، والتوبيخ، جاء في المعنى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ–٤٠] ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يَكْتُمُونَ﴾: يُخفون عن ﴿اللَّهَ حَدِيثًا﴾: خوفًا من أنْ يعترفوا بكلّ ما اقترفوا من جرائم، يوم تشهد عليهم أيديهم وأرجلُهم، حيث ختم الله ﷻ على قلوبهم وأفواههم، يوم يُكذّب بعضُهم بعضًا ويكذبون على أنفسهم ويقولونه: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام–٢٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (٤٣)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو اللهُ ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات؛ البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم عموم البشر، من الرجال والنساء ﴿لَا﴾: حرف طلب الكف عن الفعل على وجه الإلزام وتفيد التحريم ﴿تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾: لا تقوموا بأداء الصلاة ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿أَنْتُمْ سُكَارَى﴾: في حالةِ السُكر من شرب الخمر ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي إلّا بشرط أنْ ﴿تَعْلَمُوا مَا﴾: الذي ﴿تَقُولُونَ﴾: حتى يزول عنكم أثر السُكر وتعلموا ما تقولون، حيث لا يدري المُصلّي ماذا يقول، حتى إذا أفاق؛ وأدرك المعاني التي تُتلى في الصلاة قام فأدى الصلاة، وقد نُسخت هذه الآية بالآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة–٩٠]، عن عمر بن الخطاب قال: لما نزل تحريمُ الخمر، قال عمر: اللّهُمَّ بيّن لنا في الخمرِ بيانًا شفاء، فنزلت الآية التي في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ الآية [البقرة–٢١٩]، قال: فدُعِيَ عُمَرُ، فقُرِئَتْ عليه، قال: اللّهُمَّ بيّن لنا في الخمرِ بيانًا شفاءً، فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء–٤٣] فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقيمت الصلاةُ نادى: ألا لا يقربنَّ الصلاةَ سكرانُ، فدُعِيَ

عُمرُ فقُرِئَت عليه، فقال: اللَّهُمَّ بيِّن لنا في الخمرِ بيانًا شفاء، فنزلت هذه الآية: ﴿**فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**﴾ [المائدة–٩١]، قال عمر: انتهينا[1] ﴿**وَلَا**﴾: وتحريمٌ أيضًا ﴿**جُنُبًا**﴾: أي لا تقربوا الصلاة بعد الجماع دونَ غُسل، ولا تدخلوا المسجد ﴿**إِلَّا**﴾: حرف استثناء منقطع ﴿**عَابِرِي سَبِيلٍ**﴾: في حال السفر، فإنه يجوز لكم أن تصلوا بالتيمم، وأيضًا لا تقربوا مواضع الصلاة، وهي المساجد في حال الجنابة، إلّا أنْ تكونوا مُجتازين فيها من جانبٍ إلى جانبٍ، أي تسيرون فيه من مساكنهم المجاورة للمسجد، فأمر اللهُ ﷻ بسدّها؛ إلّا خوخة أبي بكر ﷺ ﴿**حَتَّى**﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي إلّا بشرط أنْ ﴿**تَغْتَسِلُوا**﴾: **حُكم**: لا يجوز للجُنب المكوث في المسجد، ويجوز لهم المرور، وكذا الحائض والنفساء، ولكنّ بعضهم حرّم مرور الحائض والنفساء، لاحتمال التلويث، إلّا إذا أمنت التلويث، وهناك من يُجيز دخولهن، وقيل لا يدخل المسجد جُنبًا إلّا المسافرون، تُصيبهم الجنابة، فلا يجد الواحد ماءً؛ فيصلي حتى يجد الماء، عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قال ﷺ: الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ وَضُوءُ الْمُسْلِمِ وَلَوْ إِلَى عَشْرِ سِنِينَ، فَإِذَا وَجَدْتَ الْمَاءَ فَأَمِسَّهُ جِلْدَكَ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ[2]، وقال مالك، وأبو حنيفة، والشافعي: المكوث في المسجد للجُنب حتى يغتسل، أو يتيمم إذا لم يجد ماءً ﴿**وَإِنْ**﴾: حرف شرط ﴿**كُنْتُمْ مَرْضَى**﴾: وهي الجراح في الجسم، أو المرض الذي يبيح التيمم؛ الذي يضر فيه الماءُ المريض، أو يُطيل المرض، ومن العلماء من أجازه في كلّ مرضٍ، لعموم الآية، ومنهم من قال من لا يقدر على القيام ﴿**أَوْ**﴾: حرفٌ يُفيد التسوية في الحكم ﴿**عَلَى سَفَرٍ**﴾: إنّ مدّة السفر ليست شرطًا، لعموم الآية، سفرًا طويلًا، أو قصيرًا ﴿**أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ**﴾: خرج منكم من ﴿**الْغَائِطِ**﴾: المكان الذي يقضى الإنسان فيه حاجته، كناية عن تبول أو تبرز ﴿**أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ**﴾: قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر ﴿**لَمَسْتُمُ**﴾ بحذف الألف، وقرأ الباقون ﴿**لَامَسْتُمُ**﴾ بإثبات الألف، وفيها قولان:

الأول: كناية عن الجماع؛ لقوله ﷻ: ﴿**وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ**﴾ [البقرة–٢٣٧]، المس واللمس والمباشرة هي الجماع، وهذا هو الأولى.

والثاني: كلُّ من لمس بيدٍ، أو بغيرها أعضاء الإنسان الجنسية؛ أوجب الوضوء على كلّ من مس بشيء من جسده شيئًا من جسدها مفضيًا إليه؛ مثل القبلة التي تلزم الوضوء، ومن اللمس بيده، وقيل الغمز، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَوَضَّأُ، ثُمَّ يُقَبِّلُ وَيُصَلِّي وَلَا يَتَوَضَّأُ، وَرُبَّمَا

---

[1] سنن أبي داود ٥/ ٥١٤(٣٦٧٠) قال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

[2] سنن أبي داود /١/٩٠(٣٣٢). وصححه الألباني.

فَعَلَهُ بِي[1]. وعن أُمَّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: كَانَ يُقَبِّلُهَا وَهُوَ صَائِمٌ[2]، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُقَبِّلُ إِحْدَى نِسَائِهِ، وَهُوَ صَائِمٌ» ثُمَّ تَضْحَكُ[3]. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم ينفي الفعل المضارع ﴿تَجِدُوا مَاءً﴾: لا بد من طلب الماء أولًا ﴿فَ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ ﴿تَيَمَّمُوا﴾: التيمم هو القصد في اللغة ﴿صَعِيدًا﴾: فيها أقوال: قال مالك: هو كلُّ ما صعد على وجه الأرض، فيه التراب، والرمل، والشجر، والنبات، وقال أبو حنيفة: ما كان من جنس التراب، كالرمل، وقال الشافعي، وأبو حنيفة: هو التراب فقط، ودليلهم ما جاء: ﴿تُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف-٤٠]؛ أي ترابًا أملسًا، عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا، إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ[4]، ﴿طَيِّبًا﴾: ما تقبله النفس وتستمتع به الحواس ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد الجواب ﴿امْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ﴾: أيضًا امسحوا ﴿أَيْدِيكُمْ﴾: يجزئ التيمم عن الوضوء؛ يُمسح الوجه، واليدين فقط بإجماع الأئمة. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين، بتيسير ما أمرهم به، وتسهيله غاية التسهيل، بحيث لا يشق على العبد امتثاله، فيُحرج بذلك.

كيفية التيمم: قال ﷺ عن التيمم: إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَصْنَعَ هَكَذَا، فَضَرَبَ بِكَفِّهِ ضَرْبَةً عَلَى الأَرْضِ، ثُمَّ نَفَضَهَا، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا ظَهْرَ كَفِّهِ بِشِمَالِهِ أَوْ ظَهْرَ شِمَالِهِ بِكَفِّهِ، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ[5].

أسباب نزول آية التيمم: عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: هَلَكَتْ قِلاَدَةٌ لِأَسْمَاءَ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَلَبِهَا رِجَالًا، فَحَضَرَتِ الصَّلاَةُ وَلَيْسُوا عَلَى وُضُوءٍ، وَلَمْ يَجِدُوا مَاءً، فَصَلَّوْا وَهُمْ عَلَى غَيْرِ وُضُوءٍ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ[6].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ (٤٤)

---

(1) سنن ابن ماجه /١/١٦٨(٥٠٣). ومسند أحمد /٤٠/٣٨٥(٢٤٣٢٩) وقال الأرناؤوط في تخريجه لحديث أحمد: حديث صحيح، وهذا سند حسن في المتابعات.

(2) صحيح البخاري /١/٧١(٣٢٢).

(4) صحيح مسلم ٢/ ٧٧٦(١١٠٦).

(4) صحيح مسلم /١/٣٧١(٥٢٢).

(5) صحيح البخاري /١/٧٧(٣٤٧). والتيمم يصح بضربة واحدة، أو ضربتين، ضربة للكفين والوجه، وضربة ثانية لليدين، أخرج الحاكم في المستدرك /١/١٧٩(٦٣٤): عَنْ عُبَيْدِ اللهِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: التَّيَمُّمُ ضَرْبَتَانِ: ضَرْبَةٌ لِلْوَجْهِ، وَضَرْبَةٌ لِلْيَدَيْنِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ. وأخرج مالك في الموطأ: عَنْ مَالِكٍ عَنْ نَافِعٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ كَانَ «يَتَيَمَّمُ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ» وَسُئِلَ مَالِكٌ كَيْفَ التَّيَمُّمُ وَأَيْنَ يَبْلُغُ بِهِ؟ فَقَالَ: «يَضْرِبُ ضَرْبَةً لِلْوَجْهِ، وَضَرْبَةً لِلْيَدَيْنِ، وَيَمْسَحُهُمَا إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ» (موطأ مالك /١/٥٦(٩١)).

(6) صحيح البخاري /٧/١٥٨(٥٨٨٢).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾: تفيد دائمًا الوجع والحزن، ألم تعلم أيّها الرسول عن ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿أُوتُوا﴾: أعطاهم الله ﷻ من الرجال والنساء ﴿نَصِيبًا﴾: حظًا وجزءً، والمقصود هم اليهود، لعنهم الله ﷻ إلى يوم القيامة ﴿مِنَ﴾: جزء أو بعض ﴿الْكِتَابِ﴾: التوراة ﴿يَشْتَرُونَ﴾: يبيعون، ويستبدلون حُطام الدنيا بالآخرة، ويبيعون الهُدى بـ ﴿الضَّلَالَةَ﴾: يُعرضون عن دين محمد ﷺ، ويُبقون على ما عندهم من المُحَرّفات ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا أيضًا ﴿يُرِيدُونَ أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَضِلُّوا﴾: تتنكبوا ﴿السَّبِيلَ﴾: أنْ تكفروا بما نزل عليكم من الحق والهدى، لتسلكوا سبلهم إلى متاع الدنيا.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ (٤٥)

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾: منكم، إنّه الخالق البارئ، وهو أعلم بصناعته. من المعلوم أنّ صانع الصانع في العصر الحديث هو الذي يضع شروط تشغيلها؛ حتى تؤدي دورها على الوجه الصحيح ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿أَعْدَائِكُمْ﴾: والأعداء هنا هم اليهود ومن والاهم إنّ الله ﷻ أعلم بما يخطط أعداؤكم، وما يريدونه لكم من الإضلال ﴿وَكَفَى﴾: عطفًا على ما جاء يكفيكم أيّها المسلمون ﴿بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾: هو الناصر، والمعين، والمؤيد، والحليف ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾: الذي يُحقق لكم النصر في أموركم كلها، ويحفظكم من الأعداء.

التكليف: تقف بعضُ الشعوب الإسلامية اليوم موقفًا خطيرًا من هذه الآية؛ إذ يتعاونون مع اليهود ومع النصارى الأعداء الذين هم ضدّ إخوانهم المسلمين؛ رغبةً في نيل رضاهم وأموالهم، أو تأييدهم في المجالات السياسية والاقتصادية، وفي صدِّ الأعداء عنهم، وحماية فسادهم، وظُلم أنظمتهم، ويقف في الوقت نفسه في الجهة المقابلة مع من يعتمد على الله ﷻ، ويثق في هذه الآيات؛ وكأنّها نزلت في هذه الحقبة.

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٤٦)

﴿مِنَ﴾: بعض، جاء اللفظ القرآني "**من**" على (١١) وجه؛ هنا لبيان الجنس مثل ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿هَادُوا﴾: هم اليهود، لعنهم الله ﷻ ﴿يُحَرِّفُونَ﴾: يُغيرون معاني ﴿الْكَلِمَ﴾: كلام الله ﷻ ﴿عَنْ﴾: حرف جرّ يفيد المجاوزة ﴿مَوَاضِعِهِ﴾: ويُفسرونه، ويتأولونه بغير مُرادِ الله عزّ وجل؛ افتراءً وعمدًا ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الاستئناف ﴿يَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾: يقولون للرسول ﷺ سمعنا ما قلته يا محمد ﷺ؛ ﴿وَعَصَيْنَا﴾: وأيضًا لكن لا نُطيعك

فيه، ولا نريد أنْ نتبعك ﴿وَاسْمَعْ﴾: اسمع ما نقول ﴿غَيْر﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿مُسْمَعٍ﴾: يقصد لا سمعت، يدعون عليه ألّا يسمع ﴿وَرَاعِنَا﴾: أعرنا سمعك، ولكنّهم يقصدون الرعونة، وبهذا يسبُّون النبي ﴿لَيًّا﴾: تحريفًا ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿أَلْسِنَتِهِمْ﴾: يسبون النبي ﷺ بكلامٍ له أكثر من معنى؛ يقصدون الدعاء عليه ﴿وَطَعْنًا﴾: التشكيك، والقدح ﴿فِي الدِّينِ﴾: في دين محمد ﷺ ﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يفيد الاستحالة ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرف تأكيد ونفي الإنكار ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾: أي سمعوا ما قال ﷺ: وأطاعوا ما أمر؛ وهذا هو المطلوب، أنْ يسمعوا كلام الله ﷻ، ثم يفهموا معانيه وهي صادقة، ثم يُطيعون رسوله ﴿وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا﴾: أيضًا لو قالوا انتظرنا حتى نفهم ما تقول، لو سألوا واستفسروا ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسبب ﴿كَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾: لعلّهم اهتدوا إلى الدين الصحيح؛ لكان خيرًا لهم في دنياهم، وآخرتهم؛ ﴿وَأَقْوَمَ﴾: أصدقُ وأعدلُ ﴿وَلَكِنْ﴾: حرفُ عطفٍ واستدراكٍ ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِ﴾: حرف باء السببية ﴿كُفْرِهِمْ﴾: لقد غضب الله ﷻ عليهم؛ لأنّهم غطوا الحقيقة عن أنفسهم، وعن غيرهم؛ فقلوبهم مُغلقةٌ، مُغطاةٌ عن الخير، مُبعدةٌ عنه، فلا يدخلها شيءٌ نافعٌ من الإيمان ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا بمعنى النفي، لا ﴿يُؤْمِنُونَ إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿قَلِيلًا﴾: ما يؤمنون به لا ينفعهم، كالماء الذي لا يروي صاحبه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٤٧)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات، البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿أُوتُوا﴾: أعطاهم الله ﷻ من الرجال والنساء ﴿الْكِتَابَ﴾: هو التوراة والإنجيل، هم اليهود والنصارى ﴿آمِنُوا بِمَا﴾: بالذي ﴿نَزَّلْنَا﴾: نزول القرآن الكريم على محمد ﷺ وهذا إنذارٌ، بغضٍ منه ﷻ إذا كانوا يعلمون الحق وتركوا متابعته، وعملوا بنقيضه، ﴿مُصَدِّقًا﴾: مؤكدًا ﴿لِمَا﴾: حرف يدلُّ على حدوثِ شيءٍ في الماضي ﴿مَعَكُمْ﴾: يُحقق ما بين أيديكم من البشارات، والأخبار، والصفات الواردة في التوراة والإنجيل ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانية ﴿قَبْلِ﴾: قبل أنْ يأتيكم عذاب الله ﷻ ﴿أَنْ﴾: حرفٌ يفيد تأكيد الفعل ﴿نَطْمِسَ﴾: هو إزالة الأثر بالمحو للمعالم، فيكون الوجه كالقفا؛ فيذهب الأنفُ والفم، والحاجبان، ﴿وُجُوهًا﴾: كناية عن الرأس ومقدمه الجسد كلّه ﴿فَنَرُدَّهَا﴾: نرجعها ﴿عَلَى أَدْبَارِهَا﴾: فتصير العيون وراءهم، جهة أدبارهم، أي أنّ الطمس هو المحو للأثر؛ لا

يُبقي لهم سمعًا، ولا بصرًا، ولا شمًّا، كلّها تُردُّ إلى خلف الرأس، وقيل: من قبلِ أنْ تعمى عيونهم، ويذهب البصر، والمعنى العام: كأن تنقلب سحنتهم فما كان في الأمام صار للخلف، يُردّون على أدبارهم؛ وهذا أبلغُ في العقوبة، وأوضحُ لغضب الله ﷻ عليهم، وقيل بمنعها من فهم الحق؛ فيرجعوا كفارًا ﴿أَوْ﴾: حرف عطف يفيد التسوية ﴿نَلْعَنَهُمْ﴾: نغضب عليهم ﴿كَمَا﴾: مثلما ﴿لَعَنَّا﴾: مسخناهم ليكونوا قردة وخنازير، هم ﴿أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾: بدلًا من الطمس، الذي هو محو للأثر نصيبهم بحالةِ غضبٍ أخرى، وأنْ يلعنهم كلُّ لسانٍ؛ فنطردهم من رحمتنا؛ مثل اليهود الذين تحايلوا بصيد الحيتان يوم السبت؛ فمسخهم الله ﷻ قردة ﴿وَكَانَ﴾: وسيبقى دائمًا ﴿أَمْرُ﴾: إرادة ﴿اللَّهِ مَفْعُولًا﴾: إذا قضى الله أمرًا لا يُخالفه أحدٌ، ولا يمنعهُ أحدٌ؛ فهو كائنٌ لا محالة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٤٨)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ لَا﴾: حرف نفي ﴿يَغْفِرُ﴾: لا يُسامح، ولا يعفو، ولا يصفح ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يُشْرَكَ بِهِ﴾: لأنْ يُجعل معه إلهًا آخراً، وهو الانسان الذي مات على شركه ولم يتب منه، فلا احتمال أنْ يُغفرُ له شركه، وأمّا عُصاة المسلمين فيدخلون تحت مشيئة الله ﷻ، يغفر لمن يشاء، ويُعذبُ من يشاء. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾ [الأنعام–٨٢] إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى المُسْلِمِينَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا لاَ يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ ﷺ: لَيْسَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[1] وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: الظُّلْمُ ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَا يَغْفِرُهُ الله، وَظُلْمٌ يَغْفِرُهُ، وَظُلْمٌ لَا يَتْرُكُهُ، فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ: فَالشِّرْكُ , قَالَ اللهُ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان–١٣] وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يَغْفِرُهُ: فَظُلْمُ العِبَادِ أَنْفُسَهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ عزّ وجلّ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَتْرُكُهُ: فَظُلْمُ العِبَادِ بَعْضَهُمْ بَعْضًا , حَتَّى يَقُصَّ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ[2] ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا أيضًا ﴿يَغْفِرُ مَا﴾: الذي ﴿دُونَ﴾: غير أو أقل ﴿ذَلِكَ﴾: حرف إشارة للبعيد؛ هنا إشارة إلى ما سلف من نبأ عيسى ﷺ وغيره، كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر اللهُ ﷻ عنها ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾: حرف باء الصلة: يجعل معه إلهًا آخر ﴿فَقَدِ﴾: حرفٌ

---

[1] صحيح البخاري /١٦٣/٤(٣٤٢٩).

[2] مسند البزار – البحر الزخار ١١٥/١٣(٦٤٩٣). وقال المناوي: إسناده حسن. انظر التيسير بشرح الجامع الصغير ١٢٤/٢. وقد حسنه الألباني في صحيح الجامع.

دخل هنا على الفعل الماضي؛ فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿افْتَرَى﴾: اختلق ﴿إِثْمًا﴾: ذنبًا ﴿عَظِيمًا﴾: لا يغفره الله ﷻ لمن مات عليه؛ بسبب عظمه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٤٩)

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ألم تعلم أو تشاهد؛ تفيد هنا الاستفهام بغرض التعجب والاستنكار ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يُزَكُّونَ﴾: جاءت بصيغة المضارع لتفيد الدوام والاستمرار من الرجال والنساء الذين يمدحون ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾: بادعاء فضائل ليست لهم، كما قال اليهود والنصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة-١٨]، وقالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة-١١١]، وقالوا: ليس لنا ذنوب كما ليس لأبنائنا ذنوب، ونزلت في ذمِّ وذكرِ المساوئ عكس المدّاحين، والمُزكين للآخرين، دون أنْ يقولوا نحسبه كذا، ولا نزكيّ على الله أحدًا، ويدخل في ذلك إعجابُ الرجل برأيه، والذي يرى أنّه من أهل الجنّة، أو هو مؤمن، أو هو عالم؛ يَقُولُ مُعَاوِيَةَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَاللَّهُ المُعْطِي وَأَنَا القَاسِمُ، وَلاَ تَزَالُ هَذِهِ الأُمَّةُ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ»[1]، قَالَ ﷺ: مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهُّ فِي الدِّينِ، وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ حُلْوٌ خَضِرٌ، فَمَنْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّمَادُحَ، فَإِنَّهُ الذَّبْحُ[2]، وعن النبي ﷺ أيضًا: إِيَّاكُمْ وَالتَّمَادُحَ، فَإِنَّهُ الذَّبْحُ[3]، والذبح هو شقُّ الحلق، وقطع الأوعية الدموية التي تُوصل الدم للمخ؛ فيموت الإنسان أو الحيوان أو الطير ﴿بَلِ﴾: حرف للإضراب ينفي ما قبله؛ ويؤكد ما بعده ﴿اللَّهُ يُزَكِّي﴾: يُطهّر ﴿مَنْ﴾: الذي مِنْ جنس العاقل ﴿يَشَاءُ﴾: إنّ الله يعلم كلّ شيءٍ، وهو يعرف جزاء كلِّ إنسان ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾: لا يترك ﷻ لأحدٍ من الأجر ما يوازي الفتيل وهو الغشاء في شق نواة التمر.

﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ (٥٠)

﴿انْظُرْ﴾: تأمل وتفكر ببصرك ﴿كَيْفَ﴾: حرف استفهام يفيد التعجب ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ﴾: يختلقون كلامًا ﴿الْكَذِبَ﴾: هو الكذب الواضح، مثل تزكيتهم أنفسهم، ودعواهم أنّهم أبناء الله وأحباؤه، واتكالهم على أعمال آبائهم: وقد أخبر الله ﷻ أنّ الآباء لا يجزون عن الأبناء شيئًا، جاء في المعنى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة-١٣٤] ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد

---

[1] صحيح البخاري ١/٢٥(٧١).

[2] مسند أحمد /٢٨/٥٢(١٦٨٣٧). صححه الأرناؤوط وقال صحيح لغيره.

[3] سنن ابن ماجه /٤/٦٨٠(٣٧٤٣). وحسنه الأرناؤوط وقال إسناد جيد.

هنا الحال ﴿كَفَى بِهِ﴾: يكفي كذبهم أنْ يكون ﴿إِثْمًا﴾: ذنبًا ﴿مُبِينًا﴾: عظيمًا، واضحًا، فيُعذبون عليه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ (٥١)

سبب النزول: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ مَكَّةَ قَالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ: نَحْنُ أَهْلُ السِّقَايَةِ[١] وَالسِّدَانَةِ[٢] وَأَنْتَ سَيِّدُ أَهْلِ يَثْرِبَ، فَنَحْنُ خَيْرٌ؟ أَمْ هَذَا الصُّنَيْبِيرُ[٣] الْمُنْبَتِرُ مِنْ قَوْمِهِ يَزْعُمُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَّا؟ , فَقَالَ: أَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْهُ، فَنَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾، وَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء-٥١][٤]. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ألم تعلم ألم تشاهد، تفيد التقرير والتوبيخ ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿أُوتُوا﴾: أعطاهم الله ﷻ ﴿نَصِيبًا﴾: جزءًا ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾: بعض جنس الكُتب السماوية السابقة؛ وهم اليهود ﴿يُؤْمِنُونَ بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿الْجِبْتِ﴾: يعتقدون في السحر، وقيل الشيطان، وكل ما عُبد غير الله ﷻ، قيل الأصنام، وقيل الكاهن، وقيل الساحر ﴿وَ﴾: أيضًا يؤمنون ﴿الطَّاغُوتِ﴾: هو الكاهن، وكلّ معبودٍ أو مُطاعٍ من دون الله ﷻ، وجاء ذكره في سورة البقرة ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ﴾: يقول اليهودُ لكفار قريشٍ، هَؤُلَاءِ المقصود اليهود إشارة للبعيد ﴿أَهْدَى مِنَ﴾: حرفٌ يُفيد هنا التمييز ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: من المسلمين أتباعِ محمدٍ ﷺ ﴿سَبِيلًا﴾: أهدى دينًا ومنهجًا من دين محمد ﷺ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ (٥٢)

﴿أُولَئِكَ﴾: إشارة للقريب والبعيد، الذين ذهبوا إلى المشركين؛ وهم زعماء اليهود، وكلِّ من يعتقد منهج فساد، في كلِّ أمّةٍ وزمانٍ: ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾: من الرجال والنساء؛ غضب عليهم، وحرمهم من رحمته؛ لأنّهم فضّلوا قريشًا، مع كفرهم بالله ﷻ وبعبادتهم الأصنام ﴿وَمَنْ﴾: حرف يفيد العاقل ﴿يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ﴾: حرف نفي ﴿تَجِدَ﴾: تعرف أو تشاهد ﴿لَهُ﴾: تخصيصًا ﴿نَصِيرًا﴾: مثل الذين ذهبوا؛ ليستنصروا بالمشركين، وقد

---

(١) السقاية: سقاية الحاج.

(٢) السِّدانة: خدمة الكعبة.

(٣) تصغير (صُنبور) أي: الأبتر، الذي لَا عقب له، وكذلك الْمُنْبَتِر.

(٤) صحيح ابن حبان الإحسان ٥٣٤/١٤(٦٥٧٢) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الصحيح.

جاؤوا معهم يوم الأحزاب، ويوم الخندق؛ فكفى الله ﷻ المؤمنين شرّهم، ونزلت الآية الكريمة، وهو ما ينطبق على أمثالهم في كلّ زمانٍ ومكانٍ.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ (٥٣)

﴿أَمْ﴾: بمعنى هل، وهذا استفهام إنكاري وتوبيخي ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿نَصِيبٌ﴾: وهي تعني لا نصيب لهم، لا أجر لهم، ولا حُصّة ﴿مِنَ﴾: حرف يفيد التبعيض ﴿الْمُلْكِ فَـ﴾: حرفٌ استئنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد السبب والسرعة ﴿إِذًا﴾: ظرفٌ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط، وهي أداةُ ربطٍ بين ما بعدها بما قبلها ﴿لَا يُؤْتُونَ﴾: لا يُعطون ﴿النَّاسَ﴾: شيئًا؛ حتى ولو كان ﴿نَقِيرًا﴾: وهي النقطة التي في ظهر نواة التمرة؛ أي أنّهم بُخلاء؛ لأنّهم يخافون أنْ يذهب ما في أيديهم رغم كثرة ما يملكون، وقد لازمت هذه الحالة، طبيعة البخل، في اليهود على مدار التاريخ حتى اليوم، فالبنوك ومؤسسات المال في العالم في أيديهم، ويلازمهم البخل، والشحّ، وإمساك اليد حتى أبواب القبور.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (٥٤)

﴿أَمْ﴾: هل؛ للإنكار والتوبيخ على الفعل وهو ﴿يَحْسُدُونَ﴾: النبي على النبوّة العظيمة، ﴿النَّاسَ﴾: من المعلوم أنّ لفظ النّاس عام يشمل المؤمن، والكافر، ولكنّ المقصود هنا هو محمد بن عبد الله ﷺ الذي كان من العرب، وليس من بني إسرائيل ﴿عَلَى مَا﴾: الذي ﴿آتَاهُمُ اللَّهُ﴾: ما رزقهم الله ﷻ ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾: النبوة، والنصر، وقهر الأعداء، وكرمه ﷻ من هدايةٍ، ورشادٍ، وانتصار ﴿فَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿آتَيْنَا﴾: أعطينا ووهبنا ﴿آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾: جعل الله ﷻ في أسباط بني إسرائيل، الذين هم من ذريّته ﴿الْكِتَابَ﴾: الكُتب السماوية التي نزلت على بني إسرائيل، ومنها التوراة، والإنجيل ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا أيضًا أتاهم الله ﷻ ﴿الْحِكْمَةَ﴾: وهي طُرق الرشاد والسُنن النبوية ﴿وَآتَيْنَاهُمْ﴾: وهبناهم؛ جاءت بصيغة الجمع للتعظيم ﴿مُلْكًا عَظِيمًا﴾: جعلهم الله ﷻ ملوكًا لممالك واسعة، وأعدادًا كبيرةً من النّاس.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ (٥٥)

﴿فَمِنْهُمْ﴾: كان من بني إسرائيل ذريّة إبراهيم عليه السلام ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس الإنسان ﴿آمَنَ بِهِ﴾: الذي آمن بهذه الرسالات، وبما آتاهم اللهُ ﷻ من فضله، ومنهم من آمن بمحمدٍ ﷺ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿صَدَّ عَنْهُ﴾: كفر بالدين الخاتم؛ وأعرض؛ منع النّاس

عنه، بالرسل الأوائل وبمحمدٍ ﷺ، هؤلاء الذين كفروا كانوا من بني إسرائيل، والأنبياء كانوا من بني إسرائيل، ومن جنسهم، فرفضوا دعوتهم، ورفضوا اتّباعهم؛ فكيف سيقبلون منك يا محمد وأنت لست منهم؟ هؤلاء الكفرةُ هم أشدُّ تكذيبًا ﴿وَكَفَى﴾: عطفاً على ما سبق يكفيهم ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿جَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾: بسبب كفرهم؛ وصدّهم عن سبيل الله ﷻ، توعدهم اللهُ ﷻ بجهنّم، عقوبةً كافيةً لهم على كفرهم، وعنادهم، ومخالفتهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٥٦)

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: غطّوا، وأخفوا، وأنكروا من الرجال والنساء ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿آيَاتِنَا﴾: من بيّنات الله ﷻ للنّاس، ودلالات النبوة ﴿سَوْفَ﴾: هذا وعدٌ للعمل في المستقبل ﴿نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾: يدخلون النّار، تحيط بكلِّ جزءٍ من أجسادهم ﴿كُلَّمَا﴾: تفيد التكرار والتعميم ﴿نَضِجَتْ﴾: إذا احترقت وتلاشت ﴿جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾: بدلها الله ﷻ بغيرها ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسبب ﴿يَذُوقُوا﴾: والذوق هو فقط للطعام، وكإشارةٍ إلى أنّ كلّ أدوات الحواس، الجلد والشم وغيرها، ستُصاب وهنا تعني ﴿الْعَذَابَ﴾: إنَّ استخدام تخصيص الجلد هنا يفيد شدّة الألم، الذي مراكزهُ الحسيّة في الجلد، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ضِرْسُ الْكَافِرِ، أَوْ نَابُ الْكَافِرِ، مِثْلُ أُحُدٍ وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ»[1]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ضِرْسُ الكَافِرِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِثْلُ أُحُدٍ، وَفَخِذُهُ مِثْلُ البَيْضَاءِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ مِثْلُ الرَّبَذَةِ». وَمِثْلُ الرَّبَذَةِ كَمَا بَيْنَ المَدِينَةِ وَالرَّبَذَةِ وَالبَيْضَاءُ: جَبَلٌ[2].

التكليف: من المعلوم للأطباء أنّ الجهاز العصبي للإنسان مكون من ضفيرةٍ عصبيةٍ تغطى كلّ جزء ونسيج من الجلد والأعضاء، بعضها ينقل الإحساس، وآخر ينقل أوامر حركة العضلات، وغيره ينقل الألم، وغيره ينقل الشعور بالضغط وغيرها ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشكِّ والإنكار ﴿اللَّهَ كَانَ﴾: وسيبقى دونَ انقطاع ﴿عَزِيزًا﴾: لا يغالبه أحدٌ، ﴿حَكِيمًا﴾: يفعل ويقول الصواب في كلِّ أمرٍ.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ (٥٧)

---

[1] صحيح مسلم ٤/ ٢١٨٩(٢٨٥١).

[2] سنن الترمذي ٤/ ٧٠٣(٢٥٧٨) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

﴿وَالَّذِينَ﴾: اسم موصولٌ يُفيد هنا جميع الرجال والنساء ممَّنْ ﴿آمَنُوا﴾: آمنوا بالله ﷻ، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، إنّ الإيمان وحدهُ لا يكفي، فلا بد من اقترانه ﴿وَ﴾: عطفًا على إيمانهم ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: أيضاً أتبعوا إيمانهم بالطاعات من صلاةٍ، وصيامٍ، وقيامٍ، وزكاةٍ، وأمرٍ بالمعروف، ونهيٍ عن المنكر ﴿سَ﴾: حرف تأكيد الفعل في المستقبل ﴿نُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ﴾: هذه مآل المؤمنين، العاملين، الصالحين؛ جنّات ﴿تَجْرِي مِنْ﴾: حرفُ جرٍ يفيد بداية الغاية المكانية ﴿تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: تجري المياه في الأنهار من جميع فجاجها، وأماكنها، وأرجائها ﴿خَالِدِينَ﴾: مقيمين ﴿فِيهَا أَبَدًا﴾: الأبد عبارة عن مدّة الزمان الممتد الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان؛ أي لا يحولون، ولا يزولون ﴿لَهُمْ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾: والطهارةُ نوعان طهارة النفس من الآثام، وطهارة الجسد من الأوساخ وزوّجناهم بنساءٍ مُطهّراتٍ من كلّ قذرٍ، لا يصيبهن حيضٌ، ولا نفاس، ولا بول، ولا نخام، ولا بزاق، ولا مني، ولا ولد، مُطهراتٌ من الأذى والمآثم ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾: ندخلهم ظلّا ممتدًا، كثيفًا، غزيرًا، طيبًا، أنيقًا، لا حرّ فيه، ولا برد، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ [الواقعة-٣٠][1].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٥٨)

أسباب النزول: نزلت في عثمان بن طلحة حامل مفتاح الكعبة، بعد فتح مكّة المكرّمة، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيْنَ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ؟ فَدُعِيَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ: هَاكَ مِفْتَاحَكَ يَا عُثْمَانُ، الْيَوْمُ يَوْمُ وَفَاءٍ وَبِرٍّ[2]. ﴿إِنَّ﴾: حرفٌ للتأكيد ونفي الشكّ والإنكار ﴿اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾: يُوجب عليكم، والخطاب يشمل جميع البشر ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تُؤَدُّوا﴾: توفوا، وتعملوا على تنفيذ ﴿الْأَمَانَاتِ﴾: والأداء هو دفعُ الحقّ دُفعةً، كأداء الخراجِ والجزيةِ، وأمانات النّاس، وردّ حقوق الله ﷻ والواجبة من الصلاة، والزكاة، والصيام، والكفّارات، وتوضيح الشرائع، والنذور والانتهاء عن النواهي ﴿إِلَى أَهْلِهَا﴾: من حقوق العباد كالودائع، وحقوق العمل، فعَنْ أبي هريرة: قال ﷺ: أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ[3]. وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ[4]، أي أنْ تؤدى الأمانات للبر وللفاجر،

---

[1] صحيح البخاري /١١٩/٤(٣٢٥٢).
[2] أورده ابن كثير في تفسيره /٢/ ٣٤٠. عن ابن إسحاق مرسلًا.
[3] سنن أبى داود /٣١٣/٣(٣٥٣٧). وصححه الألباني وقال: حسن صحيح.
[4] صحيح مسلم /١٨/٨(٦٧٤٥).

على حدٍ سواء ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ﴾: عموم بني آدم ﴿أَن﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَحْكُمُوا بِ﴾: حرف باء الصلة والمصاحبة ﴿الْعَدْلِ﴾: وكلمة النّاس عامّة تشمل في القرآن المؤمن وغيره ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ نِعِمَّا﴾: مدح ﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾: نعم ما يأمركم به ﷻ من أداء الأمانات، والحكم بالعدل بين الجميع، وشرائعه كلّها ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ﴾: باقي بلا نهاية ﴿سَمِيعًا﴾: لما يحكم به، مُطلق السمع لا يغيب عنه من الأقوال، والهمس، ووسوسة النفس ﴿بَصِيرًا﴾: يرى كّل أفعالكم.

التكليف: من شروط سلامة المجتمع أنْ تُؤدّي الأمانات لله ﷻ ولأهلها، وهي من مكارم الأخلاق.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٥٩)

أسباب النزول: عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه، قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ، فَقَالَ: أَلَيْسَ أَمَرَكُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا، فَجَمَعُوا، فَقَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقَدُوهَا، فَقَالَ: ادْخُلُوهَا، فَهَمُّوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا، وَيَقُولُونَ: فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنَ النَّارِ، فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتِ النَّارُ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ[1].

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، وبين المُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: المؤمنين بالله ﷻ، ورسله، وملائكته، وكتبه ﴿أَطِيعُوا﴾: استجيبوا ونفذوا أوامر ﴿اللَّهَ﴾: أطيعوا فيما شرّعه من الحلال، وما حرّم من الحرام ﴿وَأَطِيعُوا﴾: أيضًا استجيبوا ونفذوا أوامر ﴿الرَّسُولَ﴾: فيما جرت من سُنن أقواله وأفعاله ﷺ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَكَرِهَهُ فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُفَارِقُ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَيَمُوتُ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً[2]، ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا أيضًا الاستئناف ﴿أُولِي﴾: أصحابِ ﴿الْأَمْرِ﴾: الحكم والقرار ﴿مِنْكُمْ﴾: العلماء والحكماء وأهل الفقه والدين، المسلمين، وهي عامّة في الأمراء أيضًا ﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَنَازَعْتُمْ﴾: اختلفتم ﴿فِي شَيْءٍ﴾: في فهم شيءٍ من كلِّ أصولِ الدين، وفروعه ﴿فَـ﴾: حرف يفيد هنا جواب الشرط

---

[1] صحيح البخاري /٥/١٦١(٤٣٤٠).

[2] صحيح البخاري /٩/٦٢(٧١٤٣).

﴿رُدُّوهُ﴾: ارجعوا ﴿إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾: وما اختلفتم فيه من شيءٍ؛ فحكمه إلى الله ﷻ ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ وَ﴾: وأيضًا تؤمنون بـ ﴿الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: هذه تنفي صفة الإيمان عن الذين لا يحتكمون إلى كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وهم غير مؤمنين لا بالله ﷻ، ولا برسوله، ولا بيوم القيامة ﴿ذَلِكَ﴾: حرف إشارة للبعيد؛ هنا إشارة إلى ما سلف من نبأ كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر الله ﷻ عنها ﴿خَيْرٌ﴾: الخير والمنفعة في التحاكم إلى كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ في فصل النزاعات ﴿وَأَحْسَنُ﴾: أفضل ﴿تَأْوِيلًا﴾: عاقبةً، ومآلًا، وأحسنُ جزاءً وتفسيرًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (٦٠)

سبب النزول: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ أَبُو بَرْزَةَ الأَسْلَمِيُّ كَاهِنًا يَقْضِي بَيْنَ الْيَهُودِ فِيمَا يَتَنَافَرُونَ إِلَيْهِ، فتنافرَ إِلَيْهِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطاغوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾** إِلَى قَوْلِهِ، **﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلّا إِحْسَانًا﴾**[1]، والآية عامّة تذّم المساوئ وهو عكس المدح لكلّ من يرفض التحاكم إلى الكتاب والسنّة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ألم تعلم علم مشاهدة ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يَزْعُمُونَ﴾: من الرجال والنساء؛ يدّعون، ويقولون بألسنتهم؛ فيمن تخاصم من الرجال من المؤمنين والكافرين، ومن المنافقين، يدّعون زورًا وبهتانًا ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿آمَنُوا بِمَا﴾: بالذي ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾: يدّعون بالباطل أنهم يؤمنون بالقرآن ﴿وَ﴾: أيضًا يدّعون أنّهم آمنوا ﴿مَا﴾: يؤمنون بالذي ﴿أُنْزِلَ مِنْ﴾: حرفُ جرٍ يفيد بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِكَ﴾: بالكُتب التي سبقت، ومع ذلك ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾: الكهنة والمشعوذين وأمثالهم من الأدعياء، أنْ يتبعوا تعاليم كلّ ما هو ليس من عند الله ﷻ، والذي هو طاغوت، وقيل هو كعبُ بن الأشرف اليهودي ﴿وَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾: جاءهم الأمر الربّاني أنْ يكفروا به؛ جاء الحكم قاطعًا بتحريم التحاكم إلى كلّ ما يخالف شرع الله ﷻ، وسُنّة رسوله ﷺ ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿يُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾: دائمًا يُغويهم الشيطان ﴿أَنْ﴾: حرف يفيد تأكيد الفعل ﴿يُضِلَّهُمْ﴾: يسلكهم سبل الكفر، يبعدهم عن الهداية والصواب ﴿ضَلَالًا﴾: تيهًا وكفرًا ﴿بَعِيدًا﴾: كبيرًا بعيدًا عن الدين.

---

[1] المعجم الكبير للطبراني ١١/ ٣٧٣(١٢٠٤٥) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦٢/٧ هم رجال الصحيح.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ (٦١)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا حالهم وما جاء عن سلوكهم ﴿إِذَا﴾: أداةُ ربطٍ بين ما بعدها بما قبلها ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾: إذا سأل الرسولُ ﷺ أو سأل المؤمنون المنافقين ﴿تَعَالَوْا﴾: أقبلوا ﴿إِلَى مَا﴾: الذي ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: الذي نزل من القرآن الكريم ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾: أيضًا الطاعة إلى سنّة رسول الله الكريم ﴿رَأَيْتَ﴾: ترى من أفعالِ وأقوالِ ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾: الذين يُبدون إيمانهم بما أنزل الله ﷻ وبما يقول الرسول ﷺ، ويُبطنون غير ذلك من الكفر في داخلهم ﴿يَصُدُّونَ﴾: يُعرضون ﴿عَنْكَ﴾: عن الرسول ﷺ ﴿صُدُودًا﴾: مستكبرين، رافضين رفضًا تامًا.

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ (٦٢)

﴿فَكَيْفَ﴾: ماذا سيكون حال المنافقين ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمْ﴾: ألمّت بهم ﴿مُصِيبَةٌ﴾: إذا جاءتهم مصائبُ وأضرارٌ، بسبب ذنوبهم في المال، والولد، والنفس، واحتاجوا إلى المسلمين فيها كما جاءت في وقت الرسول ﷺ ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصولٌ بمعنى الذي ﴿قَدَّمَتْ﴾: فعلت مسبقًا ﴿أَيْدِيهِمْ﴾: بسبب أفعالهم من المعاصي وأقوالهم ﴿ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني مع التباعد والتراخي ﴿جَاءُوكَ﴾: يلجؤون إليك يا محمد ﷺ، ليعتذروا لك عن جرائمهم وهي عادةُ كلِّ المنافقين والكفّار، عندما يُصيبهم الضرر بسبب أفعالهم وأقوالهم؛ يأتوا ليقولوا الوحدة الوطنية، والصلح الاجتماعي وحقوق القرابة والجوار وغيرها ﴿يَحْلِفُونَ بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ﴾: يقسمون كذبًا ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾: ما كانت نيّاتنا ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿إِحْسَانًا﴾: بمعنى عمل الخير، يحلفون أنّهم ما ذهبوا إلى غير شرع الله ﷻ إلّا رغبة في الإحسان إلى المتخاصمين، ومداراة الأعداء، وخداعهم، ومصانعتهم، لا اعتقادًا بهم ﴿وَتَوْفِيقًا﴾: أيضاً بحثًا عن الحلول، وقالوا: نحن نُداري، ونُواري، ونُصانع؛ للتوفيق بين المتنازعين، وهم كاذبون؛ فإنّ الإحسان فيما شرّعه الله ﷻ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ (٦٣)

﴿أُولَئِكَ﴾: هم المنافقون، وما أكثرهم في هذا الزمان، الذين يذهبون للتحالف، والتعاون مع العدو، مع اليهود، ومع الصليبيين بحججٍ كثيرةٍ؛ مثل خدمةً المشروع الوطني، والتخفيف عن المسلمين ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ مَا﴾: الذي ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾:

مركز الوعي والإدراك، يعلم الله ﷻ نفاقهم، ونياتهم، وحيلهم، ووسائلهم الفاسدة ﴿فَـ﴾: حرفٌ يفيدُ السبب وبدون تأخير ﴿أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾: لا تُجادلهم، ولا تتنازع معهم ﴿وَعِظْهُمْ﴾: أمرٌ من الله ﷻ أنْ يقدّم الرسول ﷺ لهم النصيحة، الموعظة الحسنة، ويُبيّن لهم ويخوفهم ﴿ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾: انصحهم فيما بينك وبينهم. يأمر الله ﷻ أنْ تكون النصيحة بالغة، وواضحة؛ تكشف خبايا نفوسهم ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾: القول الرادع المؤثر؛ الذي يخوّف من عواقب أعمالهم وأقوالهم، ولقد نسختها الآية الكريمة من سورة التوبة ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (٦٤)

﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ ﴿لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يُطَاعَ﴾: أوجب اللهُ ﷻ طاعته على من أُرسل إليهم؛ فيما أرسل إليهم من أوامر وينهى عمّا نهى ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿إِذْنِ اللَّهِ﴾: بأمرٍ، ومشيئةٍ وقدرةِ الله ﷻ وقدره، لا يطبّقه إلّا من وفّقه اللهُ ﷻ للطاعة ﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يفيدُ هنا الاستحالة ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرف تأكيد ونفي الإنكار والشك ﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى من الزمن وتفيد هنا السبب والعلّة ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: بتركهم طاعتك والتحاكم إلى غيرك، فعصوا، وأذنبوا ووقعوا في الخطأ، في حقّ أنفسهم ﴿جَاءُوكَ﴾: لجأوا إليك ﴿فَـ﴾: حرفٌ يفيد هنا العطف ﴿اسْتَغْفَرُوا﴾: طلبوا المغفرة مِنَ ﴿اللَّهَ وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾: سأل الرسولُ ﷺ الله ﷻ أنْ يغفر لهم ﴿لَ﴾: حرف علّة وسبب ﴿وَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾: لتأكدوا أنّه ﷻ يغفر لهم، ويتوب عليهم؛ لأنّه بعباده واسع الرحمة.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٦٥)

سبب النزول: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَنْصارِ خَاصَمَ الزُّبَيْرَ فِي شِرَاجٍ مِنَ الْحَرَّةِ، يَسْقِي بِهَا النَّخْلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اسْقِ يَا زُبَيْرُ، فَأَمَرَهُ بِالْمَعْرُوفِ، ثُمَّ أَرْسِلْ إِلَى جَارِكَ، فَقَالَ الأَنْصارِيُّ: أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ؟! فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ الله: ثُمَّ قَالَ: اسْقِ، ثُمَّ احْبِسْ، حَتَّى يَرْجِعَ الْمَاءُ إِلَى الْجَدْرِ. وَاسْتَوْعَى لَهُ حَقَّهُ، فَقَالَ الزُّبَيْرُ: وَاللهِ، إِنَّ هَذِهِ الآيَةَ أُنْزِلَتْ فِي ذَلِكَ: ﴿فَلاَ وَرَبِّكِ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى

يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[1] ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يُفيد طلب عدم الفعل والنفي ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا القسم ﴿رَبِّكَ﴾: يُقسم الله ﷻ بنفسه الكريمة، مالك أمر النبي كلّه ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: لا يُسلمون، ويستسلمون، ولا يعتقدون الاعتقاد الصحيح ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي إلّا بشرط أنْ ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾: حتى يحتكموا إلى الرسول ﷺ في شؤون حياتهم، وإلى شرع الله ﷻ بعد مماته ﷺ ﴿فِيمَا﴾: في الذي ﴿شَجَرَ﴾: اختلط واختلف، ومنه سُمّي الشجرُ لاختلاط أغصانه، بمعنى إذا أُشكل والتبس ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ما اختلفوا، في جميع الأمور، قضاياهم، وخلافهم، وحلالهم، وحرامهم، والانقياد له ظاهرًا وباطنًا ﴿ثُمَّ﴾: تفيد التتابع مع التباعد الزمني ﴿لَا﴾: حرف نهي ﴿يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا﴾: ضيقًا وعدم رضا ﴿مِمَّا﴾: جزءًا من أو بعض الذي ﴿قَضَيْتَ﴾: يحتاج الأمر إلى وقتٍ حتى يُروّضوا أنفسهم؛ ولا يجدون في أنفسهم غضاضةً، أو ضيقًا، أو عدم رضا، في حكم الرسول ﷺ ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا حالهم ﴿يُسَلِّمُوا﴾: يُطيعوا ﴿تَسْلِيمًا﴾: طواعية، وينقادوا في الظاهر، والباطن، من غير ممانعةٍ، ولا مدافعةٍ، ولا منازعةٍ.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ (٦٦)

﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يُفيدُ الاستحالة ﴿أَنَّا﴾: أننا؛ والمقصود هو الله ﷻ، وهذه فرضية للتأمل، والتفكر ﴿كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾: أمرناهم، وفرضنا عليهم ﴿أَنِ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: وفيه حالات: إذا أمر بقتل بعضُهم بعضًا، أو أنْ يقتل الرجل نفسه ينتحر ﴿أَوِ﴾: حرف تسوية في الحكم ﴿اخْرُجُوا﴾: أو يتركوا منازلهم وبلادهم، يهاجروا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿دِيَارِكُمْ مَا﴾: حرف نفي﴿ فَعَلُوهُ﴾: يكون الفعل مصحوبًا بالحواس ويكون العمل مصحوبًا بالنيات لوجب؛ عليهم أنْ يطيعوه. يُخبر الحقُ ﷻ عن نفوس بعض النّاس، إذا أمرهم بما يجب أنْ يفعلوا من النواهي مثل قتل النفس، أو الهجرة؛ لما استجابوا، إنّهم هم يقتلون أنفسهم؛ فإذا أمرهم بقتل أنفسهم، ما فعلوا ذلك؛ لأنّ طباعهم الخبيثة مجبولةٌ على مخالفةِ الأوامر ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع، لم ينفذ ﴿قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾: قليل من العباد ﴿وَلَوْ﴾: حرفُ استحالة ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرف تأكيد ونفي الإنكار ﴿فَعَلُوا﴾: يكون الفعل مصحوبًا بالحواس، ويكون العمل مصحوبًا بالنيات نفذوا وحققوا ﴿مَا﴾: الذي ﴿يُوعَظُونَ بِهِ﴾: لو أطاعوا الأمر، وتركوا ما نُهوا عنه ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسبب ﴿كَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾: كانت طاعتهم خيرًا لهم

[1] صحيح البخاري /٣/١٤٦(٢٣٦٢).

من عصيان الله ﷻ ومخالفة أمره ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿أَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾: لكان إيمانُهم أكثرُ تصديقًا، وثباتًا.

﴿وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٦٧)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿إِذًا﴾: حرفُ جواب وجزاء ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسبب ﴿آتَيْنَاهُمْ﴾: وهبنا لهم، وأعطيناهم، ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية، وهي ﴿لَدُنَّا﴾: من عند الله ﷻ ﴿أَجْرًا﴾: ثوابًا ﴿عَظِيمًا﴾: وهي الجنّة، وهي أعظمُ أجرًا، وأكبرُ فوزًا.

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٦٨)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الاستئناف أيضًا ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿هَدَيْنَاهُمْ﴾: أرشدناهم، وهيأنا لهم ﴿صِرَاطًا﴾: طريقًا، حياةً، وسلوكًا ﴿مُسْتَقِيمًا﴾: الطريق القويم، والسلوك الذي يقود إلى الجنّة؛ فالطريق المستقيم هو أقصر الطرق للوصول إلى الغاية.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (٦٩)

سبب النزول: عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَإِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيَكَ فَأَنْظُرَ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَإِنِّي إِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لَا أَرَاكَ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام بِهَذِهِ الْآيَةِ: **﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾** [النساء–٦٩][1] ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا أيضًا ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يُطِعِ﴾: ينصاع وينفذ أوامر ﴿اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾: من يطبق تعاليم الله ﷻ، وسنّة النبي ﷺ في كلّ شيء ﴿فَ﴾: حرف رابط لجواب الشرط ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارة للقريب والبعيد ﴿مَعَ﴾: في زمرة ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿أَنْعَمَ﴾: تفضّل وتكرّم ﴿اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ﴾: حرف بمعنى بعض ﴿النَّبِيِّينَ﴾: هؤلاء سينالهم الله ﷻ بنعمته؛ فيكونون مع النبيين، والصديقين، والشهداء، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الجَنَّةَ، قَالَ: «تَعْبُدُ اللَّهَ لاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ المَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ» قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا،

---

[1] المعجم الصغير للطبراني ١٥٢/١(٤٧٧) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٦٣/٧ رجاله رجال الصحيح.

فَلَمَّا وَلَّى، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا»[1] ﴿وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾: عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ الْجُهَنِيِّ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَهِدْتُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَصَلَّيْتُ الْخَمْسَ، وَأَدَّيْتُ زَكَاةَ مَالِي، وَصُمْتُ شَهْرَ رَمَضَانَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ مَاتَ عَلَى هَذَا، كَانَ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، هَكَذَا – وَنَصَبَ إِصْبَعَيْهِ – مَا لَمْ يُعَقَّ وَالِدَيْهِ»[2]، وعن أبي سعيد الخدري قال: قال ﷺ: التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ[3] ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾: أيضاً الذين أخلصوا نياتهم، وأصلحوا مجتمعاتهم؛ باتباع الحق، فعن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ[4]، ﴿وَحَسُنَ﴾: وهو خير ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارة للقريب والبعيد ﴿رَفِيقًا﴾: صاحبًا ولازماً.

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ (٧٠)

﴿ذَلِكَ﴾: حرف إشارة للبعيد؛ هنا إشارة إلى ما سلف من نبأ كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر اللهُ ﷻ عنها، هذا الثواب العظيم ﴿الْفَضْلُ﴾: كرمٌ ونعمةٌ ﴿مِنَ﴾: حرف يفيد بداية الغاية هنا التأكيد ﴿اللَّهِ﴾: رحمة من عند الله ﷻ؛ هو الذي أهّلهم لأعمالهم، تفضلًا عليهم ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿كَفَى﴾: يكفي المسلم ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ عَلِيمًا﴾: يكفيكم أنّ الله ﷻ يعلم إيمانكم، إنّه عليم بمن يستحق الثواب، بالهداية، والتوفيق، وأنّهُ عليم بعملهم، ويجازي بعلمه ﷻ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾ (٧١)

هذه من آيات تبيان عوامل الانتصار في مواجهة الأعداء، وهي خاصّة بالمؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: المؤمنين حق الإيمان، من الرجال والنساء؛ يُرشدهم ربُّهم ﴿خُذُوا﴾: استعدوا ﴿حِذْرَكُمْ﴾: يدعو اللهُ ﷻ المؤمنين بأخذِ كلِّ وسائل الحيطةِ والحذرِ، الاحتراس والاستعداد لدفع المكروه من عدوهم، والاستعانة بكلِّ ما يساعدهم على قتال أعدائهم، وهذا

---

[1] صحيح البخاري ٢/ ١٠٥(١٣٩٧).

[2] مسند أحمد ٣٩/ ٥٢٣(٨١) قال الأرناؤوط: حديث صحيح.

[3] سنن الترمذي /٣/٥٠٧(١٢٠٩). وقال: هذا حديث حسن.

[4] صحيح البخاري /٤/١١٩(٣٢٥٦).

يستلزم التأهيل الجسدي، والتدريب، وإعداد الأسلحة، وزيادة المجاهدين ﴿فَـ﴾: حرف فعل أمر يفيد هنا العطف ﴿انْفِرُوا﴾: النفير في سبيل الله ﷻ هو الاستعداد، والخروج لقتال العدو ﴿ثُبَاتٍ﴾: جمع ثبّة وهي الجماعةُ، ويمكن جمعها في ثبّين أي اخرجوا جماعةً بعد جماعةٍ، لا يكون المسلمون المجاهدون في صفٍ واحدٍ، بل صفًا خلف صفٍ، فرقةً بعد فرقةٍ، وسريةً بعد سريةٍ،، وهي السرايا المتفرقة ﴿أَوِ﴾: حرفُ تسوية هنا بين ثبات وبين جميعًا ﴿انْفِرُوا جَمِيعًا﴾: أو اخرجوا للقتال جميعًا، ومن الواضح أنّ هذه من الخُطط الحربية الربّانية، فصفّ الصفوف خلف بعضها، أو اشتراكها جميعًا، يعتمد على خطط القائد، وحالة الأعداء، وتقدير موقف المحاربين.

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ (٧٢)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا أيضًا ﴿إِنَّ﴾: حرفٌ للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿مِنْكُمْ﴾: يخبر الله ﷻ أنّ بعضًا من المسلمين، وهم المنافقون ضعاف الإيمان ﴿لَ﴾: حرف تخصيص ﴿مَنْ يُبَطِّئَنَّ﴾: يتخلف عن الجهاد، أو يتباطأ عن اللّحاق بالجيش المحارب هو شخصيًا بنفسه، ويخذّل غيره عن الجهاد، كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول الذي ثبّط المؤمنين يومَ أُحد ﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿أَصَابَتْكُمْ﴾: ألمّت بكم ﴿مُصِيبَةٌ﴾: إذا قُتل منكم شهداء، أو أصابتكم هزيمةٌ، وابتلاءٌ من الله ﷻ، وتغلّب عليكم العدو؛ لحكمةٍ يريدها الله ﷻ ﴿قَالَ﴾: المنافق ﴿قَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾: عدَّ نجاتَه بهذه الطريقة نعمةً من الله ﷻ افتراءً عليه ﷻ ﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى من الزمن ﴿لَمْ﴾: حرف جزم ينفي الفعل المضارع ﴿أَكُنْ﴾: بمعنى ما كنت ﴿مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾: لم أشهد معهم القتال؛ فنجوت من الموت، وهو يعلم أنّه خاسرٌ كبيرٌ.

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧٣)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿لَئِنْ﴾: حرف يفيد السبب ﴿أَصَابَكُمْ﴾: ظفرتم، وحصلتم، ونالكم ﴿فَضْلٌ﴾: كرمٌ ونعمةٌ ﴿مِنَ﴾: حرف يفيد بداية الغاية ﴿اللَّهِ﴾: نصرٌ، أو ظفرٌ، أو غنيمةٌ ﴿لَ﴾: حرف تخصيص ﴿يَقُولَنَّ﴾: يقول متفاخرًا بالتأكيد ﴿كَأَنْ﴾: كما لو كان ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿تَكُنْ﴾: توجد ﴿بَيْنَكُمْ وَ﴾: أيضًا ﴿بَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾: هي الصحبة، والمحبّة في الدين؛ في مواجهة الكافرين ﴿يَا لَيْتَنِي﴾: عبارةٌ تفيدُ التمنّي والرغبة ﴿كُنْتُ مَعَهُمْ﴾: في القتال، هذه تعكس

حالته الحقيقة فهو مفارقٌ جوهرًا ومظهرًا، وهذه من صفات المنافقين ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا السبب، ويفيد سرعة التنفيذ ﴿أَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾: أحصل على حصّةٍ كبيرةٍ من النصر، والتفاخر والغنائم.

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٧٤)

﴿فَ﴾: حرف يفيد الاستئناف ﴿لْ﴾: حرف يفيد هنا الأمر ﴿يُقَاتِلْ﴾: يحث ويشجع ﷻ على القتال، جاء في المعنى: ﴿حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال-٦٥] ﴿فِي سَبِيلِ﴾: طريق وغاية ﴿اللَّهِ﴾: لتكون كلمةُ الله هي العليا، لرفعة دينه، وأنصاره، ومن طباع هؤلاء ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿يَشْرُونَ﴾: الذين يبيعون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِ﴾: حرف باء السببية ﴿الْآخِرَةِ﴾: ويشترون الآخرة ﴿وَمَنْ﴾: هو الذي من جنس الإنسان ﴿يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿يُقْتَلْ﴾: أنْ يقتله الأعداء ﴿أَوْ﴾: حرفٌ يُفيد التسوية في الحكم بين ما بعده بما قبله ﴿يَغْلِبْ﴾: ينتصر على أعداء الله ﷻ ﴿فَسَوْفَ﴾: وعد في المستقبل ﴿نُؤْتِيهِ﴾: جاءت بصيغة الجمع للتعظيم ﴿أَجْرًا﴾: ثوابًا ﴿عَظِيمًا﴾: إنّ ثواب الذي يُقتل في سبيل الله ﷻ، وثواب الذي انتصر، وغلب في معاركه في سبيل الله ﷻ، ثوابٌ عظيمٌ وهو الجنّة، وقد كان وعد الله ﷻ للمجاهد في سبيله إمّا أنْ يُعيده إلى بيته منتصرًا، أو يُدخله الجنّة.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (٧٥)

﴿وَمَا﴾: حرف يفيد هنا الاستفهام ﴿لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: كيف لا، ما الذي يمنعكم من القتال في سبيل الله ﷻ؛ ﴿وَ﴾: أيضًا لنجدة وحماية وإنقاذ ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: الضعفاء والجانحين للضعف من كان في مكّة من المؤمنين تحت إذلال الكُفّار لهم، عاجزين عن الانتقال إلى بلدٍ يكونون فيه بعزٍّ ﴿مِنَ﴾: بعض ﴿الرِّجَالِ وَ﴾: أيضًا مِنْ بعض ﴿النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾: هم المسلمون من الرجال والنساء الذين لا يرغبون في العيش في أوطانهم؛ بسبب ضعفهم، وقوة المشركين، وبطش الكفّار، والذين تركوا بيوتهم كحالِ الفلسطينيين، ومسلمي الروهينجا وفي كلّ البلاد الظالم أهلها ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد الجمع المذكر والمؤنث ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾: يدعون الله ﷻ ﴿أَخْرِجْنَا﴾: دعنا نهاجر ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿هَذِهِ﴾: حرف تنبيه وإشارة للمفرد المؤنث ﴿الْقَرْيَةِ﴾: المقصود هنا مكّة، وينطبق على

كلّ حالةٍ مشابهةٍ ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾: لم ينسب ﷻ الظلم لمكةّ تشريفًا لها، ولكن نسبه لسكانها الكافرين، بظلم أصحابها؛ واعتدائهم على المؤمنين، وشركهم بالله ﷻ ﴿وَاجْعَل لَنَا﴾: هيّئ ووفّر لنا وزودنا وسخّر لنا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية ﴿لَدُنْكَ﴾: من عندك ﴿وَلِيًّا﴾: هيء لنا من عندك من يرعانا ويتولى أمرنا، ويدافع عنّا ﴿وَاجْعَل لَنَا﴾: أيضًا وفّر لنا تخصيصًا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية التي لا يحدّها مكانٌ أو زمانٌ ﴿لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾: النصير هو الحليف، والقريب، والمؤيد.

﴿الَّذِينَ آَمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٧٦)

﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد الجميع، من الرجال والنساء ﴿آَمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: إثباتٌ من الله ﷻ أنّ من بين هؤلاء المستضعفين يوجد المؤمنون، الذين يقاتلون في سبيل الله ﷻ؛ لإعلاء كلمته، يريدون نصرًا من عنده؛ وفوزًا لدينه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أيضاً من غطّوا حقيقة الإيمان ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾: الطاغوت هو كلُّ معبودٍ من دون اللهِ ﷻ: شيطانٍ، أو إنسانٍ، أو فكرةٍ، أو عقيدةٍ ﴿فَـ﴾: حرفٌ يفيد هنا ربط جواب الشرط، السبب وعدم التأخير ﴿قَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ﴾: أنصار وأعوان وحلفاء ﴿الشَّيْطَانِ﴾: هذا أمرٌ من الله ﷻ بمقاتلة كلّ من يعبد غير الله ﷻ، ولا تخافوا ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿كَيْدَ﴾: مكر، ودهاء، ومؤامرات ﴿الشَّيْطَانِ﴾: وأعوانه، وحيلهم، ووسائلهم ﴿كَانَ﴾: في الماضي، وسيبقى ﴿ضَعِيفًا﴾: مهما ملكوا من سلاحٍ، ورجالٍ، وعتادٍ تعني أنّه في كلّ الأحوال سيبقى مكرُهم ضعيفًا، كان أو يكون، وهذه بشرى للمؤمنين؛ ألّا تخدعُهم قوةُ أولياءِ الشيطانِ، وعددُ أعوانه وحجمُ مكائده.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٧٧)

تصف هذه الآيةُ الكريمةُ حال المسلمين، وهم في بداية تكوّن المجتمع المسلم، في مكّة المكرّمة، كانوا مأمورين بالصلاة، والزكاة، وإطعام المساكين، والصفح والعفو عن المشركين، والصبر على الأذى، وكانوا يودون لو جاءهم الأمر بالقتال؛ ليردّوا عدوان الكافرين، وكانت الأسباب ولا تزال هي حال المسلمين في حالات الضعف، وقلّة العدد، وعدم اكتمال عوامل القتال، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَأَصْحَابًا لَهُ، أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ

اللَّهِ كُنَّا فِي عِزٍّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ، فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً. فَقَالَ: «إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ، فَلَا تُقَاتِلُوا الْقَوْمَ» فَلَمَّا حَوَّلَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، أَمَرَهُ بِالْقِتَالِ، فَكَفُّوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾** [النساء-٧٧][1]، ولقد كانت ملامح هذه المرحلة الأولى هي ما وصفته الآية: **﴿أَلَمْ تَرَ﴾**: حرفٌ يفيد الوجع والحزن دائمًا، ألم تعلم يا محمد ﷺ **﴿إِلَى الَّذِينَ﴾**: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ **﴿قِيلَ لَهُمْ﴾**: من الرجال والنساء؛ هم بعضُ أصحاب رسول الله ﷺ **﴿كُفُّوا﴾**: هم بعض الصحابة، أمرهم الله ﷻ بترك القتال في مكّة؛ فجاؤوا إلى النبي ﷺ فقالوا يا نبيّ الله كنّا في عزّةٍ ونحن مشركون، فلمّا آمنّا صرنا أذلّةٍ؛ فقال ﷺ: إنّي أُمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم **﴿أَيْدِيَكُمْ﴾**: عن استخدام السلاح في القتال في هذه المرحلة **﴿وَ﴾**: أيضًا **﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾**: وهي مرحلة إعداد النواة الصلبة **﴿فَلَمَّا﴾**: حرفٌ يُفيد التتابع والسبب **﴿كُتِبَ﴾**: فُرض **﴿عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾**: كان ذلك في المدينة **﴿إِذَا﴾**: حرفُ ظرفٍ لما يُستقبل من الزمان، يُفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربطٍ بين ما بعدها بما قبلها **﴿فَرِيقٌ﴾**: مجموعةٌ **﴿مِنْهُمْ﴾**: بعضُهم **﴿يَخْشَوْنَ﴾**: يخافون **﴿النَّاسَ﴾**: الكفّار **﴿كَ﴾**: حرف يعني مثل وحال **﴿خَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾**: تصف الآيةُ الكريمةُ حال فريقٍ، أي بعض المسلمين الذين خافوا القتال، خوفًا شديدًا؛ كخوفهم الله ﷻ، بل أكثر **﴿وَقَالُوا رَبَّنَا﴾**: عطفًا على هذا قالوا يا مالك أمرنا كلّه **﴿لِمَ﴾**: حرف يفيد الاستفهام عمّا حدث في الماضي **﴿كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا﴾**: حرفٌ يُفيد امتناع ما بعدها عن ما قبلها **﴿أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾**: أمهلنا مدّةً أُخرى ولو قليلة، لنستمتع بالحياة الدنيا، يتحججون خوفًا من الموت، وخوفًا من سفك الدماء، وكانوا من قبل يسألون الرسول ﷺ القتال دفاعًا عن النّفس **﴿قُلْ﴾**: يا محمد ﷺ إنّ **﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾**: كلُّ ما يمتعكم في الدنيا أقلُّ من متاع الآخرة **﴿وَ﴾**: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال **﴿الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾**: أكثر نفعًا وفائدة **﴿لِ﴾**: حرف تخصيص **﴿مَنِ﴾**: للذي من جنس العاقل **﴿اتَّقَى﴾**: عملوا بما جاءهم وخافوا غضب الله ﷻ، وأنّ ثواب الآخرة أفضل من متاع الدنيا، للذين يطيعون الأوامر بإيمان وقناعة، وينتهون بإيمان وقناعة عن النواهي، إنّهم المتقون **﴿وَلَا﴾**: أيضاً ننفي **﴿تُظْلَمُونَ﴾**: لا يُنقص من أعمالكم الصالحة شيء **﴿فَتِيلًا﴾**: بقدر القشرة الرقيقة في شق نواة التمرة.

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم ٢/ ٧٦(٢٣٧٧) وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ قال الذهبي: على شرط البخاري.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٧٨)

﴿أَيْنَمَا﴾: اسم شرط بمعنى هنا أيّ مكانٍ تكونون، حيثما ﴿تَكُونُوا﴾: الخطاب موجّه للذين استحبوا متاع الدنيا على الجهاد في سبيل الله ﷻ، أنّكم في أيّ مكان، وأيّ زمانٍ، وفي كلّ حالٍ كنتم ﴿يُدْرِكْكُمُ﴾: يلحق بكم، يأتيكم يتحقق فيكم ﴿الْمَوْتُ﴾: إنّ جميع البشر ذاهبون إلى الموت لا محالة، لا ينجو منهم أحدٌ، سواءٌ كان مُجاهدًا؛ أو قاعدًا في بيته؛ أجلًا محتومًا، ومقسومًا، قال ﷻ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن-٢٦]، وقال جلّ في علاه أيضًا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران-١٨٥]، وفي موضع آخر قال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء-٣٤] ﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يفيد الاستفهام والنفي ﴿كُنْتُمْ﴾: تعيشون ﴿فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾: يدرككم الموت ولو كنتم في بيوتٍ محصّنةٍ، منيعةٍ، عاليةٍ؛ أي البيوت الطويلة، كالأبراج، والعمارات ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾: إذا ظفر المنافقون بالخصب في الزرع ورزق وثمار، وأولاد، وخصب مواشيهم، وخيولهم ﴿يَقُولُوا هَذِهِ﴾: الأرزاق ﴿مِنْ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية التي لا يحدّها زمانٌ أو مان ﴿عِنْدِ﴾: ظرفُ زمانٍ وظرفُ مكانٍ ﴿اللَّهِ﴾: يعترفون أن هذا رزق الله ﷻ ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿إِنْ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾: قحطٌ، وجدبٌ، ونقصٌ في الأموال، والثمرات، أو موت الأولاد، ﴿يَقُولُوا هَذِهِ﴾: المصائب ﴿مِنْ عِنْدِكَ﴾: القائل هم المنافقون؛ نسبوها لمحمدٍ ﷺ، ويقولون هذه الكوارث بسبب الرسول؛ لأنّهم اتبعوه، واقتدوا به ﴿قُلْ﴾: أمرٌ ربّاني ﴿كُلٌّ﴾: جميع الخير والابتلاء ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: قل يا محمد كلُّ شيءٍ، الحسنةُ والسيئةُ بقضاء الله ﷻ، وقدره، نافذٌ في الصالح، والفاجر، والمؤمن والكافر ﴿فَمَالِ﴾: فما شأن ﴿هَؤُلَاءِ﴾: إشارة للجمع البعيد ﴿الْقَوْمِ﴾: الجماعة التي من طرازٍ واحدٍ، هذا تقريعٌ لهؤلاء القائلين، ما حالهم: إذ يقولون هذا القول، إلّا ليؤكدوا أنّهم أصحاب فهمٍ قليلٍ، وكثرةِ جهلٍ، وظلمٍ لأنفسهم إنّهم ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَكَادُونَ﴾: يوشكون ولا يستطيعون ﴿يَفْقَهُونَ﴾: يعون ويدركون ﴿حَدِيثًا﴾: وهذه حقيقةٌ يدركها المسلم، في كلّ زمانٍ ومكانٍ، فالمنافقون أغبياء؛ فحتى لو حصلوا على أعلى درجات علوم الدنيا؛ فإنّهم لنْ يُدركوا حقيقة الكون.

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٧٩)

﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿أَصَابَكَ﴾: ما نلت من النعم، ومن هذا الذي يقوله المنافقون ﴿مِنْ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعض، كبير أو صغير ﴿حَسَنَةٍ﴾: من كلِّ أشكال النعم، التي تسرّ الإنسان ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا الجواب ﴿مِنَ﴾: حرف يفيد ابتداء الغاية أي المصدر ﴿اللَّهِ﴾: هي فضل الله على النبي ﷺ وعلى النّاس ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿أَصَابَكَ﴾: إذا أُبتليت ﴿مِنْ﴾: بعض أو جزء ﴿سَيِّئَةٍ﴾: ضررٍ، أو شدةٍ، أو ضيقٍ ﴿فَمِنْ﴾: حرف يفيد ابتداء الغاية المكانيّة ﴿نَفْسِكَ﴾: قالوا لمحمدٍ ﷺ هي من عندك، وعملك، وذنبك، وبسببك؛ وهذه من علامات النفاق ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾: الحقيقة هي أننا بعثناك رسولًا ﴿لِ﴾: حرف تخصيص، جاءت بصيغة الجمع؛ لعظم الرسالة ﴿النَّاسِ رَسُولًا﴾: إنّ مهمتك أيّها الرسول أنْ تُبلّغ النّاس شريعة الله ﷻ، أوامره ونواهيه ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿كَفَى﴾: يكفيك ويُرضيك ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ شَهِيدًا﴾: أنّ الله ﷻ، شاهدٌ أنّه أرسلك للنّاس كما أرسل من قبلك رسلًا؛ ليبلّغوا: إنّه ﷻ شهيدٌ بينك وبين النّاس كافّة، ويعلم ما بلّغت لهم، وأنّه ﷻ شاهدٌ على أنفسهم، وعلى ردودهم، من الإيمان أو من الكفر.

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (٨٠)

هذه الآية الكريمة تطمئن الداعية، وتحثّه على عدم اليأس من النّاس، إنّ مهمة الرسل أنْ يُبلغوا رسالة الله ﷻ، وليس عليهم ذنبُ من رفض وعصى ﴿مَنْ﴾: حرف يفيد العاقل ﴿يُطِعِ الرَّسُولَ﴾: من اتبع الرسول؛ وصدّق بكلمات ربّه، وانتهى عن نواهيه ﴿فَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿أَطَاعَ اللَّهَ﴾: لأنّ الرسول ﷺ لا يأتي بشيءٍ من عنده: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم–٣]، عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي»[1]، ﴿وَمَنْ﴾: أيضاً الذي من جنس العاقل ﴿تَوَلَّى﴾: من عصى ورفض وامتنع ﴿فَمَا﴾: حرفٌ يفيد نفي الخبر ﴿أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾: لم نرسلك حافظًا ومهيمنًا ومراقبًا على أعمال أحد؛ ليس عليك ذنب، وإنّما عليك البلاغ، وعلى الله ﷻ الحساب، من رفض خاب وخسر، ومن أطاع كان له الأجر، وكان لك من الأجر نظير ما حصل له، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، أَنَّ رَجُلًا خَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَقَدْ

---

[1] صحيح البخاري ٤/٥٠(٧١٣٧).

رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا، فَقَدْ غَوَى، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ، قُلْ: وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ. قَالَ ابْنُ نُمَيْرٍ: فَقَدْ غَوِيَ[1].

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٨١)

لا يزال المنافقون في هذه الآية تنكشف سرائرهم ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿يَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾: يُعلن المنافقون بألسنتهم الموافقة، والطاعة لأوامر الرسول ﷺ، وأمام المؤمنين، في كلّ زمانٍ ومكانٍ ﴿فَإِذَا﴾: ظرف يفيد ما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿بَرَزُوا﴾: خرجوا، وابتعدوا، واختفوا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغايّة الجامعة الشاملة ﴿عِنْدِكَ﴾: عند الرسول ﷺ أو الداعية ﴿بَيَّتَ﴾: دبّروا بليلٍ وتآمروا في الظلام، جلسوا فيما بينهم، واتفقت ﴿طَائِفَةٌ﴾: جماعةٌ أصحابُ مذهبٍ واحدٍ ﴿مِنْهُمْ غَيْرَ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿الَّذِي تَقُولُ﴾: واتفقت على مخالفة ما قالوه للرسول أو الداعية، وهو طبع المنافقين في كلِّ زمانٍ ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ﴾: يعلم الله ﷻ ما قالوا، وما دبّروا، ويأمر حفظته الكاتبين المُوكلين بالعباد، وقد فضحهم في كتابه الكريم؛ لأنّ أمرهم ومنهجهم مستمر ﴿مَا﴾: الذي ﴿يُبَيِّتُونَ﴾: ما يدبرون ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا ربط جواب الشرط ﴿أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾: لا تلتفت إليهم، ولا تؤاخذهم، ولا تغضب، ولا تكشف أمرهم للنّاس، ولا تخف منهم ﴿وَتَوَكَّلْ﴾: اعتمد في كلّ شأنك ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: وليس على المنافقين، ولقد نسختها الآية الكريمة في سورة التوبة ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾، ﴿وَكَفَى﴾: يكفيك ويرضيك ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ وَكِيلًا﴾: يكفيك نصرُ الله ﷻ وعونه، فهو وليّك، ولستَ في حاجةٍ إلى هؤلاء.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢)

﴿أَفَلَا﴾: حرفُ استفهام بغرض الاستنكار ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾: يتفكرون بعمقٍ وتجردٍ ﴿الْقُرْآنَ﴾: يأمر الله ﷻ النّاس بتدبر القرآن، وتفهّم معانيه، ودراسة ألفاظه؛ حتى يدركوا الحقائق، ويهتدوا إلى السبيل، حيث لا تعارضَ، ولا خلل ﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يُفيد المستحيل والتمني ﴿كَانَ مِنْ﴾: حرف يفيد بداية الغاية ﴿عِنْدِ﴾: حرف يفيد ظرف المكان والزمان ﴿غَيْرِ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿اللَّهِ﴾: كان الكفّار والمنافقون يقولون عن القرآن الكريم فيما بينهم، وفي أنفسهم، إنّه مُفتعل،

---

[1] صحيح مسلم ٢/ ٥٩٤(٨٧٠).

ومُختلق، ولو كان هذا صحيحًا ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسبب ﴿وَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا﴾: تناقُضًا وتضارُبًا ﴿كَثِيرًا﴾: لتضاربت أقواله، ونصوصه، وأحكامه، فلو ردوا المتشابه إلى المحكم؛ لاهتدوا، بينما غواهم الذين ردّوا المُحكم إلى المتشابه، كان المنافقون يرصدون جلسات الصحابة في غياب الرسول ﷺ وكانوا أحيانًا يختلفون في فهم آياتٍ من القرآن الكريم، وكانت ترتفع أصواتهم. عن عَبْدِ اللهِ بْنَ عَمْرٍو، قَالَ: هَجَّرْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا، قَالَ: فَسَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، يُعْرَفُ فِي وَجْهِهِ الْغَضَبُ، فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ»[1].

التكليف: تشير الآية الكريمة إلى وجوب تدبر القرآن؛ لفهم معانيه وتحقيق مقاصده والعمل بمقتضاه.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٣)

أسباب النزول: عن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا اعْتَزَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ نِسَاءَهُ، قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا النَّاسُ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى، وَيَقُولُونَ: طَلَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نِسَاءَهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرْنَ بِالْحِجَابِ، فَقَالَ عُمَرُ، فَقُلْتُ: لَأَعْلَمَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَطَلَّقْتَهُنَّ؟ قَالَ: لَا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَالْمُسْلِمُونَ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى، يَقُولُونَ: طَلَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نِسَاءَهُ، أَفَأَنْزِلُ، فَأُخْبِرَهُمْ أَنَّكَ لَمْ تُطَلِّقْهُنَّ، قَالَ: نَعَمْ، إِنْ شِئْتَ، فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي، لَمْ يُطَلِّقْ رَسُولُ اللهِ ﷺ نِسَاءَهُ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ: **﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾** [النساء–٨٣] فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَةَ التَّخْيِيرِ[2]، ﴿وَإِذَا﴾: حرفُ شرط يربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿جَاءَهُمْ﴾: وصل إليهم ﴿أَمْرٌ﴾: خبرٌ ﴿مِنَ﴾: بعض ﴿الْأَمْنِ﴾: الذي هو طمأنينة النفس وزوال الخوف، هم جماعةٌ من ضعفاء المسلمين، كانوا إذا سمعوا شيئًا فيه خوفٌ مثل هزيمة المسلمينُ أو قتلهم؛ أفشوه ﴿أَوِ﴾: حرفٌ يُفيد التسوية هنا بين الأمن و ﴿الْخَوْفِ﴾: إذا حصلوا على معلومةٍ، أو خبرٍ يُخيف النّاس، ويؤثر عليهم، والخوف هنا بمعنى القتل؛ إي إذا جاء خبرٌ بمقتلِ أحدٍ قبل أنْ يتحققوا ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾: أفشوِ ونشروه وسرّبوه، وقيل كانوا إذا سمعوا أراجيف المنافقين على المسلمين، والإشاعات

[1] صحيح مسلم /٢٠٥٣/٤(٢٦٦٦).
[2] صحيح مسلم /١١٠٥/٢(١٤٧٩).

الباطلة فيذيعونها؛ فتحصل بذلك المفسدة. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ[1]، وقال ﷺ: مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ[2]، ﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يفيد الاستفهام والنفي ﴿رَدُّوهُ﴾: رجعوا للتحقق منه ﴿إِلَى الرَّسُولِ﴾ محمدﷺ ﴿وَ﴾: أيضًا رجعوا ﴿إِلَى أُولِي﴾: أصحاب ﴿الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾: قيادتهم، لو ذهبوا وسألوا مَنْ عنده المعلومة الصحيحة قبل إذاعة الخبر ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ اسمٌ موصولٌ يشمل الجماعة الذكور، والإناث أيضًا ﴿عَلِمَهُ الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾: الاستنباط هو استخراج الشيء من معدنه، فإذا قيل استنبط الرجل العين؛ إذا حفرها؛ وأخرج منها الماء ﴿مِنْهُمْ﴾: حرفٌ يفيد بداية الغاية المكانية، والمقصود هنا: الرجوع إلى أهل العلم، وأهل العمل، وأهل المعرفة ﴿وَلَوْلَا﴾: حرفُ شرط يفيد امتناع ما بعدها ﴿فَضْلُ﴾: كرم ومنّة ﴿اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: أيها النّاس ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾: جاء اللفظ فضل هنا بمعنى نعمة الله ﷻ، وقد جاء على أحد عشر وجهًا؛ انظر [البقرة-١٠٥] ﴿لَاتَّبَعْتُمُ﴾: سلكتم سُبل ﴿الشَّيْطَانَ﴾: كنتم أتباع الشيطان ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ ﴿قَلِيلًا﴾: هم قلّة الذين لا يقعون في وساوس الشيطان.

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ (٨٤)

﴿فَ﴾: لهذا السبب، وبدون تأخير أو تباطؤ ﴿قَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أمرٌ واضحٌ ومباشرٌ للرسول ﷺ بالقتال في سبيل الله ﷻ، هو والذين آمنوا معه، ومن بعدهم المسلمون جميعًا ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿تُكَلَّفُ﴾: يُوجب اللهُ ﷻ عليك ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿نَفْسَكَ﴾: ليس عليك إلّا أنْ تحمل نفسك على القتال ﴿وَ﴾: حرف عطفٍ ﴿حَرِّضِ﴾: شجّع ورغّب ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ كما قال ﷺ يوم بدر: فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»، قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا»، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ[3]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ

---

[1] صحيح مسلم ٨/١(٧).

[2] صحيح مسلم ٨/١.

[3] صحيح مسلم ٣/ ١٥٠٩(١٩٠١).

كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ، عَنْ أَبِيهِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ[1]، ﴿عَسَى﴾: فعلٌ ماضٍ جامد؛ يُفِيدُ هنا الترجي، لأنّه جاء في الأمر المحمود ﴿اللَّهُ أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل؛ بمعنى يحقق عسى هنا تفيد وجوب تحقيق الغاية؛ فتشتد همّة المؤمنين للقتال، ومدافعتهم، ومقاومتهم، وإمكانية تخويف الكفّار والأعداء من هذا التحريض؛ ونتائجه ﴿يَكُفَّ﴾: يمنع ويحمي من ﴿بَأْسَ﴾: قوة وشدَّة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: اسم موصول يُفيد هنا الجميع ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ﴾: أكثر ﴿بَأْسًا﴾: شدّة قوة، جاء اللفظ القرآني "**البأس**" على ثلاثة أوجه، هنا بمعنى القتال، وكذا في قوله ﷻ ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل-٣٣]، وجاء بمعنى الفقر في قوله ﷻ ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة-١٧٧]، وفي قوله أيضًا ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام-٤٢]، وجاء بمعنى العذاب في قوله ﷻ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر-٨٤]، في هذه الآية يخبر الحق ﷻ أن الكفّار سيظهرون بأسهم، وقوتهم، وجرائمهم؛ ليخيفوا المؤمنين، فيخبر الحق ﷻ أنّه أشدّ بأسًا من كل خلقه ﴿وَأَشَدُّ﴾: أيضاً أكثرُ شدّة ﴿تَنْكِيلًا﴾: أشد إنزالًا للهزيمة بالعدو، وإيذائهم، وتعذيبهم، ومعاقبتهم، قال ﷻ ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد-٤].

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ (٨٥)

﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَشْفَعْ﴾: الذي يسعى في الخير للآخرين؛ ﴿شَفَاعَةً حَسَنَةً﴾: طيّبة في خيرٍ ومنعةٍ للنّاس ﴿يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ﴾: حصّةٌ أو جزءٌ ﴿مِنْهَا﴾: بعض أو جزء؛ فيترتب عليه خير؛ كان له نصيب من ثوابها، عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَتَاهُ السَّائِلُ أَوْ صَاحِبُ الحَاجَةِ قَالَ: «اشْفَعُوا فَلْتُؤْجَرُوا، وَلْيَقْضِ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مَا شَاءَ»[2]، عَنْ أَبِي

---

[1] صحيح البخاري ٤/ ١٦(٢٧٦٠).

[2] صحيح البخاري ٨/ ١٢(٦٠٢٧).

هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا[١]، ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿مَنْ يَشْفَعْ﴾: يكون واسطة ﴿شَفَاعَةً سَيِّئَةً﴾: فيها ضررٌ وشرٌ ﴿يَكُنْ لَهُ﴾: يصيبه ﴿كِفْلٌ﴾: نصيبٌ، وحظٌّ، وجزءٌ، ونتائجُ ﴿مِنْهَا﴾: قال ﷺ مكملًا الحديث السابق: وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا[٢]، ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿كَانَ اللَّهُ﴾: دائمًا وأبدًا بلا انقطاع وبلا نهاية ﴿عَلَى كُلِّ﴾: يفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة؛ لتعزز معنى العموم ﴿مُقِيتًا﴾: حافظًا لمقادير أعمالكم فيجزيكم عليها، قال ابن عباس: محيطًا، وقال مجاهد: شهيدًا، وحسيبًا، وقال الضحاك: الرازق، وقال عبد الله بن رواحة: مقيتًا لكلِّ إنسان بقدر عمله.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ (٨٦)

هذه الآية من آيات المعاملات الإسلامية؛ التي تجعل المجتمع المسلم وحدةً متحابّة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ[٣].

أسباب النزول: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: وَعَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ: وَعَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. فَقَالَ لَهُ: وَعَلَيْكَ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَتَاكَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَسَلَّمَا عَلَيْكَ فَرَدَدْتَ عَلَيْهِمَا أَكْثَرَ مِمَّا رَدَدْتَ عَلَيَّ؟ فَقَالَ: إِنَّكَ لَمْ تَدَعْ لَنَا شَيْئًا قَالَ اللَّهُ **﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾** [النساء-٨٦][٤].

﴿وَإِذَا﴾: أداةُ عطفِ ما بعدها على ما قبلها ﴿حُيِّيتُمْ﴾: حيّاكُم شخصٌ أو أكثر ﴿بِ﴾: حرف باء المقابلة ﴿تَحِيَّةٍ﴾: بسلام، وقيل تشميت العاطس، وقال أصحابُ أبي حنيفة التحية هنا هي الهدية ﴿فَ﴾: حرف هنا تفيد الجواب ﴿حَيُّوا بِ﴾: حرف باء المجاوزة ﴿أَحْسَنَ مِنْهَا﴾: يزيد في الجواب على ما قالهُ المبتدئ بالتحية، لطفًا وبشاشةً ﴿أَوْ﴾: حرف عطف يفيد هنا التخيير ﴿رُدُّوهَا﴾: فرددناها عليك، وهنا يبرز حكمٌ شرعيٌ: لا زيادة في السلام على هذه الصفة السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ولا يبدأ المسلم بالسلام على اليهودي ومن هو في حكمه، بل يرد

---

[١] صحيح مسلم /٢٠٦٠/٤(٢٦٧٤).

[٢] صحيح مسلم /٢٠٦٠/٤(٢٦٧٤).

[٣] صحيح مسلم /٧٤/١(٥٤).

[٤] تفسير الطبري /٢٧٧/٧. وحسنه أحمد شاكر.

وعليكم، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ اليَهُودَ، دَخَلُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ، فَلَعَنْتُهُمْ، فَقَالَ: «مَا لَكِ» قُلْتُ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «فَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ»[1]، ﴿إِنَّ﴾: حرفٌ للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ كَانَ﴾: وهو باقٍ بلا زوال ﴿عَلَى كُلِّ﴾: جميع ﴿شَيْءٍ﴾: تفيد عموم الأشياء في الكون ﴿حَسِيبًا﴾: يحاسبُ حتى في التحيّة بين النّاس.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (٨٧)

﴿اللَّهُ لَا﴾: نفي وجود ﴿إِلَهَ﴾: معبود مطاع ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿هُوَ﴾: في اللغة يعني ضميرٌ منفصلٌ مرفوع للغائب المفرد المذكر، والمقصود هنا هو الله ﷻ دعوةً واجبةً، بتوحيد الله تفردًا بالألوهية، والعبادة ﴿لَ﴾: حرف اللام هنا توطئة للقسم، فكلّ حرف لام يتبعها حرف نون مُشدّدة فهي لامُ القسم ﴿يَجْمَعَنَّكُمْ﴾: هنا تحقق القسم؛ بالتأكيد أنّه ﷻ جامع الأولين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ ﴿إِلَى﴾: حرفُ جرّ يدلُّ على انتهاء الغاية الزمانية ﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: قال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين-٦] ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿رَيْبَ﴾: شكّ ﴿فِيهِ﴾: لا شك أنّه واقعٌ لا محالة ﴿وَمَنْ﴾: حرف يفيد العاقل ﴿أَصْدَقُ﴾: شديدُ الصدق ﴿مِنَ﴾: حرف جرّ يفيد ابتداء الغاية ﴿اللَّهِ حَدِيثًا﴾: لا أحد أصدقُ من الله ﷻ في حديثه، وخبره، ووعده، ووعيده، لا إله إلّا هو ربّ كلّ شيءٍ.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (٨٨)

أسباب النزول: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: سَمِعْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ ﷺ، يَقُولُ: لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أُحُدٍ رَجَعَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: نَقْتُلُهُمْ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: لاَ نَقْتُلُهُمْ، فَنَزَلَتْ ﴿**فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ**﴾ [النساء-٨٨]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهَا تَنْفِي الرِّجَالَ كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الحَدِيدِ»[2]، ﴿فَمَا﴾: حرفُ عطفٍ يُفيد الخبر ﴿لَكُمْ﴾: أنتم تحديدًا، ما شأنكم، وكيف حالكم أيّها المؤمنون إذ نخبركم أنّه ﴿فِي الْمُنَافِقِينَ﴾: خبر الذين يُظهرون الإيمان، ويُبطنون الكفر ﴿فِئَتَيْنِ﴾: انقسمتم إلى جماعتين، فئةِ الذين رجعوا بالمنافقين ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾: الارتكاس هو التحول من حالٍ حسنةٍ إلى حالٍ سيئةٍ، كالكفر بعد الإيمان؛ نكّسهم بسبب كسبهم، وهو لحوقهم بدار الكفر، ردّهم للكفر، قال ابن عباس: ردّهم، أوقعهم في الخطأ، وقال قتادة: أهلكهم، وقال السدى: أضلّهم، والركس هو قلبُ الشيءِ على رأسه، وردّ أوله إلى آخره ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصولٌ

---

[1] صحيح البخاري ٤/٤٤(٢٩٣٥).
[2] صحيح البخاري ٣/ ٢٢(١٨٨٤).

بمعنى الذي ﴿كَسَبُوا﴾: ما جنوا وحصدوا من ذنوبٍ بعصيانهم، ومخالفتهم، واتّباعهم الباطل، إنّ كسب الذنب هو عصيان ﴿أَ﴾: حرف استفهام بغرض الاستنكار ﴿تُرِيدُونَ﴾: ترغبون ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَهْدُوا﴾: تُدِلّوا على الطريق المستقيم ﴿مَنْ﴾: المفرد الذي من جنس العاقل، بمعنى الذي ﴿أَضَلَّ اللَّهُ﴾: هل تريدون أنْ تهدوا من لم يوفقه الله ﷻ إلى الحق؟ إنّهم لن يهتدوا بدعوتكم لهم ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿مَنْ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿يُضْلِلِ اللَّهُ﴾: من كتب الله ﷻ عليه الضلال ﴿فَلَنْ﴾: حرف نفي ﴿تَجِدَ لَهُ﴾: تخصيصًا ﴿سَبِيلًا﴾: جاء اللفظ القرآني السبيل على أربعة عشر وجهًا، هنا بمعنى الهدى؛ انظر [البقرة-٢٦١]؛ أي لا طريق لهم في هداية المنافقين؛ فالله ﷻ أرجعهم، ولا مُخلّص لهم.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٨٩)

﴿وَدُّوا﴾: رغبوا وأرادوا ﴿لَوْ﴾: حرفٌ يفيد الاستحالة ﴿تَكْفُرُونَ﴾: أنْ تُخفوا حقيقة الإيمان في نفوسكم وأنْ تضلوا ﴿كَمَا﴾: مثلما ﴿كَفَرُوا﴾: هم قومٌ لحقوا بدار الكفر في الحرب معاندين، وليسوا من المنافقين الذين كانوا يسكنون مع المسلمين في المدينة ﴿فَ﴾: حرف عطف يفيد هنا الجواب ﴿تَكُونُونَ﴾: تصيرون ﴿سَوَاءً﴾: تكونون مثلهم، سواءً بسواء، شرعًا في الكفر؛ لشدّة عداوتهم لكم وبغضكم، فالسواء هنا بمعنى المساواة في الشرع؛ انظر تفسير [البقرة-٦] ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿تَتَّخِذُوا﴾: تعتمدوا ﴿مِنْهُمْ﴾: بعض ﴿أَوْلِيَاءَ﴾: الولي هو الحبيب، والنصير، والحليف، والمؤيد ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي إلّا بشرط أنْ ﴿يُهَاجِرُوا﴾: يتركوا ديارهم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: جاء اللفظ القرآني السبيل على أربعة عشر وجهًا، هنا بمعنى أنْ يدافعوا، ويقاتلوا في سبيل الله ﴿فَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَوَلَّوْا﴾: إذا رفضوا، وأبوا، وامتنعوا ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿خُذُوهُمْ﴾: أي اعتقلوهم ﴿وَاقْتُلُوهُمْ﴾: القتل هو حكمُ اللهِ ﷻ في المنافقين ﴿حَيْثُ﴾: في أيّ وقتٍ ومكان ﴿وَجَدْتُمُوهُمْ وَ﴾: أيضًا ﴿لَا﴾: حرف يفيد التحريم ﴿تَتَّخِذُوا﴾: تعتمدوا ﴿مِنْهُمْ﴾: من الكافرين وأعوانهم ﴿وَلِيًّا﴾: الولاء هو الحبُّ والنصرةُ والتأييد ﴿وَلَا﴾: لا تعتمدوا منهم ﴿نَصِيرًا﴾: يكرر الحق ﷻ في الآية الواحدة تحريم اتخاذ المنافقين أولياء، وعدم إعطاء شرف الاستنصار بهم على الأعداء؛ فلا يستحقون هذا الشرف والكرم، فقد كانت في كلِّ أمّةٍ، وفي كلِّ جيلٍ وزمانٍ ومكانٍ الفئات المذكورة في السورة ماثلة: المؤمنون، واليهود، والنصارى، ومن المسلمين المنافقين، الذين يُبدون الإيمان؛ ويُبطنون الكفر، إنّ المتأمل في المجتمع اليوم في

كلِّ بلدٍ عربيٍّ وإسلاميٍّ يستطيع أنْ يعرف المنافق الذي يوالي العدو؛ الذي يتعاون معه، وينصره على المؤمنين، ويخذلّ عن اليهود والغرب الصليبي.

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (٩٠)

﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يَصِلُونَ﴾: يتصلون ويدخلون، أو يحتمون، أو يتحيزون ﴿إِلَى قَوْمٍ﴾: جماعةٍ من النّاس من أصلٍ واحدٍ، أو أصحابِ عقيدةٍ واحدةٍ ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾: يربطهم بكم ﴿مِيثَاقٌ﴾: بالجوار أو الحلف، وقد أبرمتم، أي أحكمتم معهم عقد هدنة، والإبرام هو إحكام الاتفاق، أو عقد ذمّة؛ أو بينكم، عقدًا مؤكدًا على ترك القتال؛ فحكمُهم حكم من التجأ إليكم؛ فلا تقاتلوهم؛ فإنّ العهد يشملهم ﴿أَوْ﴾: حرفٌ يفيد التسوية بين متعاطفين ﴿جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ﴾: ضاقت وانقبضت ﴿صُدُورُهُمْ﴾: قلوبُهم؛ لأنّها مراكز الوعي والإدراك، لا يريدون، ولا يرغبون ﴿أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ﴾: حرف يفيد التسوية بين متعاطفين ﴿يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾: لا يريدون أنْ يقاتلوكم؛ ولا يريدون أنْ يقاتلوا قومهم؛ يريدون أن يقفوا على الحياد، وهؤلاء صنفٌ آخرٌ ﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يفيد هنا النفي ﴿شَاءَ اللَّهُ لَ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿سَلَّطَهُمْ﴾: جعل لهم سلطانًا ﴿عَلَيْكُمْ﴾: أراد الله ﷻ أنْ يُجنّبكم بأسهم ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا العطف ﴿لَ﴾: حرف لتأكيد الأفعال ﴿قَاتَلُوكُمْ﴾: فجنّبكم هذا القتال من لطفهِ ﷻ بكم ﴿فَإِنِ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾: إذا لم يشاركوا في قتالكم ﴿وَأَلْقَوْا﴾: طرحوا ﴿إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾: طلبوا الاستسلام، والمسالمة، والمصالحة بينكم وبينهم ﴿فَمَا﴾: حرفُ عطفٍ يُفيد الخبر ﴿جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: تحديدًا وتخصيصًا ﴿عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾: و السبيل هنا بمعنى حُجّة انظر تفسير [البقرة-٢٦١]؛ أي لا يجوز لكم قتالهم؛ ما داموا على حالهم هذا، ومثال ذلك: الذين خرجوا يوم بدرٍ من بني هاشم مع المشركين، فحضروا القتال، وهم كارهون مثل العباس عمّ الرسول ﷺ، لهذا نهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره. أخْرج بن إسْحَاق من حَدِيث ابن عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمَ بَدْرٍ قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ رِجَالًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ

قَدْ أُخْرِجُوا كُرْهًا فَمَنْ لَقِيَ أَحَدًا مِنْهُمْ فَلَا يَقْتُلْهُ[(١)]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: مَنْ لَقِيَ الْعَبَّاسَ فَلْيَكُفَّ عَنْهُ، فَإِنَّهُ خَرَجَ مُسْتَكْرَهًا[(٢)].

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (٩١)

تتحدث الآيةُ الكريمةُ عن فئةٍ أخرى من المنافقين ﴿سَ﴾: حرفٌ يفيد تأكيد الفعل في المستقبل ﴿تَجِدُونَ﴾: تُدركون وتعلمون ﴿آخَرِينَ﴾: ستتعرفون على فئةٍ ليست كالتي في الآية السابقة، يبدو ظاهرهم كأنّهم مثلهم، ولكن الله ﷻ يُخبر عن نياتهم، جاء في المعنى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُم﴾ هؤلاء هم المنافقون الذين يُظهرون للرسول ﷺ وللمسلمين أنّهم مسلمون؛ ليأتمنوا على أنفسهم وأموالهم، وفي الوقت نفسه يوالون الكفّار في الباطن؛ فيعبدون معهم ما يعبدون؛ ليأتمنوا غدرهم ﴿كُلَّ مَا﴾: تفيد التعميم والتكرار ﴿رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾: دعوهم إلى الشرك، والكفر ﴿أُرْكِسُوا فِيهَا﴾: انقلبوا وانهمكوا في الشرك، ووقعوا فيه بأشنعِ صورةٍ ﴿فَإِنْ لَمْ﴾: حرف جزم ينفي ما بعده ﴿يَعْتَزِلُوكُمْ﴾: ما اعتزلوا عن قتالكم ولا أصلحوا، ولا انقادوا لكم ولم يقاتلوكم أو يساعدوا عدوكم، وهادنوا وأصلحوا ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿يُلْقُوا﴾: يقولون ﴿إِلَيْكُمُ﴾: تخصيصًا لكم ﴿السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾: أي لم يتوقفوا عن قتالكم ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا ربط جواب الشرط ﴿خُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ﴾: حرفٌ يُفيد الزمان والمكان ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾: اقتلوهم حيثما وجدتموهم، حيث تمكنتم منهم ﴿وَأُولَئِكُمْ﴾: اسم إشارة للجمع، للبعيد والقريب ﴿جَعَلْنَا﴾: قدّر الله ﷻ ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾: والسلطان هو قوةٌ وحكمٌ واضحٌ وجليٌّ، وحُجّةٌ بالغة، ولقد نسختها الآية (٥) من سورة التوبة **﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ

---

(١) أورده ابن حجر في فتح الباري /٣٢٢/٧ من رواية ابن إسحاق. وانظر السيرة النبوية لابن هشام /٦٢٩/١. وإسناد هذا الحديث والذي يليه واحد.

(٢) الحديث في الأحاد والمثاني لابن أبي عاصم /٢٦٨/١(٣٤٧)، والحاكم في المستدرك /٢٤٧/٣(٤٩٨٨) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقد حذفه الذهبي من التلخيص لشدة ضعفه؛ فإن في إسناده مجاهيل ومن اتهم بالضعف، وأشار إلى ضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد وابن حجر والألباني وغيرهم.

وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٩٢)

﴿**وَمَا**﴾: حرف نفي ﴿**كَانَ**﴾: لا يجوز ﴿**لِ**﴾: حرف تخصيص ﴿**مُؤْمِنٍ أَنْ**﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿**يَقْتُلَ**﴾: يُنهي حياة ﴿**مُؤْمِنًا إِلَّا**﴾: حرف استثناء ﴿**خَطَأً**﴾: سبب النزول: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ زَيْدٍ، كَانَ شَدِيدًا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَجَاءَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَعَيَّاشٌ لَا يَشْعُرُ، فَلَقِيَهُ عَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ فَحَمَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًا**﴾ الْآيَةَ[١]، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قال ﷺ: لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ[٢]، وإنّ الذي ينفذ الحكم هو الإمام المسلم، أو نائبه، ووجوه الخطأ كثيرة، ويضبطها عدم القصد، وعدم التعمُّد ﴿**وَمَنْ**﴾: حرف استفهام عن جنس العاقل، الذي من بني آدم ﴿**قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَ**﴾: حرفٌ يفيد السبب والتتابع السريع ﴿**تَحْرِير**﴾: عتقٌ من العبودية إنْ وُجدت ﴿**رَقَبَةٍ**﴾: كنايةٍ عن إنسانٍ عبدٍ أو أمةٍ مؤمنةٍ؛ يعتقُها كفّارةً عن القتل الخطأ ﴿**مُؤْمِنَةٍ وَ**﴾: أيضًا دفع ﴿**دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ**﴾: هذان الواجبان في تكفير القتل الخطأ: الأول: الكفّارة: وهي عتق رقبةٍ مملوكةٍ مؤمنةٍ، ولا تُجزئ عتق رقبةِ الكافر، ويلزم الشهادتين فقط، والثاني: مع الدّية المعطاة، المُسلّمةِ إلى أهل القتيل، من أهل القاتل، أو الذين يرثونه، إلى ورثة القتيل ﴿**إِلَّا**﴾: حرف استثناء منقطع ﴿**أَنْ يَصَّدَّقُوا**﴾: أنْ يجعلوها صدقةً، فلا يأخذوها، وعندها لا تجب ﴿**فَإِنْ كَانَ**﴾: أنْ يكون القتيل مؤمنًا ﴿**مِنْ**﴾: حرف جرِّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿**قَوْمٍ**﴾: جماعةٍ من النّاس من أصلٍ أو عقيدةٍ واحدةٍ ﴿**عَدُوٍّ لَكُمْ**﴾: تخصيصًا ﴿**وَهُوَ**﴾: في اللغة يعني ضميرٌ منفصلٌ مرفوع للغائب المفرد المذكر ﴿**مُؤْمِنٌ**﴾: وأهلُه أعداءٌ يحاربون المؤمنين ﴿**فَ**﴾: حرف يفيد الجواب ﴿**تَحْرِيرُ**﴾: عتقٌ ليكون حرًّا بعد أنْ كان عبدًا ﴿**رَقَبَةٍ**﴾: إنسان ﴿**مُؤْمِنَةٍ**﴾: هنا يجب على القاتل عتق نفسٍ مؤمنةٍ، ولا دية عليه لأهل الكفار، وأهل الحرب ﴿**وَإِنْ**﴾: حرف شرط ﴿**كَانَ مِنْ**﴾: بعض ﴿**قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ**﴾: عهدٌ واتفاقٌ، إذا كان القتيل غير مؤمنٍ، وأهلُ القتيل أهلُ ذمّة، أو هدنة، أو أصحاب عهدٍ مع المسلمين ولقد نسختها الآية الكريمة في سورة التوبة ﴿ **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾

---

[١] السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ١٢٧(١٦١٤٢).

[٢] صحيح البخاري /٩/٥(٦٨٧٨).

﴿فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ﴾: عتقٌ من العبودية إلى الحرية ﴿رَقَبَةٍ﴾: كناية عن إنسان ﴿مُؤْمِنَةٍ﴾: فإنْ كان مؤمنًا فدية كاملة إلى أهل القتيل، وقيل أيضًا إنْ كان كافرًا عند طائفة من العلماء، وضرورة تحرير رقبةٍ مؤمنةٍ مملوكةٍ أيضًا، علمًا أنّ للكافر نصف دية المسلم، وقيل ثلثها ﴿فَمَنْ﴾: اسم موصول بمعنى الذي ﴿لَمْ﴾: حرف ينفي المضارع ﴿يَجِدْ﴾: تتوافر له ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾: مُحددة في اليوم ﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾: فإنْ لم يجد القاتل من يعتقه، أو لا يستطيع أنْ يدفع ثمن العتق؛ فعليه صيام شهرين متصلين، دونَ انقطاع، ودونَ إفطار أيام بينها، وإنْ كان هناك عذر، مثل مرض، أو حيض، أو نفاس فعليه أنْ يتوقف حتى يبرأ ثم يستأنف ﴿تَوْبَةً مِنَ﴾: حرف يفيد بداية الغاية ﴿اللَّهِ﴾: ﷻ هي توبة القاتل خطأً، وهي صوم الشهرين بدل العتق، وإذا كان لا يستطيع الصيام، فعليه إطعام ستين مسكينًا، وهناك قول: لا يعدل الطعام؛ لأنّه لم يُذكر في هذه الآية ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾: ﷻ يعلم ما في الأنفس، يحاسب عليها ﴿حَكِيمًا﴾: يقول الحق في أقواله، ويفعل الحق في أفعاله.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (٩٣)

قال ابن عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء-٩٣] هِيَ آخِرُ مَا نَزَلَ، وَمَا نَسَخَهَا شَيْءٌ[(١)]، ﴿وَمَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَقْتُلْ﴾: يُزهق روح، ويُنهي حياة ﴿مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾: بقصدٍ ونيّةٍ مسبقةٍ، هذه آيةُ تهديدٍ شديدٍ ووعيدٍ أكيدٍ لمن اعتدى على حقوق الإنسان، والذي اقترف هذا الذنب العظيم، فقد اقترن قتلُ النفس قصدًا، دونَ وجه حق، بالشرك بالله ﷻ في أكثر من آية، مثل الآية: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان-٦٨]، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ»[(٢)]، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ»[(٣)]، وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لَأَكَبَّهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ»[(٤)]، وقال ابن عباس: لا توبة لقاتل المؤمن عمدًا، وقال إنّها لم تنسخ، بينما قال مجاهد: للتائب توبة إذا ندم، وهذا رأي الجمهور من السلف والخلف، ودليلهم في ذلك قوله ﷻ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٤٧(٤٥٩٠).

(٢) صحيح مسلم /٣/١٣٠٤(١٦٧٨).

(٣) سنن ابن ماجه٣/ ٦٣٩(٢٦١٩) قال الأرناؤوط: حسن لغيره.

(٤) سنن الترمذي ت شاكر ٤/ ١٧(١٣٩٨) قال الألباني: صحيح.

عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر-٥٣]، وهذا حكمٌ عامٌ في جميع الذنوب، من كُفرٍ وشركٍ ونفاقٍ وقتلٍ وفسقٍ وغير ذلك، وكذلك الآية: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾** [النساء-٤٨]، وفي القتل العمد: أحكامٌ في الدنيا، وأحكامٌ في الآخرة، وفي حق أولياء الدم على المقتول: **﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾** [الإسراء-٣٣]؛ فهم مخيّرون بين أنْ يقتلوا، أو يعفوا، أو يأخذوا الدية المُغلظة **﴿فَـ﴾**: حرفٌ يفيد جواب الشرط **﴿جَزَاؤُهُ﴾**: عقابه **﴿جَهَنَّمُ﴾**: يوم القيامة **﴿خَالِدًا فِيهَا﴾**: لا يغادرها أبدًا **﴿وَ﴾**: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال **﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾**: طرده من رحمته ﷻ **﴿وأَعَدَّ﴾**: عطفًا على هذا الذي جاء جهّز **﴿لَهُ﴾**: تخصيصًا، توعده في الآخرة **﴿عَذَابًا عَظِيمًا﴾**: شديدًا على جريمة القتل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (٩٤)

أسباب النزول: عن ابن عباس قال: مرَّ رجلٌ من بني سُلَيم على نفرٍ من أصحاب النبي ﷺ: وهو يسوق غنمًا له، فسلّم عليهم، فقالوا: ما سلم عليكم إلا ليتعوَّذ منكم، فعمدوا إليه فقتلوه وأخذوا غنمه، فأتوا بها النبي ﷺ فأنزل اللهُ عزّ وجلّ **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾** إلى آخر الآيةِ[1].

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب **﴿الَّذِينَ﴾**: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ **﴿آمَنُوا﴾**: من الرجال والنساء؛ توجيهٌ واجبٌ للمؤمنين **﴿إِذَا﴾**: حرفُ ظرفٍ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربطٍ بين ما بعدها بما قبلها **﴿ضَرَبْتُمْ﴾**: سافرتم وذهبتم أو خرجتم تضربون الأرض بأرجلكم؛ غزاةً ومسافرين في سريةٍ للقتال **﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾**: لنصرة دينه ﷻ **﴿فَـ﴾**: حرفٌ يفيد ربط جواب الشرط وهو **﴿تَبَيَّنُوا﴾**: تثبتوا وتحققوا في الذين تقاتلونهم **﴿وَ﴾** عطفًا على هذا **﴿لَا﴾**: محرّم عليكم أنْ **﴿تَقُولُوا لِـ﴾**: حرف تخصيص **﴿مَنْ﴾**: للإنسان الذي **﴿أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾**: والسِلم، والسَلامُ واحدٌ والسّلم هنا أولى؛ لأنّه بمعنى الانقياد والطاعة وتحية الإسلام، الذي قال لكم السلام عليكم، والذي أظهر لكم دليل إسلامه، كالشهادتين، والصلاة، وقيل التحية **﴿لَسْتَ﴾**: حرفٌ يفيدُ النفي **﴿مُؤْمِنًا﴾**: تنفون عنه

---

[1] مسند أحمد ٢٧١/٤(٢٤٦٢) قال الأرناؤوط: حسن لغيره.

الإسلام؛ ظَنًّا منكم أنّه قالها ليتقي بطشكم، وهو صادقُ الإيمان ﴿تَبْتَغُونَ﴾: تريدون من قتله ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: طمعًا فيما معه من المغانم، أو التفاخر بقتلِ كافرٍ ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿عِنْدَ﴾: ظرف مكان وزمان ﴿اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾: اعلموا أنّ ما عند الله ﷻ خيرٌ منها ﴿كَذَلِكَ﴾: حرف إشارة للبعيد؛ هنا إشارة إلى كل ما سبق من الأمور التي أخبر الله ﷻ عنها ﴿كُنْتُمْ مِنْ﴾: ظرف زمان ﴿قَبْلُ﴾: كان المقداد بن الأسود في السرية التي قتلت الرجل، وكان المقداد يكتم إيمانه وسط القوم الكافرين ﴿فَمَنَّ﴾: الذي تفضل، تكرّم ﴿اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: بالهداية، بالإسلام، والإيمان، والتوبة؛ فعصم دماءكم، وحفظ أموالكم، وأعراضكم ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾: ابحثوا عن الحقيقة، تثبتوا، واعلموا أنّ الله ﷻ لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ﴿إِنَّ﴾: حرفٌ للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ كَانَ﴾: وباقٍ بلا انقطاع ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصولٌ بمعنى الذي ﴿تَعْمَلُونَ﴾: في الخفاء والعلن ﴿خَبِيرًا﴾: عالمًا تمام العلم، هنا من التهديد والوعيد ما يكفي لردع المؤمنين أنْ يفعلوها.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٩٥)

﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَسْتَوِي﴾: تتساوي وتتعادل قُدرات وإمكانات البشريّة؛ وبالتالي لا يتعادل ثوابُ وأجرُ ﴿الْقَاعِدُونَ مِنَ﴾: جزء أو بعض ﴿الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ﴾: حرف استثناء ﴿أُولِي﴾: أصحاب ﴿الضَّرَرِ﴾: هم المؤمنون أصحاب العاهات؛ التي تُقعدهم عن الجهاد، مثل العمى، أو العرج؛ فعن البَرَاءَ ﷺ، يَقُولُ: لَمَّا نَزَلَتْ: **﴿لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُونَ﴾** [النساء-٩٥] مِنَ المُؤْمِنِينَ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْدًا، فَجَاءَ بِكَتِفٍ فَكَتَبَهَا، وَشَكَا ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ ضَرَارَتَهُ، فَنَزَلَتْ: **﴿لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾** [النساء-٩٥][1]، لا يتساوى أو يتعادل ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿الْمُجَاهِدُونَ﴾: جاء اللفظ "**الجهاد**" في القرآن الكريم على ثلاثةِ أوجهٍ، هنا بمعنى القتال بالسلاح وجاءت بمعنى القبول في قوله ﷻ **﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾** [الفرقان-٥٢] وفي قوله ﷻ **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾** [التوبة-٧٣]، وبمعنى العمل في قوله ﷻ **﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾** [العنكبوت-٦] وفي قوله أيضًا **﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾** [العنكبوت-٦٩]، وفي قوله أيضًا

---

[1] صحيح البخاري /٤/٢٤(٢٨٣١).

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج-٧٨] وما يقوم به المجاهدون من بذل الجهد والتعب، والسهر؛ الذين خرجوا يجاهدون في بدرٍ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِ﴾: حرف باء السبب ﴿أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾: بأرواحهم ﴿فَضَّلَ﴾: ميّز الله ﷻ تمايز أفضليات ﴿اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِ﴾: حرف باء السبب بإنفاق ﴿أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾: ضحّوا بحياتهم ﴿عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾: الذين لا ينفرون للقتال في سبيل الله ﷻ، الذين تخلّفوا عن معركة بدر ﴿دَرَجَةً﴾: منزلةً وأجرًا، إنّ التفضيل هنا للمجاهدين، بأموالهم، وأنفسهم على القاعدين، من غير أصحاب الإعاقات، من غير أولي الضرر، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَدَنَا مِنَ المَدِينَةِ، فَقَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ العُذْرُ»[1]، ﴿وَكُلًّا﴾: الفئتين المجاهدتين والقاعدين بعذر ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾: أخبر ﷻ ﴿الْحُسْنَىٰ﴾: الجزاء الأوفى، وهي الجنّة، وهنا يكون حكمٌ شرعيّ: الجهاد فرضَ كفاية، وليس فرضُ عين ﴿وَفَضَّلَ﴾: أيضًا ميّز ﴿اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ﴾: في سبيل الله ﴿عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾: الذين لم يشاركوا في القتال ﴿أَجْرًا﴾: ثوابًا ﴿عَظِيمًا﴾: هي غرف الجنّة العالية، ومغفرةَ الذنوب، والزلّات، وأحوالَ الرحمةِ والبركات.

﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٩٦)

﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ﴾: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ: عَنْ أَبِيهِ: وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ[2]، وعن أبي هريرة قال ﷺ: إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ[3]، هذه منازل بعضُها فوق بعض، هذا هو السكن ﴿وَ﴾: أيضًا أعدَّ لهم ﴿مَغْفِرَةً﴾: كانت هذه الأولى؛ وبعدها الثواب ﴿وَرَحْمَةً﴾: عطفًا، ورأفةً من الله ﷻ ﴿وَكَانَ﴾: وسيبقى بلا انقطاع ﴿اللَّهُ غَفُورًا﴾: ماحيًا لذنوبهم في الدنيا ﴿رَحِيمًا﴾: عظيمَ الرحمةِ بعبادة المؤمنين.

---

[1] صحيح البخاري ٦/ ٨(٤٤٢٣).

[2] صحيح البخاري ٤/ ١٩(٢٧٩٠).

[3] صحيح البخاري /٩/١٢٥(٧٤٢٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٩٧)

أسباب النزول: عن محمدِ بن عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبُو الأَسْوَدِ قَالَ: لَقِيتُ عِكْرِمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ.. قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يُكَثِّرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى بِهِ فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ، أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾** الآيَةَ[1].

أَخْبَرَنَا عن ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: سَأَلْتُ، ابْنَ زَيْدٍ، عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾** فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: **﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾** فَقَالَ: لَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ وَظَهَرَ وَنَبَعَ الإِيمَانُ نَبَعَ النِّفَاقُ مِعْهُ، فَأَتَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رِجَالٌ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْلاَ أَنَّا نَخَافُ هَؤُلاَءِ الْقَوْمَ يُعَذِّبُونَنَا وَيَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ لأَسْلَمْنَا، وَلَكِنَّا نَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ. فَكَانُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ لَهُ. فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ قَامَ الْمُشْرِكُونَ، فَقَالُوا: لاَ يَتَخَلَّفُ عَنَّا أَحَدٌ إِلّا هَدَمْنَا دَارَهُ وَاسْتَبَحْنَا مَالَهُ. فَخَرَجَ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ الْقَوْلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَعَهُمْ، فَقُتِلَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ وَأُسِرَتْ طَائِفَةٌ. قَالَ: فَأَمَّا الَّذِينَ قُتِلُوا فَهُمُ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾** الآيَةَ كُلَّهَا **﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾** وَتَتْرُكُوا هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يَسْتَضْعِفُونَكُمْ **﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾** قَالَ: ثُمَّ عَذَرَ اللَّهُ أَهْلَ الصِّدْقِ فَقَالَ: **﴿إِلّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾** يَتَوَجَّهُونَ لَهُ لَوْ خَرَجُوا لَهَلَكُوا، فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ إِقَامَتَهُمْ بَيْنَ ظَهْرَيِ الْمُشْرِكِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ أُسِرُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّا كُنَّا نَأْتِيكَ فَنَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّ هَؤُلاَءِ الْقَوْمَ أَخْرَجُونَا مَعَهُمْ خَوْفًا. فَقَالَ اللَّهُ: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾** صَنِيعَكُمُ الَّذِي صَنَعْتُمْ خُرُوجِكُمْ مَعَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ **﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾** خَرَجُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ **﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾**[2].

﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿تَوَفَّاهُمُ﴾: من الرجال ومن النساء؛ تقبض ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾: أرواحهم وهم ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾: هم الذين لم يهاجروا من مكّة إلى المدينة، وبقوا بين الكفّار يمنعونهم من إظهار إسلامهم، وممارسةِ

---

[1] صحيح البخاري /٦/٦١(٤٥٩٦).

[2] تفسير الطبري /٧/٣٨٧(١٠٣٣٥).

عبادتهم وشعائر دينهم، وربّما قتلهم المسلمون في الحرب مع الكفّار؛ لأنّهم لا يعلمون بأنّهم مسلمون، والذين ﴿قَالُوا فِيمَ﴾: تقولُ الملائكةُ توبيخًا لهم: في أيّ شيء كنتم من أمورِ دينكم ﴿كُنْتُمْ﴾: لماذا قعدتم في مكّة، ولم تهاجروا؟ وبأيّ شيءٍ تميزتم عن المشركين؟ ﴿قَالُوا كُنَّا﴾: في ذلك الوقت ﴿مُسْتَضْعَفِينَ﴾: ضعفاء لا قوة لنا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: حيث نسكن، لا نستطيع الخروج، ولا الذهاب إلى المدينة ﴿قَالُوا﴾: قالت لهم الملائكة بعد قبض أرواحهم ﴿أَلَمْ﴾: أداةُ استفهامٍ بغرضِ الاستنكار ﴿تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾: تُوبخهُم الملائكةُ، فتقول لهم كانت أمامكم المدينة، تستطيع أنْ تستوعبكم، وتهاجروا فيها، ولقد جاء لفظُ "**الأرض**" في القرآن الكريم على سبعةِ أوجهٍ، في هذه الآية تعني أرض المدينة خاصّة، وجاء المعنى نفسه في قوله ﷻ ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت-٥٦]، وفي قوله ﷻ ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر-١٠]، وجاء في قوله ﷻ ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف-١٣٧] بمعنى أرض الشام المقدسة، كذلك في قوله ﷻ ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء-٧١] ﴿فَـ﴾: حرفٌ استئنائي يفيد السبب هنا بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ ﴿تُهَاجِرُوا﴾: تتركوا وتغادروا مكان إقامتكم الدائمة في سبيل الله ﷻ ﴿فِيهَا﴾: جاءت كلمةُ ﴿فِي﴾ في القرآن الكريم على سبعةِ وجوهٍ، هنا بمعنى (إلى) وبمعنى (مع) في قوله ﷻ قالَ ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف-٣٨] وبمعنى (على) في قوله ﷻ ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه-٧١] وفي قوله أيضًا ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه-١٢٨] وفي قوله أيضًا ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف-٤٢]، وبمعنى (عن) في قوله ﷻ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء-٧٢]، وبمعنى (من) في قوله ﷻ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ

هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل–٨٩]، وبمعنى (عند) في قوله ﷻ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء–٨٩]، ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾: إشارةً للقريب والبعيد الذين لم يهاجروا ﴿مَأْوَاهُمْ﴾: مثواهم ﴿جَهَنَّمُ﴾: النّار، يستقرون فيها، وهذه الكلمات تُرجّح أنّهم كانوا منافقين؛ والله أعلم ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿سَاءَتْ﴾: أكثرُ شرًا وضررًا ﴿مَصِيرًا﴾: بئس المآل السيئ، وجعٌ، وخيبةٌ، وخسارةٌ لهم.

التكليف: لا جهادَ بلا بذلٍ وتضحيةٍ، ومنها ترك الوطن الذي يسيطر عليه الكفّار إذا لم تستطع المقاومة، حتى تتقوى.

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (٩٨)

﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: الضعفاء بحق ﴿مِنَ﴾: بعض ﴿الرِّجَالِ و﴾: أيضًا بعض ﴿النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾: عذرٌ للرجال، والنساء، والأطفال الذين لا حول لهم ولا قوّة، والذين ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾: هنا عذرٌ ربّانيّ للذين لم يهاجروا؛ لأنّهم حقيقةً لا يستطيعون الإفلات من أيدي الكفّار، لا يجدون ﴿حِيلَةً﴾: قوة أو وسيلة تجنبهم بطش الكفّار لهم ﴿وَلَا﴾: أيضاً حرف نفي ﴿يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾: لا يعرفون الطريقة أو الوسيلة التي تُخلّصهم من الكفّار؛ ليلحقوا بالمسلمين، هذا الاستثناء من الله ﷻ لهذه الفئة؛ يفيد أنّهم مؤمنون حقًا، ولكنْ حَبَسَهم الضعف، بينما في الآية السابقة كان المصير واضحًا، مما يُرجح أنّهم كانوا يستطيعون الخروج، ويعرفون كيف يلحقون بالمسلمين؛ ولم يفعلوا.

التكليف: قال ابن عبّاس كنت أنا وأمي من عنى اللهُ ﷻ بهذه الآية وأم ابن عباس هي لُبابة وتكنّى أم الفضل، وهي أخت أمّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها.

﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (٩٩)

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾: اسمٌ يشار به للجماعة القريب والبعيد أي هؤلاء ﴿عَسَى﴾: فعلٌ جامدٌ يفيد الترجي لأنّه في الأمر المحمود، وهي تدلُّ على الوجوب ﴿اللَّهُ أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يَعْفُوَ﴾: يغفر ويمحو الذنوب ﴿عَنْهُمْ﴾: قال أبو هُرَيْرَةَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَنَتَ بَعْدَ الرَّكْعَةِ فِي صَلَاةٍ شَهْرًا، إِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، يَقُولُ فِي قُنُوتِهِ: اللهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدَ، اللهُمَّ نَجِّ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللهُمَّ نَجِّ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللهُمَّ نَجِّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: ثُمَّ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَرَكَ الدُّعَاءَ بَعْدُ، فَقُلْتُ: أُرَى رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ تَرَكَ الدُّعَاءَ لَهُمْ، قَالَ: فَقِيلَ: وَمَا تُرَاهُمْ قَدْ قَدِمُوا[1]

---

[1] صحيح مسلم /٤٦٧/١(٦٧٥).

عَنِ ابْنَ عَبَّاسٍ، تَلاَ ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء-٩٨]، قَالَ: «كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ»(١)، ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿كَانَ﴾: بلا انقطاع ﴿اللَّهُ عَفُوًّا﴾: واسع السماح ﴿غَفُورًا﴾: وواسع المغفرة مسامحًا أبدًا.

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٠٠)

أسباب النزول: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: خَرَجَ ضَمْرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ: احْمِلُونِي فَأَخْرِجُونِي مِنْ أَرْضِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ قَبْلَ أَنْ يَصِلْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قال: فَنَزَلَ الْوَحْيُ ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء-١٠٠] حَتَّى بَلَغَ وَكَانَ ﴿اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء-٩٦](٢)، وهي عامّة، في كلّ وقتٍ ومكانٍ، تحضّ الآية الكريمة المستضعفين من المؤمنين على مفارقة الكفّار، والهجرة إلى ديار المؤمنين ﴿وَمَنْ﴾: أيضاً المفرد الذي من جنس العاقل ﴿يُهَاجِرْ﴾: إنّ الذي يترك مكان سكناه ويهجره، ويهجر قومه المشركين ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: انظر [النساء-١٥، ٣٤] ﴿يَجِدْ﴾: تكون جائزته ﴿فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا﴾: قال ابن عباس: المراغمة هي التحول من أرضٍ إلى أرض، وقال مجاهد: متزحزحًا عمّا يكره، وهو مكانٌ يسكن فيه على رغم أنف قومه أي على ذلّهم، والمعنى أنّ المهاجر يُرغمُ أنف الذين يمنعونهُ من الهجرة؛ فيهاجرُ ويتخلصُ منهم ﴿كَثِيرًا وَسَعَةً﴾: كثرةُ الرزق الواسع، والعزّة، والأمان، قال قتادة: الهُدى بدلًا من الضلال، والغنى بدلًا من الفقر ﴿وَمَنْ﴾: حرف استفهام عن جنس العاقل ﴿يَخْرُجْ﴾: يغادر ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية المكانيّة ﴿بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ و﴾: أيضًا مهاجرًا إلى ﴿رَسُولِهِ ثُمَّ﴾: حرف يفيد التتابع الزمني مع التراخي ﴿يُدْرِكْهُ﴾: يُصيبه ﴿الْمَوْتُ﴾: يموت بعد مدة ﴿فَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿وَقَعَ﴾: تحقق ﴿أَجْرُهُ﴾: ثوابه ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: في حال الخروج من البيت، في سبيل الله، بنيّة الهجرة؛ ثم مات أثناء الطريق، قال سَلَمَةُ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ: ثُمَّ ضَمَّ أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ وَأَيْنَ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَخَرَّ عَنْ دَابَّتِهِ، فَمَاتَ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَإِنْ لَدَغَتْهُ دَابَّةٌ فَمَاتَ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ، قَالَ: وَإِنَّهَا لَكَلِمَةٌ مَا سَمِعْتُهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ أَوَّلَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَعْنِي بِحَتْفِ أَنْفِهِ عَلَى

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٤٦(٤٥٨٨).

(٢) المعجم الكبير للطبراني ١١/ ٢٧٢(١١٧٠٩). قال د. سعد آل حميد في حاشية تفسير سعيد بن منصور ١٣٦٦/٤الحديث روي من طريق سعيد بن جبير وعكرمة مرسلًا، وسنده صحيح إلى كل منهما، فيكون ضعيفًا لإرساله.

فِرَاشِهِ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ قُتِلَ قَعْصًا فَقَدِ اسْتَوْجَبَ الْجَنَّةَ[1]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ خَرَجَ حَاجًّا فَمَاتَ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَجْرَ الْحَاجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ خَرَجَ مُعْتَمِرًا فَمَاتَ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَجْرَ الْمُعْتَمِرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ خَرَجَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَاتَ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَجْرَ الْغَازِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ[2]، ﴿وَكَانَ﴾: دائمًا وأبدًا ﴿اللَّهُ غَفُورًا﴾: مسامحًا ﴿رَحِيمًا﴾: عظيمَ الرحمة بعباده المؤمنين.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (١٠١)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿إِذَا﴾: حرفُ ظرفٍ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: جاء اللفظ القرآني ضرب على ثلاثةِ أوجهٍ، هنا بمعنى سافرتم في البلاد، كما في قوله ﷻ ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل-٧٥] وجاء بمعنى الضرب باليدين في قوله ﷻ ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال-١٢]، وجاءت بمعنى ذكر الأمثال ﴿فَ﴾: حرف يفيد ربط جواب الشرط ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ يفيد النفي ﴿عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾: لا إثم ولا حرج عليكم ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿تَقْصُرُوا﴾: تخفيف عدد الركعات من أربعٍ إلى اثنتين ﴿مِنَ﴾: عدد ركعات ﴿الصَّلَاةِ﴾: إنّ جمهور العلماء يفهم أنّ القصر في السفر فقط، وهناك من يقول لا بد أنْ يكون سفر طاعة: مثل الجهاد، والحج، والعمرة، وطلب العلم، والزيارة، وقيل سفر القربة، كما أباح الله ﷻ أكل الميتة بشرط أنْ لا يكون عاصيًا في سفره كما قال الشافعي، وقيل القصر في مطلق السفر، وهذا قول أبي حنيفة، والثوري، وأبي داوود، وقد خالفهم الجمهور، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ عُمَرَ، قَالَ: «صَلَاةُ السَّفَرِ رَكْعَتَانِ، وَالْجُمُعَةُ رَكْعَتَانِ، وَالْعِيدُ رَكْعَتَانِ، تَمَامٌ غَيْرُ قَصْرٍ» عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ[3]، وقيل ﴿تَقْصُرُوا مِنَ﴾: بعض، عدد ﴿الصَّلَاةِ﴾: تعني هنا قصر الكيفية، أي القراءة وليس العدد، كما في صلاة الخوف ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿خِفْتُمْ أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يَفْتِنَكُمُ﴾: يصرفونكم عن دينكم ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: من الرجال والنساء، أنْ يصيبكم الأعداء بمكروهٍ، قد يكون هذا تبرير

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم ٢/ ٩٧(٢٤٤٥) صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ» قال الذهبي: صحيح.

[2] مسند أبي يعلى الموصلي/١١/٢٣٨(٦٣٥٧). قال الألباني في صحيح الترغيب ١٢/٢: صحيح لغيره.

[3] سنن ابن ماجه ٢/ ١٧٣(١٠٦٣) قال الأرناؤوط: حديث صحيح.

القصر، في حالة الخوف أنْ يستغل الكفّار الصلاة؛ ليغيروا على المسلمين ﴿إِنَّ﴾: حرفٌ للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الْكَافِرِينَ كَانُوا﴾: وسيبقون ما داموا على كفرهم ﴿لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿عَدُوًّا مُبِينًا﴾: عداوة الكافرين للمسلمين واضحة.

ملاحظة: هناك من قال وجدنا في القرآن قصر صلاة الخوف، ولا نجد صلاة المسافر؛ عَنْ أُمَيَّةَ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَالِدِ بْنِ أَسِيدٍ: أَنَّهُ قَالَ لِابْنِ عُمَرَ كَيْفَ تَقْصُرُ الصَّلَاةَ؟ وَإِنَّمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: «يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَانَا وَنَحْنُ ضُلَّالٌ فَعَلَّمَنَا، فَكَانَ فِيمَا عَلَّمَنَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنَا أَنْ نُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ فِي السَّفَرِ»[1]، فقصر الصلاة جاءت بفعل المشرّع لا بنص القرآن، ومن الملاحظ أيضًا: أنّ صلاة السفر ركعتان تامّات، وهنّ غير قصر، ويلاحظ كذلك أنّ: ركعتان يصليهما الإمام، فبعد الركعة الأولى يُسلّم النّاس، ويغادرون، ثم يأتي الذين لم يصلوا؛ فيصلون خلف الإمام ركعةً واحدةً؛ فيكون للإمام ركعتان، ولكل طائفة ركعة؛ فصلاة الخوف عندهم ركعةٌ واحدةٌ.

التكليف: إنّ جوهر العلاقة مع الكافرين هي عداوتهم للمسلمين، عداوةٌ واضحةٌ، وهذا يدفعهم إلى إلحاق الأذى بالمسلمين، وعلى المسلم أنْ يأخذ حذره، ومنها سبب قصر صلاة الخوف.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (١٠٢)

أسباب النزول: عَنْ أَبِي عَيَّاشٍ الزُّرَقِيِّ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِعُسْفَانَ فَاسْتَقْبَلَنَا الْمُشْرِكُونَ عَلَيْهِمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَهُمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ، فَصَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الظُّهْرَ، فَقَالُوا: قَدْ كَانُوا عَلَى حَالٍ لَوْ أَصَبْنَا غِرَّتَهُمْ، ثُمَّ قَالُوا: تَأْتِي عَلَيْهِمُ الْآنَ صَلَاةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، قَالَ: فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام بِهَذِهِ الْآيَاتِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ **﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾** [النساء-١٠٢]، قَالَ: فَحَضَرَتْ فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخَذُوا السِّلَاحَ، قَالَ: فَصَفَفْنَا خَلْفَهُ صَفَّيْنِ، قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ فَرَكَعْنَا جَمِيعًا، ثُمَّ رَفَعَ فَرَفَعْنَا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِالصَّفِّ الَّذِي يَلِيهِ، وَالْآخَرُونَ قِيَامٌ يَحْرُسُونَهُمْ، فَلَمَّا سَجَدُوا وَقَامُوا جَلَسَ الْآخَرُونَ فَسَجَدُوا فِي مَكَانِهِمْ، ثُمَّ تَقَدَّمَ هَؤُلَاءِ

[1] سنن النسائي ١/٢٢٦(٤٥٧) قال الألباني: صحيح.

إِلَى مَصَافِّ هَؤُلَاءِ، وَجَاءَ هَؤُلَاءِ إِلَى مَصَافِّ هَؤُلَاءِ، قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ فَرَكَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ رَفَعَ فَرَفَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَالصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ، وَالْآخَرُونَ قِيَامٌ يَحْرُسُونَهُمْ، فَلَمَّا جَلَسَ جَلَسَ الْآخَرُونَ، فَسَجَدُوا ثُمَّ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثُمَّ انْصَرَفَ، قَالَ: فَصَلَّاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً بِعُسْفَانَ، وَمَرَّةً بِأَرْضِ بَنِي سُلَيْمٍ(١)، وصلاة الخوف كثيرة ومتعددة، تارة تكون تجاه القبلة، وتارة في اتجاهات أخرى، وقد يأتي وقت الصلاة والمعركة مستمرة، فلا تُقام جماعة، تارة تكون رباعية، وتارة ثلاثية أو ثنائية كالفجر ركعة واحدة: كما جاء في تفسير الآية السابقة [النساء-١٠١]، وقد تُؤخّر لعذر القتال، وجنح بعضهم للتأخير كيوم قريظة، وقد قيل كلُ ذلك منسوخٌ بصلاة الخوف، وخاصة تأخير الصلاة ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿إِذَا﴾: حرفُ ظرفٍ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿كُنْتَ﴾: هذا خطابٌ لرسول الله ﷺ أقمت معهم ﴿فِيهِمْ﴾: إذا أقمت الصلاة يا محمد ﷺ وأنت في الجيش ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد التتابع السريع والسبب ﴿أَقَمْتَ لَهُمُ﴾: تخصيصًا ﴿الصَّلَاةَ﴾: صلاة الخوف والرسول ﷺ إمامهم، وهي فريضةٌ مستمرةٌ بعده ﷺ، وقال بعضهم منسوخة؛ لأنّها جاءت والرسول فيهم، ولكنّ هذا مردود عليه؛ لأنّ الزكاة لم تُنسخ رغم أنّ النص القرآني مشابهٌ لصلاة الخوف، جاء في المعنى ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ﴾: لهذا السبب جماعة ﴿مِنْهُمْ مَعَكَ﴾: عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ فَوَازَيْنَا الْعَدُوَّ فَصَافَفْنَا لَهُمْ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي لَنَا فَقَامَتْ طَائِفَةٌ مَعَهُ تُصَلِّي وَأَقْبَلَتْ طَائِفَةٌ عَلَى الْعَدُوِّ وَرَكَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ ثُمَّ انْصَرَفُوا مَكَانَ الطَّائِفَةِ الَّتِي لَمْ تُصَلِّ فَجَاؤوا فَرَكَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ رَكْعَةً وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ فَقَامَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فَرَكَعَ لِنَفْسِهِ رَكْعَةً وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ(٢)، ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿لْ﴾: حرف علّة وسبب ﴿يَأْخُذُوا﴾: يحملوا ﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾: هنا كان وجوبُ حمل السلاح أثناء صلاة الخوف، وقيل أيضًا على أهبة الاستعداد؛ لوضوح الآية الكريمة ﴿فَإِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربطٍ بين ما بعدها بما قبلها ﴿سَجَدُوا فَ﴾: بسبب أن سجد المصلون، أي أتموا الركعة الأولى، أو أتموا جميع الصلاة ﴿لْيَكُونُوا مِنْ﴾: حرفٌ يفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿وَرَائِكُمْ وَ﴾: أيضًا فلينصرفوا بعد الفراغ إلى مقابلة العدو للحراسة، وعطفًا على هذا ﴿لْتَأْتِ﴾: تحضر ﴿طَائِفَةٌ﴾: جماعةٌ لم تصل ﴿أُخْرَى﴾: من المسلمين ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿يُصَلُّوا فَ﴾: حرف يفيد السبب، ودونَ تأخير ﴿لْ﴾: حرف يفيد العلّة

(١) مسند أحمد ٢٧/ ١٢٠(١٦٥٨٠) قال الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين.
(٢) صحيح البخاري /١٤/٢(٩٤٢).

﴿يُصَلُّوا مَعَكَ﴾ على الصفةِ التي كانت عليها الطائفةُ الأولى ﴿لْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ﴾: أيضًا يأخذوا ﴿أَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ﴾: رغب بشدّةٍ ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع النساء والرجال من ﴿كَفَرُوا لَوْ﴾: حرف يفيد الاستحالة ﴿تَغْفُلُونَ﴾: لحظة السهو ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍّ يفيد السبب ﴿أَسْلِحَتِكُمْ وَ﴾: أيضًا تغفلون عن ﴿أَمْتِعَتِكُمْ﴾: حمل السلاح، وحالة الاستعداد للقتال؛ لأنّهم يتربصون بكم ﴿فَ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ ﴿يَمِيلُونَ﴾: يهجمون عليكم بكل قوتهم، حتى لا تكون ميلةً أُخرى ﴿عَلَيْكُمْ مَيْلَةً﴾: هجمةً ﴿وَاحِدَةً﴾: للقضاء عليكم جميعًا ﴿وَلَا﴾: حرف نفي بمعنى ليس ﴿جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: لا إثم عليكم ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كَانَ بِ﴾: حرف باء السبب ﴿بِكُمْ أَذًى مِنْ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية المكانية ﴿مَطَرٍ﴾: مثل حالات المطر الغزير ﴿أَوْ﴾: حرف يفيد هنا التقسيم والتسوية ﴿كُنْتُمْ مَرْضَى﴾: وأيضًا في حالات انتشار الأوبئة العامة ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾: في ظروف معيّنة من المطر، أو المرض العام؛ يمكن وضع الأسلحة جاهزةً للاستخدام ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾: أيضًا حققوا احترازكم وحيطتكم؛ حتى لا يُؤخذ المسلمون على حين غفلة، وتيقنوا ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ أَعَدَّ﴾: جهّز ﴿لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾: تختم الآية بطمأنة المسلمين على مستقبل الإسلام، فعذاب الكافرين في الدارين الأولى والآخرة وعدٌ ربّانيٌ، وإهانتهم مؤكّدة، وعذابهم قائم.

التكليف: من الملاحظ أنّ الآية لم تُبين كم ركعةٍ تُصلي كلُّ طائفةٍ من الطائفتين، وقد وردت صلاةُ الخوف في السُنّةِ المُطهرةِ على صورٍ مختلفةٍ، وصفاتٍ متعددةٍ، وكلّها صحيحة، ومُجزئة؛ من فَعَلَ واحدةٍ منها فقد فعل ما أمر اللهُ ﷻ به.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (١٠٣)

﴿فَإِذَا﴾: حرف مفاجأة وأمر لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربط بين ما بعدها بما قبلها ﴿قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ﴾: جاء اللفظ القرآني (قضى) على عشرةِ وجوه في القرآن الكريم، راجع [البقرة–٢٠٠]، هنا بمعنى فرغتم من صلاةِ الخوف وما بعدها، وربط ما بعدها وهي ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد الأمر ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ﴾: يأمر الله ﷻ المسلمين، أنْ يذكروا الله ﷻ بعد صلاة الخوف، وفي كلّ وقتٍ، أمرًا مؤكدًا؛ لأهميته في هذا الظرف، لتطمئن القلوب، جاء في المعنى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد–٢٨] ﴿قِيَامًا﴾: واقفون ﴿وَقُعُودًا﴾: جالسون ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿عَلَى جُنُوبِكُمْ﴾: نائمون على الجنب، وفي سائر الأحوال ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ﴾: الطمأنينة والاطمئنان هي السكون بعد الانزعاج إذا زالت أسباب الخوف بهزيمة العدو، أو

هربهم، أو بالهدنة، أو غيرها وبين ﴿فَـ﴾: حرفٌ استثنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: أداء الصلاة بتمامها، وحدودها، وخشوعها، وركوعها، وسجودها ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الصَّلَاةَ كَانَتْ﴾: وتبقى أبدًا ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾: مفروضًا مكتوبة عليهم، مفروضةً في وقتها؛ لأنّ أوقاتها كوقت الحج، يتجددُ وجوبُها بتجددِ الوقت، فإذا انقضى وقت الليل جاء وقت الصبح، وبعدها أوقات الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٠٤)

﴿وَلَا﴾: حرف نهي يفيد التحريم ﴿تَهِنُوا﴾: من الهوان أي الضعف، ولا تضعفوا، أو تتخاذلوا ﴿فِي ابْتِغَاءِ﴾: في مقارعة، ومقاومة، ومحاربة ﴿الْقَوْمِ﴾: هم كلُّ جماعةٍ من أصلٍ واحدٍ أو أصحابُ مذهبٍ واحدٍ، في كلِّ وقتٍ ومكانٍ ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَكُونُوا تَأْلَمُونَ﴾: إذا أصابتكم جراحٌ، أو قتلٌ، أو هجرةٌ ﴿فَإِنَّهُمْ﴾: بالتأكيد أي الكفّار ﴿يَأْلَمُونَ﴾: يعانون ﴿كَمَا﴾: مثلما ﴿تَأْلَمُونَ﴾: فهم ليسوا بأولى منكم في الصبر على حرّ القتالِ ومرارةِ الحرب، قد أصابهم ما أصابكم، من ألمٍ، وجراحٍ، وقتلٍ، وتشريدٍ، وقد جاء في المعنى نفسه ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران-١٤٠] فهم ليسوا بأولى منكم في الصبر على حرِّ القتالِ، ومرارةِ الحرب ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق فإنّكم ﴿تَرْجُونَ﴾: تتمنون وتطمعون ﴿مِنَ﴾: حرفُ جرّ يفيد بداية الغاية ﴿اللَّهِ مَا﴾: الذي ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَرْجُونَ﴾: كما يصيبكم من الحرب يصيب أعداءكم، ولكن المسلم يريد الثواب، والنصر، والتأييد لدين الله ﷻ، والجنّة كما وعدهم الله ﷻ ورسوله ﷺ، وإنّ الأعداء لا يرجون من هذا شيئًا ﴿وَكَانَ﴾: وسيبقى بلا زوال ﴿اللَّهُ عَلِيمًا﴾: صاحبَ العلمِ المطلق ﴿حَكِيمًا﴾: كان اللهُ ﷻ وسيبقى أعلم، وأحكم فيما يُقدّره، ويُنفّذه في عباده، وتسيير الأحكام الكونية، وكلُّها خير للمسلمين.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (١٠٥)

أسباب النزول: جاء أنّه في إحدى الغزوات، سرق رجلٌ من المنافقين من الأنصار يُدعى طعمة ابن أُبيرق درعَ وطعام رجلٍ آخر، وخاف السارق أنْ يُفتضح أمره؛ فألقى الدرع في بيت لُبيد بن

سهل، وأخبر بعضهم أنّ الدرع في بيت لبيد؛ فجاؤوا رسول الله ﷺ يطلبون تبرئة الرجل؛ حمايةً لسمعة وكرامة الرجل البريء؛ فنزلت الآية[1].

﴿إِنَّا﴾: ضمير للجمع الحاضر المتكلم، هنا هو الله ﷻ؛ وجاءت بصيغة الجمع؛ لتعظيم الفعل ﴿أَنْزَلْنَا﴾: وحيًا من السماء، مما يعلوك ﴿إِلَيْكَ﴾: يا محمد ﷺ ﴿الْكِتَابَ﴾: القرآن الكريم ﴿بِالْحَقِّ﴾: حقًّا هو من عند الله ﷻ، وهو حقٌ في ذاته، وحقٌ في خبره وطلبه ﴿لِ﴾: حرفُ علّةٍ وسببٍ ﴿تَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾: لتكون تعاليم الله ﷻ في كتابه هي القواعد، والقوانين، والدساتير بين النّاس، التي تفصل بينهم، في كلّ شؤونهم ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصولٌ بمعنى الذي ﴿أَرَاكَ﴾: علّمك، وألهمك ﴿اللَّهُ﴾: ﷻ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، بِقَوْلِهِ: فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلاَ يَأْخُذْهَا[2]، إنّ الحكمة من هذا الحديث الشريف بالغة، فالرسول ﷺ الذي يستقبل الوحي؛ يترك للمسلمين أن يعرضوا أنفسهم على الله ﷻ، وأن يحتكموا إلى ضمائرهم وتعاليم ربّهم، وهنا الفرق الشاسع بن الإنسان المسلم، وغيره من البشر؛ الذين يستخدمون القوانين البشرية مطايا لأغراضهم؛ لأكل حقوق الآخرين، يتحقق: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة-١٤] ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿لَا﴾: حرف نهي ﴿تَكُنْ لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الْخَائِنِينَ﴾: جاء اللفظ القرآني (الخائن) على خمسةِ أوجهٍ، هنا بمعنى خيانةِ الأمانةِ التي أُوتمن عليها؛ انظر [البقرة-١٨٧] ﴿خَصِيمًا﴾: هنا توجيةٌ للنبيّ ﷺ والمسلمين من بعده، ألّا يخاصموا أحدًا لصالحِ أحدٍ؛ إلّا بعد أنْ يتأكد أنّه مُحقٌ بما نزل من الحقِ ﷻ، فهم بشرٌ يصيبون ويخطئون، والقاعدةُ هي لا قليل من الإثم، وإنّ عاقبة الخيانة الخزي والعذاب، والله ﷻ يحمي عباده الصالحين من افتراء المنافقين.

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٠٦)

كانت الآيةُ السابقةُ خاصّة في حادثة سرقة الدرع، ولكنّها عامّة في كلّ أحوال المسلمين، ومجتمعاتهم، وفي كلّ زمانٍ، وكل مكان ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿اسْتَغْفِرِ﴾: اطلب المغفرة من ﴿اللَّهَ﴾: ﷻ للمتحاكمين، واعلم ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ كَانَ﴾: ويبقى بلا انقطاع، فهو الآخر ليس بعده شيء ﴿غَفُورًا﴾: يسامح من تاب ﴿رَحِيمًا﴾: عظيم الرحمة بك وبكلّ الخلق ﷻ.

---

[1] سنن الترمذي /١٤٤/٥(٣٠٣٦). قال الترمذي: حَدِيثٌ غَرِيبٌ. وحسنه الألباني.

[2] صحيح البخاري /١٨٠/٣(٢٦٨٠).

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (١٠٧)

﴿وَلَا﴾: أيضًا هنا حرف نهي ﴿تُجَادِلْ﴾: لا تُدافع، ولا تصدَ ولا تُحاجج ﴿عَنِ﴾: حرف جرّ يفيد السبب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يَخْتَانُونَ﴾: يخونون، ويخفون خيانتهم في ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾: بارتكاب المعاصي، لا تدافع عن الخونة، وخاصّة الذين يخونون الله ﷻ ورسوله ﷺ ﴿إِنَّ﴾: حرف للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ﴾: تبارك في علاه ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُحِبُّ مَنْ﴾: الذي من بني آدم ﴿كَانَ خَوَّانًا﴾: صيغة مبالغة، وشديدة في الخائنين، مثل فعّالًا، كفّارًا، سرّاقًا ﴿أَثِيمًا﴾: يأثم في أقواله، ويأثم في أفعاله؛ فيُذنب في كلِّ أحواله، والعياذ بالله، فالله ﷻ لا يحب هذا الصنف من البشر.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (١٠٨)

﴿يَسْتَخْفُونَ﴾: يستترون خوفًا ﴿مِنَ﴾: بعض ﴿النَّاسِ﴾: من عموم البشر يريدون التخفي، وهؤلاء تستروا خلف الكذب، ويجادلون نيابةً عن الخائنين ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾: ولا يستترون ﴿مِنَ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية ﴿اللَّهِ﴾: ﷻ، ويُخفون في أنفسهم قبائحهم المنكرة ﴿وَهُوَ﴾: في اللغة يعني ضميرٌ منفصلٌ مرفوع للغائب المفرد المذكر، وهنا يعني ﷻ ﴿مَعَهُمْ﴾: إنّ الله ﷻ يعرف سَكَناتهم، وحركاتهم، ووسوسة أنفسهم، وأعمالهم ﴿إِذْ﴾: حرفٌ يدلُّ على ما مضى من الزمن بمعنى حين وتفيد التعليل فقد بيتوا مسبقًا، ولا يزالون ﴿يُبَيِّتُونَ﴾: يدبرون بليلٍ، يضمرون في أنفسهم ﴿مَا﴾: الذي ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَرْضَى﴾: ما لا يقبله ﷻ ﴿مِنَ﴾: بعض ﴿الْقَوْلِ﴾: ويُغضب الله ﷻ ورسوله ﷺ، وقيل الدفاع عن المذنب، ويتهمون الأبرياء ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿كَانَ﴾: بلا انقطاع ﴿اللَّهُ بِمَا﴾: الذي ﴿يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾: كان الله ﷻ وسيبقى يُحصي كلّ شيءٍ فيهم، وعنهم في السرّ والعلن، وسيعاقبهم عليه.

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (١٠٩)

﴿هَا﴾: اسمُ إشارةٍ يدلُّ على النوعِ والعددِ ﴿أَنْتُمْ﴾: القومُ الذين جادلوا عن صاحبهم السارق، الذين يهمكم أمرُ ﴿هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ﴾: دافعتم ﴿عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: بالكلام، وأخذتم بأقوالهم وصدقتموهم، وظننتم أنّهم انتصروا في حياتهم، وبدفاعكم، وتعاونكم معهم، ومنعتم معاقبتهم بما وعد أو بما حكم لهم من الحُكّام في الدنيا، الذين يأخذون بالظاهر، وهم مخلصون ﴿فَمَنْ﴾: استفهام عن العاقل ﴿يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: سؤالٌ لا يجيب عليه أحد؛ لأنّ الله ﷻ

سيكشف سترهم، فلن يجدوا من يدافع عنهم، والإجابة نافية، لا أحد سيدافع عنهم يوم القيامة ﴿أَمْ﴾: هل ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾: هل سيكون لهم من يحافظ عليهم أو يدافع عنهم؛ ويحامي عنهم، ويروّج أقوالهم، لا وكيل، ولا شفيع لهم يوم القيامة؛ وهنا الخسران الأكبر.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠)

﴿وَمَنْ﴾: الذي من جنس العاقل الذي ﴿يَعْمَلْ سُوءًا﴾: يرتكب الذنب والمعصية التي لا تتعدى إلى غيره ﴿أَوْ﴾: حرف يفيد التسوية في الحكم ﴿يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾: يرتكب ذنبًا يُحاسب عليه؛ فيضع نفسه في دائرة المعاصي، وبذلك يكون قد ظلم نفسه ﴿ثُمَّ﴾: حرفٌ يدلُّ على التتابع، والتباعد الزمني غير السريع ﴿يَسْتَغْفِرِ﴾: يطلب منه ﷻ مغفرةَ الذنب، وسترَ العيب ومحو الأثر ﴿اللَّهَ﴾: قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَصَدَقَ أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا ثُمَّ يَتَوَضَّأُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ لِذَلِكَ الذَّنْبِ، إِلَّا غَفَرَ لَهُ وَقَرَأَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء-١١٠]، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [آل عمران-١٣٥][1] ﴿يَجِدِ﴾: تكون استجابة ﴿اللَّهَ غَفُورًا﴾: واسع العفو والسماح ﴿رَحِيمًا﴾: عظيم الرحمة والعطف.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١١١)

﴿وَمَنْ﴾: الذي من جنس العاقل، وهو من بني آدم ﴿يَكْسِبْ﴾: يرتكب، يقترف ﴿إِثْمًا﴾: ذنبًا، أو خطيئةً صغيرةً، أو كبيرةً ﴿فَإِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ تُفيدُ التخصيص والتحديد ﴿يَكْسِبُهُ﴾: يجني عقابه ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾: يتحمل هو تبعاته، لا يُغني أحدٌ عن أحدٍ، لكلّ نفسٍ ما عملت، لا يحمله أحدٌ عنها، فلا تزر وازرةٌ وزر أُخرى ﴿وَكَانَ﴾: بلا انقطاع أو زوال ﴿اللَّهُ عَلِيمًا﴾: عالمًا بكلّ شيءٍ في ملكوته ﷻ ﴿حَكِيمًا﴾: باقٍ بعلمه بكلّ شيءٍ، وحكمته في كلّ قولٍ وعملٍ.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (١١٢)

﴿وَمَنْ﴾: حرف استفهام هن العاقل يفيد هنا الذي من جنس العاقل ﴿يَكْسِبْ﴾: من يرتكب، يقترف ﴿خَطِيئَةً﴾: هي جُرمٌ في حقّ النفس، وحقّ الغير، صغيرةً أو كبيرةً ﴿أَوْ﴾: حرفُ عطفٍ يُفيد التسوية بين متعاطفين الخطيئة و ﴿إِثْمًا﴾: وهو عملُ ما لا يحلّ بعمدٍ ﴿ثم﴾: حرفٌ يفيدُ التتابع الزمني مع التراخي ﴿يَرْمِ بِهِ﴾: ينسبه زورًا ﴿بَرِيئًا﴾: يتهم به مظلومًا، لم يقترف هذا

---

[1] مسند أحمد ط الرسالة ١/ ٢١٨(٤٥) قال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

الجرم ﴿فَقَدِ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿احْتَمَلَ﴾: تحمّل بعمله ﴿بُهْتَانًا﴾: أشدّ كذبًا، وظلمًا ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾: ذنبًا واضحًا كبيرًا.

التكليف: الإسراع في التوبة والاستغفار من الخطيئة والإثم، حيث لا يوجد أشدّ وطأةً من اتهامِ مسلمٍ بريء.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (١١٣)

﴿وَلَوْلَا﴾: حرف شرط يفيد التخصيص والعرض ﴿فَضْلُ﴾: كرمُ ورحمةُ، ومنّةُ ﴿اللَّهِ عَلَيْكَ﴾: بفضل الله ﷻ الذي خّص به محمدًا ﷺ ﴿ وَرَحْمَتُهُ﴾: ﷻ وعطفه ورعايته أنْ نبههُ على الحق في قصةِ بني أبيرق ﴿لَ﴾: حرف تخصيص يفيد العلّة والسبب ﴿هَمَّتْ﴾: كادت، وأوشكت، لاستطاعت، وعزمت ﴿طَائِفَةٌ﴾: مجموعةٌ من جنسٍ واحدٍ أو أصحاب عقيدةٍ واحدةٍ ﴿مِنْهُمْ﴾: جماعةٌ من الذين خانوا الله ﷻ ورسوله، وخانوا أنفسهم، ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يُضِلُّوكَ﴾: يوهموك جاء اللفظ القرآني "**الضلال**" على ثمانية أوجه هنا بمعنى الزلل؛ والوهم انظر [البقرة-٢٨٢]، يخدعوك؛ فتحكم لهم على بريء ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿يُضِلُّونَ﴾: يبتعدون عن الصواب ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾: وإذا فعلوا، فإنّهم يظلمون أنفسهم؛ برميهم بريئًا؛ فيُحاسبون عليه يوم القيامة، ولكن كانت فضيحتُهم عاجلة في الدنيا ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿يَضُرُّونَكَ﴾: يسببون لك السوء والشرّ؛ لأنّ الله ﷻ عاصمُك من النّاس؛ ولأنّك عملت بالظاهرِ، ولا ضرر عليك في الحكم به من قبلِ نزولِ الوحي ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية، جزءًا أو بعضًا ﴿شَيْءٍ﴾: لن يؤاخذ اللهُ النبيّ أو أحدًا إلّا بما عمل بقصد ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾: آيات القرآن الكريم، التي كشفت المستور في الدنيا، وأخبرت عن مصيرهم في الآخرة ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: وعلّمك السّنّة المشرّفة من أقوالٍ وأفعال سيدنا محمد ﷺ ﴿وَعَلَّمَكَ مَا﴾: الذي ﴿لَمْ﴾: حرف نفي ﴿تَكُنْ﴾: قبل نزول الآيات على الرسول ﷺ ﴿تَعْلَمُ﴾: لم يكن يعلم عن الحوادث في الدنيا شيئًا، ولا عن الآخرة، ومآل النّاس فيها ﴿وَكَانَ﴾: وسيبقى ﴿فَضْلُ﴾: كرمُ ورحمةُ وخيرُ ﴿اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾: كان وسيبقى الفضل العظيم، بنزول القرآن على الرسول ﷺ، وبتكليفهِ بالرسالةِ، وبنصرةِ دينه، وإعلاء شأن أُمّته من بعده.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤)

﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿خَيْرَ﴾: لا نفع، ولا فائدة ﴿فِي كَثِيرٍ مِنْ﴾: بعض أو جزء ﴿نَجْوَاهُمْ﴾: النجوى هي إسرار الحديث إلى نفس الشخص، أو لشخصٍ آخرٍ بعينه ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿مَن﴾: جنس العاقل الذي ﴿أَمَرَ بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿صَدَقَةٍ﴾: تصدّق، وطلب من النّاس أنْ يتصدقوا على من يستحق الصدقة ﴿أَوْ﴾: حرف عطف يفيد التسوية بين المتعاطفين ﴿مَعْرُوفٍ﴾: فَعَلَ خيرًا، أو أمر بالخير بين النّاس، وهو واجب ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾: عبادة الله ﷻ وحده ونزع الخصومة مع النّاس. قال أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مَهْ مَهْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ» فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ» أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ[1]، وعن أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ عُقْبَةَ، أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا[2]، وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ»، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «صَلَاحُ ذَاتِ البَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ»، وَيُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «هِيَ الحَالِقَةُ لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ»[3]، ﴿وَمَنْ﴾: حرف استفهام عن العاقل يفيد هنا المفرد المذكر، بمعنى الذي ﴿يَفْعَلْ﴾: من قولٍ، وعملٍ ﴿ذَلِكَ﴾: الإصلاح بين النّاس ﴿ابْتِغَاءَ﴾: رغبةً وطمعًا في ﴿مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾: مُخلصًا في قوله وعمله، مُحتسبًا ثواب ذلك عند الله ﷻ ﴿فَ﴾: حرفٌ استئنائي بهدف ترتيب الأمر ويفيد سرعة التنفيذ ﴿سَوْفَ﴾: كلمةُ وعدٍ لعملٍ في المستقبل ﴿نُؤْتِيهِ﴾: نعطيه ونمنحه ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾: نثيبه ثوابًا جزيلًا، كثيرًا، واسعًا، ومن أعظم ما يكسب في رضا الله ﷻ، هو إصلاحُ ذات البين بين النّاس المتنازعين.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١١٥)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿يُشَاقِقِ﴾: إنّ الذي يُعاند؛ ويخالف، ويناجي بالإثم والعدوان، ﴿الرَّسُولَ﴾: بمعصية الرسول، ﷺ يُصبحُ هو في شقٍ جانبٍ، والشريعةُ وأمرُ اللهِ ﷻ في شقٍ آخرَ، عن عمدٍ، جاء اللفظ شقاق في القرآن الكريم على ثلاثة

[1] صحيح مسلم ١/ ٢٣٦(٢٤٥)
[2] صحيح البخاري /٣/١٨٣(٢٦٩٢).
[3] سنن الترمذي ٤/ ٦٦٣(٢٥٠٩) وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

أوجه: هنا بمعنى الخلاف، وكذلك في قوله ﷻ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء-١١٥]، وجاء بمعنى الضلال في قوله ﷻ ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة-١٣٧] وفي قوله أيضا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة-١٧٦] وبمعنى العداوة في قوله ﷻ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال-١٣] ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ مَا﴾: الذي ﴿تَبَيَّنَ﴾: اتضح تمامًا ﴿لَهُ﴾: تخصيصًا ﴿الْهُدَىٰ﴾: بعدما عرف الحق، واتضح له الحكم الصحيح من كتاب الله ﷻ وسنّة رسوله ﷺ ﴿وَيَتَّبِعْ﴾: يسلك طريقًا ومنهجًا ﴿غَيْرَ﴾: حرف استثناء بمعنى سوى ﴿سَبِيلِ﴾: منهج وطريق ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: جاء اللفظ القرآني "**السبيل**" على أربعة أوجه؛ هنا بمعنى الدين والعقيدة؛ انظر [البقرة- ٢٦١]، وهنا إشارةٌ إلى عصمةِ اجتماع المؤمنين من الخطأ باتفاقهم، وهذا الاتفاق حُجّةٌ عليهم؛ تحْرُم مخالفته، بعد التروي، والتفكير الطويل ﴿نُوَلِّهِ﴾: نتركه ليكون نصيرًا ﴿مَا﴾: الذي من غير العاقل ﴿تَوَلَّىٰ﴾: إذا سلك هذا السبيل سوف يتركه الله ﷻ لما اختار؛ استدراجًا له؛ حتى ينال العذاب؛ والعقاب الأليم. يقول الله ﷻ ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم-٤٤] ﴿وَ﴾: عطفًا على كفره ﴿نُصْلِهِ﴾: نجعله يذوقُ عذاب وألم ﴿جَهَنَّمَ﴾: ندخله جهنّم ليذوق عذابها ﴿وَسَاءَتْ﴾: من السوء وهو الخزي والشرّ والضرر ﴿مَصِيرًا﴾: بئس المرجع والمآل.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١١٦)

قال علي ﷺ: ما في القرآن آيةٌ أحبُّ إليّ من هذه الآية: ﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ لَا﴾: حرف نفي ﴿يَغْفِرُ﴾: لا يسامح، ولا يتجاوز ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿يُشْرَكَ بِهِ﴾: أنْ يجعل المخلوق للخالق ﷻ شريكًا في طاعته، وعبادته، واتباع أمره، ومساندة أوليائه المشركين ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿يَغْفِرُ﴾: يُسامح ﴿مَا﴾: الذي ﴿دُونَ﴾: ما هو أقل من ﴿ذَٰلِكَ﴾: هو كلّ ما سبق ذكره من الأمور التي أخبر اللهُ ﷻ عنها؛ لأنّ الشرك باللهِ ظلمٌ عظيمٌ ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿مَنْ﴾: من جنس العاقل ﴿يَشَاءُ﴾: المغفرة ليست مطلقة، ولكنّها لمن أراد اللهُ ﷻ له المغفرة، بمشيئة الله ﷻ ﴿وَمَنْ﴾: أيضًا الذي من جنس العاقل ﴿يُشْرِكْ بِ﴾: حرف باء

الصلة ﴿اللَّهِ فَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿ضَلَّ﴾: ذهبَ وتاه بعيدًا عن الحق ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾: وبعُد كثيرًا عن الصواب، وسلك طريق الضلال.

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ (١١٧)

﴿إِنْ يَدْعُونَ﴾: ما يعبد هؤلاء ﴿مِنْ دُونِهِ﴾: غير الله ﷻ ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿إِنَاثًا﴾: فيها أقوال: قالت عائشة رضي اللهُ عنها: أنّها الأوثان. لها أسماءٌ مؤنثة، كاللّات والعُزى. وقال الضحاك: اتخذوهم أربابًا، وصوروهن جواري، وقالوا هؤلاء يُشبهن بنات الله الملائكة، جاءت آيةٌ تعزز : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الزخرف–١٩] لقولهم إنّ الملائكة بنات الله. يعبدُ الكفّارُ أصنامًا مسماةً بأسماءِ الإناث، وقيل هي كلّ شيءٍ ميّتٍ ليس فيه روح، إمّا خشبةً يابسةً، أو حجرًا يابسًا كاللات والعزّى ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ﴾: ما يعبد هؤلاء ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿شَيْطَانًا﴾: هو الشيطان الذي أمرهم بهذا، وزيّنه لهم، فهم يعبدون إبليس بهذا الصنيع ﴿مَرِيدًا﴾: خارجًا عن طاعة الله ﷻ، متجردًا من الخير، لأنّه يدعوا إلى الكفر.

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ (١١٨)

﴿لَعَنَهُ﴾: طرده، وأبعده ﴿اللَّهُ﴾: من رحمته، وأخرجه من جواره ﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿قَالَ﴾: الشيطان الرجيم ﴿لَ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿أَتَّخِذَنَّ﴾: أجعلهنّ، جاءت بأدواتِ التوكيد، اللام والنون؛ لبيان التصميم والإصرار ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغايّة ﴿عِبَادِكَ نَصِيبًا﴾: حصّةً ﴿مَفْرُوضًا﴾: عددًا مقطوعًا مُعينًا، مُقدّرًا، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟، قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيُّنَا ذَلِكَ الوَاحِدُ؟ قَالَ: أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ»[1].

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ (١١٩)

---

[1] صحيح البخاري ٤/ ١٣٨(٣٣٤٨).

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا أيضًا ﴿لَ﴾: حرف علّة وسبب ﴿أُضِلَّنَّهُمْ﴾: من الضلالة، أي أُبعدهم عن الحق، من ضلّ الطريق هو من تاه عنها، جاء لفظُ "**الضلال**" هنا بمعنى الكفر والغّي ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لَ﴾: حرفٌ يفيد السبب وبدون تأخير ﴿أُمَنِّيَنَّهُمْ﴾: من الأماني الباطلة، الناتجة عن تسويل الشيطان ووسوسته، الذي قال: سأُزيّن لهم ترك التوبة، وأعدهم بالأماني، ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾: أيضًا بعد السيطرة عليهم وتسخيرهم لخدمتي؛ أجبرهم بالأمر الواجب النفاذ ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد هنا جواب الشرط ﴿لَ﴾: حرف يفيد هنا الأمر ﴿يُبَتِّكُنَّ﴾: بالتأكيد شقّ أو قطع ﴿آَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾: أيضاً آمرهم بشقّ آذان الماعز، والغنم والبقر، يجعلون فيها ما أراد الشيطان، علامةً وسمةً، فهذه تُحرّم ما أحلّ اللهُ ﷻ للذبح، وهذه علامة السائبة، وأخرى للوصيلة، وهي منهج الجاهلية ﴿فَ﴾: حرف يفيد السبب ﴿لَيُغَيِّرُنَّ﴾: يُبدلون بالتأكيد ﴿خَلْقَ اللَّهِ﴾: فطرةَ اللهِ ﷻ وهي دين الإسلام، جاء اللفظ القرآني خلق على سبعة أوجه؛ هنا بمعنى الدين، كيف يحدث التغيير؟ فيها أقوال: خصي الدواب، وقيل الوشم؛ خاصة وشم الوجه؛ عن عبد الله بن مسعود، قال: قال ﷺ: لَعَنَ اللَّهُ الوَاشِمَاتِ وَالمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالمُتَنَمِّصَاتِ، وَالمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، المُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ ﷻ[1]، والنامصةُ: هي التي تنزع الشعر من الوجه، التي تنتف الشعر من الوجه، والمتفلجة: التي تَبْرُدُ أسنانها للتجميل، قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: يعني تغيير دين اللهِ عزّ وجلّ؛ استنادًا للآية الكريمة، بمعنى لا تبدلوا فطرة الله، ودعوا النّاس على فطرتهم. عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول ﷺ: كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ البَهِيمَةِ تُنْتَجُ البَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ[2] ﴿وَمَنْ﴾: حرفُ استفهامٍ عن الذي من جنس العاقل ﴿يَتَّخِذِ﴾: يختار ويرتضي ﴿الشَّيْطَانَ وَلِيًّا﴾: الولي هو النصير، والمؤيد، والمحب، والقريب ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا الذي هو ﴿دُونِ﴾: غير وهو بالتأكيد أقل من ﴿اللَّهِ﴾: بديلًا عن طاعة الله ﷻ ﴿فَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿خَسِرَ﴾: فَقَدَ وحُرِمَ ﴿خُسْرَانًا مُبِينًا﴾: هي الخسارة التي لا يجبرها، ولا يعوضها شيءٌ، ولا يُستدرك ما فات منها، وجاء لفظ الخسارة والخاسرون في القرآن الكريم على خمسة أوجه، هنا بمعنى الضلال.

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٢٠)

---

[1] صحيح البخاري /٧/١٦٤(٥٩٣١).

[2] صحيح البخاري /٢/١٠٠(١٣٨٥).

يخبر الحق ﷻ عن وسائل الشيطان في إغراء الخلق، وطبيعة هذه الوسائل ﴿يَعِدُهُمْ﴾: يعد الشيطان أولياءه، ويُغريهم بالمال، والجاه، والنساء، وكلّ زينةِ الحياة ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾: يختلق لهم الأماني يقول لهم: إنّكم ستفوزون في الدنيا والآخرة ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿مَا﴾: حرف نفي بمعنى لا ﴿يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا﴾: حرف استثناءٍ منقطعٍ، وعودًا كاذبة لا ثواب لها، وزائلة ﴿غُرُورًا﴾: هو الكذب والتضليل، ومنها أنّه يعدهم بالجنّة.

﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ (١٢١)

﴿أُولَئِكَ﴾: إشارة للجماعة البعيدة والقريبة هم الذين يعدهم الشيطان ويمنّيهم، الذين استحسنوا، واستحبوا الاستجابة له ﴿مَأْوَاهُمْ﴾: مصيرُهم، ومآلُهم ﴿جَهَنَّمُ﴾: النّار ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يَجِدُونَ عَنْهَا﴾: هم لا محالة، داخلون النّار، ولا مأوى لهم بديلًا عن ذلك ﴿مَحِيصًا﴾: لا مصرفًا لهم عنها، ولا خلاصًا، ولا مهربًا لهم عن جهنّم وبئس المصير.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (١٢٢)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق فإنّ ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: من الرجال والنساء؛ بيقينٍ صادقٍ، بالحق، خوفًا من غضبه ﷻ؛ ورجاءً في رحمته؛ فآمنت قلوبُهم، واطمأنت، وصدقتها جوارحهُم، وتركوا النواهي من المنكرات، إنّ الإيمان وحدهُ لا يكفي، فلا بد من اقترانه بأنْ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: أيضاً أقاموا ما أمرهم به الله ﷻ ﴿سَ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿نُدْخِلُهُمْ﴾: جاءت بصيغة الجمع واللهُ ﷻ واحدٌ أحدٌ للتعظيم، جاء اللفظ ندخلهم بصيغة الجمع؛ دلالةً على عِظم الجزاء ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ﴾: حرفُ جرّ يُفيد بداية الغاية المكانيّة ﴿تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: مياه الجنّة من الماء، والعسل المُصفىّ، تجري تحت قصورهم، يتصرفون في هذه الأنهار كيف شاؤوا، وحيث شاؤوا، وأين شاؤوا ﴿خَالِدِينَ﴾: ماكثين ﴿فِيهَا أَبَدًا﴾: الأبد عبارة عن مدّةِ الزمانِ الممتدِ الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان؛ أي بقاءً لا زوال له، ولا انتقال منها ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾: هذا وعد الله ﷻ معلوم حقيقةٌ، واقعٌ لا محالة ﴿حَقًّا﴾: هذا مصدر، ليؤكد على تحقيق الخبر ﴿وَمَنْ﴾: حرف استفهام عن العاقل، بمعنى الذي ﴿أَصْدَقُ﴾: ألأكثر صدقًا ﴿مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾: لا أحد أصدق منه ﷻ **قولًا**، لا إله إلّا هو، لا ربّ سواه، وهذا ما كان يكرره ﷺ في خُطبه. عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ»، وَيَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ، وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ

كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» ثُمَّ يَقُولُ: «أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ»[1]، عن جابر ﷺ، قال ﷺ: فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ[2].

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٢٣)

﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقص؛ يفيد النفي **﴿بِـ﴾**: حرف باء السببية **﴿أَمَانِيِّكُمْ﴾**: رغباتكم؛ إنّ النجاة من النّار والفوز بالجنّة ليست بالتمني، كما أنّ الدين ليس بالتمنّي، أو التحلّي، ولكن بما وقر في القلب وصدّقه العمل، ليس كلّ من قال سُمع لقوله حتى يكون له من الله ﷻ برهانٌ ببيان الحُجّة **﴿وَلَا﴾**: أيضًا ليس بسبب **﴿أَمَانِيِّ﴾**: رغبات **﴿أَهْلِ﴾**: أصحاب **﴿الْكِتَابِ﴾**: ليس بتمني المسلمين، وليس لأهل الكتاب من اليهود والنصارى النجاة بالتمني؛ فالقاعدة الربّانيّة **﴿مَنْ﴾**: الذي من جنس العاقل **﴿يَعْمَلْ﴾**: يرتكب خطيئةً **﴿سُوءًا﴾**: ما يسبب ضررًا أو أذى أو شرًّا له أو لغيرة أو لدينه الصحيح **﴿يُجْزَ﴾**: يُحاسب الله ﷻ فاعل السوء **﴿بِهِ﴾**: على فعله، قديمًا وحديثًا، فقد جاء في المعنى: **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾** [الزلزلة-٧، ٨]: يأخذ جزاءه، فيكون كفّارةً له، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ الثَّقَفِيِّ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ الصَّلَاحُ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ **﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾** [النساء-١٢٣] وَكُلُّ شَيْءٍ عَمِلْنَا جُزِينَا بِهِ؟ فَقَالَ: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ؟» قَالَ: قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «هُوَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ»[3]، وفي حديث آخر: أخبر الرسول ﷺ أبا بكر أنّه وأصحابه المؤمنين؛ يجزون به في الدنيا؛ حتى يلقوا الله ﷻ ليس لهم ذنوب العقاب، هو للكافرين، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَةَ **﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾**، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلاَ أُقْرِئُكَ آيَةً أُنْزِلَتْ عَلَيَّ قُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ فَأَقْرَأَنِيهَا فَلاَ أَعْلَمُ إِلّا أَنِّي قَدْ كُنْتُ وَجَدْتُ انْقِصَامًا فِي ظَهْرِي فَتَمَطَّأْتُ لَهَا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا شَأْنُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي وَأَيُّنَا لَمْ يَعْمَلْ سُوءًا وَإِنَّا لَمُجْزَوْنَ بِمَا عَمِلْنَا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمَّا أَنْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ وَالْمُؤْمِنُونَ

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٥٩٢(٨٦٦).

(٢) صحيح مسلم /٣/١١(٢٠٤٢).

(٣) مسند أحمد ١/٢٢٩(٦٨). قال الأرناؤوط: حديث صحيح بطرقه وشواهده.

فَتُجْزَوْنَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا حَتَّى تَلْقَوْا اللَّهَ وَلَيْسَ لَكُمْ ذُنُوبٌ وَأَمَّا الآخَرُونَ فَيُجْمَعُ ذَلِكَ لَهُمْ حَتَّى يُجْزَوْا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[1]، قوله ﷻ: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ–١٧] ﴿وَ﴾: عطفًا على ذلك ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يَجِدْ لَهُ﴾: تخصيصًا ﴿مِنْ دُونِ﴾: غير ﴿اللَّهِ وَلِيًّا﴾: مُحبًا، ومؤيدًا، ومُناصرًا ﴿وَلَا﴾: أيضًا لن يجد له ﴿نَصِيرًا﴾: مُحبًّا، أو مؤيّدًا، أو معينًا.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (١٢٤)

﴿وَمَنْ﴾: أيضًا الذي من جنس العاقل ﴿يَعْمَلْ مِنَ﴾: جزء أو بعض ﴿الصَّالِحَاتِ﴾: كلِّ ما أمر الله ﷻ به من قولٍ، أو عمل ﴿مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بعض ﴿ذَكَرٍ أَوْ﴾: حرفُ تسوية في الحكم ﴿أُنْثَى وَهُوَ﴾: في اللغة يعني ضميرًا منفصلًا مرفوعًا للغائب المفرد المذكر ﴿مُؤْمِنٌ﴾: لا تفريق بين ذكرٍ، وأنثى؛ فالكل مُكلّف ﴿فَأُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للجماعة المفرد المذكر للقريب والبعيد ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾: دخولًا دائمًا لا خروج بعده؛ ثوابَ طاعتهم ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿يُظْلَمُونَ﴾: لا يُنقص من أجرهم مثقال ﴿نَقِيرًا﴾: شيئًا صغيرًا، هو النُقرة، أي الحُفرة الصغيرةُ في ظهرِ نواةِ البلح، إنّ في هذه الآية الكريمة بُشرى للمؤمنين فقط، بأنَّ ذنوبهم تُكّفر عنهم، إمّا بعفوٍ ربّانيٍ في الحياة الدنيا، وهي أصلحُ للمخلوق، أو في الآخرة، وهذه الأصعب عليه، ويُخبر الحقُّ ﷻ أنّه ما من شيءٍ، مهما صغُر حجمُه من العمل الصالح إلّا وله أجرُه عند الله ﷻ، علمًا أنّ الفتيل: هو الخيط الغشائي في شق نواة البلح، و القطمير: هو الغشاء الرقيق الذي يُحيط بنواة البلح، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ[2].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٥)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿أَحْسَنُ﴾: هنا وصفُ الحُسن المُبالغ فيه، بمعنى لا أحسن، ولا أفضل؟ ﴿دِينًا﴾: ملّة، أو عقيدة، أو منهجًا ﴿مِمَّنْ﴾: من الذي من جنس العاقل، وهم البشر الذي ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِ﴾: حرف تخصيص ﴿اللَّهِ﴾: المقصود الوجه هنا الدين، بمعنى أخلص العمل لربّه عزّ وجلّ، إيمانًا، واحتسابًا ﴿وَهُوَ﴾:

---

[1] سنن الترمذي /٥/٩٨(٣٠٣٩). وغربه الترمذي وقال: غَرِيبٌ وَفِي إِسْنَادِهِ مَقَالٌ.

[2] صحيح البخاري /٧/١١٤(٥٦٤١).

ضمير للمفرد المذكر ﴿مُحْسِنٌ﴾: من الإحسان، وهي عبادة الله عبادة الشاهد، فتخشاه في السرِّ، والعلنِ، هما شرطان لا يصحُّ عمل عاملٍ دونهما: الإخلاص لله ﷻ، والصواب؛ أي أنْ يأتي العمل وفق الشريعة الربّانية، فمن فقد الإخلاص؛ كان مُنافقًا، ومن فقد المتابعة والصواب كان جاهلًا ﴿وَاتَّبَعَ﴾: عطفاً على إحسانه اعتنق والتزام ﴿مِلَّةَ﴾: دين ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾: ﵇، الذي هو أصل دين محمد ﷺ ﴿حَنِيفًا﴾: المائل عن الشرك والباطل، المُبتعد عنه بوعيٍ، وبصيرةٍ، المُنحازِ للدين الحقِ؛ لا يصدُّه صادٌ، ولا يمنعهُ مانعٌ، ولا يردّهُ رادٌّ ﴿وَاتَّخَذَ﴾: أيضًا اصطفى ﴿اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾: أقوال في الأسباب؛ الأول: لقد وصل إبراهيم ﵇، إلى درجة الصفوة لله ﷻ، وخصّهُ بالخلّة وهي أرفعُ درجات المحبّة، والثاني: قام إبراهيم ﵇، بجميع ما أمرهُ اللهُ ﷻ به في كلّ مقامٍ من مقامات العبادة، فكان لا يشغله أمرٌ جليلٌ عن أمرٍ قليلٍ، ولا يشغله كبيرٌ عن صغير؛ عن الطاعة، والثالث: وقيل لأنّه أتمّ كلمات الله ﷻ، جاء في المعنى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة–١٢٤] وهي في الطاعة.

درجات الأنبياء: الأولى: إنّ الله ﷻ اصطفى آدم، **والثانية:** اتخذ الله ﷻ إبراهيم ﵇ خليلًا. **والثالثة:** كلمّ الله ﷻ موسى ﵇ تكليمًا. **والرابعة:** عيسى روح الله وكلمته. **والخامسة:** صفات محمد ﷺ: حبيب الله ﷻ ولا فخر، أوّل شافع، وأوّل مشفع، أولُّ من يدخل الجنّة، ومعه فقراء المؤمنين، أكرم الأولين والآخرين.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ (١٢٦)

﴿وَلِلَّهِ مَا﴾: كلّ شيءٍ من جنس غير العاقل يوجد ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾: وهي كلّ ما علا الأرض وأحاط بها كونها كرويّة الشكل ﴿وَمَا﴾: أيضًا الذي من جنس غير العاقل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: كلّه من مُلك الله ﷻ، وعبيده، وخلقه، وهو المتصرف في مُلكه، لا رادّ لما قضى، ولا مُعقب لما حكم، ولا يُسأل عمّا يفعل؛ لعظمته، وقدرته، وعدله، وحكمته، ولطفه، ورحمته ﴿وَكَانَ﴾: بلا نهاية ﴿اللَّهُ﴾: ﷻ ﴿بِ﴾: حرف باء التوكيد للقول، والتأكيد للفعل ﴿كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة؛ لتؤكد العموم ﴿مُحِيطًا﴾: أحاط علمهُ كلّ شيء، لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها، ﷻ، مُسيطر ضابط علمهُ نافذٌ، لا تخفى عليه خافية، جاء في المعنى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس–٦١].

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ (١٢٧)

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي﴾: يسألونك في أمر ﴿النِّسَاءِ﴾: ما يجب لهنّ، وما يجب عليهنّ، وقد بينت السيدةُ عائشة رضي اللهُ عنها ذلك، فعن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنْ قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ [النساء–٣] إِلَى ﴿وَرُبَاعَ﴾ [النساء–٣]، فَقَالَتْ: «يَا ابْنَ أُخْتِي هِيَ اليَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حَجْرِ وَلِيِّهَا تُشَارِكُهُ فِي مَالِهِ، فَيُعْجِبُهُ مَالُهَا وَجَمَالُهَا، فَيُرِيدُ وَلِيُّهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، بِغَيْرِ أَنْ يُقْسِطَ فِي صَدَاقِهَا، فَيُعْطِيهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غَيْرُهُ، فَنُهُوا أَنْ يُنْكِحُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ، وَيَبْلُغُوا بِهِنَّ أَعْلَى سُنَّتِهِنَّ مِنَ الصَّدَاقِ، وَأُمِرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ» قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [النساء–١٢٧] إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء–١٢٧] وَالَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ أَنَّهُ يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ الآيَةُ الأُولَى، الَّتِي قَالَ فِيهَا: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى، فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء–٣]، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَقَوْلُ اللَّهِ فِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء–١٢٧] يَعْنِي هِيَ رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ لِيَتِيمَتِهِ الَّتِي تَكُونُ فِي حَجْرِهِ، حِينَ تَكُونُ قَلِيلَةَ المَالِ وَالجَمَالِ، فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا رَغِبُوا فِي مَالِهَا وَجَمَالِهَا مِنْ يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالقِسْطِ، مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ[1]، ﴿قُلِ﴾: أمر من الله ﷻ ﴿اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾: يُبيّن لكم حكم ما سألتم، هو ﴿وَمَا﴾: والذي ﴿يُتْلَى﴾: يُقرأ ﴿عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾: في القرآن الكريم، المقصود بها ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا﴾: حرف نفي ﴿تُؤْتُونَهُنَّ﴾: تُعطونهنّ ﴿مَا﴾: الذي ﴿كُتِبَ﴾: فرضه الله ﷻ ﴿لَهُنَّ﴾: تخصيصًا وتمليكًا من الصداق، والحقوق ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ﴾: أيضًا تريدون حرفُ تأكيد الفعل ﴿تَنْكِحُوهُنَّ﴾: تريدون أنْ تتزوجوا اليتيمات اللاتي في حجر الرجل، قليلة المال، والجمال، والنهي عن الزواج منهن إلّا بالقسط العدل؛ أي أنْ يعطيها المهر أسوةً بأمثالها من النساء، وإذا لم يرغب في زواجها؛ فلا يمنعها من زواج غيره: قَالَتْ عَائِشَةُ: وَقَوْلُ اللَّهِ ﷻ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء–١٢٧]: رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ عَنْ يَتِيمَتِهِ، حِينَ تَكُونُ قَلِيلَةَ المَالِ وَالجَمَالِ، قَالَتْ: فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوا عَنْ مَنْ رَغِبُوا فِي مَالِهِ وَجَمَالِهِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالقِسْطِ، مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ إِذَا كُنَّ

---

[1] صحيح البخاري ٣/ ١٣٩(٢٤٩٤).

قَليلاَتِ المَالِ وَالجَمَالِ[1] ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال، أيضًا يستفتونك في ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: الشرائح الضعيفة في المجتمع المسلم ﴿مِنَ﴾: حرفٌ يفيد بداية الغاية ﴿الْوِلْدَانِ﴾: كان النّاس في الجاهلية لا يورّثون الصغار، ولا البنات اليتامى؛ فنهى الله ﷻ عن ذلك، ونزلت الآياتُ تُحدد الحقوق للذكر مثل حظ الأنثيين صغيرًا أو كبيرًا ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الْيَتَامَى بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿الْقِسْطِ﴾: بالعدل في الميراث والأموال، أي تعدلوا بين الجميع، سواءً كان اليتامى من البنات جميلات، أو دميمات، ذوات مالٍ، أو فقيراتٍ، ومنع الاستئثار بمالهن ﴿وَمَا﴾: الذي ﴿تَفْعَلُوا مِنْ﴾: جزء أو بعض ﴿خَيْرٍ فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾: يأمر الله ﷻ النّاس بفعل الخيرات، والاستجابة، والطاعة للأوامر، والنواهي، وعطفًا على هذا فإنّ الجزاء وافرٌ، وتامٌ لهؤلاء.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٢٨)

من منهج التربية في القرآن الشريف؛ الاهتمام بأحوال الأسرة المسلمة، وتنظيمها، بحسب أوامر الله ﷻ، فالأسرة عماد المجتمع؛ وصلاحُها صلاحٌ للمجتمع، فجاءت الآيات لتُحدد الحدود، والأصول، والفروع في العلاقات داخلها؛ فجاءت هذه الآية تتحدث عن أحوال العلاقة بين الزوج وزوجه: في حالة النفور بينهما، وحالة الاتفاق، وحالة الطلاق والفراق بينهما ﴿وَإِنِ﴾: حرف شرط ﴿امْرَأَةٌ﴾: زوجةٌ ﴿خَافَتْ مِنْ﴾: حرفٌ يفيد بداية الغاية ﴿بَعْلِهَا﴾: زوجها، جاء لفظ "**خافت**" هنا بمعنى علمت وتأكدت من زوجها إذا علمتم؛ راجع [البقرة-٢٢٩]، أولًا: ﴿نُشُوزًا﴾: تجافى وتباعد عنها ظُلمًا، وكراهيةً لها، لا يُكلمها ولا يأنس بها، ورغبةً في فراقها ﴿أَوْ﴾: حرف يفيد التسوية بين متعاطفين ﴿إِعْرَاضًا﴾: جاء لفظ النشوز هنا إيثار الرجل نساءً أُخريات على زوجته، إذا خشيت المرأة نفور زوجها، وترفّعه وانصرافه عنها ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد لا ﴿جُنَاحَ﴾: لا إثم، ولا تثريب، ولا حرج ﴿عَلَيْهِمَا﴾: أن تتنازل عن بعض حقوقٍ لها مثل الإنفاق وغيرها؛ خيرًا لها من الطلاق ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾: الصلح خير من الفراق؛ هذه هي القاعدة، فللمرأة أنْ تُسامح زوجها في حقّها، أو بعضه من نفقةٍ، أو كسوةٍ، أو مبيتٍ وغيره، وله أنْ يقبل ذلك، فلا حرج في بذلها له، وليس عليه حرجٌ في قبول ذلك، هذه حالات تستدعي تنازل المرأة: إذا لم تُنجب كثيرًا، أو لم تنجب، أو أنْ تكون المرأة كبيرة في

---

[1] صحيح البخاري ٦/ ٤٣(٤٥٧٤).

العمر، أو أنْ تكون غير جميلة؛ أو سيئة الخلق ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿الصُّلْحُ﴾: الذي تسكن به النفوس، ويزول به الخلاف، ﴿خَيْرٌ﴾: أنْ تسامحهُ في حقوقها، أو بعضها خيرٌ من الفرقة، ومن الخصومة، و بدلًا من الطلاق، ثانيًا: التخيير بين الإقامة والفراق: في أنْ تترك جزءًا من حقوقها، أو تُفارق بالطلاق، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، وَكَانَ يَقْسِمُ لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ يَوْمَهَا وَلَيْلَتَهَا، غَيْرَ أَنَّ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ وَهَبَتْ يَوْمَهَا وَلَيْلَتَهَا لِعَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ[(١)]، ليتأسى المؤمنون به من بعده، وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الطَّلَاقُ»[(٢)]، ﴿وَأُحْضِرَتِ﴾: جُبلت ﴿الْأَنْفُسُ﴾: التي هي جوهر الإنسان على ﴿الشُّحَّ﴾: البُخل ﴿وَإِنْ﴾: حرفُ شرط ﴿تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾: أنْ تصبروا على ما تكرهون؛ فتعدلوا بين الجميع، وتُقسموا لهنّ أسوةً بغيرهنّ ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿اللَّهَ كَانَ بِمَا﴾: بالذي ﴿تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: تحذيرٌ ممن يظُنُّ من البشر أنّهُ بالحيل يستطيع أنْ يأكل حقوق النساء، وهذا من بنود حقوق الإنسان.

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٢٩)

﴿وَلَنْ﴾: حرف نفي ﴿تَسْتَطِيعُوا﴾: تقدروا ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿تَعْدِلُوا﴾: في الجماع على الوجه الذي لا ميل فيه البتَّة، لما جُبلت عليه الطباعُ البشريةِ من ميلِ النفسِ إلى واحدةٍ دون تلك، لأنّهم لا يتحكمون في قلوبهم، ولا يستطيعون توقيف أنفسهم على التسوية؛ ليحققوا العدل في المحبّة، وميلِ القلب، والمؤانسةِ ﴿بَيْنَ النِّسَاءِ﴾: خطابٌ من الله ﷻ إلى الأزواج: لنْ تقدروا أنْ تساووا بينهن من جميع الوجوه، قد يحدث التقسيم الصوري؛ ليلةٌ هنا وليلةٌ هناك، ولكن يبقى التفاوت في المحبّة، والرغبة، وغيرها من العلاقات الخاصّة، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَيَعْدِلُ، ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ هَذَا فِعْلِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ[(٣)]، ويقصد القلب وما هوى ﴿وَلَوْ﴾: حرفٌ يفيد النفي هنا ﴿حَرَصْتُمْ﴾: حتى إذا اجتهدتم ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهى عن ﴿تَمِيلُوا كُلَّ﴾: عموم ﴿الْمَيْلِ﴾: إذا مالت قُلوبكم عن واحدةٍ إلى واحدةٍ أخرى، فلا مبالغة في الميل، على حساب الأخرى ﴿فَ﴾: بهذا السبب ﴿تَذَرُوهَا﴾: تتركوها ﴿كَ﴾: حال ومثل ﴿الْمُعَلَّقَةِ﴾: فتتركوها

---

(١) صحيح البخاري ٣/١٥٩(٢٥٩٣).

(٢) سنن أبي داود ٣/٥٠٥(٢١٧٨) قال الأرناؤوط: رجاله ثقات، لكن الصحيح عند الأئمة إرساله.

(٣) سنن ابن ماجه ت الأرناؤوط ٣/ ١٤٤(١٩٧١) قال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

مثل المُعلّقة بلا حقوق، لا هي زوجة، ولا هي مُطلّقة ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿تُصْلِحُوا﴾: تعيدوا العلاقات الطبيعية بعد المسامحة والغفران المتبادل ﴿وَتَتَّقُوا﴾: تضعوا تعاليم الله ﷻ في حسابكم ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد الجواب ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ﴾: ويبقى بلا انقطاع ﴿غَفُورًا﴾: مُسامحًا ﴿رَحِيمًا﴾: واسع الرحمة والعطف على عباده التائبين.

﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ (١٣٠)

وهذه هي الحالة الثالثة: حالة الطلاق ﴿وَإِنْ﴾: حرفُ شرط ﴿يَتَفَرَّقَا﴾: إذا حدث الطلاق، أو الخُلع ﴿يُغْنِ اللَّهُ﴾: إنّ الله ﷻ يُغني الزوج بما تقرُّ به عينه، وللمرأة يعطيها رجلًا تنعم بصحبته، ويغنيها عنه ﴿كُلًّا﴾: الطرفين وتفيد هنا الجميع، ويرزقها اللهُ ﷻ ﴿مِنْ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا جزءًا أو بعضًا ﴿سَعَتِهِ﴾: فضله، وغناه، ورزقه؛ فيُعَوّض كلّ واحدٍ منهما خيرًا من الأول ﴿وَكَانَ﴾: بلا انقطاع أو نهاية ﴿اللَّهُ وَاسِعًا﴾: واسع الفضل، عظيم الكرم ﴿حَكِيمًا﴾: في فعل وقول الصواب في كل أفعاله، وما قدّره وشرعه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ (١٣١)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿لِلَّهِ مَا﴾: الذي من غير العاقل ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾: وهي كلّ ما علا الأرض وأحاط بها ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: إنّ الله ﷻ مالك السموات والأرض، الحاكم فيهما حكم المالك ﴿وَلَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿وَصَّيْنَا﴾: أمرنا وعهدنا وجاءت بصيغة الجمع لعظمها وفضلها ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿أُوتُوا﴾: من الرجال والنساء، الذين نزل عليهم ﴿الْكِتَابَ﴾: المنزل من الله ﷻ، كالذي نزل على اليهود "التوراة"، والذي نزل على النصارى "الإنجيل" ﴿مِنْ﴾: حرف جرّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلِكُمْ﴾: قبل نزول القرآن الكريم عليكم يا أمّة محمّد ﷺ ﴿وَ﴾: أيضًا وصّى الله ﷻ، ووصيته ﷻ أمرٌ ﴿إِيَّاكُمْ﴾: وصيناكم أنتم ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾: جاء اللفظ القرآني "**التقوى**" على خمسة وجوه، جاءت هنا بمعنى التوحيد. راجع [البقرة-١٨٩] ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَكْفُرُوا﴾: إذا غطّيتم هذه الحقائق، وأنكرتموها ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿لِلَّهِ مَا﴾: له ﷻ كلّ ما في الكون ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَمَا﴾: الذي ﴿فِي الْأَرْضِ وَ﴾: عطفًا على هذه الحقائق ﴿كَانَ﴾: ﷻ بلا فناءٍ ولا انقطاع ﴿اللَّهُ غَنِيًّا﴾: لا يحتاج إلى أحدٍ؛ فإنّ الله ﷻ غنيٌّ عن عبادتكم وطاعتكم له ﴿حَمِيدًا﴾: محمودًا في كلّ ما قُدّر وشرّع.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (١٣٢)

﴿وَلِلَّهِ﴾: مالكُ كلِّ شيءٍ، القائم على كلّ نفسٍ بما كسبت، الرقيب الشهيد على كلِّ شيء ﴿مَا﴾: كلّ الأجرام والأقمار وما بينها من جنس غير العاقل ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾: هي كلّ ما علا الأرض، وأحاط بها ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ وكَفَى﴾: يكفي ويلبي كلّ الحاجات ﴿ب﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ وَكِيلًا﴾: متوليًا، متكفلًا تدبير شؤون الخلق، من موتٍ، وحياةٍ، وطعامٍ، ورزقٍ.

التكليف: كان تكرارُ ملكيةِ اللهِ ﷻ للسماوات والأرض ليفيد التأكيد؛ لينتبه العبادُ إلى سعة ملكه ﷻ، وينظروا في ذلك؛ وليعلموا أنه ﷻ غنيٌّ عن خلقه، وأنه ﷻ عليمٌ قادرٌ، وأنّ حقّهُ أنْ يُطاع فلا يُعصى.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآَخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ (١٣٣)

﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿يَشَأْ﴾: يُرد ويرغب ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾: يقضي عليكم ويأخذكم، ويمحوكم، ويزيلكم، ويُهلككم، ويُفنيكم بالموت ﴿أَيُّهَا﴾: حرف تواصل هنا بين المنادِي وهو الله ﷻ والمُنَادَى عليهم وهم ﴿النَّاسُ﴾: وهي تفيد عموم بني آدم، وخاصّة العصاة؛ فيذكّرهم بظاهرة الاستبدال، آية تعزز: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد–٣٨] ﴿وَيَأْتِ﴾: يخلق غيرهم ﴿بِ﴾: حرف باء السبب ﴿آَخَرِينَ﴾: أُممٍ أخرى ﴿وَكَانَ﴾: بلا زوال ﴿اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ﴾: هو كلُّ ما سبق ذكره من الأمور التي أخبر اللهُ ﷻ عنها ﴿قَدِيرًا﴾: قال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أطاعوا أمره، إنّما أمره في حرفين كنْ فيكون.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (١٣٤)

﴿مَنْ﴾: حرفٌ يُفيد العاقل من الخلق ﴿كَانَ يُرِيدُ﴾: من يطلب منكم أيّها النّاس من أمور الدنيا شيئًا، كالغنيمة للمجاهد، ﴿ثَوَابَ﴾: عطايا ﴿الدُّنْيَا﴾: ونعيمَها، وزخرفَها، وزينتهَا ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد السبب ﴿عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ﴾: أجرُ ﴿الدُّنْيَا﴾: الله ﷻ الذي يعطي هذه العطايا في الدنيا فلا تسألوا غيره ﴿وَ﴾: أيضًا عنده ثواب ﴿الْآَخِرَةِ﴾: عطايا وثواب ونعيم الآخرة فيحرزهما جميعًا؛ فهي عند الله ﷻ، بيده هذه وتلك ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال؛ ولكي يُعطي فلا بد أنْ يسمع من الطالبين مطلبهم ﴿كَانَ﴾: بلا انقطاع ﴿اللَّهُ سَمِيعًا﴾: يسمع كلَّ شيءٍ في الكون ﴿بَصِيرًا﴾: ويرى كلّ شيءٍ في ملكوته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٣٥)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع، وبخاصةٍ القضاة والأمراء، والحكّام، لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقامِ والمكانةِ بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾ اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: دعوةٌ للمؤمنين من الرجال والنساء ﴿كُونُوا﴾: يجب أنْ تكونوا ﴿قَوَّامِينَ﴾: قائمين ﴿بِ﴾: حرف الباء السبب ﴿الْقِسْطِ﴾: على تحقيق العدل، فلا تميلوا عنه يمنةً أو يسرةً، لا تخافوا غير الله ﷻ، لا يصرفكم عن العدل صارفٌ، متعاونين جميعًا؛ فالخطاب لعموم المؤمنين ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾: تُدلون بالشهادة؛ ابتغاء وجه الله ﷻ، عندها تكون شهادتكم صحيحةً عادلةً ﴿وَلَوْ﴾: بمعنى حتى ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾: حتى لو كان الضررُ والعقابُ سيقع على أنفسكم، فسوف يجعل اللهُ ﷻ لكم فرجًا ومخرجًا لمن أدلى بالشهادة؛ لرضا الله ﷻ ﴿أَوِ﴾: حرف عطف يفيد التسوية بين ﴿الْوَالِدَيْنِ﴾: الأب والأم ومن علاهم من الأجداد ﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾: أيضًا من أبناء العمومة والأخوال ومن مثلهم، ينهى الله ﷻ عن شهادة الزور، حتى إذا وقع ضررُها على الإنسانِ نفسه، أو على الأقارب ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿يَكُنْ غَنِيًّا﴾: لا تُراعي ولا تُحابي الغنيّ بسبب ثروته ﴿أَوْ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد التخيير ﴿فَقِيرًا﴾: ولا تشفق عليه لفقره ﴿فَ﴾: حرفٌ استئنائي للتعليل وربط جواب الشرط ﴿اللَّهُ أَوْلَى﴾: أحقّ ﴿بِهِمَا﴾: الله يتولى الغني والفقير منكم، وهو أعلمُ بما يستحقون، وأعلمُ بصلاح عباده ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿تَتَّبِعُوا الْهَوَى﴾: تسيروا بحسب رغباتكم وأهوائكم الشخصية ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿تَعْدِلُوا﴾: ينهي الله ﷻ عن العدول عن الحق بطاعةِ الرغبةِ الشخصيةِ، والقرابة العائلية، والعصبية القبلية، وكرّه النّاس بكم، ينهاكم الله ﷻ أنْ تكون شهادتكم متأثرة بكره هؤلاء؛ فتنحرفوا ولا تعدلوا كقضاة، أو لا تعدلوا كشهداء، على الجميع أنْ يلزم العدل ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَلْوُوا﴾: تقوموا بتحريف الشهادة ﴿أَوْ﴾: حرفُ عطف يُفيد التقسيم والتسوية بين متعاطفين ﴿تُعْرِضُوا﴾: تتركوا إقامتها فورًا، جاء في المعنى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ [البقرة-٢٨٣]، عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا»[1] ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿اللَّهَ كَانَ﴾: بلا زوال أو انقطاع ﴿بِمَا﴾: اسمٌ موصولٌ بمعنى الذي ﴿تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: يتوعد الله ﷻ الذين يكتمون الشهادة، أو يحرفونها، أو يكذبون فيها؛ بالعذاب؛ لأنّه ﷻ لا يحتاج إلى معرفة نياتهم؛ فهو خبيرٌ بها، عليمٌ؛ ويجازي على ذلك.

---

[1] صحيح مسلم /٣/١٣٤٤(١٧١٩).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١٣٦)

هذه الآية الكريمة تأمر المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان، وشُعبهِ، وأركانهِ، ودعائمهِ من باب: تكميل الكامل، وتقريره، وتثبيته، واستمراره، بالقول: ﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمة نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع الرجال والنساء مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: أمرٌ ربّانّي للمؤمنين ﴿آمِنُوا بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ﴾: يأمرهم ﷻ بالوصول إلى حالة التصديق الكامل، والاطمئنان أنّ الله ﷻ هو المستحق بالعبادة، وأنْ يؤمنوا ﴿وَرَسُولِهِ﴾: أيضًا آمنوا بصدق رسالةِ محمدٍ ﷺ ﴿وَالْكِتَابِ﴾: أيضًا يؤمنوا بالقرآن الكريم ﴿الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾: هو القرآن الكريم تحديدًا، وقال ﷻ ﴿نَزَّلَ﴾: ولم يقل أنزل؛ لأنّه نَزل مُفرّقًا بحسب الأحداث ﴿و﴾: أيضًا آمنوا بجنس الكتاب السماوي ﴿الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ﴾: ما سبق القرآن من الكتب السماوية ﴿قَبْلُ﴾: هو جنسُ الكتاب من الله ﷻ، الذي يشمل جميع الكتب المتقدمة في النزول، مثل التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وغيرهم من آل بيت الرسل عليهم السلام، فقد كان الكتابُ ينزل جملةً واحدةً ﴿وَمَنْ﴾: والذي من جنس العاقل ﴿يَكْفُرْ﴾: يُنكر ويُغطي ﴿بِاللَّهِ وَ﴾: أيضًا يُنكر ﴿مَلَائِكَتِهِ﴾: الذين جاء ذكرهم، ومن الذين لم يأت ذكرهم ﴿وَكُتُبِهِ﴾: ينكر جنس الكتاب السماوي؛ مثل التوراة، والإنجيل ﴿وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: يوم القيامة ﴿فَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿ضَلَّ﴾: تاه وزاغ ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾: يكون قد خرج عن طريق الهدى وتاه بعيدًا عن الصواب، وعن الصراط الذي جاء في سورة [الفاتحة–٦] ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي بصّرنا وزدنا هدى، وثبتنا عليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (١٣٧)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع الرجال والنساء، مَنْ ﴿آمَنُوا ثُمَّ﴾: تُفيد التتابع الزمني على التراخي ﴿كَفَرُوا﴾: الحديث عن شريحةٍ من المُذبذبين؛ الذين تكرر إيمانُهم وكفرُهم، ثم ماتوا وهم على الكفر ﴿ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ آمنوا ثم كفروا واستمروا على كفرهم ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾: استمروا في حياتهم الدنيا في المماطلة، وأوغلوا في فعل المُحرّمات، وتمادوا في كفرهم وثبتوا عليه، وأصرّوا عليه، حتى ماتوا ﴿لَمْ﴾: حرف نفي﴿ يَكُنِ اللَّهُ لِ﴾:

حرف علّةٍ وسببٍ ﴿يَغْفِرَ لَهُمْ﴾: لن يقبل الله ﷻ توبتهم، سيموتون على الكفر، وينالُهم عقابُ الكافرين ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿لِيَهْدِيَهُمْ﴾: يدلّهم ويرشدهم ﴿سَبِيلًا﴾: لا يُسهّل لهم سبيل التوبة؛ بعد أنْ قست قلوبُهم.

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣٨)

﴿بَشِّرِ﴾: أمرٌ من الله ﷻ لمحمدٍ ﷺ والبشرى هي الإخبار بما يَسرُّ، وهو هنا استهزاءٌ بهم، وتحقيرٌ لهم ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾: وإمعان في تعذيبهم، بشرِّ الذين أظهروا الإيمان، وهم كفّار، وينطبق هذا على أصحاب الآية السابقة، الذين آمنوا، ثم كفروا، وثبتوا على كفرهم؛ فطُبع على قلوبهم ﴿بِأَنَّ﴾: حرفُ تأكيدٍ ونفي الشك ﴿لَهُمْ﴾: سيكون نصيبُهم يوم القيامة؛ تخصيصًا ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾: مُوجعًا، أشدّ الوجع، هو وعدُ الله ﷻ للمنافقين، والكافرين يوم القيامة.

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (١٣٩)

تُكمل هذه الآية صفات المنافقين التي جاءت في الآية السابقة ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع الرجال والنساء منْ ﴿يَتَّخِذُونَ﴾: يوالون ويحبون ويتعاونون مع ﴿الْكَافِرِينَ﴾: على كفرهم وضلالهم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾: جعلوهم القريب، والنصير، والحبيب، ويوادون أنصارًا، وأعوانًا وخلّانًا؛ يُعطونهم العطايا؛ أو يأخذون منهم الهدايا ﴿مِنْ دُونِ﴾: غير ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: يقف المنافقون مع الكفّار، يُسرّون ويعلنون إليهم بالمودة وقد جاء في السياق: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة-١٤] ﴿أَ﴾: حرف الألف للاستفهام الاستنكاري ﴿يَبْتَغُونَ﴾: هل يطلبون، ينشدون، ويريدون منهم أنْ تكون لهم ﴿عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾: رفعةُ الشأن في الدنيا، القوةُ وجمعُ المال، والجاهُ، والسلطان، والمنعة، هذا لن يكون ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: لنْ يحصلوا على أيٍّ من أهدافهم الصغيرة، بينما العزّة للهِ ﷻ، ولرسوله، وللمؤمنين وجاء في المعنى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر-١٠] وقال ﷻ أيضًا: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون-٨].

التكليف: لاشكّ أنّ الأمّة العربية والإسلامية تعيش حالةً تنطبقُ عليها مصيبةُ موالاة الكافرين، وبخاصّة الفلسطينيون، الذين يُجاهدون من أجل إنهاء احتلال اليهود لأرضهم، ودعم الغرب المسيحي للاحتلال، ويطلبون القبول والاعتراف الدولي المنحاز للعدو، ويُحاربون، ويُحاصرون المسلمين، لصالح اليهود، وما أكثر هؤلاء في هذا الزمان؛ فموالاة الكافرين جعلتهم يقولون عن التجسس مُقدسًا، وجعلت بعضَهم يدفعون إليهم ثروات شعوبهم؛ ليرضوا عنهم.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (١٤٠)

﴿وَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿نَزَّلَ﴾: جاء من أعلى ﴿عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾: جاءتكم آيات القرآن الكريم من عند الله ﷻ ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿إِذَا﴾: حرفُ ظرفٍ لما يُستقبل من الزمان، يفيد معنى الشرط وهي أداةُ ربطٍ بين ما بعدها بما قبلها ﴿سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا﴾: إذا كان في مجالسكم من النّاس من يكفر بآيات الله ﷻ ﴿وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾: يسخر منها ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يفيد طلب عدم الفعل، هنا نهي عن ﴿تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾: كان جماعةٌ من الداخلين الجدد في الإسلام يقعدون مع المنافقين، والكافرين، واليهود وهم يستهزئون ويسخرون من المسلمين والقرآن الكريم، فحرّم الله ﷻ هذا تحريمًا واضحًا؛ إذا سمع المؤمنُ منهم استهزاءهم بآيات الله ﷻ، أو تحريفها عن عمدٍ؛ أو إخفاء معانيها، أو والإعلان بعدم الإيمان بها، أو الحكم لمنْ يخالف الأمر الربانيّ ﴿حَتَّى﴾: حرفُ جرٍّ يدلُّ على انتهاء الغايةِ الشرطية، أي إلّا بشرط أنْ ﴿يَخُوضُوا﴾: يتحدثوا بعمقٍ وكثرةٍ ﴿فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾: وإذ لم تفعلوا ﴿إِنَّكُمْ﴾: بالتأكيد ﴿إِذًا﴾: حرفُ جواب وجزاء ﴿مِثْلُهُمْ﴾: ليس المقصود جلوس نقاش ودفاع عن الدين ضدّهم، ولكن إذا أقررتم بالجلوس معهم على ما يقولون؛ فإنّكم مثلهم شركاء في الإثم، قال ﷺ: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلَا يَدْخُلِ الحَمَّامَ بِغَيْرِ إِزَارٍ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلَا يُدْخِلْ حَلِيلَتَهُ الحَمَّامَ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلَا يَجْلِسْ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا بِالْخَمْرِ[1] ﴿إِنَّ﴾: حرفٌ للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿اللَّهَ جَامِعُ﴾: حاشرُ ﴿الْمُنَافِقِينَ وَ﴾: أيضًا حاشرُ ﴿الْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾: سيجمع اللهُ ﷻ الكفّار، والمنافقين في نار جهنّم جميعًا، فكما اشتركوا في الدنيا في الكفر؛ سيشاركونهم في نار جهنّم أبدًا، هم شركاؤهم في النكال، وشراب الحميم، والغسلين.

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (١٤١)

﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾: من الربص، وتعني الانتظار لأمرٍ يُنتظر زوالهُ أو حصولُه، ما يتجددُ ويحدثُ من خيرٍ أو شرّ ﴿بِكُمْ﴾: ينتظرون بفارغ الصبر،

[1] سنن الترمذي /٥/١١٣(٢٨٠١). وقال: حسن غريب.

كيف ومتى سينتصر الكفّار على المؤمنين، ومتى ستدور دائرة السوء على المسلمين ﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿كَانَ لَكُمْ﴾: تخصيصًا وتمليكًا ﴿فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾: جاء اللفظ القرآني (فتح) على أربعة، وجوه، هنا بمعنى النصر في قوله ﷻ ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة–٥٢]، وبمعنى القضاء في قوله ﷻ ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ–٢٦]، وبمعنى الإرسال في قوله ﷻ ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر–٢]، وبمعنى الفتح بعينه في قوله ﷻ ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر–٧٣]، إذا انتصرتم أيّها المؤمنون، وظفرتم، وغنمتم ﴿قَالُوا﴾: والقائل هم المنافقون ﴿أَلَمْ﴾: أداةُ استفهامٍ تُفيد الاستنكار ﴿نَكُنْ مَعَكُمْ﴾: لقد كنّا معكم؛ أي يتوددون إلى المؤمنين ﴿وَإِنْ﴾: أداة شرط ﴿كَانَ لِ﴾: حرف لام التخصيص ﴿لْكَافِرِينَ﴾: الذين غطّوا براهين الإيمان ﴿نَصِيبٌ﴾: إذا انتصر الكفّار على المسلمين، كيومِ أُحدٍ ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾: نبيّن لكم أنّنا على ما أنتم عليه، ولكنّا كنّا نخادع المسلمين؛ لنثبطهم عنكم، وأبقينا عليكم، نتولى شؤونكم، ونحيطُ بكم، لحمايتكم، وننصرُكم ونحفظُكم من المؤمنين ﴿وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ﴾: بعض أو جزء ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: تحدث المنافقون إلى الكفّار الذين كسبوا جولةً، قالوا ألم نساعدكم في الباطن، ألم نخذّل عنكم المسلمين، ألم نتولى أمركم، ونصرناكم، وحميناكم، حتى انتصرتم عليهم ﴿فَ﴾: حرف يفيد الاستئناف ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: سيقضي الله ﷻ بحكمه بناءً على علمه التام؛ على المنافقين، لنْ تنفعهم يوم القيامة ما تظاهروا في الدنيا، من دخول المساجد، أو التصدق بالمال، وغيره ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿لَنْ﴾: حرفُ نفي ﴿يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: في الدنيا، فالعاقبة للمتقين، وقال عليّ ؑ: في يوم القيامة ﴿سَبِيلًا﴾: حُجّة، أو تسلُط أو سلطان عليهم، فيستأصلوهم بالكليّة، قد يظفروا بمعركة؛ لكن العاقبة للمتقين.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٤٢)

﴿إِنَّ﴾: حرفٌ للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾: الذين يُبطنون الكفر ويُظهرون الإيمان ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾: هنا عودٌ على أسلوب المنافقين الذين كانت سورة البقرة قد قُدّمت لهم بالقول: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة–٩]، لقلّة عقل المنافقين يظنون بإظهار الإسلام أنّهم

يخدعون الله ﷻ، وهو الذي يعلم السرائر والضمائر ﴿وَهُوَ﴾: ﷻ ﴿خَادِعُهُمْ﴾: يستدرجهم في طغيانهم، وضلالهم؛ يتيهون عن الحق، فيدخلهم جهنّم، وعندما عصم دماءهم، ظنّوا أنّه لا يعرف أسرارهم ﴿وَإِذَا﴾: أداةُ ربطٍ بين ما بعدها، بما قبلها ﴿قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ﴾: وهذه من صفات المنافقين، قد يؤدون الصلاة، وبعض المناسك، ليُقال عنهم أنّهم مسلمون ﴿قَامُوا كُسَالَى﴾: يتعاملون، مع أشرف العبادات، بالتباطؤ، والتكاسل؛ لأنّ النيّة غير صادقة، لا إيمان فيها، ولا خشية تدفع إليها، ولا يعرفون فضلها، والكسل هو التثاقل عمّا لا ينبغي عنه، ولأجل ذلك صار الكسل مذمومًا ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾: حتى يراهم النّاس يُصلّون؛ لكنهم لا إخلاص فيهم ولا صلة لهم مع الله ﷻ، وتكشف ساعات الليل نفاقهم، فيتخلفون عن صلاة العتمة العشاء، وعن صلاة الصبح، وقت النوم،، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ، وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلَاةِ، فَتُقَامَ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِي بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ، فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ[1]، وفي حديث آخر عن عبد الله بن مسعود قال: مَنْ صَلَّى صَلَاةً وَالنَّاسُ يَرَوْنَهُ فَلْيُصَلِّ إِذَا خَلَا مِثْلَهَا، وَإِلَّا فَإِنَّمَا هِيَ اسْتِهَانَةٌ يَسْتَهِينُ بِهَا رَبَّهُ[2]، ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿قَلِيلًا﴾: جاء لفظُ قليلٍ على سبعةِ أوجهٍ؛ هنا بمعنى الرياء، والسمعة، وكذلك في قوله ﷻ ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب-١٨]؛ انظر [البقرة-٧٩]، وإنّهم لا يعون، ولا يُدركون في الصلاة ما يقولون؛ فهم ساهون.

﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣)﴾

﴿مُذَبْذَبِينَ﴾: مُحتارين بين الإيمان والكفر، فظواهرهم مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر اللهُ ﷻ عنها ﴿لَا﴾: حرف نفي ﴿إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾: قال مجاهد: هؤلاء الأولى: هم أصحاب محمد ﷺ ﴿وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾: الثانية: هم اليهود، وقال ابن جرير؛ عن مجاهد: ليسوا بمؤمنين مُخلصين، ولا مُشركين مُصرّحين بالشرك ﴿وَمَن﴾: حرف استفهام عن العاقل بمعنى الذي ﴿يُضْلِلِ اللَّهُ﴾: من كتب اللهُ ﷻ عليه الخذلان يمنعه التوفيق بسبب الابتعاد عن الدين ﴿فَ﴾: حرفٌ يفيد ربط جواب الشرط ﴿لَن﴾: حرف نفي ﴿تَجِدَ لَهُ﴾:

---

(١) صحيح مسلم /١/٤٥١(٦٥١).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة /٢/٢٢٧(٨٤٠٤). والحديث روي مرفوعًا وموقوفًا بألفاظ متقاربة بأسانيد عن عبد الله بن مسعود ﷺ. قال ابن حجر في المطالب العالية /١٣/٤٢٨ وروي عن عبد الله ﷺ موقوفًا، وهو أشبه، كما قال المنذري في الترغيب (١/ ٦٧). وقال: هذا إسناد حسن لغيره.

تخصيصًا ﴿سَبِيلًا﴾: طريقًا يُوصلهُ للحق والصواب، ومما جاء في وصفهم أيضًا: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف–١٨٦].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (١٤٤)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات، البعيد والقريب ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يُفيد هنا جميع الرجال والنساء، مَن ﴿آَمَنُوا﴾: ومضمون النداء ﴿لَا﴾: حرف نهي وتحريم ﴿تَتَّخِذُوا﴾: تعتمدوا وترضوا ﴿الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾: لا تعتمدونهم أصحابًا، أو أصدقاءَ، أو ناصحين، أو كاتمي أسراركم، جاء أيضًا: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران–٢٨] ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية، وهم بعض أو جزء ﴿دُونِ﴾: غير إخوانكم ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: أصحاب الإيمان الصادق، بعكس ما فعل المنافقون ﴿أَ﴾: حرف استفهام بغرض إنكار الفعل ﴿تُرِيدُونَ﴾: هل ترغبون حقًّا؟ ﴿أَنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿تَجْعَلُوا لِ﴾: حرف علّةٍ وسببٍ ﴿اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: أنْ يُسجّل اللهُ ﷻ في صحفكم غضبًا عليكم يوم القيامة ﴿سُلْطَانًا﴾: حُجّة عليكم، ودليلًا تُعاقبون عليه ﴿مُبِينًا﴾: واضحًا، ظاهرًا.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (١٤٥)

﴿إِنَّ﴾: حرفٌ للتأكيد ونفي الشكِّ والإنكار ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾: الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر ﴿فِي الدَّرْكِ﴾: هو أسفل، وأعمق مكان، والدرك كالدرج لكن الدرج تُحتسب بالصعود والدرك بالهبوط، وقيل درجات الجنة، ودركات النّار ﴿الْأَسْفَلِ﴾: المكان الذي في قعر جهنّم، المُقام هنا نارُ يوم القيامة، في أسفل النّار، هم في قعر النّار، قيل إنّ الجنّة درجات، وقيل إنّ النّار دركات، وقال سفيان الثوري: في توابيت؛ تُرتج عليهم، وقال أبو هريرة: بيوتٍ تُطبق عليهم، فتوقد من تحتهم، ومن فوقهم ﴿مِنَ﴾: جزء أو بعض ﴿النَّارِ﴾: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَسْفَلَ النَّارِ، ﴿نَفَقًا﴾ [الأنعام–٣٥]: سَرَبًا[1]، وقال ابن جرير عن ابن مسعود: توابيتُ من نارٍ تُغلق عليهم مُقفلة ﴿وَلَنْ﴾: نافيةٌ قاطعةٌ ﴿تَجِدَ لَهُمْ﴾: تحديدًا وتخصيصًا ﴿نَصِيرًا﴾: لا أحد يُنقذهم من العذاب.

[1] صحيح البخاري ٦/ ٤٩ معلقًا.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٤٦)

﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ عن هذا المشهد الرهيب ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿تَابُوا﴾: من المنافقين الذين أقلعوا في الحياة الدنيا عن النفاق، وعن الكفر؛ بيقينٍ وثباتٍ ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال؛ أيضًا ﴿أَصْلَحُوا﴾: أي أصلحوا باطنهم ونياتهم ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾: أيضًا التجأوا إليه في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾: أيضاً قاموا بتنقية نياتهم من النفاق، وأصلحوا ما بينهم وبين الله ﷻ، وتمسكوا بعهدهم معه، ﴿فَـ﴾: حرفٌ يفيد السبب ﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للقريب والبعيد ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: هم في زمرةِ الذين آمنوا يوم القيامة ﴿وَسَوْفَ﴾: تفيد وعدًا بعملٍ في المستقبل ﴿يُؤْتِ﴾: يُعطي ﴿اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ﴾: يعطيهم ويثيبهم ﴿أَجْرًا﴾: ثوابًا ﴿عَظِيمًا﴾: ليس هناك أعظمُ من الجنّة.

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (١٤٧)

﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿يَفْعَلُ اللَّهُ﴾: ماذا سيزيد الله ﷻ من غناه عمّنْ سواه، من سيزيد الله ﷻ في مُلكه، ما حاجة الله ﷻ ﴿بِـ﴾: حرف باء الالتصاق ﴿عَذَابِكُمْ﴾: في تعذيبكم، إنّ عذابكم لنْ يزيد في ملكه وعظمته ﷻ شيئًا ﴿إِنْ﴾: بمعنى إذا ﴿شَكَرْتُمْ﴾: حمدتم الله ﷻ ﴿وَآمَنْتُمْ﴾: أيضًا أصلحتم العمل، وآمنتم بالله ﷻ، هذا أيضًا لا يزيد في ملكه شيئًا ﴿وَكَانَ﴾: وسيبقى أبديًا أزليًا ﴿اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾: من شكر؛ شكر الله له، ومن آمن يُعلّمه الله، ويجزيه خير الجزاء؛ لأنّه يعلم ما في الصدور، لنْ يزيد إيمانُ مؤمنٍ في ملك الله ﷻ، ولن يُنقص كافرٌ أو منافقٌ من ملكه ﷻ.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (١٤٨)

﴿لَا﴾: حرفُ نفي ﴿يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ﴾: التصريح، والقول العلني ﴿بِـ﴾: حرف باء السببية ﴿السُّوءِ﴾: الذي يُسبب شرًّا وضررًا ﴿مِنَ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد بعض أو جزء ﴿الْقَوْلِ﴾: القول الفحش مثل الشتم، والسب بالصفات السيئة في الآخرين ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء ﴿مَنْ﴾: الذي من جنس العاقل ﴿ظُلِمَ﴾: قال ابن عباس: لا يدعو إنسانٌ على آخرَ إلّا إذا كان مظلومًا، وقال الحسن البصري: لا يدعو عليه، وليقل اللهم أعني عليه، واستخرج حقّي منه، وقيل: الرجلُ يشتمك ولا تشتمه، وإذا افترى عليك فلا تفتري عليه؛ وقيل إنْ يُؤذي الرجلُ جاره، فيقول للنّاس إنّ جاري يؤذيني، قال الله ﷻ في المعنى: ﴿**وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ**﴾ [الشورى-٤١]، قال مجاهد: هو الرجلُ ينزل بالرجل؛ فلا يُحسن ضيافته؛ فيخرج فيقول

أساء ضيافتي؛ ولم يحسن ﴿وَكَانَ﴾: وسيبقى بلا انقطاع ﴿اللَّهُ سَمِيعًا﴾: يسمعُ كلَّ شيءٍ من كلِّ خلقه ﴿عَلِيمًا﴾: يعلم كلّ شيءٍ عن كلّ شيءٍ، من هنا ندرك وجوب حسن الضيافة، وهذه الأوامر الربّانيّة من عناصر أدبِ المُخاطبة، وهي من عناصر حقوق الإنسان في العصر الحديث.

﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (١٤٩)

﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿تُبْدُوا﴾: تُظهروا ﴿خَيْرًا﴾: ما ينفع النّاس دونَ رياء ﴿أَو﴾: حرفُ عطفٍ يساوي في الحكم بين متعاطفين ﴿تُخْفُوهُ﴾: أي لا تُظهروه للنّاس ﴿أَوْ تَعْفُوا﴾: هنا مفاضلة بين تبدوا، وتغفروا وتسامحوا ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍّ يُفيد المجاوزة ﴿سُوءٍ﴾: عن إساءات الآخرين إليكم ﴿فَإِنَّ﴾: حرفٌ يفيد التأكيد على الفعل ﴿اللَّهَ كَانَ﴾: ويبقى بلا انقطاع ﴿عَفُوًّا﴾: مسامحًا ﴿قَدِيرًا﴾: قادرًا بصورةٍ كبيرةٍ على الانتقام بما كسبت أيديهم، إنّ ذلك ما يُقرّبكم إلى الله ﷻ؛ فيجزلَ لكم الثواب، فمن صفاته العفو، وهو القادرُ على عقابكم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١٥٠)

﴿إِنَّ﴾: حرفٌ للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿يَكْفُرُونَ﴾: الرجال والنساء يُنكرون، ويكتُمون حقيقة ﴿بِ﴾: حرف باء المصاحبة ﴿اللَّهِ وَ﴾: أيضًا يكفرون وينكرون ﴿رُسُلِهِ﴾: هم اليهود، والنصارى، والشيوعيين، والعلمانيين، والملحدون ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿يُرِيدُونَ أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يُفَرِّقُوا بَيْنَ﴾: يفصلون تعاليم الله ﷻ عمّا وصلهم من ﴿اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾: يؤمنون ببعض الرسل، ويكفرون بغيرهم؛ بسبب الشهوة، والعادةِ الموروثةِ عن الآباء؛ بلا دليلٍ؛ وبسببِ العصبية ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِ﴾: حرف باء التعددية ﴿بَعْضٍ﴾: جزء ﴿وَنَكْفُرُ﴾: أيضًا نُنكر ونُغطي ﴿بِبَعْضٍ﴾: لقد آمن اليهود بالرسل، إلّا عيسى، ومحمدٍ عليهما السلام، وآمن النصارى بالأنبياء، وكفروا بمحمدٍ ﷺ خاتم الأنبياء والرسل أجمعين ﴿وَيُرِيدُونَ﴾: إنّ هدفهم ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا﴾: يعتمدوا منهجًا ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر اللهُ ﷻ عنها ﴿سَبِيلًا﴾: طريقًا، مسلكًا، بين الكفر والإيمان، مسك العصا من المنتصف؛ علّ ذلك يُنجّيهم.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (١٥١)

﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للقريب والبعيد ﴿هُمُ﴾: حرف تخصيصٍ، وتحديدٍ، وتأكيدٍ، تشمل الجمع المذكر والمؤنث الغائب ﴿الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾: يشهد اللهُ ﷻ على من جاء وصفهم في الآية

السابقة؛ بكفرهم حقًّا، وصدقًا؛ لأنّهم لا يؤمنون برسولٍ حقًّا، ولو أنّهم آمنوا بالنبي الذي قبله؛ لآمنوا بنظيره، وبمن هو أوضح دليلًا، وأقوى بُرهانًا ببيانِ الحُجّة ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿أَعْتَدْنَا﴾: يقول الله ﷻ جهّزنا، وأعددنا ﴿لِ﴾: حرفٌ يُفيد التخصيص ﴿الْكَافِرِينَ﴾: وصفهم اللهُ ﷻ بالكفر؛ لأسباب: لم يدرسوا ما جاء به الرسول ﷺ من العلم من الله ﷻ، وتركوا الرسول ﷺ وذهبوا إلى حُطام الدنيا، وكفروا بعد علمهم، وبعد تأكدهم من نبوته، كما فعل اليهود مع محمد ﷺ؛ إذ حسدوه على ما آتاه الله ﷻ من النبوّة العظيمة؛ فخالفوه، وكذّبوه، وقاتلوه ﴿عَذَابًا مُهِينًا﴾: سلّط اللهُ ﷻ عليهم ذلّ الدنيا، وذلّ الآخرة، وقد قال ﷻ في المعنى: ﴿**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ**﴾ [البقرة-٦١].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٥٢)

﴿وَالَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَن ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ﴾: رجالًا ونساءً هذه شهادةُ الله ﷻ في المؤمنين حقًّا ﴿وَ﴾: أيضًا آمنوا ب ﴿رُسُلِهِ﴾: أيضًا ﴿وَلَمْ﴾: أيضًا حرف نفي ﴿يُفَرِّقُوا﴾: يميزوا ﴿بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾: المقصود الذين آمنوا بالرسول محمد ﷺ؛ يؤمنون أيضًا بكلّ كتاب، وبكلِّ نبيّ بعثهُ اللهُ ﷻ، هذه الآية تعني: أنّهم بمجرد إيمانهم بخاتم الرسل؛ تركوا ما قبله، وأصبحوا مسلمين، قال ﷻ: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ [البقرة-٢٨٥] ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارةً للقريب والبعيد ﴿سَوْفَ﴾: كلمةٌ تُفيد وعدًا في المستقبل، يعدهم اللهُ ﷻ في المستقبل أنْ ﴿يُؤْتِيهِمْ﴾: يُعطيهم ﴿أُجُورَهُمْ﴾: الثواب الجزيل، والعطاء الجميل؛ أجر إيمانهم، وثواب اعتقادهم ﴿وَكَانَ﴾: ويبقى بلا انقطاع ﴿اللَّهُ غَفُورًا﴾: مُسامحًا مُتجاوزًا عن الخطايا ﴿رَحِيمًا﴾: سيبقى الله ﷻ أبدًا يغفر لهم ما أذنبوا إنْ كان لبعضهم ذنوب؛ مغفرة واسعة، وعفوًا شاملًا.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (١٥٣)

﴿يَسْأَلُكَ﴾: يستفسر ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾: سأل اليهود الرسول ﷺ ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾: كتابًا من الله ﷻ، دفعةً واحدة، كما كان يُنزّل على رسلِ اللهِ ﷻ من قبل، قال ابن جريج: سألوا رسول الله ﷺ أنْ يُنزّل عليهم صُحفًا من الله ﷻ مكتوبةً إلى

فلانٍ، وفلانةٍ، مُصدقةً لما نزل عليه ﴿فَقَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ﴾: جزء أو بعض ﴿ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر اللهُ ﷻ عنها، قد سألوا موسى عليه السلام من قبل أكثر مما سألوك ﴿فَ﴾: حرفٌ استئنائي يفيد هنا جوابًا ﴿قَالُوا أَرِنَا﴾: دعنا نشاهد ﴿اللَّهَ جَهْرَةً﴾: طلبوا؛ تعجيزًا، أنْ يروا اللهَ ﷻ عيانًا ﴿فَ﴾: حرف يفيد هنا التتابع السريع ﴿أَخَذَتْهُمُ﴾: نزلت عليهم فورًا ﴿الصَّاعِقَةُ﴾: نارٌ أو صيحةٌ من السماء؛ تنتج من شحناتٍ كهربائيةٍ شديدةِ القوةِ، تنتج من الرعد والبرق؛ فأخذتهم صرعى وقتلى ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿ظُلْمِهِمْ﴾: بسبب سؤالهم الذي ظلموا به أنفسهم؛ بطلبٍ من الله ﷻ أنْ يروه ﷻ جهارًا، ثم أحياهم الله ﷻ ﴿ثُمَّ﴾: تفيد التتابع مع التباعد الزمني ﴿اتَّخَذُوا﴾: اعتمدوا ﴿الْعِجْلَ﴾: عبدوا العجل من دون الله ﷻ ﴿مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾: بعدما شاهدوا الآيات الباهرة، والأدلّة القاطعة، على يد موسى عليه السلام في بلاد مصر، ومنها العصا، وفلق البحر، وهلاك فرعون، وهلاك جميع جنوده ﴿فَعَفَوْنَا﴾: سامحنا ﴿عَنْ﴾: حرفٌ يُفيد السبب، تجاوز الله ﷻ عن سيئاتهم؛ ﴿ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ، بعدما عاد موسى عليه السلام من لقاء ربّه في الطور، ووجدهم قد عبدوا العجل، فأمرهم بقتل أنفسهم، ثم أحياهم الله ﷻ ﴿وَآتَيْنَا﴾: وهبنا ﴿مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾: جاء اللفظ القرآني (سلطان) على وجهين، هنا بمعنى الحُجّة البالغة، وجاءت في قوله ﷻ ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ [الصافات–٣٠] بمعنى المُلك القاهر.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (١٥٤)

﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال، يجمع بين شيئين متعاطفين، فبعد أنْ امتنعوا عن قبول شريعة موسى عليه السلام ﴿رَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾: عندما امتنع اليهود عن الالتزام بأحكام التوراة، ورفضوا ما طلبه موسى عليه السلام منهم؛ رفع اللهُ ﷻ عليهم الجبل، حتى كان فوق رؤوسهم مثل المظلّة، ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿مِيثَاقِهِمْ﴾: وهو العهد المؤكد الذي التزموا به مع موسى عليه السلام عندما طبقوه؛ وسجدوا، وأخذوا ينظرون لأعلى؛ خوفًا أنْ يسقط عليهم؛ وجاء في المعنى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف–١٧١] ﴿وَقُلْنَا﴾: جاءت بصيغة الجمع لعظم القول ﴿لَهُمُ﴾: تخصيصًا ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾: أمرهم اللهُ ﷻ أنْ يدخلوا من باب مدينة بيت المقدس، ساجدين، بانحناء

الرؤوس، وقال ﷻ لهم: قولوا حطةٌ أي اللّهم حطّ عنّا ذنوبنا؛ بسبب تركنا الجهاد، ورفضنا له أربعين سنة، في التيه، لكنّهم رفضوا السجود، ودخلوا يزحفون على أدبارهم، وهم يقولون حنطة في شعرة ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾: أمرناهم ﴿لَا﴾: حرف نهي يُحرّم عليهم ﴿تَعْدُوا﴾: تعتدوا بصيد الحيتان ﴿فِي السَّبْتِ﴾: قضية صيد الحيتان السمك يوم السبت وقضية التحايل في وضع الشباك يوم الجمعة ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ﴾: وقد أعطوا الله ﷻ ﴿مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾: عهدًا شديدًا، فخالفوا؛ وعصوا؛ وتحايلوا لارتكاب جرائم حُرّمت.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥٥)

﴿فَبِمَا﴾: بسبب الذي فعلوه وهو ﴿نَقْضِهِمْ﴾: إلغاء ومخالفة ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾: بسبب الجرائم والذنوب التي اقترفها اليهود، ونقض المواثيق والعهود التي أُخذت عليهم؛ مما أوجب لعنهم، وطردهم، وإبعادهم عن الدين الصحيح ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا أيضًا وبسبب ﴿كُفْرِهِمْ﴾: إنكارهم وتغطيتهم الحقيقة ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾: تغطيتهم وكتمانهم الحُجج، والبراهين، والمُعجزات التي شهدوها على أيدي أنبيائهم ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِ﴾: حرف باء المصاحبة والصلة ﴿غَيْرِ﴾: حرف استثناء بمعنى إلّا ﴿حَقٍّ﴾: وبسبب تجرئهم على أنبيائهم، فقد قتلوا أكثر من نصفهم، حوالي (٦٢ ألف) نبي ورسول ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾: أي مُغطاةٌ بأغشيةٍ جامدةٍ؛ لا تعي ما تقول، وإنّ كلماتك لا تصل إلى قلوبنا: كما قال الكفّار: **﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾** [فصلت – ٥] ﴿بَلْ﴾: حرف ينفي ما قبله؛ ويؤكد ما بعده ﴿طَبَعَ﴾: ختم عليها؛ فحجبها عن العلم والمعرفة ﴿اللَّهُ عَلَيْهَا بِ﴾: حرفُ باء السببية ﴿كُفْرِهِمْ﴾: ختم الله ﷻ على قلوبهم، فلا يصل إليها خيرٌ؛ فهي لا تفهم، ولا تعي ما تسمع؛ والنتيجة ﴿فَلَا﴾: حرفُ تخصيصٍ ونهيٍ يُفيد عدم الفعل، هنا نفي عن ﴿يُؤْمِنُونَ إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿قَلِيلًا﴾: وفي القلة الباقية منهم، عددٌ قليلٌ من الإيمان في عددٍ قليلٍ من المؤمنين.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ (١٥٦)

﴿وَ﴾: أيضًا ﴿بِ﴾: حرفُ باء السبب ﴿كُفْرِهِمْ﴾: عدم الإيمان بعيسى عليه السلام، وبسبب تغطية، وإخفاء حقيقة الإيمان، ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾: ادعائهم ﴿عَلَى مَرْيَمَ﴾: ابنة عمران ﴿بُهْتَانًا﴾: قال ابن عباس: رموها بالزنا الفاحش؛ زُورًا، وكذبًا ﴿عَظِيمًا﴾: وقال السدي: رموها وابنها بعظائم الكذب، فجعلوها زانيةً، وزادوا على ذلك أنّها زنت وهي حائض.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (١٥٧)

﴿وَ﴾: حرفٌ يجمع هنا بين شيئين متعاطفين، الأول هو اتهامهم لمريم، والثاني ﴿قَوْلِهِمْ﴾: لم يكتف اليهود باتهام مريم عليها السلام، بل ادعوا وقالوا ﴿إِنَّا﴾: ضميرٌ للجمع الحاضر المتكلم، وهم اليهود جاءت بصيغة الجمع؛ لتعظيم وتأكيد الفعل ﴿قَتَلْنَا﴾: أنهينا حياة ﴿الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾: يُفاخرُ اليهودُ كذبًا بأنّهم قتلوا النبي عيسى ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾: قالوا هو الذي يدّعي لنفسه هذه المنزلة من باب الاستهزاء والتهكم، كقول المشركين من بعدهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر-٦]، كيف تعامل اليهودُ مع عيسى عليه السلام؟ ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿قَتَلُوهُ﴾: ما أنهوا حياته ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾: علّقوه على الصليب، وهي من وسائل التعذيب والقتل ﴿وَلَكِنْ﴾: حرفُ استدراكٍ ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾: وضع اللهُ سبحانه وتعالى أوصاف سيدنا عيسى عليه السلام على رئيس المعادين الذي جاء ليقبض عليه ويقتله؛ فقتلوا كبير المجرمين ظنًّا منهم أنّه عيسى عليه السلام، ألقى الله سبحانه وتعالى على المقتول شبه عيسى عليه السلام، بعدما شاهدوا دلائل النبوة والمعجزات الباهرة، فهو عليه السلام يُبرئ الأكمه، والأبرص، وهو فقدان الجلد للّون الطبيعي، ويحيي الموتى؛ بإذن الله سبحانه وتعالى، ويصوّر لهم من الطين طائرًا؛ وينفخ فيه؛ فيكون طيرًا بإذن الله سبحانه وتعالى، وغيرها؛ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: لَمَّا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَ عيسى عليه السلام، إِلَى السَّمَاءِ، خَرَجَ إِلَى أَصْحَابِهِ - وَهُمُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا - مِنْ غَيْرِ الْبَيْتِ، وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً، فَقَالَ لَهُمْ: أَمَا إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ سَيَكْفُرُ بِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِي، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ سَيُلْقَى عَلَيْهِ شَبَهِي فَيُقْتَلُ مَكَانِي، وَيَكُونُ مَعِي فِي دَرَجَتِي؟، فَقَامَ شَابٌّ مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا، فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ عِيسَى: اجْلِسْ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ، فَقَامَ الشَّابُّ فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ: نَعَمْ، أَنْتَ ذَاكَ، قَالَ: فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شَبَهُ عِيسَى، قَالَ: وَرُفِعَ عيسى عليه السلام إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ: وَجَاءَ الطَّلَبُ مِنَ الْيَهُودِ، فَأَخَذُوا الشَّبِيهَ فَقَتَلُوهُ , ثُمَّ صَلَبُوهُ[1]، وقد جاء: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران-٥٥]، ﴿وَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع الرجال والنساء، مَنْ ﴿اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾: في مصير عيسى عليه السلام ﴿لَ﴾: حرف لام التخصيص ﴿فِي شَكٍّ مِنْهُ﴾: الذين ادعوا قتله من اليهود ومن سلّمه إليهم من جهال النصارى، كلّهم في شكٍ، وحيرةٍ، وضلالٍ، فعندما دخل جواسيس اليهود المكان كانوا يعرفون عدد أصحاب عيسى، فلما دخلوا؛ وجدوا عددهم أقل مما يعرفون، فاختلط الأمر

---

[1] السنن الكبرى ٢٩٩/١٠ (١١٥٢٧).

عليهم ولم يتيقن الجميع من قتله ﴿مَا﴾: حرف نفي ﴿لَهُمْ﴾: حرف تخصيص ﴿بِهِ﴾: بعيسى ﷺ، ومصيره ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية، كجزءٍ أو بعضِ ﴿عِلْمٍ إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع ﴿اتِّبَاعَ﴾: اعتماد وانقياد ﴿الظَّنِّ﴾: ليسوا متيقنين؛ كانوا في شكٍ وظنٍ وحيرةٍ، وإنّ الظنّ لا يُغني من الحق شيئًا ﴿وَمَا﴾: حرف نفي ﴿قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾: لم يتمكنوا من قتله قطعًا، وظلّوا يتوهمون.

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٥٨)

﴿بَلْ﴾: حرف ينفي ما قبله؛ ويؤكد ما بعده ﴿رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾: إلى السماء بجسده وروحه؛ من غيرِ موتٍ، وبذلك عصمهُ من أنْ يقتلهُ الكُفار، هذا هو الصدق، أخرج الله ﷻ عيسى ﷺ من السطح؛ بقدرته، ورفعتهُ الملائكةُ إلى السماء بجسمه، وروحه ﴿وَكَانَ﴾: بلا انقطاع أو امتناع ولا نهاية ﴿اللَّهُ عَزِيزًا﴾: إنّ الله ﷻ منيع الجناب لا يُرام جنابة، ولا يُضامُ من لاذ بحماه، والتجأ إلى جنابه ﷻ ﴿حَكِيمًا﴾: يفعل الصواب في جميع ما يقدّره، لا يغالبه أحدٌ، وله الحكمة البالغة، والحُجّة الدامغة، والسلطان العظيم فلا تفلح معه حيلُ اليهود، ولا كيدُ المخلوقات، لقد أراد اللهُ ﷻ أن يُنجّي عيسى ﷺ؛ فنجّاه بما لم يخطر ببال أحد.

التكليف: وهذا يعني أنّهُ لا يموتُ يهودي أو نصرانيٌّ إلّا وقد آمن بعيسى المسيح، وأنّه لا يموت عيسى حتى يؤمن به كلُّ كتابيٍّ في عصرهِ، وأنّه سيكونُ الإيمان به ﷺ، حين نزوله في آخرِ الزمان.

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (١٥٩)

﴿وَ﴾: عطفًا على ما سبق ﴿إِنْ﴾: حرفٌ يفيد التأكيد ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية، من جزءٍ أو بعضِ ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: اليهود والنصارى ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ ﴿لَ﴾: حرفُ تخصيص ﴿يُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾: يؤمن أنّ عيسى ﷺ، سينزل أخر الزمان ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾: عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكِلَابِيِّ، قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: «إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، فَإِنَّهَا جِوَارُكُمْ مِنْ فِتْنَتِهِ»، قُلْنَا: وَمَا لَبْثُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا: يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؟ قَالَ: «لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ، ثُمَّ يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ

لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ»[1] ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾: المقصود أنّ عيسى عليه السلام، سيكون شاهدًا على جرائم اليهود والنصارى بالتكذيب له، ويشهد على النصارى بالغلو فيه؛ حينما قالوا هو ابن الله، ويشهد على المؤمنين له بحق، قبل رفعه إلى السماء، بمعنى أنّ كلّ كتابيّ يهودي أو نصراني لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمدٍ، عليهما الصلاة والسلام؛ لأنّ كلّ إنسانٍ عند احتضاره ينجلي له ما كان يجهل؛ فيؤمن به، وهو إيمانٌ لا ينفع صاحبه إذا شاهد مَلَكَ الموت، جاء في المعنى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ [النساء-١٧]، ومن الأحاديث الواردة في نزول عيسى عليه السلام، إلى الأرض من السماء في آخر الزمان: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فَيَتَوَجَّهُ قِبَلَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَتَلْقَاهُ الْمَسَالِحُ - مَسَالِحُ الدَّجَّالِ - فَيَقُولُونَ لَهُ: أَيْنَ تَعْمِدُ؟ فَيَقُولُ: أَعْمِدُ إِلَى هَذَا الَّذِي خَرَجَ، قَالَ: فَيَقُولُونَ لَهُ: أَوَ مَا تُؤْمِنُ بِرَبِّنَا؟ فَيَقُولُ: مَا بِرَبِّنَا خَفَاءٌ، فَيَقُولُونَ: اقْتُلُوهُ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلَيْسَ قَدْ نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا أَحَدًا دُونَهُ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ إِلَى الدَّجَّالِ، فَإِذَا رَآهُ الْمُؤْمِنُ، قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَذَا الدَّجَّالُ الَّذِي ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَيَأْمُرُ الدَّجَّالُ بِهِ فَيُشَبَّحُ، فَيَقُولُ: خُذُوهُ وَشُجُّوهُ، فَيُوسَعُ ظَهْرُهُ وَبَطْنُهُ ضَرْبًا، قَالَ: فَيَقُولُ: أَوَ مَا تُؤْمِنُ بِي؟ قَالَ: فَيَقُولُ: أَنْتَ الْمَسِيحُ الْكَذَّابُ، قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُؤْشَرُ بِالْمِئْشَارِ مِنْ مَفْرِقِهِ حَتَّى يُفَرَّقَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ، قَالَ: ثُمَّ يَمْشِي الدَّجَّالُ بَيْنَ الْقِطْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: قُمْ، فَيَسْتَوِي قَائِمًا، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُؤْمِنُ بِي؟ فَيَقُولُ: مَا ازْدَدْتُ فِيكَ إِلَّا بَصِيرَةً، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَفْعَلُ بَعْدِي بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، قَالَ: فَيَأْخُذُهُ الدَّجَّالُ لِيَذْبَحَهُ، فَيُجْعَلَ مَا بَيْنَ رَقَبَتِهِ إِلَى تَرْقُوَتِهِ نُحَاسًا، فَلَا يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: فَيَأْخُذُ بِيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ فَيَقْذِفُ بِهِ، فَيَحْسِبُ النَّاسُ أَنَّمَا قَذَفَهُ إِلَى النَّارِ، وَإِنَّمَا أُلْقِيَ فِي الْجَنَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا أَعْظَمُ النَّاسِ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ»[2].

﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (١٦٠)

﴿فَ﴾: حرفٌ عطف بهدف ترتيب الأمر ﴿بِ﴾: حرف باء السببية ﴿ظُلْمٍ﴾: ارتكاب الذنوب العظيمة لا عدل فيها ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿هَادُوا﴾: اليهود ﴿حَرَّمْنَا﴾: منعنا شرعًا ﴿عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ﴾: ما تقبلهُ النفسُ وتستمتعُ به الحواس، ولقد حرّم الله تعالى على اليهود، أولًا: تحريمًا قدريًا: بسبب تأولهم في كتابهم وبسبب ما حرّفوا وبدلوا أمورًا كانت

---

[1] صحيح مسلم ٤/٢٢٥٠(٢٩٣٧) بنحو لفظه.

[2] صحيح مسلم ٤/ ٢٢٥٦(٢٩٣٨).

حلالًا لهم؛ فحرّموها على أنفسهم، تشديدًا وتضييقًا وتنطعًا جاء في السياق: ﴿**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ**﴾ [آل عمران-٩٣] ﴿**أُحِلَّتْ**﴾: كانت حلالًا ﴿**لَهُمْ**﴾: تخصيصًا، ثانيًا: تحريمًا شرعيًا: أنّ الله ﷻ حرّم عليهم في التوراة أمورًا، كانت تؤكل حلالًا؛ فحرّم عليهم كلّ ذي ظُفر، وحرّم عليهم شحوم البقر والغنم، إلّا ما حملت ظهورها ﴿**وَبِصَدِّهِمْ**﴾: أيضًا منعهم ودفعهم ﴿**عَنْ**﴾: حرفُ جرّ يُفيد التجاوز ﴿**سَبِيلِ اللَّهِ**﴾: وأصبح الصدُّ عن السبيل في طباعهم ﴿**كَثِيرًا**﴾: بعد أنْ اعتمدوه زمنًا طويلًا.

﴿**وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ **(١٦١)**

﴿**وَ**﴾: حرف يجمع بين شيئين متعاطفين هنا، الأول تحريم الحلال من الطعام، والثاني ﴿**أَخْذِهِمُ**﴾: التعامل فيما بينهم وبين النّاس بأكل ﴿**الرِّبَا**﴾: وهو أخذ فوائد باهظه على الدين ﴿**وَقَدْ**﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿**نُهُوا عَنْهُ**﴾: نهى الله ﷻ اليهود عن الربا فأخذوه، واحتالوا بكثيرٍ من الحيل والشبهات ﴿**وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِ**﴾: حرفُ باء السببية ﴿**الْبَاطِلِ**﴾: بكثيرٍ من الحيل؛ لأخذ الرشاوى، التي شهدت أوروبا كلّ صنوفها، من استيلائهم على خزائن الدول المالية، والتحكم في الأسعار، واشتغالهم كأقنانِ ملوكٍ تجمع الضرائب، وكلُّها أكلُ أموال النّاس حرامًا ﴿**وَأَعْتَدْنَا**﴾: عطفاً على ما سبق أعدّ اللهُ ﷻ ﴿**لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ**﴾: الذين غطّوا وأنكروا دين الله ﷻ ﴿**عَذَابًا**﴾: عذابًا موجعًا؛ بسبب كفرهم، ولمخالفتهم الله ﷻ في أخذ المال، ومخالفته ﷻ في أكل الربا وأموال النّاس بالحرام ﴿**أَلِيمًا**﴾ شديد الوجع والإيلام.

﴿**لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ **(١٦٢)**

﴿**لَٰكِنِ**﴾: حرفُ عطفٍ واستدراكٍ ﴿**الرَّاسِخُونَ**﴾: الثابتون في الدين، الذين تمكن الإيمانُ في قلوب اليهود المؤمنون ﴿**فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ**﴾: في شريعتهم، وعلوم دينهم، والعلوم النافعة ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾: المعنى أنّ هؤلاء من الراسخين في العلم، ممن آمن من أهل الكتاب، وممن آمن من المهاجرين والأنصار، وممن آمن بالجميع، وقيل إنّها نزلت في عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسد بن سعية، وأسد بن عبيد الذين دخلوا الإسلام، وصدّقوا بما أرسل الله على محمد ﷺ ﴿**وَيُؤْمِنُونَ**﴾: أيضًا يُصدّقون بكلّ جوارحهم ﴿**بِمَا**﴾: اسمٌ موصولٌ بمعنى الذي

﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾: وهو القرآن الكريم ﴿وَمَا﴾: الذي ﴿أُنْزِلَ مِنْ﴾: حرفٌ يُفيد بداية الغاية الزمانيّة؛ وهي نزول الكتاب ﴿قَبْلِكَ والْمُقِيمِينَ﴾: المحافظين على ﴿الصَّلَاةَ﴾: على أدائها على الوجه الصحيح، وهنا ملاحظة: جاء لفظ المقيمين في كلّ مصاحف الصحابة، قيل إنّها منصوبةٌ بالعطف بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، وقيل إنّها منصوبة على المدح مثلما جاء: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ [البقرة–١٧٧]، وتُقرأ: المقيمون الصلاة، وهذا ما جاء في لغة العرب ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: الدافعون من أموالهم زكاة المال، وقد يُقصد بها زكاة النفوس، ويُحتمل الأمران، والله أعلم ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ﴾: المصدّقون بيوم القيامة؛ بوعيٍ؛ طمعًا في الجنّة، الذين يؤمنون بالبعث بعد الموت، ويؤمنون بالحساب الثواب والعقاب ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارةً للقريب والبعيد هؤلاء هم المؤمنون ﴿سَ﴾: حرفُ تأكيد الفعل في المستقبل ﴿نُؤْتِيهِمْ﴾: نُعطيهم ونمنحُهم ﴿أَجْرًا﴾: ثوابًا ﴿عَظِيمًا﴾: سيهب اللهُ ﷻ لهم الجنّة؛ وجاء النص بالجمع سنؤتيهم ليُدلّل ﷻ على عظم الأجر، وكرم الله ﷻ.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ (١٦٣)

﴿إِنَّا﴾: ضميرٌ للجمع الحاضر المتكلم، المقصود هنا هو الله ﷻ، وجاءت بصيغة الجمع؛ لتعظيم الفعل ﴿أَوْحَيْنَا﴾: أرسلنا وحيًا ﴿إِلَيْكَ﴾: إلى محمد ﷺ ﴿كَمَا﴾: مثلما ﴿أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾: جاء ذكر نوحٍ ﷺ تخصيصًا؛ لأنّه أوّل الأنبياء، شُرّعت الشرائع على لسانه ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال، كما أوحينا إلى ﴿النَّبِيِّينَ مِنْ﴾: حرفٌ يفيد بداية الغاية الزمانيّة؛ وهي في النزول ﴿بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾: أبي الأنبياء ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾: أبي العرب ﴿وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾: القبائل من ذرية يعقوب ﷺ، وحفدته من الأنبياء ﴿وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآَتَيْنَا دَاوُودَ﴾: أبا سليمان، عليهما السلام ﴿زَبُورًا﴾: جاء اللفظ "**الزُبر**" في القرآن الكريم على خمسةِ أوجهٍ، هنا بمعنى الكتاب الذي نزل على داود ﷺ، ثم جاء تفصيل قصص هؤلاء الأنبياء في سورة الأنبياء، وجاءت هذه الآية بشهادةٍ من الله ﷻ أنّ محمدًا ﷺ نبيٌّ، يُوحِي إليه ربُّهُ ﷻ ككلِّ الأنبياء.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١٦٤)

﴿وَرُسُلًا قَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد والتحقيق ﴿قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ﴾: ذكرنا لك قصصهم ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتُفيد هنا بداية الغاية الزمانيّة ﴿قَبْلُ﴾: أي من قبل هذه الآية، في مكّة المكرّمة، وأسماؤهم آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، ويونس، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وذو الكفل، وسيدهم وخاتمهم محمد ﷺ ﴿وَرُسُلًا لَمْ﴾: حرف نفي ﴿نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾: لم نأت على سيرتهم ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾: جاء لفظ الكلام في القرآن الكريم على خمسةِ، أوجهٍ، هنا بمعنى الكلام حقيقةً لا مجازًا، وكذلك في قوله ﷻ ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة–٧٥]، وجاء بمعنى علمُ اللهِ وعجائبهِ في قوله ﷻ ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف–١٠٩]، وفي قوله ﷻ ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان–٢٧]، وقد أنكر بعضُ المعتزلة أنْ يكون اللهُ ﷻ كلّم موسى ﵇، واحتج المسلمون بالآية: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف–١٤٣]. وقد سُميّ موسى كليم الله.

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٦٥)

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ﴾: يُبشرون أهل الطاعات بالخير، الذي يُدخل السرور على من أطاع الله ﷻ، واتبع رضوانه ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾: ومخوّفين الذين خالفوا أمره ﷻ، وكذّبوا رسله؛ بالعقاب والعذاب ﴿لِئَلَّا﴾: لكي لا ﴿يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾: عموم بني آدم ﴿عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾: حتى لا يبقى لأيّ إنسانٍ أيّ عذرٍ يعتذرون به ﴿بَعْدَ الرُّسُلِ﴾: بعد إرسال الرسل، عليهم السلام ﴿وَ﴾: عطفًا على ذلك ﴿كَانَ﴾: أبدًا بلا انقطاع ﴿اللَّهُ عَزِيزًا﴾: منيعًا ﴿حَكِيمًا﴾: لا يحتاج إلى أنْ يُعذّب أحدًا قبل أنْ يُقيم عليه الحُجّة، فهو عزيزٌ حكيمٌ، ليس في حاجةٍ لمخلوقاته، ولا يُعذّبهم دونَ إنذار، وهو ﷻ يُدخل الجنّة من أطاع.

﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١٦٦)

سبق أنْ قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا﴾ [النساء-١٦٣] وذكر الأنبياء ﴿لَكِنِ﴾: حرفٌ يُفيد الاستدراك ﴿اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا﴾: الذي ﴿أَنْزَلَ﴾: بالذي نزل من الوحي ليكون القرآن، وهو كتاب الله الخاتم ﴿إِلَيْكَ﴾: هذه شهادة الحقِ من الحقِّ، أنْ ما أُنزل عليك يا محمد ﷺ من القرآن هو من الله ﷻ؛ وسط تكذيب البشر من الكفّار ﴿أَنْزَلَهُ بِ﴾: حرف باء الصلة والتوكيد ﴿عِلْمِهِ﴾: بالمعجزات الدالّةِ على صحةِ النبوةِ، فيه علمُ الله ﷻ الذي أراد أنْ يُطلع عليه عباده، بتبيان البيّنات، والهدى، والفرقان، وما يُحبّه الله ﷻ، وما يحرّمه، وفيه علم الغيب، والمستقبل، وصفات الله ﷻ ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال أيضًا ﴿الْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾: على صدق ما جاء على محمدٍ ﷺ من الوحي ﴿وَكَفَى﴾: يكفي لا حاجة لغيره ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ شَهِيدًا﴾. إنّ شهادة الله ﷻ لك كافية، ومعجزات التي أعطاك دلالات بيّنات. عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا فُلاَنُ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ فِي لَيْلَتِكَ مُتَّ عَلَى الفِطْرَةِ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ أَجْرًا[١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١٦٧)

﴿إِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿كَفَرُوا﴾: من الرجال والنساء الذين غطّوا حقيقة الرسول محمد ﷺ ولم يتّبعوه، وهم يعلمون أنّه الحقّ من ربّهم ﴿وَ﴾: حرف عطفٍ يفيد الاستئناف ﴿صَدُّوا﴾: منعوا النّاس عن اتباعه، والاقتداء به ﴿عَنْ﴾: حرف جرّ يُفيد المجاوزة ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾: عن منهج وطريق الإيمان به ﴿قَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد ﴿ضَلُّوا﴾: خرجوا عن الحق، وتاهوا، وابتعدوا ﴿ضَلَالًا﴾: تيهًا، وضياعًا ﴿بَعِيدًا﴾: ابتعدوا عن الحق ابتعادًا كبيرًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ (١٦٨)

﴿إِنَّ﴾: حرفٌ للتأكيد ونفي الشك والإنكار ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَن ﴿كَفَرُوا﴾: رجالًا نساءً، جحدوا وأخفوا حقيقة الإيمان ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿ظَلَمُوا﴾: هؤلاء الكافرون ظلموا أنفسهم بكفرهم؛ وبصدّهم عن سبيل الله ﷻ، وظلموا محمدًا ﷺ بكتمان نبوته، وظلموا غيرهم بكتمان النبوة عنهم ﴿لَمْ﴾: حرف ينفي ﴿يَكُنِ اللَّهُ لِ﴾: حرف علّة وسبب ﴿يَغْفِرَ لَهُمْ﴾: لن يرحمهم،

---

[١] صحيح البخاري ٩/ ١٤٢(٧٤٨٨).

ولنْ يسامحهم الله ﷻ إذا استمروا على كفرهم وماتوا وهم كافرين ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾: سوف يتيهون ولنْ يرشدهم إلى طريق الخير والفوز.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (١٦٩)

﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ عمّا سبق، فقد سبق أنّهﷻ قال: لنْ يهديهم إلّا إلى ﴿طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾: سوف يقودهم عملُهم إلى جهنّم؛ لكونهم اقترفوا ما يُوجب لهم ذلك، بسوء اختيارهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾: الأبد عبارةً عن مدّةِ الزمانِ الممتدِ الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان؛ أي ماكثين فيها خلودًا مستمرًا، لا انقطاع فيه ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال، عطفًا على ما سبق ﴿كَانَ ذَلِكَ﴾: كلّ ما سبق من الأمور التي أخبر بها اللهُ ﷻ ضلالهم وعذابهم ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾: لا يصعب على الله ﷻ، فسوف يخلدون في جهنّم، ويصلون إليها بيسرٍ وسهولةٍ.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٧٠)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: كلمةُ نداءٍ لتنبيه السامع المؤمن منهم والكافر، لما سيأتي؛ وبيان الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿قَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد ﴿جَاءَكُمُ الرَّسُولُ﴾: تقريرٌ أنّ بعثة محمد ﷺ جاءت ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة والتوكيد ﴿الْحَقِّ﴾: دين الهدى، والبيان الشافي ﴿مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ لبيان بداية الغاية التي لا يحدّها زمانٌ أو مكانٌ ﴿رَبِّكُمْ﴾: من الله ﷻ مالكُ أمرِ البشر، والخلق أجمعين، وليس من عند محمد؛ ﷺ لأنّه رسول ﴿فَ﴾: حرفٌ يُفيد رابط لجواب الشرط وهو ﴿آمِنُوا﴾: أمر من الله ﷻ للنّاس جميعًا، وأمره واجب، ومخالفته عاقبتها وخيمة، وإنْ تؤمنوا ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾: يأتكم الخير في الدنيا، وتفوزون بالجنّة في الآخرة ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَكْفُرُوا﴾: تُغطوا هذه الحقيقة، وتنكروها ﴿فَإِنَّ﴾: حرف تأكيد ﴿لِلَّهِ مَا﴾: كلّ المخلوقات من غير جنس العاقل ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾: هي كلُّ ما علا الأرض وأحاط بها؛ لكونها بيضاويّة الشكل ﴿وَ﴾: أيضًا الذي في ﴿الْأَرْضِ﴾: إنّ الله ﷻ غنيّ عنكم، وعن إيمانكم؛ فلهُ ما في هذا الكون الواسع، كلّ السموات والأرض، وما بينهما، فهو قادرٌ على مجازاتكم على قبيح أفعالكم، لا يضرهُ شيء ﴿وَكَانَ﴾: وباقٍ بلا انقطاع ﴿اللَّهُ عَلِيمًا﴾: إنّ الله ﷻ يعلم من يستحق الهداية منكم؛ ويسهلها له؛ فيهديه، ومن يستحق الغواية فيغويه ﴿حَكِيمًا﴾: في أقواله، وأفعاله، وشرعه، وقدره.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (١٧١)

﴿يَا﴾: حرف نداء للقريب والبعيد ﴿أَهْلَ﴾: أصحابَ ﴿الْكِتَابِ﴾: المقصود هنا النصارى الذين نزل فيهم الإنجيل ﴿لَا﴾: حرفُ نهيٍ وتحريمٍ ﴿تَغْلُوا﴾: تبالغوا فتضيقوا ﴿فِي دِينِكُمْ﴾: لا تبالغوا في إطراء عيسى عليه السلام؛ وترفعوه إلى منزلة الرّب، ولا تتخذوه إلهًا من دون الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَا﴾: أيضاً نهي وتحريم أنْ ﴿تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ منقطعٍ، قولوا فقط ﴿الْحَقَّ﴾: لا تجعلوا لله سبحانه وتعالى ولدًا، ولا صاحبة، ولا تبالغوا في وصف عيسى بأنّه إله أو تقولوا ابن الله ﴿إِنَّمَا﴾: حرف يفيد التحديد والتخصيص ﴿الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾: ينسبه الله سبحانه وتعالى لأمّه لأنّهُ ليس له أب، إنّه ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾: أي مثله كمثل رسل الله وأنبيائه، بشرٌ، عبدٌ من عباد الله سبحانه وتعالى، وخلقٌ من خلقه ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾: إن قدرة الله سبحانه وتعالى بالغة، فيكفي إنْ أراد الشيء أنْ يكون فيكن، بلا مسببات، فإنّه لا يعجزه شيءٌ، ولكن جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَعَنْ مُرَّةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَا: خَرَجَتْ مَرْيَمُ إِلَى جَانِبِ الْمِحْرَابِ بِحَيْضٍ أَصَابَهَا فَلَمَّا طَهُرَتْ إِذْ هِيَ بِرَجُلٍ مَعَهَا وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم–١٧]، وَهُوَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَفَزِعَتْ مِنْهُ فَقَالَتْ: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [مريم–١٨] ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم–١٩] الْآيَةُ، فَخَرَجَتْ وَعَلَيْهَا جِلْبَابُهَا فَأَخَذَ بِكُمِّهَا فَنَفَخَ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا وَكَانَ مَشْقُوقًا مِنْ قُدَّامِهَا فَدَخَلَتِ النَّفْخَةُ صَدْرَهَا فَحَمَلَتْ[1]، ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾: جاءت كلمةُ "روحٍ" في القرآن الكريم على خمسةِ أوجهٍ، هنا بمعنى روحٍ من الله سبحانه وتعالى بغير بشر، وكذلك في سورة [السجدة–٩] ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران–٥٩]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم–١٢]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف–٥٩]، خلق الله سبحانه وتعالى آدم من دون أب وأمٍّ، وخلق عيسى عليه السلام من غير أبٍ، وخلق حوّاء من غير أمٍّ، وإنّ الكلمة لم تُصبح عيسى عليه السلام، ولكنْ بالكلمةِ صار عيسى، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ [آل عمران–٤٥] ﴿فَـ﴾: حرف ربط لجواب الشرط ﴿آمِنُوا بِـ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ وَ﴾: أيضًا آمنوا بـ ﴿رُسُلِهِ﴾: صدقوا بأنّ الله سبحانه وتعالى واحدٌ، لا ولد له، ولا صاحبة، وأنّ عيسى عبد الله ورسوله

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم ٢/ ٦٤٨(٤١٥٦) «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ ووافقه الذهبي.

﴿وَلَا﴾: حرف نهي وتحريم ﴿تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾: لا تجعلوا عيسى وأمّهُ شريكين مع الله ﷻ علوًّا كبيرًا ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة–٧٢].

التكليف: كانت طُرق كفّار النصارى منهم من يعتقد أنّ عيسى إلهًا، ومنهم من يعتقد أنّه شريكٌ لله ﷻ، ومنهم من يعتقد أنّه ولد الله، ولو اجتمع عشرة من النصارى؛ لافترقوا على أحد عشر قولًا ﴿انْتَهُوا﴾: أقلعوا عن هذا الكفر ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾: يكون خيرًا لكم ﴿إِنَّمَا﴾: حرفُ توكيدِ القولِ وتأكيدِ الفعل ﴿اللَّهُ إِلَهٌ﴾: معبودٌ ﴿وَاحِدٌ﴾: هذا هو المطلوب للمسيحيين، والمسلمين، واليهود، وكل الخلق ﴿سُبْحَانَهُ﴾: تنزه عن الشريك وعن الزوجة، وعن الولد ﴿أَنْ يَكُونَ لَه﴾: تحديدًا ﴿وَلَدٌ﴾: ﷻ الله أنْ يكون له ولد، وليس له زوجة وليس كمثله شيءٌ، وتقدس علوًا كبيرًا ﴿لَهُ﴾: إنّ ملكه ﴿مَا﴾: كلّ الذي ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾: هي كلّ ما علا الأرض وأحاط بها؛ لكونها كرويّة الشكل ﴿وَ﴾: أيضًا من ملكه ﷻ ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾: الجميع في مُلكه، وتحت تدبيره، وتصريفه، وهو وكيلٌ على كلِّ شيءٍ، فكيف يكون له من خلقه ولدٌ أو صاحبة، جاء في المعنى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ [الأنعام–١٠١]، وجاء أيضًا: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم–٨٨، ٨٩] ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿كَفَى﴾: يكفي ولا حاجة للمزيد ﴿بِ﴾: حرف باء الصلة ﴿اللَّهِ وَكِيلًا﴾: متوكلًا ومتكفلًا.

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (١٧٢)

﴿لَنْ﴾: حرف نفي ﴿يَسْتَنْكِفَ﴾: لنْ يأنف عن عبوديته لله ﷻ، ولا يستكبر، لنْ يمتنع، ﴿الْمَسِيحُ﴾: عيسى ابن مريم ﵇ ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا﴾: وأيضًا لا يستنكف ﴿الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾: وهؤلاء من خلق الله ﷻ؛ الذين قرّبهم إليه، ورفع منزلتهم، لا يستكبرون أنْ يكونوا عبادًا لله ﷻ ﴿وَ﴾: أيضًا ﴿مَنْ﴾: والذي من جنس العاقل ﴿يَسْتَنْكِفْ﴾: من يأنف ﴿عَنْ﴾: حرفُ جرٍّ يفيد المجاوزة ﴿عِبَادَتِهِ﴾: عن طاعته ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾: يترفع وي ﷻ ﴿فَ﴾: حرف لربط جواب الشرط ﴿سَ﴾: حرفٌ يُفيد تأكيد الفعل في المستقبل ﴿يَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾: سيجمعهم ﷻ جميعًا، متلاصقين في ضيقٍ، ويفصل بينهم بالعدل.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٧٣)

﴿فَأَمَّا﴾: حرفُ تفضيلٍ وتوكيدٍ بمعنى أي ﴿الَّذِينَ﴾: اسمُ موصولٌ يفيد هنا جميع مَنْ ﴿آمَنُوا﴾: صدّقوا باطمئنان نفوسهم، إنّ الإيمان وحدهُ لا يكفي، فلا بد من اقترانه بأنْ ﴿وَ﴾: عطفًا على

هذا ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: وصدّقت جوارحهم إيمانهم القلبي؛ فعملت الصالحات وفق منهج الله ﷻ ﴿فَـ﴾: حرفٌ لربط جواب الشرط ﴿يُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾: الثوابَ على أعمالهم الصالحة كاملًا غير منقوصٍ ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾: أيضًا يزيد من الأجر أكثر من أجرِ ما عملوا ﴿مِنْ﴾: حرف جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا من جزءٍ أو بعضِ ﴿فَضْلِهِ﴾: كرمهِ، وإحسانهِ، ورحمتهِ، ويتحقق ذلك بدخول الجنّة ﴿وَأَمَّا﴾: حرفٌ يُفيد التفضيل والتوكيد ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد هنا جميع مَنْ ﴿اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾: الذين امتنعوا عن طاعة الله ﷻ وعبادته، واستكبروا ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: شديدًا ﴿وَلَا﴾: حرف نفي ﴿يَجِدُونَ لَهُمْ﴾: تخصيصًا ﴿مِنْ﴾: حرفُ جرٍّ لبيان وتمييز النوع، وتفيد هنا بداية الغاية، هم ﴿دُونِ اللَّهِ﴾: غير الله ﷻ ﴿وَلِيًّا﴾: ناصرًا ومحبًا ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾: لن يجدوا من يقف معهم ويدفع عنهم الضُرَّ، أو يُحبّهم، أو يشفع لهم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (١٧٤)

﴿يَا أَيُّهَا﴾: كلمةُ نداءٍ لتنبيه السامع لما سيأتي؛ وبيانِ الشعور بالفارق في المقام والمكانة بين المُنادِي وهو الله ﷻ، والمُنَادَى عليهم، وهي تصلح لجميع المستويات البعيد والقريب ﴿النَّاسُ﴾: لفظ النّاس خطابٌ عامٌ لبني آدم كافّة، يشمل المؤمن، والكافر، والمنافق، وعندما يخصّ الخطاب المؤمنين يقول لهم ﷻ يا أيها الذين آمنوا ﴿قَدْ﴾: حرفٌ دخل هنا على الفعل الماضي فأفاد التأكيد ﴿جَاءَكُمْ﴾: وصلكم ﴿بُرْهَانٌ﴾: دليلٌ ساطعٌ، وبرهانٌ عظيمٌ، وحجّةٌ بيّنةٌ، لا عذر بعده، فقد أزال الشبهات، وهذا البرهان هو محمد ﷺ ﴿مِن﴾: حرف يفيد بداية الغاية ﴿رَبِّكُمْ﴾: والربُّ هنا هو الله ﷻ؛ المنشئ لهذا الكون البديع من حالٍ إلى حالٍ، وهو المربي إلى حدِّ التمام، فهو مالك أمركم كلّه، ليس من عند محمد ﷺ ولا من عند بشر، ولكن من خالقكم، مالك كلّ شيءٍ وأنتم من ملكه ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿أَنْزَلْنَا﴾: تفيد الوحي من السماء؛ فالنزول تعني من العلو إلى الأسفل ﴿إِلَيْكُمْ نُورًا﴾: برهانًا واضحًا، وهو القرآن الكريم، لا لبس فيه، كالنور يضيء كلّ ركنٍ؛ لأنّه يوضح كل مسألة ﴿مُبِينًا﴾: واضحًا جدًا.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (١٧٥)

﴿فَأَمَّا﴾: حرفُ تفضيلٍ وتوكيدٍ بمعنى أي أنّ ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يُفيد هنا جميع الرجال والنساء مَنْ ﴿آمَنُوا بِـ﴾: حرف باء الالتصاق ﴿اللَّهِ﴾: هم الذين جمعوا بين مقام العبادة بوعيٍ، وإدراكٍ، ورجاءٍ، ومقامِ التوكل على الله ﷻ في كلّ أمورهم ﴿وَ﴾: حرفُ عطفٍ يفيد هنا الحال ﴿اعْتَصَمُوا بِهِ﴾: تمسكوا وتحصّنوا بالقرآن ﴿فَـ﴾: حرفٌ رابط لجواب الشرط ﴿سَـ﴾: حرف

تأكيد الفعل في المستقبل ﴿يُدْخِلُهُمْ﴾: يشملهم ﴿فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ﴾: سيدخلهم بالتأكيد الربّاني الجنّة، برحمةٍ منه، وفضلٍ، وتكرمٍ، وزيادةٍ، وقد جاءت كلمةُ رحمة نكرة؛ لتفيد العموم، تعني كلّ أشكال الرحمة، و الجنّة هي المقصود هنا، ما فيها من عموم النعيم ﴿وَفَضْلٍ﴾: أي مضاعفة الثواب، ورفعةً في درجات الرحمة والإحسان ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ﴾: أيضًا يُسَهل لهم كيفية الوصول إلى الطريق المستقيم، بلا عوجٍ، ولا ضلالٍ ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾: المعروف أنّ الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين، إنّ طريق الاستقامة هو طريق السلامة في الاعتقاد، والتكليفات؛ المُفضي إلى روضات الجنان، والصراط المستقيم.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٧٦)

أسباب النزول: تأتي هذه الآية لمعرفة كيفية تقسيم الإرث، عن جابر بن عبد الله قال: جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعُودُنِي، وَأَنَا مَرِيضٌ لاَ أَعْقِلُ، فَتَوَضَّأَ وَصَبَّ عَلَيَّ مِنْ وَضُوئِهِ، فَعَقَلْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَنِ المِيرَاثُ؟ إِنَّمَا يَرِثُنِي كَلاَلَةٌ، فَنَزَلَتْ آيَةُ الفَرَائِضِ[1]، ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾: يطلبون فتياك "الفتوى منك" بمعنى يسألونك ويستفسرون منْك ويطلبون أنْ تفتيهم في أمر دينهم ودنياهم ﴿قُلِ﴾: أمرٌ من ﴿اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾: يُخبركم بما يجب ﴿فِي الْكَلَالَةِ﴾: أنْ يموت الرجل، وليس له وارثٌ من أصوله، كالوالد والأم، ولا من فروعهِ كالولد، أو البنت، فكيف يكون ميراث الكلالة؟ الذي ليس له وارثٌ من أصولهِ ولا من فروعهِ، أي ليس له من يرثه، لا ولد ذكر، ولا أنثى، وهي كلمةٌ مشتقةٌ من الإكليلِ الذي يحيطُ بالرأس من جوانبه، وفي هذه الحالةِ ﴿إِنِ﴾: حرف شرط ﴿امْرُؤٌ﴾: شخصٌ من بني آدم ﴿هَلَكَ﴾: رجلٌ مات، وقد وردت في معانٍ مثل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص–٨٨] ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقص يُفيد النفي ﴿لَهُ﴾: تمليكًا ﴿وَلَدٌ﴾: لم يُنجب الرجلُ الابنَ الولدَ وهذا يكفي في وجودِ الكلالة، هذا كلام عمر بن الخطاب، ولكن قول أبي بكر الصديق، وقول الجمهور: هو الذي ليس له والد ولا ولد، واستدلوا على ذلك: ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾: والأختُ هي المشاركُ لآخرَ من الأب والأمّ، أو لأبٍ، لا لأمٍّ؛ لأنّ الأخت لأمٍّ ترث من جهة أمّها فقط، وليس لها علاقة بزوج أُمّها من حيث الميراث ﴿فَ﴾: حرفٌ ربط جواب الشرط ﴿لَهَا نِصْفُ مَا﴾: الذي ﴿تَرَكَ﴾: لأنّه لو كان معها أب؛ لم ترث شيئًا؛ لأنّ الأب يحجب عنها الميراث، بإجماع المشرّعين إنْ كان والدُهُ حيًّا فليس لها شيء، وإنْ كان لهُ أختٌ

---

[1] صحيح البخاري /١/٥٠(١٩٤).

لأبيه، أو شقيقة، فالجمهور يقول النصف للبنت بالفرض القرآني، وللأخت النصف بالتعصيب عصبية القرابة، وهذا ما قضى فيه معاذ بن جبل على عهد الرسول ﷺ ﴿وَ﴾: عطفًا على هذا ﴿هُوَ﴾: الرجل ﴿يَرِثُهَا إِنْ﴾: حرف شرط ﴿لَمْ﴾: حرفُ جزمٍ ينفي الفعل المضارع ﴿يَكُنْ لَهَا﴾: تخصيصًا ﴿وَلَد﴾: إنْ كان لها والدٌ فلا يرثها الأخ، والأخ يرثُ كلَّ شيءٍ إنْ لم يكن لها ولد ﴿فَإِنْ﴾: حرف تأكيد الفعل ﴿كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا﴾: من ماله وثروته التي ﴿تَرَكَ﴾: إذا كان الميت كلالة، وله أختان، فلهما الثلثان ﴿وَإِنْ﴾: حرف شرط ﴿كَانُوا إِخْوَةً﴾: والأخت والأخوة هم المشارك لآخر من الأب والأم أو أحدهم من الأب أو الأم ﴿رِجَالًا وَنِسَاءً فَـ﴾: حرف يفيد السبب ﴿لِ﴾: حرف تخصيص ﴿الذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ﴾: مساو نصيب ﴿الْأُنْثَيَيْنِ﴾: الحكم هنا على العصبية؛ أي القرابات من البنين والبنات، ومن الإخوة والأخوات، إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم يُعطى الذكرُ ضعف نصيب الأنثى ﴿يُبَيِّنُ﴾: يُوضّحُ ﴿اللَّهُ لَكُمْ﴾: تخصيصًا ﴿أَنْ﴾: حرفُ تأكيد الفعل ﴿تَضِلُّوا﴾: جاء لفظ الضلال هنا بمعنى الخطأ أي حتى لا تزيغوا عن الحق، هذا بيان حقوق الوارثين ﴿وَاللَّهُ بِ﴾: حرف باء التوكيد ﴿كُلِّ﴾: تفيد العموم ﴿شَيْءٍ﴾: جاءت بصيغة النكرة لتؤكد العموم ﴿عَلِيمٌ﴾: مُحيطٌ بالعلم كلّه؛ عواقب الأمور، ومصالحها، وما فيها من الخير لعباده، وما يستحقه.

التكليف: نُدرك من هذه السورةِ الكريمةِ كيف حفظ الإسلامُ حقّ المجتمع المسلم، بكلّ مكوناته المجتمعية، في المالِ بالذات؛ لذا وجب أنْ يسأل المسلمُ أهل الفتوى في الميراث؛ لأنّ فيها وجُوهًا كثيرة، كلُّ واحدٍ من الأقارب بحسب درجة قربهِ من الميت. أين القوانين الوضعية من هذا التشريع الربّانيّ، الذي يحفظ للأنثى، وللذكر، وللأب، وللأم، والأقارب حقوقهم من الذي خلقهم ﷻ، وتكفل برزقهم جميعًا؟ فسبحان الله والحمد لله، والفضل والمنّة منه جلّ في علاه، تبارك الله خير الخالقين.

التكليف: لا شكّ أنّ خواتيم سورة النساء، وأوائل سورة المائدة؛ تُنظمُ العلاقة بين أفرادِ المجتمع، حيث كانت سورةُ النساء تهتم بتقسيم الأموال، وسنرى إنْ شاء اللهُ ﷻ أنّ أوّل سورة المائدة يبين لنا كيف نصرّف الأموال.